

رَفَعُ  
عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس  
www.moswarat.com

فن الرثاء في

# الشعر العربي في العصر المملوكي

الدكتور رائد مصطفى حسن عبد الرحيم

عن بعض من  
وزارة الثقافة  
سنة - الأمانة

دار الرازي

www.moswarat.com  
www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس  
[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)

فن الرثاء في  
الشعر العربي  
في العصر المملوكي الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# فن الرثاء في الشعر العربي في العصر المملوكي الأول

الدكتور رائد مصطفى حسن عبد الرحيم

( الآراء الواردة في الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي الجهة الداعمة )



دار البرازيل



رقم الإجازة لدى دائرة المطبوعات والنشر:

( ٢٠٠٣/٤/٦٧ )

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية:

( ٢٠٠٣/٤/٦١٦ )

المؤلف ومن هو في حكمه :

الدكتور رائد مصطفى حسن عبدالرحيم

عنوان الكتاب :

فن الرثاء في الشعر العربي في العصر

المملوكي الأول

عدد الصفحات: ( ٤٤٥ ) صفحة

قياس القطع : ٢٤X١٧

تمت المراجعة والتصحيح والإخراج في

دار الرازي للطباعة والنشر والتوزيع .

تصميم الغلاف : محمود مبروك

تطلب منشوراتنا على العنوان التالي :

دار الرازي

ص.ب ٩٢٧٦٠١ عمان ١١١٩٠ الأردن

تلفاكس : ٤٦٤٦١٠٦

E-mail:al-razi@iname.com

دار الرازي

للطباعة والنشر والتوزيع

عمان - الأردن

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

1424 هـ - 2003 م

# الإهداء

إلى مَنْ زَرَعَتْ الْوَرْدَ  
في طريقي وَسَقَتْهُ  
بِحَبَّاتِ الْجَبِينِ  
وعاشت تنتظر يوم  
الفرح حتّى أتاها

أمّي الحنون





الموضوع	الصفحة
مقدمة	أ
<b>الفصل الأول: رثاء النفس والأهل والأقارب</b>	
رثاء النفس	١ - ٣٧
رثاء الأهل والأقارب	٢ - ٥
رثاء الأبناء	٥ - ٣٧
رثاء الآباء	٥ - ٢١
رثاء الإخوة	٢١ - ٢٣
رثاء الأخوال	٢٣ - ٣٣
<b>الفصل الثاني: رثاء أرباب الدول</b>	
كثرة المرثي ودواعي الرثاء	٣٨ - ١١٤
موضوعات متفرقة	٣٩ - ٥٢
تصوير الحدث	٥٢ - ٦٩
المناقب والصفات	٦٩ - ٧٩
الجمع بين التهنئة والتعزية	٧٩ - ١٠٢
الحكمة في قصيدة الرثاء	١٠٢ - ١٠٩
هجاء الموتى من أرباب الدول	١٠٩ - ١١٤
<b>الفصل الثالث: رثاء العلماء والأدباء</b>	
كثرة المرثي ودواعي الرثاء	١١٦ - ١٦٦
المناقب والصفات	١١٧ - ١٢٣
	١٢٣ - ١٤١

١٥١ - ١٤١	تصوير الحدث
١٦٠ - ١٥١	موضوعات متفرقة
١٦٦ - ١٦٠	التعزية
١٩٦ - ١٦٧	الفصل الرابع: رثاء المرأة
٢٥٣ - ١٩٧	الفصل الخامس: رثاء المدن
٢٣٦ - ١٩٨	رثاء المدن التي احتلها المغول
٢١٧ - ١٩٩	رثاء بغداد
٢٣٦ - ٢١٨	رثاء الشام
٢٥٣ - ٢٣٦	رثاء المدن التي احتلها الصليبيون: رثاء الإسكندرية
٣٠١ - ٢٥٤	الفصل السادس: موضوعات رثاء أخرى
٢٧٠ - ٢٥٥	رثاء الحيوان
٢٨٩ - ٢٧٠	رثاء الغلمان والمغنين
٢٩٤ - ٢٨٩	رثاء مظاهر حضارية
٣٠١ - ٢٩٤	رثاء اللهو والمجون
٤٠٠ - ٣٠٣	الفصل السابع: الدراسة الفنية
٣١٩ - ٣٠٤	بنية القصيدة
٣٥٨ - ٣٢٠	اللغة والأسلوب
٣٧٣ - ٣٥٨	الاتباعية
٣٨٧ - ٣٧٤	الصنعة البديعية
٤٠٠ - ٣٨٨	الصورة الشعرية
٤٠١	خاتمة
٤٣٠ - ٤٠٢	قائمة المصادر والمراجع

الرثاء من أكثر الموضوعات علاقة وارتباطاً بحياة الإنسان، لأن موضوعه الموت الذي لا يسلم منه كائن حي، وهو من نتائج الموت والهلاك، ولولا الموت لما وجدت قصائد الرثاء، وهي باقية بقاء الناس على وجه هذه البسيطة<sup>(١)</sup>، يقول المبرد: "قالمرائي وأسبابها باقية مع الناس أبداً إذ كانت الفجائع لا تتقضي إلا بانقضاء المصائب، ولا يفنى ذلك إلا بفناء الأرض ومن عليها"<sup>(٢)</sup>.

وقد عرف الشعراء في العصر المملوكي الأول الرثاء، ونظموا فيه قصائد ومقطوعات كثيرة أودعوها زبدة تجاربهم في الموت والحياة، فبكوا موتاهم، ورثوا، وعزّوا، وأبنوا، فكان لنا إرثٌ وافر في هذا الباب مبعوث في ثنايا كتب الأدب، والتاريخ، والدواوين الشعرية، وتراجم الرجال المطبوعة منها والمخطوطة.

وقد نظم بعض الشعراء دواوين شعرية خاصة في الرثاء، ومنهم صلاح الدين بن أبيك الصفدي الذي قال أثناء ترجمته لنجم الدين الصفدي: "ولمّا توفي - رحمه الله - كنت في حلب وحصل لي ألم عظيم زائد إلى الغاية، وكتبت إلى ولده الخطيب كمال الدين محمد، وإلى غيره من الأصحاب مرثي كثيرة نظماً ونثراً، ثم جمعت ذلك وسميته "ساجعات الغصن الرطيب"<sup>(٣)</sup>. ونعثر أثناء البحث على دواوين شعرية نظمت في رثاء سلطان كالظاهر بيبرس<sup>(٤)</sup>، أو عالم كمحيي الدين النووي<sup>(٥)</sup>، وأفرد بعض الشعراء أبواباً خاصة في دواوينهم لذلك الغرض الشعري، مثل: صفى الدين الحلبي، وشكل الرثاء عند بعضهم الآخر جزءاً كبيراً من دواوينهم أمثال جمال الدين بن نباتة، وبرهان الدين القيراطي.

ويتبين من البحث والتتقيب في مصادر ذلك العصر أن ألوان شعر الرثاء كثيرة ومتنوعة، فقد شملت رثاء أرباب الدول، ورثاء المدن المحتلة، ورثاء الأبناء، والآباء، والزوجات، والأخوة، والأقرباء، وزوجات الأصدقاء، والأمراء، ورثاء العلماء والأدباء، ورثاء الجوّاري والغلمان، ورثاء الحيوان، واللّهو والمجون، والمظاهر الحضارية، وقد

(١) انظر مظفر غانم، الرثاء شعر العصر العباسي الأول، ص ١.

(٢) المبرد، الشعاري والمرثي، ٢٦٢/١٢.

(٣) الصفدي، الواقي، ٢٦٢/١٢.

(٤) انظر ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ٢٤٤/٢-٢٦١.

(٥) انظر النووي، مختصر طبقات الفقهاء، ص ٣-٦٤.

عني البعض بدراسة الرثاء ضمن كتبهم التي تتناول أدب العصر المملوكي، أو حياة أدبائه، ولم تكن دراسة علمية موسعة مستقلة بدراسة هذا الغرض الشعري وحصر ألوانه، وتناول مضامينه المختلفة على الرغم من كثرتها وتنوعها، وغزارة الشعر الذي قيل في هذا الغرض، الأمر الذي دفعني إلى دراسته، وشجّعتني أيضاً أهمية هذا الموضوع وما يحمله من قيمة إنسانية وأخلاقية تقوم برسم المثل الأعلى الذي تتطلع إليه الجماعة في مراحل تطورها المختلفة.

ومن هنا جاءت هذه الدراسة تهدف إلى:

- تقديم صورة متكاملة لشعر الرثاء في العصر المملوكي الأول والكشف عن ألوانه المختلفة، وما طرأ عليها من تطور وتجديد.

- الحديث عن الموضوعات والمضامين المختلفة التي تناولها ذلك الغرض الشعري بألوانه المختلفة، إذ إنه من المعلوم أن ألوان شعر الرثاء متفاوتة في مضامينها، فشعر رثاء الأبناء والآباء غير رثاء الأقرباء الآخرين، ورثاء الأصدقاء ورفاق الدرب غير رثاء الملوك والسلاطين وسائر الأعيان، ورثاء المرأة غير رثاء الرجل، وهكذا، وبتفاوت هذه الألوان ومضامينها يتفاوت الصدق الشعوري والسموّ الفني.

- بيان نظرة أولئك الشعراء إلى الموت والحياة.

- الوقوف على السمات الفنية لذلك الغرض، وبيان ما فيها من تقليد، وما طرأ عليه من تطور وتجديد.

وقد تفاوتت الدراسات التي تناولت أدب العصر المملوكي الأول في مدى اهتمامها بموضوع الرثاء، وبطريقة عرض ذلك الموضوع، فبعضها أشار إليه إشارات في سياق الحديث عن أدب ذلك العصر، ومنها ما درست ألواناً مختلفة من ذلك الشعر، وأخرى درست شعر الرثاء عند شاعر بعينه ضمن الدراسة الموسعة عنه، وبعضها فصل بالحديث عن لون معين من ألوان ذلك الشعر، ومع ذلك لا توجد دراسة علمية شاملة موسعة تناولت الموضوع من جوانبه المختلفة، يستطيع القارئ من خلالها أن يلم شتاته، ومن تلك الدراسات:

- كتاب "أفاق الشعر العربي في العصر المملوكي" تأليف الدكتور ياسين الأيوبي، وتناول فيه المؤلف نماذج مختلفة من شعر الرثاء في ذلك العصر مثل: رثاء المدن،

- ورثاء النفس والأبناء، وتحدث عن بعض الشعراء المكثرين من نظمه أمثال: صفي الدين الحلبي، وجمال الدين بن نباتة وغيرهم، وعرض نماذج من مرثيهم.
- كتاب "الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء" تأليف الدكتور أحمد فوزي الهيب، تحدث فيه المؤلف عن الحركة الشعرية في مدينة حلب زمن المماليك، وعن الأغراض الشعرية التي طرقها الشعراء في تلك الفترة ومنها شعر الرثاء وألوانه المختلفة مثل: رثاء المدن، ورثاء الأبناء، والأحفاد، والأصدقاء والجواري، والنفس، والعلماء وعرض نماذج شعرية كثيرة محاولاً دراسة مضامينها وخصائصها الفنية، وما فيها من تقليد وتجديد.
- كتاب "أمير شعراء المشرق ابن نباتة المصري" تأليف عمر موسى باشا، فصل فيه الحديث عن حياة ابن نباتة وقسمها إلى ست مراحل، وتحدث عن آثاره الأدبية، وأغراضه الشعرية من مديح ورثاء وغزل، وخصائص شعره الفنية، وتناول أيضاً نثره الفني وخصائصه الفنية وما يهمننا هنا حديثه عن الرثاء، إذ قسمه إلى قسمين: المرثي الخاصة: وشملت رثاء أهل بيته، والملوك الذين كانوا قريبين من نفسه، والمرثي العامة: وتشمل مرثي الأصدقاء، والقضاة والعلماء، والأدباء، وبيّن مضامين تلك المرثي وما فيها من تقليد وابتكار وتجديد.
- كتاب "تاريخ الأدب العربي - العصر المملوكي" تأليف الدكتور عمر موسى باشا، تناول فيه الكاتب جوانب من الحياة السياسية والثقافية في ذلك العصر، وقام بدراسة بعض أعلام الشعر والنثر وأغراضهم، وسمات أسلوبهم الفنية، ومن هؤلاء الشعراء الذين شملتهم الدراسة جمال الدين بن نباتة، وقد حاول المؤلف دراسة بعض مرثياته، إذ قسمها إلى قسمين :
- المرثي الخاصة: وتشمل رثاء الأولاد، وأهل بيته "الزوجة أو الجواري"، ورثاء أهل وده.
- المرثي العامة: وشملت رثاء العلماء والفقهاء.
- وقد عرض نماذج من تلك المرثي محاولاً دراستها دراسة موضوعية وفنية.
- كتاب "شعر صفي الدين الحلبي" تأليف جواد أحمد علوش، وهذا الكتاب كما هو واضح من عنوانه - دراسة خاصة لشعر صفي الدين الحلبي، بدأه المؤلف بالحديث عن حياة الشاعر وثقافته، ومن ثم فصل بالحديث عن الأغراض الشعرية التي نظم

فيها قَبين مضامينها، وكشف عن خصائصها الفنية، ومن تلك الأغراض، الرثاء الذي نظم فيه الحلي بكثرة، وقد عدّد المؤلف ألوانه عند الحليّ منها: رثاء الأهل والأقارب، ورثاء السلاطين والقادة وأولادهم، ورثاء الأصدقاء... وغيرها، وحاول الباحث دراسة بعض تلك الأشعار من حيث مضمونها وسماتها الفنية، وما فيها من تقليد وتجديد.

- كتاب "صفي الدين الحلي حياته وآثاره وشعره"، تأليف الدكتور محمد حور تناول فيه المؤلف عصر الشاعر وظروفه السياسية والاجتماعية والثقافية، ومولد الشاعر ونسبه، ونشأته، وعقيدته ومذهبه، وعائلته، ومهنته، وآثاره، وحياته، وفصل في الحديث عن أغراض شعره المختلفة وفنيتها ومنها الرثاء، مبيناً ألوانه عنده وهي: رثاء الأهل والملوك والأمراء، والأصدقاء وأعلام عصره من علماء، وأدباء، وتأثره بالشعراء السابقين في هذا المجال معارضة وتضميناً.

- كتاب "التيارات الأدبية إبان الزحف المغولي" تأليف الدكتور محمد التونجي، تحدث فيه المؤلف عن التيارات الأدبية التي كانت منتشرة في البلاد الإسلامية إبان الزحف المغولي، ومنها تيار الرثاء، وخاصة رثاء المدن التي احتلها المغول، وقد فصل المؤلف بالحديث عن ذلك اللون من الرثاء، وعرض نماذج منها محاولاً تقييمها فنياً.

- كتاب "أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي من القرن السابع إلى القرن التاسع الهجري"، تأليف الدكتور مأمون فريز جرّار، تناول فيه المؤلف الأشعار التي واكبت الغزو المغولي للبلاد الإسلامية في تلك الفترة، ومنها الأشعار التي رثت المدن الإسلامية التي احتلها المغول، وعرض لمضامينها وخصائصها الفنية.

- رسالة ماجستير غير منشورة بعنوان "صورة المغول في الشعر العربي - العصر المملوكي" تقدّمت بها للحصول على درجة الماجستير في الجامعة الأردنية سنة ١٩٩٧م، تناولت فيها صورة الغزو المغولي، والمغول في حالتَي النصر والهزيمة، وبعد اعتناقهم الإسلام، وأوردت باباً للحديث عن أفعال المغول في المدن الإسلامية المحتلة مستمدة من الأشعار التي رثت تلك المدن.

وتناولت هذه الدراسة شعر الرثاء في فترة حكم الدولة المملوكية الأولى، أي من سنة (٦٤٨-٧٨٤هـ) إلا أنها لم تقتصر على البيئة التي حكمت فيها هذه الدولة، وهي مصر والشام، وإنما تجاوزتها لتشمل العراق. كما شملت مرثي الشعراء الذين عاشوا

خارج تلك البيئة، ولكنهم نظموا في رثاء شخصياتها أو مدنها المحتلة، فعلى سبيل المثال الشاعر سعدي الشيرازي فارسي الأصل، إلا أنه رثى بغداد بقصيدة طويلة، وذلك حين سقطت بيد المغول سنة ٦٥٦هـ.

أما عن منهجي في هذه الدراسة، فقد اتبعت المنهج الاستقرائي الوصفي التحليلي، فعكفت على جمع المادة الشعرية من مظانها المختلفة، وطفقت أدرسها، وأحلّها، وأصنفها، لتتساق وتترتيب فصول الدراسة. وكنت أتكى في كثير من الأحيان على الحوادث والروايات التاريخية في المواضيع التي تتطلب ذلك، إذ إنها مادة مساندة للمادة الأدبية.

وحرصت على حصر ألوان الرثاء ودراسة كل لون على حدة وتناول القضايا المختلفة التي طرقتها الشعراء دون إغفال أي شيء منها، وقد واجهتني في ذلك مصاعب جمّة أهمها غزارة المادة الشعرية، وتشابهاها في كثير من المعاني والمضامين، وصعوبة تنسيقها وتنظيمها.

وحرصت في هذه الدراسة أيضاً على الترجمة لجميع الشعراء والشخصيات المغمورة، وأثبت ذلك في ملحق خاص في نهاية الرسالة، وبعضهم لم أعتز على ترجمة له على الرغم من البحث والتنقيب في كتب التاريخ والتراجم المختلفة المتعلقة بذلك العصر.

وقد بنيت هذه الدراسة على سبعة فصول وخاتمة.

خُصّصَ الفصل الأول للحديث عن رثاء الذات والأهل والأقارب، أمثال الأبناء والآباء، والأخوة، والأخوال، واستثنيت منه الشعر الذي نظم في رثاء الأمهات والبنات والزوجات المرثيات، إذ إن الحديث عنه جاء ضمن فصل "رثاء المرأة".

وتناول الفصل الثاني مرثي أرباب الدول، وهم الملوك والأمراء والأعيان، فتحدثت فيه عن حجم الأشعار التي قيلت في رثائهم، والدوافع التي حفزت الشعراء على ذلك، وعن مناقبهم وصفاتهم، وتصوير الحدث، وعن الجمع بين التهنة والعزاء، والحكمة، والمصير، والقبر، وهجاء الموتى منهم.

وعالج الفصل الثالث رثاء العلماء والأدباء، فبيّنت فيه كثرة الأشعار التي قيلت في رثائهم، والأسباب التي وقفت وراء ذلك، كما تحدثت عن مناقبهم وصفاتهم، وتصوير الحدث، وهجاء بعض الميتين منهم، وهجاء حاسديهم وأعدائهم، وأساليب الشعراء في التعزّي، وعن القبر والمصير، ومكان الوفاة.

واختص الفصل الرابع برثاء المرأة، فتناولت فيه رثاء المحارم أمثال الأم والزوجة والبنات والجارية، وغير المحارم أمثال أمهات الأصدقاء، وأخواتهم وزوجاتهم، وتحدثت فيه عن حزن الشعراء وتعاستهم عقبهن وعن المناقب والصفات التي أسبغوها عليهن، وأساليبهم في التعزّي، مراعيًا في ذلك جوانب الاتفاق والاختلاف بين مضامين المراثي التي قيلت في رثاء المحارم وغير المحارم من النساء.

و درست في الفصل الخامس مراثي المدن التي احتلها المغول وهي بغداد سنة ٦٥٦هـ، والشام سنة ٦٥٨هـ، و٦٩٩هـ، ومراثي المدن التي احتلها الصليبيون، مثل الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ.

أما الفصل السادس، فقد تناول موضوعات الرثاء الأخرى، فتحدثت فيه عن رثاء الحيوان، ورثاء العلمان والمغنين والمماليك، ورثاء المظاهر الحضارية، ورثاء اللهو والمجون.

واشتمل الفصل السابع على الدراسة الفنية حيث تناولت فيه أهم السمات الفنية لشعر الرثاء في تلك الحقبة، فتحدثت عن اللغة والأسلوب، والاتباعية، والصنعة البديعية، والصورة الشعرية.

وينتهي البحث بخاتمة أجملت فيها النتائج التي توصلت إليها.

وفي الختام أتوجّه بالشكر الجزيل إلى الدكتور عبد الجليل عبد المهدي الذي نفضل بقراءة هذا الكتاب.

رائد عبد الرحيم



## الفصل الأول

# رثاء النفس والأهل والأقارب

## رثاء النفس

رثاء النفس قديم في الشعر العربي، فثمة شعراء في عصر ما قبل الإسلام، وفي مختلف عصور الشعر العربي رثوا أنفسهم، وذلك حينما وقفوا قبالة الموت وجها لوجه، وشعروا بدنو أجلهم، وتغير أحوالهم، فتصوروا أنهم ماتوا فعلا، وقد جاءت مرثيتهم معبرة عن أزمة الإنسان، وما يجره اعتقاده بفنائه من يأس ومعاناة.<sup>(١)</sup>

وعرف شعراء العصر المملوكي الأول هذا اللون من الرثاء، ونظموا فيه قصائد ومقطوعات، ولكن النصوص التي عثر عليها قليلة، والسمة الغالبة عليها القصر، ولعل ذلك مرده إلى طبيعة الحالة النفسية للشاعر، وربما " لسوء حالته الصحية التي لا تسمح له بأن يطيل، وخاصة إذا قال مرثيته عند دنو أجله"<sup>(٢)</sup>.

وممن نظم في هذا الموضوع رشيد الدين البصراوي الحنفي، فقد رثى نفسه بقصيدة تخيل نفسه لحظة الموت، وما اعتراه من خوف وحرص على الحياة، وألقى الضوء على جثته وقد تغيرت معالمها، وأهيل عليها التراب، وأضحت مرتعا للديدان مما زاد من تعاسفه وحزنه، وجعله يذرف الدموع الغزار، يقول:<sup>(٣)</sup>

غدا تُخَلِّينَ فِي الضَّرِيحِ  
وَالْحُسْنُ مِنْ وَجْهِكَ الصَّبِيحِ  
سَوَادَ إِنْسَانِكَ الْمَلِيحِ  
صَفْحَةً وَجْهِي مِنَ الصَّبِيحِ  
رَسُولُ رَبِّي لِيَقْبِضَ رُوحِي  
عَلَى مُوَالَاتِهَا شَحِيحِ  
وَسَاحَةَ النَّهْجِ الْفَسِيحِ

يَا عَيْنُ سُحِّي دَمًا وَسُحِّي  
وَيُصْبِحُ النَّورُ مِنْكَ يُمَحِّي  
تَمْسِينَ وَالذُّودُ سَوْفَ يَغْشَى  
يَا طَوْلَ عَمِّي وَمَا تَلَا فِي  
كَأَنَّي بِي وَقَدْ أَتَانِي  
يَنْزَعَهَا مِنْ يَدِي حَرِيصِ  
ضَاقَ لَخُوفِ الْوَرْدِ صَدْرِي

<sup>(١)</sup> انظر شوقي ضيف، الرثاء، ص ٣٠ وما بعدها، مقبول علي، المراثي الشعرية في عصر صدر الإسلام، ص ١٣٨، مظفر غانم، الرثاء في شعر العصر العباسي الأول، ٢٣٠-٢٣١، عبد المعين الملوحي، الشعراء الذين رثوا أنفسهم قبل الموت.

<sup>(٢)</sup> مظفر غانم، الرثاء في شعر العصر العباسي الأول، ص ٢٤٤-٢٤٥.

<sup>(٣)</sup> البيهقي، ذيل مرآة الزمان، ٢٦٧/٤.

ويلجأ الشاعر في نهاية قصيدته إلى تعزية نفسه إذ اعترف بأن الموت كأس تدور على الجميع، ولا طاقة لأحد على مواجهته، ولذا دعا نفسه إلى ترك الشكوى والخوف، والانشغال بالطيب من القول، لأنه هو الذي ينفعها في الحياة الأخرى، يقول: (١)

وَكُلُّ مَنْ فِي الْوَرَى عَلِيلٌ      فَأَيْنَ أَشْكَوْ إِلَى صَحِيحِ  
انطق بخير فسوف يأتي      صمتٌ علي نطقك الفصيح  
كلُّ كتابٍ وما خلقتنا      له سَيَنجَابُ بِالضَّرِيحِ

ورثى الشاعر صلاح الدين الصفدي نفسه بأبيات تحدث فيها عن جسده بعدما دب فيه الضعف والهزال، وركز على تصوير موقف الناس منه، فقد تغيرت نظرتهم له، وعافوا رؤيته، وأضحوا فريقين: فريق يتمنى موته وزواله، وآخر شامت به وسعيد لدنو أجله، وتساءل الشاعر في نهاية أبياته عن جدوى البكاء لراحل عن الدنيا، فقال: (٢)

كَأَنِّي بِهَذَا الْجِسْمِ أَصْبَحُ عَاطِلًا      وَشَمَلُ قَوَاهِ بِالْمَمَاتِ مُشْتَتَةٌ  
وَقَدْ عَافَهُ مَنْ كَانَ يَهْوَى لِقَاءَهُ      وَأَنْكَرَهُ مَنْ طَالَمَا كَانَ يُثَبِّتُ  
وَكَمْ قَائِلٍ لَا أَبْعَدُ اللَّهَ دَارَهُ      وَآخِرُ جِذْلَانٍ يُسْرُ وَيُشْمِتُ  
فَمَاذَا الَّذِي يُجِدِّي عَلَى سَاكِنِ السَّرَى      إِذَا كَانَ يُبِيدِي الْحُزْنَ أَوْ يَنْتَبِتُ  
قَضَى وَمَضَى هِيَهَاتَ لَوْ يَنْفَعُ الْبِكَاءُ      كَأَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَدِّ غَدَا وَهُوَ مَيِّتُ

يضع الشاعر يده على ما يفعله الكبر وتقدم العمر بالإنسان، فهو لا يؤلمه الموت بعد ذاته، وإنما تغير الناس، وانفضاضهم من حوله، وشماتتهم به.

ومن الشعراء الذين رثوا أنفسهم شهاب الدين التلعفري، فقد عمر هذا الشاعر إثنين وثمانين (٣) سنة، وقبل موته نظم مقطوعة عبر فيها عن تمنيه الموت، وغبطته به، وطلب من أصحابه أن يهنوه بانتقاله من الحياة الدنيا إلى الآخرة حيث عفو الله ورحمته، يقول: (٤)

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٢٦٧/٤.

(٢) الصفدي، الغيث المسجم، ٢٠١/٢.

(٣) الصفدي، الواقي، ٢٥٥/٥، الكتي، فوات الوفيات، ٦٢/٤.

(٤) الصفدي، الواقي، ٢٥٧/٤-٢٥٨.

إذا ما باتَ مِنْ تُرْبِ فراشي      وبتُ مجاورَ الرَّبِّ الرَّحِيمِ  
فهنوني أصحابي وقولوا      لك البشري قَدِمْتُ على كريمِ

ومن العجيب أن يتمنى التلعفري الموت، وأن يدعو أصحابه إلى تهنئته به، ولعل سبب ذلك الحياة المليئة بالآثام التي عاشها الشاعر، فقد ذكر أنه كان " خليعاً معاشراً امتحن بالقمار"، واشتهر أمره بذلك فنودي في حلب: أي أنه من قامر مع الشهاب التلعفري قطعنا يده، عندئذ ضاقت عليه الأرض فجاء إلى دمشق، ولم يزل يستجدي ويقامر،<sup>(١)</sup> ولذا حين أحس بدنو أجله شعر بالخوف وراح يتمنى الموت، رجاء رحمة الله وغفرانه.

ومما يدخل في هذا الموضوع بكاء الشعراء شبابهم الزائل وقد كان هذا الزوال مثار حزن وألم كبيرين لهم، ففي مرحلة الشباب يكون الإنسان في قمة عطائه، فإذا ولت أيامها، وأفل نجمها حل محلها الضعف والعجز، وطراً تغير كبير على شكل الإنسان وحياته، الأمر الذي يزيد من حسرته، ويضاعف تلك الحسرة أن ذهاب الشباب ذهاب للإنسان نفسه، كما أن مرحلة الشيخوخة وما فيها من حرص وضعف تزيد من أوار تلك الحسرات، وذلك الندم، الأمر الذي جعل الشعراء يندبون شبابهم كثيراً<sup>(٢)</sup>، ومن شعراء العصر المملوكي الأول الذين ندبوا شبابهم صدر الدين بن الوكيل في قوله:<sup>(٣)</sup>

بكِتُ على فَقْدِ الشَّبابِ المودَع      دَمًا بعدما أَفْنَيْتُ دَمعي وَمَدَمعي  
وَبُدِّلْتُ من سُكْرِ الشَّبِيبةِ صَحْوَةً      من الشَّيبِ قالتُ للمَسْررةِ، ودَععي  
فطلَّقتُ لذاتي ثلاثاً ولم تَكُنْ      لها رَجعةٌ مِنِّي إلى يَوْمِ مَرَجعي

تعكس الأبيات حياة اليأس والقنوط التي عاشها الشاعر عقب زوال شبابه، ولذا بكاه بالدموع الغزيرة، واستسلم لمصيره، وطرده المسرات والمذات من حياته، وطلَّقتها ثلاثاً لا تحل له إلى يوم يبعثون.<sup>(٤)</sup>

<sup>(١)</sup> الصفدي، الراي، ٢٥٦/٥.

<sup>(٢)</sup> د. أحمد فوزي الحبيب، الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء، ص ٢٦٤.

<sup>(٣)</sup> الإسوي، طبقات الشافعية، ٤٦٠/٢.

ويصف الشاعر عبد الله بن محمد بن عبد القادر سرعة انقضاء الشباب وزواله، إذ  
قارن بين حاله قبل ذهابه وبعده، فقال: (١)

يا عَصْرَ شَبَابِي المَفْدَى أَرَأَيْتُ  
قد كُنْتَ مَسَاعِدِي عَلَى كَيْتٍ وَكَيْتٍ  
ما أَسْرَعَ ما بَعَدْتَ عَنِّي وَنَأَيْتُ  
والْيَوْمَ فلو أَبْصَرْتَ حَالِي لَبَكَيْتُ

ومثل هذه المعاني وغيرها تتجلى في قول ابن كثير صاحب كتاب "البداية والنهاية" (٢)  
تَمْرٌ بِنَا الأَيَّامُ مَرًّا وَإِنَّمَا  
فَلا عَائِدٌ ذاكَ الشَّبَابُ الَّذِي مَضَى  
وَمِن بَعْدِ ذَا فَالعَبْدُ إِما مُنْعَمٌ  
نُساقٌ إِلى الأَجالِ وَالعَيْنُ تَنْظُرُ  
وَلَا زائِلٌ هَذا المَشيبُ المَكْدَرُ  
كَرِيمٌ وَإِما بِالْجَحيمِ يُسْعَرُ

تفوح من هذه الأبيات رائحة الحكمة والموعظة، فهي تلخص حياة الإنسان وتنقله  
فيها من مرحلة الشباب والفتوة إلى الشيخوخة والعجز، ومن ثم الموت وما يعقبه من  
مصير.

## رثاء الأهل والأقارب

رثاء الأهل والأقارب من أقدم صور الرثاء في شعرنا العربي، نظم فيه الرجال  
والنساء، وقد كان للمرأة "الجاهلية في هذا المجال القسط والنصيب الأوفر، إذ كانت تتدب  
أباها وإخوتها، فما تزال تتوح على من يتوفى منهم حتف أنفه، وعلى من يموت قعصا  
بالرمح" (٣)، ومثلها فعل الرجل في ذلك العصر، وفي العصور التي تلتها، وسار على  
طريقتهم شعراء العصر المملوكي الأول فندبوا أهلهم وأقاربهم ورثوهم، وبكوههم بكاء  
مرا، واقتصرت الأشعار التي عثر عليها على رثاء الأبناء والآباء والإخوة والأخوال. (٤)

(١) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢/٢٦٦.

(٢) الذهبي، الذيل التام على دول الإسلام، ص ٢٥٩، ابن حجر، أنباء الغر، ١/٤٧، ابن العماد، شذرات الذهب، ٦/٤٣٢.

(٣) د. شوقي ضيف، الرثاء، ص ١٣، وانظر حسين جمعة، الرثاء في الشعر الجاهلي وصدور الإسلام، ص ٤٨، مقبول علي، المرثي الشعرية في  
عصر صدر الإسلام، ص ١٤٨.

(٤) ورثي الشعراء أمهاتهم وبناتهم وزوجاتهم، وسأقي الحديث عن ذلك في مبحث "رثاء المرأة"

## رثاء الأبناء

هذا اللون من الرثاء نظم فيه الشعراء منذ العصر الجاهلي وعبر عصور الأدب العربي المختلفة، وقد اهتم بأشعارهم أدباء العرب ونقادهم قدامؤهم ومحدثوهم، فجمعوا الكثير منها في كتب خاصة، وعكفوا على دراستها وتحليلها.<sup>(١)</sup>

حظي هذا اللون عند شعراء العصر المملوكي الأول بنصيب الأسد من مراثي الأهل، إذ نظموا فيه أشعارا كثيرة، وقد أكد كثرتها مؤرخو ذلك العصر وهم يترجمون لشخصياته، فعلى سبيل المثال ذكر أنه حين توفي الشاب الظريف شمس الدين بن العفيف التلمساني تألم "أبوه لفقده وحزن عليه حزنا زائدا ورثاه بشعر كثير"<sup>(٢)</sup>، وقيل: إن والد تاج الدين بن القاضي شهاب الدين بن غانم رثاه "بشعر كثير"<sup>(٣)</sup>، ولشهاب الدين أبي العباس الزرعي "مراث في ولده عمر"<sup>(٤)</sup>، فعلى الرغم من تصريحهم - أي المؤرخين - بكثرة ما نظم أولئك الشعراء إلا أنهم أحجموا عن ذكر الكثير من أشعارهم، ولم يكتفوا بذلك، فاخترلوا بعض مراثي الأبناء الطويلة، ولم يذكروا منها سوى المطلع، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في ترجمة داود بن الحسن بن المنصور بن سواق أنه حين توفي سنة ٧٠٦هـ فجع به أبوه ورثاه بقصيدة أولها<sup>(٥)</sup>:

مصائبك يا داود ليس يهون      فقد أنبعت فيك العيون عيون

وقال ابن العراقي في أخيه إبراهيم بن عبد الرحيم المتوفى سنة ٧٨٤هـ: "وحصل لوالده عليه تألم كثير لحسن صورته وخلقه وكثرة تودده، وذكائه، وفطنته، وتوسمه النجابة، ورثاه بأبيات أولها:

إبراهيمُ كُنْتَ لِي أنيساً      تروِّحُ بالحديث لنا نفوساً<sup>(١)</sup>

<sup>(١)</sup> من هذه الكتب: كتاب د. محمد حور، رثاء الأبناء في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي، د. محيّر صالح، رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري.

<sup>(٢)</sup> المقريري، المقتفى، ٦٩٥/٥.

<sup>(٣)</sup> الصفدي، أعيان العصر، ٦٥٢/٢٢.

<sup>(٤)</sup> ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٥٦٧/٢.

<sup>(٥)</sup> الأدقوي، الطالع السعيد، ص ٢٤١، الصفدي، أعيان العصر، ٢٤٨/٢، ابن حجر، الدرر الكامنة، ١٨٧/٢.

<sup>(٦)</sup> ابن العراقي، الذيل على العبر، ٥٣٤/٢.

أما المراثي التي عثر عليها، فهي لشعراء متفرقين، واشتملت على موضوعات مختلفة ومنها الندب والتأبين والعزاء.

أما موضوع الندب ووصف الناحية الوجدانية فهو جزء لا يتجزأ من بنية المراثي، وذلك أن الرثاء مبني على شدة الجزع،<sup>(١)</sup> ويجب "أن يكون شاجي الأقاويل مبكي المعاني مثيرا للتباريح."<sup>(٢)</sup>

وإذا كانت تلك المعاني الشجية سمة الرثاء عامة، فإنها من الأولى أن تكون في مراثي الأبناء خاصة، ذلك أنها من أكثر ألوان الرثاء ذاتية، فحزن الشعراء على أبنائهم لا يدانيه حزن، فهم " فلذات الأكباد ولموتهم مرارة تنقد في الصدور فتأكل القلوب"،<sup>(٣)</sup> ولذا قيل: إن موتهم "صدع في الكبد لا ينجر آخر الأمد".<sup>(٤)</sup>

وقد عبرت أعرابية بسليقتها عن مصيبتها في ابنها حين سألت بعد وفاته: " ما أحسن عزاءك؟"، قالت: إن فريقي إياه أمني كل فقد سواه، وإن مصيبي به هونت علي المصائب بعده".<sup>(٥)</sup> وأكدت الأحاديث النبوية، عمق المأساة بموت الأبناء حين حثت الآباء على الصبر والسلوان، ووعدهم بالأجر العظيم، وبينت لهم أن هذا الأجر يتضاعف بزيادة عدد الأبناء المتوفين، ومنها ما روي " عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قدم ثلاثة لم يبلغوا الحنث كانوا له حصنا حصينا من النار، فقل أبو ذر: قدمت اثنين قال: واثنين، قال أبي بن كعب سيد القراء: لقد قدمت واحدا، قال: وواحدا لكن إنما ذلك عند الصدمة الأولى".<sup>(٦)</sup> ومن هنا كانت مراثي الأبناء لوحة تقطر بالحزن والأسى، وتتسم بالصدق والواقعية، فهي نتاج معاناة وتجربة حقيقية صاحبت الحدث، وتلقت تأثيره المباشر. واكتسبت مراثي الأبناء في العصر المملوكي الأول تلك السمات إذ عكست مشاعر صادقة فصورت ما خيم على الشعراء من حزن وأسى، وكشفت عن قلوبهم المحترقة، وأكبادهم المتفتتة، وحياتهم المريرة، ودموعهم المتدفقة

(١) ابن رشيق، العمدة، ١٥٣/٢.

(٢) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص ٣٥١.

(٣) د. شوقي ضيف، الرثاء، ص ٢١٧.

(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢٥٨/٣.

(٥) المصدر نفسه، ٢١٧/٣، المدائني، التعازي، ٦٩/٢، ابن أبي حجلة، سلوة الحزين، ص ٥٢-٥٣.

(٦) ابن أبي حجلة، سلوة الحزين، ص ١٩ وما بعدها، الغزالي، سكرات الموت، ص ١٥١-١٥١.

والممزوجة بالدماء، ويؤكد صدقها أنها لم تتغير ولم تتبدل من أول القصيدة أو المقطوعة إلى آخرها، فظلت ملتزمة تنبئ عن حرارة نفوسهم المكلومة، وقلوبهم الجريحة.

وقد تقاربت المعاني والصور التي قدموها تقارباً واضحاً، " ولعل مرد ذلك إلى أن طبيعة النفس الإنسانية في مثل هذه الأحداث متقاربة وإن لم تكن واحدة"<sup>(١)</sup>

ومن المعاني التي قدموها في هذا الموضع أنهم راحوا وهم يبثون لوعاتهم، وينفتون آهاتهم يلقون تبعه موت أبنائهم على الزمن والدهر، ويجعلون منه العدو الذي يتربص بهم ويحرمهم طعم السعادة والهناء، وهذا ما عبر عنه جمال الدين بن نباتة حين أعلن عن تماسكه أمام الزمن وصروفه، وأنه لم يعد يخشاه أو يرجو لئنه بعدما اختطف منه أعلى الناس عليه ابنه عبد الرحيم، يقول:<sup>(٢)</sup>

أَقْصَدْتَنِي يَا زَمَانِي	كَأَنِّي كُنْتُ قَصْنُوكَ
وَكُنَّ مَا خِفْتُ مِنْهُ	فَأَجُودُ الْآنَ جَاهِدُكَ
لَا لِيَنَّكَ الْيَوْمَ أَرْجُو	وَأَسْتُرُّ أَرْهَابُ شِدْكَ

ويصّب الشاعر شهاب الدين بن غانم جام غضبه على الموت الذي انتزع منه ولده تاج الدين، ويصور نيران الحزن المتأججة في جوانحه، ويبين أنه لا خلاص منها إلا بالموت ويتجلى ذلك فيما كتبه تحت خط ابنه بعد وفاته:<sup>(٣)</sup>

أَهَا لِكَاتِبِهَا وَمَا	فَعَلْتُ بِأَنْمُلِهَا الظَّرَافِ
نُوبُ الْمُنُونِ الْعَارِضَا	تِ لِكُلِّ حَيٍّ بِالتَّلَافِ
تَجَنَّحُ أَرْوَاحُ الْوَرَى	بِظَوَاهِرٍ مِنْهَا خَوَافِ
لِتَعِيدَهُمْ كَمَرَامِدِ	بِالرَّيْحِ تُسَيِّفُهَا السَّوَافِ
أَجْزَنَ نِيرَانَ الْجَرِيدِ	مِ أَسَى بَقَلْبِي وَالشَّغَافِ
أَطْلَقَنَ سَقَمًا مَالَهُ	إِلَّا عِلَاجَ الْمَوْتِ شَافِ

(١) د. محيّر صالح، رثاء الأبناء، ص ١٩.

(٢) ابن نباتة، اللديوان، ص ١٥٦.

(٣) الصفدي، أعيان العصر، ٦٥٢/٢.



واستعان الشعراء في وصف حالتهم النفسية وما ألوا إليه بعد الحدث بوسائل متعددة، وكان أكثرها النداء، فقد وجدوا في مناجاة أبنائهم متنفساً يفرج عنهم كربتهم، ويطلق آهاتهم ولوعاتهم، ويؤكد قرب أولئك الأبناء من نفوسهم، فهذا الشاعر عفيف الدين التلمساني يلجأ إليه، ويكرره في القصيدة التي رثى بها ابنه شمس الدين وذكر بها أخاه محمداً، فيعمق من خلاله الصورة التي رسمها لضعفه وبأسه ونفاد صبره وتمنيه الموت، ويتبين فيها أن ما زاد من حزنه وتعاسته أن ابنه مات في وقت كان فيه الوالدان في سن الشيخوخة والعجز الذي يصعب معه إنجاب الأطفال، يقول: (١)

مَالِي بِفَقْدِ الْمُحَمَّدَيْنِ يَدُ	مَضَى أَخِي ثُمَّ بَعْدَهُ الْوَالِدُ
يَا نَارَ قَلْبِي وَأَيْنَ قَلْبِي أَوْ	يَا كَبْدِي لَوْ يَكُونُ لِي كِيدُ
يَا بَانِعَ الْمَوْتِ مَشْتَرِيهِ أَنَا	فَالصَّبْرُ مَا لَا يُصَابُ وَالجَلْدُ
بِي كَبْرٍ مَسْنِي وَأُمِّكَ قَدْ	شَاخَتْ فَمَنْ أَيْنَ لِي الْوَالِدُ؟

وقد محيي الدين بن النحاس ابناً له اسمه عمر، فأسف عليه أسفا شديداً، ورثاه بأبيات عبر فيها عن حرقته، وعما يكنه لابنه من حب عميق " ويبدو هذا في ندائه الموحى الحزين يا سمعي ويا بصري، ويبدو فيما تتركه ذكره عليه من حزن كاد يقضي عليه، ويبدو أيضاً في جملته الدعائية التي أنهى بها مقطوعته" (٢)، يقول: (٣)

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي الْقَلْبِ مِنْ أَسْفٍ	عَلَى فِرَاقِكَ يَا سَمْعِي وَيَا بَصْرِي
إِذَا تَذَكَّرْتُ شَمْلًا كَانَ مَجْتَمِعًا	فَإِنَّ نَفْسِي فِي الدُّنْيَا عَلَى خَطَرٍ
وَإِنْ حَلَلْتُ مَحَلًّا كُنْتُ مُؤَيَّسَةً	نَادَيْتُ لَا أَوْحَسُ الرَّحْمَنُ مِنْ عَمْرِي

ورثى أبو الحسين الجزار ولدا له كانت إحدى عينيه قد أصيبت بجذري، بقصيدة وصل إلينا منها أربعة أبيات، استعان فيها بالقرآن الكريم، وبأسلوب المقابلة ليرسم صورة لحياة الجحيم التي عاشها بعده، وما نزل به من وهن وضعف، فقال: (٤)

(١) الصفدي، الوافي، ٣/١٣٥، الكتيبي، فوات الوفيات، ٣/٣٨١، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٨/٨٨-٨٩.

(٢) د. أحمد فوزي الغيب، الحركة الشعرية في حلب الشهباء زمن المماليك، ص ٢٦٠.

(٣) محيي الدين القرشي، الجواهر المضية، ٣/٤٠٢.

(٤) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ١/٣٤٧.

مِنْ بَعْدِ فَقَدِكَ قَلَّ لِي كَيْفَ أَصْطَبِرُ  
 يَا مَنْ أَقَامَ بَجَنَاتِ النَّعِيمِ وَفِي  
 كَمْ قَدْ تَأَسَّيْتُ لَكِنْ لَمْ يُؤَدِّ أَسْفِي  
 بِكَيْتٍ إِذْ قِيلَ فِي عَيْنِهِ أَثَرُ  
 وَالْحُزْنَ عِنْدِي لَا يَبْقَى وَلَا يَذُرُ  
 قَلْبِي عَلَيْهِ لَهَيْبُ النَّارِ يَسْتَعِيرُ  
 كَمَا حَذَرْتُ وَمَا أَغْنَانِي الْحَذَرُ  
 فَكَيْفَ حَالِي وَلَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرُ

وعز على بعض الشعراء ومنهم محمد بن أبي بكر المارديني أن يدخل داره بعد رحيل ابنه عنها، وأن يمشي على الأرض التي دفن فيها، فقال في رثائه: (١)

يعزُّ عليَّ يا ولدي وعيني  
 بأن أَلَجَّ الدِّيَارَ وَلَسْتُ فِيهَا  
 ويا من فاق بالفضلِ النَّبيهِ  
 وأن أظأُ التُّرابَ وَأَنْتَ فِيهِ

ومن أطول مرثي الأبناء في هذا العصر القصيدة التي نظمها شهاب الدين الزرعي في رثاء ابنه عمر، فقد بلغت اثنين وأربعين بيتاً، صور في قسم كبير منها جزعه، وغصصه وعمق جراحه، وبدا فيها كالمتميم الذي أوجعه هجر محبوبه، فراح يسكب العبرات، ويتلظى بنيران الجوى والشوق، ويتمنى الموت على حياة الأسي والعذاب وقلبة الصبر، فقال منها: (٢)

عَزَّ الْعَزَاءُ فَدَمَعُ عَيْنِي يَهْمَعُ  
 وَالْوَجْدُ مَوْجُودٌ وَنَارُ فِرَاقِهِ  
 مَا خِلْتَهُ يَفْنَى وَأَلْقَى بَعْدَهُ  
 أَسْفِي عَلَيْهِ وَمَا يَفِيدُ تَأْسُفِي؟  
 غَلَبَ الْأَسَى صَبْرِي فَعَزَّ تَجَلَّدِي  
 يَا رَاحِلاً لَمْ يَبْقَ بَعْدَ رَحِيلِهِ  
 لَوْ كَانَ يُفْدَى جُدْتُ عَنْهُ بِمَهْجَتِي  
 أَسْفَاً عَلَى عُمَرِ وَقَلْبِي مُوجَعُ  
 فِي مُهْجَتِي مُذْ بَانَ عَنِّي تَلْدَعُ  
 فِي كُلِّ حِينٍ بِالْفِرَاقِ أُرْوَعُ  
 لَهْفِي عَلَيْهِ لَوْ أَنْ لَهْفًا يَنْفَعُ  
 لَجَوَى الْحَنِينِ عَلَيَّ لَظَاهُ أَضْلَعُ  
 لِلصَّبْرِ فِي قَلْبِ الْمَتِّيمِ مَوْضِعُ  
 جُودِ امْرِيءٍ بِحَيَاتِهِ يَتَبَرَّعُ

ثم يلقي الشاعر الضوء على حياته المكروبة، إذ غاب عنها طعم السعادة والسرور، وحل محله فيض الدموع والأحزان المتجددة التي أضحت كالقميص يرتديه على مر

(١) الطباخ، أعلام النبلاء، ١٩٨/٥.

(٢) ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٥٦٧/٢.

الأيام، ويقارن بين حاله في الماضي والحاضر، فقد كان لا يرضيه لقاء ابنه الدائم، أما اليوم وبعد رحيله رحلة اللاعودة، فأصبح يكفيه منه طيف الخيال، يقول: (١)

لو أستطيع كَفَفْتُ فَيْضَ مَدَامَعِي      هَذِهِاتِ ذَاكَ وَعَيْنُ حُزْنِي تَتَّبَعُ  
يا غَائِباً غَابَ السَّرُورُ لِفَقْدِهِ      والحزنُ يَغْرُبُ فِي الفُؤَادِ وَيَطْلُعُ  
قد كُنْتُ لَا أَرْضَى بِوَصْلِكَ دَائِماً      واليومُ عُدْتُ بِزُورِ طَيْفِكَ أَقْنَعُ  
حزني عليك مجدّدٌ وقميصُهُ      عَنِّي على طُولِ المَدَى لَا يُخْلَعُ

وكان ابن نباتة المصري، أكثر شاعر ابتلاء بموت أبنائه، إذ سقط منهم عدد كبير أمام عينيه، وسقطت معهم أحلامه وآماله، وقد وصف صلاح الدين الصفدي، وهو صديق ابن نباتة، تلك المأساة بقوله: " وأضيف إلى نكد الزمان أنه لم يعيش له ولد، فدفن فيما أظن قريبا من ستة عشر ولداً كلهم إذا ترعرع وبلغ خمساً أو ستاً أو سبعا يتوفاه الله فيجد لذلك الآلام المبرحة ويرثيهم بالأشعار الرائقة الرقيقة"، (٢) ووصل من تلك المراثي ثلاث قصائد طويلة وعدة مقطوعات جلها في ابنه عبد الرحيم. وهي أشعار اقتطعها الشاعر من كبده، فجاءت تنطق باللوعة، وتتفجر بمعاني الأسى والشقاء، وتعددت أفكارها وتنوعت صورها، ولكنها ظلت تدور في دائرة الحزن والألم، ويتضح منها أن الشاعر كان كلما رزق بمولود واستبشر به خيراً، ورجا الخير على يديه قام الموت باختطافه منه وتبديد تلك الآمال، فيقع لذلك فريسة للهموم والأحزان، وهذا ما يوضحه قوله في رثاء ولد له لم يكتمل حولا: (٣)

يا راحلاً مِنْ بَعْدِ ما أَقْبَلْتُ      مَخائِلَ لِلخَيْرِ مَرَجِوهُ  
لم تَكْتَمِلْ حَولاً وَأورثتني      ضَعْفاً فِلا حَولَ ولا قِوهُ

ويصور في مقطوعة أخرى ما تركه حزنه على أحد أبنائه من أثر على قريحته الشعرية، فيقول: (٤)

(١) ابن الجوزي، تاريخ ابن الجوزي، ٥٦٨/٢.

(٢) الصفدي، الوافي، ٣١٢/١، وانظر ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٢٩٥/٦.

(٣) ابن نباتة، الديوان، ص ٦٣.

(٤) ابن نباتة، الديوان، ص ٥١، ابن حجة، كشف اللثام، ص ٨٥.

قالوا فلان قد جفت أفكاره  
نظم القريض فلا يكاد يجيئه  
هيئات نظم الشعر فيه بعدما  
سكن التراب وليدُه وحببيُه

ويظهر من النصوص الشعرية التي نظمها ابن نباتة في رثاء أبنائه أنه كان حزيناً على ولده عبد الرحيم أكثر من غيره من الأبناء، وتؤكد ذلك رسالته " حظيرة الأنس إلى حضرة القدس"، تلك الرسالة التي كتبها بعد أن عرض عليه الوزير الأشرف الأميني زيارة بيت المقدس بصحبته رجاء التخفيف عنه ومواساته، فأجابه الشاعر إلى ذلك وقاماً بزيارتها، ومما جاء فيها "... وكان له في اصطحابي مقصد تقبل الله عمله الصالح، ومتجره الرابع، وذلك أني كنت لابساً ثياب الحزن على ولدي مقيماً بين المقابر، إقامة نقت حبه قلبي على قطعة من كبدي، ساقياً روض الحزن بغمام الجفون، باكياً على دينار وجه عاجلته الأيام بصرف المنون، وأطلب قلبي في التراب، أطرح صوت الصدى فينشد لي وأنشده:

يا لهف قلبي على عبد الرحيم ويا  
شوقي إليه ويا نوحى ويا دائي  
في شهر كانون وافاه الجمام لقد  
أحرقت بالنار يا كانون أحشائي<sup>(١)</sup>

وقد نظم ابن نباتة ثلاث قصائد في رثاء ابنه رسم فيها صورة دقيقة، لشدة مصابه، وسوء حاله، وعمق جراحه، وتجلت معالم تلك الصور الحزينة في قوله:<sup>(٢)</sup>

<sup>(١)</sup> ابن حجة، ثمرات الأوراق، ص ٣٦٠، كشف اللثام، ص ٨٥، خزنة الأدب، ١٥٣/٢، ابن نباتة، الديوان، ص ٦٢.

<sup>(٢)</sup> ابن نباتة، الديوان، ص ٢١٧-٢١٨، ابن أبي حجلة، سلوة الحزين، ص ١٣٨.

الله جَارِكْ إِنْ دَمَعِي جَارِي  
لَمَّا سَكَنْتَ مِنَ التَّرَابِ حَدِيقَةَ  
شَتَانِ مَا حَالِي وَحَالُكَ أَنْتَ فِي  
خَفِّ النَّجَابِكِ يَا بَنِي إِلَى السَّرَى  
لَيْتَ الرَّدَى إِنْ لَمْ يَدْعَكَ أَهَابُ بِي  
أَبْكِيكَ مَا بَكَتِ الْحَمَامُ هَدْيَلَهَا  
أَبْكِي بِمُخْمَرِ الدَّمُوعِ وَإِنَّمَا  
قَالُوا تَصَبِّرْ قُلْتُ إِنْ وَرَيْتُمَا  
وَأَحَقُّ بِالْأَحْزَانِ مَاضٍ لَمْ يَسِيءِ

يَا مَوْحِشَ الْأَوْطَانِ وَالْأَوْطَارِ  
فَاضَتْ عَلَيْكَ الدَّمْعُ بِالْأَنْهَارِ  
غُرْفِ الْجِنَانِ وَمُهْجَتِي فِي النَّارِ  
فَسَبَقْتَنِي وَقَلَّتُ بِالْأَوْزَارِ  
حَتَّى نَدُومَ مَعَا عَلَى مِضْمَارِ  
وَأَحْنَ مَا حَنَّتْ إِلَى الْأَوْكَارِ  
تَبْكِي الْعَيُونَ نَظِيرَهَا بِنِضَارِ  
كَانَتْ بِهِ الْحَسْرَاتُ غَيْرَ صِغَارِ  
بِيدٍ وَلَا لَسَانٍ وَلَا إِضْمَارِ

يكشف الشاعر عن تعاسته بعد ما وارى ابنه التراب، ويصف دموعه التي فاضت غزيرة من مآقيه وامتزجت بالدماء، ويعقد الأيمان أن تظل تلك الدموع منهلة ما دامت الحمام تنوح بهديلها على أوراق الشجر، ويقابل بين حاله وحال ابنه وهنا يصوره وهو يتقلب في جنات النعيم، أما هو فيتلظى بنيران الأسى واللوعة، وتثقله الذنوب، ولعل فكرة الأوزار التي جاء بها نابعة من اعتقاده بأنه جاوز الحد المسموح به شرعا في البكاء والنوح، ولذا غدت أحزانه آثاماً وأوزاراً، ومما زاد من حزنه أن ابنه مات صغيراً بريئاً من الخطايا والذنوب.

ويؤكد الشاعر في قصيدة أخرى غزارة دموعه وعظم مأساته، ويصور أشجانه وقد لازمته الليل والنهار، وأشابت فوده، وأقضت مضجعه فحرمته من النوم، يقول مخاطباً ابنه: (١)

بَنِي لَوْلَاكَ مَا اسْتَعَذَّبْتُ وَرِدَ بُكْيَ  
لِيصْنَعِ الدَّمْعُ وَالتَّسْهِيدُ مَا صَنَعَا  
بَنِي لَا وَجِبِينَ تَحْتِ طُرَّتِهِ  
يَهْيِجُ اللَّيْلُ نَاراً فِيكَ أَنْكُرُهَا  
وَيَجْلِبُ الصُّبْحُ لِي مِمَّا أَسَاءَ بِهِ

وَلَا أُنْسِيتُ بِتَسْهِيدٍ وَلَا أَرْقِ  
فَإِنَّ ذَلِكَ مَحْمُولٌ عَلَى الْحَدَقِ  
لَمْ يَخْلُ حُزْنُكَ لَا صُبْحِي وَلَا غَسَقِي  
فَإِنَّ صَدَقْتَ قَلْبِي لَيْلَةَ الصَّدَقِ  
بِيَاضِ شَعْرِ فَيَا فَرَقِي وَيَا فَرَقِي

(١) ابن نباتة، الديوان، ص ٣٤٧-٣٤٨.

ومن كانت تلك حالته فمن الطبيعي أن تنهكه الكآبة، وتضنيه الأوجاع والآلام،  
وتضعف من عزيمته، وتجعله يفضل الموت على الحياة، يقول معبراً عن ذلك: (١)

أها لها حسرات لو رميت بها  
مضيت حيث بقايا العمر تضعف لي  
قد أخلقت جسدي أيدي الأسى فمتى  
تهلان خل حصاة القلب لم تطيق  
واطول حزني مما قد مضى وبقي  
للأرض ترمي بهذا الملبس الخلق

ومن أكثر الصور بروزاً في قصائده صورة أرقه وذهوله وشقائه ودموعه، وشجوه  
المقرون بهديل الحمائم، والصورة الأخيرة كثر تداولها على السنة الشعراء العرب الذين  
وجدوا في الحمائم "رمزاً لذكر الإلف والحبیب والوطن والفقيد" (٢)، وتتجلى تلك الصورة  
والمعاني في قوله: (٣)

عَبَدَ الرَّحِيمِ بِرَغْمِي  
فَأَجَّلِ النَّوْمَ وَرُدِّي  
أَشْقِيَتْ جَدِّي بِتَكْلِ  
أَبْكِي فِيكَ كَأَنَّا  
مَا كُنْتُ أَحْمَلُ هَجْرًا  
وَمَا تَخَيَّلْتُ أَنِّي  
أَنْ تَسْقِيَ الْعَيْنُ عَهْدَكَ  
فِي اللَّيْلِ وَالذَّمْعَ وَرَدَّكَ  
بِنِي يَا تَكْلُ جَدَّكَ  
حَمَائِمُ النَّوْحِ بَعْدَكَ  
فَكَيْفَ أَحْمِلُ فَقْدَكَ  
أَشْكُو صَدَاكَ وَصَدَّكَ

وليس موت الأبناء مصيبة يقتصر تأثيرها على الآباء وحدهم، وإنما هو فاجعة  
يشارك في حملها الأهل والأقارب، وقد تخرج من دائرة هؤلاء لتشمل الأصدقاء والناس  
المحيطين بالفقيد وأهله، وقد تنبه بعض الشعراء إلى ذلك الأمر فحرصوا في أشعارهم  
على نقل أحاسيس أولئك الناس، الأمر الذي زاد من واقعية تلك الأشعار وصدقها، وأخرج  
مصيبة الشعراء في أبنائهم من دائرة الذات وأكسبها سمة العموم، وتتجلى تلك المعاني في  
القصيدة التي نظمها شهاب الدين الزرعي في رثاء ابنه عمر، فقد صور فيها الشاعر  
حزن إخوة الفقيد ووحشتهم ودموعهم، وعدد أسماءهم، ويبدو أن الراحل كان شاباً متزوجاً

(١) ابن نباتة، الديوان، ص ٢٤٨.

(٢) د. محمد حور، رثاء الأبناء، ص ٣١.

(٣) ابن نباتة، الديوان، ص ١٥٧.

وله طفل صغير، ولذا صور الزرعي بكاء ذلك الطفل على أبيه، ولم يكتف الشاعر بذلك، فجعل موت ابنه خطبا شمل الناس جميعهم، فقال: (١)

حَزِنْتَ عَلَيَّ بَنُو أَبِيكَ وَغَيْرُهُمْ  
وَالرَّزَاءُ فِيكَ مَقْسَمٌ بَيْنَ الْوَرَى  
لَكَ إِخْوَةٌ يَبْكُونَ فَقَدَكَ وَحُشَّةً  
فَمَحَمَّدٌ يَبْكِي وَيُنْشِئُ مُعَلِّناً  
وَكَذَلِكَ إِبْرَاهِيمُ يَسْكُبُ دَمْعُهُ  
وَصَغِيرُكَ الْوَلَدُ الَّذِي خَلَقْتَهُ  
حَزْنَا لَهُ عِنْدَ الْخَلَائِقِ مَوْجِعُ  
هَذَا لَهُ شَجْوٌ وَهَذَا مَوْجِعُ  
وَقُلُوبُهُمْ مِنْ حَسْرَةٍ تَنْقَطِعُ  
بِأَنَّ الْحَبِيبُ فَمَقَلَّتِي لَا تَهْجِعُ  
حَزْنَا وَمُوسَى كَالْحَمَامِ يَسْجَعُ  
بِبِكَائِهِ حَبَّ الْقُلُوبِ تَصَدَّعُ

واكتفى الشاعر غفيف الدين التلمساني في رثاء ابنه شمس الدين بوصف حزن خالاته عليه، فقال: (٢)

أَبْكَيْتَ خَالَاتِكَ الضَّوَّاحِكَ مِنْ  
قَبْلُ وَمَا مِنْ صِفَاتِكَ النَّكَدُ

وفي نهاية الحديث عن هذا الجانب من مرثي الأبناء تجدر الإشارة إلى أن الأفكار والصور التي عبروا بها عن ناحيتهم الوجدانية وموقفهم من الحدث، لم تكن جديدة، وإنما ظلت تحوم في دائرة التقليد والمعاني التي تداولها شعراء هذا الاتجاه قبلهم. (٣)

\* \* \*

وأشاد الشعراء بأبنائهم، وتحدثوا عن مناقبهم وصفاتهم التي كانوا يتحلون بها، وقد استحسّن المبرّد ذلك، في الرثاء فقال: " فأحسن الشعر ما خلط مدحا بتقجع، واشتكاء بفضيلة، لأنه يجمع التوجع الموجه تقرّجاً، والمدح البارع اعتذاراً من إفراط التقجع باستحقاق المرثي، وإذا وقع ذلك بكلام صحيح ولهجة معربة، ونظم غير متفاوت فهو الغاية من كلام المخلوقين" (٤)

(١) ابن الجوزي، تاريخ ابن الجوزي، ٥٦٨/٢.

(٢) الصمدي، الوافي، ١٣٥/٣، الكشي، فوات الوفيات، ٣٨١/٣، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٨٩/٨.

(٣) انظر د. محيّر صالح، رثاء الأبناء، ص ١٩ وما بعدها.

(٤) المبرد، التعازي والمرثي، ص ٢٧.

ولم يكن هذا الجانب كبيراً في مرثي الأبناء في هذا العصر، وغيره من العصور،<sup>(١)</sup> وقد فسّر ابن رشيق ذلك حين قال: "إن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلاً أو امرأة لضيق الكلام عليه فيهما، وقلة الصفات"،<sup>(٢)</sup> ويتبين من مرثي الأبناء في العصر المملوكي الأول أن الرثاء أنقسموا في الحديث عن تلك المناقب والصفات إلى اتجاهين:

**الاتجاه الأول:** ويمثله الشعراء الذين رثوا أطفالهم، وقد ركز هؤلاء على وصف براءة أولئك الأطفال، ومحاسنهم الجسدية.

**أما الاتجاه الثاني:** فيتمثل في الشعراء الذي رثوا أولادهم الكبار، وقد أضاف هؤلاء إلى الصفات السابقة الحديث عن مناقب أبنائهم وفضائلهم النفسية، تلك السمات التي اكتسبوها من تقدم العمر بهم.

ومن هؤلاء الشعراء شهاب الدين الزُّرعي، فهو يشيد بذكاء ابنه عمر وجماله، ويبين أن فقده لتلك الصفات هو الذي جعله يندبه ويبيكه، يقول:<sup>(٣)</sup>

أبكي وأندبُ حَسْرَةً ويحقّ لي      إذ من فُجِعتُ به النَّجيبُ الأروغُ  
كيف السَّلوُّ وكيف أنسى ذكره      وجَمالُهُ عن ناظري لا يُقلعُ

ومثله جمال الدين بن نباتة إذ أثنى على عقل ابنه عبد الرحيم، وصور محاسنه الجسدية وألقى الضوء على جمال قدّه وخذّه وثرغره فقال مثلها:<sup>(٤)</sup>

يسبيلُ أحمَرُ دَمْعِي      لَمَّا تَذَكَّرْتُ خَدَّكَ  
وقُدَّ بالهمّ قلبِي      لَمَّا تَذَكَّرْتُ قَدَّكَ  
لهفي عليه لحسين      قد كان أسبيلَ بَرْدِكَ  
لهفي عليك لعقل      قد كان أحسنَ عَقْدِكَ  
لهفي عليك لثغر      قد كان يفضّل عَقْدَكَ

(١) انظر، د. محيّر صالح، رثاء الأبناء، ص ٣٨.

(٢) ابن رشيق، العمدة، ١٥٨/٢.

(٣) ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٥٦٧/٢.

(٤) ابن نباتة الديوان، ص ١٥٦-١٥٧.



وَيَصُورُ ابْنَ نَبَاتَةَ جَمَالَ ابْنِهِ عَبْدِ الرَّحِيمِ وَنَضَارَتَهُ حِينَ جَعَلَهُ مَصْدَرَ الْحَسَنِ كُلِّهِ،  
وَأَعْطَاهُ صُورَةَ الْغَصَنِ وَالْبَدْرِ وَالْجَوْهَرَةِ الَّتِي طَوَى مَحَاسِنَهَا التَّرَابَ، وَتَجَلَّتْ تِلْكَ الْمَعَانِي  
فِي غَيْرِ قَصِيدَةٍ وَمَقْطُوعَةٍ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ مَخَاطِبَا ابْنِهِ: (١)

أَصْبَحْتُ فِي الْحُزْنِ وَخَدِي إِذْ كُنْتُ فِي الْحُسْنِ وَخَدَاكَ

وَقَالَ: (٢)

بِالرَّغَمِ إِنْ بَاتَ بَدْرُ الْأَفْقِ مُعْتَلِيًا وَبَاتَ بَدْرِي مَدْفُونًا عَلَى الطَّرْقِ

وَقَالَ مِثْلَهَا عَلَى تِلْكَ الْمَحَاسِنِ: (٣)

لَهْفِي لَغْصُنِ رَاقِنِي بِنَبَاتِيهِ لَهْفِي لَجَوْهَرَةٍ خَفَّتْ فَكَأَنَّيْ  
لَوْ أَمْهَلْتُهُ التَّرْبُ لِلْإِثْمَارِ حَجَبْتُهَا مِنْ أَدْمَعِي بِبِحَارِ

وَتَظْهَرُ صُورَةُ الْجَوْهَرَةِ فِي قَوْلِهِ يَرِثِي أَحَدَ أَطْفَالِهِ: (٤)

بَدَا وَفِي حَالِهِ تَوَارِي فِيهَا طَلْعَةٌ شَرِيفَةٌ  
جَوْهَرَةٌ مَا عَمِلَتْ لَهَا إِلَّا دَمُوعَ عَيْنِي عَقِيقَةٌ

أَمَّا الشَّابُّ الظَّرِيفُ شَمْسِ الدِّينِ بْنِ الْعَفِيفِ التَّلْمَسَانِيِّ، فَقَدْ مَاتَ وَهُوَ فِي سِنِّ السَّابِعَةِ  
وَالْعَشْرِينَ، (٥) وَكَانَ فِي حَيَاتِهِ شَاعِرًا مَشْهُورًا، اسْتَعْلَجَ بِالْكِتَابَةِ وَخَبَرَ الْخَطَّ وَفَنُونَهُ، (٦) وَقَدْ  
ذَكَرَ ذَلِكَ أَبُوهُ عَفِيفُ الدِّينِ حِينَ رثَاهُ، وَأَشَادَ بِعِلْمِهِ وَتَقْوَاهُ فَصَوَّرَ الْمَلَائِكَةَ مُحِيطَةً بِهِ عَقِبَ  
مَوْتِهِ، وَصُورَهُ يَتَقَلَّبُ فِي جَنَاتِ النِّعِيمِ، فَقَالَ مَتَحَسِّرًا وَمَتَفَجِّعًا عَلَى زَوَالِ تِلْكَ الْمَآثِرِ  
وَالصِّفَاتِ: (٧)

(١) للمصداين نبأة الديوان، ص ١٥٧.

(٢) المصدر نفسه، ٣٤٨.

(٣) المصدر نفسه، ٢١٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦٣، ابن حجة، خزنة الأدب، ١٥٤/٢.

(٥) الشاب الظريف، الديوان، ص ٩ من المقدمة.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٣ من المقدمة.

(٧) الصفدي، الوافي، ١٣٥/٣، الكتبي، فوات الوفيات، ٣٨١/٣، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٩٨/٨.

أَيْنَ الْبَنَانِ الَّتِي إِذَا كَتَبْتُ  
أَيْنَ الثَّنَائِيَا الَّتِي إِذَا ابْتَسَمْتُ  
مُحَمَّدَ يَا مُحَمَّدَ عَدَدًا  
مَاذَا عَلَى الْغَاسِلِينَ إِذْ قَرُبَ إِلَى  
قَدْ حَمَلَتْ نَفْسُهُ الْعُلُومَ إِلَى

وَعَائِنَ النَّاسِ خَطَّهَا سَجَدُوا  
أَوْ نَطَقَتْ لَاحَ لَوْلَوْ نَضِيدُ  
وَمَا لِمَا لَيْسَ يَنْتَهِي عَدَدُ  
أَمْلَاكٍ مِنْهُ لَوْ أَنَّهُمْ بَعَدُوا  
فِرْدُوسِ وَالنَّعْشِ فَوْقَهُ الْجَسَدُ

ولم يكتف الشعراء بالثناء على محاسن أبنائهم وخصالهم الحميدة، ولكنهم بكوا  
أمانيتهم الضائعة التي كانوا يأملون أن يحوزها أولئك الأبناء، وقد تنبه ابن رشيقي إلى هذا  
الجانب من مرثي الأطفال فقال: "ورثاء الأطفال أن يذكر مخايلهم، وما كانت الفراسة  
تعطيه فيهم، مع تحزن لمصابهم وتفجع بهم"<sup>(١)</sup>، ومن هؤلاء الشعراء جمال الدين بن نباتة،  
فإنه كان يأمل أن يصبح ابنه عبد الرحيم شاعراً، ولذا عز عليه أن يختطفه القدر دون أن  
تحظى مسامحة بشيء من أشعاره، فقال:<sup>(٢)</sup>

أَعَزُّزُ عَلَيَّ بِأَنْ ضَيَّفَ مَسَامِعِي  
أَقْدَامُ فِكْرِكَ أَبْخَرُ الْأَشْعَارِ  
لَمْ يَخْطُ مِنْ ذَاكَ اللِّسَانَ بَقَارِي  
أَعَزُّزُ عَلَيَّ بِأَنْ رَحَّلْتَ وَلَمْ تَخُضْ

أما شهاب الدين الزرعي، فقد كان يصبو إلى أن يكون ابنه عمر خليفته الذي يهرع  
الناس إلى بابه يطلبون رفده وعونه في حل مشكلاتهم، ولكن أحلامه بددها القدر وسلبها  
الموت، يقول:<sup>(٣)</sup>

وَأُرَاكَ فِي يَوْمِي سُرُورٍ وَتَرْحَاةٍ  
وَتَكُونُ أَنْتَ خَلِيفَتِي وَالْمُرْتَجَى  
وَأَتَى الْقَضَاءُ بَضْدَ مَا أَتَوَقَّعُ  
خَابَ الرَّجَاءُ وَخَابَ مَا أَمَلْتَهُ

(١) ابن رشيقي، العمدة، ١٥٨/٢.

(٢) ابن نباتة، الديوان، ص ٢١٨، ابن أبي حجلة، سلوة الحزين، ص ١٣٨.

(٣) ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٥٦٨/٢.

ووقف الشعراء على قبور أبنائهم، فبثوا لواعجهم وأشجانهم وذكروا مكانها، فهذا ابن نباتة يذكر أنها منتشرة في بقاع الأرض، وما ذلك إلا ليؤكد كثرة أبنائه المتوفين ومصيبته العظمى فيهم، فقال: (١)

كَتِفَ الْحَيَاةَ وَقَدْ دَفَنْتُ جَوَانِحِي      مَا بَيْنَ أَنْجَادٍ إِلَى أَغْوَارِ  
وَحَوَى بَنِي تَرَابٍ مَصْرَ وَجَلَقِ      كَالْغَيْمِ مَرْتَكِنًا عَلَى أَقْمَارِ  
وَبَدَّتْ لَدَى الْبَيْدَا مَطِيٌّ قُبُورَهُمْ      عَلَمًا بِأَنَّهُمْ عَلَى أَسْفَارِ

ودعوا لتلك القبور بالسقيا ولساكنيها بالرحمة والغفران، فاستمطروا لها الغيوم، واستنزلوا لها المطر، وجاءت تلك المعاني في نهاية مراتبهم، ومنها قول ابن نباتة في رثاء ابنه عبد الرحيم: (٢)

وَيَا حَيَا الْعَيْثُ أَجْزَلُ      لَذَابِلِ الْعَطْفِ رِفْدُكَ  
وَأَجْعَلْ بِكَ عَلَيَّهِ      نَدَاكَ وَالنَّوْحَ رَعْدُكَ  
فَأَنْتَ صَاحِبُ عَهْدٍ      فَوَفِّ لِلْحُسْنِ عَهْدُكَ  
وَيَا رَحِيمًا دَعَاهُ      وَأَصْلُ بِرَحْمَاكَ عَبْدُكَ

ومثله قول شهاب الدين الزرعي في رثاء ابنه عمر: (٣)

جَادَتْ ثَرَى قَبْرِ جَوَالٍ سَحَابَةٍ      هَطَّالَةٍ بَرَضَى الْمُهَيِّمِينَ تَهْمَعُ  
وَتَعَاهَدُ بِكَ تَحِيَّةَ وَكَرَامَةٍ      مَا دَامَتْ الشَّمْسُ الْمَنِيرَةَ تَطْلُعُ

\* \* \*

وراح الشعراء وهم في غمرة أحزانهم وكآبتهم، وسواد ليلهم يبحثون عما يعزي نفوسهم، ويسليها، ويحثها على الصبر والسلوان، فبين بعضهم وهو ابن نباتة أن مصيبته

(١) ابن نباتة، الديوان ص ٢١٩.

(٢) ابن نباتة، الديوان، ص ١٥٧.

(٣) ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٥٦٨/٢.

في أبنائه لم يتجرع غصصها وحده، فهناك كثير من الناس ذاقوا مرارتها قبله، وهذا ما عبر عنه في قوله: (١)

كم نائح كالصدى مثلي على وادٍ يقول واحرقني إن قُلتُ واحرقني

وتعزوا عن موت أبنائهم حين نفذوا إلى آفاق الحكمة السامية، ووقفوا بمعنيين في حقيقة الموت، فبينوا أنه الكأس التي سيشرب منها البشر جميعهم، وأنه النهاية الطبيعية لهم، ولكل المخلوقين على وجه البسيطة، فهذا ابن نباتة يجعل من حياته القصيرة ونهايته القريبة تسلية له عن موت ابنه عبد الرحيم وأملأ في لقائه، ويضيف إلى ذلك أن زمانه الذي يعيش فيه نكد فلا أسف على الحياة فيه، فيقول مخاطباً ابنه: (٢)

أبنيّ إن تُكسَّ الترابَ فإنَّه ما في زمانك ما يسرُّ مؤملاً  
أبنيّ إن تَبعدَ فإن مَدَى اللقا غايات أجمَعنا وليس بعارِ  
فاذهب كما ذهب الخيالُ السَّاري بيني وبينك مُسرِعُ التَّيارِ

أما شهاب الدين الزرعي، فيتعزى عن موت ابنه عمر بمن اختطفهم الموت قبله من أهله وغيرهم، فيقول: (٣)

أبنيّ مالي في المنية حياةً لك أسوة بالذاهبين من الورى  
ما أنتَ أولَ مَنْ فقَدْتُ فأجزعُ ولنَهجهم كلُّ الخلائقِ تتبَعُ

وأكد ابن نباتة في مراثيه لأبنائه حتمية الموت وقوة بأسه وعدله، حين عاد إلى التاريخ واستلهم منه العبرة والعظة، فضرب الأمثال بالملوك الذين بلغوا أقصى درجات المجد، والشجعان الأبطال الذين خبروا الحروب وخاضوا غمارها، وتساءل عن مصيرهم ومآلهم، فبين أن الموت اختطفهم بين عشية وضحاها، وأنه لم ينفعم عزمهم ولا سطوتهم حين أزفت المنية، ويتجلى ذلك في قوله في رثاء ابنه عبد الرحيم: (٤)

(١) ابن نباتة، الديوان، ص ٣٤٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢١٨-٢١٩.

(٣) ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٥٦٧/٢.

(٤) ابن نباتة، الديوان، ص ٢١٩-٢٢٠، ابن أبي حجلة، سلوة الحزين، ص ١٣٨-١٣٩.

عثروا إلى الأجدات أي عثارِ  
بيد الردى حفات تُرب هارِ  
قدحوا القسي وناضلوا بشرارِ  
داعي المتون إلى محل بوارِ  
ضمت كمائها على أزهارِ  
حتى تساوى الدرُّ بالأحجارِ  
ولئن بدا جَزَعي فعن أعدارِ

أين الملوك الرافلون إلى العُلا  
كانوا جبالاً لا تُرام فأصَبَحوا  
أين الكمأة إذا العجاجة أظلمت  
سلموا على عَطبِ الوغى ودعاهم  
أين الأصاغرُ في المهودِ كأنما  
خلط الحمام عظامهم ولحومهم  
فلئن صبرتُ ففي الأولي مُتصبرٌ

وعدد في قصيدة أخرى أسماء بعض الملوك الجبابرة الذي هزمهم الموت ولم يشفع لهم منه شيء، فقال مخاطباً ابنه: (١)

ملك حُسنٍ كما شاء الزمان سُقي  
ما بين مُصْطَبِحٍ منها ومُعْتَبِقِ  
ولا نجا تَبَع في الزَعْف والحلق  
ولا اختفت دونه الزبَاء في نَفَقِ

بني إن تُسَق كاساتِ الحِمَامِ فكم  
بني إن الردى كأسٌ على أمم  
ما رد سيفُ الردى سيفَ بن ذي يزنِ  
ولا احتمى عنه نو سندانٍ في شرفِ

رثاء الآباء:

عرف الشعر العربي هذا الاتجاه من الرثاء منذ العصر الجاهلي، ونظم فيه الشعراء عبر عصور الأدب العربي المختلفة، إلا أنه لم يحظ باهتمام كبير لدى شعراء العصر المملوكي الأول إذ لم يسفر البحث في المصادر المتوفرة عن شعر كثير في هذا الموضوع، وكل ما عثر عليه ثلاث مقطوعات شعرية لشعراء مختلفين، وقصيدة نظمها شرف الدين حسين، رد فيها على القصيدة التي بعثها له صلاح الدين الصفدي إذ عَزاه بوالده القاضي جمال الدين سليمان بن ريان، ولا تتضمن تلك القصيدة سوى أبيات قليلة في رثاء ذلك الوالد، ركز فيها الابن على تأبينه، وذكر خصاله الحميدة التي شاعت بين الناس، وهي مآثر وصفات يعجز شعره عن حصرها، ومنها الجود والكرم والتقوى ومظاهرها الصلاة والصوم وقراءة القرآن، وأداء الواجبات الدينية المختلفة، يقول فيها: (٢)

(١) ابن نباتة، الديوان، ص ٣٤٨، ولزيد من الأمثلة أنظر ص ٢٤٨، ٢٤٩.

(٢) الصفدي، أعيان العصر، ٤٣١/٢، ابن حبيب، تذكرة النبيه، ١٢٣/٣.

أكرم به من أب شاعت مناقبهُ  
كم بات في ظلمات الليل مُنصباً  
كم ختمه قد تلاها في النهارِ وكم  
ولازم الصّوم أوقات الهواجرِ لا  
لم أقض بالشعرِ حقاً من علاه ولو  
لو قيل من فاق أرباب الصّلاح تقى

في النَّاسِ واشتهرت بالجوّد إعلانا  
في خدمة الله يقضي اللَّيل يقظانا  
أفنى الحنادس تسبيحا وقرآنا  
يرتد عن صومه ديناً وإيماناً  
نظمت في كلِّ يومٍ فيه ديواناً  
كان الجوابُ سليمانَ بن رياناً

ويموت الشيخ عبد الله بن عساكر المقدسي سنة ٦٧٢هـ، وكان من علماء التصوف، وله كرامات جليلة،<sup>(١)</sup> سكن مدينة نابلس فكان معظمها فيها، وله هناك "زاوية معمورة بالفقراء والأخيار الواردين إلى البيت المقدس، وكان له بالقدس أيضا زاوية وأنباع ومريدون".<sup>(٢)</sup> وقد رثاه ولده أبو الحسن بأبيات عبر فيها عن حزنه وألمه وحرقتة عليه، وألقى الضوء على قبره إذ أضحى مكانا عظيما ومقدسا يرتاده المتصوفة لزيارته، وزاد من عظمتة أنه مجاور مدينة الخليل حيث قبر إبراهيم عليه السلام وحرمة، وقارن الشاعر بين حال دياره قبل موت والده وبعده، فصورها موحشة مقفرة، خيم عليها الحزن والأسى، بعدما كانت عامرة وأهلة بزائريها والوافدين إليها، يقول: <sup>(٣)</sup>

أَرْضُهَا قَبْرُ الْحَبِيبِ يُزَارُ      لَكَ الدَّمْعُ مِنْ جَفْنِي الْقَرِيحِ نَشَارُ  
لَقَدْ آنَسَ الرَّحْمَنُ أَرْضًا ثَوَى بِهَا      وَأَصْبَحَ فِيهَا مَعْهَدٌ وَمَزَارُ  
وَطَابَ ثَرَى الْبَطْحَاءِ مِنْ طِيبِ نَشْرِهِ      وَحَسْبُكَ قَبْرٌ لِلْخَلِيلِ جَوَارُ  
فَلَا تَسْأَلَنَّ الصَّبْرَ عَمَّنْ أَحَبَّهُ      فِي الْقَلْبِ مِنْ فَقْدِ الْأَحْبَةِ نَارُ  
وَلَا تَذْكُرَا لِي الدَّارَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا      فَمَا الدَّارُ مِنْ بَعْدِ الْأَحْبَةِ دَارُ  
لَقَدْ أَوْحَشَتْ تِلْكَ الْمَنَازِلُ بَعْدَهُمْ      وَكَانَ عَلَيْهَا هَيْبَةٌ وَوَقَارُ  
سَلَامٌ عَلَى تِلْكَ الْخِيَامِ وَأَهْلِهَا

<sup>(١)</sup> انظر ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٩٧/١٣، اليوناني، ذيل مرآة الزمان، ٥٨/٣.

<sup>(٢)</sup> الكشي، عيون التواريخ، ٣٩/٢١، وانظر ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٩٧/١٣، اليوناني، ذيل مرآة الزمان، ٥١/٣.

<sup>(٣)</sup> المصدر نفسه، ٤٤/٢١، اليوناني، ذيل مرآة الزمان، ٥٩/٣.

ورثى الشاعر محيي الدين بن عبد الظاهر والده عبد الله بن نشوان، فبين أن سكب الدموع والحزن لا يجديان نفعا على والده الذي اختطفه الموت، وصور علم ذلك الوالد، وتمكنه من القراءات القرآنية، حيث جعل قبره وقد غدا خزانة علم، ومكانا يختم فيه القرآن الكريم يوميا، فقال: (١)

فما ابن كثيرُ الدَّمعُ إن مات نافعٌ      ولا نافعٌ حُزنٌ عليك يُحتَمُ  
خزانةُ علمٍ قبرُهُ فلماذا غدا      بها كلُّ يومٍ بالتَّلَاوةِ يُخْتَمُ

ويَتَّخِذُ الشاعرُ أبو الحسين الجَزَّارُ من رثاء والده وسيلة لا ليصور حزنه عليه، وإنما ليبرز روحه الفكهة، ويسخر من زوجة أبيه العجوز، ويظهر نغمته عليها، (٢) إذ جعلها السبب في موته، ويبدو أن والده كان قد أوصى لها بالصدّاق قبل موته، ولذا يعجب الشاعر منه لأنه أوصى بذلك لقاتله، يقول: (٣)

أذابتُ كلِّي الشَّيخُ تلكَ العجوزُ      وأردتُ أنفاسُها المرديَّه  
وقد كان أوصى لها بالصدّاقِ      فما عن مُصيبةٍ تعزّيّه  
لأنّي ما خلّيتُ أن القَتيلَ      يوصي لقاتله بالديّه

### رثاء الإخوة:

هذا الضرب من الرثاء قديم في الشعر العربي، فقد أكثر الشعراء من النظم فيه، وخاصة في العصرين الجاهلي والإسلامي، ففي هذين العصرين كان رثاء الإخوة ظاهرة عامة شاع القول فيها شيوعا كبيرا الأمر الذي حدا بكثير من أدباء العرب ومؤرخيهم إلى

(١) الصفدي، الوابي، ٤٦٤/١٨، ابن دقماق، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، ص ٢٠١، ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١ ق ١/٣٧٠، ٣٧١.  
(٢) على ما يبدو أنه كان كارها لها، ويوضح ذلك قوله حين تزوجها والده:

تزوَّجَ الشَّيخُ أبي شَيْخة	ليس لها عقل ولا ذهن
كأنها في فرشه رمّة	وشعرها من حولها قطن
لو برزت صورها في الدُّجا	ما جسرت تبصرها الجنّ
وقائل قال لي ما ستها؟	نقلت ما في فمها سنّ

انظر الكشي، عيون التواريخ، ٢١/٢٥٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣/٣٢٨.  
(٣) المصدر نفسه، ٢١/٢٥٧، فوات الرفيات، ٢/٦٣١.

التركيز عليه، والاحتفاظ بكم هائل من نماذجه في مصنفاتهم،<sup>(١)</sup> وقد دفعت هذه الوفرة في مرثي الإخوة بعض الباحثين إلى عد هذا اللون من الرثاء ظاهرة فريدة تميز بها الأدب العربي عن آداب الأمم الأخرى، وبلغ به الأمر إلى القول: "إن الرثاء العربي هو رثاء الأخ قبل كل شيء وبعده صدر عن الرجال والنساء معاً"<sup>(٢)</sup>. ولكن هذا الحكم ليس عاماً، وربما يقتصر على العصرين الجاهلي والإسلامي، أما في العصور التي تلتها، فقد تراجع هذا الاتجاه من الرثاء، إذ لم يعد القول فيه ظاهرة عامة كثر القول فيها.<sup>(٣)</sup> ولعل سبب ذلك "تغير طبيعة المجتمع من مجتمع بدوي غير مستقر إلى مجتمع حضري مستقر، وشمول ذلك الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، وأصبحت الدولة بقوانينها وأنظمتها هي المسيطرة فضعت حاجة الأخ لأخيه في مسائل الغزو، فاختفت لذلك القيادة الفردية " القبليّة" وبرزت قيادة الدولة، ومن هنا برز دور القائد العسكري في ظل الدولة فكانت هناك مرثي القواد".<sup>(٤)</sup>

أما في العصر المملوكي الأول، فقد حظي الإخوة إلى جانب الأبناء بنصيب الأسد من مرثي الأهل، ولكن ما عثر عليه في رثائهم لا يعدو كونه مقطعات قصيرة لا تتجاوز البيتين أو الثلاثة أبيات، أما القصائد، فإنها قليلة إذ لم يصل منها سوى قصيدتين كاملتين للشاعر صفي الدين الحلي، وشرف الدين الأنصاري شيخ الشيوخ، ووصلت بعض أجزاء من قصيدة للشاعر صلاح الدين الصفدي .

وتعددت الدواعي التي حفزت الشعراء على رثاء إخوانهم، فهناك دواع ذاتية اشترك فيها الرثاء في مختلف العصور، ذلك أن الأخ مرتبط بأخيه روحياً وعاطفياً، فقد تربوا تحت سقف واحد، وأكلا من زاد واحد، وتقاسما السعادة والشقاء، وتعاونوا على أعباء الحياة ومصاعبها، فإذا رحل أحدهم رحلة الالعودة كان ذلك مأساة للباقي أو الباقيين من إخوته " يعبرون عنها بحزنهم العميق، وأساهم المؤلم، فيسيل على ألسنة الشعراء منهم مرث مفعجة فيكونه دموعاً ودماً"،<sup>(٥)</sup> فرثاء الإخوة إذن "مرتبط بالنفس الإنسانية يعبر عن

(١) انظر حسين جمعة، الرثاء في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، ص ٥٧، ٤٩، أحمد يعقوب، شعر رثاء الأخوة من الجاهلية إلى نهاية العصر

الأموي، ص ٢٩، مظفر غام، الرثاء في شعر العصر العباسي الأول، ص ٢٩٧.

(٢) حسين جمعة، الرثاء في العصر الجاهلي، ص ٥٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ٦٨، أحمد يعقوب، شعر رثاء الأخوة، ص ٣١.

(٤) مظفر غام، الرثاء في شعر العصر العباسي الأول، ص ٢٩٧.

(٥) مظفر غام، الرثاء في شعر العصر العباسي الأول، ص ٣٢١ وانظر أحمد يعقوب، شعر رثاء الإخوة، ص ٣٩.



قيم الشاعر التعبيرية، وصدقة الفني، وهو فن يوازي الواقع دون تزييف، بالإضافة إلى ذلك فهو يحمل التجربة المأساوية بصورة مؤثرة وموحية فهو يمتاز بالصدق والتأثير والواقعية<sup>(١)</sup>.

ويدفع الشاعر إلى رثاء أخيه أيضا شعوره بأنه أصبح مهيبض الجناح، يواجه الحياة ومشاقها وحيدا، بعد أن فقد المعين الذي كان يشد من أزره، ويقاسمه لقمة العيش، ويحمل عنه أعباء الحياة. ومن الحوافز على رثاء الإخوة بكاء قيمهم الخيرة، وأخلاقهم الحميدة التي سلبها الموت، وخسرهما الشاعر وأهل المرثي، والمقربون منه، وأبناء مجتمعه.

وفي العصر المملوكي الأول كانت تلك الدواعي الذاتية هي حافز الشعراء على رثاء إخوانهم، إذ غلب على أشعارهم السوداوية والبكاء، فعبروا فيها عن حزنهم الحقيقي الممض، وصوروا انفعالاتهم الصادقة، وعواطفهم الجياشة النابعة من أعماق النفس المكلومة التي فقدت صنوها وعديل روحها، فهذا الشاعر عز الدين بن أبي الحديد يرثي أخاه القاضي موفق الدين أبا المعالي القاسم بن أبي الحديد، فينقل مشاعره وحرقة ببراعة وصدق وواقعية، ويناجي أخاه فيستعمل أداة نداء للقریب ليؤكد قربه من نفسه وقلبه، يقول:<sup>(٢)</sup>

أبَا الْمَعَالِي هَلْ سَمِعْتَ تَأْوِي	فَلَقَدْ عَهْدْتُكَ فِي الْحَيَاةِ سَمِيْعَا
عَيْنِي بِكَتِّكَ وَلَوْ تُطِيقُ جَوَانِحِي	وَجَوَارِحِي أَجْرَتْ عَلَيْكَ نَجِيْعَا
أَنْفَا غَضِيْبَتْ عَلَى الزَّمَانِ فَلَمْ تُطِغْ	حَبْلًا لِأَسْبَابِ الْوَفَاءِ قَطْوَعَا

أما قطب الدين القوصي، فقد رثى أخاه المجد بمقطوعة وقصيدة لم يذكر منها الصفدي سوى بيتين، صور فيهما الشاعر لوعته وأشجانه، فأقسم أن تظل دموعه منهلة، وبكاؤه متجددا كلما رأى الأحياء والأموات، حتى يلتقي بأخيه يوم القيامة، فقال:<sup>(٣)</sup>

فَلَا وَاللَّهِ لَا أَنْفُكَ أَبْكِي	إِلَى أَنْ نَلْتَقِيَ شُعْنًا غُرَاتَا
فَأَبْكِي إِنْ رَأَيْتُ سِوَاهُ حَيًّا	وَأَبْكِي إِنْ رَأَيْتُ سِوَاهُ مَاتَا

(١) أحمد يعقوب، شعر رثاء الإخوة، ص ٤٤.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٣٦.

(٣) الصفدي، الوافي، ٢٤٠/٣.

وفي مقطوعة أخرى للقوصي، يصور الشاعر قومه وهم يحاولون التخفيف عنه ومواساته، ولكنه يستنكر ذلك عليهم، إذ بين لهم أن مصيبتهم كبيرة لا ينفع معها العزاء، ولذا عاهد نفسه على مداومة البكاء حتى يلحق بركب أخيه، يقول: (١)

أَتَطْلُبُ مِنِّي مَعْشَرِي صَفْوَةَ عَيْشَةٍ      وكيف يهنا العيش مَنْ غابِ الْفِئَةُ  
إِذَا الْمَجْدُ وَلَى فَالْحَيَاةُ ذَمِيمَةٌ      وأيَ فِتْيَ هَذَا الْأَسَى لَا يَشْفُهُ  
حَلَفْتُ يَمِينَ اللَّهِ حَلْفَةَ صَادِقٍ      وإن راق هذا الدهرُ أَوْ رَقَّ صَرْفُهُ  
فَلَا دَأْبَ لِي إِلَّا الْبُكَاءُ وَعَيْشَتِي      مَكْدَرَةٌ أَوْ يَعْتَرِينِي حَقُّهُ

وتتجلى معاني الحرقه واللوعة والألم في القصيدة التي نظمها شرف الدين الأنصاري في رثاء أخيه، ومنها قوله: (٢)

جَهْدُ فُوَادِي عَلَيْكَ أَنْ يَجْزِعَ      وحظُّ عَيْنِي لَدَيْكَ أَنْ تَدْمَعُ  
وَتَلْكَ حَالِ أَخِي مَسِيئَةٌ      إذ لَا تَرُدُّ الرَّدَى وَلَا تَرْدَعُ  
كَيْفَ قَرَارِي؟ لَا سَبِيلَ إِلَى الصَّبِّ      رِ وَلَا فِي الْفَقَاءِ لِي مَطْمَعُ  
أَيْنَ فُوَادِي وَالْجَفْنُ وَالْجِسْمُ إِذْ      نبت سروري والغمضُ وَالْمَضْجَعُ؟  
تَوْحِشَنِي بَعْدَكَ الدِّيَارُ كَمَا      يُونِسُ نَفْسِي مُحَلُّكَ الْبَلْقَعُ  
صَيَّرْتَهُ لِي رُبْعًا فَصَيَّرَهُ      قَلْبِي مَصْنُفًا وَمَدْمَعِي مَرْبَعُ

تكشف الأبيات عن حزن الشاعر، ومعاناته وكآبته، وقد زاد من نبرة الحزن فيها أساليب الاستفهام المتكررة، التي لجأ إليها ليؤكد حياته المريرة التي عاشها بعد فقد أخيه، إذ هجرته السعادة، ولازمه الأرق، وعدم الصبر الجميل، لكنه يبدو مستسلما للقضاء والقدر، ومدركا أن الشقاء الملازم له لن يدفع الموت، ولن يرد عزيزا ميتا.

وإذا كان الشعراء السابقون قد نجحوا في تجسيد مشاعرهم وأحاسيسهم، ونقلها بكل صدق وواقعية، فإن بعضهم أخفق في ذلك، إذ بدت في شعره بصورة باردة لا حرارة فيها

(١) الأدهوي، الطالع السعيد، ص ٥٣١.

(٢) شرف الدين الأنصاري، الديوان، ص ٣١٠-٣١١.

ولا انفعال، فاختلفت مشاعره الحقيقية، وما ذلك إلا لطغيان الصنعة، وهذا ما يوضحه قول ابن الوردي في رثاء أخيه المتوفى بمرض السل: (١)

بعلة السل مات أخي      وكان في الأسياف معدودا  
يا مغمدا في الترب من بيننا      أكبرك مسبلولا ومغمودا

وكان صلاح الدين الصفدي أكثر شاعر نظم في هذا الاتجاه، إذ رثى أخاه إبراهيم المتوفى بمرض الطاعون سنة ٧٤٢هـ (٢) بأشعار كثيرة، أثبت منها في كتابه "الوافي" خمسا وعشرين مقطوعة، وأجزاء من قصيدة أخرى، واعترف أنه نظم غيرها، لكنه أحجم عن تدوينها فقال: "ونظمت فيه من القصائد والمقاطع غير هذا، ولكن هذا القدر كاف" (٣).

أما عن مضامينها، فقد سعى فيها الشاعر إلى تنويع صورته ومعانيه، ونهج فيها نهج سابقه من الرثاء فحمل الدهر وتصاريفه مسؤولية موت أخيه، وما نزل بساحته من أحزان، ورماه بالخيانة والجور والظلم، وتجلى ذلك في غير مقطوعة، ومنها قوله: (٤)

ألا يا دهر قد راءيتنا في      أخي فتركنا نصلى سعيرا  
أتيت لنا به نجما صغيرا      وعدت أخذته قمرا كبيرا

وقال: (٥)

قد خان دهري يا أخي      قل لي بأي يمد يمت  
لم يبق لي فيه منى      من شاء بعده فليمت

ومثله قوله مخاطبا أخاه: (٦)

وجار عليك الدهر دوني ظالما      فغادرني نبعاً وأذواك ريحانا

(١) ابن الوردي، الديوان، ص ٣٧٦.

(٢) انظر الصفدي، الوافي، ٥ / ٣٣٠، ٣٣١، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ١٢ / ٥٧.

(٣) المصدر نفسه، ٥ / ٣٣٧.

(٤) المصدر نفسه، ٥ / ٣٣٥.

(٥) المصدر نفسه، ٥ / ٣٣٥.

(٦) المصدر نفسه، ٥ / ٣٣٦.

ويقدم الشاعر صوراً كثيرة تكشف عن حالته النفسية بعد موت أخيه، فقد أضحى عيشه نكداً وحياته مريرة، يعاني فيها الوحدة والشقاء والدموع والأحزان، وتتجلى ملامح من تلك الصورة في قوله: (١)

رَحَلْتَ بَرَّغَمِي يَا أَخِي وَتَرَكْتَنِي  
وَحَلَّ بِكَ الْأَمْرُ الَّذِي جَلَّ خَطْبُهُ  
دَنَا مِنْكَ دُونِي يَا لَهَا فِيكَ حَسْرَةٌ

وحيدا أقاسي فيك أحزَابَ أحزاني  
لقد بَلَّ أرداني بدموعي وأرداني  
ولما تناءى ما أراه تناساني

مضى فوق أعناقٍ ورجلي أمامه  
يُمَثِّلُهُ وَهَمِّي إِذَا زَرْتُ قَبْرَهُ  
أَيَا نَارِ إِبْرَاهِيمَ أَحْرَقْتَ مُهْجَتِي  
وَقَالُوا: تَجَلَّدَ كِي يَهَابِكَ حُرَّتُهُ

تدوسُ من البُلُوى أسنَّةَ مُرَّانِ  
كما اعتدتُ منه قائماً يتلقاني  
فهل ينطفي جَمْرِي بدمعٍ كطوفانٍ  
ولو كان يخشاني لما كان يغشاني

ومما قاله معبراً عن وحدته وأرقه وأشجانه: (٢)

لَمَّا فَقَدْتُ أَخِي تَضَاعَفَ لِلْأَسَى  
حُزْنِي لِمِصْرَعِهِ وَحُزْنَ رَزِيَّتِي

حُزْنِي فَنَوَمِي لَا يَزَالُ طَرِيدَا  
فِيهِ وَحُزْنِي إِذْ بَقِيْتُ وَحِيدَا

ولجأ الصفدي إلى أساليب النداء لتسغفه في التعبير عن مكنون نفسه، فأكثر من مناجاة أخيه وبث أشجانه له، وتصوير ما فعل البكاء والأسى بعيونه وقلبه فقال: (٣)

يَا أَخِي حَيْثُكَ وَأَفَى  
الْجَوَى حَرَّقَ قَلْبِي

لَيْتَهُ وَأَفَى حَيْثِي  
وَالْبُكَاءَ حَرَّقَ عَيْنِي

ومن ذلك قوله: (٤)

(١) انظر الصفدي، الرائي، ٣٢٢/٥-٣٢٣.

(٢) المصدر نفسه، ٣٢٤/٥.

(٣) المصدر نفسه، ٣٢٦/٥.

(٤) المصدر نفسه، ٣٣٥/٥.

أخي لا تَلْمَنِي إِنْ دَفَنْتُكَ فِي الثَّرَى  
وكيف يكونُ القبرُ ما بين أضلعي

وأنك في الأحشاء لم تتخذ دارا  
وأنت بفضلِ الله لا تسكن النارا

يستعين الشاعر بالإضافة إلى النداء بالتورية وحسن التعليل ليسوغ لأخيه دفنه في التراب وأنه لم يدفنه في أحشائه، فبين له أن حياة القبر حيث الحياة الرغيدة والنعيم، أفضل له من أحشائه التي تعمرها نيران الحزن والأسى.

وشدة المعاناة واللوعة التي عاناها الصفدي عقب موت أخيه جعلته يخشى منها على

أهله وأقربائه من بعده، ويوضح ذلك قوله: (١)

يا ذاهبا ذاب قلبي بعده لَهَقَا  
ومن بلاتي الذي قد حلّ بعدك بي  
وليت لو كان يُغْنِيهِ تلهفه  
حملت همّ الذي بعدي أخلفه

وكان الصفدي أكبر من أخيه إبراهيم سنا، وقد أرقه هذا الأمر وأقضى مضجعه،

وجعل منه دليلا على جور الموت الذي اختطف أخاه الصغير، وجاء ذلك في قوله: (٢)

سأشرحُ قصتي للناسِ حتّى  
أيمضى الجورُ حتّى في المناربا  
يؤدّيني السّؤالُ إلى خبيرٍ  
بتقديمِ الصّغيرِ على الكبيرِ؟

ويقول معبرا عن المعاني السابقة ومصورا حبه العميق لأخيه: (٣)

قضى نَحْبًا أعزُّ النَّاسِ عِنْدِي  
فيا عجبًا تقدّمني لرَبِّي  
وما أحدٌ على الأيامِ بَاقٍ  
أخي وأنا أراه في السّياقِ

ولم يكن الشاعر وحده الذي ندب أخاه وبكاه، بل شاركته ذلك السحب والحمائم،

وهذا ما يوضحه قوله: (٤)

(١) الصفدي، الواقي، ٣٣٧/٥.

(٢) المصدر نفسه، ٣٣٤/٥، ابن تفردي بردي، المنهل الصافي، ٥٧١/١.

(٣) الصفدي، الواقي، ٣٣٤/٥.

(٤) المصدر نفسه، ٣٣٦/٥.

راح إلى الله أخي مُسرعاً  
والسحبُ تبيكه بدمع الحيا

لا أصغرَ الرحمنُ مسعاهُ  
والورقُ في الأغصانِ تتعاهُ

ومن ذلك قوله مخاطباً الحمائم: (١)

ويا ساجعاتِ الورقِ هجيتِ صبابتي

وقد نُحنتُ من شجورِ على عذبِ البانِ

وجرت العادة في أشعار الرثاء أن يعزي الرائي نفسه عن مصابه، وأن يتحدث عن الأشياء التي تخفف من وطأة حزنه، وتهدئ من لوعة نفسه، وقد تناول الصفدي هذا الجانب فبين أن ما يواسيه في خطبه الجلل هو أن أخاه مات قبله، ولم يذق مرارة الثكل، وقسوة الفراق، فقال معبراً عن ذلك: (٢)

وهونَ خطبي كونه راح سالماً  
وما ناله لو ميت حرقاً أشجاني

ومثله قوله: (٣)

فهونَ خطباً لم يهنُ كونه قضى

وما ذاقَ ما قد ذُقتُ من عُصاةِ الثكلِ

وعزى الشاعر نفسه حين تحدث عن مشكلة الحياة والموت، تلك المشكلة التي طالما أرقّت البشرية، فبين أن الدنيا دار عبور، وأن الإنسان فيها ضيف نهايته الرحيل والموت، وما دامت كذلك فإن الحزن والأسى لا يجديان، فمن أخذه الموت لا يرده البكاء، يقول: (٤)

هذي الحياةُ إذا فرضنا أنها  
والله ليس تقى بأن جوهنا

طالت وقد سلّمت من الأنكادِ  
في التربّ تغدو طُعْمةً للذودِ

ومن ذلك قوله: (٥)

(١) الصفدي، الوافي، ، ٣٢٢/٥.

(٢) المصدر نفسه، ٣٢٦/٥.

(٣) المصدر نفسه، ٣٢٢/٥.

(٤) المصدر نفسه، ٣٢٥/٥.

(٥) المصدر نفسه ٣٢٥/٥.

يا ليت شعري وعلمي قد مضى وقضى      بأن دهري بما أهواه غير سخي  
هل عاد مئت على من بات يندبه      طول الزمان فأرجو أن يكون أخي

وألقى الصفدي الضوء على المصير الذي آل إليه أخوه بعد موته، وكشف النقاب عن حاله في قبره، فقدم لذلك صورتين: إحداهما يظهر فيها الأثر الديني جلياً إذ صورت الفقيد وهو ينعم في قبره، ويحظى برحمة الله وغفرانه، وتتجلى في قوله: (١)

كأنني به إذ بات في قعرٍ لَحْدِهِ      وحيدا ولم يأنس بأهلٍ وجيرانِ  
تداركه لطفُ الإله بنسمةٍ      تهبّ على أزهار عفوٍ وغفرانِ  
وقد نورَ التوحيدُ ظلمةَ قَبْرِهِ      وحيّاهِ رضوانٌ بروحٍ وريحانِ

وفي الصورة الثانية ظهر أخوه في قبره، وقد أضحى جسده بالياً وطعاماً لديدان الأرض وهوامها، وهي صورة واقعية، قلما برزت في مرآتي هذا العصر، يقول مخاطباً أخاه: (٢)

يا ساكناً تحت طباقِ التُّرى      وهو مع المعدومِ مَعْدودُ  
بأيّ خديك تبديّ البلى      وأيّ عينيك رعى الدودُ

أما قصيدة صفي الدين الحلبي التي رثى بها أخاه عبد الله بن سرايا، فتبلغ خمسة وثلاثين بيتاً، ويتضح منها أن تلك الفاجعة التي نزلت بالشاعر كانت مكملة لسلسلة من مآسي الموت التي فقد فيها ستة من أهله وأقربائه وصحبه، ولذا يبدو فيها ناقماً على الدنيا وصروفها، يقول: (٣)

(١) الصفدي، الوافي، ٢٣٣/٥.

(٢) المصدر نفسه، ٢٣٦-٢٣٧/٥.

(٣) الحلبي، الديوان، ص ٣٠٩.

أرى العيشَ في الدنيا كأحلامٍ نائمٍ  
فمن حادثٍ جِمْ صَفَقَتْ لَهُ يَدِي  
أفِي السَّتِّ وَالْعَشْرِينَ أَفْقَدُ سِتَّةً  
فَقَدْتُ ابْنَ عَمِّي وَابْنَ عَمِّي وَصَاحِبِي

فَلذَاتُهَا تَفَنَّى، وَأَحْدَاثُهَا تُفَنِّي  
وَمَنْ فَادِحٍ صَعْبٍ قَرَعَتْ لَهُ سَنِّي  
جِبَالًا غَدَّتْ مِنْ عَاصِفِ الْمَوْتِ كَالْعِهْنِ  
وَأَكْبَرَ غِلْمَانِي بِهَا وَأَخِي وَابْنِي

ويقدّم الشاعر في قصيدته معاني لم يتطرق إليها غيره من شعراء رثاء الإخوة في هذا العصر، فقد كشف فيها عن روحه القبلية، وذلك حين، تمنى أن يكون أخوه قد مات في ساحة المعركة حتى يهب فيدرك ثأره كما أدرك ثأر أخواله من قبل، وصور فيها العلاقة المتينة التي ربطته بأخيه، فجعل ذلك الفقيد بمثابة الأب النصح الذي كان يعطف عليه، ويسهر على راحته وخدمته، وبمثابة الابن الذي يطيعه في الأمور كلها، ولهذا كان موته مصيبة كبرى له تهون عندها المصائب كلها، تركته مقيدا بالدموع والأحزان، وحبس الهموم والآلام، ولا يقدر من وهنه وحزنه على قول الشعر ونظم القوافي، يقول: (١)

وَلَوْ سَلَبْتُهُ الْحَرْبُ مَنِّي لَشَاهَدْتُ  
وَأَبْكَيْتُ أَجْفَانَ الصَّوَارِمِ وَالْقَنَا  
فِيَا ابْنَ أَبِي وَالْأُمِّ، قَدْ كُنْتَ لِي أَبَا  
لِيَهَيْتَكَ أَنْ الدَّمْعَ بَعْدَكَ مُطْلَقًا

كَمَا شَاهَدْتُ فِي ثَأْرِ أَخْوَالِهِ مَنِّي  
نَجِيعًا، غَدَاةَ الْكُرِّ فِي الضَّرْبِ وَالطَّعْنِ  
حُنُوءًا، وَلَكِنْ فِي الْإِطَاعَةِ لِي كَابِنِي  
لِفِرْطِ الْأَسَى، وَالْقَلْبِ بِالْهَمِّ فِي سِجْنِ

وَحَاوَلْتُ نَظْمَ الشَّعْرِ فِيكَ مَرَاتِيًا  
أَمِنْتُ صُرُوفَ الدَّهْرِ بَعْدَكَ وَالْأَذَى  
سَابِكِيكَ بِالْعَزِّ الَّذِي كُنْتَ مُلْبَسِي  
وَأَعْلَمُ أَنَّ الْخُزْنَ وَالْمَوْتَ وَاحِدًا

فَارْتَجَّ حَتَّى كَدَيْتُ أَخْطَى فِي الْوِزْنِ  
فَمَنْ ذَا رَأَى مِنْ صَارَ بِالْخَوْفِ فِي أَمْنِ  
لَدَيْكَ وَثَقَلِ كُنْتَ تَحْمِلُهُ عَنِّي  
عَلَيَّ فَذَا يُضْنِي الْقُلُوبَ وَذَا يَفْنِي

ويخصّص الشاعر جزءاً من قصيدته للحديث عن مناقب أخيه وخصاله الحميدة، وهذا أمر مألوف في مرثي الأخوة وغيرها منذ عصور الأدب العربي الأولى، فيشيد

(١) الحلبي، الديوان، ص ٣١٠.



برجاجة عقله، وشجاعته وعفة نفسه وطهارتها، وجوده وكرمه، وابتعاده عن الكذب وارتكاب الفواحش، ويركز على وصف تقواه وزهده، ويؤكد أن تلك الصفات قد ورثها الابن عن أبيه، فيقول: (١)

عفيف نواحي الصدر من طي ريبة  
قريب إلى المعروف والخير والتقى  
جبان عن الفحشا شحيح بعرضه  
ومن أتعب اللوام في بذل بره  
مضى طاهر الأثواب والنفس والخطى  
سرايا خصال من سرايا ورثتها  
فقد كنت تحيي الليل بالذكر ضارعا  
فيؤنسني ترتيب نفلك في الضحى

سليم ضمير القلب من دنس الضغن  
بعيد عن الفحشاء والإفك والأفن  
إذا عيب بعض الناس بالشح والجبن  
فلائمه يثني وأمله يثني  
عفيف مناط الذيل والجيب والردن  
على أن هذا الورد من ذلك الغصن  
إلى الله حتى صرت بالنسك كالشن  
ويطربني ترتيل وردك في الوهن

### رثاء الأخوال:

الأخوال جزء من الأهل والأقارب الذين رثاهم الشعراء منذ العصر الجاهلي وأكثروا من ذلك، فقد كانت رابطة الدم تحتم عليهم نديهم والثناء عليهم، وتعداد فضائلهم وصفاتهم الحميدة، وحذا ذلك الحدو شعراء العصر المملوكي الأول إلا أن هذا الاتجاه من الرثاء لم يكن ظاهرة عامة شاع القول فيها آنذاك، إذ لم يسفر البحث إلا عن ثلاث قصائد طويلة نظمها الشاعر صفي الدين الحلبي في رثاء أخواله، واحدة في رثاء خاله صفي الدين بن محاسن، وأثنان في رثاء خاله جلال الدين عبد الله بن حمزة بن محاسن، وقد قتل هؤلاء في الصراع الذي كان دائرا بين قبيلة الشاعر بني سنبس،<sup>(٢)</sup> وقبيلة آل أبي الفضل،<sup>(٣)</sup> ذلك الصراع الذي شارك فيه الشاعر نفسه، واصطلى بناره، وأدرك فيه ثأر أخواله الأمر الذي جعله مطارداً، واضطره إلى ترك العراق والتنقل في البلاد. وتشابهت

(١) الحلبي، الديوان، ص ٣١٠-٣١١.

(٢) بنوسنس ويقال لهم سنسب بطن من طيء، وهم بنو معاوية بن جرول بن طيء كانت منهم طائفة في العراق وطائفة بدمياط من مصر، انظر ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ١٥٦، المقرئ، البيان والإعراب، ص ٧-١١، القلقشندي، نهاية الأرب، ص ٢٩٦.

(٣) انظر الصفدي، الوافي، ٤٨٥/١٨، أحمد الإسكندري، صفي الدين الحلبي، ص ٢٤٤، ٢٤٧، د. محمد حور، صفي الدين الحلبي، حياته، وآثاره وشعره، ص ٢٤، بطن من آل ربيعة كانت منازلهم من حمص إلى قلعة جعير إلى الرجة آخذين على شقي الفرات وأطراف العراق، انظر ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ١٤ وما بعدها، القلقشندي، نهاية الأرب، ص ١١٠-١١١.

القصائد الثلاث في مضامينها، إذ ظهرت فيها الروح القبلية جلية، وغلبت عليها معاني التهديد والوعيد، وهجاء آل أبي الفضل ورميهم بكل قبيح، والدعوة إلى الأخذ بالثأر منهم والتكيل بهم، وقد جعلت تلك المعاني لغة القصائد أقرب إلى شعر الحماسة منها إلى شعر الرثاء، وتحدث الشاعر فيها أيضا عن مآثر أخواله المقتولين وخصالهم الحميدة، وما اتصفوا به من شجاعة ونجدة وكرم وفصاحة وعطف على الفقراء والمحتاجين، وبين أن تلك الصفات والفضائل كفيّلة بأن تجعلهم خالدين مدى الحياة، كما صور مكانتهم العظيمة في قبيلتهم، ودورهم في مساندتها والذب عنها، وفي مقابل ذلك مدح قبيلته، سنبس، وأشاد بمآثرها، وبمنزلتها المرموقة في العراق، وبين صفات أفرادها وما تميزوا به من شجاعة وجود وسيادة، وكشف الشاعر عن الأثر الذي خلفه موت أخواله في نفسه وعلسى قبيلته وعلى الدنيا بأسرها بإنسانها وحيوانها وجمادها، ودعا لأولئك المرثيين بالرحمة والمغفرة، ولقبورهم بالسقيا، وعكس موقفه من الموت فصوره ذا قوة وجبروت لا يمنع منه مانع ولا يصدّه شجاع، ولا توقفه السيوف ولا الرماح.

ويكتفي هذا البحث بدراسة نموذج واحد من تلك القصائد،<sup>(١)</sup> وهي القصيدة الميمية التي نظمها الحلبي في رثاء خاله صفي الدين بن محاسن،<sup>(٢)</sup> وفيها يهاجم الشاعر آل أبي الفضل فيهجوهم هجاء مرا، وينعتهم بالغدر والمكر، ويرميهم بالجبن، ويتعجب من تغيير الأحوال في العراق وتجروؤ أولئك الذئاب على أسود قومه وشجعانهم، ويظهرهم بصورة المعتدين الذين بدأوا بالشر والعداوة والحرب، وما ذلك إلا ليؤكد أن الحروب التي أشعلوا فتيلها ستحرقهم بنارها، وأنها لن تجدي نفعا أمام صمود قومه وبأسهم، وهو في كل ذلك يتمنى الموت على أن يرى اليوم الذي يتحكم فيه أولئك القوم من آل أبي الفضل بأخواله، يقول:<sup>(٣)</sup>

(١) انظر القصائد الأخرى في ديوان الحلبي، ص ٢٨٣-٢٨٦.

(٢) انظر الصفدي، الوافي، ٤٨٥/١٨، أحمد الإسكندري، صفي الدين الحلبي، ص ٢٤٤، ٢٤٧، د. محمد حور، صفي الدين الحلبي، حياته وآثاره

وشعره، ص ٢٤، العمري، مسالك الأبصار، ص ١٤ وما بعدها، الفلقشندي، نهاية الأرب، ص ١١٠-١١١.

(٣) الحلبي، الديوان، ص ٢٨١.

انظرْ إلى المَجْدِ كَيْفَ يَنْهَدِمُ  
واعجبْ لشهبِ البُرْزَاةِ كَيْفَ غَدَّتْ  
قد كنتُ اختارُ أنْ أُغَيِّبَ فِي التَّـ  
ولا أرى اليَوْمَ مَنْ أَكْبَرِنَا  
ظَنُّوا الوَلَايَاتِ أنْ تَدُومَ لَهُم  
واقْتَدَحُوا بِالْوَعِيدِ نَارَ وَغَى  
لم يعلموا أَيَّ جَنْدَةٍ قَدَّحُوا  
بل زعموا أنْ يصدنَّا جَزَعٌ

وَعُرْوَةَ الْمَلِكِ كَيْفَ تَنْفَصِمُ  
تَسْطُو عَلَيْهَا الْجِدَاةُ وَالرَّخْمُ  
تترب، وتبلى عظامي الرَّمْمُ  
أَسْدًا وَفِيهَا الذَّنَابُ قَدْ حَكَمُوا  
فَاقْتَطَعُوا بِالْبِلَادِ واقْتَسَمُوا  
وَرُبَّ نَارٍ وَقُودُهَا الْكَلِمُ  
وَأَيَّ أَمْرٍ إِلَيْهِ قَدْ قَدِمُوا  
كَانَتْ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ مَا زَعَمُوا

ثم يكشف الشاعر عن نغمته على آل أبي الفضل، فيحث قومه على قتالهم وإدراك  
ثأر خاله ويبين أنهم قادرون على ذلك بما يملكون من وسائل وصفات تكفل لهم النصر،  
ومنها السيادة والبأس والشجاعة التي تميز بها صغيرهم وكبيرهم، فضلا عن عدلهم،  
وفصاحة لسانهم، ويتساءل عن سبب قعودهم إلى تلك اللحظة عن مواجهة أعدائهم وهم  
ذوو عدد كبير وأصحاب سطوة في العراق، ويفضل الشاعر مرة أخرى الموت على أن  
يرى قومه أدلاء مهانين يتحكم بهم من هو أقل شأنًا منهم، يقول: (١)

(١) الخلي، الديوان، ص ٢٨٢.

وَأَنْكَرْتَنَا الصَّوَارِمُ الْخُذْمُ  
تَذُوبُ مِنْ نَارِ حِقْدِهَا اللَّجْمُ  
وَكُلَّ طُوبٍ مِنْ فَوْقِهِ صَنَمٌ  
كَأَنَّهُمْ لِلْحَيَاةِ قَدْ سَأَمُوا  
أَسْدًا عَلَيْهَا مِنَ الْقَنَا أَجْمُ  
وَشَيْخُهُمْ لَا يَشِينُهُ هَرَمُ  
وَفِي التَّقَاضِي إِنْ حُكِمُوا ظَلَمُوا  
أَوْ نَطَقُوا كَانَ نَطَقَهُمْ حِكْمُ  
وَأَمْرُنَا فِي الْعِرَاقِ مُنْتَظَمُ  
كَتَائِبٍ كَالْغَمَامِ تَزْدَجِمُ  
تَحَكَّمَتْ فِي أَسْوَدِنَا الْغَنَمُ

لَا عُرِفَ الْعَزُّ فِي مَنَازِلِنَا  
إِنْ لَمْ نَقْذُهَا شُغْتًا مُضْمِرَةً  
بِكُلِّ أُرْبٍ فِي مَتْنِهِ أَسَدٌ  
مَنْ فِتْنَةٍ أَرْخَصُوا نَفُوسَهُمْ  
إِنْ زَارُوا فِي الْهَيَاجِ تَحْسَبُهُمْ  
صَغِيرَهُمْ لَا يَعْيبُهُ صَغَرٌ  
فِي التَّقَاضِي إِنْ حُكِمُوا عَدَلُوا  
إِنْ صَمَّتُوا كَانَ صَمَّتَهُمْ أَدْبًا  
مَا عَذَرْنَا وَالسَّيُوفُ قَاطِعَةٌ  
وَحَوْلْنَا مِنْ بَنِي عُمُومَيْتَا  
بِأَيِّ عَيْنٍ نَرَى الْأَنَامَ وَقَدْ

ثم يعبر عن رغبته الشخصية في الانتقام، وتحرقه للأخذ بالثأر، فيعاهد نفسه على ذلك، ويدعو عليها بأن تنزل بها الأسقام إن هي لم توف بعهداها، ويتخيل تلك الحرب التي سيخوض غمارها فيصورها حربا لا هوادة فيها، تطحن فيها الرؤوس، وتسفك الدماء، ويسلب هولها العقول، يقول: (1)

تَلُوحُ حُسْنًا كَأَنَّهَا عَلَمُ  
يَجُولُ فِيهَا الْحُسَامُ وَالْقَلَمُ  
يُصْبَغُ مِنْ سَيْلِ قَطْرِهَا الْقَدَمُ  
تَحَصَّنُوا بِالْحِصُونِ وَاعْتَصَمُوا  
وَأَنْفُسُ الذَّارِعِينَ تُخْزِئُ  
يَوْمًا، فَلِي دُونَهُمْ يَدٌ وَقَمُ

لَا شَاعَ ذِكْرِي بِنِظْمِ قَافِيَةٍ  
وَشَلَّ مِنْ بِي يَدٌ عَوَائِدُهَا  
إِنْ لَمْ أَخْضَبْ مَلَابِسِي عَلَقًا  
وَآخِذِ الثَّارِ مِنْ عِدَاكَ وَلَوْ  
فِي وَقْعَةٍ تَسْلُبُ الْعُقُولَ بِهَا  
إِنْ بَاشَرْتَهَا أَقَارِبِي بِيَدٍ

وينقل الشاعر إلى مناجاة خاله، فيشيد بمناقبه، ويعدد خصاله الحميدة، فيظهره على درجة عالية من الشجاعة والبأس والسخاء، ويتحدث عن العلاقة المتينة التي كانت تربطه

(1) الحلبي، الديوان، ص 282.

بابن اخته الشاعر، وبقبيلته، ويكشف عن دوره في حمايتهم ورعايتهم والذب عنهم، وهذا ما يجعله جديراً بالبقاء والثأر، ويعاهد الشاعر نفسه في نهاية القصيدة، على أن يظل وفيّاً لخاله، وألا تجف له دموع حتى يدرك ثأره، ويشفي غليله من قاتليه، يقول: <sup>(١)</sup>

يا صاحب الرتبة التي نكصت	من دون إدراك شأوها الهمم
قد كنت لي ذابلاً أصول به	ما خلته في الهياج ينحطم
كففت عنا كف الخطوب فمن	بعدك أمسى الزمان ينتقم
ما أكسبتنا الأيام ثوباً على	إلا وأنت الطراز والعلم
تبكي المواضي وطالما ضحكت	منك وأمسيت غمودها القمم
فالיום قد أصبحت صوارمها	وشمئها في الهياج منصرم
بذكرني جودك الغمام إذا	أصبح دمع الغمام ينسجم
إذ كنت لي ديمة تسح ولا	ينساک قلبی ما سحت الدیم
لا جمدت أدمعي، ولا خمدت	نار أسى في أحشاي تضطرم
وكيف يرقا عليك دمع فتى	ولحمه من ثراك ملتحم

<sup>(١)</sup> الحلبي، الديوان، ص ٢٨٢-٢٨٣.

الفصل الثاني

رثاء أرباب الدول

## كثرة المراثي ودواعي الرثاء

شاع هذا اللون من الرثاء شيوعاً كبيراً، فما إن يموت أحد من أولئك الأرباب حتى يهب الشعراء إلى رثائه وبكائه، وقد شملت المراثي ملوك الدولة المملوكية الأولى في مصر والشام، وأمراءها ونوابها أمثال: الملك عز الدين أيبك، والظاهر بيبرس، والمنصور سيف الدين قلاوون الألفي، وابنه الأشرف، والملك الناصر محمد بن قلاوون وغيرهم.

ورثي بعض قادة الدولة العباسية الذين أدركوا الحياة في العصر المملوكي الأول، وشملت المراثي ملوك بني أرثق في ماردين، ومنهم: الملك المنصور نجم الدين غازي، والصالح بن غازي بن قرا أرسلان وأخرون، ورثي ملوك بني أيوب في الشام، وهؤلاء قسمان: قسم حكم الشام قبل خضوعها السياسي والعسكري لسلطان الدولة المملوكية مثل: الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقسم حكمها أو استمر في حكمها بعدما أضحت تحت سيطرة المماليك، وتركز وجود هؤلاء في مدينة حماة، ومنهم الملك المنصور الثاني، والملك الأفضل نور الدين علي، والملك المؤيد عماد الدين إسماعيل أبو الفداء صاحب "المختصر في أخبار البشر"، و"تقويم البلدان"، وابنه الأفضل محمد.

نال الملك الظاهر بيبرس الحظ الأوفر من المراثي، فقد وصل منها عشر قصائد طويلة فضلاً عن بعض المقطوعات، وهي تشكل مجموعها ديواناً شعرياً صغيراً، ويليه في حجم المراثي ملوك الأيوبيين في حماة، فقد أكثر شاعرا دولتهم، جمال الدين بن نباته، وصفي الدين الحلبي من رثائهم. وأكثر الحلبي من رثاء أرباب دولة بني أرثق في ماردين، ورثي بعض الملوك والقادة بقصائد كثيرة، إلا أن ما وصلنا منها قليل، فقد ذكر المؤرخون أن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب "رثاه غير واحد من شعراء دولته وغيرهم"<sup>(١)</sup> وأن الملك المنصور قلاوون "رثاه جماعة من الشعراء"<sup>(٢)</sup> وقيل مثل ذلك في ترجمة علاء الدين الطبرسي الظاهري المعروف بالدويدار الكبير.<sup>(٣)</sup>

ودعت أسباب عديدة الشعراء إلى الإكثار من رثاء بعض الملوك منها الرغبة في الوفاء لهم، ونيل رضی ذويهم، والحصول على الجاه والمال والسلطان، ونستطيع تلمس

(١) الكشي، فوات الرفيات، ٣٦٤/٤، عيون التواريخ، ٢٠/٢٦٣-٢٦٤.

(٢) العيني، عقد الجمان، ٢٠/٣.

(٣) 'نظر ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٦٥، الأشرف الغساني، المسجد المسبوك، ٥٩١/٢ ولزريد من الأمثلة انظر: الكشي، عيون

التواريخ، ٢٠/٤٢٤.

تلك الدوافع في مرثي الظاهر بيبرس، فقد كان هذا الملك شخصية فذة استطاعت أن تعيد للإسلام مجده، وللمسلمين هيبتهم وكرامتهم التي استباحها أعداء الإسلام من مغول وصليبيين، فضلاً عما عرف به من عدل وتقوى وانقياد للشرع، ورعاية لأمر المسلمين، الأمر الذي جعل فترة حكمه من أزهى عصور الدولة المملوكية الأولى والثانية أيضاً، ويكفيه ما قاله المؤرخون فيه، وما ألفوا من سير خاصة تؤرخ حياته، وتصف دقائقها، وتصور ملامح شخصيته،<sup>(١)</sup> كما تغنى الشعب بانتصاراته وعدوا شخصيته وسيرة حياته مثلاً يحتذى، فكتبوا فيها سيرة شعبية من أروع ما نطق به وجدان الشعب العربي، عدوه فيها "ولياً" يأتي بالعجائب والخوارق، ومخلصاً ينتظره الناس بصبر نافذ، ليرفع عن كواهلهم الظلم، ويرد عنهم غاشية العدو، ويوزع الأمر بينهم بالقسط"<sup>(٢)</sup>، وهذا ما جعل كثيراً من الشعراء يتسابقون في رثائه وبكائه وندبه، والإشادة بمآثره.

ودعا بعضهم إلى رثائه رغبتهم في التكسب ونيل الجوائز والعطايا، ويؤيد ذلك أنه في سنة ٦٧٧هـ - أي بعد وفاته بسنة - عملت له أعزية " بالديار المصرية، وتقرر أن تكون أحد عشر يوماً في مواضع متفرقة، ونصبت الخيام العظيمة، وصنعت الأطعمة الفاخرة، واجتمع الخاص والعام، وحملت الأطعمة إلى الربط والزوايا، وحضر القراء والوعاظ إلى صلاة الفجر"<sup>(٣)</sup> وانفرد ابن شداد بخبر مفاده أن الشعراء حضروا في ذلك اليوم، وأنشدوا المرثي بين يدي الملك الجديد وهو السعيد بن الظاهر بيبرس، وكان عددهم اثني عشر شاعراً، وخلع على الأديبين أبي الحسين الجزار، وناصر الدين بن النقيب، "وأعطي من بقي من الوعاظ والشعراء جوائز بحسب مراتبهم"<sup>(٤)</sup> ولعل هذا يفسر جودة المرثي التي نظمت في رثاء بيبرس، فالتنافس بين الشعراء وقدرتهم على نظم الشعر، فضلاً عن أن جلهم كانوا من فحول الشعراء في زمانهم أمثال الجزار، وابن النقيب، ومجد الدين بن الظهير الإربلي، وشرف الدين الإربلي وغيرهم.

ومن الشعراء الذين حضروا العزاء ورثوا بيبرس محيي الدين بن عبد الظاهر، وكان ذا حظوة كبيرة عند الملوك الراحل، فقد عمل كاتباً في دولته، وشاركه في حركاته

(١) من تلك السم " تاريخ الملك الظاهر" لابن شداد، و "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر" محيي الدين بن عبد الظاهر.

(٢) عبد الحميد يونس، الظاهر بيبرس في القصص الشعبي، ص ١٩.

(٣) الصفدي، الوافي ٣٣٧/١٠، ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٣١-٢٣٢، وانظر اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٢٤٩/٣.

(٤) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٣١-٢٣٢، وانظر اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ص ٢٤٩.



وسكناته، وعرف تفاصيل حياته ودقائقها، فألف فيه السيرة المعروفة بـ "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر"، ووصفه فيها وصف المطلع الخبير، ووصل إلينا من مراثيه قصيدتان وعدة مقطوعات بدا فيها حزناً، وبأكياً على ماضيه العريق، وخائفاً من المستقبل المجهول، فصرح بأحاسيسه الداخلية، وصراعه الداخلي، وهذا ما وضحه الحوار التالي الذي دار بينه وبين ذاته، فقال في نهاية إحدى مراثيه: (١)

وَخَلَيْتَ مِنْ حُزْنِ قَلْبِي أَقْبَلْتُ	عَنْ شَرْحِ أَحْوَالِي الْخَفِيَّةِ تَسْأَلُ
أَفْهَمْتُهَا بَنِي وَحَزْنِي بَعْدَ مَنْ	كَانَتْ لَدَيْهِ مَكَانَتِي تَتَأَسَّلُ
وَشَنَنْتُ أَمَالِي وَأَنْبِي بَعْدَهُ	لَوْ أَسْتَطِيعُ رَحَلْتُ فِيمَنْ يَرْحَلُ
قَالَتْ: لَكَ الْقَلَمُ الَّذِي كَمْ طُرِّزْتُ	سَيْرٌ بِهِ وَقِصَائِدٌ وَتَرْسَلُ
نَادَيْتُهَا لَا شَيْءَ مِنْ ذَا نَافِعٍ	قَلَمُ الْبَلِيغِ بَغَيْرِ حِظٍّ مُنْزَلُ
قُلْتُ: الْوَسَايِطُ عِنْدَهُ مَنْ لِي بِهِمْ	لَوْ أَنْتَبِي بَعْلَاهُمْ أَتَوَصَّلُ
قَالَتْ: فَذَكَرَهُمْ بِحَرَمَةٍ مِنْ مَضَى	فَلَعَلَّهُمْ أَنْ يُجْمَلُوا أَوْ يُفْضَلُوا
وَالآنَ قَدْ ذَكَرْتَكُمْ وَأَنْتُمْ	فِي كُلِّ أَمْرٍ لِلْخَلَائِقِ مَوْئَلُ
فَارْعَوْا حَقُوقِي إِنِّي لِي عِنْدَكُمْ	خِدْمًا بِأَيْسَرِهَا الْإِرَادَةُ تَحْصَلُ

يعبر الشاعر عن أحاسيسه الحزينة، ويتمنى الموت بعدما فقد مليكه، وتقطعت به الأسباب، لكن ذاته تواسيه وتخفف عنه، وتبين له أن مكانته ستظل محفوظة في دولة الملك السعيد بن الظاهر بيبرس، وتحثه على مناشدة أرباب تلك الدولة، فيتوجه لهم بالخطاب، ويذكرهم بمكانته السابقة عند الملك الراحل، ويطلب منهم أن يحفظوا له تلك المكانة، وأن يرعوا له حقوقه.

وتتجلى بعض المعاني السابقة في قصيدة أخرى نظمها ابن عبد الظاهر في رثاء بيبرس، يقول فيها مخاطباً الملك السعيد: (٢)

أَنَا جَارٌ بِأَبِكُمْ الْقَدِيمِ وَمَثَلُكُمْ      يَمْشِي لَدَيْهِ الْجَارُ لَيْسَ يُضَامُ

(١) المصدر نفسه، ص ٢٣١-٢٣٢، المصدر نفسه، ٢٤٩/٣.

(٢) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ١٤٤/٧..

والرأي أعلى في رعاية خدمتي فبمثل برك يَجْمُلُ الإتمام

ونظم الشاعر شرف الدين بن سليمان الإربلي قصيدة في رثاء بيبرس، وأرسلها إلى العزاء، فألقاها نيابة عنه شاعر آخر، وقد صور الشاعر قصيدته تربو في قوتها وحسن ديباجتها على كلام فصحاء العرب وشعرائهم، وذلك لبيان أحقيتها بالعطايا والجوائز، وبدافيتها نادماً ومتأسفاً على عدم مشاركته في العزاء، ولذا وعد الملك السعيد بقصيدة أخرى يسعى بها إليه، ليلقيها على مسامعه، وهنا تظهر رغبته في نيل الأموال حين صور ذلك الملك كعبة ينال عندها الزائر ما يتمناه، يقول فيها: (1)

مَلِكٌ رَفَعْتُ إِلَى عِلَاهِ خُرَّةً  
تُنْسِي مَعَانِيهَا وَرَقَّةً لَفْظَهَا  
أُرْسَلْتُهَا إِذْ لَمْ أَطِقْ سَعْيًا بِهَا  
لَتَتُوبَ عَنِّي فِي مَقَرِّ جَلَالِهِ  
وَأُزُورُ بِالْفَسْطَاطِ كَعَبْتَهُ التِّي  
وَأَحِلُّ بِالْحَرَمِ الشَّرِيفِ فَكَمْ بِهِ  
حَسَنَاءَ زَارِيَةً عَلَى حَسَانِ  
مَا قِيلَ عَن قَيْسٍ وَعَنْ سَخْبَانِ  
لَأَعْرَمَ مَنْ وَاَدِّ الْمُلُوكِ هِجَانِ  
يَعْنُو لِعَزَّتْهَا الْعَظِيمُ الشَّانِ  
فَرَضَ زِيَارَتَهَا عَلَى الْإِنْسَانِ  
نَالَ الْمُنَى قَاصِ أَتَاءِ وَدَانِ

وعبر أولئك الشعراء عن رغبتهم في الجوائز والعطايا حين ركزوا على مضامين بعينها، واتبعوا نهجاً متشابهاً في بناء قصائدهم، فقد انتهت كلها بالجمع بين التهنية والعزاء، وتخلصت من ذلك إلى الإشادة بالملك السعيد، وأكثر معنى تردد على ألسنتهم هو معنى الجود والكرم، فقد بالغوا في عرض تلك الصفة، وتفننوا في ذلك فجعلوه المتفرد فيها، وصاحب السبق الذي يعطي دون حساب، وعدوه أملهم المنشود في تغيير أوضاعهم البائسة.

إن الأساليب والمعاني السابقة تؤكد رغبتهم في المال خاصة وأنها جاءت في القسم الأخير من مرثيتهم، وهو القسم الذي يظل عالقاً بالذات، وربما يكون على أساسه حجم العطايا والجوائز، (2) ولعل ذلك هو السبب بعينه الذي كان وراء حصول جميع الشعراء على جوائز الدولة.

(1) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص 209.

(2) ستان الأمثلة في الصفحات القادمة من هذا الفصل.

أما الملك المنصور سيف الدين قلاوون، فلا يقل دوره أهمية عن الدور الذي لعبه الظاهر بيبرس، فقد سار على نهجه في حماية الأمة، والتصدي لأعدائها المغول والصليبيين، وفي الاهتمام بشؤون الرعية، وحفظ أمنها واستقرارها، ونشر العدل بينها، ولذا كان لموته أثر كبير في نفوس المسلمين عامة، وشعرائهم خاصة، فرثوه بمرات وصل منها أربع قصائد ومقطوعة واحدة.

وقد حفز الشعراء على رثائه ما خيم على نفوسهم من حزن وأسى، وما أحسوا به من رغبة في الوفاء له، وبرز عند أولئك الذين كانوا على صلة مباشرة به، ولازموه في الغدو والعشي، ومنهم الأديبان شافع بن علي الكاتب، ومحيي الدين بن عبد الظاهر اللذان كانا كاتبين في دولته، وألفا سيراً تقص مواقف حياته، فقد كتب شافع بن علي "الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور"، وألف ابن عبد الظاهر "تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور"، ويصف شافع بن علي في مقدمة كتابه العلاقة التي ربطته بقلاوون، ودفعته إلى كتابة سيرته، إذ قال: "وكنت باشرت خدمته كاتب إنشاء سفيراً وحضراً...، وكتبت عنه سراً وجهرأ، وشهدت وقائعه برأً وبحراً، وأطلعت على ما لم يطلع عليه غيري بمشافهته، وعلمت من أحواله ما لم يعلمه إلا كاتب سره بوساطة مشاركته، وحضرت مهاندته وموادعته، وكتبت بما استقر منها، وحررت نسخ الإيمان له وعليه، .. فأوجب عليّ ذلك أن أسطره عند المثول بين يديه محاسن أيامه الزاهرة، وأن أثبتتها لتغدو على السنة الأقلام على الدوام والاستمرار سائرة"<sup>(١)</sup>. إن شعور ذلك الكاتب بواجب الوفاء لمليكه دفعه إلى كتابة سيرته ومن ثم إلى رثائه وبكائه، إذ إنه من الطبيعي بعد تلك العلاقة التي ربطتهما أن يرثيه ويندبه ويتوجع لموته.

أما الملوك الأيوبيون في الشام، فقد كان منهم الأدباء والعلماء، وعرف عنهم اهتمامهم بالناحية العلمية والأدبية، فكان بلاطهم مأوى لكثير من الأدباء، ذكر أن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب كان شاعراً "يحاضر الأدباء والفضلاء، وعلى ذهنه كثير من الشعر والأدب، وله نواذر ونظم"<sup>(٢)</sup>، "وكانت سوق الشعر ناققة في أيامه"<sup>(٣)</sup>.

(١) شافع بن علي، الفضل المأثور، ص ٢٤.

(٢) الكشي، فوات الوفیات، ٣٦٢/٤، عيون التواريخ، ٢٠/٢٦١، الذهي، تاريخ الإسلام، وفیات سنة ٦٥٩هـ، ص ٤٠٢، اليونيني، ذیل مرآة الزمان، ١٤٢/٢.

(٣) الكشي، فوات الوفیات، ٣٦٢/٤، الذهي، تاريخ الإسلام، وفیات سنة ٦٥٩هـ، ص ٤٠٢، اليونيني، ذیل مرآة الزمان، ١٤٢/٢.

وكان " في خدمته جماعة كثيرة من الفضلاء والعلماء والأدباء والشعراء وغيرهم، ولهم عليه الرواتب السنية"،<sup>(١)</sup> وقد مدحه شعراء دولته وغيرهم في حياته، ورثوه بمراث بعد موته معبرين عن تعاستهم الحقيقية، وحزنهم الصادق بعده، وبكوا أيامهم الماضية عنده، ولم يهدفوا من مراثيهم التكسب، ذلك أنهم كانوا مدركين أن بقتله من قبل المغول قد زالت الدولة الأيوبية التي كانت تحتضنهم، وممن رثوه الشاعر أمين الدين السليماني يقول: <sup>(٢)</sup>

بكى المأ الأعلى على الملك الأعلى	وأصبحت الدنيا لفقدانه تكلى
تولى صلاح الدين يوسف وانقضت	محاسنة الحسنى وسيرته المثلى
وفارق ملك الشام والشرق عنوة	فريداً كما جردت من غمده نصلاً
فيا ليت عيني عاينت كنه حاله	لقد شفتي حزني عليه وقد أبلى
ووالله لا يسلك قلب ابن حرة	جعلت له من طولك الفرض والنفلا

فالأبيات تكشف عن انفعالات نفس فقدت مصدر رزقها وعطائها، ويختم الشاعر قصيدته معاهداً مليكة على الاستمرار في بكائه، والإعراض عن أبواب غيره من الملوك، يقول: <sup>(٣)</sup>

فوادي وطرفي منزلاك على النوى	فغيرك لا يطو لدي ولا يخلا
وها أنا قد أعرضت عن كل منعم	فلا أحد أدعوه بغيرك للجلا

واهتم ملوك حماة الأيوبيون بالعلم والعلماء والشعراء، ففي عهد الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل أبي الفداء، وابنه الملك الأفضل محمد كان العصر الذهبي للثقافة في حماة، إذ أصبحت في عهدهما محجاً للعلماء والأدباء،<sup>(٤)</sup> وقد أشاد المؤرخون بشخصية الملك المؤيد في هذا الجانب، فبينوا أنه كان "مكباً على الاشتغال والتصنيف، وحضرته محط رجال أهل العلم من كل فن، ومنزلاً للشعراء والفضلاء، على أنه إمام بارع مفنن ماهر في الفقه، والتفسير والأصليين، والنحو، والتاريخ، وعلم الميقات، والفلسفة، والمنطق،

<sup>(١)</sup> الويني، ذيل مرآة الزمان، ١٤٢/٢.

<sup>(٢)</sup> المصدر نفسه، ١٤٥/٢، الكشي، فوات الوفيات، ٣٦٥/٤، عيون التواريخ، ٢٠٠/٢٦٢.

<sup>(٣)</sup> الويني، ذيل مرآة الزمان، ١٤٦/٢.

<sup>(٤)</sup> انظر حضراء الجعافرة، الحركة الأدبية في عهد الملك المؤيد صاحب حماة، ص ٤٠.

والطب، مع الاعتقاد الصحيح، والعروض، والأدب والنظم والنثر، وكان للشعراء به سوق نافقة" (١) وأشاروا إلى اهتمامه بالشعر، إذ كان يميل إليه "مياً زائداً، ويجيز عليه بالجوائز السنوية" (٢) ولذا توافد عليه فحول شعراء زمانهم أمثال جمال الدين بن نباتة، وشهاب الدين محمود الحلبي، وصفي الدين الحلبي، فقريهم، واحتضنهم، فمدحوه وأجازهم حتى إن صاحب الدرر الكامنة ليزهل من كثرة الأشعار التي امتدحتة، وامتدحت ابنه بعده، فيقول: "ولا أعرف في أحد من الملوك من المدائح ما لابن نباتة، والشهاب محمود وغيرهما فيه إلا سيف الدولة، وقد مدح الناس غيرهما من الملوك، ولكن اجتمع لهذين من الكثرة والإجادة من الفحول ما لم يتفق لغيرهما" (٣).

وكان جمال الدين بن نباتة على علاقة مميزة بأولئك الملوك، فقد نظم فيهم غرر المدائح، واجتمع له ديوان خاص في مدح الملك المؤيد أسماه "منتخب الهدية من المدائح المؤيدية"، وألف في الأيوبيين عامة كتاب "شعائر البيت التقوي" (٤) وفي مقابل ذلك أدناه المؤيد، وقرر له راتباً سنوياً قدره ستمائة درهم غير ما يقدقه عليه من العطايا. (٥)

ولما مات هذان الملكان رثاهم العديد من الشعراء، ونظموا القصائد الطويلة في بكائهم، وممن رثوهم جمال الدين بن نباتة، وقد كان الوفاء باعته الأساسي على نظم أكثر مراثيه، ولكنه لم يكن الباعث الوحيد، فحرصه على مكانته السابقة عند المؤيد ورغبته في الحفاظ عليها عند ابنه الملك الأفضل كان أحد بواعثه على رثاء المؤيد خاصة، وقد نطق شعره بذلك، وبرز في الأجزاء التي مدح الأفضل فيها، ومن ذلك قوله في إحدى مراثيه: (٦)

وعاشَ لَنَا مَلِكٌ نَلُوذُ بظَلِّهِ      وَتَغَفَّرَ ذَنْبَ الدَّهْرِ بَعْدَ احْتِقَابِهِ  
فَمَا السَّعْدُ إِلَّا لِمَحَّةٍ فِي جَبِينِهِ      وَمَا الْعِزُّ إِلَّا وَقْفَةٌ عِنْدَ بَابِهِ

(١) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٤٠١/٢، وانظر النجوم الزاهرة، ٢١٥/٩، الصفدي، الوافي، ١٧٤/٩، المقرئ، المقفى، ١٠٢/٢، أحمد سبانو، مملكة حماة الأيوبية، ص ١٣١.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٤٠١/٢، وانظر الصفدي، الوافي، ١٧٤/٩، المقرئ، المقفى، ١٠٢/٢، حضراء الجعافرة، الحركة الأدبية، ص ١٣١.

(٣) ابن حجر، الدرر الكامنة، ٣٩٨/١.

(٤) انظر الصفدي، الوافي، ٣١٩/١، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٤٠١/٢، النجوم الزاهرة، ٢١٥/٩.

(٥) انظر الصفدي، الوافي، ١٧٤/٩، ٣١٢/١، المقرئ، المقفى، ١٠٢/٢، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٤٠١/٢.

(٦) ابن نباتة، الديوان، ص ٤٩.

فالشاعر يغفر ذنب الدهر الذي اختطف أبا الفداء، وما ذلك إلا لبقاء ابنه الذي سيلوذ الشاعر بظله، ويقف على بابهِ راجياً العز والمال.

وفي مرثية أخرى يخاطب الشاعر الملك الأفضل، ويذكره بمدائحه التي كان ينظمها في أبيه، وما كان يغدقه عليه من عطاء، ويصرح بحقه عليه مقابل مدائحه فيه، ويبين أن حياة العز والجاه التي عاشها في عهد المؤيد لم تأفل بعد، وإنما باقية ببقاء الملك الجديد وعطاياه الكثيرة، يقول: (١)

وَنَكَرُ نَدَى كَفَيْكَ يُنْذِي مِنَ الْغِنَى  
وَلَمَّا عَقَدْنَا بِاسْمِ عَلِيَّكَ خُنْصُرًا  
سَبَقَتْ لَكَ الْمَدَاحَ قَدَمًا وَبَادَرَتْ  
لِيَالِي أَنْشِي فِي أَبِيكَ مَدَائِحًا  
وَأَعْدُو بِأَنْوَاعِ الْجَمِيلِ مُطَوِّقًا  
أَعَدَّتْ زَمَانَ الْبَشْرِ وَالْجُودِ وَالنَّثَا  
وَأَنْتُمْ تَرَى نَعْلَيْكَ يَرْوِي مِنَ الظُّمَأِ  
رَأَيْنَا مِنَ التَّحْقِيقِ أَنْ يَتَحْتَمَّا  
يَدَا كَلِمِي فَاسْتَلْزَمْتُ مِنْكَ مَلْزَمًا  
وَفِيكَ فَأَرْوِي مُسْنَدَ الْفَضْلِ عَنْكَمَا  
فَأَسْجَعُ فِي أَوْصَافِهِ مَتْرَنَمًا  
إِلَى أَنْ مَلَأَتِ الْعَيْنَ وَالْأَنْفَ وَالْفَمَا

وبكى ابن نباتة في مرثيته ماضيه المجيد، وعبر عن حالته بعدما فقد حياة السعادة والهناء التي كان يحياها، يقول في رثاء الملكين المؤيد والأفضل: (٢)

ذَهَبًا فَلَا ذَهَبَ أُنَادِيهِ سِوَى  
مَا صَاغَ خَدِّي بِاخْضِرَارِ بُكَائِي

وتجلى بكأوه على ماضيه العريق، وأيام عزه في الأبيات التي نظمها في رثاء الأيوبيين جميعاً، إذ ركز فيها على تصوير جودهم وعطاياهم، وقارن بين حماة أثناء حكمهم وبعدها، فوجدها لا تجيب السائلين، وهي التي طالما لبث نداءهم، يقول: (٣)

يَا آلَ أَيُّوبَ سَقَّتْكُمْ  
لَهْفِي عَلَى أَوْقَاتِ مُلْكِ أَسْبَغَتْ  
مَا كَانَ أَقْوَى فِي الْعِدَاةِ أَشَدَّهَا  
وَفَدَى لَكُمْ مُتَسَرِّعٌ أَنْحَى عَلَى  
سَحَبِ الرِّضَا تَخْتِ الضَّرَائِحَ وَبَلَّهَا  
نِعْمَاكُمْ فَوْقَ الْبَرِيَّةِ ظَلَّهَا  
بِأَسَاً وَأَعْلَى فِي النَّجُومِ مَحَلَّهَا  
أَمْوَالِكُمْ فَازَ الْهَهَا وَأَنْزَلَهَا

(١) ابن نباتة، الديوان، ص ٤٣٠.

(٢) ابن نباتة، الديوان ٤٣٠.

(٣) المصدر نفسه ٤١٢.

كم أنشَدتْ من بَعْدِهَا أَيْدِيكُمْ      ما كان أَكْثَرُها لَنَا وأَقْلَها  
ناديتُ ساحتكم وَقَلْتُ لِصاحبي      ما كان أَسْرَعُ لِلْمَنادِي فَضْلَها  
فَدَنَا وَقَالَ: لَعَلَّها مَعْذُورَةٌ      من بَعْدِ أَهْلِها فَقَلْتُ لَعَلَّها

وكان صفي الدين الحلبي من أكثر شعراء العصر المملوكي الأول رثاء لأرباب الدول، فقد رثى ملوك الأيوبيين في حماة، وبني أرتق في ماردين، ورثى الملك الناصر محمد بن قلاوون، فقد ربطته بهم جميعاً علاقات حميمة، إذ كان يرحل إلى الشام ومصر وماردين وغيرها في التجارة، ثم يرجع إلى بلاده، وفي غضون ذلك يمدح الملوك والأعيان، وانقطع مدة إلى ملوك ماردين، وله فيهم غرر المدائح،<sup>(١)</sup> التي اشتهرت "في الصادرين والواردين"،<sup>(٢)</sup> "وكان يتردد إلى حماة، ويمدح ملكها المؤيد والأفضل، وكانا يعظمانه،"<sup>(٣)</sup> وورد إلى مصر غير مرة، وامتدح الناصر محمد بن قلاوون،<sup>(٤)</sup> وقد صرح الحلبي في مقدمة ديوانه أن علاقته بأولئك الملوك كانت نقطة تحول في حياته الفنية، إذ كان عازفاً عن شعر المديح، والتكسب بالشعر، يقول: "كنت كارهاً للتكسب بالتقريض، إذ كان ديني ألا أُمسَحَ يدَ دني، وأن أقرَّ من العادة الخشياء، ولومن الغادة الحسناء، وأعدت الشعر من أدب الفضائل، وأحقر الوسائل"،<sup>(٥)</sup> ويقول: "وكننت عاهدتُ نفسي ألا أمدح كريماً وإن جلَّ.."<sup>(٦)</sup> ولكنه بعد أن تغيرت به الأحوال، وشبت نار الفتن في العراق وغادرها، ولجأ إلى ماردين حيث استقبله ملوكها وأنعموا عليه، اضطر إلى مدحهم والإشادة بجودهم، وخصص ديواناً كاملاً في مدح الملك المنصور نجم الدين غازي بن أرتق سمّاه "درر النحور في مدائح الملك المنصور"، يقول معبراً عن ذلك: "ولولا وجودهما وجودهما لعشت من هذا النتاج عقيماً، ودمت على رفض المدائح مقيماً"،<sup>(٧)</sup> وتلك الأسباب ذاتها دفعته إلى مدح الملوك الأيوبيين في حماة، والملك الناصر في مصر.

(١) ابن حجر، الدرر الكامنة، ٤٧٩/٢، وانظر الصفي، الوافي، ٤٨٥/١٨، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٠/١٨٨.

(٢) الصفي، الوافي، ٤٨٥/١٨، وانظر ابن حجر، الدرر الكامنة، ٤٧٩/٢، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٠/١٨٨.

(٣) الصفي، أعيان، العصر، ٧٠/٣.

(٤) انظر الصفي، أعيان العصر، ٧٠/٣، الكتي فوات الوفيات، ٣٣٥/٢، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٠/١٨٨، ابن حجر الدرر

الكامنة، ٤٧٩/٢، د. محمد حور، صفي الدين الحلبي، ص ٣٠-٣٤.

(٥) الحلبي، الديوان، ص ٢١.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢١.

(٧) الحلبي، الديوان، ص ٢٢-٢٣.

إن الحياة التي عاشها الشاعر، وصلاته المتعددة أوجبت عليه الرثاء والوفاء للأيدي  
الكريمة التي رحبت به وأوته بعد أن تقطعت به السبل،<sup>(١)</sup> وقد عبر في جل مرثيته عن  
وفائه لأولئك الملوك، واعترف بفضائلهم عليه، فندبهم وتألّم لفرارهم، وتحسر على أيامه  
بينهم، فهم الذين عوضوه في غربته عن أهله وأقربائه، ومن ذلك ما قاله في رثاء الملك  
المنصور نجم الدين غازي:<sup>(٢)</sup>

كُنْتُ ذَخْرًا لَنَا لَوْ أَنَّ الْمَنَابِيَا	جَنَّبْتُ عَنْ رَفِيعِ ذَاكَ الْجَنَابِ
لَمْ أَكُنْ جَازِعًا وَأَنْتَ قَرِيبٌ	لِبِعَادِ الْأَهْلِيْنَ وَالْأَنْسَابِ
كَانَ لِي جُودُكَ الْعَمِيمُ أَنْسَاءً	فِي انْفِرَادِي وَمَوْطِنًا فِي اغْتِرَابِي
مَا بَقَائِي مِنْ بَعْدِ فَقْدِكَ إِلَّا	كِبْقَاءَ الرِّيَاضِ بَعْدَ السَّحَابِ

ومثله قوله في رثاء الملك ناصر الدين عمر الأرتقي:<sup>(٣)</sup>

يَا نَاصِرَ الدِّينِ وَابْنَ نَاصِرِهِ	وَمَنْ بِهِ فِي الْخُطُوبِ يُعْتَصِمُ
بِيكِيكَ مَا لَوْفُكَ التَّقِيُّ أَسْفًا	وَصَاحِبَاكَ الْعَقَافُ وَالْكَرْمُ
لَمْ يَشُقَّ يَوْمًا بِكَ الْجَالِيْسُ وَلَا	مَسَّ نَدَامَاكَ عِنْدَكَ النَّوْدُ
أَغْنَيْتَنِي بِالْوِدَادِ عَنِ نَسَبِي	كَأَنَّمَا السُّودُ بَيْنَنَا رَحِمُ

ورثى الشاعر الملك الأفضل محمد بن إسماعيل، فبكى عطاياه التي تعطلت بموته،  
واعترف بنعمه عليه، وبين أنه لم يخطر في ذهنه أن تقلع تلك النعم وتزول، فقال مخاطباً

إياه:<sup>(٤)</sup>

(١) انظر د. محمود رزق سليم، صفي الدين الحلبي، ص ١٠٣.

(٢) الحلبي، الديوان، ص ٢٩١، ابن حبيب تذكرة النيه، ٤٩/٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٩٤.

(٤) الحلبي، الديوان، ص ٢٢٣.



قد كان جودك لي عينَ الحياة إذا  
أعزز عليّ بأن أدعوك ذا أملٍ  
طابت مرثيتك لي بعدَ المديح ومن

ورثته وحواني ربّعك الخضيرُ  
فلا يجابُ برفدٍ منك ينهمرُ  
بعدَ السرورِ براني الحُزنُ والفكرُ

وسعى الحلبي في بعض مرثيته إلى كسب ود الملك الجديد وعطاياه، والحفاظ على مكانته السابقة عند أبيه، وبرز ذلك في قصائده التي رثى فيها الملك المنصور نجم الدين غازي، وأشاد بابنه الملك الصالح، فقد ذكر أن هذا الملك كان " يحب المديح ويجيز عليه بالجوائز السنية"<sup>(١)</sup>، ويبدو أن الحلبي كان مدركاً ذلك، فجعل مرثيه لأبيه وسيلة للإشادة بتلك الصفات، وللتقرب منه، ويتجلى ذلك في قوله: <sup>(٢)</sup>

وأهونُ شيءٍ عندَهُ الخَيْلُ واللّهُي<sup>(٣)</sup>  
ورُبَّ حَدِيثٍ مِنْ عِلَاهُ سَمِعْتُهُ  
وقَينِضُ نَوَالٍ مِنْ يَدَيْهِ أَفدْتُهُ  
ولما أراد الدهرُ كيدي فزرتُهُ  
فأخّرَ صرْفَ الدهرِ عَنِّي فلا يَرى  
وأنفقُ شيءٍ عنده النّثرُ والنّظْمُ  
لحلّو جنّاهُ مِنْ حُلُوقِ النّهْيِ طَعْمُ  
لَهُ فِي قُلُوبِ النَّاسِ مِنْ جَسَدِي وَسَمُ  
وبتُ وليّ في صُخْفِ إِنْعامِهِ رَسْمُ  
مقابلتني لَمّا دَرى أَنَّهُ الخَصْمُ

ورثى الشعراء ملوك العراق، وذكروا في مرثيتهم بواعثهم على الرثاء، فحين توفي الملك عز الدين عبد العزيز النيسابوري سنة ٦٧٢هـ، رثاه الشاعر عبد السلام بن الكبوش البصري، بقصيدة منها قوله: <sup>(٤)</sup>

قَد كُنْتُ كَعَبَةً أَطُوفُ بِهَا  
مالي أرى المكرّماتِ بِعَدِكَ قَد  
يَا مَنْ جِمَاهُ لَوْفَدِهِ حَرَمُ  
شُلْتُ يداها وزآلتِ القَدَمُ

(١) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٣٣٠/٢.

(٢) الحلبي، اللبيان، ص ٢٨٨.

(٣) اللّهُي، بمعنى العطايا.

(٤) ابن الفوطي الحوادث الجامعة، ص ٣٧٩-٣٨٠، الكنتي، عيون التواريخ، ٦٧-٦٦/٢١.

تَشْتَرُ مِنْكَ الْأَعْرَافُ وَالشَّيْمَ  
كجوده والوقود تَزْدَحْمُ  
يَنْظُمُهُ قَبْلَ نَظْمِهِ الْكَلِمَ  
عَفَتَ مِثْلَ مَا عَفَا الْكَرَمَ  
يَنْظُمُ فِكْرًا وَلَا يَقُولُ قَمًّا

مَاتَتْ فَمَا تَبَشَّرَ الْمَكَارِمُ إِذْ  
يَزْدَحْمُ الْقَوْلُ حِينَ أَمْدَحُهُ  
كَأَمَّا السَّنْظُمُ مِنْ سُهُولَتِهِ  
إِنَّ الْقَوَافِي الَّتِي أَقَمْتَ لَهَا سَوْقًا  
وَانْقَرَضَتْ دَوْلَةُ الْقَرِيضِ فَمَا

تكشف الأبيات عن لوعة شاعر يبكي ماضيه المجيد، فقد كان ذلك الملك مأوى للشعراء يتوافدون على بابه، ويمدحونه فيجيزهم، والشاعر واحد منهم، ولذا صور مليكه كعبة كان يطوف بها، ويجني من خيرها ما يشاء، وبموته انقضت تلك الحياة الرغيدة، وتقوضت آماله، وعفت سوق شعره التي طالما باع فيها مدائحه، وقبض ثمنها.

أما فيما يتعلق بمراثي الأمراء والقادة، فإن جلها تكشف عن رغبة الشعراء في الوفاء لهم، وبيان علاقة الود والصحبة التي كانت تربطهم بهم، ومن الأمثلة على ذلك قول الشاعر عز الدين ابن أبي الحديد في رثاء علاء الدين الطبرسي الظاهري المعروف بالدوايدار الكبير المتوفى سنة ٦٥٠هـ: (١)

كَانَتْ وَقَدْ يَتَفَرَّقُ الْإِخْوَانُ  
يُذَكِّرُ فَلَيْسَ وِرَاءَهُ إِحْسَانُ  
عَهْدِي فَمَا مِنْ شَأْنِي النَّسِيَانُ  
خَانُوكَ إِذْ كَذَبُوا عَلَيَّ وَمَانُوا  
تَبَقَى وَيَبْقَى بَيْنَنَا الْهَجْرَانُ

أَبِيكَ لِلْأَنْسِ الْقَدِيمِ وَصُحْبَةِ  
وَوِرَاءَ ذَلِكَ مِنْكَ إِحْسَانٌ مَضَى  
وَلْتَنْ هَجَرْتَ قَبِيلَ مَوْتِكَ نَاسِيًا  
مَا كَانَ ذَلِكَ مِنْكَ بَلْ مِنْ مَعْشَرٍ  
طَلَبُوا الْقَطِيعَةَ بَيْنَنَا وَوَدِدْتُ لَوْ

دفع الوفاء للصحبة القديمة والإحسان العميم الشاعر إلى رثاء ذلك الدوايدار الكبير، فعلى الرغم من القطيعة التي حدثت بينهما بفعل الوشاة، لم ينس الشاعر أيامه التي قضاها برفاقته، فأكد وفاءه له بالرثاء.

ومن الجدير ذكره في هذا المقام أن شعر رثاء ملوك الدولة المملوكية الأولى يكاد يختفي بعد سنة ٧٤١هـ، أي بعد وفاة الملك الناصر محمد بن قلاوون، ذلك أن موته كان نهاية للعصر الذهبي لتلك الدولة، فقد استلم الحكم بعده ملوك ضعفاء لا يحترف جلهم

(١) ابن الترمطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٦٦، الأشرف الغسان، المسجد المسبوك، ٥٩٢/٢.

السياسة، وإدارة شؤون الحكم، فكانت عهودهم عهود فتن وصراعات سياسية وانقلابات، فلا يكاد يثبت ملك في حكمه حتى يفاجأ بثورة رجال الدولة عليه، وقد وصف ابن الوردي تلك الدول بقوله: " فانظر إلى هذه الدول القصار التي ما سمع بمثلها في الأعصار"،<sup>(١)</sup> فلم يكن أولئك الملوك يتمتعون بقوة الشخصية والكفاءة التي كان عليها سابقوهم، ولم ينصب اهتمامهم المباشر بالحكم، وتوظيف أركان الدولة، وإقامة شؤون الرعية، ولكنهم اهتموا بمتعهم الذاتية، وانكبوا على مجالس اللهو والأنس، ولعل ذلك كان السبب المباشر في انهيار صرح الدولة المملوكية الأولى وقيام الثانية. وحين مات أولئك الملوك لم يتركوا أثراً في نفوس رعيّتهم، وأدباء عصرهم، فلا مآثر تستحق أن تخلد أو ترثى ويذكر عليها.

واختفت كذلك مراثي بعض الملوك الذين كانت لهم أياد بيضاء، فالملك السعيد بن الظاهر بيبرس على سبيل المثال لم يحظ بأشعار الرثاء على الرغم من إشادة المؤرخين به، فقد قالوا عنه: إنه كان " سلطاناً جليلاً كريماً سخي الكف، كثير العدل في الرعية محسناً للخاص والعام.. ليس في طبعه عسف ولا ظلم، كثير الشفقة والرحمة على الناس، ولين الكلمة محباً لفعل الخير، قليل الحجاب عن الناس، يتصدى للأحكام بنفسه، وكان لا يميل لسفك الدماء مع قدرته على ذلك"<sup>(٢)</sup>، وبعد موته سنة ٦٧٨هـ حزن الناس " كثيراً وعمل عزاه بسائر البلاد، وخرجت الخوندات حاسرات بجواربهن يلطمن بالملاهي والدفوف أياماً عديدة"<sup>(٣)</sup>.

وهنا يتساءل الباحث عن سبب سكوت الشعراء المقربين وغيرهم عن رثائه، وهم الذين مدحوه، وأنزلوه المنزلة الرفيعة حين رثوا والده بيبرس.

لعل ذلك يعود إلى النكبة التي نزلت به، فهو لم يمت على سرير ملكه، لكنه أقصي عن الحكم، إذ خلعه الملك المنصور قلاوون، ونفاه إلى الكرك حيث مات، وانقضت أيامه، وقيل إنه هو الذي دس له السم في الطعام.<sup>(٤)</sup> فخشية الشعراء على مراكزهم في الدولة

(١) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٣٣٦/٢.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٣٣/٧، وانظر الذهبي، المعبر، ٣٣٩/٣.

(٣) المصدر نفسه، ٢٣٣/٧، وانظر المقرئ، السلوك، ١٢٦/٢.

(٤) انظر المقرئ، السلوك، ١٢٦/٢.

مثل محيي الدين ابن عبد الظاهر كاتب السعيد وأبيه من قبله، وخوفهم من بطش السلطان الجديد منعهم من الرثاء والبكاء.

ولم يعثر الباحث على مرثي في الخلفاء العباسيين الذين أحيا الظاهر ببيرس خلافتهم سنة ٦٥٩هـ، وأقامها في مصر، ومرد ذلك أن هؤلاء الخلفاء لم يكن لهم دور سياسي بارز وفعال في الدولة المملوكية، وإنما كانوا وسيلة ملوكها في إضفاء الشرعية على حكمهم، وكانوا لعبة في أيديهم يولون ويعزلون من شاءوا، ويحجبونهم عن الرعية متى شاءوا، حتى إن حوادث موتهم لم يعتن بها المؤرخون كثيراً، ولم يصفوا أثرها في نفوس العامة والخاصة كما فعلوا حين أرخوا لموت سلاطين المماليك.

أما عن مضامين ذلك اللون من الرثاء، فقد تنوعت، ومنها تصوير أرباب الدولة لحظة الاحتضار وبيان سبب وفاتهم، وبعضهم كان موته طبيعياً بعد مرض ألم به، ومن هؤلاء الملك المنصور قلاوون، فقد صورته الشاعر محيي الدين بن عبد الظاهر، وهو في تلك اللحظة يعاني الآلام الشديدة، يحيط به الناس والأمراء، ويتوجعون لحاله، ويتمنون لو أنهم يستطيعون فداءه أو تخفيف آلامه، فقال: (١)

وَتَمَنَى كُلُّ امْرِئٍ لَوْ يَؤَاقِيهِ	ه نَصِيبٌ مِّن سَقَمِهِ مَوْفُورٌ
وَاعْتَدُوا خَيْفَةً عَلَيْهِ وَمِنْهُ	لَأَمِيرٌ يَرْتَوِ وَلَا مَأْمُورٌ
لَمْ يَزَلْ سَقَمُهُ يَزِيدُ وَشَكُوا	هُ تَتَادِي أَنْ الْحَيَاةَ غُرُورٌ
فَأَتَاهُ مَا يُذْهِلُ الْعَقْلَ وَاللَّبَّ	ب لَدِيهِ وَمِنْهُ يَغْمَى الْبَصِيرُ
بِاحْتِضَارٍ لَهُ مِلَانِكَةُ الرَّحَى	مَةِ وَالْعَفْوِ وَالْقَبُولِ خُضُورُ
وَوَفَاةً وَاقَتْ لَهَا وَالرَّزَايَا	مِن سَطَاةٍ وَخَوْفِهِ تَسْتَجِيرُ

ووصف الشاعر صفي الدين الحلبي الملك الناصر محمد بن قلاوون وقد أحاط به الأطباء لحظة احتضاره يبيغون علاجه دون جدوى، فقال: (٢)

أَحَاطَ بِهِ الْأَسْوَنَ يَبِغُونَ طِبَّةً	وَقَدْ حَارَتْ الْأَفْهَامُ وَاشْتَغَلَ السَّرُّ
وَكَيفَ يَرُدُّ الطَّبُّ أَمْرًا مَقْدَرًا	إِذَا كَانَ ذَلِكَ الْأَمْرُ مَمَّنْ لَهُ الْأَمْرُ

(١) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص ١٨١-١٨٢.

(٢) الحلبي، الديوان، ص ٣٢١.

يبود الشاعر مؤمناً بقضاء الله الذي لا مرد له، وهذا الإيمان يتجلى عند محيي الدين بن عبد الظاهر حين دعا للأمير حسام الدين الأيدمري الملقب بالدرفيل بالشفاء من مرضه، وصور النساء باكيات عليه، ولكنه لم ينفعه دعاؤه، ولا بكاؤهن حين نزلت به مشيئة الله، يقول: (١)

كَمْ قَدْ رَقَعْتُ يَدِي عِنْدَ الدُّعَاءِ لَهُ      بَانَ يُعَاقِي وَكَمْ قَدْ قِيلَ: آمِينَا  
وَكَمْ سَمِعْتُ البَوَاكِي فِي تَمَرُّضِهِ      فَقُلْتُ: بَعْدَ لَهَا لَا جِينَ لَا جِينَا  
فَمَا أَقَادَ دَعَائِي لَا وَلَا حَذْرِي      مَا شَاءَ اللَّهُ يَمْضِي لَا الَّذِي شِينَا

وتعرض بعض أرباب الدول للاغتيال، وقتل بعضهم في ساحة المعركة، ففي سنة ٦٩٣هـ بينما كان السلطان الأشرف خليل بن قلاوون يتصيد، ومعه شخص يدعى شهاب الدين الأسل، اغتتم بعض الأمراء فرصة انفراده وبعده عن عساكره، فغدروا به، وتناوبوا على التمثيل بجثته، (٢) وقد أشار بدر الدين بن حبيب إلى ذلك حين رثاه بمقطوعة، عرض فيها بقاتليه، ووسمهم بالعبيد الذين اشتراهم الأشرف بأمواله وقربهم منه، ولكنهم خانوه فقتلوه، وفتكوا به، ويعددهم الشاعر بالعذاب الأليم في الآخرة، فقال: (٣)

تَبَّأَ لِأَقْوَامٍ بِمَالِكَ رِقْهُم      فَتَكُوا وَمَارَقُوا لِحَالَةِ مُتْرَفِ  
وَاقْوَهُ غَدْرًا ثُمَّ صَالُوا جُمَّلَةً      بِالْمُشْرِفِي عَلَى الْمَلِيكِ الْأَشْرَفِ  
وَإِنِّي شَهِيدٌ نَحْوِ رَوْضَاتِ الرِّضَى      يَخْتَالُ بَيْنَ مَرْهَرٍ وَمُرْخَرَفِ  
وَمَضَى يَقُولُ لِقَاتِلِيهِ تَرَبَّصُوا      بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ عَرَاصُ الْمَوْقِفِ

وفي سنة ٦٧٤هـ سقط ركن الدين بن النقيب محيي الدين محمد بن حيدر، نقيب الموصل بفرسه إلى نهر دجلة ببغداد، وكان مجتازاً على الجسر فأصعد إلى مشهد علي.. فدفن هناك، وكان شاباً حسن الخلقة، (٤) فرثاه الشاعر شمس الدين الكوفي الواعظ بقصيدة

(١) الصقاعي، تالي وفيات الأعيان، ص ١٣٣، الصندي، الرافعي، ٣٩١/٢٤.

(٢) انظر تفاصيل مقتله في: بيرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ١٣٦، زبدة الفكرة، ص ٢٩٦. الدواداري، كثر القر، ٧٤٧/٨، النهي، العبر، ٣٧٩/٣، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ١٦٧/٨، ابن حبيب، درة الأسلاك، ١٨١/١، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢١/٨، المنهل الصافي، ٢٧٩/٥، السيوطي، حسن المحاضرة، ١١٥/٢، ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١ ق ٣٧٤/١، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٥/٨.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٨٦.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٨٧.

طويلة أوردتها في العزاء، تحدث فيها عن قصة سقوطه عن ظهر جواده في نهر دجلة وإخراجه منه، وصور ذلك النهر وقد تكدر ماؤه بعده، وسأله عن سبب اعتدائه على ذلك الشاب دون شفقة أو رحمة عليه وعلى ذويه، وعلل ذلك بشغفه به وحببه له، وأشاد الشاعر بالفقيد، ووصف جماله، وحسن منطقته وكرمه وأخلاقه، فقال: (١)

أَلْقَاهُ فِي الْمَاءِ الْجَوَادُ كَأَنَّهُ  
أَمْوَاجُ دَجْلَةَ أَعْرَقَتْهُ إِذْ طَغَتْ  
وَلَقَدْ تَكَدَّرَ صَفْوُهَا مِنْ بَعْدِهِ  
بِاللَّهِ هَلْ أَعْرَقَتْهُ شَغْفًا بِهِ  
هَلَا رَحِمْتَ شَبَابَهُ وَتَرَكْتَهُ  
أَوْ مَا عَلِمْتَ بِأَنَّهُ رَحِبُ الْفَنَاءِ  
يَا مَاءُ مَا أَنْصَفْتَ آلَ مُحَمَّدٍ  
فِي الْطِفِّ (٢) لَمْ تُسْعِدْ أَبَاهُ بِقَطْرَةٍ  
غَاصُوا عَلَيْهِ وَأَخْرَجُوهُ مُعْظَمًا  
وَاللَّهِ مَا نُزِعْتَ مَلَابِسَ جِسْمِهِ  
بَذْرٌ هَوَى فِي جَنْدَلٍ (٣) مَتَمُورٍ  
وَكَذَا الطَّغَاةُ عَلَى الْأَكَارِمِ تَجْتَرِي  
وَمَتَى صَفَّتْ لَهُمْ وَلَمْ تَتَكَدَّرْ؟  
يَا مَاءُ أَوْ حَسَدًا لِمَاءِ الْكُوْثَرِ؟  
مَنْ أَجَلٍ وَلَيْسَ فِيهِ ذَاتُ تَحْيِيرٍ  
وَالصَّدْرُ عَذِبُ اللَّفْظِ حَلْوُ الْمُنْظَرِ  
وَعَلَى كَمَالِ الدِّينِ كُنْتَ الْمُجْتَرِي  
وَالْيَوْمَ قَدْ أَعْرَقْتَهُ فِي أَبْحُرٍ  
وَمَكْرَمًا وَكَذَا نَفِيسُ الْجَوْهَرِ  
حَتَّى تَبَخَّرَ فِي الْحَرِيرِ الْأَخْضَرِ

وقتل الأمير ركن الدين إسحاق بن الملك سيف الدين بهادر المنصوري في معركة خاضها ضد الأكراد اللاذخية في وادي جهنم من الجزيرة الفراتية، فرثاه صفي الدين الحلي بقصيدة وصف فيها تلك المعركة، ومصرع الأمير فيها، وسعى إلى تعظيم الدور الذي لعبه ركن الدين وكشف عن السبب الذي دفعه إلى القتال، وهو رغبته في تحقيق الخلود بسيفه وشجاعته، فقال: (٤)

(١) ابن حبيب، درة الاسلاك، ١/١٨١، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٨/٢١، المنهل الصافي، ٥/٢٧٩، السيوطي، حسن المحاضرة،

٢/١١٥، ابن عباس، بدائع الزهور، ج ١/٣٧٤.

(٢) الجندل "مكان في مجرى النهر فيه حجارة يشتد عندها جريان النهر". المعجم الوسيط، مادة "جندل".

(٣) ما أشرف من أرض العرب على ريف العراق، والجانب والشاطئ، وسفح الجبل، المعجم الوسيط مادة "طفف".

(٤) الحلي، الديوان، ص ٢٩٦.

رَحِيبُ الصَّدْرِ فِي ضَيْقِ الْمَجَالِ  
وَكُلُّ نَعِيمٍ مُلْكٌ فِي زَوَالِ  
تَعَلَّمَ رَبَّهَا طَأَّ بَ الْكَمَالِ  
وَيَحْمُومِ الْمَنِيَّةِ كَالزَّلَالِ  
وَصَيَّرَ جِسْمَهُ غَرَضَ النَّيَالِ  
وَحَلَّ عَلَى الْأَرَائِكِ فِي ظِلَالِ  
وَمَتَّ وَأَنْتَ مَحْمُودُ الْخِلَالِ

وَلَمْ يَخْزِ الْعَلَى إِلَّا كَمِيٌّ  
تَسَيَّقَنَّ أَنْ طَيِّبَ الذَّكْرَ بِيَقِي  
لِذَلِكَ سَمَتَ بُرْكَنِ الدِّينِ نَفْسُ  
سَمَتَ فَأَرْثُهُ حَرًّا الْكَرَّ بَرْدًا  
فَأَلْبَسَ عَرِضَهُ دِرْعًا حَصِينًا  
تَبَيَّوْا جَنَّةَ الْفَرْدُوسِ دَارًا  
فَعِشْتِ وَأَنْتَ مَمْدُوحُ السَّجَايَا

ودعا الشعراء في قصائدهم إلى الأخذ بالثأر لأرباب الدولة المقتولين، وهاجموا قاتليهم، فالشاعر صفي الدين الحلبي في قصيدته السابقة بكى الأمير ركن الدين، وتحسر على أيامه الخوالي، وبين أن موته سيكون وبالاً على قاتليه، وعاهده على ترك التقاعس، وهجر النوم حتى يدرك ثأره ويروي سيوفه من دماء قاتليه، ويطفى نار غيظه منهم، فقال: (١)

تَوَهُمُ فِعْلَهَا طَيْفَ الْخِيَالِ  
إِذَا اسْتَوَتْ الْأَسَافِلُ وَالْأَعَالِي  
بِهِ أَمْسَى عَلَيْهِمْ شَرٌّ فَالِ  
صَنَائِعِكَ الْأَوَاخِرَ وَالْأَوَالِي  
بِكَيْتُكَ بِالصَّوَارِمِ وَالْعَوَالِي  
تَدْبُّ بِهِ الْمَنِيَّةُ كَالنَّمَالِ  
وَتَمْنَعُهُ الدِّمَاءُ مِنَ الصَّنَقَالِ  
تَتَوَطَّ الْقَوْلُ مِنْهَا بِالْفِعَالِ

وَتَمْسِي الْأَلْدَخِيَّةُ فِي رِقَادِ  
وَلَمْ تُقْلِعْ لِقْلَعَتِهِمْ عُرُوشَ  
وَلَا وَادِي جَهَنَّمَ حِينَ حَلَّوْا  
سَابِكِي مَا حَبِيتُ وَأَسْتُ أَنْسَى  
وَلَوْ أَنِّي أَبْلَغُ فِيكَ سَوْلِي  
بِكُلِّ مُهَيَّبِ الْحَدِيدِ مَاضٍ  
يُرِيكَ بِهِ رِكَامَ الْمَوْتِ مَوْجاً  
وَأَشْفِي مِنْ دِمَاءِ عِدَاكَ نَفْساً

ولم ينس الشاعر ملك مارددين الصالح بن غازي بن قرا أرسلان، فحثه على إدراك ثأر الأمير والتشفي بقاتليه، وإشفاء نفوس العالمين منهم، فقال: (٢)

(١) المصدر نفسه، ص ٢٩٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٩٧-٢٩٨.

بغرة وجهه ظلم الضلال  
إلى الهيجاء تسعى كالسعالي  
كأن الكر يذكرها المخالي  
كمي في الجلال وفي الجلال  
نفوسا ليس تقنع بالمطال

لعل الصالح السلطان يجلو  
ويجريها من الشعبين قبا  
يحرصها الطراد على الأعادي  
عليها كل ماضي العزم دمر  
ويشفي عند الثأر منهم

وحين قتل الملك عز الدين أيبك رثاه الشاعر سراج الدين الوراق بقصيدة دعاه فيها  
إلى أن ينام قرير العين، مطمئن البال، فهناك سيوف تشد وتتحين الفرصة المواتية  
لإدراك ثأره والاقتصاص من قاتليه، فقال: (١)

له أعين قد حصنت كل لهزم  
وبؤسى لطاغ في زمانك مجرم  
ألا نم هنيئا إن نارك لم ينم  
ملك الورى بشرى لمضمر طاعة

\* \* \*

وأشار الشعراء إلى بعض العادات المتبعة في العصر المملوكي فيما يتعلق بموت  
واحد من أرباب الدولة، ومنها كيفية نعي الميت منهم، فقد بينوا أن البريد كان يتولى ذلك،  
وهذا ما كشف عنه الشاعر ناصر الدين حسن بن النقيب، حين صور رجل البريد لحظة  
إعلانه نبأ موت الملك الظاهر بيبرس، وما اعتراه من حزن وتلجلج في الكلام، يقول: (٢)  
ولقد تأملت البريد وقد أتى  
وعليه من أثر الكأبة شاهد  
ولسانه متلجلج إذ يسأل  
بالحال وهو مصدق ومعدل

وأشاروا كذلك إلى عادة حجب نبأ موت الملك حتى تستقر شؤون الحكم، وتتوطد  
أركانه، خشية القلاقل والفتن والنزاع على السلطة، وهذا ما يوضحه قول أحد الشعراء في  
رثاء الملك المنصور قلاوون: (٣)

(١) الصفدي، الوافي، ١٧٤/٩، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٢٨/١، النجوم الزاهرة، ١٧/٧.

(٢) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٠.

(٣) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ٢٧٢، التحفة الملوكية، ص ١٢٤.



حَجَبُوكَ حِيناً عَن ضَرِيحِكَ غَيْرَةً      أَن يَنْظُرُوا بَطْنَ الثَّرَى لَكَ مَوْطِنَا  
حَتَّى تَبَيَّنَ أَنَّ قَبْرَكَ رَوْضَةٌ      مِن جَنَةِ الْفِرْدَوْسِ دَانِيَةً الْجَنَى

وتحدث الشعراء عن جنازة بعض الملوك، وما أحاط بها من مظاهر الحفاوة والتبجيل والتكريم، فالملك ليس رجلاً عادياً، يدفنه الناس ولا يعلم بأمره سوى القليلين منهم، ولكنه شخصية عظيمة يزدحم الناس حول نعشها يتباكون، ولذا تفنن الشعراء في إظهار جناز الملوك في أبهى صورته. وقد أشار المؤرخون إلى بعض العادات المتبعة في جناز الملوك في العصر المملوكي الأول، فذكروا أن كثيراً منهم لا يوضعون في توابيت، وإنما يخرج بهم الأمراء مكشوفين على رقابهم، كي يتمكن الناس من رؤيتهم، وإلقاء النظرة الأخيرة عليهم.<sup>(١)</sup> وقد فعلوا ذلك في جنازة الملك الناصر محمد بن قلاوون، يذكر المقرئ أن الأمراء حملوه في محفة من قلعة الجبل، وحوله الأمراء الآخرون، وقدامه بعض الحراس يضيئون بمسرجة زيت، ثم لحقه فانوس، وشيعة إلى المدرسة المنصورية وحمل إلى القبة، فغسل وحنط، وكفن، ثم دفن.<sup>(٢)</sup>

ومن العادات التي ذكرها المؤرخون أن تقلب سروج الخيول المصطفة حول جنازة السلطان، وألا تبقى على هيئتها المعتادة،<sup>(٣)</sup> وهذا يذكر بظاهرة تنكيس الأعلام اليوم حداداً على الملك الميت، وقد صور الشعراء ذلك كله في مراثيهم، ومن ذلك قول محيي الدين بن عبد الظاهر متحدثاً عن جنازة الظاهر بيبرس:<sup>(٤)</sup>

خَرَجُوا بِهِ فَوْقَ الرَّقَابِ وَسَارُوا      تَهْدِيهِمْ مِّنْ وَجْهِهِ الْأَنْوَارُ  
وَسَرُوا بِهِ لَيْلاً لِيَخْفُوا قَبْرَهُ      وَاللَّيْلُ لَا تَخْفَى بِهِ الْأَقْمَارُ  
لِمَ سَارَعُوا نَحْوَ التُّرَابِ بِنَقْلِهِ      وَقَبْرُهُ الْأَسْمَاغُ وَالْأَبْصَارُ؟  
لَكِنَّهُ رُكْنَ أَقَامُوهُ بِهَا      كِي يَسْتَقَرَّ لَهَا بِذَاكَ قَرَارُ

(١) انظر ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢٨٥/٢.

(٢) المقرئ، السلوك، ٣١٩/٣.

(٣) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢٨٧/٢.

(٤) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٤٧٥، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٩٧/٧.

يصور الشاعر الظاهر بيبرس وهو محمول ليلاً على رقاب الأمراء، ويبين أن نوره كان الهادي لهم وقت الظلام، ويلقي الضوء على قبره فيصوره وقد أضحى مناراً هادياً بعد مواراته فيه.

ووصف الشاعر نفسه في قصيدة أخرى للملائكة والناس يحيطون بنعشه، ويتزاحمون على قبره المتضوع بالرائحة الزكية، فقال: <sup>(١)</sup>

قَضَى وَلَهُ عَلَى الدُّنْيَا أَيَادٍ	يَصْحُ بِهَا مِنَ الزَّمَنِ السَّقَامُ
فَرَّاحَ مِنَ المَلَائِكِ فِي صُفُوفٍ	لَهُمْ مِنْ حَوْلِ تَرْبَتِهِ زِحَامُ
يَقُولُ النَّاسُ: هَلْ مَلِكٌ كَرِيمٌ	ثَوَى فِي القَبْرِ أَمْ مَلِكٌ هَمَامُ ؟
كَأَنَّ صَعِيدَهُ مُنْجَلٌ فِيهِ	نَوَافِحُ فَضْ عَنَنْ الخِتَامُ

وتحدث صفي الدين الحلبي عن جنازة الملك ناصر الدين عمر الأرتقي، فصوره محمولاً على رقاب الأمراء، تحيط به الخيول مقلوبة السروج، فقال: <sup>(٢)</sup>

وَسَارَ فَوْقَ الرِّقَابِ مُطْرَحاً	وَحَوَّلَهُ الصَّافِنَاتُ تَزْدَجِمُ
مَقْلَبَاتُ السُّرُوجِ شَاخِصَةً	لَهَا زَفِيرٌ ذَابَتْ بِهِ اللُّجْمُ

وأكثر صور برزت في جنازات الملوك، صورهم وهم محمولون على الرقاب، ومن ذلك قول الصفي الحلبي من قصيدة له في رثاء الملك المنصور نجم الدين غازي: <sup>(٣)</sup>

حَمَلُوهُ عَلَى الرِّقَابِ وَقَدْ كَانُوا  
نَدَاءَهُ أَطْوَقَ تِلْكَ الرِّقَابِ

وتحدث الشعراء عن جنازات الأمراء وصورهم محمولين على الرقاب والناس يبكونهم بالدموع الغزار، ومن ذلك قول صلاح الدين الصفدي في رثاء الأمير سيف الدين قماري: <sup>(٤)</sup>

<sup>(١)</sup> ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٤٧٥، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٧/٩٨.

<sup>(٢)</sup> الحلبي، الديوان، ص ٢٩٣.

<sup>(٣)</sup> الحلبي، الديوان، ص ٢٩٠، ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٢/٤٩.

<sup>(٤)</sup> الصفدي، أعيان العصر، ٤/١٣٤.

سار فوق الأعناق للترب عزاً ودموغ السورى عليه جوارى

ويتجلى ذلك في قول محيي الدين بن عبد الظاهر إذ رثى الأمير حسام الدين الأيدمرى الملقب بالدر فيل، وقارن بين حاله قبل الموت وبعده: (١)

سرا نَعَشُهُ فوق الرِّقَابِ وطالما  
يمرُّ على الوادي فتنتهي رِمَالُهُ  
سرا برّة فوق الرِّكَابِ ونايلة  
عليه وبالنادي فتنتهي أراملة

ووصف الشعراء جوانب من العادات الدارجة في العصر المملوكي في تأبين أرباب الدول، وعزائهم، فقد كان تأبين الملك يجتمع فيه العلماء وقراء القرآن، وتمتد الولائم، فيأكل منها العامة والخاصة، وتوزع النقود على الفقراء والمحتاجين، وتكثر أعمال البر والإحسان، (٢) ففي سنة ٦٧٧هـ عمل عزاء للظاهر بيبرس في مكان بين القرافتين (٣) يسمى الأندلس " فاجتمع هناك القراء والفقهاء وأقيمت المطابخ، وهينت المطاعم الكثيرة، وفرقت على الزوايا، ومدت أسمطة عظيمة بالخيام التي ضربت حول الأندلس، فأكل الناس على اختلاف طبقاتهم، وقرأ القراء ختمة شريفة، وعد هذا الوقت من المهمات العظيمة المشهورة بديار مصر"، (٤) وقد صور محيي الدين ابن عبد الظاهر ذلك العزاء بقوله: (٥)

يا أيها الناسُ اسمعوا  
إنّ عزّا السُّلطانِ في  
ألّيسَ ذا ماتمّة  
قَولاً بِصِدقِ قَـذْـكُـسِي  
غَربٍ وَشَـرِقِ ما نُـسِي  
يُعَمَلُ في الأُنـدَلَسِ

يوظف الشاعر اسم المكان الذي عمل فيه الماتم، وهو " الأندلس" ليوهم بأنه الأندلس الحقيقية، فيدلل بذلك على عظمة بيبرس الذي عملت له التعازي في الشرق والغرب.

(١) الصقاعي، تالي وفيات الأعيان، ص ١٣٣.

(٢) انظر سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١٠٩.

(٣) ها الترافة الصغرى والكبرى، مدافع للمرتضى في القاهرة.

(٤) المقرئزي، الخطط، ٣٣٤/٤، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ١١٥/٧.

(٥) المصدر نفسه، ٣٣٤/٤، المصدر نفسه، ١١٥/٧.

وكشف الشاعر نفسه عن النعم التي حلت على العباد آنذاك فقال: (١)

فشكراً لها أوقاتُ برٍّ تقبّلتُ  
لقد كان فيها الخَيْرُ والبرُّ أجمعا  
لقد عمّت النعمى بها كلّ مَوطنٍ  
سَقَّتْهَا الغواصي مَرَبعا ثم مَرَبعا  
فلَمّا مَضَى السُّلطانُ لم يمضِ جوده  
وخلّفَ فينا برّه مُتَنوّعا

وصور الشعراء بعض العادات التي كانت شائعة آنذاك في الحزن على أرباب الدول الميتين، وقد أشار المؤرخون إلى بعضها، فذكروا أن العادة جرت في المدن الكبرى عند موت أحدهم أن تخرج النساء بالدفوف، والندب، والنياحة، واللطم، وأن يقمن بتقطيع شعورهن، وتلطّيح وجوههن بالدبس والسخام، أما الرجال والمماليك منهم خاصة، فإنهم كانوا يمزقون ملابسهم، ويجتمع علماؤهم، وقضاتهم ووعاظهم وأعيانهم وقرآؤهم في العزاء، ويقوم القراء على قبر الميت منهم أياماً أو شهوراً، وهم يتلون القرآن لقاء أجر يدفع لهم. (٢)

ومثال ذلك ما عبر عنه شرف الدين سليمان الإربلي حين رثى الظاهر بيبرس، وأشار إلى عادة تمزيق القمصان فقال: (٣)

ما أنصَفَ الباكي عليك ودمعُهُ  
ينهلُ حَزْناً غير أحمرٍ قانٍ  
وممزقو قمصانهم إذ لم تُكنْ  
أكبادهم عِوضاً عن القمصان

وألقى الشاعر أمين الدين السليمانى الضوء على النساء المخدّرات ذوات العيال، وقد خرجن من خدورهن نائحات، وحاسرات حزناً على الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب، فقال: (٤)

(١) المقرئى، الخطط، ٣٣٤/٤، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ١١٥/٧.

(٢) المصدر نفسه، ٣٣٤/٤، المصدر نفسه، ١١٥/٧.

(٣) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٨.

(٤) البونينى، ذيل مرآة الزمان، ١٤٧/٢، الكهني، فوات الوفيات، ٣٦٥/٤، عيون التواريخ، ٢٠٠/٢٦٢.

من كلّ مُؤَلَّةٍ تَضَمَّ عيالها  
قَبْلَ الرِّزْيَةِ ما يُرَوِّعُ بِألها  
كَيْما يُشَاهِدُ ذُو الحَمِيَّةِ حَالها

تَبْكِيكَ وَلَوْلَا الحَرِيمَ حَواسِراً  
وَمَصُونَةَ فِي خَدْرها ما شَاهَدَتْ  
بَرَزَتْ وَلَمْ تَكُ بَرَزَتْ مِنْ قَبْلِها

\* \* \*

وأخذ الحديث عن قبور أرباب الدول حيزاً كبيراً من مراثيهم، إذ قدم لها الشعراء صوراً متنوعة، فذكروا أماكن بعضها، وصوروا ذلك تصويراً واقعياً، فقد اقتضت ظروف معينة نقل جثة أحدهم من المكان الذي دفن فيه حين مات إلى مقر ملكه أو نيابته، فالظاهر بيبرس على سبيل المثال مات في دمشق، ودفن في قلعتها، وظلت جثته هناك إلى أن ابتاع ابنه الملك السعيد "داراً تعرف بالعقيقي وبناها تربة، ونقل إليها والده"،<sup>(١)</sup> وقد ذكر ذلك محيي الدين بن عبد الظاهر في قوله يحث الناس على زيارة قبر بيبرس:<sup>(٢)</sup>

صاح هذا ضريحه بين جفني      فزوروا من كل فج عميق  
كيف لا وهو من عقيق دموعي      دفنوه منها بدار العقيقي

ولا يخفي فتور عاطفة الشاعر، ورغبته في إبراز مقدرته الفنية أكثر من التعبير عن حزنه وألمه .

وتوفي في سنة ٧٤٢هـ الأمير سيف الدين تنكز الحسامي نائب الشام في سجن الإسكندرية، ودفن هناك، ثم نقل في سنة ٧٤٤هـ "تابوته من الإسكندرية إلى دمشق في تربته جوار جامعة المعروف بإنشائه".<sup>(٣)</sup> وقد نظم الشاعر صلاح الدين الصفدي غير مقطوعة معبراً عن ذلك، ومعللاً إياه، ومنها قوله:<sup>(٤)</sup>

في نَقْلِ تَنكُزِ سِرِّ      أرادَهُ اللَّأْمَةُ رُبُّهُ  
أَتَى بِهِ نَخْوَ أَرْضِ      يَحِبُّها وَتُحِبُّهُ

(١) بيبرس المنصوري، زبدة المفكرة، ص ١٦٦، ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٤٧٥، العيني، عقد الجمان، ٢/٢٠١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٦، المصدر نفسه، ص ٤٧٥، المصدر نفسه، ٢/٢٠١.

(٣) الصفدي، الرافي، ١٠/٤٣٢، تحفة ذوي الألباب، ٢/٢٤٣، أعيان العصر، ٢/١٣٧، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٤/١٦٦، ابن ياس

بدائع الزهور، ج ١، ١/٤٧٩.

(٤) المصادر نفسها على التوالي: ١٠/٤٣٢، ٢/٢٤٣، ٤/١٣٨، ١٦٦/١، ج ١، ١/٤٧٩.

إن إرادة الله - كما يصور الشاعر - هي التي اقتضت نقل جثة ذلك الأمير إلى دمشق حيث الأرض التي بادلتها حباً بحب.

وصور الشاعر في مقطوعة أخرى دمشق جنة الدنيا، ليبين أن نقل جثمان تنكز إليها كرامة اختص بها، لتكون جنته في نعيم الدنيا هذا فضلاً عن النعيم الذي يتقلب فيه في الآخرة، فقال: (١)

إلى دمشق نقلوا تنكزاً      في جنة الدنيا له جنة  
فيآلها من آية ظاهرة      ونفسه في جنة الآخرة

وقال أيضاً: (٢)

أعاد الله شخصك بعد نهر      إلى بلد وليت فلم تخنها  
أقمت بها تدبرها زماناً      وتأمراً في رعاياها وتتهى

وألقي الشعراء الضوء على القبور وقد أضحت مقاماً لأرباب الدول، فصوروها هللت لمقدمهم، وأضحت عظيمة الشأن وسامية المقام، ومتسعة الأرجاء، تشع بالأنوار، وتفوح بالروائح العطرة التي تضاهي المسك والعنبر، وغدت روضة من رياض الجنة. وهدف الشعراء من ذلك تعظيم مكانة أولئك الأرباب، وبيان مكانتهم التي يستحقونها، والكشف عن مصيرهم في حياة القبر، فهو الحد الفاصل بين الدنيا والآخرة، فإذا كان الإنسان سعيداً فيه، فإن حياته الأخرى كذلك، وتلك الصور التي قدمها الشعراء للقبر وسيلة من وسائلهم في تعزية نفوسهم، وتعزية ذوي الميتين والتخفيف عنهم، وبيان أن هناك نعيماً ينتظرهم في قبورهم أسمى مقاماً وأعلى شأناً من النعيم الذي فقدوه في دنياهم، وقد نبعت الأفكار التي عبر عنها الشعراء من معتقداتهم الدينية، فلا تكاد معانيهم تخرج عما جاء به القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، والصور التي قدموها ليست جديدة في شعر الرثاء، بل هي قديمة طرقها الشعراء منذ بزوغ فجر الإسلام، ونشره تعاليمه

(١) الصفيدي، الوافي، ٤٣٢/١٠، تحفة ذوي الألباب، ٢٤٣/٢، أعيان العصر، ١٣٧/٢، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ١٦٦/٤، ابن إلياس بلنغ الزهور، ج ١، ٤٧٩/١.

(٢) الصفيدي، الوافي، ٤٣٢/١٠، تحفة ذوي الألباب، ٢٤٣/٢، أعيان العصر، ١٣٨/٢، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ١٦٦/٤-١٦٧.

المتعلقة بالحياة والموت، ومن تلك المعاني ما قاله الشاعر أبو الفضل قاسم البجائي القصار من قصيدة له في رثاء الملك الناصر محمد بن قلاوون: (١)

زار الثرى فأضا الثرى من نوره  
فغدا به القبرُ الذي قد حلَّه  
وكانه مُذْ حَلَّ فِيهِ رَوْضَةٌ  
سَقِيًا لِتَرْبٍ حَلَّ فِيهَا جِسْمُهُ

وأجابَهُ أَهْلًا بِنِعْمِ الزَّائِرِ  
رَوْضٌ يَفُوحُ كَنَشْرِ مِسْكِ عَاطِرِ  
مَمْطُورَةٌ قَدْ نُمِقتْ بِأَزَاهِرِ  
قَدْ عَطَّرَتْ مِنْهُ بِجِسْمِ طَاهِرِ

ووصف الشاعر صفي الدين الحلبي وجه الأرض قد غبط بطنها لأنه ضم جسد الناصر محمد فقال: (٢)

وقد كان بطنُ الأرضِ يَغْبِطُ ظَهْرَهَا  
عليه فأمسى البطنُ يحسدهُ الظَّهْرُ

ووصف الشاعر شهاب الدين العزازي تربة الملك المنصور الثاني صاحب حماة، وَقَدْ غَدَت تَضُوعَ بِالمسك، وعبر عن حزنه ولوعته حين رأى مليكه مستقراً في قعر الأرض، ينادي فلا مجيب لندائه، وهو الذي طالما أجاب السائلين، فقال: (٣)

بروحي مَنْ هَالُوا عَلَى وَجْهِهِ الثَّرَى  
وَحَزْنِي عَلَى مَنْ أَضْجَعُوهُ بِأَخْدِهِ  
تصاممَ عَنْهُ رَهْطُهُ وَحَمَاتُهُ  
فطاب الثرى من نشره وتضوعا  
وما كان يرضى داره الشمس مَضْجَعَا  
وكان مجاباً في الخطوب إذا دعا

ولا يخفى في البيت الثالث تأثر الشاعر بالأحاديث النبوية التي تحدثت عن حال الميت بعد دفنه وذهاب رهطه عنه.

ووقف الشاعر شافع بن علي الكاتب موقفاً مغايراً إذ نظر إلى القبر على أنه دار الفناء، وموطن الأوحال، وهذا ما يوضحه قوله في رثاء الملك الصالح بن منصور قلاوون: (٤)

(١) النويري، الإلمام، ١٥٦/٤.

(٢) الحلبي، الديوان، ص ٣٢١.

(٣) العزازي، الديوان، ص ٢٤.

(٤) شافع بن علي، الفضل المأثور، ص ١٦٥.

لَخَدَا رَهَيْنَ جِنَادِلٍ وَرِمَالٍ  
مُتَفَرِّدًا عَنِ صَخْبِهِ وَالْأَلِ  
أَوْ مَا أَقَامَ بِكَ الْمَقَامَ الْعَالِي  
لَمَّا سَكَنْتَ بِمَوْطِنِ الْأَوْحَالِ

أَوْ مَا عَلَاءَ الدِّينِ أَضْحَى مَوْدَعًا  
مُسْتَوْطِنًا دَارَ الْفَنَاءِ بِرَغْمِنَا  
يَا قَبْرَهُ أَصْبَحْتَ سَامِي رُتْبَةً  
أَعْلَى قَدْ غَادَرْتَنَا فِي مُطْلَقِ

إن تلك النظرة إلى القبر ليست من الفكر الإسلامي الذي تحدث عن حياة البرزخ، ووصف نعيمها وجحيمها، ولم يعدها مكاناً لفناء الإنسان، كما أنها غير شائعة في مراثي الملوك المسلمين وغيرهم من الميتين، وذلك أن فلسفة الشعراء تقتضي أن يجعلوا ملوكهم في أهنأ عيش بعد موتهم، وألا يكون دفنهم نهاية لهم، وإنما بداية لحياة جديدة تفوق في رغدها حياتهم في الدنيا.

وكشف الشاعر محيي الدين بن عبد الظاهر عظمة القبر الذي دفن فيه الظاهر

بببرس وسمو رتبته حين كرر لفظة "قبر" غير مرة، فقال: <sup>(١)</sup>

قَبْرٌ بِهِ تَتَضَاعَفُ الْأَقْسَامُ مِنْ	بَرَكَاتِهِ وَتُوكَّدُ الْأَقْسَامُ
قَبْرٌ بِهِ تَتَوَسَّلُ الْأَمَالُ فِي	حَاجَاتِهَا وَتُصَرِّفُ الْأَحْكَامُ
قَبْرُ الَّذِي لَوْ أَنْصَفْتَهُ قُلُوبُنَا	مَا أَصْبَحَتْ لِمَسْرَةٍ تَسْتَامُ
قَبْرُ الَّذِي قَلَعَ الْقِلَاعَ فَأَصْبَحَتْ	سَكَانَهَا وَلَهُ الْحَصُونُ خِيَامُ
قَبْرُ الَّذِي قَهَرَ التَّتَارَ فَأَصْبَحُوا	وَلَهُمْ إِذَا نَاحَ الْحَمَامُ حِمَامُ

ودعا الشعراء لأرباب الدول المرثيين، ونهجوا في ذلك نهجين:

النهج الأول: قديم، وهو شائع في الرثاء منذ العصر الجاهلي، ويتمثل بالدعاء

لقبر الميت بالسقيا، وهذا النوع أصيل في بناء قصائد الرثاء ومضمونها، ولم يستطع

الشعراء أن يفلتوا من عقال هذا التقليد عبر عصور الأدب العربي المختلفة <sup>(٢)</sup>، ولكنهم

<sup>(١)</sup> الدواداري، كثر الدرر، ٢١٨/٨، العيني، عقد الجمان، ١٨٣/٢، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ١٤٣/٧.

<sup>(٢)</sup> انظر مصطفى الشورى، شعر الرثاء في العصر الجاهلي، ص ١١٨.



منذ مجيء الإسلام "خلصوه من أبعاده الأسطورية" (١)، وأضحت تلك السحب التي تسقي قبر الميت سحب رحمة وغفران غزيرة المياه، ودائمة الانهمار، وكأنها وكما زاد تدفقها نال الميت الأجر والثواب العميم، وقد جاءت تلك الدعوة في أماكن شتى من مراثي أرباب الدول، وبرزت كثيراً في مراثي الظاهر ببيرس، ومنهما قول تقي الدين بن شبيب الحرّاني: (٢)

سقى الإلهُ ثراهُ سَحَبَ رَحْمَتِهِ      وجادَ مَنَواهُ صَوْبَ الغَيْثِ يَنْسَجِمُ

ومثله قول شرف الدين سليمان الإربلي: (٣)

يا من تروى النَّاسُ مِنْ إِحْسَانِهِ      رَوَى ضَرِيحَكَ صَيِّبُ الغُفْرانِ

ودعا الشاعر جمال الدين بن نباته في قصائده التي رثى بها الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل لقبره بالسقيا، فقال في إحداها: (٤)

سقى قبرَ إسماعيلَ مُنْبَجَسُ الحيا      وأرسى هضابَ المِزَنِ حَوْلَ هِضابِهِ  
وقال في أخرى: (٥)

سقى الغَيْثُ عَنَّا تربةَ الملكِ الَّذي      عَهَدْنَا سجاياهُ أبرَّ وأكْرَمَا

ومثله قول الشاعر شهاب الدين العزازي في مرثية نظمها في الملك الأفضل نور الدين علي: (٦)

فلا بَرِحَتْ تسقى ثراكَ لأجلِهِ      سحائبُ تَهْمِي أو مدامعُ ترفضُ

(١) انظر مصطفى الشورى، شعر الرثاء في العصر الجاهلي ص ١٥٩.

(٢) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٦،

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٥٨.

(٤) ابن نباته، الديوان، ص ٤٩.

(٥) المصدر نفسه، ٤٢٩، ابن حجة، خزنة الأدب، ١/١٣٩.

(٦) العزازي، الديوان، ص ٧٥.

ويثور الشاعر ابن الكَبَّوش البصري على فكرة الدعوة لقبر الملك بالسقيا، ووجه اعتراضه أنه كيف تسقي الغمام قليلة المياه، بحر الجود والكرم المدفون تحت التراب، ويتجلى ذلك في قوله يرثي الملك عز الدين النيسابوري: (١)

لا أحمذُ الغيثَ إنَّ عداكُ ولا إذا انبرى في ثراكِ ينسجُمُ  
وكيف يسقي ثراكَ صوبُ حيا وفيه بحرٌ بالجودِ يَلتَطُمُ

ومثله قول صفي الدين الحلبي في رثاء الملك ناصر الدين عمر: (٢)

سقى ضريحك صوبَ المزنِ مُنبجساً حتّى يُدبج أقصى تربه الزهرُ  
وكيف أسألُ صوبَ المزنِ ريَّ ثرى حَلَّتَ فيه، وفيه البخرُ والمطرُ

وهدف الشعراء من الدعوة لقبور أرباب الدول بالسقيا إلى رؤيتها خضراء تحيط بها الزهور المختلفة الألوان، التي تعبق بالروائح الزكية، وبذلك تستكمل الصورة التي رسموها لتلك القبور، إذ تضحى رياضاً من الداخل والخارج.

أما النهج الآخر، فظهر في المراثي منذ مجيء الإسلام، ونشره الأفكار المتعلقة بالحياة والموت والأخرة، فقد درج الشعراء منذ عصور الإسلام الأولى على الدعاء للميتين بالرحمة والغفران، وبأن يكون مصيرهم الجنة يخلدون فيها، ويتقبلون في نعيمها، ويتمتعون بحورها، وهذه الغيبيات استمدها الشعراء من المعاني والصور التي جاء بها القرآن الكريم وقدمتها الأحاديث النبوية، فالموت "نهاية رحلة الحياة الدنيا فقط، وليس نهاية الحياة عامة في الفكر الإسلامي، إذ بعد الموت تكون الحياة البرزخية التي تكون نعيماً أو جحيماً على صاحبها بحسب عمله إلى يوم القيامة" (٣)

ولعل الدعاء للموتى والإكثار منه نابعٌ من اعتقاد الشعراء بانتفاع أولئك الميتين بها، وهناك أدلة كثيرة من القرآن والسنة تؤكد ذلك الانتفاع، وقد أفرد ابن قسيم الجوزية فصلاً خاصاً في كتابه الروح (٤) ، ومما قاله صلى الله عليه وسلم: "ما الميت في قبره إلا

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٧٨، الكشي، عيون التواريخ، ٦٦/٢١.

(٢) الحلبي، الديوان، ص ٢٩٥.

(٣) د. عبد الحى الفرموي، الموت في الفكر الإسلامي، ص ٨١.

(٤) انظر ابن قسيم الجوزية، الروح، ٢٢٩٩-٣٠٢.

كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو أخيه أو صديق له، فإذا ألحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها، وإن هدايا الأحياء للأموات الدعاء والاستغفار" (١) ، ومن تلك الأدعية قول الشاعر عز الدين بن أبي الحديد في رثاء علاء الدين الطبرسي المعروف بالدويدار الكبير: (٢)

فعليك من رضوان ربك رحمةً  
يعدوك منها الروحُ والريحانُ

وتجدر الإشارة إلى أن أدعية الشعراء لأرباب الدول الميتين بالغفران والجنة جاءت مختلطة بدعوتهم لقبورهم بالسقيا، وهذا ما يوضحه السيف الشطرنجي في رثاء صلاح الدين يوسف بن أيوب: (٣)

فعليه من الإله تعالى  
وله الحورُ في جنانِ أعدتْ  
فسقى الله تربةً هو فيها  
كي ترى تربها عيبراً سحيفاً  
رحمةً أنزلتْ على الأولياءِ  
لأولي العزمِ شاكرٍ للعطاءِ  
مزنةً في صباحهِ والمساءِ  
طيبنَ نشرأ عن روضةِ غنأِ

ومثله قول الشاعر جمال الدين بن نباته في رثاء الملك عماد الدين إسماعيل: (٤)

جادَ الحيا قبره الزاكي فلا برحتُ  
نعمَ السحائب تسقى صوباً وابلها  
سحائبُ العفو والرضوانِ تسقيه  
نعمَ الضريحُ ونعمَ المرءُ ثاويه

ويتجلى ذلك في قول صلاح الدين الصفدي من قصيدة له في رثاء الأمير سيف

الدين تنكز: (٥)

ألا فاذهب سقيتَ أبا سعيدٍ  
فأنت وديعةُ الرحمنِ مناً  
فقد روى زمانك كلَّ ظامٍ  
تحوطك في الرحيلِ وفي المقامِ

(١) الغزالي، سكرات الموت، ص ١٥٨.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ٢٢٦٦، الأشراف الغساني، المسجد المسبوك، ٥٩٢/٢.

(٣) البونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٥٠/٢.

(٤) ابن نباته، ص ٥٧٢.

(٥) الصفدي، الوافي، ٤٣٤/١٠، أعيان العصر، ١٣٧/٢، ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٣٢٢/٢.

منالاً حاز غايات المرام  
يقوم الناس من تحت الرجام

ونلت من السعادة والمعالي  
وكدمت ممتعاً بالخلد حتى

فالشاعر يدعو لقبر ذلك الأمير بالسقيا، ويرجو له حياة سعيدة في قبره حتى يبعث  
الناس، وينشرون من قبورهم.

\* \* \*

وتحدث الشعراء عن مصير أرباب الدول في الآخرة، فصوروهم وهم ينعمون  
بالجنة بما فيها من رغد وقصور، وأسرة، وحرور عین، وتلك الحياة هي التي وصفها  
القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة جزاء للصالحين الذين قضوا حياتهم في العبادة  
والتقوى وطاعة الله، وتلك المعاني التي عرضها الشعراء أسلوب من الأساليب في التأسى  
والعزاء، وبها تكتمل حياة النعيم التي عاشها هؤلاء في الدنيا والقبر، وتتجلى تلك  
المضامين في قول شافع ابن علي لكاتب في رثاء الملك المنصور قلاوون: (١)

إن زال ملكه بالموت إن له      عند الإله لملكاً عنه لم يزل  
في جنة الخلد في أعلى القصور على      أعلى الأُسرة يُحْبَى أشرف الحلل  
فهو السعيد إذا دنياً وآخرة      عن عهده السعد في الدارين لم يحل

فالملك المنصور لم يزل ملكه بموته، لكنه حظي بملك أعظم عند ربه، في جنات  
الخلد حيث يتقلب في النعيم المقيم.

ويكرم الشاعر صفي الدين الحلبي الملك الأفضل محمد بن إسماعيل حين صور  
الملائكة وقد أتت تبشره بالجنة بعدما انفض عنه الغاسلون، وحين وصف الجنة بحورها  
وولدانها مهللة ومرحبة بقومه إليها، يقول: (٢)

سَمِعَتْ بِمَقْدَمِكَ الْجَنَانَ فَزَخَّرَتْ      وَتَبَاشَّرَتْ وَلِدَانَهَا وَالْحَوْرُ  
لَمْ تَثْنِ عَنْكَ الْغَاسِلُونَ عَنَانَهَا      إِلَّا أَتَاكَ مَبْشَرٌ وَبَشِيرُ  
وَعَدَّتْ تَقُولُ الْعَالَمُونَ وَقَدْ بَكَتْ      عِلْمًا بِلَذَّةِ مَا إِلَيْهِ تَصِيرُ  
تَبْكِي عَلَيْهِ وَمَا اسْتَقَرَّ قَرَارُهُ      فِي اللَّحْدِ حَتَّى صَافَحْتَهُ الْحَوْرُ

(١) شافع بن علي الكاتب، الفضل المأثور، ص ١٧٧، حسن المناقب السرية، ص ١٤٢.

(٢) الحلبي، الديوان، ص ٣٢٣.

وخطب الشاعر صلاح الدين الصفدي علاء الدين المارداني نائب السلطنة  
بدمشق، فدعاه إلى الصبر على مصيبتة بموت أخيه سيف الدين قماري، وبيّن له المكانة  
التي حظي بها المتوفى عند ربه، إذ انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء والخلود، فقال: (١)  
صَبَرَ اللهُ قَلْبَهُ فِي مُصَابِ زَادَ مِنْهُ الْأَمْوَاتُ أَكْرَمَ جَارِ  
تَرَكَ الْمَالَ وَالْبَنِينَ وَوَالِي عَنِ دِيَارِ الْبَلَى لِدَارِ الْقَرَارِ  
هُوَ ضَيْفٌ قَد بَاتَ عِنْدَ كَرِيمِ بَاذِلِ الْعَفْوِ سَاتِرِ غَفَارِ

### تصوير الحدث

صور الشعراء المصيبة التي نجمت عن موت أرباب الدول، ووصفوا حزنهم  
وجزعهم، ودموعهم الغزيرة التي انهمرت حزناً عليهم، وهذا الجزء أساسي في الرثاء  
وربما كان المميز له عن غيره من الموضوعات الشعرية. نُقل عن الأصمعي قوله: "قلت  
لأعرابي ما بال المراثي أشرف أشعاركم؟ قال: لأننا نقولها وقلوبنا محترقة" (٢).

وقصر ابن رشيق تلك المعاني على مراثي الملوك والسادة، فقال: "وسبيل الرثاء  
أن يكون ظاهر التفجع، بين الحسرة مخلوطاً بالتلهف والأسف والاستعظام إن كان الميت  
ملكاً أو رئيساً كبيراً". (٣) ويرى حازم القرطاجني أن الرثاء يجب "أن يكون شاجي  
الأقاول، مبكي المعاني، مثيراً للتباريح" (٤)، وأنه "ما صدر عن نفس شجية، وقريحة  
قريحة" (٥)، ويرى بعض الباحثين أن "قصائد الرثاء تعبر عن عاطفة إنسانية سامية لا  
يأتي الإبداع فيها دون انفعال حقيقي وتأثر صادق بالحدث" (٦)، إن الكلام الأنف بحاجة  
إلى معاودة النظر، إذ لا يشترط في الرثاء حتى يكون مبدعاً في مراثيه أن يكون تأثره  
حقيقياً بالحدث، وإنما يكفي أن يكون قادراً على تمثيل تجربة الحزن وعكسها في مراثيه.

(١) الصفدي، أعيان العصر، ١٣٥/٤.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ١٦٥/٥.

(٣) ابن رشيق، العمدة، ١٤٧/٢.

(٤) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص ٣٥١، وانظر د. أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي، ص ٢٢٥.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٤١.

(٦) مظفر غام، الرثاء في شعر العصر العباسي الأول، ص ٨٤.

ويؤيد ذلك ما ذهب إليه النقاد قديماً أو حديثاً، فحازم القرطاجني الذي فضل المرثي الصادرة عن نفس شجبية، لا يقدح بتلك التي استطاع الشاعر إيراز حزنه جلياً فيها، وإن لم يكن حزيناً بالفعل.<sup>(١)</sup>

أما ريتشاردز في كتابه "مبادئ النقد الأدبي"، فقد جعل أول ما يميز الفنان شاعراً كان أو غيره هو قدرته على تمثيل الحالة الشعورية الخاصة بتجربة معينة<sup>(٢)</sup>، فالشاعر برأيه يملك قدرة غير عادية على تمثيل التجارب وتنسيقها<sup>(٣)</sup> وفي الحقيقة "إن عاطفة النص تقاس بقدرته على إثارة عاطفة القارئ، وإدامة تلك الإثارة في نفسه أطول فترة ممكنة"<sup>(٤)</sup>

كشفت معظم نصوص الرثاء عن انفعالات حقيقية وصادقة تجاه المرثي، إذ صور ناظموها بجلاء، أحزانهم وأشجانهم، وجوهم النفسي، واستطاعوا تصوير الجو المحيط بهم إثر موت واحد من أرباب الدول الكبار أو الصغار، وتغننوا في تنويع تلك الصور، واتفقت جميعها على أن شيئاً عظيماً قد فقد وزال، وبأن حادثاً جليلاً قد حدث. ومن الملوك الذين بكاهم الشعراء وأكثروا من ذلك الظاهر بيبرس، فالشاعر علاء الدين علي المعروف بابن قاضي اللاذقية يتبرم من الحياة بعد ذلك الملك، ويتمنى أن يفديه بروحه، لكنه يبدو مقتنعاً بأن ذلك من الأمور المستحيلة، يقول:<sup>(٥)</sup>

لا خَيْرَ في العيشِ من بعد الفراقِ له      طالَ العزاءُ به حقاً فعزّونا  
من كان يُسعدُ إخواناً على حُزنٍ      بالدَمعِ ها وقتَه يبكي ويُبكيُنَا  
لو كان يُفدَى فدينَاهُ بأنفسِنَا      لكنْ أرواحِنَا ليستْ بأيديِنَا

وتستثار انفعالات ناصر الدين بن النقيب، فيصرخ بأعلى صوته أسفاً وحزناً، وذلك حين رأى العساكر، والمواكب السلطانية خاليه من بيبرس بعد أن اعتاد على عرضها والسير فيها، يقول:<sup>(٦)</sup>

(١) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص ٣٤١.

(٢) انظر ريتشاردز، مبادئ النقد الأدبي، ص ٣٤٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٤٣.

(٤) د. فائق مصطفى، د. عبد الرضا علي، في النقد الأدبي الحديث، ص ٣٤.

(٥) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٥.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٥٧.

نزلوا على عاداتهم وترجلوا  
عالي الذرى أو بدرها المتهلل  
أسفاه أين الغائب المترحل

وقد افتقدتكَ والعساكر عندما  
فإذا المواكب ليس فيها ركنها الـ  
فقطعتُ نمت ما قطعتُ وقلت وا

ومثله قول سراج الدين الوراق في رثاء عز الدين أبيك : (١)

لعيني أطلابُ الخميس العرمم

يمتلُّ لي شخصُ المعزِّ إذا بدتْ

غدا ملجماً صبري وما بين ملجَم

وتذكرنيه الخيلُ ما بين مسرَج

ويدعو الشاعر مجد الدين بن ظهير الإربلي إلى بكاء بيبرس وندبه، وبين أنه من

لم يمت كمداً عليه فإنه لن يوفيه حقه، فيقول: (٢)

جلل للأشتاتِ الهمومِ ولفِ

يا للنوادبِ والرجالِ لحادثِ

ويشيبُ فوداهُ فليس بمنصِفِ

ومن لا يذوبُ أسىً عليه فؤاده

ومثله قول شبيب الدين الحراني: (٣)

ملك الملوكِ وإن مدَّ الدموعَ دمُ

فلتبتك كلُّ البرايا ركنَ دينهمُ

فالشعراء يرغبون في أن يروا الحزن قد عمَّ الخلق كلهم، وبذلك يوفون بيبرس

حقه، ويكونون منصفين له، ولذا يستنكر محيي الدين بن عبد الظاهر، على من خدموا ذلك

الملك، وغرهم جوده فتور عاطفتهم، وشح دموعهم، فيدعوهم إلى شق الجيوب،

فيقول (٤) :

عاشوا ومن بلغوا به ما راموا

بأنه يا مَنْ في صنائعِ جودهِ

أقدارُ والأرزاقُ والأقوامُ

يا مَنْ به خدمتهمُ الأيامُ والـ

حببَ الصبَّاحِ وشقتِ الأفلامُ

لم لا شققتمُ مثل ما شقَّ الدُّجى

عندَ الخلائقِ حُرمةً وندماً؟

أين البكاءُ على الذي كانتَ له

قرنَ الرجالِ ثوتَ عليه رجامُ؟

أين المدامعُ يا جفونُ أما تَري

ورثي الشاعر شافع بن علي الكاتب الملك الصالح علاء الدين بن المنصور

قلاوون، وعبر عن حزنه ولوعته، إذ راح يخمش خده ، ويمزق ثيابه عليه، فقال (٥):

(١) الصندي، الوراق، ٤٧٤/٩.

(٢) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٦٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٥٦.

(٤) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ١٧٣/٧.

(٥) شافع بن علي، الفضل المأثور، ص ١٦٥.

حقاً أقول فلنْ يردّ مقالِي  
وأجودُ بالذمِّعِ المصونِ فيغندي  
وأخمشُ الخدينِ لطمأ مؤلماً  
وأنوحُ بالإعلانِ وهو محرّمٌ  
وأشقّ ممّا شقّ أنثوابي وإنْ

مما دهى واخبيبةَ الأمالِ  
بتواترِ الهملانِ كالتسلسالِ  
بيمينِ نذبِ مُسمعِ وشمالِ  
إلا على فقْدِ العزيزِ الغالي  
ألفى بغيرِ حُلَى التّفجّعِ حالي

ويرثي الشاعر شهاب الدين العزازي الملك المنصور صاحب حماة، فيبيكيه،

وينوح عليه، ويتمنى الموت بعده عليه يوفيه بعض حقوقه عليه، فيقول: (١)

بَكَيْتُ ولو وفيتُهُ بعضَ حقِّهِ  
وقُلْتُ وقد أكبرتُ رزأً أصابهُ  
فلم ترَ عيني قرّةً بعدَ وجْهِهِ  
وإنْ كنتُ قد أخرتُ بعدَ رحيلهِ  
عليّ لأجريتُ السّاحبِ أدْمعاً  
عَدِمْتُكَ رزأً ما أمضَ وأوجعاً  
ولا أعلى في الجاهِ والمالِ مطمعا  
فإنّي على التّرحالِ ما زلتُ مُزْمِعاً

وعبر جمال الدين بن نباته بصورة جلية عن لوعته وأحزانه وتعاسته، ودموعه،

في أشعاره التي رثى فيها أرباب الدول، واعترف بفضلهم عليه (٢)، فأكثر من ترداد ألفاظ اللهفة والحسرة ومن الأمثلة على ذلك قوله في رثاء الملكين المؤيد والأفضل. (٣)

يا جفنُ امزجِ أدْمعي بدمائي  
لهفي على ملكينِ جادَ عليهما  
لهفي لإسماعيلِ قبلِ مُحَمَّدٍ  
أما ذبيحاً مُقتلي ومَدَامعي  
ما رثَ لا وأبيك عَهْدُ رِثائي  
واشهد بها لمُلوكنا الشُّهداءِ  
في كلِّ أرضٍ أفقُ كلِّ سماءِ  
لم ألقَ يومَ رداهما لِفداءِ  
لَهُما فما وقيا بَقَيْضِ دماءِ

وأكثر المعاني تردداً في مراثي ابن نباتة إلى جانب حديثه عن حزنه وحسرتة، تلك

المعبرة عن معاناة الجماعة وتعاستها، وتشتتها بعدما فقدت راعيها، وحاميها، ومحقق آمالها، ولذا تلهف الشاعر على حالها، وتحسر على وفودها الذين أغلقت أبواب العطايا في

(١) العزازي، الديوان، ص ٢٥.

(٢) انظر، ص من هذا الكتاب.

(٣) ابن نباتة، الديوان، ص ١٥.



وجوههم، وهو بذلك يمزج بين همّة الذاتي وهموم الجماعة، ويتجلى ذلك في قوله في رثاء الملك الأفضل محمد بن إسماعيل: (١)

تَلَا فَقَدْ إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ مُحَمَّدٌ  
وَزَالَا فَمَا إِنْسَانٌ عَيْتِي بِمُمْسِكِ  
كَأَنَّ زَنَادَ الْفَضْلِ لَمْ يَورَ مِنْهُمَا  
كَأَنَّ لَمْ يَقُمْ بِالْمَكْرَمَاتِ مُطَوَّقٌ  
خَذَ الزَادَ يَا ضَيْفَ الْمَكَارِمِ وَارْتَحَلَ  
نَزَقَتْ دَموعاً أَوْ نَزَحَتْ رَكَاباً

فِيَا لِلْأَسَى مِنْ فَادِحٍ بَعْدَ فَادِحِ  
بِكَاءٍ وَلَا إِنْسَانُ قَوْلٍ بِكَادِحِ  
سَنَا شِيمٍ مَا فِيهِ قَوْلٌ لِقَادِحِ  
لَدَى الْبَابِ يَشْدُو بِالثَّنَا شَدْوُ صَادِحِ  
بِنُوحٍ فَقَدْ أَقْوَتِ رُبُوعَ الْمَنَاحِ  
فَلَّاهُ فِي الْحَالِيْنَ حَسْرَةَ نَازِحِ

وقال مصوراً الوفود تبكي الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل: (٢)

مَالِي أَرَى الْمَلِكَ قَدْ فَضَّتْ مَوَاقِفُهُ  
مَالِي أَرَى الْوَفْدَ قَدْ فَاضَتْ مَآقِيهِ

ويرثي الشاعر صفي الدين الحلبي الملك الناصر محمد بن قلاوون، فيصور الناس، وقد طاشت عقولهم بعده، ووحّدت قلوبهم الهموم والأحزان، وأضحت كقلب الخنساء حزناً على أخيها صخر، وتقوّضت آمالهم التي كانوا يرجون تحقيقها على يديه، قال: (٣)

تَوَفَّيْتُ الْأَمَالَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ  
وَزَالَتْ حِصَاةُ الْحِلْمِ عَنْ مَسْتَقْرِّهَا  
وَسَاوَى قُلُوبَ النَّاسِ فِي الْحُزْنِ رِزْوَهُ

وَأَصْبَحَ فِي شُغْلٍ عَنِ السَّفَرِ السَّفَرُ  
وَأَصْبَحَ كَالْخَنَسَاءِ فِي قَلْبِهِ صَخْرُ  
كَأَنَّ صَدُورَ النَّاسِ فِي حُزْنِهَا صَدْرُ

وتجلى المعاني السابقة في قول شافع بن علي الكاتب في رثاء الملك المنصور قلاوون: (٤)

لَهَقِي عَلَيْهِ لَقَدْ غَمَّتْ مُصَيَّبَتُهُ  
وَصَيَّرَتْ كُلَّ قَلْبٍ بَعْدَ فِرْعَوْنِهِ  
وَعَمَّتِ النَّاسَ مِنْ حَافٍ وَمُنْتَعِلِ  
مِنَ الشَّوَاغِلِ بِالْأَحْزَانِ فِي شُغْلِ

(١) ابن نباتة، الديوان، ص ٩٩، الصفدي، الوافي، ٢/٢٢٦، أعيان العصر، ٤/٤٢٦.

(٢) ابن نباتة، الديوان، ص ٥٧٠، الصفدي، الوافي، ٩/١٧٥، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٢/٤٠٣، النجوم الزاهرة، ٩/٢١٥.

(٣) الحلبي، الديوان، ص ٣١٩.

(٤) شافع بن علي، الفضل المأثور، ص ١٧٧، حسن المناقب السرية، ص ١٤١-١٤٢، ولزيد من الأمثلة انظر ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص

٢٦٢-٢٦٣، ابن نباتة، الديوان، ص ١٥، ٥٧٢، الصفدي، الوافي، ٢١/٣٩٣، النويري، الإلمام، ٤/١٥٥.

وأضرمت في الحشا ناراً تاجج في فيض المدامع مثل العارض الهطل

وبكى الشعراء الأمراء والقادة، وعبروا عن أحزانهم وأوجاعهم، فالشاعر شمس الدين الكوفي الواعظ يرثي نقيب الموصل ركن الدين بن النقيب، فيصف تكدر حياته بعده، وشوقه إليه، ويخاطب نفسه فيدعوها إلى الإغراق في الحزن واللاهفة، ويبدو مقتنعاً بأنه لا جدوى من الكآبة والتعاسة، فهي لا تمنع موتاً، ولا ترد قضاء، فيقول: (١)

فالشوقُ يُظْمِنُنِي إِلَيْهِ وَكَلَّمَا  
يا نَفْسُ ذُوبِي حَسْرَةً وَكآبَةً  
حَاوَلْتُ شَرِبَ الْمَاءِ زَادَ تَكَدَّرِي  
وتَأَسَّفِي وَتَلَهَّقِي وَتَحَسَّرِي  
نَزَلَ الْقَضَاءُ صَبْرَتِ أَمْ لَمْ تَصْبِرِي  
ماذا يكون غير ما هو كائن

ومثله قول صفي الدين الحلبي في رثاء الأمير عماد الدين الدلقندي: (٢)

بَسَطْتُ لِي مِنْكَ أَخْلَاقاً وَتَكْرِمَةً  
فكَيْفَ نَحْيَا وَقَدْ زَالَ الْحَيَاةَ لَنَا؟  
حَتَّى غَدَا الْوَدَّ فِيمَا بَيْنَنَا رَحْمَا  
فإن نَمْتُ بَعْدَهُ حُزْناً فَلَا جَرَمَا  
ولو مَزَجْتُ دَمُوعِي بِالْدمَاءِ لَمَا؟  
أبكي عَلَيْهِ وهل يشفي البكا كمدأ

وصور الشعراء موت أولئك الأرباب مصيبةً كبرى، وحدثاً جليلاً، وفاجعةً اضطربت لها مظاهر الكون، وعمّ أثرها المسلمين والدنيا والدين، وهذا أمر شائع في الرثاء منذ القديم، هدف منه الشعراء إلى بيان أن موت أولئك الناس ليس حدثاً عادياً، لكنه خطب مهول، وحادثة تنسى ما قبلها من الحوادث، ولذا تنافسوا في عرض تلك المعاني وتنويعها، فاختاروا لها ما يتلاءم معها من الألفاظ والصّور، تجعل المتلقي يعيش الحدث. ويتمثله ويدرك شدته، وبرز ذلك بصورة جلية في مرثي الظاهر بيبرس، فالشاعر محيي الدين بن عبد الظاهر صورته خطباً فادحاً، تزلزلت منه الأرض، وعمّ الوجود البؤس والكآبة، وأنذر هوله بدنو القيامة، فقال: (٣)

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٨٧.

(٢) الحلبي، الديوان، ص ٣٢٥.

(٣) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ٢٤٤، شافع بن علي، حسن المناقب المبرية، ص ١٦٤، بيبرس المنصور، زبدة الفكرة، ص ١٦١،

الدواداي، كثر الدرر، ٢١٥/٨، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٩٠/٧.

كَلَّا وَلَا صَبْرَ جَمِيلٍ يَجْمَلُ  
 مِنْهَا الرّوَّاسِي خَفَةَ تَنْزَلُ  
 مَا كَانَ فِي ذَهْنٍ أَمْرِي يَتَشَكَّلُ  
 أَتَرَى الْقِيَامَةَ عَنْ قَرِيبٍ تُقْبَلُ؟

مَا مِثْلُ هَذَا الرَّزَاءِ قَلْبٌ يَحْمَلُ  
 اللَّهُ أَكْبَرَ إِنَّهَا لِمَصِيبَةٌ  
 عَزَّ الْعَزَاءُ لِأَنَّ رِزَاءً مِثْلُ ذَا  
 مَا لِلْوُجُودِ عِلْتُ عَلَيْهِ كَأَبَةٍ؟

ويستمر الشاعر في تصوير الحدث فيقول: (١)

إِنَّ الْفَجَائِعَ رَبَّمَا تَسَّهَلُ  
 دُنْيَا فَأَحْشَاءُ الزَّمَانِ تَقْلَقُلُ  
 سَهَمٌ لَهُ فِي كُلِّ قَلْبٍ مَقْتَلُ  
 الْخَطْبُ أَعْظَمُ أَنْ يَقَالَ فَجِيعَةٌ  
 هَذَا هُوَ الرَّزَاءُ الَّذِي فَدَحَتْ بِهِ الدُّ  
 سَهَمٌ أَصَابَ وَمَا رُئِيَ مِنْ قَبْلِهِ

وسعى الشعراء إلى حشد الألفاظ الدالة على هول المأساة، وفداحة الخبر، وشدة وقعه في نفوس الناس، الذين لم تستطع مسامعهم وقلوبهم تحمله، فطاشت ألبابهم، وضاعت عليهم الأرض بما رحبت، وتزلزلت بهم أركانها، (٢) ويتجلى ذلك في قول ناصر الدين بن النقيب: (٣)

لِلْأَرْضِ بَعْدَكَ رَجَّةٌ وَتَزَلْزَلُ  
 وَالْخَلْقُ بَعْدَكَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ  
 هَذَا هُوَ النَّبَأُ الْعَظِيمُ وَإِنَّهُ الـ  
 خَبَرَ تَفْوَهُ بِهِ الْعَيُونَ بِدَمْعِهَا  
 وَمُصِيبَةٌ عَظْمَى وَخَطْبٌ فَادِحٌ  
 لَمْ يَسْتَقِرَّ بِمَنْ عَلَيْهَا مَنْزَلُ  
 جُمِعُوا وَكُلُّ ذَاهِلٍ لَا يَعْقِلُ  
 أَمْرَ الْجَسِيمِ لِكُلِّ مَنْ يَتَعَقَّلُ  
 إِذْ لَا لِسَانَ يَقْلَهُ أَوْ يَنْقُلُ  
 وَرِزْيَةٌ كُبْرَى وَأَمْرٌ مُغْضِلُ

وجعل الشعراء مظاهر الطبيعة تشاركهم حزنهم وبكاءهم فشخصوها، وأعطوها ما يلائمها من صفات، وبينوا ما طرأ على وظيفتها من تغير، وقد كان لذلك تأثيره على

(١) المصادر نفسها على التوالي، ص ٢٤٥، ص ١٦٤، ص ١٦٢، ص ٢١٥/٨، ابن إياس، بلدائع الزهور، ج ١ ق ١/٣٣٩.

(٢) انظر ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٤، ٢٥٧-٢٥٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٤٨، ٢٥٠.

عاطفة الشاعر فخففَ من حدتها وبروزها في المرثية، ومن ذلك قول الشاعر صلاح الدين الصفدي في رثاء الأمير سيف الدين قماري: (١)

ونجومُ السُّجى لَيْسَنَ حِداداً      وأرْتَنَّا تَهْتُّكَ الأَسْـتارِ  
وعيونُ الغمامِ تَبْكِي بِجَفْنِ      وتبَلَّ الثَّرى بِدَمْعِ القطارِ  
ولكم لَطَمَ الرَّعوْدُ سَحاباً      فتراهُ مشَقَّقَ الأَطْـمَارِ  
وجبينُ الصَّباحِ شَقَّ فأضْحَى      شَقَّقَ الصُّبْحُ زائِدَ الأَحْمَرارِ  
ونسيمُ الصَّبَا يهبُ عَلياً      بفتورٍ في سَاعَةِ الأَسْـحَارِ

وصور الشعراء أثر موت أرباب الدول على الأشياء التي كانوا يزاولونها، وعلى كل ماله علاقة بذواتهم من سيوف ورماح، وقسي وخيول وحصون، وبلاد، وحروب، وغير ذلك.

وقد تنبه قدامة بن جعفر إلى هذه القضية، ووضع لها محددات وقوانين يرى أنه على الشعراء الاهتداء بها، وإلا عيب عليهم تجاوزها، يقول: "ومن الشعراء من يرثي بذكر الأشياء التي كان الميت يزاولها، وعند ذلك ومثله يحتاج إلى أن يعلم صحة المعنى فيما يتكلم به من مثل هذه الأشياء، فإنه ليس من إصابة المعنى أن يقال في كل شيء تركه الميت إنه يبكي عليه لأن مثل ذلك ما إن قيل إنه بكى عليه كان سباً وعبياً لاحقين به، فمن ذلك مثلاً إن قال قائلٌ في ميت: بكتك الخيلُ إذ لم تجد لها فارساً مثلك فإنه مخطئ لأن من شأن ما كان يوصف في حياته بكده إياه أن يذكر اغتباطه بموته، وما كان يوصف بالإحسان إليه في حياته أن يذكر اغتمامه بوفاته". (٢)

ولكن الشعراء لم ينظروا للأمر كما نظر إليه قدامة، وإنما نظروا إليه من وجهة نظر الوظيفة التي كانت تؤذيها الأشياء الباكية، فالخيول والسيوف والرماح والقسي على سبيل المثال تكمن وظيفتها في الكر والفر، والضرب والطعن، فإذا مات من كان يقودها لأداء مهمتها فإنها تصبح مغمومة وكئيبة وفاقدة إياه، ولا يقال فيمن جعلها تقوم بدورها إنه كان مسيناً لها، والشعراء حين يصورون حزن تلك الأشياء على أرباب الدول خاصة،

(١) الصفدي، أعيان العصر، ١٣٤/٤، ولزيد من الأمثلة انظر اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٣١/٤.

(٢) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص ٤٩-٥٠.

فإنهم يسعون إلى إبراز دورهم في الجهاد ومقارعة الأعداء، وإلى انعدام من يقوم بذلك الدور بعدهم، وبذا يصلون إلى ما ينشدون من اكتمال دائرة الحزن، وتفرد أولئك المرثيين بكل الصفات والمآثر.

وبرزت تلك المعاني جليلة في مرثي الظاهر بيبرس، ويتجلى ذلك في قول ناصر الدين بن النقيب: (١)

وَالْحَرْبُ مِنْكَ تَأَيَّمَتْ وَالخَيْلُ مِنْهُ      كَيْ تَيَّمَّتْ وَكَذَا الظَّبَاءُ الذَّبِيلُ  
وَلَطَّالَمَا أَبْكَيْتَهَا بِدَمٍ عَلَيَّ      مُغْلُ التَّتَارِ وَهَمُّ بِهَا قَدْ قَتَلُوا  
قَدْ كُنْتُ رَامِيهَا الْمُصِيبَ بِسَهْمِهِ      وَبِظَنِّهِ مَا لَا إِلَيْهِ يُوصَلُ

ومثله قول محيي الدين بن عبد الظاهر مصوراً كآبة الخيول والرماح والسيوف والقسي: (٢)

مَا لِلجِيَادِ كَثِيَّةً مَحْزُونَةً      أَفْذَا الحَنِينِ أُنِينُهَا إِذْ تَصْنَهَلُ؟  
مَا لِلقَسِيِّ تَنْنُ أَنْةً فَاقِدِ      إِنْ القِسِيِّ لَفِيهِ أَيْضاً تَكَلُّ؟  
مَا لِلسِّيُوفِ قَدْ انْحَنَتْ أَتْرَى دَرَّتْ      أَنْ المَنُونِ لِحَدَّهَا سُتَقْلُّ؟  
مَا لِلرَّمَاحِ تَخَوَّاتِهَا رِغْدَةً      أَلْتَرَكِيهَا أَنْ لَيْسَ تَعْقِلُ تَعْقِلُ؟

ويشفق الشاعر مجد الدين بن الظهير الإربلي على الحصون والخيول والبحار عقب موت بيبرس فيقول متسائلاً عن مصيرها: (٣)

مَنْ لِلْمَعَاقِلِ فَاتِحاً أَوْ حَامِياً      بِمَضَاءِ عَزْمٍ لِلصَّوَارِمِ مُرْهَفِ  
مَنْ لِلسَّوَابِحِ وَالبَحَارِ دَمِ الطَّلَى      وَالشَّهْبِ تَطْهَرُ فِي العَجَاجِ وَتَخْفِي

ويرثي الشاعر صفي الدين الحلبي الملك المنصور نجم الدين غازي بن أرتق، فيصور الآداب حزينة، والأقلام باكية، والرماح يعلو نحيبها وعويلها، فيقول: (٤)

(١) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٤٨.

(٢) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٤٥، بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ١٦٦، الداوداري، كثر الدرر، ٢١٥/٨، ابن الفرات، تاريخ

ابن الفرات، ٩٠/٧، ابن إيلس، بلدائع الزهور، ج ١، ١٥١/٣٣٩.

(٣) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٦٣.

(٤) الحلبي، الديوان، ص ٢٩٠-٢٩١، ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٤٩/٢.

طَارَ لِبَابِ السَّمَاكِ يَوْمَ تَوَفِيهِ — وَشَقَّتْ مَرَائِرُ الْأَدَابِ  
وَعَلَا فِي الْمَلَا عَوِيلُ الْعَوَالِي — وَنَحِيْبُ الْيَرَاعِ وَالْقِرْضَابِ<sup>(١)</sup>

وَصَوَّرَ الشُّعْرَاءُ الدِّيَارَ وَالْأَمَاكِنَ الَّتِي كَانَ يَسْكُنُهَا أَرْبَابُ الدُّوَلِ، وَقَدْ غَدَتِ رُبُوعَهَا  
أَطْلَالًا بَعْدَهُمْ، وَيُوضِحُ ذَلِكَ قَوْلُ الْحَلِيِّ فِي رِثَاءِ الْأَمِيرِ رُكْنِ الدِّينِ بْنِ إِسْحَاقَ: <sup>(٢)</sup>  
أَرْكُنَ الدِّينِ كَمِ رُكْنِ مَشِيدٍ — هَذَتْ بِفَقْدِ ذِيكَ الْجَمَالَ  
رُبُوعَكَ بَعْدَ بَهْجَتِهَا طُلُوعًا — وَحَالِيهَا مِنْ الْأَنْوَارِ خَالَ

وَيُرْسِمُ ابْنُ نَبَاتَةَ صُورَةَ لِمَدِينَةِ حِمَاةَ وَوَادِيهَا وَعَاصِيَتِهَا، وَمَنَازِلَهَا، وَنَوَاعِيرَهَا،  
تَكْشِفُ عَنْ حَالِهَا عَقَبَ مَوْتِ الْمَلِكِ الْمُؤَيَّدِ عِمَادِ الدِّينِ إِسْمَاعِيلِ، فَيَقُولُ: <sup>(٣)</sup>  
هَذَا حِمَاةُ أَغْصَنَ الْهَمُّ وَادِيهَا — وَطَاوَعَ الْخُزْنَ فِيهِ دَمْعُ عَاصِيَةٍ  
كَأَنَّهُ اسْتَشْعَرَ الْأَحْزَانَ مِنْ قَدَمِ — فَلَنَوَاعِيرِ نُوْحٍ مِنْ نَوَاحِيهِ  
هَذَا الْمَنَازِلُ وَالذِّيَابُ مَعْطَلَةٌ — كَأَنَّهَا اللَّفْظُ خَالَ مِنْ مَعَانِيهِ

وَأَلْفَى صِلَاحُ الدِّينِ الصَّفْدِيِّ الضُّوْءَ عَلَى الْمَصِيبَةِ الَّتِي نَزَلَتْ بِدِمَشْقَ وَنَاسَهَا عَقَبَ  
مَوْتِ الْأَمِيرِ سَيْفِ الدِّينِ تَنْكَزَ فَقَالَ: <sup>(٤)</sup>  
بَكَيْتُ دِمَشْقَ لَمَّا غَابَ عَنْهَا — وَأَوْحَشَ أَفْقَهَا بِدَرُ التَّمَامِ  
فِيَا تَمْزِيْقَ شَمْلِ الْعَدْلِ فِينَا — وَيَا تَفْرِيقَ ذَلِكَ الْإِنْتِظَامِ  
وَيَا لِمَصِيبَةٍ بِدِمَشْقَ حَلَّتْ — شَدَائِدُهَا بِأَحْدَاثِ عِظَامِ

وَصَوَّرَ عَزَّ الدِّينُ بْنُ أَبِي الْحَدِيدِ الدَّارَ الَّتِي بَنَاهَا عَلَاءُ الدِّينِ الطَّبْرَسِيِّ الدُّوَيْدَارَ  
عَلَى نَهْرِ دَجْلَةَ، وَمَا أَحَاطَ بِهَا مِنْ جَسْرٍ وَمِيدَانٍ، وَهِيَ تَبْكِيهِ، فَقَالَ: <sup>(٥)</sup>  
تَبْكِيكَ دَارُ الشُّطِّ فَهِيَ كَثِيْبَةٌ — وَالْجِسْرُ وَالشَّرْقِيُّ وَالْمِيدَانُ

<sup>(١)</sup> اليراع: القلم، القرصاب: السيف.

<sup>(٢)</sup> الحلبي، الديوان، ص ٢٩٦.

<sup>(٣)</sup> ابن نباتة، الديوان، ص ٥٧٢.

<sup>(٤)</sup> الصفدي، الرافي، ٤٣٣/١٠، أعيان العصر ١٣٦/٢، ابن حبيب، تذكرة النبي، ٣٢٢/٢.

<sup>(٥)</sup> ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٦٦، الأشرف الغساني، المسجد المسوك، ٥٩٢/٢.

وصور صفي الدين الحلّي وحدة الشام ومصر في الأحزان بعد الناصر محمد بن قلاوون، فقال: (١)

فإن أظلمت أرضُ الشامِ لحزْنِه      فلم يخلُ من ذاك الصّعيدُ ولا مِصرُ

وقبل الانتقال من هذا الجزء من البحث تجدر الإشارة إلى أن المعاني والصور التي قدّمها الشعراء في جملتها تقليدية، لا جديد فيما سوى ما كان مستمداً من واقع الأرباب المرثيين، لكنهم مع ذلك عمّقوها، وبالغوا في عرضها، خاصة في الجزء المتعلق بتصوير المصيبة، وأثرها على الكون والطبيعة.

### المناقب والصفات

ويسمى هذا الجزء التأيين، وهو أدنى إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص، وفيه تطغى صورة المرثي على الرائي، أي أن صورة المرثي تبدو شاخصة في الوقت الذي تكون فيه مشاعر الرائي مستترة قياساً بالجزء المعبر عن الناحية الوجدانية، وهو يصور "حزن الجماعة وما فقدته في هذا الفرد المهم من أفرادها، ولذلك يسجل فضائله ويلح في هذا التسجيل، وكأنه يريد أن يحفرها في ذاكرة التاريخ حفراً حتى لا تنسى على مرّ الزمن". (٢) وقد وقف النقاد العرب عند هذا الموضوع، وهو مدح الميت وتأبينه. ولعل أول من وقف عنده قدامة بن جعفر إذ رأى أنه لا فرق بين المدح والثناء إلا في اللفظ دون المعنى فقال: "ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر اللفظ ما يدل على أنه لهالك مثل "كان"، و "تولّى"، و "قضى نحبه"، وما أشبه ذلك، وهذا ليس يزيد في المعنى ولا ينقص لأن تأبين الميت إنما بمثل ما كان يمدح به في حياته، وقد يفعل في التأبين شيء ينفصل به لفظه عن لفظ المدح بغير "كان" وما جرى مجراها، وهو أن يكون الحيّ وصفاً مثلاً بالجوّد فلا يقال "كان جواداً" وما أشبه هذه الأشياء"، (٣) وشايعة في هذا الرأي ابن رشيق القيرواني، (٤) ولكن قدامة كان مغالياً حيث قصر الفرق بين المدح والثناء على ذلك

(١) الحلّي، الديوان، ص ٣١٩.

(٢) د. أحمد فوزي الملب، الحركة الشعرية، ص ٢٥٨، وانظر د. شوقي ضيف، الرثاء، ص ٦.

(٣) قدامة بن جعفر، نقد شعر، ص ٤٩.

(٤) ابن رشيق، العمدة، ١٤٧/٢.

الجانب، فقصيدة الرثاء لا تتضمن التأبين فقط، وإنما تشمل نواحي متعددة، ومنها النذب، والعزاء، والحكمة، والحديث عن القبر والموت والمصير وغير ذلك، كما أن قدامة لم يطبق مذهبه في المديح إلا على مرثي كبار الرجال مع أن الرثاء لا يقتصر عليهم، فهناك ألوان متعددة منه.<sup>(١)</sup>

ودأب الشعراء منذ القدم على الإشادة بمناقب الميتين من كبار القوم وغيرهم، وبالغوا في عرضها وتصويرها، فمدحوهم بالكرم والشجاعة والصبر والوفاء، والحنكة في الرأي والتسامح والتواضع والعفة والحلم وغير ذلك من الصفات، وركزوا على سمي الكرم والشجاعة لما كان لهما من قيمة في بيئة العربي حيث حياة الإيمان بالقوة.<sup>(٢)</sup> وبعد مجيء الإسلام استمر الشعراء يثنون على تلك الصفات، وبرزت إلى جانبها صفات جديدة ومآثر لم تكن موجودة في شعر الجاهليين، وهي من نتائج الدين الجديد، ومنها الإشادة بتقوى الميت واستقامته على الدين، ونيته الخالصة لله في جميع حركاته وسكناته، وجهاده في سبيله.

واختلفت سمات وعادات كان الجاهليون يقدسونها ويتباهون بها، ويثنون عليها، ومنها عادة شرب الخمر والميسر، تلك العادات التي حاربها الإسلام، وحرّمها على اتباعه، ولذا تضاعل شأنها وصار المديح بها عيباً يلحق بالمدوح.<sup>(٣)</sup>

وركّز الشعراء عبر عصور الأدب العربي المختلفة على الفضائل النفسية للمرثيين، وكادت الصفات الجسدية تختفي من مرثيهم "إلا أوصافاً عامة، وحتى هذه فقد خلت وندرت، فلم توجد إلا عند القليل من الشعراء، وهي في مجملها صفات تتعلق بجمال المتوفي وهيئته، وحسن وجهه وتشبيهه بالبدر مرة، وبالشمس تارة أخرى".<sup>(٤)</sup>

وإلى جانب الصفات والفضائل التقليدية التي تداولها الشعراء، ظهرت سمات جديدة اختص بها المرثيون من أرباب الدول دون غيرهم، وظهرت تلك بجلاء عقب ظهور الإسلام، وانتقال المسلمين من حياة البادية والتنقل من مكان إلى آخر إلى حياة المدن حيث الاستقرار والحضارة والمدنية، وقامت دولتهم الإسلامية، فكان لزاماً على كبار رجالها أن

(١) انظر د. أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، ص ٢٢٩.

(٢) انظر، د. مصطفى الشورى، شعر الرثاء في العصر الجاهلي، ص ١٦٤.

(٣) انظر روضة محمد، اتجاهات الرثاء في القرن الثالث الهجري، ص ٢٧.

(٤) د. محيّر صالح، رثاء الأبناء في الشعر العربي، ص ٤٢.



يجاهدوا أعداء الإسلام على الصعيد الخارجي وأن يحموا المسلمين، ويهتموا بتوطيد أركان دولتهم، والعمل على ازدهارها ونمائها، ولذا خاضوا الحروب الكثيرة ضد قریش والمرتدين، والفرس، والروم، والصليبيين، وأحرزوا انتصارات عظيمة ارتبطت بأسمائهم، وعملوا في الوقت ذاته على الاهتمام بالدولة الإسلامية على الصعيد الداخلي فبنوا المراكز الدينية والعلمية والاجتماعية، وحين ماتوا خلفهم الشعراء بتلك المآثر والصفات، وأثنوا على مجهوداتهم الخاصة، وأعطوا كل واحد منهم حقه.

أما مرثي أرباب الدول في العصر المملوكي الأول، فقد أكثر فيها الشعراء من الإشادة بفضائل مرثيهم، وأطنبوا في ذلك غاية الإطناب، وبرز في عرضها تياران: تيار تقليدي، وتيار مستمد من الواقع.

أما التيار التقليدي، فقد سار فيه الشعراء على نهج سابقهم، فاستحوذت الفضائل النفسية على معظم أشعارهم، فأشادوا بشجاعة مرثيهم، وكرمهم، وعدلهم، ووفائهم، وتواضعهم، وتسامحهم، وحنكتهم، ومظاهر سيادتهم المختلفة، وهي صفات تترجم لحياة أولئك الراحلين إلا أن الفرق بين ما يقدمه الشعراء والترجمة الحقيقية هو أن الشعراء، يقدمون المعلومة، ويصفون تلك المآثر بصورة مبالغ فيها، فتظهر الميت رجلاً مثالياً متفرداً في كل شيء، وتجعله في المقام الأول في مجتمعه وأمته، وجاروا القدماء كذلك في التركيز على صفتي الشجاعة والكرم في الربط بينهما، وما ذلك إلا لأنهما كما يقول قدامة موجودتان بكثرة، في بعداء الهمم وأهل الإقدام والصولة<sup>(١)</sup> هذا فضلاً عن أن هاتين السمتين احتاجتهما الجماعة في العصر المملوكي الأول، وكانتا من أكثر السمات التي أحبوا وتعلقوا بها، ومرد ذلك إلى حياة الخوف والفقر التي عاشوها آنذاك، فقد كانوا بحاجة مستمرة إلى من يراعاهم، ويجود عليهم، ويذب عنهم أعداءهم المغول والصليبيين، والشعراء جزء من الشعب تؤرقهم الهموم التي تؤرقه، ولذا شددوا على بكاء تلك الصفات، وعدوا موت ملوكهم إنذاراً لحياة الشدة والفاقة، وبالخطر الداهم الذي سيعصف بهم وبديارهم، ولعل ذلك هو الذي دعاهم إلى ربط مصيرهم ومصير أمتهم بموت ملوكهم، وهذا ما عبر عنه صفي الدين الحلّي في رثاء الملك ناصر الدين عمر: <sup>(٢)</sup>

لَم يَعْلَمِ الْعَالَمُونَ مَا فَقَدُوا مِنْهُ وَلَا الْأَقْرَبُونَ مَا عَدِمُوا

(١) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص ٤٠.

(٢) الحلّي، الديوان، ص ٢٩٣.

مَا فَقَدُ فَرَدٍ فِي الْأَنْامِ كَمَنْ إِذْ مَاتَ مَاتَتْ لِقَائِهِ أُمَّمٌ

وهو الذي دفعهم إلى جعل ملوكهم ظل الله في الأرض ، يبيدهم رزق العباد، ويوضح ذلك قول مجد الدين بن الظهير الإبلي في رثاء الظاهر بيبرس: (١)

وَطَوَيْتَ ظِلَّ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ الَّذِي لَوْلَا سِطَاؤُهُ وَجَيْشُهُ لَمْ تَرَجُفِ

وقول صفي الدين الحلي في رثاء الملك الناصر محمد بن قلاوون: (٢)

مَفَاتِحُ أَرْزَاقِ الْعِبَادِ بِكَفِّهِ فِيمَنْ يَبْهًا يُمْنٌ وَيُسْرَى بِهَا يُسْرٌ

أما سمة الكرم، فقد تنوعت طرق التعبير عنها وتعددت معانيها، وبرزت بصورة جلية على مستوى المراثية الواحدة، وكثيراً ما ربطها الشعراء بغيرها من الصفات والفضائل. فالشاعر تقي الدين بن شبيب الحراني يصور الكرم سمة أصيلة في نفس مرثيه بيبرس، ويصوره غيثاً يعم الخلق بعطاياه، ولا يريد من وراء ذلك جزاء ولا شكوراً، فيقول: (٣)

عَمَّ الْخَلَائِقَ بِالْحُسْنَى فَكُلُّهُمْ يَثْنِي وَلَوْ جَحَنُوا جَنَوا مَا حَرَمُوا  
كَالغَيْثِ يَسْقِي الْبَرَايَا لَا لِمَحْمَدَةٍ يَرْجُو لِيَدِيهِمْ وَلَكِنْ طَبْعُهُ الْكَرَمُ

ويجعله شرف الدين سليمان الإبلي صاحب يد مبسوطة، ويكشف عن أثر موته على الفقراء والمحرومين الذين كان يحييهم جوده ورفده، فيقول: (٤)

قَدْ كَانَ جُودُكَ لِلْأَنْامِ جَمِيعِهِمْ كَالْمَاءِ يَعْذِبُ فِي فَمِ الْعَطْشَانِ  
فَرَدَاكَ قَدْ سَلَبَ الْقُلُوبَ سِرَارَهَا وَرَمَى بِنِي الْأَمَالِ بِالْحَرَمَانِ  
بِنِوَالِهِ إِحْيَاءَ كُلِّ مَوْمَلٍ فَكَأَنَّهُ الْأَرْوَاحُ فِي الْأَبْدَانِ

(١) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٦٣.

(٢) الحلي، الديوان، ص ٣٢١.

(٣) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٥٧-٢٥٨.

فتكاته بالسيف في أمواله      مبسوط كف ليس يعرف قبضها  
الإعلى سيف وفضل عنان

وصور الشعراء مرثيهم بحراً يعتم بخيره الناس جميعهم، ويتجلى ذلك في الصورة التي قدمها صفي الدين الحلبي للملك الناصر محمد بن قلاوون، ويظهر فيها تأثيره بمدائح المتنبّي في سيف الدولة، يقول: (١)

كريم أفاد الدهر منه خلائقاً      فأيامه منه مُحجّلة غرّ  
وما كان يدري من تيمّم جوده      ونكب لبحر البحر أيهما البحر  
فتى طبق الأرض البسيطة جوده      ففي كل قطر من نداء بها قطر

ويرسم الشاعر ابن الكبوش البصري صورة جميلة لمكارم الملك عز الدين النيسابوري، فيجعله متفرداً في هذه السمة فاق فيها البرية جميعها، والسابقين الذين طبقت شهرتهم الأرض لجودهم وسخائهم، وأجمل ما في الصورة أنه جعل عظامه البالية تهتز وتهل مرجحة بالسائلين، يقول: (٢)

وأيّن جود الغمام منك ولو      لو كان يحيي الندى الكرام لقد  
أنت أمام الندى قد اتفقت      جزت المدى في الندى فلا عرب  
ما نال كغيب ما نلت منه ولا      من بعد عبد العزيز لا وخذت  
الموقد النار في التجي كرمأ      لو سألنا عبد العزيز وما  
لقام يهتز كالقناة فتى

جادت علينا بالعسجد الديم  
أخياك من بعد موتك الكرم  
عليك بعد اختلافها الأمم  
يلقاك في شأوه ولا عجم  
معن ولا حاتم ولا هرم  
إلى رسوم المكارم الرسم  
بالمندل الرطب والشتا شيم  
في القبر إلا عظامه الرمم  
أغر ألقى في أنفه شمم

(١) الحلبي، الديوان، ص ٣٢٠-٣٢١.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٧٨-٣٧٩، الكشي، عيون التواريخ، ٦٧-٦٦/٢١.

ويصور الشاعر شهاب الدين العزازي مرثية الملك المنصور الثاني صاحب حماة يهتز طرباً عند السؤال، ويتفنن في العطاء، ويتقن أساليبه، فيقول في رثائه: (١)

ألا متعاً سمعي بطيب حديثه      فقد كان مقبول الأحاديث مُتَعَاً  
له نشوة عند السؤال كأنما      سقاؤه السؤال الباطلي المشعشعا  
وما كان إلا شاعر الجود والندى      روى الذهر عن نعي يديه فأسمعا  
أجاد معاني المكرمات ولفظها      وأغرب في صنغ الجميل وأبدعا  
وأسنى أساليب العطايا وطالما      تفنن في إسداها وتووعا

ومن الطبيعي أن يكون موت ذلك الملك وبالاً على قاصديه ولذا طلب منهم الشاعر ذاته أن يسكبوا دموعهم عليه، فقد أضحوا تائهين بعده، قال: (٢)

ليبك ملوك الخافقين مصابة      فقد كان أرواهم غماماً وأمرعا  
ويذُر عليه الواقدون دموعهم      إذا استبطأوا ذاك الذي المتسرعا  
أيا موت أتمت العفاة بفقده      وغانرت عرنين المكارم أجدعا

ويجعل الشاعر صفى الدين الحلبي الملك ناصر الدين الأرتقي مثلاً يحتذى في البذل والإنفاق فهو يعطي دون حساب، ويوزع ماله وهو منفرج الأسارير، قد حكم قاصديه بأمواله، وأعطاهم ما شاعوا حتى سئموا ذلك، وحين مات كان موته صدمة قوية لهم، يقول: (٣)

مُحَكِّمٌ فِي الْوَرَى وَأَمْلُهُ      يَحْكُمُ فِي مَالِهِ وَيَحْكُمُ  
يَجْتَمِعُ الْمَجْدُ وَالثَّاءُ لَهُ      وَمَالُهُ فِي الْوَفُودِ يَنْتَسِمُ  
قَدْ سَنِمَتْ جُودَهُ الْأَنْامُ وَلَا      يَلْقَاهُ مِنْ بَدْلِهِ سَأْمُ  
الْوَاهِبِ الْأَلْفِ وَهُوَ مُبْتَسِمٌ      وَالْقَاتِلِ الْأَلْفِ وَهُوَ مَقْتَحِمٌ  
مضى الذي كان للأنام أباً      فاليوم كل الأنام قد يتموا

(١) العزازي، الديوان، ص ٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ٢٣-٢٤.

(٣) الحلبي، الديوان، ص ٢٩٣.

ويطول المقام لو استقصيت كل الشواهد الدالة على سخاء أولئك المرثيين وجودهم، فهي كثيرة ومتشابهة في معانيها فلا تكاد تخرج عما قدمته الشواهد السابقة.<sup>(١)</sup> أما الشجاعة، فهي من مظاهر السيادة والقوة، ولذا أكثر الشعراء من الإشادة بها، وكثيراً ما ربطوها بغيرها من الصفات والفضائل مثل الحنكة والجود والتسامح وغيرها. وهذا ما عبر عنه محيي الدين بن عبد الظاهر إذ رثى بيبرس، وعزّ عليه أن يرى تلك الصفات يطويها التراب، فقال:<sup>(٢)</sup>

بيبرسُ ركنُ الدّين والسّمخُ الذي	من جوده جودُ السّحائبِ يَخْجَلُ
لهفي على آرائه تلك التي	مثل السّهامِ إلى المصالحِ ترسلُ
لهفي على تلك العزائم كيف قد	غفلتْ وكانت قبلَ ذا لا تغفلُ
لهفي على شَمِ الخُصُونِ وكونها	من بَعْدِهِ قدْ أصنبتْ تتَمَلَلُ

ويصوره شرف الدين الإربلي أشجع الفرسان يوم الوغى، فهو صاحب العزمات القويّة التي لا تفتك إلاّ بعظماء الملوك، وأسلحته تفتك بالمدرعين والكمأة، ويقارن بينه وبين غيره من الملوك، فإذا كان هؤلاء يشيدون الحصون ويعلون البنيان لتحميهم، فإنّ حصن بيبرس فرسه القويّ السريع، ثم يلقي الضوء على جنود ذلك البطل، فيصورهم شجعاناً لا يرهبون الحرب، ويستعذبون طعم الردى، فيقول:<sup>(٣)</sup>

يا صايداً صيدَ الملوكِ بسيفه	يوم الوغى يا فارسَ الفُرسانِ
من عزمه في كلّ خطبٍ فادح	أمضى وأزّهفُ من شِباةِ سِنانِ
في مازقٍ أجرت صوارمه الدّما	من نخرِ كلِّ مُدرَعِ مطعّانِ
كم كلّمت فيه صدورُ كَماتِهِ	خُرسَ الرّماحِ بألسنِ الخِرْصانِ
وسَطّتْ ثعالبها على أساده	يوم الوغى لما التقى الجَمعانِ

<sup>(١)</sup> لمزيد من الأمثلة انظر ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٤٩، العزازي، الديوان، ص ٧٥-٧٦، الخلي، الديوان، ص ٢٩٠، ٢٩٤-

٢٩٥، ابن نباتة، الديوان، ص ٣٢٢.

<sup>(٢)</sup> ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٤٥، بيبرس المنصوري، زينة النكرة، ١٦١-١٦٢، اللواداري، كثر الدرر، ٢١٥/٨، شافع بن علي، حسن المناقب السرية، ص ١٦٥، ابن لياس، بدائع الزهور، ج ١ ق ١/٣٣٩.

<sup>(٣)</sup> ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ٢٤٩.

فاستعذبوا طعمَ الردى لَمَّا رأوا ما رَأَعَهُمْ ومَرارةَ المُرَّانِ

ويربط الشاعر شهاب الدين محمود الحلبي بين الشجاعة والكرم والتسامح حين رثى الملك المنصور قلاوون، فصوّره يدفع بنفسه إلى ساحة الوغى، ويقتصد من أعدائه، ويدفع بماله إلى ساحة الندى، فيغيث المهوفين، ويغني السائلين، ويسامح المجرمين، يقول: (١)

ولكم أبادَ عدىً ولكم أبدى يداً      وندىً وجددَ رَسَمَ مَكْرُمةٍ عفا  
وأقالَ مُعْتَذِراً وأغنى راجياً      وأعانَ مُلتَجئاً وسامحَ مُسْرِفاً

أما جمال الدين بن نباتة، فقد أشاد بشجاعة الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل حين أشار إلى الانتصارات العظيمة التي أحرزها ذلك الملك، وأشفق على حال الحروب وأعلامها بعده، فقال: (٢)

تروى صحاحَ القضايا عن براعته      والنصرُ في الحرب يروي عن عواليه  
من للعلوم وللأعلام ينشرها      وللوغى ورداء الخوف يطويه

وصور الشاعر صفي الدين الحلبي مرثيه الأمير ركن الدين بن إسحاق جريئاً يقدم على القتال بقوة ورباطة جأش، ويسارع في تلبية نداء الحرب، وهو غير مبال بها، فقال معبراً عن ذلك: (٣)

بذلتَ النفسَ في طلبِ المعالي      كَبَدْتُكَ لِلنَّهْيِ يَوْمَ النَّوَالِ  
تسابقَ للوغى قبلَ التتادي      كَسَبْتُكَ بِالْعَطَا قَبْلَ السُّوَالِ  
شَدَدتَ القلبَ في خوضِ المنايا      ووَبَلُ النَّبْلِ مِنْحَلَّ العِزَالِي (١)  
لبستَ على ثيابِ الوشي قلباً      غَنَيْتَ بِهِ عَنِ الدَّرْعِ الْمُذَالِ

(١) ابن حبيب، درة الأسلاك، ١٥١/١.

(٢) ابن نباتة، الديوان، ص ٥٧٣.

(٣) الحلبي، الديوان، ص ٢٩٦.

(٤) جمع عزلاء، وعاء من جلد يتخذ للماء ونحوه، المعجم الوسيط، مادة "عزل".

تهزّزَ لملتقى الأعداء عطفاً يهزّزَ رطيبه مَرَحَ الدّلال

وأكد الشعراء سيادة مرثيهم من أرباب الدول حين بينوا اتساع رقعة أراضيهم، وكشفوا عن هيبتهم في نفوس أعدائهم، وصوروا ملوك الأرض وشجعانها يعترفون لهم بالسبق، ويقرون لهم بالطاعة والولاء، وهذا ما يوضحه قول تقيّ الدين بن شبيب الحراني في رثاء الظاهر بيبرس: (١)

وَكَمْ تَمَلَّكَ إِقْلِيمًا وَدَانَ لَهْ      وَإِنْ نَأَوْا لَسُطَاهِ الْعُرْبُ وَالْعَجْمُ  
وَإِذَا تَذَكَّرَهُ مُسْتَقِظًا بَطَلًا      أَغْفَى لِنَيْسَى وَكَمْ قَدَّرَا عَهُ الْحُلْمُ

ومن ذلك قول أبي الحسين الجزار في رثائه: (٢)

كَفَى الظاهر السلطان بيبرس أنه      أَجَلُ ملوكِ الأرضِ مَجْدًا وَسُودًا  
وَأَنْ سَلَاطِينَ البِلَادِ بِأَسْرَهَا      تُقَرُّ لَهُ بِالْفَضْلِ فِي النَّاسِ وَالنَّدى

ورسم الشاعر صفي الدين الحلّي صورة جميلة يعبر فيها عن هيبة الملك الناصر

محمد بن قلاوون، وعن صيته، الذائع الذي طبق الأرض فيقول: (٣)

يَرُوعُ جِيوشَ الحَادِثَاتِ يِرَاعُهُ      وَيَغْنِي الأَعَادِي قَبْلَ أَسْيَافِهِ الذِّكْرُ  
إِلَى بَابِهِ تَسْعَى السُّلُوكُ فَإِنْ عَدَّتْ      تَعْدَى إِلَيْهَا القَتْلُ وَالنَّهْبُ وَالْأَسْرُ  
لَقَدْ شَهَدَتْ أَهْلُ المَمَالِكِ أَنَّهُ      مَلِيكَ لَهُ مِنْ فَوْقِ قَدْرِهِمْ قَدْرُ  
كَأَنَّ أَدِيمَ الأَرْضِ قَدَّ مِنْ اسْمِهِ      فَمَا وَجِدَتْ إِلَّا وَفِيهَا لَهُ ذِكْرُ

ويؤكد شافع بن علي الكاتب عظمة المنصور قلاوون وسيادته ومنعة دولته، حين صورها من أحسن الدول، ووقفت الأقدار لخدمتها، حتى غدت مضرباً للأمثال بين الناس، وهذا ما يوضحه قوله في رثائه: (٤)

(١) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٢.

(٣) الحلّي، الديوان، ص ٣٢٠.

(٤) شافع بن علي، حسن الناقب السرية، ص ١٤١، الفضل المأثور، ص ١٧٦-١٧٧.

سُقِيَا لِذَوْلَيْهِ مَا كَانَ أَحْسَنَهَا      كَأَنَّهَا غُرَّةٌ فِي جَبْهَةِ الدُّوَلِ  
كَانَتْ وَلَا مِثْلَ وَالْأَقْدَارُ تَخْدُمَهَا      حَتَّى سَرَى ذِكْرُهَا فِي النَّاسِ كَالْمِثْلِ

وقريب من ذلك ما جاء في قول شهاب الدين محمود الحلبي في رثاء الملك الأشرف خليل  
ابن قلاوون: (١)

مَلِكٌ تَلَفَّتْ الْعُصُورُ وَقَدْ مَضَتْ      أَسْفَاً عَلَى أَيَّامِهِ وَتَلَاهُهَا  
وَتَطَّلَعَ الْآتِي فَكَأَدَ لِيُوجِدَهُ      يَطْوِي الظَّلَامَ تَشْوِيقاً وَتَشْوِيقاً

وأضفى الشعراء على مرثيهم سمة العدل بين الرعية، وهي أيضاً من مظاهر  
السيادة والسلطة، وقد عبّر عنها محيي الدين بن عبد الظاهر حين رثى الملك المنصور  
قلاوون فقال: (٢)

أَيُّ مَنْ كَانَ عَدْلُهُ يَكْشِفُ الظَّلْمَ      مِمَّ وَمَنْهُ دَاجِي الظَّلَامِ يُنِيرُ

ويصور الشاعر صفى الدين الحلبي مرثيه الملك المنصور نجم الدين غازي عادلاً  
لا يقع ظلمه إلا على أمواله التي يبددها بالعطاء فيقول: (٣)

مَلِيكَ أَفَاضَ الْعَدْلَ فِي كُلِّ مَعْشَرٍ      فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا لِأَمْوَالِهِ ظُلْمٌ

وتبرز تلك السمة بصورة جلية في القصيدة التي نظمها صلاح الدين الصقدي في  
رثاء الأمير سيف الدين تنكر نائب الشام، إذ أشاد فيها بحسن تدبير ذلك الأمير وعدله  
الذي ساوى فيه بين الناس كلهم، وجعلهم ينامون مطمئنين، فكسب لذلك التأييد  
الإلهي، وهذا ما يعبر عنه  
قوله: (٤)

رَعَاهُ اللَّهُ مِنْ رَاعٍ أَمِينٍ      أَنْامَ بِعَدْلِهِ عَيْنَ الْأَنْامِ

(١) ابن حبيب، درة الأسلاك، ١/١٨٢.

(٢) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص ١٨٢.

(٣) الحلبي، الديوان، ص ٢٨٧.

(٤) الصقدي، الوافي، ١٠/٤٣٤، أعيان العصر، ٢/١٣٧.



حَسُو زَادَ فِي إِفْرَاطِ بَرٍّ      يُسْكَنُ بَرْدُهُ لَهَبَ الضَّرَامِ  
 وَدَسَتْ حُكْمِهِ فِي دَارِ عَدَلٍ      تَأْيِذًا بِالْمَلَانِكَةِ الْكِرَامِ  
 يُسَاوِي عِنْدَهُ فِي الْعَدَلِ بَيْنَ الْـ      كِرَامِ الْغُرِّ وَالسَّوْدِ اللَّثَامِ

وسجل الشعراء جوانب أخرى من شخصية أرباب الدول، فأسبغوا عليهم سمات الحلم والتواضع والتقوى، وهي فضائل ينبغي أن تكون في شخصية الحاكم العادل والشجاع الكريم حتى تكتمل صورة المثل الأعلى التي رسمها الشعراء له، وتجتمع فيه كل القيم النبيلة التي يندر اجتماعها في غيره من البشر.

أما صفة الحلم، فقد جعلها الشاعر شهاب الدين العزازي من فضائل مرثيه الملك المنصور الثاني صاحب حماة، فقال: (١)

هُوَ يَجِبُّ الْحِلْمَ الَّذِي كَانَ شَاهِقًا      وَشَعْبُ الْعُلَا وَالْمَكْرَمَاتِ تَصَدَّعَا

وهي فضيلة اتصف بها الملك الأفضل محمد بن إسماعيل وهذا ما كشف عنه جمال الدين ابن نباتة في قوله: (٢)

وَزَاوَجَ بَيْنَ الْحِلْمِ وَالْبَأْسِ مَلَكُهُ      فَمِنْ أَعَزَلِ مِثْلِ السَّمَكَ وَرَامِحِ

وأكد الشعراء خلوص مرثيهم من الكبر، وأثنوا على تواضعهم على الرغم من مجدهم ومنزلتهم الرفيعة، وقد جاءت تلك الصفة مقترنة بغيرها من الصفات، ومن الأمثلة على ذلك قول صفي الدين الحلبي في رثاء الملك المنصور نجم الدين غازي: (٣)

لَمْ تُرَنَّحْ أَعْطَافُهُ نَشْوَةَ الْمَلِكِ      لِكِ وَلَا يَزِدْهُ بِهِ فَرْطٌ اعْتِجَابِ

ومثله قوله في رثاء الملك الناصر محمد بن قلاوون: (٤)

فَتَى لَمْ تُرَنَّحْ نَشْوَةَ الْكِبْرِ عَطْفُهُ      وَمِنْ بَعْضِ مَا قَدْ نَالَهُ يَحْدُثُ الْكِبْرُ

(١) العزازي، الديوان، ص ٢٣.

(٢) ابن نباتة، الديوان، ص ٩٩.

(٣) الحلبي، الديوان، ص ٢٩٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٢١.

ومثله قول السيف الشطرنجي يرثي الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب: (١)  
 ما رأى الناسُ مثلهُ في زمانٍ نحن فيه فكيف لي بالبقاء؟  
 كانَ واللهِ للمقلِّينَ كَنزاً وجواداً يُغني عن الأَغنياءِ  
 ورؤوفاً بكلِّ قاصِّ ودانٍ في دنوِّ خالٍ من الكيرِياءِ

ووصف الشعراء مرثيهم عفيف النفس طاهر الأثواب، وهذه السمة -العفة- عزَّ وجودها في مرثي أرباب الدول، ومنها قول صفى الدين الحلبي في رثاء الملك الأفضل: (٢)

عَفَّ الإِزارِ فلا يُبْلِثُ بزَلَّةٍ فيقالُ: إن هبَّاتِه تكفِّرُ

وأشاد الشعراء بتقوى أرباب الدول، وانقيادهم لشرع الله، واستقامتهم على أمره وبرزت تلك السمات بصورة جلية في مرثي الظاهر بيبرس وقد أكد المؤرخون تحلي ذلك الملك بها، فقال ابن شداد: "كان رحمة الله ملازماً للصلوات الخمس في أوقاتها سافراً وحضراً... كلَّف سائر مماليكه وحاشيته القيام بها، والمحافظة عليها، ورتب لكل طائفة من مماليكه معلماً يعلمهم القرآن، وإماماً يصلِّي بهم. وجعل عليهم عيوناً حتى لا يخوضوا في حديث غير ما ندبوا إليه... ومنها أنه لم يشرب خمرأ قط مدة حياته". (٣)

وقد صور الشعراء ذلك، وتحدثوا عن مظاهر تقواه، ومنهم الشاعر علاء الدين علي المعروف بابن قاضي اللادقية الذي جعله كهفاً للشريعة الإسلامية في قوله: (٤)  
 كهفُ الشريعة بيبرسٌ أخو كرمٍ وخايضُ النقعِ والهَجَجَا يُواسِينا

ومن مظاهر تقوى بيبرس التي صورها الشعراء زهده في الحياة الدنيا وزخرفها وملذاتها، وسعيه نحو الآخرة، ونيته الخالصة لله في حركاته وسكناته، ومنها مواظبته على

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٥٠/٢.

(٢) الحلبي، الديوان، ص ٣٢٣.

(٣) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٩٩، وانظر ص ٣٠٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٥٤.

أداء الفرائض، وسيرته الحُسنى التي تشبه بها بالعميرين رضي الله عنهما، ولهذا استوحش الإسلام بعد موته، وافقدته مكة والحرمين، وهذا ما عبر عنه قول مجد الدين ابن الظهير الإربلي: (١)

زينت صحيفته بأية سفيه  
لم تلته الدنيا ولا أصبته به  
وأبت له الهمم العلية أنه  
فبغير أكار العلى لم يحتلم  
لم يخل في خلواته من نية  
لما استشار به لأهل المصنف  
جتها ولا ملكت هواه بزخرف  
يرضى وحاشاه بعيش المترف  
وبغير ذخرف صالح لم يكلف  
لله منمورة لفعول مزلف

وقول شرف الدين بن سليمان الإربلي: (٢)

واستوحش الإسلام منك لسيرة  
وابترزت الدنيا بفقدك حسنها  
وتقول مكة أين من يدعى له  
أين الذي كانت إلي صلواته  
ما سار إلا مثلها العمران  
وضياءها واستوحش الحرمان  
بعد الصلاة وعند كل أذان  
موصولة تنرى مع الركبان

أما الفضائل والصفات الجسدية، فقد ندر وجودها في مرثي أرباب الدول في هذا العصر، واقتصر الشعراء على وصف نضارة مرثيهم، وجمال وجوههم التي ضاهت البدر ليلة تمامه، وهذا ما عبر عنه صفي الدين الحلبي، إذ رثى الملك ناصر الدين الأرتقي فقال: (٣)

أبلج غرض الشباب مقتبل  
العمر ولكن مجده هريم

ومن ذلك قوله في رثاء الملك الأفضل محمد بن إسماعيل: (١)

ذو الرتبة العلياء والوجه الذي  
منه البدر تغار ثم تغور

(١) المصدر نفسه، ص ٢٦٣.

(٢) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٨.

(٣) الحلبي، الديوان، ص ٢٩٣.

(٤) الحلبي، الديوان، ص ٣٢٢.

ومثله قوله في رثاء الملك المنصور نجم الدين غازي: (١)

وَأَشْرَقَ فِي الشَّهْبَاءِ فِي الدَّسْتِ مِنْهُمْ وَقَدْ غَابَ عَنْهَا نَجْمُهَا بَدْرُهَا التَّمُّ

ويوضح ذلك قول شهاب الدين محمود الحلبي في رثاء الملك الأشرف خليل بن

قلاوون: (٢)

بَدْرٌ أَقَامَ الْحَقَّ فَانْصَدَعَ الدُّجَى نوراَ وَتَمَّ ضِيَاؤُهُ لَمَّا اخْتَقَى

تلك هي الصفات والفضائل النفسية والجسمية التي قدّمها الشعراء في هذا اللون من الرثاء، وقد تبين من البحث أنها تقليدية، نهجوا في عرضها نهج سابقهم من الشعراء، وإن حاول بعضهم عرضها بأسلوبه الخاص، إلا أنه ظلّ حبيس دائرة التقليد والمعاني والصّور المتداولة.

أما عن التيار المستمد من الواقع، فيشمل المآثر والأعمال المستمدة من حياة أرباب الدول المرثيين، تلك الأعمال التي اختصوا بها دون غيرهم من الناس، فارتبطت بأسمائهم، وهذا التيار قسمان: قسم صورّ فيه الشعراء بطولات مرثيهم وجهادهم ضد أعداء الإسلام، وآخر تحدثوا فيه عن مآثرهم العمرانية.

أما القسم الأول، فهو الأكثر شيوعاً وتصويراً في مرثي الشعراء، فمن المعلوم أن الأمة الإسلامية في العصر المملوكي تعرضت لأقسى غزوين في تاريخها الطويل، وهما الغزو الصليبي، والغزو المغولي، وقد هيا الله لهذه الأمة سلاطين المماليك وهم طبقة عسكرية، مهتمون بالجيش، والإعداد العسكري، ولذا هب هؤلاء ليذودوا عن المسلمين، ويدافعوا عن مقر ملكهم، فحاضوا الحروب الكثيرة على الجبهتين الصليبية والمغولية، فاستطاعوا أن يوقفوا زحفهم، ويجبروهم على التراجع، ويطردوهم من بلاد المسلمين، بل هاجموهم في عقر دارهم، فحولوا تاريخ المسلمين آنذاك إلى تاريخ انتصارات.

(١) الحلبي، الديوان، ص ٢٨٧.

(٢) ابن حبيب، درة الأسلاك، ١/١٨٢، ولمزيد من الأمثلة، انظر: الحلبي، الديوان، ص ٢٨٩، ص ٣٢١، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي،

وقد حظيت تلك الوقائع بإعجاب الشعراء، فراحوا يشيدون بها في قصائد خاصة هناؤها قوادها، ومن ثم تحدثوا عنها في مرائهم كونها من المآثر الخاصة بهم، ومن أعظم ما أسدوه للإسلام والمسلمين، وتميزت لغة هذا الجزء بالجزالة والقوة والمتانة، فكانت أقرب إلى لغة الحماسة، وأبعد ما تكون عن الرثاء ذلك أنها صورت الحرب، وما تخللها من كر وفر، وقرع للسيوف، ورمي للقسي والرماح، وتفليق للهامات.

ومن الملوك الذين صور الشعراء وقائعهم الظاهر ببيرس، فقد تحدثوا عن حروبه التي خاضها ضد المغول، فذكروا أسماءها، وصوروا مجرياتها ونتائجها، ومنها ما شارك فيها قبل توليه السلطة والحكم مثل موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ حيث قاتل جندياً تحت راية الملك المظفر قطز، فأبلى بلاء حسناً "بفره وكره، وبطشه، وقهره، وأسرته".<sup>(١)</sup> ومن المعارك ما تولى قيادتها بنفسه بعد تملكه مثل معركة الفرات سنة ٦٧١ هـ، وفيها خاض بجيشه نهر الفرات، وقاتل المغول وهزمهم.<sup>(٢)</sup> ومنها معركة البلستين أو الأبلستين سنة ٦٧٥ هـ، وفيها هاجم المغول المقيمين بأرض الروم، وانتصر عليهم، واستولى على حامياتهم.<sup>(٣)</sup>

ومن الشعراء الذين رثوه، وركزوا الضوء على تلك المعارك، مجد الدين بن الظهير الإبلي، وقد راعى هذا الشاعر في عرضها الترتيب الزمني، فبدأ بوصف جهاده في عين جالوت، فقال:<sup>(٤)</sup>

سَلَّ عَنْ مَوَاقِفِهِ الْحَمِيدَةِ مُجْمَلًا  
فَبَعِينِ جَالُوتِ أَعَزَّ الدِّينِ عَنْ  
يَوْمِ أَعْرُ مُحَجَّلٍ نُصِرَ الْهُدَى  
هُوَ مَوْلِدُ الْإِسْلَامِ بَعْدَ وَقَاتِهِ  
كَمْ طَلِيَّةٍ بَرَّتِ الظُّبَى قَطًّا وَكَمْ  
إِنَّ الْمُفْصَلَ فَوْقَ وَصْفِ الْوَاصِفِ  
عَزِمَ لَكَيْدِ عَدُوِّهِ مُتَلَقِّفِ  
فِيهِ وَذَلَّ الْكُفْرُ بَعْدَ تَغَطُّرِفِ  
وَمَقُومِ الْأَعْدَاءِ بَعْدَ تَحَرُّفِ  
مَنْ رَأْسِ رَأْسِ فَوْقِ أَسْمَرِ مُشْرِفِ

<sup>(١)</sup> ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٣١٨، وانظر ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٢٦.

<sup>(٢)</sup> انظر عن المعركة: ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٥٥-٥٦، ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٤٠٦. ببيرس المنصوري، التحفة

الملوكية، ص ٧٥-٧٦، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٣/٢-٣.

<sup>(٣)</sup> انظر عن المعركة، ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ١٧١-١٧٢، ببيرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ٨٤، ابن حبيب، درة

الأسلاك، ٨٣/١، الذهبي، دول الإسلام، ٢/١٣٣.

<sup>(٤)</sup> ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٦١.

يصور الشاعر ذلك الانتصار مولدا للإسلام، وهزيمة منكرة للكفر، لـ يبرز عظم الدور الذي لعبه بيبرس في إنقاذ الدين وأهله، ويحق له ذلك، فالمغول قبل تلك المعركة كانوا القوة الغالبة بعدما أنهوا وجود الخلافة العباسية في بغداد، واستولوا على الشام، وقضوا على الحكم الأيوبي فيها، ولم يبق أمامهم سوى مصر آخر معقل للإسلام في الشرق، ولذا كانت عين جالوت هي الفاصل، أعاد الانتصار فيها الثقة إلى نفوس المسلمين، ووطد أركان دولتهم من جديد.

وانتقل الشاعر إلى الحديث عن معركة الفرات، فصور بيبرس وجنوده وقد رموا بأنفسهم فيه، فكانوا كالسيل في هجومهم على الأعداء، ثم فصل في تصوير معركة الأبلستين وعرضها من بدايتها إلى نهايتها على شكل قصة، وألقى الضوء على شجاعة بيبرس وجنوده الذين خاضوا معركة حامية الوطيس مع المغول، فتركوهم صرعى في ساحة المعركة بعد أن فتكت بهم أسلحتهم، ومزقتهم أشلاء، فقال: (1)

وسل الفرات عن السوايح كم جرت	مثل الأتي خلال تلك الأجراف
فأطارت الهامات عن أوكارها	فتكات أصيد كاسر متخطف
ودعته أرض الروم لاسـتـنـقـاذها	من قبضة المتغلب المتعسف
فأهاب بالأسد الغضاب لنصرها	وأجاب دعوتها ولم يتوقف
هابوه فاحتقلوا بجمع كما تهم	وتمسكوا بوعود ظن مخلف
في معرك حال النهار به دجى	بظلام عثير خياه المتكثف
حتى إذا أخذت ظباه منهم	ثار القنا المتقصـد المتقصـف
أخذت مصارعها الجنوب فكلهم	سكران كأس حمامه لا القرقف

وتحدث الشعراء بإجمال عن الحروب التي قادها بيبرس ضد الصليبيين، فلم يذكروا مجرياتها أو أسماءها، وإنما اكتفوا بذكر نتائجها، وأثر الانتصارات فيها على حياة المسلمين، ومن ذلك قول مجد الدين بن الظهير الإبلي في مرثيته السابقة: (2)

أخلى السواحل بعد طول تمنع      بعلاجه من كل عالج أغلف

(1) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص 261-262، ولزيد من الأمثلة انظر: المصدر نفسه، ص 246، 256، الدواداري، كثر الدرر،

216/8 - 217، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، 91/7.

(2) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص 261.

وَأَحَلَّ فِيهَا الْأَمْنَ بَعْدَ تَخَوُّفِ  
مَا بَيْنَ وَصَفِي عِفَّةٍ وَتَعَفُّفِ  
أَبْدَأَ عَلَى الْحُكَّامِ حُكْمَ الْأَسْقُفِ

وَأَزَالَ عَنْهَا الشَّرْكَ بَعْدَ حُلُولِهِ  
صَانَ الْبِلَادَ عَنِ الْمَكَارِهِ فَالْوَرَى  
لِسَوْلَاهُ دَامَ وَتَلَّكَ أَشْنَعُ خُطَّةٍ

ويتجلى ذلك في قول شرف الدين سليمان الإربلي: (١)

وَمَقْرَبُ الْأَمَلِ الْبَعِيدُ بِفَتْحِهِ وَمُبَعَّدُ الْإِنْجِيلِ وَالصَّبَّانِ

أما الرجل الثاني الذي صور الشعراء جهاده ومعاركه، فهو الملك المنصور  
قلاوون الألفي، فقد ذكروا بعض الوقائع التي شارك فيها جندياً قبل توليه الحكم مثل  
معركة الفرات سنة ٦٧١هـ، حيث قاتل تحت قيادة الظاهر بيبرس، وكان من أوائل  
المباردين إلى خوض الفرات ومهاجمة المغول، (٢) كما تحدثوا عن معاركة الكبرى التي  
قادها بنفسه، وأحرز فيها انتصارات باهرة على المغول والصليبيين، وهي معركة حمص  
سنة ٦٨٠هـ. (٣)، وفتح حصن المرقب سنة ٦٨٤هـ، (٤) وفتح طرابلس سنة ٦٨٨هـ، (٥)  
وقد وصف أحد الشعراء تلك المعارك في قصيدة له في رثاء قلاوون، فقال مخاطباً  
إياه: (٦)

فَسَقَيْتَ جَيْشَ الْمُغَلِّ كَاسَاتِ الْفَنَاءِ  
فِرْقاً وَمَا خَانُوا لَوَاشٍ مَطْعَنَاءِ  
خَبِراً يَقُولُ نَزِيلُهَا كَانَتْ هُنَا

أَنْتَ الَّذِي خَضْتَ الْفُرَاتَ مُبَادِراً  
وَبِمَرْجِ حِمصٍ أَنْتَ جَاعِلٌ جَمْعَهُمْ  
وَعَلَى طَرَابِلُسٍ نَزَلْتَ فَأَصْبَحْتَ

(١) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٨.

(٢) انظر شافع بن علي، الفضل المأثور، ص ٨٢.

(٣) وهي معركة واجه فيها المغول وانتصر عليهم انظر: الذهبي، المعجم، ٣/٣٤٢، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٧/٢٥٧.

(٤) أخذه من الصليبيين، انظر شافع بن علي، الفضل المأثور، ص ١٤١، ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص ٧٧، الدواداري، كثر الدرر،

٨/٢٦٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣/٣٤٠، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٧/٢٧٢.

(٥) أخذه من الصليبيين، انظر: شافع بن علي، الفضل المأثور، ص ١٤٩، بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ١٢٠، الدواداري، كثر الدرر،

٨/٢٨٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣/٣٤٩، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٧/٢٧٢.

(٦) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ٢٧١، التحفة الملوكية، ص ١٢٣-١٢٤.

ورثى الشاعر شهاب الدين محمود ذلك الملك، فألقى الضوء على هزيمة الأعداء في تلك الحروب، وقارن بين حالهم قبل الهزيمة وبعدها، إذ تحدث عن عددهم، وعدتّهم، وحصانة قلاعهم، وما نزل بهم من قتل وأسر وتشريد، فقال: (١)

سَلْ يَوْمَ حَمَصَ عَنِ الْأَلُوفِ وَقَدْ سَطَا  
وَانظُرْ تَجْدُ تَسْعِينَ أَلْفًا مِنْهُمْ  
وَعَدُوا وَطَاءَ لِلوَرَى فَلَكَمْ تَرَى  
وَالْمَرْقَبُ الْعَالِي الَّذِي سَامَى السَّمَاءَ  
وَأَتَى إِلَيْهِ بِعِزْمَةٍ جَاءَتْ بِهِ  
وَكَذَا طَرَابِلِسَ الَّتِي لَمْ يَزْجِهَا  
فِي شَمَلِهَا هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ تَأَلَّفَا؟  
ذَهَبُوا كَمَا حَكَمَتْ صَوَارِمُهُ جَفَا  
مَنْ حَافِرٍ قَدْ دَاسَ خَدًّا مُتْرَقَا  
فَغَدَا عَلَى نَهْرِ الْمَجْرَةِ مُشْرِفَا  
يَوْمَ الْإِبَاءِ مُسْلِمًا مُسْتَعْظِفَا  
مَلِكٍ سِوَاهُ إِذَا تَتَبَّهَ أَوْ غَفَا

ومجد الشعراء بطولة الأمراء الصغار الذين شاركوا في الحروب، وأبلوا فيها بلاءً حسناً، ففي سنة ٧٠٢هـ قتل الأمير حسام الدين الاستادار الرومي على يد المغول في معركة مرج الصفر، فنظم الشاعر الطبيب شهاب الدين أحمد بن يوسف الصفدي قصيدة في رثائه صور فيها شجاعة ذلك الأمير وجهاده في تلك المعركة، وألقى الضوء على مجرياتها، واستعدادات المغول العسكرية، فقال مخاطباً مرج الصفر: (٢)

يَا مَرْجَ صَفْرٍ أَصْفَرَتْ بِكَ أَرْبَعٌ  
وَرَدُوا بِمَائَةِ أَلْفٍ مُغْلٍ بَعْدَهَا  
لَهُ مَنْ فَادَى الْأَنْفَامَ بِنَفْسِهِ  
فِي مَخْضِرِ شَرْخِ الْأَسِنَّةِ شَاهِدًا  
فَالسَّيْفُ يَكْتُبُ وَالْمُتَّقِفُ نَاقِطًا  
حِضْنَ السَّيُوفِ بِهِ وَهَنْ ذُكُورًا  
وَجَرَتْ دَمُوعٌ نَظْمُهَا مَثُورٌ  
عَشْرُونَ أَلْفًا بِأَسُهَا مَخْذُورٌ  
لَمْ يُرْهِبَاهُ مُنْكَرٌ وَتَكْبِيرٌ  
إِنَّ الثَّنَاءَ لَغَيْرِهِ مَخْظُورٌ  
وَالسَّهْمُ يَشْكُلُ وَالطَّلَا الْمَسْطُورُ  
وَقَدْحَنَ نَارًا وَالْأَكْفُ بِحُورُ

أما القسم الثاني من التيار المستمد من الواقع وهو وصف المآثر العمرانية، فإنه لم يحظ باهتمام كبير من الرثاة، واكتفى بعضهم بوصف أعمال المنصور قلاوون في هذا

(١) ابن حبيب، درة الأسلاك، ١٥٠/١-١٥١، ولزبد من الأمثلة انظر ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام، ص ١٨٢، شافع بن علي، الفضل

للمأثور، ص ١٧٦، حسن المناقب السرية، ص ١٤١.

(٢) الصفدي، أعيان العصر، ١٧٨/٤.



المجال، فقد اشتهر ذلك الملك ببنائه للبيمارستان المنصوري، والمدرسة المنصورية التي قال فيها ابن تغري بردي: "وهذا البيمارستان وأوقافه، وما شرطه فيه لم يسبقه إلى ذلك أحد قديماً ولا حديثاً شرقاً ولا غرباً".<sup>(١)</sup> وقد عبّر أحد الرثاة عن ذلك إذ عدّها من الأمور التي تفرد بها قلاوون دون غيره من الملوك، فقال:<sup>(٢)</sup>

عمرت مدرسة ومارستان في	عام فأعجز ذلك قبلك من بنى
وكشفت بالعلماء والحكماء عن	مهج الورى كرب والضنا
فأخو السقام بدا صحيحاً سالماً	وأخو الضلال غداً فقيهاً ديتاً

<sup>(١)</sup> ابن تغري بردي، الحجوم الزاهرة، ٢٧٧/٧، وانظر وصف المدرسة والبيمارستان في: ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام، ص ٥٦-٥٧، شافع

بن علي، الفضل المأثور، ص ١٦٧-١٦٨.

<sup>(٢)</sup> بئرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ٢٧١، التحفة الملوكية، ص ١٢٤.

## الجمع بين التهنة والتعزية

جمع الشعراء في هذا اللون من الرثاء بين التهنة والتعزية، وقد أطلق النقاد على هذا الأسلوب اسم الافتتان، وهو "أن يفتن الشاعر، فيأتي بفتين متضادين من فنون الشعر في بيت واحد فأكثر مثل النسيب والحماسة، والمديح والهجاء، والهناء والعزاء"<sup>(١)</sup> وهذا الأسلوب ليس جديدا في الرثاء العربي، فقد وجد "بسبب تحول الخلافة إلى حق وراثي يتناوبه الأبناء بعد آبائهم"<sup>(٢)</sup> ويؤكد ذلك ما ذكره ابن رشيق من أن أول من جمع بينهما هو عبد الله بن همام السلولي حين توفي معاوية بن أبي سفيان، ووقف الشعراء على باب ابنه يزيد يعزونه ويهنتونه بالخلافة.<sup>(٣)</sup> وأشار ابن رشيق إلى صعوبة هذا الجمع حين دلى على ذلك بعجز الشعراء عن الإتيان به في قصائدهم التي رثوا بها معاوية.<sup>(٤)</sup>

ولكن شعراء العصر المملوكي الأول تجاوزوا هذه الصعوبة، وتضمنت جل مراثيهم الجمع بين التهنة والعزاء، وجاء ذلك غالباً في القسم الأخير منها، وتخلصوا منه إلى الإشادة بالملوك الجدد ومعاونيهم.

وقد دعت الشعراء إلى ذلك الأسلوب أسباب عدة وهي:

أولاً: فرضته عليهم طبيعة الموقف الذي وقفوه بين يدي الملوك الجدد وذويهم، فكان لزاماً عليهم أن يشيدوا بهم، ويثنوا على خصالهم الحميدة.

ثانياً: رغبتهم في نيل عطاء أولئك الملوك وأرباب دولتهم، ولذا تنافسوا في الوصول إلى أروع المعاني المعبرة عن صفات الملك الجديد مع التأكيد على مآثر الملك الراحل ومناقبه.

ثالثاً: لجأوا إليه لتعزية نفوسهم ونفوس أمتهم عن مصابها في ملوكها، فبينوا أنه إذا كان أولئك الملوك قد ولّوا، وانقضى عهدهم، فإنهم تركوا من سار على دربهم، واختط نهجهم في العدل والجود والجهاد وغير ذلك.

رابعاً: مقاومة فكرة الفناء وتأكيد فكرة الملك الحي، بمعنى أنهم قصدوا من خلال هذا الأسلوب أن يبينوا أن الملك الراحل لم يمت على وجه الحقيقة، ولكنه ظلّ حياً فيما

(١) ابن حجة، خزانة الأدب، ١/١٣٨.

(٢) روضة المحمد، اتجاهات الرثاء في القرن الثالث الهجري، ص ٨٢.

(٣) ابن رشيق، العمدة، ٢/١٥٥، وانظر روضة المحمد، اتجاهات الرثاء، ص ٨٢.

(٤) المصدر نفسه، ٢/١٥٥.

ورثه لابنه الحاكم الجديد من صفات، هذا الحاكم الذي تمثلت فيه كل مظاهر شخصية أبيه.

ويتضح هذا الأسلوب بجلاء في مرثي الظاهر بيبرس، فقد سعى الشعراء بكل ما أوتوا من مقدرة شعرية وبراعة إلى إجادته وإلى التوفيق بين موقفين نفسيين متناقضين موقف الحزن على الملك الراحل، والغبطة بالملك الجديد، ويتجلى ذلك في قول محيي الدين بن عبد الظاهر: (١)

أَنَا إِنْ بَكَيْتُ فَإِنَّ عُدْرِي وَاضِحٌ	وَلِئِنْ صَبَرْتُ فَإِنِّي أَمْتَمُّ لُ
خَلْفَ السَّعِيدِ لَنَا الشَّهِيدُ فَادْمَعْ	مُنْهَلَّةً فِي أَوْجُهُ تَتَهَلَّلُ
مَا كَانَ هَذَا رَاحِلاً وَتَنَاقُوه	بَاقٍ وَذَا بَاقٍ تَنَاقَاهُ يُوجِّلُ
لِلنَّاسِ مِنْ هَذَا رَبِيعٍ آخِرُ	وَمِنْ الشَّهِيدِ لَهُمْ رَبِيعٌ أَوْلُ
قَمْرَانِ هَذَا طَالَعٌ لِإِنَارَةِ	يَهْدِي الأَنَامَ بِهَا وَهَذَا يَأْفُلُ
أَكْرِمُ بِهِ مَنْ مَيَّتَ وَبَنَجِلِهِ	حَيًّا بَدَا فِي دَسْتِهِ يَتَمَثَّلُ

وسعى الشعراء بكل جهدهم إلى التوحيد بين الشخصيتين، والمساواة بين الراحل والباقي، والظاعن والمقيم ليؤكدوا فكرة الملك الحيّ بشخص ابنه، فابن عبد الظاهر جعلهما قمرين إذا أفل أحدهما أنار الآخر دنيا العباد، أما شرف الدين السلیماني فقد عبّر عن ذلك بقوله: (٢)

مَا غَابَ عَنَّا مِنْهُ إِلَّا شَخْصُهُ	إِذْ فِيهِ تَوَجَّدَ مِنْهُ خَيْرٌ مَعَانِ
عَيْنَانِ زَالَ النُّورُ عَنْ إِجْدَاهِمَا	فَسَرَى إِلَى الأُخْرَى كَذَا العَيْنَانِ
أَعْلَاهُ لَمَا انْحَطَّ لَكُنْ قَدْرُهُ السُّـ	سَامِي كَذَلِكَ كَفَّتَا المِيزَانَ

وممن عبّر عن تلك الفكرة تقي الدين بن شبيب الحرّاني وجاء ذلك في قوله: (٣)

(١) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٤٧، بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ١٦٢، الدواداري، كتر الدرر، ٢١٧/٨، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٩٢/٧، ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١ ق ١/٣٣٩.  
(٢) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٩.  
(٣) المصدر نفسه، ٢٥٥-٢٥٦.

وَعَبَسَتْ أَوْجُهُ الْعَلِيَا لِمَوْتِ فَتَى  
 وَأَقْلَعَتْ سُحْبُ الْجُدَى فَأَعْقَبَهَا  
 رُكْنٌ تَزَلُّزَلٌ حَتَّى كَادَ مِنْ فَرَقٍ  
 فَلَا عَجَبٌ إِذَا الْإِصْبَاحُ فَارَقَنَا  
 بَدْرَانِ ذَاكَ تَخَفَى بِالسَّرَارِ وَذَا  
 سَيِّقَانِ أَعْمَدَ ذَاكَ اللَّهُ مُصْطَفِيَا

أَخِي السَّعِيدُ بِهِ الْأَكْوَانُ تَبَسَّيْمُ  
 رُبِيعُ فَضْلٍ بِهِ وَبِحَرِّ طَيْبٍ شَبِيمُ  
 لَوْلَا الْمَلِيكُ السَّعِيدُ الَّذِينَ يَنْهَدُمُ  
 بَقِي النَّهَارُ الَّذِي لَمْ تَلْقَهُ الْعَتَمُ  
 حُسْنًا تَجَلَّتْ عَنِ الذَّنْيَا بِهِ الظَّلَمُ  
 وَسَلَّ هَذَا عَلَى الْأَعْدَاءِ يَنْتَقِمُ

ونظم الشاعر ناصر الدين بن النقيب قصيدة في رثاء بيبرس جمع فيها بين التهنية والتعزية، وهي قصيدة تدل على حذق الشاعر ومهارته، وجهده الذي بذله في صياغتها حتى استوت على سوقها، ولعل ذلك هو السبب الذي جعلها تحظى بالجائزة الأولى في المنافسة الشعرية التي ضمها عزاء بيبرس، صور الشاعر فيها الحزن العام على الملك الراحل، وهو حزن قابله سرور وغبطة بابنه السعيد، ورسم صورة جميلة حين جعل عزاء بيبرس ومأتمة عرساً وابتهاجاً بالملك الجديد، ثم انتقل للمقارنة بين الملكين ساعياً إلى تخليد الراحل، وإثبات حق الباقي وأهليته للحكم، ومنها قوله: (1)

أَبْدَا بِكَ الذَّهْرُ مَا أَبْدَاهُ وَاعْتَذَرَا  
 أَخْفَى أَبَاكَ وَأَبْدَاكَ الزَّمَانُ لَنَا  
 لَمْ يُظْمِنَا أَوْ سَقَانَا الرِّيَّ مِنْ عَطَشٍ  
 وَلَا مَحَا صُورَةَ حَتَّى أَتَى عَجَلًا  
 وَلَا قَضَى سَلْفًا حَتَّى أَتَى لَنَا خَلْفًا  
 مَلِكٌ مَضَى وَأَتَى مِنْ بَعْدِهِ مَلِكٌ  
 فَالْعَيْنُ بَاكِئَةٌ وَالسُّنُّ ضَاكِئَةٌ  
 فَحَنُّ مَا بَيْنَ حُزْنٍ فِي الْقُلُوبِ ثَوِي

وَلَمْ يَهْدَ بِنَاءَ الْمُلْكِ أَوْ عَمَّرَا  
 مَا غَيَّبَ الشَّمْسَ حَتَّى أَطْلَعَ الْقَمَرَا  
 مَا غِيضَ الْبَحْرَ حَتَّى أَنْزَلَ الْمَطْرَا  
 بِصُورَةٍ بَعْدَهَا أَبَقَتْ لَنَا صُورَا  
 وَلَا ذَوَى الدَّوْحِ حَتَّى أَخْرَجَ الثَّمْرَا  
 مِنْ نَسْلِهِ مَقْتَفٍ مِنْ إِثْرِهِ الْأَثْرَا  
 يَا مَنْ رَأَى مَاتِمًا وَالْعُرْسَ فِيهِ نَرَى  
 وَبَيْنَ فَرَطِ سُرُورٍ لِلنَّفُوسِ سَرَى

(1) ابن سداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥١.

ورثى أحد الشعراء الملك المنصور قلاوون بقصيدة عزى فيها ابنه الأشرف خليلاً  
وهناهُ بمنصبه الجديد، واستبشر به، وأشاد بما ورثه عن أبيه من سجايا وخصال حميدة،  
فقال: (١)

إن أوجع الدهر القلوب وأحزنا  
خطب عظيم جاءنا من بعده  
بمنية المنصور شاهداً الردى  
فلئن أساء الدهر فيه فإنه  
يا راحلاً أبكى العيون تركت من  
أحسنت ثم خلفت فينا محسنا  
فلقد تدارك بالمسرة والهنا  
فرح أزال صباحه ظلم العنا  
لكن شهدنا في ابنه كل المنى  
بالأشرف الملك المؤيد أحسنا  
ملاً القلوب مسرة والأعينا  
فجزيت خيراً غاب شخصك أودنا

ولجأ إلى ذلك الأسلوب جمال الدين بن نباتة في قصائده التي رثى بها ملوك  
الأيوبيين في حماة. (٢) وصفي الدين الحلبي في رثائه ملوك بني أرتق في ماردين، ومن  
ذلك ما جاء في قصيدته التي عزى بها أولاد الملك المنصور نجم الدين غازي بوفاة أبيهم  
المذكور، وخص بها الملك الجديد وهو الصالح بن المنصور، فهناهُ بالملك، وأثنى عليه،  
فقال: (٣)

وخلف أشبالاً سعوا مثل سعيه  
ملوكاً حذوا في الجود حذو أبيهم  
هو الصالح الملك الذي لبس البها  
جميع أمارات الشهيد ظواهر  
لئلا يعم الناس من بعده اليتيم  
ففي كل وصف من نداء لهم قسم  
وللناس منه فوق ثوب البها رقم  
عليه تساوى الباس والرأي والفهم

ومثله قوله في رثاء الملك الناصر محمد بن قلاوون: (٤)

ومما يسلي النفس حسن انتقاله  
وإن لنا من بعده من سليله  
عفيف إزار لا يباط به وزر  
مليكا به عن فقده يحسن الصبر

<sup>١</sup> بيريوس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ٢٧١، التحفة الملوكية، ص ١٢٣، العيني، عقد الجمان، ٢٠/٣-٢١.

<sup>٢</sup> انظر ابن نباتة، الديوان، ص ٤٢٩.

<sup>٣</sup> الحلبي، الديوان، ص ٢٨٧-٢٨٨.

<sup>٤</sup> الحلبي، الديوان، ص ٣٢١، ولمزيد من الأمثلة انظر: ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٠، ٢٥٣، ٢٦٠، شافع بن علي، الفضل المأثور، ص ١٧٧، حسن المناقب السرية، ص ١٤٢، الصفدي، أعيان العصر، ٤/١٣٤-١٣٥.

فإن قلت الأيام حدّ محمّد  
وإن أخذت بالناصر الملك زلّة

فقد جردت سيفاً به يُذرك الوترُ  
فبالملك المنصور قام لها عُذرُ

وتجدر الإشارة إلى أن الشعراء ركزوا في تعازيهم على الإشادة بالملوك الجدد وبذويهم، وبأرباب الدولة الآخرين، وقصد الشعراء من ذلك إرضاء جميع أطراف الدولة الجديدة، وكسب ودهم، ونيل عطاياهم، وأكد ذلك أن جلّ المعاني التي قدّموها تدور حول الإشادة بكرم ممدوحهم، وحبهم لبذل المال والإنفاق، والأمثلة على ذلك كثيرة، فالشاعر شهاب الدين العزازي أشاد بالملك المظفر محمود، وذلك في القصيدة التي رثى فيها والده الملك المنصور الثاني صاحب حماة، فأنتى على عدله، وتقواه، وجوده، وجماله، ومجد الأيوبيين جميعاً، فقال: (١)

فَحَنُّ بِهِ فِي دَوْلَةٍ تَقْوِيَةٌ      نَرَى نَهَجَهَا بِالْعَدْلِ وَالْيُمْنِ مَهْيَعًا  
حَمِدْنَا بِمَحْمُودِ ذَمِيمَ زَمَانِنَا      وَعَاوَدَ مَشْتَانًا بِنِعْمَاهُ مَرْبَعًا  
وَبَدْرَ ذَمَمْنَا سُنَّةَ الْبَدْرِ عِنْدَمَا      رَأَيْنَا لَهُ مِنْ سِدَّةِ الْمُلْكِ مَطْلَعًا  
وَسُلْطَانَ عَدْلٍ يَمَلُّ الْعَيْنَ هَيْبَةً      إِذَا مَا حِجَابُ الْمُلْكِ عَنْهُ تَرَفَعَا  
مُلُوكُ بَنِي أَيُّوبٍ طَوَّلُوا الْوَرَى غُلًّا      كَمَا طَلَّتُمْ فِيهِمْ سَيْوْفًا وَأَذْرُعَا  
وَدُومُوا فَإِنَّ الْمُلْكَ فِيكُمْ مُخَلَّدٌ      نَقَسْتُمْ فِي أَبْنَائِكُمْ وَتَوَزَّعَا

ورثى محيي الدين بن عبد الظاهر الملك المنصور قلاوون، فأشاد بكرم ابنه الأشرف، إذ صورّه باحثاً عن الفقراء والمحتاجين ليهبهم الأموال، ويجزل لهم العطاء، فقال معبراً عن ذلك: (٢)

مَلِكٌ أَشْرَفُ صَالِحٌ لَدُنِيَا      وَلِدَيْنِ فَالْخَيْرُ مِنْهُ كَثِيرُ  
أَكْرَمُ النَّاسِ رَاحَةً وَعَطَايَا      هُ تَتَادِي إِلَيَّ أَيْنَ الْفَقِيرُ؟  
وَاهِبُ الْأَلُوفِ مَالًا وَخَيْلًا      وَيَرَى ذَاكَ أَنَّهُ تَقْصِيرُ

(١) العزازي، الديوان، ص ٢٥.

(٢) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص ١٨٢، ولزريد من الأمثلة انظر ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥١-٢٥٢، ٢٥٥، ابن

نباتة، الديوان، ص ٤٢٩-٤٣٠، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٣٠/٤.

## الحكمة في قصيدة الرثاء

لجأ الشعراء في مراثيهم منذ عصور الأدب العربي الأولى إلى الحكمة والفلسفة، فوقفوا يتفكرون في حقيقة الحياة والموت ومصير الإنسان، وقد وقف بعض النقاد العرب ضد الفلسفة في الشعر، وهاجموا القصائد الخالصة فيها، وعدّوا ذلك ضعفاً لأن الشاعر لا ينبغي أن يكون فيلسوفاً أو حكيماً، ولأن القصيدة حينئذ يقلّ ماؤها لأنها تخاطب العقل أكثر مما تخاطب الوجدان.<sup>(١)</sup>

ولكن الحكمة- وخاصة في موقف الرثاء- لها دورٌ كبير، فهي تتلاءم مع المعاني التي تعرضها المراثي، فتدعو" إلى التفكير في الحياة والموت والزمان، وتذكر الماضين الذاهبين"<sup>(٢)</sup>، وتلوّن عاطفة الشعراء من حيث حدثها، ودرجتها، فتمنحها هدوءاً يكبح عنفها،<sup>(٣)</sup> وتكشف عن أفكارهم، وثقافتهم، وعن قدرتهم على التأثير في النفوس، فالشعر ربما كان أبلغ من كلام واعظ، وأعظم تأثيراً في نفوس المتلقين، وكثرتها في الرثاء تعني أن الشاعر يلجّ على نفسه، ويشدد في تعزيتها.<sup>(٤)</sup> وأشار الشاعر أمين الدين السليمانى إلى ذلك حين قال في رثاء الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب.<sup>(٥)</sup>

ذَكَرَى مُصِيبَاتِ الْمُلُوكِ تَعْلُلاً إِذْ كَانَ حَالُكَ فِي الْمُصِيبَةِ حَالَهَا

أكثر الشعراء في هذا اللون من الرثاء من الحكمة، والحديث عن مشكلة الحياة والموت، وتنوّعت طرقهم في التعبير، وتعدّدت منابع حكمتهم، ويمكن حصرها في اتجاهين:

الاتجاه الأول: وهو مستمد من الدين الإسلامي، ومن المعاني التي قدمها سابقوهم من الشعراء، وقد أظهروا فيه روح التشاؤم واليأس، وعبروا عن استسلامهم للقضاء

(١) انظر د. إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي، ص ٣٠٥، د. أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي، ص ٢٨٦، حسين خريوش، ابن بسام وكتابه الذخيرة، ص ٢٥٧.

(٢) ممدوح حقي، عشر قمم في الأدب العربي، ص ٣٥٠.

(٣) انظر، د. مجيم صالح، رثاء الأبناء، ص ١٢٧، د. أحمد فوزي الهيب، الحركة الشعرية، ص ٧٢.

(٤) المرجع نفسه، ص ٣٥٠.

(٥) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٤٨/٢.

والقدر، وعن حتمية الموت، وضعف البشر أمامه وقلة حيلتهم، ويتجلى ذلك في قول  
صفي الدين الحلبي في رثاء الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل: (١)

أمسى عماد الدين بعد علومه      ولطبه عما عراه قصور  
وإذا القضاء جرى بأمر نافذ      غلط الطبيب وأخطأ التدبير

وقول ناصر الدين بن النقيب في رثاء بيبرس: (٢)

حتى أتى الموت الذي لا حيلة      فيه لمن يحتال أو يتأول

وصور الشعراء الموت كأساً دائرة على جميع البشر، وشبهوا نفوس الخلق  
بالراحلة التي تسير إلى نهاية محتومة وهي الموت، ويوضح ذلك قول شهاب الدين  
الصفدي في رثاء الأمير حسام الدين الاستادار الرومي: (٣)

كأس الحمام على الأنام يدور      والعمر ماض والزمان يسير  
أنفاسنا كرواحل لنفوسنا      لمراحل فيها الأنام تصير

وقول ابن نباتة في رثاء الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل: (٤)

يا آل أيوب صبرا إن أرثكمو      من اسم أيوب صبر كان ينجيه  
هي المنايا على الأقوام دائرة      كل سيأتيه منها دور ساقيه  
هي المقادير هذا الأصل تنزعه      بعد النمو وهذا الفرع تنميه

ويصور شرف الدين بن سليمان الإربلي الموت هادماً للذات، وعادلاً في حكمه لا  
يفرق بين بني البشر، فيقول: (٥)

ولهادم للذات يهدم كل ما      يبني من الآمال فكر الباني  
عم البرية عادلاً في حكمه      فضعيفهم وقويهم سبان

(١) الحلبي، الديوان، ص ٣٢٧.

(٢) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٤٩.

(٣) الصفدي، أعيان العصر، ١٧٧/٤.

(٤) ابن نباتة، الديوان، ص ٥٧٢.

(٥) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٧.



وهاجم الشعراء الدنيا فوصفوها بالغدر وقلة الوفاء، وعدّوها دار زوال لا أمان لها،

ويتجلى ذلك في قول صلاح الدين الصفدي في رثاء الأمير تتكز نائب الشام: (١)

وَهَلْ يُرْجَى مِنَ الدُّنْيَا وَفَاءٌ      وَلَمْ تُطْبَعْ عَلَيَّ رَغْيَ الدَّمَامِ  
إِذَا ضَاقَتْ جَوَانِحُنَا بِهِمْ      تَوَسَّعَتْ بِأَنْوَاعِ السَّقَامِ

والحياة الدنيا مثل السراب عند الحلّي كما جاء في قوله: (٢)

قُلْ لِصَادِي الأَمَالِ لَا تَرِدُ العَيْنُ      شَإِنْ فَإِنَّ الحَيَاةَ لَمَعُ سَرَابِ

ودعا الشعراء إلى الزهد فيها، وبيّنوا أن السعيد من تزوّد بالتقوى، فهي الذخر الذي

ينفعه في حياته الأخرى، وهذا ما عبر عنه السيف الشطرنجي إذ قال في رثاء الملك

الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب: (٣)

فَانْتَهَزْ فُرْصَةَ التَّقَى غَيْرَ وَإِنْ      لَتَكُنْ فِي غَدٍ مِنَ الأَتَقِيَاءِ  
مَا الغِنَى السَّعِيدُ والبَائِسُ المَسْ      كَيْنُ حَالِيهِمَا إِذَا بَسَّوَاءِ  
مَنْ لَهُ اللهُ فَهُوَ عَبْدٌ مُنِيبٌ      وَمَنْ احْتَالَ فَهُوَ مِنَ الأَشْقِيَاءِ  
إِنَّمَا هَذِهِ الحَيَاةُ غَرُورٌ      وَمَتَاعُ الدُّنْيَا لَنَا كَالهَوَاءِ

ومما يدخل في هذا الاتجاه ما تنبه إليه ابن رشيق حين قال: "ومن عادة القدماء أن

يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك والأعزة والأمم السالفة، والوعول الممتنعة في قُلل

الجبال، والأسود الخادرة في الغياض، وبحمر الوحش المتصرفة بين القفار، والنسور

والعقبان والحيات لبأسها وطول أعمارها، وذلك في أشعارهم كثير موجود لا يكاد يخلو

منه شعر". (٤)

(١) الصفدي، الوافي، ٤٣٣/١٠، أعيان العصر، ١٣٥/٢.

(٢) الحلّي، الديوان، ص ٢٨٩.

(٣) البونيني، ذيل مرآة الرمان، ١٤٩/٢.

(٤) ابن رشيق، العدة، ١٥٠/٢-١٥١، وانظر ابن بسام، الذخيرة، ج ١/١٣/٣١٥.

وقد راح الشعراء يحتنون حذو سابقهم، ويتأملون في حال الجبايرة وأصحاب السطوة والجاه من البشر، فوجدوا أنهم خضعوا للموت كما خضع غيرهم من ضعفاء الناس، وهدفوا من ذلك بيان قوة الموت وعدله، وفيه ربط بين الماضي والحاضر، وأسى عميق على العظماء من بني الإنسان، فهو بكاء على العظمة من خلال تصوير عظمة الموت رجاء التأسى.<sup>(١)</sup> وركز الشعراء على أمم وملوك بعينهم، وهم الذين طار صيتهم بين الناس، وعرفوا بالقوة والبأس أمثال كسرى، وقيصر، وسابور، والهرمزان، والفراعنة، وقوم عاد وتبع وغيرهم،<sup>(٢)</sup> ويتجلى ذلك في قول ابن الكوش البصري في رثاء الملك عز الدين عبد العزيز النيسابوري:<sup>(٣)</sup>

هي الليالي التي تفرقنا      أيدي ملمااتها وتلتئم  
ما دام فيها ملك ولا ملك      ولا تدوم اليؤسى ولا النعم  
فأين كسرى وأين قيصره      وما دهى قومه وأين هم؟

وضرب الشاعر صفي الدين الحلبي الأمثال بالملوك السابقين من الفرس والروم، والأيوبيين، وصور ما فعله الموت بالأنبياء والرسل أمثال سليمان بن داود عليه السلام، فإنهم لم تشفع لهم عظمتهم ولا معجزاتهم، قال في رثاء الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل:<sup>(٤)</sup>

إن لمت صرف الدهر فيه أجابني      أبت النهى أن يعتب المقـدور  
أو قلت: أين ترى المؤيد؟ قال لي:      أين المظفر قبل والمنصور؟  
أم أين كسرى إزدشير وقيصر      والهرمزان وقبلهم سابور؟  
أين ابن داود سليمان الذي      كانت بجحفله الجبال تمور؟  
والريح تجري حيث شاء بأمره      منقادة وبه البساط يسير  
فتكت بهم أيدي المنون ولم تزل      خيل المنون على الأنام تغير  
لو كان يخلد بالفضائل ماجد      ما ضمت الرسل الكرام قبور

(١) د. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص ١١٩.

(٢) انظر ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٧.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٧٩، الكتي، عيون التواريخ، ٦٦/٢١.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٧٩، الكتي، عيون التواريخ، ٦٦/٢١.

كُلُّ يَصِيرُ إِلَى الْبَلَى فَأَجَبْتُهُ      إِنِّي لأَعْلَمُ وَاللَّيْبُ خَبِيرٌ

أما الاتجاه الآخر، فقد استمد فيه الشعراء حكمتهم من واقع مرثيتهم وحياتهم، وذلك حين راحوا يتأملون فيما كان عليه أولئك الناس من قوّة وبأس ومجد، وما كان لهم من صيت ذائع، وجاه وسلطان، ونفوذ ورأي، وأموال وكنوز، وأراضٍ ممتدة، فوجدوا أن ذلك كلّه لم يعصمهم من الموت، ولم يحمهم منه حين نزل بساحتهم، ولهذا عدّوا موتهم أكبر عظة ودليلاً على فناء البشر، والأمثلة على ذلك كثيرة، ومنها قول الحلّي في رثاء الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل: (١)

فِي فَقْدِنَا الْمَلِكِ الْمُؤَيَّدِ شَاهِدٌ      أَلَا يَدُومَ مَعَ الزَّمَانِ سُرُورُ

وقوله في رثاء الملك المنصور نجم الدين غازي: (٢)

يَا بَدُورًا تَغِيْبُ تَحْتَ التَّرَابِ      وَجِبَالًا تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ  
إِنَّ فِي ذَلِكَ عِتْبَارًا وَذِكْرِي      يَتَوَعَّى بِهَا ذُو الْأَلْبَابِ  
أَيْنَ رَبُّ السَّرِيرِ وَالْجِيْزَةِ الْبَيْتِ      ضَاءَ ذَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ  
عَرَصَاتٌ كَأَنَّهِنَّ سَمَاءٌ      قَدْ تَوَارَتْ شَمُوسُهَا فِي الْحِجَابِ

وقال ابن نباتة في رثاء الملك الأفضل محمد بن إسماعيل: (٣)

كَفَى بِنِي أَيُّوبَ لِلنَّاسِ وَعَظْمًا      وَإِنْ صَمَمَتْ أَقْوَاهِمُ فِي الضَّرَائِحِ  
وَمَرْقَى الْمَنَايَا نَحْوَ آفَاقِ عَرْشِهِمْ      وَمَا كَانَ يَرْقَى نَحْوَهَا طَرْفُ طَامِحِ  
ويدلّل الشاعر عز الدين بن أبي الحديد على زوال الدنيا وغدورها، وتلوّنها بما فعلته بعلاء الدين الطبرسي الدويدار، فقد قلبت حاله، وأذلته بعد طول عزّ ونعيم، ويبدو متأثراً بأبي العلاء المعري حين صورّ جسم الإنسان حبساً، ونفسه مقيمة فيه، يقول: (٤)

لَا تَأْمَنِ الدُّنْيَا وَقَدْ      غَدَرَ الزَّمَانُ بِالطَّبْرَسِيِّ

(١) الحلّي، الديوان، ص ٣٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨٩-٢٩٠.

(٣) ابن نباتة، الديوان، ص ١٠٠.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٦٦.

ورماه من بعد الميَا  
وكسأه ثوباً من تُرا  
فاحبس عنان النفس فهـ  
واقنع من الدنيا بثو  
من والسعود بيوم نخس  
ب بعد أثواب الدمقس  
في مقيمة في شر حبس  
ب لا يساوي نصف فلنس

إن المعاني السابقة ما هي إلا ترانيم وعظية، تطرق قلوب الناس وعقولهم وتدعوهم إلى التأمل والتفكير، ومراجعة النفس، وتطهيرها من دنس الحياة وأدرانها، فالعمر ماضٍ وقصير، والموت يقترب يوماً بعد يوم، فالشعراء هنا أشبه ما يكونون بحكماء ووعاظ يقتنصون التجارب من حولهم، ويعبرون عنها بطريقتهم الخاصة، عليهم يجدون صدق أصواتهم، فيساهمون في استقامة الناس، وردهم إلى الطريق القويم.

وكشف الشعراء عن سطوة الموت وقوة بأسه حين صوروا خضوع مرثيهم له، وانكسارهم أمامه، وانقيادهم صاغرين لحكمه، فبينوا أنه لو كان غير الموت خصماً لهؤلاء لعدوا بالأرواح والأموال والحصون والمعازل، ولهبت الجيوش تنصرهم وتذب عنهم، وقد عبر غير شاعر عن تلك المعاني، ومنهم مجد الدين بن الظهير الإريلي إذ قال في رثاء بيبرس: (١)

لولا القضاء فدتته أنفس أنفس  
طلبت ديون الدين من غرمايه  
بفوارس كالأسد في غاب من الـ  
للمؤمنين ولو فدتته لم تقي  
عزماته طلب الملح المُلجف  
بيض المواضي والرماح الرُغف

ومثله قول شهاب الدين العزازي في رثاء الملك المنصور الثاني صاحب حماة: (٢)

أناه الردى فانقاد مستسلماً له  
ولو كان غير الموت خصم محمد  
وجالت عنان الخيل واضطربت له  
ولكن هو الموت الذي طالما  
إذا دعا أوفى البرية ناصراً  
وقد كان يقاتد الكمي المدرعا  
لزلزلت الأقدام واشتدت الدعاء  
حداد المواضي والوشيج تزغزعا  
لوى من الملك الجبار ليتأ وأدعا  
أجاب ولبي ناكس الرأس مهطعا

(١) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٦٤.

(٢) العزازي، الديوان، ص ٢٣-٢٤.

وتأمل الشعراء في حال مرثيهم عندما كانوا يطبقون الأرض بصيتهم وهيبتهم، ويقودون الجيوش لمقارعة الأعداء، ويصلون ويجولون في البلاد، ويسوسون الرعية، وينشرون العدل بينها، ويجودون بأموالهم عليها، ويؤوون الوافدين، فوجدوا أن ذلك كله طواه الموت، وصار نسياً منسياً كأن لم يكن، ولم يكونوا على وجه هذه البسيطة. (١) ومن ذلك ما عبّر عنه صفي الدين الحلّي في رثاء الملك الناصر محمد بن قلاوون: (٢)

قضى الناصر السلطان من بعدما قضى	فروض الغلاطراً وسالمه الدهر
ولم يُغن عنه الجأش والجيوش واللّهى	وفرط النهى والحكم والنهي والأمو
ولا الخيل تجري بين أذانيها القنا	لحرب العدا والدهم من دمهم حمر
كأن لم يقدهما في الهياج عوابسا	بكل كمي ضم في قلبه الصدر
ولم ترجع البيض الصقاح من العدا	مخضبة والبر من دمهم بحر
ولم يترك الأبطال صرعى وغسلها	دماها وأحشاء النسور لها قبر

## هجاء الموتى من أرباب الدول

شاعت في هذا العصر ظاهرة هجاء الموتى، فلم يعد الشعر الذي يقال في الميتين مقتصراً على الإشادة بهم، وبيان مآثرهم وخصالهم الحميدة، بل وجدت إلى جانب ذلك أشعار انتقدتهم، وهجتهم هجاءً مرّاً، وكشفت عن صفاتهم السيئة، وسخرت من وضعهم الذي آو إليه، وهنا يتساءل الباحث عن الأسباب التي وقفت وراء شيوع هذه الظاهرة وانتشارها في ذلك العصر؟

بعد الاطلاع على تلك الأشعار ودراستها، وقراءة سيرة حياة المهجويين ظهر أن الدافع الأساسي وراء شيوع تلك الظاهرة ما كان يتصف به أولئك السادة من أخلاق سيئة، وظلم وجبروت، فهم لم يكونوا أمناء على مصالح الشعب، ولم يكونوا على قدر المسؤولية

(١) انظر ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٤٥، شافع بن علي، حسن المناقب السرية، ١٤٠، ١٦٥، الفضل المأثور، ص ١٦٥، ١٧٦، الدواداري، كثر الدرر، ٢١٦/٨، البونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٤٩/٢، ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام، ص ١٨٠-١٨١، الصفدي، الرواق، ٤٧٤/٩، الحلّي، الديوان، ص ٢٨٧، ٢٩١، ٣٢٣، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٩١/٧.

(٢) الحلّي، الديوان، ص ٣١٩-٣٢٠.

التي أنيطت بهم، بل إنهم أساءوا استخدامها، وجيروها لمنافعهم الشخصية، ومارسوا الضغط على الناس، وأنزلوا بهم فنون العقاب المختلفة، من قتل، وضرب، وسجن، ومصادرة للأموال والممتلكات، وظلوا يختطون ذلك منهجاً في حياتهم إلى أن طواهم الموت، ونالوا ما يستحقونه من جزاء.

والشعراء جزء من الشعب يتأثرون بما حولهم، ولكنهم يتميزون بأنهم قادرين على التعبير عنه بطريقة الخاصة، وكان هؤلاء الشعراء عاجزين عن التعبير عما يعتمل في خلجاتهم وخلجات الشعب، حين كان أولئك السادة على قيد الحياة خشية بطشهم وجبروتهم، ولكنهم بعد موتهم، وزوال مخاوفهم راحوا ينثرون ما في نفوسهم، فكان الشعر وسيلتهم كشفوا به عن عيوب أولئك الميتين، وتهكموا منهم وسخروا أشد سخرية، ورسوموا الصور المضحكة التي تنبئ عن الحالة المتردية التي وصلوا إليها فبدل أن تخلد ذكرى هؤلاء قصائد الرثاء حطت، أشعار الهجاء من قدرهم، وهبطت بهم إلى الحضيض، وأكدت كره الشعب لهم.

وقد "جرت العادة عند الدارسين والنقاد أن ينظروا إلى فن الهجاء على أنه فن لا أخلاقي، فن قائم على السب والشتائم."<sup>(1)</sup> وإن كانت هذه النظرة صادقة في بعض جوانبها، إلا أنها لا تنطبق تماماً على ما بين أيدينا من أشعار، ذلك أن الهدف منها حث أرباب الدولة الباقين على العودة إلى الأخلاق، فهم حين يرفضون تلك السياسات اللاأخلاقية التي سار عليها سابقوهم، يقصدون بذلك توجيه رسالة لهم ليكفوا عن المظالم والتجاوزات الخاطئة، هذا فضلاً عن رغبتهم في السخرية والتشفي بأولئك الراحطين، فهذا الاتجاه وسيلة من وسائل الشعراء في النقد السياسي، وتقريع رجال الدولة.

واتسمت تلك الأشعار بالقصر والإيجاز، وسهولة الألفاظ، والبعد عن الإفحاش، وتميزت بالصدق، ذلك أن المعاني التي قدمها الشعراء حقيقية نابعة من حياة المهجورين وأخلاقهم، كما أنها ركزت على سلب فضائلهم النفسية، ولم تتطرق إلى ذم صفاتهم الجسدية، وأكثر خاصية ظهرت في أشعارهم هي السخرية والتهمك، وقد سلخوا في إبرازها مسالك عديدة، فبعضهم وظف اسم الأمير الميت ليصنع فكاهة وتهكماً منه، ففي سنة ٧٤٤هـ توفي بحلب الأمير سيف الدين بهادر المعروف بحلاوة، وكان عنده ظلم،

(1) د. عبد الحميد جيدة، قصيدة الهجاء عند دعل الخراعي، ص ٧.

وتوعد أهل حلب بشرٍ كبير، فأراحهم الله منه".<sup>(١)</sup> فوظف ابن الوردي اسم الأمير الذي اشتهر به في حياته وهو "حلاوة" ليصوّر المصير المرّ والمؤلّم الذي آل إليه بعد الموت، وهو البلى والهلاك، فقال:<sup>(٢)</sup>

حَلَاوَةٌ مَرَّ فَمَا      أَمَلَّحُوهُ أَنْ يُدْفَنَا  
إِلَى الْبَلَى مَسْتَيِّرًا      وَفِي السَّثْرِ مُكَفَّنَا

ولجأ أحد الشعراء إلى التورية بلقب الأمير الميت ليحقق غايته، وليبين كيف تغيرت الأحوال به، فحين توفي الأمير سيف الدين طشتمُر الملقب "بحمص أخضر" سنة ٧٤٢هـ، نظم صلاح الدين الصفدي أبياتاً صورَ فيه حمصاً أخضر وقد اندرس بالموت، وعجب من الحال التي وصل إليها الأمير بعدما كان ذا بأس وشجاعة، وحرص على الحياة، يقول:<sup>(٣)</sup>

طوى الردى طشتمرا بعدما      بالغ في دفع الأذى واحترس  
عهدي به كان شديد القوى      أشجع من يركب ظهر الفرس  
ألم تقولوا "حمصاً أخضرا"      تعجبوا بالله كيف اندرس

واقترنت بعض الشعراء مواقف معينة من حياة الأمير، ووظفها في شعره، يقال: إن الأمير تنكز نائب الشام كان قبل موته "قد تبرم من نقيق الضفادع، فأخرجها من الماء"<sup>(٤)</sup>، "وقتل أكثر الكلاب بدمشق، وحبس الباقي"<sup>(٥)</sup>، فحين مات جعل أحد الشعراء ميته بشرى لتلك الضفادع والكلاب، ويتجلى ذلك في قوله مصورا ما كان يتحلى به ذلك الأمير من كبر واستعلاء:<sup>(٦)</sup>

تتكر تنكز بدمشق تيها      وذلك قد يدل على الذهاب

(١) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢/٢٢٥.

(٢) المصدر نفسه، ٢/٣٢٦.

(٣) الصفدي، أعيان العصر، ٢/٥٩٠-٥٩١، الواقي، ١٦/٤٤٢، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٦/٣٩٣، النجوم الزاهرة، ١٠/٨٤، ابن

إياس، بدائع الزهور، ج ١/١٣٦، ٤٩٨.

(٤) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢/٣١٨.

(٥) المصدر نفسه، ٢/٣١٨، ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٢/٣٣٢.

(٦) المصدر نفسه، ٢/٣١٨.

وقالوا للضفادع ألف بشرى بميتته فقلت وللكلاب

فالشاعر يقذع في الحط من قيمة تنكز إذ كشف أن الحقد عليه ليس مقتصرا على الناس فحسب، بل وعلى الحيوانات التي كان يؤذيها، فكان موته بشري لها. ويهاجم الشعراء أرباب الدولة الميتين في أخلاقهم، ويرمونهم بالطغيان والبغي، والظلم، والجهل، والنفاق، ويصورون أفعالهم ضد الشعب، وما كانوا يقومون به من قتل للناس، ومصادرة لأموالهم، وإزهاقها لأرواحهم، جزاء لهم على تلك الأفعال، وبدل أن يصور الشعراء ما ينعم به أولئك الناس في جنات الخلد، أو أن يدعوا لهم بنيلها- كما هو معتاد في شعر الرثاء- راحوا يصورونهم يتقلبون في نار جهنم، ويتلظون بسعيرها، وتلك النهاية في نظر الشعراء هي النهاية الطبيعية لأمثال هؤلاء، فحين توفي الأمير شرف الدين القبطي المعروف بالنشو،<sup>(١)</sup> وكان "قد قهر أهل القاهرة، وبالع في الطرح والمصادرة، فعظمت به المصيبة، وقتل خلقا تحت العقوبة"<sup>(٢)</sup>، قال زين الدين بن الوردي بهجوه:<sup>(٣)</sup>

النشو لا عدل ولا معرفه قد آن للأقدار أن تصرفه  
من أتلف الناس وأموالهم يحق للسلطان أن يتلفه

ومن الذين هجاهم الشعراء بعد موتهم وزير الظاهر بيبرس بهاء الدين بن حنا وكان قد صادر "أرباب الأموال حتى مات أكثرهم تحت العقوبة"<sup>(٤)</sup>، فنقمت عليه الدولة في آخر حياته، وصادرت أموال عائلته ووضعوا تحت الحوطة،<sup>(٥)</sup> فقال النجم بن السحت كمال، يصور إسراف ذلك الوزير وطغيانه، حتى دارت عليه الدوائر، وأوقع أهله تحت العذاب:<sup>(٦)</sup>

خربت ديارك يا ابن حنا وانقضى زما به أسرفت في الطغيان

<sup>(١)</sup> لمزيد من المعلومات عنه انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٩/٢٣٨. اليوسفي، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، ص ٣١١، ٣٧٥.

<sup>(٢)</sup> ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢/٣١٦، وانظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٩/٢٣٨.

<sup>(٣)</sup> ابن الوردي، الديوان، ص ٤٩٦، تاريخ ابن الوردي، ٢/٣١٦-٣١٧.

<sup>(٤)</sup> ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٧/٨٥.

<sup>(٥)</sup> انظر الدواداري، كثر الدرر، ٨/٢٢٥.

<sup>(٦)</sup> المصدر نفسه، ٨/٢٢٦.



بفضفاضة ملأت فضاء النيران  
ما نلت من عزبذا الخسران  
قام الدليل عليك بالبرهان

ونقلت من دار النعيم إلى لظى  
تركت رهطك في العذاب فلم يقد  
كم ذا تزخرف باطلا لبطالمة

ويقول السراج الوراق مصورا مآل الأمير سنجر بن عبد الله الشجاعي في الدنيا  
والآخرة بعد مقتله سنة ٦٩٣هـ: (١)

أباد الشجاعي رب العباد عصى رأسه فالعصى نعشه  
وعقباه في الحشر أضعاف ذلك وشيع للدفن في نار ممالك

وفي سنة ٧٥٠هـ قتل الأمير سيف الدين ألبغيغا نائب صفد، الأمير سيف الدين  
أرغون شاه نائب دمشق، فدفن في زاوية المنبيع، (٢) فقال صلاح الدين الصفدي يهجو،  
ويتعجب من حمقه، وإسرافه في الحكم حتى أتاه حمام الموت ودفن في المنبيع (٣)  
تعجبت من أرغون شاه وطيشه الذي كان فيه لا يفيق ولا يعي  
وما زال في سكر النيابة طافحا إلى حين فاضت نفسه في المنبيع

وقتل في السنة ذاتها سيف الدين ألبغيغا، فقال الصفدي (٤) يهجو، ويصف بغيه،  
وقتله لأرغون شاه، ويتشفى منه حين صوره بعد مقتله وقد علق من عرقوبه كالشاة على  
نهر بردى: (٥)

لما بغى ألبغيغا واعتلى قبل انسلاخ الشهر في جلق  
إلى السها في ذبح أرغون شاه علق من عرقوبه مثل شاه

(١) ابن تغري بردي، المهمل الصافي، ٨٢/٦، الوافي ٤٧٦/١٥.

(٢) من متزهات دمشق قديما، كان له زاويتان، ومكانه اليوم بناء جامعة دمشق القديم المظل على نهر بابلس، وأرض معرض دمشق الدولي

الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ٢٧٦/٢، حاشية (١).

(٣) الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ٢٧٨/٢، الوافي، ٣٥٤/٨.

(٤) الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ٢٧٨/٢.

(٥) انظر المصدر نفسه، ٢٧٧/٢.

ومن السلاطين الذين نال منهم الشعراء بعد موتهم سيف الدين حاجي بن الناصر محمد ابن قلاوون، وكان المذكور فيه ظلم وجبروت، أفنى أمراء دولته، وسفك دماءهم، وأثار الفتن فملاً قلوب الأمراء حقدا عليه فقتلوه سنة ٧٤٨هـ<sup>(١)</sup>، وقد عدد صلاح الدين الصفدي خصال ذلك السلطان، وبين أفعاله، وهي أعمال عظيمة أعظم من أن تغتفر أو تكفر، يقول: <sup>(٢)</sup>

خـان الـردي للمظفر	وفي الثرى قد تغفر
كم قد أباد أميرا	على المعالي توفـر
وقاتل النفس ظلما	ذنوبه ما تكفـر

ويذكر المؤرخون أمرا آخر كان السبب في ثورة الأمراء على السلطان المظفر حاجي، وهو أنه كان قد أغفل أمور الرعية وشغل نفسه بتربية الحمام واللهو بها، وأنفق عليها الأموال الطائلة، واعتمد في رأيه على النساء والخدام، <sup>(٣)</sup> وقد سجل الصفدي ذلك في قوله مصورا بغى السلطان وعبثه: <sup>(٤)</sup>

أيها العاقل اللبيب تفكر	في المليك المظفر الضرغام
كم تمادى في البغي والغبي حتى	كان لعب الحمام جد الحمام

وتعدى هجاء الموتى أرباب الدول الإسلامية ليشمل ملوك الأعداء وقادتهم، وقد اشتهر علاء الدين الوداعي الكندي بمقطوعاته التي نظمها في القائد المغولي غازان بعد موته، وكانت الأخبار بموته قد اختلفت "على البلاد الإسلامية، وخطب القصاد فيها تخبيطا كبيرا" <sup>(٥)</sup>

<sup>(١)</sup> انظر الصفدي، أعيان العصر، ١٧٦/٢، الواقي، ٢٣/١١-٢٤٠، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٠/١٣٩، ابن ياس، بدائع الزهور، ج ١ ق ٨/١٠.

<sup>(٢)</sup> الصفدي، أعيان العصر، ١٧٩/٢، الواقي، ٢٣٩/١١، السخاوي، الذيل على دول الإسلام، حوادث ٧٤٨هـ، من ٩٣، ابن تغري بردي، المنهل الصافي ٥٤/٥ النجوم الزاهرة، ١٠/١٣٩، السيوطي، حسن المحاضرة، ٢/١٢١، ابن ياس بدائع الزهور، ج ١ ق ١٠/٥١٨.

<sup>(٣)</sup> انظر الصفدي، أعيان العصر، ١٧٩/٢، الواقي، ٢٣٩/١١-٢٤٠، السخاوي، الذيل التام، حوادث ٧٤٨هـ، ص ٩٢، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٥٤/٥.

<sup>(٤)</sup> الصفدي، أعيان العصر، ١٧٩/٢، الواقي، ٢٣٩/١١-٢٤٠، السخاوي، الذيل التام، حوادث ٧٤٨هـ، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٥٤/٥، النجوم الزاهرة، ١٠/١٣٩، السيوطي، حسن المحاضرة، ٢/١٢٠-١٢١، ابن ياس، بدائع الزهور، ج ١ ق ١٠/٥١٨-٥١٩.

<sup>(٥)</sup> الصفدي، أعيان العصر، ٧/٤.

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس  
www.moswarat.com

## الفصل الثالث

رثاء العلماء والأدباء



## كثرة المراثي ودواعي الرثاء

يعدّ هذا اللون من الرثاء أكثر لون قال فيه الشعراء ، فقد عُثر بعد البحث والتقيب على مراثٍ كثيرة في هذا الاتجاه . وحظي بعض العلماء والأدباء باهتمام الشعراء فأكثرُوا من رثائهم، ومن هؤلاء الشيخ محيي الدين النووي ، فقد كتب فيه تلميذه علاء الدين بن العطار سيرة أسماها " ترجمة الإمام النووي " ، حاول فيها استقصاء الأشعار التي نُظِمَتْ في رثائه ، فأُنبت فيها اثنتين وعشرين قصيدة ومقطوعة واحدة ، أشار فيها فائقها إلى كثرة ما قيل في رثائه ، ومنهم تلميذه الفقيه الأمين سلطان إذ قال: (١)

قد أكثرتُ فيكَ الرثاءُ وما أرى  
تُجدي سوى تذكاريها وغناها

ورثى الشعراء تقيّ الدين بن تيمية بقصائد كثيرة ، وأشار المؤرخون إلى ذلك ، ومنهم المقرئزي في قوله: "ورثاه جماعات من الناس بالشام ، ومصر ، والعراق ، والحجاز ، والعرب من آل فضل" (٢) ، ويقول ابن كثير : "ورثاه جماعات بقصائد جمّة" (٣) ، و "مطولة جداً" (٤) ، وصل من تلك القصائد ثمان عشرة قصيدة طويلة ، أورد أكثرها الكرمي في كتابه "الكواكب الدرية في مناقب الشيخ ابن تيمية" . وضاع من تلك القصائد الكثير بدليل أن الكرمي أشار إلى أن أنه لم يضمن كتابه سوى بعضها (٥) . وذكر الصفدي أسماء ستة عشر شاعراً رثوا الشيخ ، وبيّن أنه رثاه غيرهم ، وأن منهم "من رثاه بقصيدتين وثلاث" (٦) ، إلا أن جلّ أولئك الشعراء لم تصلنا قصائدهم ، إذ جاءت معظمها لغيرهم .

ورثى الشعراء آل السبكي بمراثٍ كثيرة أمثال : تقيّ الدين السبكي ، وابنيه : تاج الدين ، وبهاء الدين ، وأحفاده مثل : تقيّ الدين بن بهاء الدين السبكي . ووصلت من

(١) ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٥٣ ، وانظر ص ٣٧ .

(٢) المقرئزي ، المقفى ، ٤٧٥/١ .

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٤٦/١٤ .

(٤) المصدر نفسه ، ١٥٢/١٤ انظر البراز ، الأعلام العلية ، ص ٧٦ .

(٥) انظر الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ٢٣١ .

(٦) الصفدي ، أعيان المعصر ، ٢٤٧/١-٢٤٨ ، الرازي ٣٠/٧-٣١ .

مراثيهم إحدى عشرة قصيدة ومقطوعة واحدة جلّها للشاعرين صلاح الدين الصفدي ، وبرهان الدين القيراطي الذي كان على علاقة وطيدة بهم ، وكان يمدحهم ويراسلهم<sup>(١)</sup> . ورثى الشعراء الكثير من العلماء والأدباء الآخرين ، وأكثروا من ذلك ، ولكنّ جلّ ما نظموه ضاع وطوته يد النسيان ، ويدل على ذلك ما قيل في تراجمهم ، فالعالم شمس الدين بن قدامة الجماعلي "رثاه نحو ثلاثين شاعراً"<sup>(٢)</sup> ، ذكر الصفدي سبعة منهم<sup>(٣)</sup> ، ولم يعثر إلاّ على قصيدة واحدة نظمها الشاعر شهاب الدين محمود الحلبي . ونظم الصفدي ديواناً في رثاء نجم الدين بن الخطيب أسماه "ساجعات الغصن الرطيب في مراثي نجم الدين بن الخطيب"<sup>(٤)</sup> ، ولكنه لم يورد منه سوى قصيدة واحدة . وجاء في ترجمة تقيّ الدين بن دقيق العيد أنه "رثاه جماعة من الفضلاء بالقاهرة وقوص"<sup>(٥)</sup> وقيل في ترجمة عبد الله بن محمد بن مكّي البغدادي : ولجماعة من أهل بغداد فيه مدائح ومراث كثيرة<sup>(٦)</sup> ، وذكر في ترجمة تاج الدين الموصلّي أنّه "لما مات رثاه جماعة"<sup>(٧)</sup> ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، وهي تدلّ على الكمّ الكبير من المراثي الضائعة . واشتهر عدد من الشعراء في هذا اللون من الرثاء ، إذ نظموا فيه أكثر من غيرهم ، ومنهم شهاب الدين محمود الحلبي ، وصلاح الدين الصفدي ، وجمال الدين بن نباتة ، وبرهان الدين القيراطي ، وزين الدين بن الوردي ، وشمس الدين الكوفي الواعظ . دفع الشعراء إلى الإكثار من رثاء العلماء والأدباء غير سبب ، ومنها الحركة العلمية النشطة في ذلك العصر ، فبعد سقوط بغداد وقيام الدولة المملوكية ، وإحياء الظاهر بيبرس للخلافة العباسيّة ، أضحت مصر والشام قبلة العلماء ورجال الأدب ، فحملت لواء

<sup>(١)</sup> ابن العراقي ، الذيل على العبر ، ٤٩/٢ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ٣٢/١ ، أنباء الغمر ، ٣٢١/١ ، ابن قاضي شهبة ، تاريخ ابن قاضي شهبة ، ص ١٢ ، ابن العماد ، شذرات الذهب ، ٨/٧ .

<sup>(٢)</sup> ابن رجب ، الذيل على طبقات الحنابلة ، ٣٠٩/٤ .

<sup>(٣)</sup> الصفدي ، الرافي ، ٢٤٢-٢٤١/١٨ ، النوري ، نهاية الأرب ، ١١٦/٣١ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ١٨٧/٤ ، المقرئزي ، السلوك ، ١٨٠/٢ .

<sup>(٤)</sup> المصدر نفسه ، ٢٦٢/١٢ ، أعيان العصر ، ٢٣٦/٤ .

<sup>(٥)</sup> الأدفوي ، الطالع السعيد ، ٥٩٩ .

<sup>(٦)</sup> ابن رجب ، الذيل على طبقات الحنابلة ، ٤١٢/٤ .

<sup>(٧)</sup> اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٧٦/٣ .

الزعامة الفكرية والحضارية ، إذ توافد عليها الكثير من علماء بغداد والأندلس<sup>(١)</sup>. وأشار السيوطي إلى الدور الذي لعبته مصر يومذاك ، فقال : "اعلم أن مصر من حيث صارت دار خلافة عظم أمرها ، وكثرت شعائر الإسلام فيها ، وعلت فيها السنة ، وعفت منها البدعة ، وصارت محلّ سكن العلماء ، ومحط رجال الفضلاء"<sup>(٢)</sup>.

وحظي عدد من العلماء والأدباء بمكانة مرموقة وامتيازات في العصر المملوكي ، رغم ما تعرضوا له من امتهان نتيجة لحقد طوائف المماليك ، ومن هذه الامتيازات نفوذهم في الدولة ، واحترام السلاطين لهم وإجلالهم<sup>(٣)</sup> ، والإغداق عليهم<sup>(٤)</sup> فعاثوا في سعة وبسطة "ومنشأ هذه السعة والبسطة في الحياة أن المماليك أحسوا دائماً بأنهم أغراب عن البلاد وأهلها وبأنهم في حاجة إلى دعامة يستندون إليها في حكمهم ، ويستعينون بها على إرضاء الشعب ، وطبيعي أنهم وجدوا هذه الدعامة في فئة العلماء بحكم ما للدين ، ورجاله من قوة ، وسطوة في النفوس"<sup>(٥)</sup>. ومن مظاهر احترام السلاطين المماليك للعلماء أنهم لم يدعواهم يقبلون الأرض حسب العادة المتبعة ، وكانوا ينتصبون لهم قائمين ، وكان بعضهم ييوس يد العالم ، ويذوره في بيته مرتين في الأسبوع ، وكانوا يمشون في جنازهم ، إلى جانب مخاطبتهم بالرسائل باللقاب تدلّ على إجلالهم واحترامهم<sup>(٦)</sup> .

وكان كثير من العلماء جريئين في قول الحق ، ولذا خشيم السلاطين ، وكبار رجال الدولة ، وتعجبوا من جرأتهم ، فقد ذكر أن الإمام محيي الدين النووي "كان مواجهاً للملوك والجبابرة بالإنكار لا تأخذه في الله لومة لائم ، وكان إذا عجز عن المواجهة كتب الرسائل ، وتوصل إلى إبلاغها"<sup>(٦)</sup> ، و "حكي أن الظاهر بيبرس قال: أنا أفزع منه"<sup>(٧)</sup> ،

(١) لمزيد من الأمثلة انظر ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ٣٨٠ ، ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ١٩٢/٢ ، الذهبي ، تاريخ الإسلام ، وفيات ، ٦٦٤ هـ ، ص ١٦٧ ، السبكي ، طبقات الشافعية ، ٢٢/٩ ، الصفدي أعيان العصر ، ٣٣١/١ ، الوافي ، ١٣/١٩ ، ابن تعري بردي ، المنهل الصافي ، ٢٠٥/٧ ، ٣٠٩ ، ابن العراقي ، الذيل على العبر ، ٣١٧/٢ .

(٢) انظر ، آمنة بدوي ، شعر النازحين من الأندلس إلى مصر والشام ، ص ٦ وما بعدها .  
(٣) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ٩٤/٢ .

(٤) د. سعيد عاشور ، المجتمع المصري ، ص ٢٨ .

(٥) انظر ابن فضل الله العمري ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٩٨ — ٩٩ ، د. سعيد عاشور ، المجتمع المصري ، ٢٩ — ٣٠ ، د. محمد سلام ، الأدب في العصر المملوكي ، ٢٢٦/١ .

(٦) ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٢٠ ، الكنتي ، عيون التواريخ ، ٦١/٢١ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٣ .

(٧) الكنتي ، عيون التواريخ ، ١٦١/٢١ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٢٨٣/٣ .

وحكي عنه أيضاً أنه لما بلغه موت العزّ بن عبد السلام قال : "لم يستقر مُلكي إلا الساعة،  
لأنه لو أمر الناس بما أراد لبادروا إلى امتثال أمره"<sup>(١)</sup>

وحظي العلماء في ذلك العصر باحترام الناس وتقديرهم ، فكانوا يقدّمونهم على  
أنفسهم في الأسواق ويقصدونهم "لقضاء حوائجهم ، ويتوسلون بهم للشفاة لهم عند أهل  
الدولة، ويشاركون في جنازتهم ، فيتزاحمون حول النعش ، ويتبركون به الأمر الذي كان  
يثير دهشة السلاطين"<sup>(٢)</sup>.

وحين ماتوا تركوا فراغاً كبيراً خلفهم ، فتسابق الشعراء في رثائهم معبرين عن  
مكانتهم، وأثر موتهم على نواحي الحياة المختلفة وجعلوهم يمثلون الأمة بأسرها ، وعبر  
عن ذلك غير شاعر ، ومنهم علاء الدين الوداعي الكندي إذ قال في رثاء النووي:<sup>(٣)</sup>

ما مات يحيى إنما جبل هوى      فأخاف ذلك يذُبلّاً وثبيراً  
ما غاب عنه عالم بل عالم      كانت به التقوى أعزّ نفيراً

وتحدث الشعراء عن الأسباب التي دعتهم إلى رثاء العلماء والأدباء ، فبيّنوا أن  
الحزن الحقيقي ، والرغبة في الوفاء للصحبة ، والاعتراف بالجميل ، وبكاء الماضي  
المجيد كانت دوافعهم وراء ذلك ، ويتجلى ذلك في قول شهاب الدين حسين في رثاء تقّي  
الدين السبكي:<sup>(٤)</sup>

رثيتك يا قاضي القضاء لصحبة      قَصّت لي بأن أبكي عليك واستبكي

وكان الشاعر شهاب الدين محمود الحلبي أكثر شاعر عبر في مرثيته عن الصداقة  
التي ربطته بمرثيته من العلماء والأدباء ، ووظّف فيها العبارات والألفاظ الدالة على ذلك  
مثل "يا خليلي" ، و "يا أخي ومصاحبني" ومن ذلك قوله في رثاء القاضي نجم الدين بن  
صصري:<sup>(٥)</sup>

<sup>(١)</sup> انظر اليوسفي ، نزهة الناظر ، ص ٢٢٢ ، الصفدي ، أعيان العصر ، ٢٠٠/٥ ، البراز ، الأعلام العلية ، ص ٧٥ ، الذهبي ، العبر ، ٣/٣٩٩ ،  
اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ١٧٦/٢ .

<sup>(٢)</sup> ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٤٠ ، وانظر القيراطي ، الديوان ، ص ٢٥ ، ٧٦ .

<sup>(٣)</sup> ابن العمري ، كنوز الذهب ، ٤٧٣/١ ، الطباخ ، أعلام النبلاء ، ٧٨/٥ ، الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ٢٢٠ .

<sup>(٤)</sup> السبكي ، طبقات الشافعية ، ٤٠٧/٥ .

<sup>(٥)</sup> الصفدي ، أعيان العصر ، ٣٣٣/١ وانظر ١٩٤/٣ ، الروافي ، ٣١٩/١٩-٣٢٠ ، الكتي ، فوات ، ٢/٣٢٣ .



فِي فَقَدَ مِنْكَ يَا خَلِيلِي مُقْنَعَا  
مَهْمَا تَمَادَتِ مُدَّتِي لَنْ يُنْزَعَا  
مَحْزُونَةٌ تُبْكِي الْحَمَامَ السَّجْعَا  
مَحْزُونٌ أَنْ يَبْكِيكَ أَوْ يَتَجَعَا

فَلأَبْكِيَنَّكَ مَا حَيَّيْتُ وَمَا الْبَكَا  
وَلأَلْبَسَنَّ عَلَيْكَ ثَوْبَ كَأْبَةِ  
وَلأَبْعَثَنَّ مِنَ الرَّثَاءِ قَوَافِيَا  
وَيَقْلُ ذَاكَ فَإِنَّهَا جَهْدُ الْأَخِ

ورثى ابن الوردي العالم كمال الدين بن الضياء العجمي ، فصور العلاقة الحميمة التي ربطتهما إذ جمعتهما صلة العلم والبحث فيه ، الأمر الذي دعاه إلى رثائه على الرغم من معاتبة أعداء كمال الدين له ، وغضبيهم عليه ، قال مخاطباً إياه: (١)

فِي الْعِلْمِ أَسْمَعُهُ وَطَوْرًا أَسْمَعُ  
عَالِي وَرُحْتَ إِلَى الْمَقَابِرِ تُسْرِعُ  
عَنِّي فَلَا تُشْكُو وَلَا تَتَوَجَّعُ  
حَتَّى سَكَنْتَ فَلَيْتَهُمْ لَا مَتَّعُوا  
كُلُّ لَه فِي الْعَتَابِ سِمٌّ مُنْفَعُ  
وَلِكُلِّ مَنْ رَفِضَ الْوُدَادَ مَصْرَعُ

يَا مُؤَنَسِي فِي غَرْبِي وَمَشَارِكِي  
كَمْ قَدْ قَطَعْنَا لَيْلَةً فِي وَصْلَانَا  
فَارَقْتَ مَنْزِلَكَ الْمَنِيْفَ وَقَصْرَكَ  
لَمْ تَسْكُنِ الْأَعْدَاءُ مِنْ خَوْفِ بِهِمْ  
أَغْضَبْتَهُمْ لَمَّا رَثَيْتَ فَاغْتَدَى  
مَا سُنَّتِي رَفِضُ الْوُدَادِ لِصَاحِبِ

وجمعت الصداقة العلمية بين شمس الدين الهواري الأندلسي ، وشهاب الدين أبي جعفر الأندلسي ، حتى عُرفا لمداومة الملازمة "بالأعمى والبصير" (٢) ، وحين مات شهاب الدين رثاه شمس الدين بقصيدة صور فيها أواصر المحبة بينهما ، إذ كانا كسيفين ضمهما غمد واحد ، يمضيان الأوقات والليالي في تدارس العلوم ، وما زالا كذلك حتى فرق الموت بينهما ، كما يبدو في قوله: (٣)

حُسَامَانُ ضَمَّ الصَّفْحَتَيْنِ قِرَابُ  
وَلَيْسَ نُرَى إِلَّا بِحَيْثُ نُثَابُ  
وَيُكْشَفُ عَنْ وَجْهِ الصَّبَاحِ نِقَابُ

وَفِي ذَاكَ مَا زَلْنَا جَمِيعًا كَأَنَّا  
نَلْزِمُ تَحْقِيقَ الْعُلُومِ وَجَمْعَهَا  
فَنَسْهَرُ حَتَّى يَقْضِي اللَّيْلَ عَمْرَهُ

(١) ابن الوردي ، الديوان ، ص ٤٢٩ — ٤٣٠ .

(٢) ابن العجمي ، كنوز الذهب ، ٤٦٧/١ ، الطباخ ، أعلام النبلاء ، ٨٤/٥ .

(٣) ابن العجمي ، كنوز الذهب ، ٤٧١/١ ، الطباخ ، أعلام النبلاء ، ٨٧/٥ — ٨٨ ، ولزريد من الأمثلة انظر الصقدي ، أعيان العصر ، ٥٥٦/٥ ، ٤١٨/٣ ، ٦٩٩/٢ ، الواقي ، ٣٥٣/١٧ — ٣٥٤ ، السبكي ، طبقات الشافعية ، ٤٠٣/٥ ، البونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٤٠٤/٣ ، الكندي ، عيون التواريخ ، ١٨٥/٢١ .

إذا عدُّ من أهلِ الوفاءِ صحَّابُ  
كَمَثَلِكَ في بطنِ الضَّرِيحِ تَرَابُ

أبا جعفر قد كُنْتَ أَكْرَمَ صَاحِبِ  
فوالله ما أنساكَ حتَّى يضمَّنِي

ورعى عدد من العلماء والأدباء الذين تولوا مراكز مرموقة في الدولة المملوكية، بعض الشعراء ، فكانوا يدنونهم ويغدقون عليهم الأموال ، ويجزونهم لقاء مدائحهم ، فعاش الشعراء في ظلهم حياة رغيدة ، وحين ماتوا وقَّدَّ الشعراء مصدر رزقهم ، قاموا يندبونهم، ويكون على مصيرهم بعدهم .

ومن هؤلاء الشعراء جمال الدين بن نباته ، فقد كان على علاقة بعدد منهم مثل نجم الدين ابن صَصْرِي الذي عمل كاتباً في ديوان الإنشاء ، ودرَّس في عدَّة مدارس ، وتولَّى قضاء العسكر ، وولي قضاء القضاة<sup>(١)</sup> ، وله أموال ضخمة ، ومماليك ، وخدم ، وحشم وحشمة<sup>(٢)</sup>، وكان يدني الشعراء ، فيتوافدون عليه في المواسم "رجاء بره وجوائزه، فيوفيههم غاية آمالهم ، فبلغت مدائحه جملة وافرة<sup>(٣)</sup>" وكان ابن نباته ممَّن توافدوا عليه فمدحه وأجيز بجوائز<sup>(٤)</sup>، ورثاه بعد موته بقصيدة صور في معظم أبياتها علاقة المنفعة التي ربطته به ، وعبر عن حزنه على الأيام التي قضاها تحت ظله ، وبكا جوده ومكارمه، وبدا دائم التذكّر لها ، ومنها قوله<sup>(٥)</sup> :

وما عَهْدُكَ تُلقِي من يُنادِيكَ ؟  
وللفواضِلِ تجلوهَا مساعِيكَ ؟  
فيضُ النَّدَى وهو من جدوى معانيكَ ؟  
منك الأثامُ وَقُلْ لي من يجاريكَ ؟  
مهما سلَّوتَ فلا والله أسلوكَ  
فكيف أنسى وقد حَلَّتْ أياديكَ ؟  
من بَعْدِ ما كَفَّتْ الدُّنْيَا غوايِكَ

مالي أناديك والنعماءُ صامِتةٌ  
مَنْ للفضائلِ تحلوها لهُاك لنا  
من للقصائدِ يستوفي موازنها  
فمن يجاريك يعرف قدرَ ما فقَدتُ  
يا غائباً ولهُى كَفِيهِ حاضرةٌ  
إنِّي لأذكرُ للإحسانِ مَرَّ يَدِ  
ما كُنْتَ إلا غمماً زال عن أفقِ

(١) الصفدي ، أعيان العصر ، ٣٢٧/١ ، المقرزي ، المقفى ، ٧١٦/١ .

(٢) المصدر نفسه ، ٣٢٨/١ .

(٣) المقرزي ، المقفى ، ٧١٧/١ وانظر أعيان العصر ، ٣٢٨/١ .

(٤) ابن نباتة ، الديوان ، ص ٣٦٧—٣٦٨ .

وربطت صلة المدح والعتاء ابن نباته بكل من القاضي تاج الدين بن الزيات ،  
والقاضي كمال الدين بن الزمكاني ، وقاضي القضاة جلال الدين القزويني ، والكاتب  
كمال الدين بن الأثير ، واعترف الشاعر في مراثيه لهم بفضاهم عليه ، وصوّر كساد  
شعره وحياته بعدهم<sup>(١)</sup>، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في قوله في رثاء جلال الدين  
القزويني<sup>(٢)</sup> :

وَدَعَ الشَّعْرُ كَانَ للشَّعْرِ وَقَتٌ	بِنْدَاهُ وَقَدْ تَغَيَّرَ حَالُهُ
وَسَلَا الصَّبُّ وَاسْتَرَا حِ الْمَعْنَى	لَا صَبَابَتَهُ وَلَا عَذَابَهُ
أَفْقَرَتْ سَاحَةَ الْعُلَا فِي يَوْمِ الشُّ	شَعْرٍ مِنْ بَعْدِ بُعْدِهِ أَطْلَالُهُ
كَمْ أَتَيْتِي مَعَ الرِّكَابِ لَهَا	وَوَقَّتْ لِي مَعَ الزَّمَانِ خِصَالُهُ

ويصف ابن نباته قصته مع القاضي تاج الدين بن الزيات ، ويتحدّث عن رعايته  
له ، وعطاياه التي أهدقها عليه ، فيقول في رثائه<sup>(٣)</sup> :

وَصَادَفَنِي فِي مَعْشَرِ بَدْيَارِهِمْ	بَعِيداً مِنَ الْحَيِّينَ دَاراً وَمَعْشَرَا
فَكَمَلْتُ مَنْقُوصاً مِنْ أَسْمِي لَدِيهِمْ	وَعَرَفَنِي فِيهِمْ وَقَدْ كُنْتُ مُنْكَرَا
وَيَسَّرَ مِنْ رِزْقِي بِيَمْنِ بَنَانِهِ	فَيَمِّنْ مَا شَاءَتْ يَدَاهُ وَيَسَّرَا
وَأَتَى عَلَى جَهْدِي بِمَا هُوَ أَهْلُهُ	وَأَظْهَرَ أَفْعَالَ الْجَمِيلِ وَأَضْمُرَا
فَمَا لِي لَا أَتَى عَلَى جُودِ كَفِّهِ	لَدِي كَمَا أَتَى عَلَى الْمَطَرِ الثَّرَى ؟

## المناقب والصفات

تغنى الشعراء بمناقب مرثيهم وصفاتهم ، فرسموا لهم صورة مثالية قلما تجتمع  
في غيرهم من الناس ، إذ جعلوا مناقبهم ذائعة الصيت ، ومشتهرة في الصادقين  
والواردين ، ونزوههم عن النقائص والعيوب<sup>(٤)</sup>، وهدفوا من ذلك إلى تخليدهم ، والاحتفاظ

(١) انظر ابن نباته ، الديوان ، ص ٤٠٧ ، الصفدي ، أعيان العصر ، ٤٩٢/٣ ، الواقي ، ٥٩/٢٢ - ٦٠ .

(٢) ابن نباته ، الديوان ، ص ٤٠٤ - ٤٠٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٢٤ .

(٤) انظر ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٣٩، ٣٨، ٣٧، ٢٩ ، ابن الوردي ، الديوان ، ص ٤٢٩ ، ابن الظهير الإرزلي ، الديوان ، ص

٦١ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٢٩٠/٣ ، الكشي ، عيون التواريخ ، ١٦٥/٢١ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ١١٠/٧ - ١١١ .

بذكراهم على مرّ السنين، وبيان أحقيتهم في الرثاء والبكاء، ومن ذلك ما جاء في قول مجد الدين بن الظهير الإبلي في رثاء محيي الدين النووي<sup>(١)</sup> :

كساك رُبُكْ أوصافاً مُجمَّلةً      يضيقُ عن حَصْرِها التَّفصِيلُ والجَمَلُ  
أسلى كمالكٍ عن قومٍ مَضَوْا بدلاً      وعن كمالكٍ لا مُسئِلٍ ولا بَدَلُ

والصفات التي تحدّث عنها الشعراء منها ما هو تقليدي ، وهي تشكل الجزء الأكبر من مراثيهم مثل صفات العلم ، والحلم ، والجود ، والتقوى ، والعفة ، والحياء ، والعقل ، والشجاعة وحسن التدبير وغيرها ، ومنها ما هو مستمد من حياة المرثيين وواقعهم ، واعتمد الشعراء في عرضهم لها على الإجمال والتفصيل .

ومن الصفات التي تحدّثوا عنها ما تحلّى به مرثيوهم من تواضع ، وحياء وأخلاق حميدة تشبه النسيم في رقنّها ولطفها ، ويتجلّى ذلك في قول شهاب الدين محمود في رثاء نجم الدين بن صصّري<sup>(٢)</sup>

وخلائق كالروض دبّجه الحيا      أصلاً فوشى حليّته ووشّعا  
وتواضع أمسى سناه كنعتيه      يدنو وقد سكن السماء ترفعا

وقول جمال الدين الغساني إذ رثى مبارك بن حامد المنعوت بالتقي الحداد، وصوره كالفاتة حياءً وخجلاً<sup>(٣)</sup> :

وقد كان أحيا من فتاة حبيبة      وافتك في الهيجاء من كل فاتك

وأسبغ الشعراء سمة الحلم على المرثيين ، وجعلوها جزءاً لا يتجزأ من أخلاقهم كونهم يتعاملون مع فئات مختلفة من الناس سواء أكان ذلك أثناء نشرهم العلم ، أم توليهم منصباً من مناصب الدولة، وبرزت هذه الصفة في شعر غير شاعر ، ومنهم شهاب الدين بن فضل الله العمري، إذ رثى ابن تيمية، وصوره جبلاً شامخاً في حلمه ، فقال<sup>(٤)</sup> :

(١) ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٤٥ .

(٢) الصفدي ، أعيان العصر ، ٣٣٢/١ .

(٣) البونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ١٤٩/٣ ، ولزبد من الأمثلة انظر الصفدي ، أعيان العصر ، ٥١٩/١ ، ٢٥٦/٥ ، الوافي ، ٢١٨/٩ ، ابن نباتة ، الديوان ، ص ٢٢١ .

(٤) المقرئزي ، المقفى ، ٤٧٦/١ ، الكرعي ، الكواكب الدرية ، ص ١٨٤ وانظر ص ٢٠٧ .

طُودٌ مِنَ الْحِلْمِ لَا تَرْقَى لَهُ قِنَنٌ      كَأَنَّمَا الطُّودُ مِنْ أَحْجَارِهِ حَجَرٌ

ورثى صلاح الدين الصفدي الإمام تقي الدين السبكي ، فأثنى على حلمه ،  
وتحدث عن مظاهره المختلفة مثل : سعة الصدر ، والتغاضي عمّن أساء إليه ، ويتجلى  
ذلك في قوله (١) :

تَزِيدَ الْحِلْمُ مِنْ زَاكِي سَجِيَّتِهِ      فَلَمْ يَكُنْ مِنْ عَدَائِهِ قَطُّ يَنْتَقِمُ

وقوله (٢) :

كَمْ قَدْ تَعَمَّدَ حِلْمُهُ مِنْ مُذْرِبٍ      وَعَدَّ الْوَلِي مَا أَحْتَاجُ أَنْ يَتَّقِضِي  
عَنَّهُ تَغَافَلَ تَارَةً وَتَغَاضِي

وأشاد الشعراء بعفة المرثيين وتعففهم ، وبرزت هذه الصفات بصورة جليلة حين  
تحدث الشعراء عن زهد أولئك في الحياة الدنيا وإعراضهم عن متعها الزائلة ، ومن ذلك  
قول برهان الدين القيراطي في رثاء تاج الدين السبكي (٣) .

مُطَهَّرُ الْبَابِ مَعْلُومٌ تَعَفُّفُهُ      وَالْقَوْلُ فِي مِثْلِ هَذَا غَيْرُ مُنْتَقَدٍ

وقول شهاب الدين محمود في رثاء شرف الدين بن فضل الله العمري (٤) :

وَعَفٌّ عَنِ الْأَغْرَاضِ مُغْضٍ عَنِ الْقَذَى      صَبُورٌ عَلَيْهِ فِي الْوَرَى يَحْمَلُ الْكَلَا

وأثنى الشعراء على شجاعة العلماء والأدباء ، وصوّروا إقدامهم في القتال ،  
ومرابطتهم في ثغور المسلمين ، ومقاومتهم لقوى الظلم والبغي ، وعبر عن ذلك سراج  
الدين الوراق إذ قال في رثاء الشاعر ناصر الدين بن النقيب (٥) :

عَزَّ الْقَبَائِلُ لَا تَخْصُصُ قَبِيلَتَهُ      بِمَذْرِهِ جَمَعَ الْإِقْدَامَ وَالْوَرَعَا

(١) السبكي ، طبقات الشافعية ، ٤٠٢/٥ ، الصفدي ، أعيان العصر ، ٤٥١/٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ٤٠٤/٥ ، وانظر اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٧٨/٣ .

(٣) القيراطي ، الديوان ، ص ٣٢ .

(٤) الصفدي ، الوراق ، ٣١٩/١٩ ، أعيان العصر ، ١٩٤/٣ ، الكتي ، فوات الوفيات ، ٢٢٣/٢ .

(٥) المصدر نفسه ، ٥٣/١٢ .

مُرَابِطٌ فِي ثَغُورِ الْمُسْلِمِينَ فَلَمْ يَهْجِعْ وَلَا سِيفُهُ فِي اللَّهِ مَا هَجَعَا

ونالت شخصية تقي الدين بن تيمية وشجاعته عناية الشعراء ، فصَوِّروا مواقفه البطولية، وهي مواقف مستمدة من حياته، كان له فيها أباد بيضاء ، فقد ذكر أنه كان "من أشجع الناس وأقواهم قلباً" يجاهد في سبيل الله بقلبه ويده ، ولا يخاف لومة لائم ، وأخبر غير واحد أن الشيخ كان إذا حضر عسكر المسلمين في جهاد يكون بينهم وأقيمتهم ، وقطب ثباتهم ، إن رأى من بعضهم هلعاً أو جبناً شجَّعه وثبَّته ، ووعد بالانصر والظفر والغنيمة<sup>(١)</sup> .

ومن مواقفه البطولية التي ترددت في مرآثيه دوره في مواجهة المغول سننتي ٦٩٩هـ، و٧٠٢هـ، وجهاده أهل جبال كسروان سنة ٧٠٤هـ .

يذكر أنه حين هاجم المغول الشام سنة ٦٩٩ هـ، وصمدت قلعة دمشق، كان ابن تيمية "يدور كل ليلة على الأسوار يحرّض على الصبر والقتال، ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط<sup>(٢)</sup>"، وأرسل إلى نائبها يقول له : "لو لم يبقَ فيها إلا حجر واحد فلا تسلّمهم ذلك إن استعطت ، وكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام"<sup>(٣)</sup> .

وبعد أن سقطت دمشق في تلك السنة، وقتل المغول كثيراً من المسلمين، خرج الشيخ بصحبة أعيان دمشق وقضاتها ، وقرائها ، وفقهائها إلى قاندهم "غازان" فطلبوا منه الأمان لأهل دمشق ، وكلّمه الشيخ بغلظة ، وعنّفه على فعله بالمسلمين ، ودعا عليه<sup>(٤)</sup> .

وسعى ابن تيمية كذلك إلى إنقاذ عدد كبير من أسرى المسلمين ، فخرج إلى مخيم بولاي أحد مقدمي التتار، وتحدّث معه بخصوصهم، وكانوا خلقاً كثيراً، ولا زال بُولاي يسأل والشيخ يجيب حتى أسكن غضبه عن أهل الشّام، فأطلق كثيراً من أسرى المسلمين<sup>(٥)</sup> .

(١) الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ٩٢-٩١ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٢/١٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ٩/١٤ .

(٤) انظر البراز ، الأعلام العلية ، ص ٦٤-٦٥ ، الدواداري ، كتر الدرر ، ١٩/٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٨/١٤ ، ابن رجب ، الذيل

على طبقات الحنابلة ، ٣٩٥/٤ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ٦٤/١ المقرئ ، المفضي ، ٤٥٧/١-٤٥٨-٤٧٣ ، المعني ، عقد الجمان ،

٣٠/٤ ، الكرمي ، الكواكب الدرية ، ٩٢ .

(٥) انظر مجموع فتاوي ابن تيمية ، ٦١٨/٢٨ ، الدواداري ، كتر الدرر ، ٣٦/٩ ، الكنتي ، عيون التواريخ ، ٨/١٩ ابن رجب ، الذيل على طبقات

الحنابلة ، ٢٩٥/٤ ، النويري ، الإلام ، ٢٣٦/٥ ، المعني ، عقد الجمان ، ٥/٢ .

وكان للشيخ دور كبير في معركة مرج الصفر سنة ٧٠٢هـ — ، فحين هاجم المغول الشام في تلك السنة ، ركب الشيخ البريد إلى مهنا بن عيسى ملك العرب ، واستحضره إلى الجهاد ، ثم ذهب إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في مصر ، وحثه على القتال ، ولما وصل الملك قريباً من موقع المعركة ، خرج ابن تيمية للقائه ، وصار يثبته " فلما رأى السلطان كثرة التتر قال: يا خالد بن الوليد، قال: قل يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين ، وقال للسلطان، اثبت فأنت منصور، فقال له بعض الأمراء: قل إن شاء الله، فقال: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً، فكان كما قال (١) ."

وحرّض ابن تيمية على جهاد أهل جبال كسروان سنة ٧٠٤ هـ، وكان هؤلاء من الرافضة الذين يعتقد الشيخ فساد عقيدتهم، فكتب إلى أطراف الشام في الحث على قتالهم، وأنها غزاة في سبيل الله، ثم توجه بمن معه لغزوم صحبته ولي الأمر نائب المملكة، وما زال ولي الأمر في حصارهم، حتى فتح الله الجبل، وأجلا أهله (٢) ."

وقد صور الشعراء موافقه تلك جميعها ، وأنشوا على شجاعته فيها ، وجهاده بنفسه ، وصموده في ساحة المعركة مدافعاً عن الإسلام والمسلمين، وممن صوروها الإمام زين الدين عمر بن الحسام الشبلي ، فقال متسلسلاً في عرضها (٣) .

وله إذا اصطدم القتال شجاعة	قامت بنصر الذين في الهياج
سل عنه غازاناً وسل أمراءه	لما أتوا بطلائع الإسراء
والمغل قد ملكوا البلاد وأهلها	كم فك من عان بغير عناء
وكذا بشقحب (٤) والتتار أقبلوا	كالطم في أمم بغير مراء
من حرّض السلطان والأمراء على	ترك النزول عند كل مساء
قال : اثبتوا فلكم دليل النصر قد	وافى فكان النصر عند لقاء
وأتى جبال الكسروان فأذنت	بدمارها من بعد طول بقاء

(١) ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، ٢/٢٧٨ ، العيني ، عقد الجمان ، ٤/٢٤٣ .

(٢) الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ٩٧ ، وانظر المقرئ ، المقفى ، ١/٤٧٤-٤٧٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٠١ .

(٤) اسم آخر يطلق على معركة مرج الصفر .

وركز الشعراء على تصوير شجاعة الشيخ حين سرح الكثيرين من أسرى المسلمين وواجه القائد المغولي غازان، وأغلظ له في القول، وعنفه على ما فعله بالمسلمين، وعدّوا ذلك من مآثره العظيمة التي يعجز عنها صناديد الرجال<sup>(١)</sup>. ومن ذلك ما جاء في القصيدة التي نظمها شهاب الدين بن فضل الله العمري، إذ قال متحدثاً عن بطولاته السابقة<sup>(٢)</sup>:

رَمَى إِلَى نَحْرِ غَازَانَ مَوجِهَةً	سِهامُهُ مِنْ دَعاءِ عَوْنِهِ الْقَدْرُ
بَتَلْ رَاهِطاً <sup>(٣)</sup> وَالْأَعْداءُ قَدْ غَابُوا	عَلَى الشَّامِ وَطَارَ الشَّرُّ وَالشَّرْرُ
وَشَقَّ فِي الْمَرْجِ وَالْأَسِيفُ مُسَلِّطَةٌ	طَوائِفَ كَلِّها أَوْ بَعْضُها التَّاتِرُ
وَبَعْدَها كَسروانٌ وَالجِبَالُ وَقَدْ	أقامَ أَطوادِها وَالطُّودُ مُنْفَطِرُ
وَاسْتَحْصَدَ القَوْمَ بِالْأَسِيفِ جُهدَهُم	وَطالِما بَطَلُوا طَغَوْى وَمَا بَطَرُوا

وانتسب عدد من العلماء إلى قبائل عربية تضرب في عمق التاريخ العربي، ولما رثاهم الشعراء، أشادوا بنسبهم، ومن هؤلاء العلماء عماد الدين القيسراني، وشهاب الدين القيسراني، فقد كانا من بني مخزوم رهط خالد بن الوليد رضي الله عنه<sup>(٤)</sup>، وأشار صلاح الدين الصفدي إلى ذلك حين رثاهم، وأثنى على أصولهم وقربهم من خالد بن الوليد، فقال في رثاء عماد الدين<sup>(٥)</sup>:

مِنْ كَرامِ راقَتِ مَعانِي عَلائِهِمْ	وَتَغَنَّى بِمَدْحِهِمْ كُلُّ شادِ
نَسَبٌ باهِرُ السَّنا خالِدِي	قَدْ تَساوتَ غاياتُهُ وَالْمِبادِي

وأشاد الصفدي بتلك القبيلة، وبين مكانتها في قريش، فقال في رثاء شهاب الدين<sup>(٦)</sup>:

مِنْ سَراةِ إِنْ سارَ عَنْهُمُ ثَناؤُ	مادَ مِنْهُ غِصنٌ وَمَاجِ كَثِيبُ
إِنْ مَخزومٌ فِي قَريشٍ لَريحا	نَ شَذاهُ يَومَ الفَخارِ يَطِيبُ

<sup>(١)</sup> انظر الصفدي، أعيان العصر، ٢٥٢/١، الكرمي، الكواكب الدرية، ص ٢٠٩، ٢١٠.

<sup>(٢)</sup> المقرئ، الملقى، ٤٧٧/١، الكرمي، الكواكب الدرية، ص ١٨٥.

<sup>(٣)</sup> مكان قريب من دمشق اجتمع فيه ابن تيمية بغازان.

<sup>(٤)</sup> الصفدي، الوافي، ٢١٧/٩.

<sup>(٥)</sup> المصدر نفسه، ٢١٨/٢، أعيان العصر، ٥١٩/١.

<sup>(٦)</sup> الصفدي، أعيان العصر، ٥٥٥/٥.





صَحِيحُ الزَّهْدِ غَادِرُهُ تَقَاهُ      وَخَوْفُ اللَّهِ كَالنُّضْوِ السَّاقِيمِ  
فَكَمِ قَدِ بَاتَ وَهُوَ مِنَ الْخَطَايَا      سَلِيمِ النَّفْسِ فِي لَيْلِ السَّلِيمِ

ومن مظاهر التقوى التي صورها الشعراء تجنّب الغيبة والنميمة، وسلامة النفس من الضغائن والأحقاد، ويتجلى ذلك في قول شهاب الدين محمود في رثاء جلال الدين بن الفلانسى<sup>(١)</sup>:

حَرٌّ تَقِيٌّ طَاهِرٌ وَرَعٌّ      قَدْ آمَنَ النَّاسُ مِنْ فِيهِ وَمَنْ يَدِهِ  
مُغْضٍ عَنِ النَّاسِ لَا يَعْنِيهِ عَيْبُهُمْ      مُغْرَى بِمَنْزَلِهِ فِيهِمْ وَمَسْجِدِهِ

ورثى صلاح الدين الصفدي، القاضي جمال الدين بن ريان، فأشاد بورعه، وتحدث عن مظاهر تقواه، ومنها المداومة على الصلاة في المساجد، وتلاوة القرآن وتدبّر معانيه، وصيام النوافل، فقال<sup>(٢)</sup>:

كَمْ قَدْ خَتَمْتَ كِتَابَ اللَّهِ مُعْظَمًا      وَفِي تَدْبِيرِهِ كَمْ رُخْتِ وَأَهَانَا  
وَكَمْ حَثَّتْ الْخُطَا نَحْوَ الصَّلَاةِ لِأَجْلِ      لَلْصَفِّ الْأَوَّلِ فِي الْأَسْحَارِ عَجَلَانَا  
تَوَاطَبُ الصَّوْمِ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ وَفِي الْـ      اِثْنَيْنِ حَتَّى لَقَدْ أَمْسَيْتِ خَمَّانَا

صوّر الشعراء المكانة الرفيعة التي حظي بها العلماء والأدباء في مجتمعاتهم، وتحدثوا عن مظاهرها المختلفة، ومنها جودهم، وبذلهم، وعطاؤهم، وهي صفة ركزوا عليها، وعبروا عنها بمعانٍ مختلفة، وبرزت بصورة جليّة في مرثي ابن تيمية، فقد صوّر الشعراء جواداً يضاهاى سابقيه من أهل الكرم، أمثال حاتم الطائي والبرامكة، ويتفوق عليهم، وجعلوه مأوى للفقراء والمحتاجين، الذين كانوا يتوافدون عليه، فيعطف عليهم، ويدنيهم ويمد لهم يد العون والمساعدة، ويؤثرهم على نفسه<sup>(٣)</sup>، ويتجلى ذلك في قول الشيخ عبد الله الرومي في رثائه<sup>(٤)</sup>:

(١) الصفدي، أعيان العصر، ١٨٩/٥.

(٢) الصفدي، أعيان العصر، ٤٢٩/٢.

(٣) انظر الكرمي، الكواكب الدرية، ص ٢٠٠-٢٠١.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٣٠.

في جوده ما وجدنا من يُشاكلُهُ غيرَ البرامكِ كانوا في سعاداتِ

وقول تقيّ الدين الدقوقي<sup>(١)</sup> :

قد كان يؤثّرُ من أتاهُ بقوتهِ ويظلُّ طولَ نهاره لا يطعمُ

وصورهم الشعراء دائمي البشر في وجوه قاصديهم، قد ملكوهم بإحسانهم، لما يفيضون عليهم من ذهب وفضة وعطاء عميم، كما صوروهم كعبة يطوف حولها السائلون، ويتجلى ذلك في قول شهاب الدين محمود في رثاء شمس الدين بن قدامة الجماعيلي<sup>(٢)</sup> :

وذنو الحوائج ما أتوه لحادثٍ إلا ونالوا عنده ما راموا  
يَلْقَاهُم بِشَرٍّ يَبْشُرُهُمْ بِمَا قصدوا من الحاجات وهي جِسَامُ

وقوله في رثاء مجد الدين بن العديم<sup>(٣)</sup> :

وكان لوفدِ الجودِ مَغْنَاهُ كعبَةٌ يطوفون فيها من يمينه بالركنِ

وقول برهان الدين القيراطي في رثاء تاج الدين السبكي<sup>(٤)</sup> :

قد استعبدَ الأحرارَ إحسانُ رَفْدِهِ وحَرَ تَدْبِيحِ الثَّنَاءِ لَهُ فِكْرِي  
فإن تَبَكَّه بِالْبَيْضِ وَالْحُمْرِ أَعْيُنٌ فَقَدْ كَانَ يَغْنِي الْوَفْدَ بِالْبَيْضِ وَالْحُمْرِ  
إذا جَادَ لَا يَدْرِي الْحِسَابَ وَنَفْسَهُ يحاسبها خوف المعادِ على الذرِّ

<sup>(١)</sup> انظر الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ٢١٨ .

<sup>(٢)</sup> الصفدي ، الواقي ، ٢٤٣/١٨ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ١٨٨/٤ ، الكنتي ، عيون التواريخ ٢١/٢٣٢ ، ابن رجب ، الذيل على طبقات الحنابلة ، ٣١٠/٤ .

<sup>(٣)</sup> اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٣١٩/٣ .

<sup>(٤)</sup> القيراطي ، الديوان ، ص ٧٦ ، ولزيد من الأمثلة انظر اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٧٧/٣ ، ٤٣٨-٤٣٩ ، الصفدي ، أعيان العصر ،

١٩٥/٣-١٩٦ ، ٥٧٣/٥ ، الواقي ، ٣٢١/١٩ ، السبكي ، طبقات الشافعية ، ٤٠٤/٥ ، الكنتي ، عيون التواريخ ، ٢١/٥٠ ، ابن الجزري ،

تاريخ ابن الجزري ، ٢٣٤/٢ ، ابن نباتة ، الديوان ، ص ٤٤-٤٥ ، ٢٢٣ ، ٤٠٤-٤٠٥ ، ٤٠٧-٤٠٨ .

وتوافد الناس على العلماء ليستتيروا برأيهم، وحسن تدبيرهم ، والاستعانة بهم في حل مشكلاتهم، وعبر عن ذلك عز الدين الضرير الإربلي إذ قال في رثاء شمس الدين الخسر وشاهي الطبيب<sup>(١)</sup> :

وَكُنَّا لِحَلِّ الْمَشْكَلاتِ نَعُدُّهُ إِذَا أَعْيَبَ الْحَذَاقَ مِنَّا الْمَسْائِلُ

وصورهم الشعراء يدافعون عن حقوق العباد ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وينصرون المظلومين ، فيقفون في وجوه ظالمهم بقوة وحزم ساعين إلى استرداد حقوقهم، وبرزت المعاني بصورة جلية في هذا اللون من الرثاء ، وخاصة في مراثي الإمام محيي الدين النووي، والشيخ تقي الدين بن تيمية<sup>(٢)</sup> ، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في القصيدة التي نظمها نجم الدين بن صصري في رثاء النووي، فقد صوره فيها مواجهاً للملوك والأمرء، يكشف بلسانه ورسائله عن ظلمهم وجبروتهم ، وجورهم وفسادهم ، ويتجلى ذلك في قوله<sup>(٣)</sup> :

تَعَزَّوْا جَمِيعَ النَّاسِ فِيهِ فَكُلُّكُمْ	مِصَابٌ بِهِ مِنْ عَالَمِينَ وَجَاهِلٍ
فَكَمْ قَامَ فِيمَا نَابَكُمْ مِنْ مَلَمَّةٍ	وَشَغَلٌ بِمَا فِيهِ مِنَ الْحَزَنِ شَاغِلٍ
عَلَى قاصدِكُمْ بِالنَّوَابِ مُنْكَرًا	بَلْفِظٍ وَجِيزٍ لِلْمَوَاعِظِ شَامِلٍ
وَكَمْ مِنْ مَقَامٍ قَامَ فِيهِ بِنِصْرَةِ الْـ	أَنَامَ مَقَامَ الذَّابِلَاتِ الْعَوَامِلِ
وَكَمْ لِذَوِي الْجَاهَاتِ وَاجِهٍ مُعْلَنًا	بِإِنْكَارِهِ عِنْدَ الضُّحَى وَالْأَصَائِلِ
وَكَمْ بِالْهُدَى وَالْحَقِّ شَافِهٍ مُنْكَرًا	لَمَنْ لَمْ يَكُنْ يَصْغِي لِأَقْوَالِ قَائِلِ
فَإِنْ هُوَ عَنْ رُؤْيَاهِ أَصْبَحَ عَاجِزًا	يَبْلُغُهُ إِنْكَارُهُ فِي الرَّسَائِلِ

ومن مظاهر مكانة العلماء الإجتماعية ، إجلال الناس لهم ، ومشاركتهم في جنازتهم، وتزاحمهم حول نعوشهم ، وحزنهم عليهم ، وقد وصف الشعراء جنازة ابن

<sup>(١)</sup> ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ، ص ٦٠١ .

<sup>(٢)</sup> انظر ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٢٩-٣٠، ٤٠، الصفدي، أعيان العصر، ٢٥١/١-٢٥٢ ابن الظهير الإربلي، الديوان ، ص

٦٢-٦٣، اليونيني، ذيل مرآة الزمان ، ٢٩٠/٣ ، الكشي، عيون التواريخ ، ١٦٦/٢١، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ١١/٧ .

<sup>(٣)</sup> ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٣٤ .

تيمية ، وما أحاط بها من مظاهر التبجيل والاحترام ، ذكر أنه "لم يُسمع في جنازة بمثل هذا الجمع إلا جنازة الإمام أحمد بن حنبل" (١) ، وقال اليزاز وهو من معاصري الشيخ "ولمّا خرجت جنازته فما هي إلا أن رآها الناس، فأكبّوا عليها من كلّ جانب، كلّ منهم يقصد التبرك بها، وحصل البكاء والضجيج والتّضرّع، واشتد الزحام حتى خشي على النعش أن يتحطّم قبل وصوله ، فأحرق بها الأمراء، والأجناد، واجتمع الأتراك ، فمنعوا الناس من الزحام عليها خشية سقوطها ، وجعلوا يردّونهم عن الجنازة بكلّ ما يمكنهم، وهم لا يزدادون إلا زحاماً وكثرة ، حتى أدخلت جامع بني أمية المحروس ظناً منهم أنه يسعُ الناس ، فبقي كثير من الناس خارج الجامع" (٢) .

وممن صوّروا جنازة ابن تيمية الشيخ أبو العباس أحمد بن الحسن البغدادي الدمشقي ، فقد بيّن أن ذلك اليوم كان يوماً حزيناً، اجتمع فيه الرجال والنساء والحكام، وكان هؤلاء يتدافعون نحو النعش ، ويذرفون الدموع الغزار ، ودويّ أصواتهم يملأ الفضاء ، قال (٣) :

ونساءً سعياً على الأقدام	حقّة الناس أجمعون رجالاتاً
ق رؤوس الأعيان والحكام	ومشوا تحت نعشه وهو من فو
ه وحنناً كمسيلات الغمام	يسبلون الدموع من خشية اللـ
كدويّ في شاهق الجوّ سام	وضجيج العباد سرّاً وجهرّاً

ووصف الشيخ عبد الله بن خضر الرومي حشود الرجال المشاركين في الجنازة، وصرّح بعددهم، وألقى الضوء على جموع النساء اللواتي خرجن تيّبات وأبكاراً يُعولن وينتحنن، فقال مخاطباً ابن تيمية (٤) :

مئین أوفاً في بكاء وضجّة	حُملت على النعش الذي كان تحته
بحسن اعتقاد فيك يا شيخ قُدوة	وصلّى عليك المسلمون جميعهم

(١) اليزاز ، الأعلام العلية ، ص ٧٤ ، الكرّمی ، الكواكب الدرية ، ص ١٧٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٤ ، انظر ما قبل عن جنازة ابن تيمية في: ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤/١٤٨ وما بعدها، الصفدي، الوافي ، ١٨/٧ ،

الكرّمی ، الكواكب الدرية ، ص ١٧٧ .

(٣) الكرّمی ، الكواكب الدرية ، ص ١٧٧ .

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٢٧ .

وأما النساء المؤمنات فإنهن  
ومعهن أباكراً تحجبن بالتقى

خرجن حيارى فوجةً بعد فوجةٍ  
يُخزن بأكبادٍ عليك حزينه

وصورها الشيخ شهاب الدين أنوشروان التبريزي حفلة مثل حفلة العروس ، لا  
نظير لها في أعدادها التي تدفقت كالبحار الزاخرة ، تصدح بالتهليل والتكبير ، فقال<sup>(١)</sup> :

غار الإله عليه من أغياره  
فخلابه يتلو عليه كلامه  
حتى إذا اشتدت التشوق زفه  
ولقد سرى فوق الرقاب سريره  
ما كنت أعلم قبل يوم وفاته  
فزواه عنهم والمحب غيور  
وله الحبيب مؤانسٍ وسامير  
زف العروس وذيلها مجرور  
فعببت كيف الراسيات تسير  
أن البحار الزاخرات تغور

وتحدث الشعراء كثيراً عن المكانة العلمية والأدبية التي حظي بها  
مرثيوهم، وكشفوا عن دورهم في إثراء الحركة العلمية والفكرية وتنشيطها ، وتوّعت  
المعاني التي قدّموها ، وجلّها تدور حول شخصية المرثيين العلمية ، وغزارة علمهم ،  
واشغالهم به ، وشهرتهم في هذا المجال ، وصيتهم الذائع ، الأمر الذي جعل الناس عامة  
وطلاب العلم خاصة يقصدونهم ويتوافدون من بقاع الدنيا عليهم ، لينهلوا من علمهم ،  
ويظفروا بكنوزهم .

وأكثر الشعراء من تصويرهم بالبحار الزاخرة علماً ومعرفة ، وتتجلى المعاني  
السابقة في شعر غير شاعر منهم ، ومن ذلك قول زين الدين عمر بن الحسام الشبلي في  
رثاء ابن تيمية<sup>(٢)</sup> :

بحر العلوم حوى الفضائل كلّها  
متفرد في كل علم دونه  
وسما سموّ كواكب الجوزاء  
لعلو رتبته ذرى العلياء

وقول برهان الدين القيراطي في رثاء تاج الدين السبكي<sup>(٣)</sup> :

(١) الكرّمى، الكواكب الدرية، ص ٢٠٥-٢٠٦، ولزيد من الأمثلة انظر الصفدي، الواقي ٣٢/٧، أعيان العصر، ٢٤٩/١ .

(٢) الكرّمى، الكواكب الدرية، ص ٩٩ .

(٣) القيراطي، الديوان، ص ٣٢ .

في الشرق والغرب قد سارت فرائده  
تأتي الفتاوى إلى ناديه قاصدة  
قال الوفود وقد حلوا بساحته

مثل الكواكب تهدي من بهن هدى  
من كل فج بعيد القطر أو بلد  
لولاك يا عالم الأفاق لم نؤد

وبين الشعراء أن مرثيهم ربطوا العلم بالعمل ، فسعوا إلى نشره ، وتبليغه للناس ،  
ولذا كانوا يعقدون حلقات العلم ومجالسه ، فيتعلق حولهم الناس يسألونهم ، ويستمعون  
لقولهم ، وبرز ذلك بصورة جلية في مرثي محيي الدين النووي<sup>(١)</sup> ، ومن ذلك قول أبي  
محمد بن إسماعيل البسطي في رثائه<sup>(٢)</sup> :

وكنّا كعقود وهو واسطة الضياء  
وكان كبدن نحن هالة أفضه

وقول أحد الشعراء في رثائه<sup>(٣)</sup> :

وكم غامض أوضحت للناس غمضه  
وكم شنف الأسماع دراً ولؤلؤاً  
بلفظ يفوق الماء منه عذوبة  
ومفتقراً للعلم أغنيت فقره

وإن كان قد أعيأ الإمام المحققا  
إذا ما شجى في مجلس منه منطقا  
بل اللؤلؤ الرطب الأنيق المنمقا  
فأضحى غنياً بعد أن كان مملقا

وصورهم الشعراء موسوعة حوت المعارف الجمّة والمتنوعة ، وعدّوا العلوم  
التي تميزوا فيها ، وقرنوا بينهم وبين سابقهم ممن اشتهروا في المجالات العلمية التي  
تحدثوا عنها ، وجعلوهم يتفوقون عليهم ، ويتجلى ذلك في القصيدة التي نظمها برهان الدين  
القيراطي في رثاء بهاء الدين السبكي ، فقد صوره فيها بارعاً في العلوم الدينية  
والعقلية ، وعلوم المعاني ، والبديع والبيان ، وجعله يجاري سيبوية في علم النحو ، والخليل بن  
أحمد في العروض ، ويتقدم على النضر بن شميل في اللغة ، فقال<sup>(٤)</sup> :

(١) انظر ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٣٢ ، ٢٩ ، ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ١٩٧/١ ، ابن الظهير الإبلي ، الديوان ، ص

٦١-٦٢ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٢٨٩-٢٩٠ ، الكنتي ، عيون التواريخ ، ١٦٥/٢١ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ٧/١١٠-١١١ .

(٢) ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٤١ .

(٣) ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٣٦ .

(٤) القيراطي ، الديوان ، ص ٣٦ .

تَرَدُّ ذَوِي الإِلْحَادِ وَالزَّيْبِغِ وَالْفِكْرِ  
 أَتَى تَحْتَهُ الْمَشْهُورُ كَالسَّيْفِ إِذْ يَفْرِي  
 يَفُوقُ عَلَى الأشْكَالِ فِي صِحَّةِ الْفِكْرِ  
 وَتَقَوَاهُ يَرْوِي النَّسْكَ وَالذِّينَ عَنْ بَشْرِ  
 عَرُوساً تَحْلَى بِالْبَدِيعِ مِنَ السَّدرِ  
 يَقَارِبُهُ وَانظُرْهُ يَسْمُو عَلَى النَّضْرِ  
 فَرِيداً لَهُ التَّقْدِيمُ دُونَ بَنِي الذَّهْرِ

أَتَى فِي أَصُولِ الدِّينِ بِالْحُجَجِ النَّسِي  
 غَدَا فِي أَصُولِ الْفِقْهِ كَالسَّيْفِ عِنْدَمَا  
 إِذَا حَرَّرَ الإِشْكَالَ فِي عِلْمٍ مَنطِقِ  
 رَوَى عَنْ أَبِي بَشْرِ غَزَارَةَ نَحْوِهِ  
 وَعِلْمُ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ جَلَاتِهِ  
 وَفِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَا ابْنٌ قَرِينُهَا  
 وَقَدْ كَانَ فِي عِلْمِ ابْنِ أَحْمَدَ أَحْمَدَ

واهتم بعض العلماء بعلم بعينه ، فعكفوا على دراسته ، والاشتغال به ، وسير  
 أغواره ، وتنبيه الشعراء لذلك حين رثوهم ، فأشادوا باهتمامهم بذلك العلم ، ومن هؤلاء  
 العلماء شهاب الدين أبو جعفر الأندلسي المتوفى سنة ٧٧٩ هـ ، فقد ذكر أنه كان ذا  
 عناية بالحديث النبوي ، فكتب "نسخة من البخاري في ثلاثين مجلداً ، وكذا نسخة من  
 صحيح مسلم<sup>(١)</sup>" وحين رثاه شمس الدين الهواري الأندلسي صور اهتمامه بالأحاديث  
 النبوية ، وأشاد بوقوفه على ضبطها ، وتحدث عن عنايته بصحيح البخاري ، ومواظبته  
 على قراءته ، وتدبر معانيه ، وأشاد بصوته الجميل حين كان يرتله عند قبر الرسول صلى  
 الله عليه وسلم ، قال مخاطباً إياه<sup>(٢)</sup>:

فَوَلَّى مَشِيْبَ فِرِيْمَا وَشِيَابُ  
 تَكَادُ الْقُلُوبُ الْقَاسِيَاتُ تُذَابُ  
 غَدَا الْقَوْمُ مِنْ ثَغْرِ الْكُوُوسِ رِضَابُ  
 وَلَوْ عِلْمُوا عِظَمَ الْمَقَامِ لِهَابُوا  
 بِأَفْصَحِ نَطْقٍ لَمْ يَفْتَهُ صَوَابُ

عَطَفْتَ عَلَى كِتَابِ الْحَدِيثِ وَضَبَطَهُ  
 وَكُنْتَ إِذَا أَدَيْتَهُ قَارِئاً لَهُ  
 فَتَطْرَبُ أَهْلَ الْحَيِّ كَأَنَّمَا  
 فَمَا لِلْبُخَارِيِّ بَعْدَ مَوْتِكَ قَارِئُ  
 مَرَاراً أَمَامَ الْمُصْطَفَى قَدْ قَرَأْتَهُ

<sup>(١)</sup> ابن العمري ، كنوز الذهب ، ٤٧١/١ ، الطباخ ، أعلام النبلاء ، ٧٧/٥ .

<sup>(٢)</sup> ابن العمري ، كنوز الذهب ، ٤٧١/١ ، الطباخ ، أعلام النبلاء ، ٧٧/٥ .



وذكر الشعراء بعض المصنفات التي ألفها مرثيوهم ، وكشفوا عن شهرتها في زمانهم وتفردها في مجالها ، وأثرها في طلاب العلم خاصة ، والحركة الفكرية عامة<sup>(١)</sup>. وممن تحدث الشعراء عن مؤلفاتهم علم الدين البرزالي ، وهو صاحب تاريخ كبير في ثمانية مجلدات<sup>(٢)</sup>، وقد صور الشاعر شهاب الدين بن فضل الله العمري أهميته وتحدث عما فيه من معلومات قيّمة تعود إلى عهد بعيد ، ، فقال في رثاء مؤلفه<sup>(٣)</sup> :

وَعَرَفَ النَّاسَ فِي التَّارِيخِ مَا جَهِلُوا      وَبَعْضَ مَا جَهِلُوا أضعاف ما علموا  
يُريكَ تَارِيخُهُ مَهْمَا أَرَدْتَ بِهِ      كَأَنَّ تَارِيخَهُ الْآفَاقُ وَالْأُمَمُ  
مَا فَاتَهُ فِيهِ ذُو ذِكْرٍ أُخْلَبَ بِهِ      وَلَوْ يَرُومُ لِعَادَتٍ عَادَ أَوْ إرْمُ  
إِذَا نَشَرْتَ لَهُ جِزَاءً لَتَقْرَأَهُ      تَظَلُّ تَنْشُرُ أَقْوَامًا وَهَمَّ رِمَمُ

وألف جمال الدين الإسناي كتباً كثيرة، منها، "التمهيد"، و"الجواهر"، و"الإيضاح"، و"الألغاز"، و"الفروق"<sup>(٤)</sup>، ولما مات وورثاه برهان الدين القيراطي عدد تلك الكتب ، وكشف عن دورها في رقد الحركة الفكرية فقال<sup>(٥)</sup> :

لئن مهّد "التمهيد" مَضْجَعَهُ لـــــــ      فَكوكبُهُ من بعده غيرُ آفـــــــلِ  
وأبرزت مكنونَ "الجواهر" للـــــــورى      لأنك بَحْرٌ ما له من سواحـــــــلِ  
وأوضحتَ "بالإيضاح" في الخلقِ مُشْكَلاً      فليس له في حُسْنِهِ من مُشاكـــــــلِ  
وإن جمعتَ أهلَ العلومِ محاســـــــنَ      "فألغازك" العُلْيَا طرازُ المحافـــــــلِ  
"فروقك" يا من كان للعلمِ جامعـــــــاً      تُحَيِّرُ أَذْهَانَ الرِّجَالِ الْأَمَاءـــــــلِ  
تصانيفُ لا تخفي محاسنَها التـــــــي      هدايتها تهدي الورى بالدلائـــــــلِ  
وتبدو فتلهي عن رياضِ أُنَيْقـــــــةٍ      وتُنلّي فتغني عن سماعِ البلابـــــــلِ

(١) انظر ابن المطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٣٢ ، ٤٢ ، ٥٦ ، ابن حبيب ، تذكرة النبي ، ١٩٨/١ ، الصفدي ، الوافي ، ٢٨٢/٥ ، أعيان العصر ، ٣٢٩/٥ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ٤٣٩/١ ، بغية الوعاة ، ٢٨٤/١ ، ابن ياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ق ١/٥٠٢ .

(٢) انظر الصفدي ، أعيان العصر ، ٤٠/٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ٥٣/٤ .

(٤) انظر السيوطي ، حسن المحاضرة ، ٣٦١/١ .

(٥) القيراطي ، الديوان ، ص ٢١ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ٣٦٢/١ .

وصور الشعراء قدرة العلماء على الجدل والحوار والمناظرة ، والإتيان بالحجج والبراهين التي تدلّ على غزارة علمهم، وفصاحة لسانهم ، وقوة شخصيتهم، وقابلوا بينهم وبين مناظريهم الذين راحوا يدقون يداً بيد ندماً على تجرؤهم عليهم، ومن ذلك ما جاء في القصيدة التي نظمها الصفدي في رثاء تقي الدين السبكي (١) :

فكم كماً من النّظار قد مهّروا      في البَحْثِ جاءوا بما ظنّوا وما زعموا  
فكرَ فيهم بلا فُكرٍ وجدلهم      جداله ثمّ لمّا سلّموا سلّموا  
وقصّروا عن مبادئ غاية حصّلت      له وأين عقابُ الجوّ والرّخْمُ؟  
ولّوا فراراً وقد ألقوا سلاحهم      وهم أناسٌ على التّحقيق قد وهموا

وأكثر الرثاء من الحديث عن براعة ابن تيمية في هذا المجال ، فصوروا مناظرته للفرق الإسلامية المختلفة في زمانه<sup>(٢)</sup>، وللإهود والنصارى ، وبينوا ما كان يدور بينهما من حوار ، إذ كان الشيخ ينبري للدفاع عن الإسلام وأهله ، فيأتي بالحجة وراء الحجّة ، والدليل وراء الدليل ، حتى يفحم أبحارهم ، ويدحض ما يثرونه من شبهات ، ويتجلى ذلك في قول شهاب الدين بن فضل الله العمري في رثائه<sup>(٣)</sup> :

ألم يكن للنّصارى واليهود معاً      مجادلاً وهم في البَحْثِ قد حُصِرُوا

وقول تقي الدين الدقوقي في رثائه<sup>(٤)</sup> :

سَلْ عنه دِيان اليهود أمّا غداً      متلّغفاً بصغّاره المتّهودِّ

وتحدّث الشعراء عن مكانة مرثيهم الأدبية ، وأكثروا من ذلك ، فصوروا براعتهم في الكتابة، والقريض ، وكشفوا عن فصاحتهم ، وتمكنهم من العلوم البلاغية المختلفة، وأشاروا إلى طريقة بعضهم في نظم الشعر ، فبينوا أنهم كانوا امتداداً لمن قبلهم من فحول الشعراء ، وأشادوا بجودة ما ينظمون ويكتبون، وصوروا قوة تأثيره في نفوس

(١) الصفدي ، أعيان العصر ، ٤٥٠/٣ ، السبكي ، طبقات الشافعية ، ٤٠١/٥ - ٤٠٢ .

(٢) انظر القصيدة التي نظمها الشيخ عبد الله بن حضر الرومي في رثائه ، الكرّمى ، الكواكب الدرّية ، ٢٢١ .

(٣) انظر المقرئى ، المقفى ، ٤٧٨/١ ، الكرّمى ، الكواكب الدرّية ، ص ١٨٦ ، الشهادة الزكية ، ص ٦٧ .

(٤) الكرّمى ، الكواكب الدرّية ، ص ٢١٤ .

المتلقين عامتهم وخاصتهم، ولذا راحوا يكيلون عبارات الثناء والإطراء ، ويعتبرون عن الأدب المفضل عندهم، وهو الأدب المطبوع ، البعيد عن التعقيد ، والمحلى بأنواع الزينة، واستعملوا للتعبير عن معانيهم مصطلحات النقاد كقولهم "على كتبه طلاوة" ، وفي شعره "انسجام" ، و"يتجنب التعقيد" ، وشعره "كالماء عذوبة" وغير ذلك .

وتجدر الإشارة إلى أن كثيراً من الأدباء الذين رثاهم الشعراء ، كانوا قد تولوا كتابة السر في الدولة المملوكية الأولى، فكانت تلقى على كاهلهم الكثير من المهمات المتعلقة بشؤون الحكم، فقد كانوا يحفظون سرّ الملك ويردّون على الرسائل الواردة إليه من أعدائه وأصدقائه، ونوابه أو يبادرون بالكتابة عنه إلى أولئك جميعهم، ومن بين رسائلهم تلك التي تردّ على تهديدات العدو أو على طلبهم الصلح والمهادنة ، أو تدعوهم إلى فك أسرى المسلمين ، وغير ذلك .

وكان للكتاب دور في جعلها مؤثرة إذ استعملوا فيها أسلوب اللين تارة، والتهديد والوعيد تارة أخرى، فاستطاعوا أحياناً دفع العدو وردّ كيدهم، وإنقاذ أسرى المسلمين، ولمّا توفوا رثاهم الشعراء، فصوروا المهام التي أنيطت بهم، فقاموا عليها خير قيام، وبيّنوا ما صنّعه أقلامهم بقوة تأثيرها (١).

ومن أولئك الأدباء شهاب الدين بن فضل الله العمري ، فقد رثاه غير شاعر بعد موته ، ومنهم شهاب الدين محمود ، إذ قال معبراً عن المعاني السابقة (٢) :

فكم حاط بالرأي الممالك فأكتفتُ	به أن تعدّ الخيل للصّون والرّجلا
وكم جرّدتُ أيدي العدا نصّل كيدهم	فردّ إلى أعناقهم ذلك النّصلا
وكم جلّ خطب لا يحل انعقاده	فأعمل منه صائب الرّأي فأنحلا
وعهدي به لا أبعد الله عهده	وأقلامه أنى جرّت نشرّت عدلا
وتجري بما يجري الملوك من النّدى	بها فتزِيل الجذب والمخل والأزلا

ورثى صلاح الدين الصفدي جمال الدين بن إبراهيم بن محمود الحلبي، فصور ما أدّاه قلمه للإسلام والمسلمين، إذ استطاع أن يدفع العدو به، ويردهم عن ديار المسلمين

(١) انظر الصفدي ، أعيان العصر ، ٣٣٢/١ ، ١٩٥/٣ ، ٣٧٣/٥ ، ٣٧٥ ، ٥٥٦ ، الرائي ، ٣٢٠/٩ - ٣٢١ .

(٢) المصدر نفسه ، ١٩٣/٣ ، المصدر نفسه ، ٣١٩/١٩ - ٣٢٠ ، الكشي ، فوات الوفيات ، ٤٢٣/٢ .

فأغنى بذلك الجيش عن الحركة والقتال، كما أشاد بخطه وتحدث عن تأثير أدبه في نفوس السامعين، فقال معبراً عن ذلك<sup>(١)</sup>:

تولّى السرّ في حلب زماناً  
وأغنى الجيش عن حركات غزو  
ووفّرهم فما هزّوا رماحاً  
برأي كالحسام العضب ماض  
وخط لوراه الزهر غضّاً  
ونثر تكرع الأسماع فيه  
فما احتاجت جلاداً أو جدالا  
لمّا ركبوا السهولة والجبالا  
ورفّعهم فما سلّوا نصالا  
أفادته تجاربه صقالا  
لجود تحت أحرفه مثالا  
على ظمأ فترشّفه زلالا

ورثى سراج الدين الوراق صديقه ورفيق دربه الأديب أبا الحسين الجزّار، فركز على وصف شاعريته، وقدمه على عدد من فحول الشعراء العرب، أمثال جرير، والفرزدق، وزهير، وقرنه بفصحائهم مثل سحبان وائل، وقس بن ساعدة الإيادي، وأشار إلى طريقتة في النظم حين صوّر القوافي والزخارف البديعية تبكيه ، فقال<sup>(٢)</sup> :

ألا عزّ القوافي اليوم عمّن  
ولو رقّت بحور الشعر دمعاً  
ويا أسفّ البديع على بديع  
إذا التفت استطلّ على جرير  
فلا تنسى به سحبان يوماً  
ولو همّ رأه سلا زهيراً  
بكتّه البكر منها والعوان  
وكان على الخليل لها الضمان  
وكل فنونه منها افتنان  
وأخرس من فرزدقه اللسان  
ولا قسّاً إذا ذكر البيان  
وكان له عليه ثمّ شان

وأبرز الشعراء قدرة مرثيهم على قول الشعر، حين تحدّثوا عن الجوائز التي منحوها من عليّة القوم ، وهم لم يقصدوا بذلك أن يعيبوا عليهم التكبّ بالشعر، وإنما سعوا إلى بيان قوة تأثيره في النفوس ، الأمر الذي جعلها تطرب إليه ، وتجيزهم عليه،

(١) الصفدي، أعيان العصر ، ١٣١/١ .

(٢) اليونيني ، ذيل مرآة الرمان ، ٧٨/٤ ، الكتيبي ، عيون التواريخ ، ٢١٦/٢١-٢٦٧ .

وتجلت تلك المعاني في القصيدة التي نظمها الوراق في رثاء الجزار ، وقصيدته التي رثى بها الشاعر ناصر الدين ابن النقيب<sup>(١)</sup> ، ومن ذلك قوله في رثاء الجزار<sup>(٢)</sup> :

وكم عادت محافلنا عكاظاً      به وله بها ذاك الجنان  
فأدنته الملوكة فكان منها      بحيث السمع ينصت والعيان  
فأسنت من جوائزِه فآلولا      غناه غدا نداءه يُستعان

وقوله في رثاء ابن النقيب<sup>(٣)</sup> :

إذا أفاض على أملاكنا خلعاً      منه أفاضت عليه المال والخلعاً

أما عن الصفات الجسدية ، فإنها لم تحظ باهتمام الشعراء ، الذين اكتفوا بالحديث عن وجه المرثي وجماله وتشبيهه بالقمر أو البدر ، والأمثلة على ذلك قليلة ، ومنها قول أحد الشعراء في رثاء محيي الدين النووي<sup>(٤)</sup> :

أتراك يا قمرأ تحجب بالثرى      وجماله تحت التراب يلوح

وقول الصفدي في رثاء شهاب الدين القيسراني<sup>(٥)</sup> :

كان للناس والأنام جمالاً      فهو للبدر في التمام نسيب  
يملا العين شكلة وتسرى النـ      نفس أوصافه فما تستريب

## تصوير الحدث

تحدث الشعراء عن نعي العلماء والأدباء ، وصوروا شدة وطأته في نفوسهم خاصة والناس عامة ، فالشاعر صلاح الدين الصفدي صور الأذان وقد أصيبت بالصمم ، فقال في رثاء عماد الدين القيسراني<sup>(٦)</sup> :

(١) ذكر أن الجزار "عاش مرتزقاً بالمدح" وأن له أشعاراً "كثيرة في مدح الملوك والأمراء والوزراء والأعيان". اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٧٨/٤ .

(٢) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٧٨/٤ ، الكتيبي ، عيون التواريخ ، ٢٦٧/٢١ .

(٣) الصفدي ، الوافي ، ٥٣/١٢ .

(٤) ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٤٨ .

(٥) الصفدي ، أعيان العصر ، ٥٥٥/٥ .

(٦) المصدر نفسه ، ٥١٩/١ ، الوافي ، ٢١٨/٩ .

قد أصمَّ الأسماعَ نعيَ عمادِ الذِّ  
دينِ فالنَّاسُ بَعْدَهُ في جِهَادِ

ومثله قول برهان الدين القيراطي في رثاء بهاء الدين السبكي (١) :

أتى مِصْرَ من أهلِ الحِجَازِ نعيُّه  
أتى خَبْرٌ عن موتهِ قَالَتِ المنى  
فودَّ سَمِيعُ القومِ لو كان ذا وَقَرِ  
وقد سَمِعَتْه لِيَتَّه كاذبُ الخَبْرِ

وبين الشعراء ان رجل البريد كان يتولى مهمة النعي، الأمر الذي يدل على الميزة العظيمة التي حظي بها بعض علماء ذلك العصر وأدبائه ، وقد أشار إلى ذلك برهان الدين القيراطي إذ رثى تقي الدين السبكي ، وصور أثر موته على مصر والشام وسائر البلدان (٢) :

خَبْرٌ له بالشَّامِ أعظمُ مَوْقِعِ  
أعظمِ بيومِ مُصَابِهِ مِنْ مَصْرَعِ  
أدى البَريْدُ نعيُّه فيها فِرا  
في مِصْرَ لم يتركِ سوى حَزَانِ  
في مِصْرَ حَلَّ بسائرِ البِلْدَانِ  
فَضَّلَ الأصمَّ على ذوي الأذَانِ

وصور الشعراء موت العلماء والأدباء مصيبة عامة ، وحادثاً جليلاً ، وبالغوا في تعظيمه وتهويله ، وبينوا أن نمة كارثة كبرى قد وقعت ، وهذه أثارها تعم الأرض والكون والإنسان ، وتندّر بدمار شامل ، وتجلّت هذه المعاني بصورة جليّة في مرثي تقي الدين بن تيمية ، ومن ذلك قول شهاب الدين أنو شروان التبريزي (٣) :

صبراً جميلاً فالمصابُ كَبِيرُ  
وجسيمٌ خطبٌ قد علا كلُّ الوري  
كأدتْ جبالُ الأرضِ منه تَمُورُ  
فَقَدَّ الضَّيَاءُ وأظْلَمَ الدَّجُورُ

وصور الجندي المصري بدر الدين المغيبي ذلك التغيّر الذي طرأ على مظاهر الكون إيداناً بدنوّ الساعة ، فقال في رثائه (٤) :

(١) القيراطي ، الديوان ، ص ٢٦

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٩ ، السبكي ، طبقات الشافعية ، ٤٠٦/٥ ، ولزريد من الأمثلة انظر ديوان القيراطي ، ص ٣١، ٢٥ ، ابن الجزري ، تاريخ ابن الجزري ، ٢٣٤/٢-٢٣٥ ، الصفدي ، أعيان العصر ، ٤٢٩/٢ .

(٣) الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ٢٠٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢١٠ .

فَكَأَنَّ أَشْرَاطَ الْقِيَامَةِ قَدْ دَنَتْ      وَانْحَلَّ مِنْ سَرَجِ الزَّمَانِ حِزَامُ

وصور الشعراء مظاهر الطبيعة والكون حزينة مفجوعة على مرثيهم، فجعلوا لها عيوناً تسكب الدموع، وملابس حداد تلبس، وخدوداً تُلطم، وشعوراً تُنتثر، وقلوباً يحرقها الأسى، كما صوروها وقد توقفت عن أداء وظائفها، ويتجلى ذلك في القصيدة التي نظمها برهان الدين القيراطي في رثاء بهاء الدين السبكي، إذ صور الصبح وقد توقف عن الخروج، والزهر عن النمو والمطر عن النزول، والبرق عن الوميض، والنيل عن الفيضان، فقال<sup>(١)</sup> :

مَضِيَّتْ فَمَا وَجَّهَ الصَّبَاحُ بِمُسْفِرٍ      وَبَنَتْ فَمَا تَغْرُ الْأَقَاحُ بِمَفْتَرٍ  
فَزَلَّتْ فَمَا وَدَقَ النَّوَالُ بِهَاطِلٍ      وَغَبَّتْ فَمَا بَرَقَ الْمَنَى بِاسْمِ الثَّغْرِ  
تَوَقَّعَ قَلْبُ النَّيْلِ فَقَدَانَ ذَاتِهِ      أَلَسْتُ تَرَاهُ فِي احْتِرَاقٍ وَفِي كَسْرِ

وصور شهاب الدين محمود الحلبي الظلام وقد عمّ الكون، فطمس نجومه، وكسف شمسه، ويتجلى ذلك في قوله في رثاء شمس الدين بن قدامه<sup>(٢)</sup> :

مَا لِلوُجُودِ وَقَدْ عَلَاهُ ظَلَامٌ ؟      أَعْرَاهُ خَطْبٌ أَمْ عَدَاهُ مَرَامٌ ؟  
أَمْ قَدْ أَصِيبَ بِشَمْسِهِ فَعَدَا وَقَدْ      لَبِستُ عَلَيْهِ حِدَادَهَا الْإِيَامُ  
لَمْ أَدْرِ هَلْ نَبَذَ الظَّلَامُ نَجْمَهُ ؟      أَمْ حُلَّ لِلفَلَكِ الْأَثِيرِ نِظَامُ ؟

وصور الشعراء أحاسيسهم وأحزانهم، وعبروا عن لوغتهم وأساهم ومعاناتهم، ووصفوا أرقهم وقلة صبرهم وآهاتهم وحسراتهم، وما ذرفوه من دموع غزار، ولا تكاد تخلو قصيدة من هذه المعاني، ومن ذلك قول ابن نباتة في رثاء شهاب الدين محمود الحلبي :<sup>(٣)</sup>

وَاحْسَرْتِي لِمَقَامِ مَنْكَ مَحْمُودُ      وَاحْسَرْتِي لَوُدَادِ فَيْكَ مَعْهُودِ

<sup>(١)</sup> القيراطي، الديوان، ص ٢٥، السيوطي، حسن المحاضرة، ١/٣٦٥.

<sup>(٢)</sup> الصفدي، الوافي ١٨/٢٤٢، النويري، نهاية الأرب، ٣١/١١٦، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٤/١٨٧، ابن حبيب، تذكرة النبيه،

١٨٢/١، الكنتي، عيون التواريخ، ٢١/٢٣٣، ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة ٤/٣٠٩، المقرئ، السلوك، ٢/١٨٠.

<sup>(٣)</sup> ابن نباتة، الديوان، ص ١٥٥.

لو شامَ طَرْفُكَ ما ألقاه من حَرْبٍ      لم تَذرِ من مَنا الهالكِ المودي  
إنا إلى الله من رُزءٍ دنا فَرَمَى      دَمْعِي وشجوي بإطلاقٍ وتَقْيِيدِ

ويعبر شهاب الدين محمود عن حرقته على مرثيه مجد الدين بن العديم إذ قارن  
بين حالتيهما فقال مخاطباً إياه (١) :

أَمْجَدَ الدِّينِ دَعْوَةَ مَسْتَتِمٍ      لأنواعِ الكأْبَةِ مَسْتَتِمِ  
حَلَّتْ مِنَ الْجَنَّاتِ أَجَلٌ دَارٍ      وقلبي حَلَّ بِعَدَاكَ فِي جَحِيمِ

وبرزت المعاني السابقة بصورة جليلة في مرثي محيي الدين النووي ، وابن  
تيمية ، فالشيخ زين الدين الشبلي يصور حزنه عليه يفوق حزن الخنساء على أخيها صخر  
، ويكشف عن لوعته وأرقه ودموعه الممتزجة بالدماء ، فيقول (٢) :

لو كان يُقْنَعُنِي عَلَيْكَ بِكَائِي      لَجَرَّتْ سَوَابِقُ عَابِرَتِي بِدَمَاءِ  
وَكُنْتُ فِي يَوْمِ انْتِقَالِكَ لِلْبَلَى      صَخْرًا لَزِدْتُ عَلَى بكا الْخَنَسَاءِ  
أَسْفِي عَلَيْكَ وَمَا التَّأْسَفُ نَافِعٌ      صَبَا عَلَيْكَ مَقْتَلِ الْأَحْشَاءِ  
أَسْفِي عَلَيْكَ نَفِي الْكُرَى عَنِ نَاطِرِي      مِنْ فَرَطِ أَحْزَانِي وَفَرَطِ عَنَائِي

وصور تقي الدين الدقوقي حزنه على ابن تيمية حين بين عجزه عن نظم الشعر  
واستعانته بدموعه ودمائه في كتابته ، فقال (٣) :

وَلَقَدْ دَعَوْتُ الشَّعْرَ يَوْمَ نَعْيِهِ      فَأَبَى عَلَيَّ فَلَمْ أَطِقْ أَتْكَمًا  
وَأَخَذْتُ أَكْتُبُ ما أَقُولُ وَأَدْمَعِي      بَيْنَ السَّطُورِ كَعَقْدِ دُرٍّ يُنْظَمُ  
نَفْدَ الْمَدَادِ فَسَاعَدْتُهُ مَدَامَعِي      فَعَصَى عَلَيَّ فَسَاعَدَ الدَّمْعُ الدَّمَّ

(١) الصفدي، الوافي، ٢٠٣/١٨، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٣/٣١٩، الكنتي، عيون التواريخ، ١٧٥/٢١، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات،

٢٣-٢٢/٧.

(٢) الكرمي، الكواكب الدرية، ص ١٩٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٠.



وصور الشعراء موت محيي الدين النووي رزية عمّت بلاد المسلمين والأرض  
جميعها، وخصت دمشق موطن الشيخ ومحل إقامته ، ويتجلى ذلك في قول أحد  
الشعراء<sup>(١)</sup>:

وخطبُ يجوب الأرضَ شرقاً ومغرباً      فأشأمَ في قطع البلاد وأغرَقَا  
وعمّ جميعَ الأرضِ من كلِّ جهةٍ      وإن خصّ من دون الأقاليم جَقَا

وتحدث الشعراء كثيراً عن حزن الجماعة ، فصوّروا ما كابده الناس من الأم  
وأحزان، وما عانوه من مرارة ولوعة ، وما ذرفوه من دموع ، وتميّزت مرثي محيي  
الدين النووي بكثرة هذه المعاني ، فقد صور الشعراء موته فجيرة لم يصب الناس بمثلها  
بعد الرسول عليه الصلاة والسلام ، والأئمة السابقين ، وهذا ما عبر عنه أحد الشعراء في  
قوله<sup>(٢)</sup> :

يا خَيْرَ مَنْ فُجِعَ الْأَنْامُ بِفَقْدِهِ      بَعْدَ النَّبِيِّ وَبَعْدَ كُلِّ إِمَامٍ  
إِنْ كَانَ عَاجِلَكَ الْقَضَاءُ وَصُرْمَتُ      مِنْ عُمْرِكَ الْأَعْوَامُ بِالْأَيَّامِ  
فَلَقَدْ تَرَكْتَ الْعَيْنَ بَعْدَكَ ثَرَّةً      تَبْكِي لِفَقْدِكَ وَالْقَلْبُوبُ دَوَامِي

ويصور أحد الشعراء أصحاب النووي يندبونهم ويتوجّعون لفراقه ، ويتمنون فداءه  
بمهجهم وأرواحهم، فيقول<sup>(٣)</sup> :

لَمْ يَبِيقْ خَيْلٌ نَاطِرٌ أَوْ سَمَاعٍ      إِلَّا عَلَيْكَ فُوَادِهِ مَجْرُوحُ  
وَيُودٌ لَوْ جُعِلَتْ وَقَاءُكَ نَفْسُهُ      وَدَوَامٌ مَجْدُكَ بِالْبِقَاءِ صَرِيحُ

وتحدث الشعراء بصورة خاصة عن حال الوفود ، والأراميل ، واليتامى بعد  
مرثيهم من العلماء، فكشفوا عن معاناتهم ، وعن حياة الفقر والشظف التي عاشوها بعد  
من كانوا يرعونهم ، ويقضون حوائجهم ، ويتبرعون لهم بالأموال ، والأمثلة على ذلك  
كثيرة ، ومنها ما جاء في القصيدة التي نظمها جمال الدين بن نباتة في رثاء القاضي نجم

(١) ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٥٣ ، وانظر ص ٣٢ ، ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ١/١٩٨ .

(٢) ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٤٥-٤٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٨ .

الدين بن صصري فقد ذكر أن هذا القاضي كان جواداً "يعم بإحسانه الآفاق حتى قيل مات بموته مكارم الأخلاق"<sup>(١)</sup> وكان يجمع "الناس ببستانه كل يوم سبت ، ويمدّ لهم سماطاً يجمع أنواع الأطعمة والفواكه والحلوى ولا يمنع منه أحد"<sup>(٢)</sup>، وقد صور ابن نباتة موت ابن صصري مصيبة نزلت بالفقراء، ودعا الوفود إلى التوقف عن شد الرحال له ، وطلب رفده فقال<sup>(٣)</sup>:

يا طالبَ الجود لا تتعب أمانيكَا      فقد تَغَيَّبَ نَجْمٌ كان يهديكَا  
لهفي عليك لفضلٍ ما تَرَكْتَ به      في القول فضلاً ولا في الخلق صلوكَا  
هذي وفودك قد أمت ثراك كما      أمت بعين الندى قدماً معانيكَا  
قاموا يعزّون فيك اليوم أنفسهم      وقمت في الجود والعليا أعزبكَا

ويتساءل شهاب الدين محمود الحلبي عن مصير الأيامي والفقراء بعد ذلك القاضي فيقول في رثائه<sup>(٤)</sup>:

مَنْ لِلأَيَامِي وَالْيَتَامِي فَارَقُوا      بِالرَّغْمِ ذَاكَ الْكَافِلَ الْمْتَبَرِّعَا

ومثله قول محمد بن محمد القوصي في رثاء تقي الدين بن دقيق العيد<sup>(٥)</sup>:

مَنْ لِلضَّعِيفِ يَعِينُهُ أَنْتَى أَنْتَى      مُسْتَصْرِخاً يَاغوثَ كُلِّ ضَعِيفٍ ؟  
مَنْ لِلْيَتَامِي وَالْأَرَامِلِ كَافِلٌ      يَرْجُونَهُ فِي شَتْوَةٍ وَمَصِيفٍ ؟

وصور الشعراء الآثار الناجمة عن موت مرثيهم على النواحي الاجتماعية، والدينية ، والعلمية والأدبية ، أما الاجتماعية ، فقد ألقوا الضوء فيها على المجالس التي كان يعقدها أولئك الناس في مجتمعهم ، فصوروها وقد تعطلت بعدهم ، وانفض جمعها،

(١) ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، ٢٦٤/٢ .

(٢) المقرئ ، المقفى ٧١٧/١ .

(٣) ابن نباتة ، الديوان ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

(٤) الصفدي ، أعيان العصر ، ٣٣٢/١ .

(٥) الأذفوي ، الطالع السعيد ، ٦١٩ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ٢٧٦/١ .

وتبدّد شمل روّادها ، وبرزت تلك المعاني جليّة في مراثي النووي ، ومن ذلك قول أبي محمد إسماعيل البسطي في رثائه<sup>(١)</sup> :

لقد عطّلت منا دروساً عزيزةً كما عطّلت أوراقه والمحابرا

وتساءل أبو الفضل المصري عن حال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد ذلك العالم فقال<sup>(٢)</sup> :

مَنْ ذَا لَدَقَعَ الْمُكْرَمَاتِ وَقَدْ غَدَّتْ بَيْنَ الْأَنْبَاءِ كَثِيرَةَ التَّرْدَادِ ؟

ومثله قول بدر الدين المغيبي في رثاء ابن تيميّة<sup>(٣)</sup> :

فالأمرُ بالمعروفِ يُفْقَدُ بَعْدَهُ وَالْفَاعِلُونَ الذِّكْرَ لَيْسَ يُلَامُوا

أما عن الأثر الذي خلفه موت العلماء على الناحية الدّينية، فقد تجلّى حين صوّر الشعراء الإسلام بيكيهم، وأضحى غريباً بعدهم<sup>(٤)</sup>، وحين قارنوا بين حاله قبل موتهم وبعده، فصوروهم حصنه الحصين، وبموتهم تهدمت قواعده، وتسلبت عليه الأعداء، ويتجلّى ذلك في قول الصفدي في رثاء تقيّ الدين السبكي<sup>(٥)</sup> :

وهكذا سيفُ المسلولِ يَنْتَلِمُ      أهكذا جبلُ الإسلامِ يَنْهَدُمُ  
على أعاديه بعد اليوم يَنْهَزِمُ ؟      وهكذا جيشُه المعهودُ نصرَتُه  
تَحَطُّ مِنْهُ أَعَالِيهِ وَتَحَطُّمُ      وهكذا مجدُه الرّاسي قواعدهُ  
من بَعْدِ مَا كَانَ بِالْأَمْوَاجِ يَلْتَطِمُ      وهكذا الدّينُ أزرى به خَنَسٌ

(١) ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٤١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٩ .

(٣) الكرّمي ، الكواكب الدرية ، ٢١٠ .

(٤) انظر المصدر نفسه ، ص ٢٠٨ ، الصفدي ، أعيان العصر ، ٣٣١/١ .

(٥) الصفدي ، أعيان العصر ، ٤٥٠/٣ ، السبكي ، طبقات الشافعية ، ٤٠١/٥ .

وصور الشعراء حزن الأماكن التي كان يؤدي فيها العلماء شعائرهم الدينية ،  
فترددت صورة المساجد والمصلى، وهي تبكيهم، وتحنّ إلى صلواتهم. ويتجلى ذلك في قول  
علاء الدين الوداعي الكندي في رثاء النووي<sup>(١)</sup> :

وكذا المساجدُ بالمصابيح انتثت      تُبدي عليك حُرقةً وزفيراً

وقول تقيّ الدين الدقوقي في رثاء ابن تيمية<sup>(٢)</sup> :

أبدى مصلاك البكاء وحسبه      يبكي عليك وحقه يتتدم  
أسفاً على ما فاتته من ورده      واللّيل ساج والخلائق نوم

وأكثر الشعراء من الحديث عن الآثار الناجمة عن موت العلماء والأدباء على  
الناحيتين العلمية والأدبية فكشفوا عن الضياع الذي عاناه طلاب العلوم بعدهم ، وصوّرُوا  
الجهل وقد انتشر ونفق سوقه ، وتناول الجهال في المحافل ، ورفعوا رؤوسهم ، ولم  
يجدوا من يردعهم، ويرشدهم إلى الطريق القويم ، وتجلى ذلك في شعر غير شاعر ،  
ومنهم نجم الدين اللّبودي ، إذ قال في رثاء الطبيب شمس الدين الخسروشاهي<sup>(٣)</sup> :

أيا ناعياً عبد الحميد تصبراً      عليّ فإن العلم أدرج في كفن

وقول عز الدين محمد بن الضرير في رثائه<sup>(٤)</sup>:

فبعذك شمس الدين أعوز عالم      وأبدى الدعاوي في المحافل جاهل

ويتجلى في قول شمس الدين الهواري الأندلسي حين رثى شهاب الدين أبا جعفر  
الأندلسي<sup>(٥)</sup>:

بموتك مات العلم والجلم والتقى      فأصبح ربغ الفضل وهو خراب  
وأصنحت الطلاب بعدك لا يرى      لهم طمع في أن يُنال طلاب

<sup>(١)</sup> ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٤٠ .

<sup>(٢)</sup> الكرمني ، الكواكب الدرية ، ص ٢٠٨ .

<sup>(٣)</sup> ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ، ص ٦٠١ .

<sup>(٤)</sup> المصدر نفسه ، ص ٦٠١ .

<sup>(٥)</sup> ابن العمري ، كنوز الذهب ، ٤٧٢/١ ، الطباخ ، أعلام النبلاء ، ٧٨/٥ .

وصور الشعراء العلوم التي اهتم بها المرثيون في حياتهم حزينة مغتمة بعدهم ،  
 أصابها الإهمال ، وتوقف البحث فيها ، وأضحى مصيرها مجهولاً ، فالحافظ زكي الدين  
 المنذري اشتغل بعلوم النحو والنسب ، وحين مات رثاه الشاعر موفق عبد الله بن عمر  
 الأنصاري المعروف بالورن ، فصور حالها بعده ، وما أصابها من إهمال ، فقال (١):

مَنْ لضبط الإعرابِ جزماً باعرا      بِ فصيحٍ إن أبهم الإعجامُ ؟  
 مَنْ لحفظ الأنساب ضاع بنوها      يا أباهما فكأهم أيتامُ

ونبع عدد من العلماء المرثيين في العلوم الدينية، من فقه وتفسير وحديث وإفتاء  
 وقد صور الشعراء حزن تلك العلوم عليهم وأكثروا من ذلك ، وبرز بصورة جلية في  
 مرثي النووي وابن تيمية (٢) ، كما برز في مرثي غيرهم ، ويتجلى ذلك في قول جمال  
 الدين بن نباته في رثاء القاضي كمال الدين بن الزمكاني (٣) :

أَيُّهَا الرَّاحِلُ الَّذِي عَطَلْتَ مِنْ      بعده القاصدون شدة الرِّحالِ  
 غَابَ عِلْمُ التَّفْسِيرِ عَنَّا وَهَمَّتْ      كتبُ الفقهِ فيك بالإعوالِ  
 ودموعُ الحديثِ سلسلها الحز      نُ وأنكى في القلبِ جرحُ النَّصالِ

وتحدث الشعراء عن كتب العلوم وما اعترأها من أحزان ، وتلك الكتب قسمان:  
 قسم عكف أولئك الراحلون على قراءته والبحث فيه، وآخر ألفوه وتركوه وراء ظهورهم،  
 ومن هؤلاء العلماء الحسن بن محمد الصَّغَانِي الَّذِي أَلْفَ كِتَابَ "مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ" وَ"الْعِبَابِ  
 الزَّاخِرِ وَدَرَرِ اللَّبَابِ الْفَاخِرِ وَلَمْ يَكْمَلْهُ" (٤)، وحين مات رثاه عز الدين بن الوزير فصور  
 بكاءها عليه قائلاً (٥):

بِكَاءِ كِتَابٍ لَمْ تَتِمَّ فَصُولُهُ      ودون أمانِي الرَّجَالِ صَوادِفُ

(١) البيهقي ، ذيل مرآة الزمان / ٢٥١/١ .

(٢) انظر ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٣٢، ٣٨ ، ابن حبيب ، تذكرة البيه ، ١٩٨/١ . الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ١٩٠ ، ابن  
 رجب ، الذيل على طبقات الخاتمة ، ٤١٢/٤ .

(٣) ابن نباته ، الديوان ، ص ٤٠٦ .

(٤) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ٢٦٣ .

(٥) المصدر نفسه ، ٢٦٤ .

كذَا مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ فَرَّقَ شَمْلَهُ      وَغَاضَ اِكْتِتَاباً مَوْجُهُ الْمُتَقَاذِفُ

وَصَوَّرَ سِرَاجَ الدِّينِ الْوَرِاقَ مَا أَصَابَ كِتَابَ اللُّغَةِ بَعْدَ مَرْتَبَتِهِ رَضِيَ الدِّينُ الشَّاطِبِيُّ ، وَمِنْهَا كِتَابُ الْمُحْكَمِ لَابِنِ سَيِّدَةَ ، "وَالصَّحَاحُ" لِلْجَوْهَرِيِّ ، "وَالعَيْنُ" لِلخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ ، فَقَالَ: (١).

وَأَحْكِمَ "مُحْكَمٌ" بِلِجَامِ حُزْنٍ      لَفَقَدَ الْفَارِسِ الْبَطْلَ الْكَمِيَّ  
وَلَمَّا اعْتَلَّ قَالُوا اعْتَلَّ أَيْضاً      لَشَكَّوَاهُ "صَحَّاحُ الْجَوْهَرِيِّ"  
وَجَازَى كُلَّ عَيْنٍ قَدْ بَكَتُهُ      كِتَابَ الْعَيْنِ بِالذَّمْعِ الرَّوِيِّ

وَصَوَّرَ الشُّعْرَاءُ أَدْوَاتَ الْكِتَابَةِ مِثْلَ الْأَقْلَامِ وَالْمَحَابِرِ ، وَالْأَوْرَاقِ وَهِيَ تَتَدَبَّرُ مَرْتَبَتَهُمْ وَتَبْكِيهِمْ ، كَمَا شَخَّصُوا الْمَرَاكِزَ الْعِلْمِيَّةَ الَّتِي كَانُوا يَدْرِّسُونَ فِيهَا ، وَيُنْشَرُونَ فِيهَا الْعِلْمَ ، فَصَوَّرَهَا مَعْطَلَةً وَدَارِسَةً بَعْدَهُمْ ، وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ فِي قَوْلِ الصَّفْدِيِّ فِي رِثَاءِ جَمَالِ الدِّينِ بْنِ غَانِمٍ (٢) :

تَبْكِي الطَّرُوسِ عَلَيْكَ وَالْأَقْلَامُ      وَتَنْوُحُ فِيكَ عَلَى الْغُصُونِ جَمَامُ

وَقَوْلِ بَرَهَانَ الدِّينِ الْقَيْرَاطِيِّ فِي رِثَاءِ جَمَالِ الدِّينِ الْأَسْنَائِيِّ (٣) :

وَمَا شُقِّتِ الْأَقْلَامُ إِلَّا تَأْسَافاً      لِفَقْدَانِهَا بِالرَّغْمِ خَيْرَ أَنْامِلِ  
وَكَمْ لَبَسَتْ ثُوبَ الْجِدَادِ مُحَابِرٌ      لِحَبْرٍ غَدَا فِي سُندُسِ أَيِّ رَافِلِ

وَقَوْلِهِ فِي رِثَاءِ تَقِيِّ الدِّينِ السَّبْكِِيِّ (٤) :

وَمَدَارِسُ الْعِلْمِ الَّتِي قَدْ أَصْنَحَتْ      وَكَأَنَّهِنَّ دَوَارِسُ الْبَنِيَّانِ  
مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ كَانَ فِي أَفْلَاحِهَا      شَمْساً يُشَارُ لِنُحُوهَا بِنِيَّانِ

(١) الصَّفْدِيُّ، الْوَرِاقُ، ١٩١/٤، السَّبْكِِيُّ، بَغِيَّةُ الْوَعَاةِ، ١٩٥/١.

(٢) الصَّفْدِيُّ، أَعْيَانُ الْعَصْرِ، ٦٩٨/٢، الْوَرِاقُ، ٣٥٢/١٧، الْكُتُبِيُّ، فَوَاتُ الْوَفِيَّاتِ، ٢٠٧/٢، ابْنُ حَبِيبٍ، تَذَكُّرَةُ النَّبِيِّ، ٥٥/٣.

(٣) الْقَيْرَاطِيُّ، الدَّبَّوَانُ، ص ٢٠، السَّبْكِِيُّ، حَسَنُ الْمَخَاضَةِ، ٣٦٢/١.

(٤) الْقَيْرَاطِيُّ، الدَّبَّوَانُ، ص ٥٩، السَّبْكِِيُّ، طَبَقَاتُ الشَّافِعِيَّةِ، ٤٠٥/٥.

وألقى الشعراء الضوء على الفنون الأدبية والبلاغية ، فصوّروا ما أصابها بعد موت الأدباء الذين كانوا يحترفونها ، فالشعر غاضت بحوره ونضبت قرائح قائله وأقفلت أبواب المعاني والبديع والفصاحة ، وتعطلت الكتابة ودواوينها وتوقفت الرسائل عن الصدور ، ويتجلى ذلك في شعر الكثيرين ، ومنهم سراج الدين الوراق إذ رثى ناصر الدين بن النقيب فقال<sup>(١)</sup> :

شَقَّتْ جُيُوبُ القَوَافِي والقُلُوبُ معَا  
وَأُبْحَرُ الشَّعْرِ غَاضَتْ عِنْدَمَا عَدِمَتْ  
وَلَا تَوَاتِي المعَانِي مَنْ يُمَارِسُهَا  
وَلَيْسَ يُفْتَحُ بَابٌ فِي البَدِيعِ وَقَدْ  
وَاسْتَشَعَرَ المَاضِيَانِ الخُوفَ وَالجَزَعَا  
مِنْكَ الخَلِيلَ وَمَجْرَى الشَّعْرِ قَدْ نَبَعَا  
بَعْدَ الأَمِيرِ وَقَدْ كَانَتْ بِهِ تَبَعَا  
أُودَى بِعَمْدَتِهِ دَهْرٌ وَقَدْ فُجِعَا

ومنهم جمال الدين بن نباته إذ قال في رثاء شهاب الدين محمود الحلبي<sup>(٢)</sup> :

لَمْ يَبْقَ بَعْدَكَ مَنْ تَدْعُو بِدِيهَتِهِ  
مَنْ لِلدَّوَاوِينِ يَقْضِي بِالتَّأْمَلِ فِي  
كُنَّا نَعْدُكَ فَرْدًا فِي مَوَازِنِهَا  
مَنْ لِلرَّسَائِلِ فِي لَامَاتِ أَحْرَفِهَا  
لَحَجَّ بَيْتِ مَنْ الأَشْعَارِ مَقْصُودِ  
مَخْرَجِ مَنْ مَعَانِيهَا وَمَرْدُودِ  
لَقَدْ رَزُنَّا بِمَوْزُونٍ وَمَعْدُودِ  
تَغْزُو العُدَاةَ بِألفاظِ صِنَادِيدِ؟

## موضوعات متفرقة

سجل عدد من الشعراء تاريخ وفاة مرثيهم<sup>(٣)</sup> ، وذكروا المكان الذي ماتوا فيه ، ذكر أن بهاء الدين السبكي توفي أثناء رحلته لأداء مناسك الحج والعمرة ، وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup> ، فرثاه برهان الدين القيراطي بقصيدة ذكر فيها ذلك كله ووصفه على شكل قصة ، قال<sup>(٥)</sup> :

<sup>(١)</sup> الصفدي ، الرواي ، ٥٣/١٢ .

<sup>(٢)</sup> ابن نباتة ، الديوان ص ١٥٦ ، وانظر ص ٢٣٢ .

<sup>(٣)</sup> انظر ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٤١ .

<sup>(٤)</sup> الفاسي ، العقد الثمين ، ٢٤٩/٣ ، ابن العراقي ، الذيل على العمري ، ٤٠٦/٢ .

<sup>(٥)</sup> القيراطي ، الديوان ، ص ٢٦ .

إلى مَكَّة سَارَتْ رَكائِبُ قَصْدِهِ  
 وبالكعبةِ الغراءِ كان طَوَافُهُ  
 تَعْلَقُ أحياناً بسودِ سُتُورِها  
 وزمزمِ كمِ قد فازَ منها بِشربةِ  
 وَشَدَّ رحالَ العيسِ من بعدُ قاصداً  
 وسافرَ نحوَ التَّرابِ في السَّفرِ الَّذِي  
 لِيُظْفِرَ فيها بِالْعَظِيمِ مِنَ الأَجْرِ  
 تِلاوَتُهُ مَقْرُونَةٌ فِيهِ بِالذِّكْرِ  
 لِيَنعَمَ بِالفردوسِ بِالحلِّ الخُضْرِ  
 تَقَرَّبُ من جَنَّاتِ عَدْنٍ وَمِن نَهْرِ  
 زيارَةِ قَبْرِ المُصطَفَى جَلَّ من قَبْرِ  
 نِواهِ وَلَمْ يَرجعَ إِلينا مَعَ السَّفْرِ

وتوفي كمال الدين بن الزمكاني "بمدينة بلبيس - وهو قاصد القاهرة، فإنه طلب... لولاية قضاء الشام"<sup>(1)</sup>، "قرئاه القاضي شهاب الدين بن فضل الله العمري، وتحدث عن مكان موته فقال"<sup>(2)</sup>:

الله أكبر أي موقف ساعة  
 في جانب الطور المقدس صعقة  
 يا يوم بلبيس بموت محمد  
 في أرض بلبيس لحط رجاله  
 خضعت لموقعها رؤوس جباله  
 أعدمته هذا الدهر خير رجاله

وتحدث الشعراء عن القبر، وشكل الحديث عنه جزءاً كبيراً من مرثيهم، وتناولوه من ثلاثة جوانب:

**الجانب الأول**، صوروا فيه ما اكتسبه القبر من رفعة، وعلو شأن مذ صار مأوى لمرثيهم، وعبروا عن ذلك عن طريق مناجاته، والوصف المباشر له، فالشاعر شهاب الدين محمود صور الأرض الوعرة التي توارى فيها مرثيته كمال الدين بن العديم، روضة غناء تفاخر غيرها من الأماكن، فقال<sup>(3)</sup>:

ثوى المجد في حزن من الأرض فاغدت  
 نتيه على سهل الربى روضة الحزن

<sup>(1)</sup> انظر ابن الجوزي، تاريخ ابن الجوزي، ٢٣٣/٢، المقرئ، المقفى، ٣١٨/٦.

<sup>(2)</sup> الصفدي، أعيان العصر، ١٥٢/٣، ولزيد من الأمثلة انظر ابن الجوزي، تاريخ ابن الجوزي، ٢٣١/٢، الصفدي، أعيان العصر،

١٥٢/٣، ١٥٢/٣، الوافي، ٢١٦/٤، الكنتي، فوات الوفيات، ٨/٤، المقرئ، المقفى، ٣١٨/٦.

<sup>(3)</sup> البونيني، ذيل مرآة الزمان، ٣١٩/١٣.



ويقابل الشاعر ذاته بين ظهر الأرض وبطنها الذي غدا موطناً للقاضي نجم الدين بن صصري فيصور ما حظي به البطن من رفعة ومجد ، فيقول<sup>(١)</sup> :

الذَهْرُ أَبْخَلُ حِينَ جَادَ بِمِثْلِهِ      مَنْ أَنْ يُدِيمَ بِهِ الْوَجُودَ مُمْتَعَا  
فَاعَادَ وَجَةَ الْأَرْضِ فِيهِ مُجَدِّبَا      كَلْحَاً وَبَطْنَ الْأَرْضِ مِنْهُ مُزْعَا

وبصور الصفدي قبر مرثية الشيخ جمال الدين بن غانم قصراً في عيون ناظره، فيقول في رثائه<sup>(٢)</sup> :

وَكَأَنَّ قَبْرَكَ لِلْعِيُونَ إِذَا بَدَا      قَصْرٌ عَلَيْهِ تَحْيَةٌ وَسَلَام

ويرجع الشعراء تلك المهابة التي بدت على تلك القبور إلى غير سبب ، منها ما حوته من علوم، وفضائل ، وأخلاق حميدة ، ولذا تعجبوا من مساحتها الصغيرة التي ضمت بحاراً من العلوم ، ويتجلى ذلك في قول برهان الدين القيراطي في رثاء تقي الدين السبكي<sup>(٣)</sup>:

قَبْرٌ عَلَيْهِ مِنَ الْعُلُومِ مَهَابَةٌ      تَبْدُو وَأُنْسُ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ

وقول تقي الدين الدقوقي في رثاء ابن تيمية<sup>(٤)</sup> :

قِفْ إِنْ مَرَرْتَ بِقَاسِيُونَ عَلَى ثَرِي      فِيهِ ضَرِيحُ الْعَالَمِ الْمُتَقَرِّدِ  
وَاعْجَبْ لِقَبْرِ ضَمَّ بَحْرًا زَاخِرًا      بِالْفُضْلِ يَقْذِفُ بِالْعُلَا وَالسُّودِ

أما الجانب الثاني ، فتحدث فيه الشعراء عن القبور من الداخل ، فصوروها قطعة

من الجنة، فيها الحور والولدان ، وتعمرها الرحمة والمغفرة ، وهدفوا من ذلك إلى :

أولاً : وصف المصير الذي آل إليه مرثيوهم ، والحياة السعيدة التي عاشوها في قبورهم وبالتالي التأكيد على النعيم الذي ينتظرهم في الآخرة .

(١) الصفدي ، أعيان العصر ، ١/٣٢٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ٢/٦٩٨ ، الواقي ، ١٧/٣٥٣ ، الكندي ، فوات الوفيات، ٢/٢٠٨ ، ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ٣/٥٥ .

(٣) القيراطي الديوان ، ص ٥٩ ، السبكي ، طبقات الشافعية ، ٥/٤٠٥ .

(٤) الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ٢١٤ .

ثانياً : مقاومة فكرة الفناء ، فمرثيوهم لم يفنوا على الحقيقة ، وإنما بدأوا حياة جديدة في قبورهم .

واستمد الشعراء أفكارهم ومعانيهم وألفاظهم من القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الشريفة التي وصفت القبر ونعيمه ، ويتجلى ذلك في قول صلاح الدين الصفدي في رثاء برهان الدين الأغري بن لاجين <sup>(١)</sup> :

فهو في قبره مع الحور يلهو      ببياض الطلى وورد الخدود  
ما تملت جفونهُ ببيدور      قبلها في براقع وعقود

وقول أحد الشعراء مصوراً قبر مرثيه النووي يفاخر الجنة وما فيها من نعيم <sup>(٢)</sup> :

وطوبى لقبر ضمته فلقد غدا      يباهي به دار المقامة والبقا

**أما الجانب الثالث :** فيتمثل بالدعوة للقبور بالسقيا ، ولساكنيها بالرحمة والمغفرة وحسن المال، وقد ترددت هذه المعاني كثيراً في مرثي الشعراء ، وعبروا عنها بطرق شتى فعلى سبيل المثال تعددت الأسماء التي أطلقوها على السحب ، فهي "غيوث الرضى" ، و"سحب الرضى" ، و" صوب الحياة" ، و"الساريات" ، و"الحياة" ، وغير ذلك من الألفاظ الدالة على غزارتها، وما فيها من خير ورحمة ، ومن الأمثلة على ذلك قول الصفدي في رثاء ابن تيمية <sup>(٣)</sup> :

فجادت الرحمة أرضاً ثوى      فيها وسقتها غيوث الرضى

ومثله قول جمال الدين عبد الصمد الحنبلي في رثائه <sup>(٤)</sup> :

سقى لتلك الروح من سحب الرضا      وتبوات جئات عدن مسكنا

<sup>(١)</sup> الصفدي ، أعيان العصر ، ١/ ١٣٧ .

<sup>(٢)</sup> ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٣٦ .

<sup>(٣)</sup> الصفدي ، أعيان العصر ، ١/ ٢٥٢ .

<sup>(٤)</sup> الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ٢٠٤ .

وحين يدعو الشعراء للقبور بالسقيا ، يكشفون عن رغبتهم في بقائها خضراء  
 يانعة ، تحيط بها الزهور المختلفة الألوان ، المتضوعة بالروائح الزكية ، وهذا ما عبّر  
 عنه جمال الدين ابن نباته إذ قال في رثاء بدر الدين بن فضل الله العمري<sup>(١)</sup> :

سقى ضريحك رضواناً ولا برحمتٍ      تهلُ نافعةً في ترْبِكَ الدَيْمِ  
 حتّى تتورّ أرضٌ أنت ساكنها      نوراً ونوراً ويزهى القاعُ والأكمُ

وبرزت معاني الهجاء في هذا اللون من الرثاء ، وانقسم الشعراء في التعبير عنها  
 إلى قسمين: قسم نظموا أشعاراً في هجاء العلماء والأدباء الميتين ، وآخر تجلّت معاني  
 الهجاء عندهم حين وجهوا سهام النقد إلى حسّاد المرثيين وأعدائهم .

أما القسم الأول ، فكانت الأشعار التي نظمت فيه قليلة ، ومن العلماء والأدباء  
 المهجوين أحمد بن محمود بن صدقة المتوفى سنة ٧٦٧هـ — الذي مهر "قي الأدب  
 والتصوف ، فضبطت عليه ألفاظ موبقة ، فرفع أمره إلى الحكّام بحلب، فحكم القاضي  
 المالكي صدر الدين الدميري بسفك دمه فقتل<sup>(٢)</sup> " فهجاه أحد الشعراء بمقطوعة صورّه فيها  
 رجل ضلال ، وألقى الضوء على مصيره الذي آل إليه ، إذ انتقل من يد القاضي المالكي  
 إلى مالك خازن النار ، قال<sup>(٣)</sup> :

مضى مستبيحُ الزنا والرِّبَا      إلى خازنِ المهلكِ الحالِكِ  
 وفازَ الدّميري بتدْميره      فمن مالكيٍّ إلى مالكِ

ومنهم أبو القاسم بن الحسين بن العود، وكان هذا شيعياً، وإماماً يُقتدى به في  
 مذهبه ويرجع إلى قوله عندهم، وكان ينال من أصحاب الرسول صلى الله عليه

(١) ابن نباته، الديوان، ص ٤٦١، وانظر ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٤٧، ولزيد من الأمثلة انظر: ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٣١ ،  
 ٣٤ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٥ ، ٥٦ ، البونيني، ذيل مرآة الزمان، ٣/٨٧ ، ٣١٩ ، ٤٠٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٩ ، ابن نباته، الديوان ، ص ٤٥ ، ١٥٦ ،  
 ٢٣٣ ، ٣٦٨ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٢٢ ، الصفدي أعيان العصر، ١/١١٧ ، ١٣٨ ، ١٣٧/٢ ، ١٦٥/٣ ، ٥٣/٤ ، ٥٤ ، ٢٨٢ ، ١٩٠/٥ ،  
 ٢٥٥ ، ٢٨٠ ، ٣٧٦ ، ٥٥٦ ، الوالي ، ١٤/٥ ، ١٢/٢٦٣ ، ٢٤٤/٨ ، ١٩/٣٢١ ، ٢٢/٦١ ، الكنتي، فوات الوفيات، ٤٢٤/٢ ، عيون  
 التواريخ، ٢١/٧٦ ، ١٨٧ ، ٣٣٦ ، السبكي، طبقات الشافعية ، ٥/٤٠٥ ، ابن حبيب، تذكرة النبي ، ١/١٩٨ ، ٩٦/٣ ، القيراطي ، الديوان ، ص  
 ٢٥ ، ٢٦ ، ٥٠ .

(٢) الطباخ ، أعلام النبلاء ، ٤٧/٥ .

(٣) المرجع نفسه ، ٤٨/٥ .

وسلم، توفي في قرية جزين<sup>(١)</sup> مقرّ الشيعة سنة ٦٧٩هـ<sup>(٢)</sup>، فرثاه جمال الدين بن الحسام  
العالمي بقصيدة أولها<sup>(٣)</sup>:

عرس بجزين يا مُسْتَبْعَدَ النَّجْفِ      فَفَضَّلُ مَنْ حَلَّهَا يَا صَاحِغَ غَيْرِ خَفِي

يقرن الشاعر مكان دفن ابن العود بالنجف حيث قبور أعلام الشيعة، ويدعو إلى  
زيارته وجعله من الأماكن المقدسة عندهم، إلا أن الشاعر جمال الدين بن يحيى الحمصي  
لم يرق له ذلك، فنظم قصيدة هجا فيها الشاعر وابن العود معاً، بين فيها أن ابن الحسام بلغ  
درجة الكفر حين قرن قبر ابن العود بالنجف، ثم قارن بين المكانين، فحط بلغة مقذعة، من  
قدر المكان الذي دفن فيه ابن العود، وأعلى من شأن النجف، وتعجب من قرية جزين أنها لم  
تنخسف بساكنيها، فقال<sup>(٤)</sup>:

أرى تجاوز حدّ الكفرِ والسَّخْفِ      من قاسَ مقبرةَ ابنِ العودِ بالنَّجْفِ  
ما راقبَ الله أن يُرمى بصاعقةٍ      من السماواتِ أو يهوى بمنخسفِ  
واعجبَ لجزين ما ساختُ بساكنها      بجاهلٍ لعظيمِ الزورِ مقترفِ  
وقد تحيرت فيما فاه من سفهٍ      ومن ضلالٍ وإلحادٍ ومن سرفِ  
ما أنتَ إلا كمن يقيسُ منطقةَ الـ      بيتِ المحرمِ ذي الأستارِ بالكنفِ  
ولا أقولُ كمن قاستُ جهالتَهُ الدـ      درّ الثمينِ بمكسورِ من الخزفِ  
أو من يقيسُ الجبالَ الشامخاتِ بمنـ      حطّ الحطيمِ وعرفِ المسكِ بالجيفِ  
أو من يقيسُ النجومَ الزاهراتِ إذا      سمّتَ إلى أوجهاً والسعدُ بالحرفِ  
ولم أوفكُ ما استوجبتُ من قذعٍ      ولستُ أجمعُ سوءَ الكيلِ والحشَفِ

أما القسم الثاني، فقد احتلّ جزءاً من مرثي العلماء، كشف فيه الشعراء عن  
مزايا الحساد والأعداء الذين ما فتئوا ينصبون المكائد لمرثيهم، ويحاولون الإيقاع بهم  
بشتى الوسائل والسبل، وشمّتوا بهم بعد موتهم.

(١) قرية من قرى نيسابور، انظر ياقوت، معجم البلدان، مادة "جزين".

(٢) انظر اليونيني، ذيل مرآة الرمان، ٤٣٤-٤٣٥، ابن العجمي، كنوز الذهب، ٣٦٣/١-٣٦٤. الطباخ، أعلام النبلاء،

٤٧٩/٤-٤٨٠.

(٣) المصادر نفسها على التوالي: ٤٣٥/٣، ٣٦٤/١، ٤٨٠/٤.

(٤) المصادر نفسها على التوالي: ٤٣٦/٣-٤٣٧، ٣٦٤/١-٣٦٥، ٤٨٠/٤-٤٨١.

وقد وقف الشعراء إلى جانب مرثيهم، فراحوا يدافعون عنهم، ويقارنون بينهم وبين حسادهم وأعدائهم، فأظهروا العلماء المرثيين في منزلة رفيعة من العلم، والحلم، والتقوى والشجاعة، وعرضوا بالآخرين، وهجوهم هجاءً مرأب، وبرزت معانيهم تلك حين تحدثوا عن المحن التي نزلت بمرثيهم .

ومن العلماء الذين تعرضوا لمحن كثيرة تقي الدين بن تيمية ، ذلك أنه أنفرد بأراء خاصة وفتاوي خالف بها جلّ علماء عصره ، وهاجم كثيراً من الفرق الإسلامية المختلفة في زمانه واعتقد فساد عقائدهم ، ولهذا ناصبوه العداة ، وسعوا به عند سلاطين الدولة المملوكية وأمرائها ، وافتروا عليه ، ونسبوا إليه ما لم يقله " ولم ينقله ، ولم يوجد له به خط ، ولا وجد في تصنيف ولا فتوى ، ولا سمع منه في مجلس <sup>(١)</sup> " ، فسجن غير مرة " ولم ينتقل طول عمره من محنة إلا إلى محنة <sup>(٢)</sup> " ، وما زال كذلك حتى وقعت المحنة الأخيرة ، فسجن على إثرها في قلعة دمشق ، ومُنِع من الكتابة ، وصودرت كتبه وكراريسه ، وظلّ مسجوناً سنتين وثلاثة شهور وأياماً حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى سنة ٧٢٨هـ <sup>(٣)</sup> ، فرثاه الشعراء، وتحدثوا عن محنه ، وهجوا أعداءه ، وممن رثوه شهاب الدين بن فضل العمري ، فقد نظم قصيدة طويلة ، صور فيها ما تعرض له الشيخ من ظلم واضطهاد ، واستنكر على حساده سعيهم للإيقاع به ، وأنهم ارتضوا حبسه، مدلاً في كل ذلك على بغيهم، وجهلهم بقدره وعلمه، وكرّر عبارة "مثل ابن تيمية" غير مرة ليعبر عن استهجانها مما حلّ بالشيخ ، وليؤكد مكانته الرفيعة من جهة، وكبر أعدائه وصدوعهم عن الحق من جهة أخرى ، وليبين أن موته محبوساً دون أن ينتفع بعلمه خسارة عز نظيرها، ومنها قوله <sup>(٤)</sup> :

أُمَّثْلُهُ بَيْنَكُمْ يَلْفِي بِمَضِيْعَةٍ	حَتَّى يُطِيْحَ لَهُ عَمْدًا دَمٌ هَدْرُ
يَكُونُ وَهُوَ أَمَانِيٌّ لَغَيْرِكُمْ	تَتَوْبُهُ مِنْكُمْ الْأَحْدَاثُ وَالْغَيْرُ
وَاللَّهُ لَوْ أَنَّهُ فِي غَيْرِ أَرْضِكُمْ	لَكَانَ مِنْكُمْ عَلَى أَبْوَابِهِ زَمْرُ
مِثْلُ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ يُنْسَى بِمَحْبَسِهِ	حَتَّى يَمُوتَ وَلَمْ يُكْحَلْ بِهِ بَصْرُ

<sup>(١)</sup> البراز ، الأعلام العلية ، ص ٦٧، ٦٦ .

<sup>(٢)</sup> الكرمي ، الشهادة الزكية ، ص ٢٨ .

<sup>(٣)</sup> انظر عن محنة : البراز الأعلام العلية ، ص ٦٨ ، الصفدي ، الرواي ، ٢٠٠٧/٢٢-٢٣ . المقرئزي ، المفقى ، ٤٦١/١ ، الكرمي ، الكواكب

الدرية ، ص ١٨٣-١٨٤ .

<sup>(٤)</sup> المقرئزي ، المفقى ، ٤٧٦/١ ، الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ١٨٤ .

مَثَلُ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ تَرْضَى حَوَاسِدَهُ  
 مَثَلُ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ يَمْضِي وَمَا عَقَبَتْ  
 مَثَلُ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ يَمْضِي وَمَا نَهَلَتْ  
 بِحَبْسِهِ وَلَكُمْ فِي حَبْسِهِ عُنْرٌ  
 بِمِسْكِهِ الْعَاطِرِ الْإِرْدَانِ وَالطُّرُرُ  
 لَهُ سَيْوِفٌ وَلَا خَطِيئَةٌ سُمْرٌ

ثم صب الشاعر جام غضبه على أولئك الأعداء ، وقارن بينهم وبين ابن تيمية من الناحية العلمية، فكشف عن ضالة قدرهم، وجهلهم، وبين عجزهم عن مواجهته، ويبدو متأثراً بقصص القرآن الكريم، إذ حضتهم على مناظرته ومجادلته على مرأى ومسمع من الناس وأن يجمعوا له كما جمع فرعون السحرة لموسى، وخط من قدرهم حين جعلهم أقل منزلة ورتبة من سحرة فرعون، ذلك أن هؤلاء أذعنوا لأمر موسى، وآمنوا معه بعدما رأوا البراهين الدالة على صدقه، أما هم، فظلوا على جهلهم، وعنادهم لذلك الشيخ، وسعيهم له بالمكائد ، يقول (1) :

يا ليت شعري هل في الحاسدين له  
 هل فيهم لحديث المصطفى أحد  
 هل فيهم من يضم البحث في نظر  
 هلاً جمعتم له من قومكم ملاً  
 قولوا لهم : قال هذا ابحتوا معه  
 تلقى الأباطيل أسحار لها دهش  
 فليتهم مثل ذاك الرهط من ملاً  
 وليتهم أذعنوا للحق مثلهم  
 نظيره في جميع القوم إن ذكروا  
 يميز النقذ أو يروي له خبر  
 أو مثله من يضم البحث والنظرا  
 كفعل فرعون مع موسى لتعتبروا  
 قدامنا وانظروا الجهال إن قدروا  
 فيلقف الحق ما قالوا وما سحروا  
 حتى يكون لكم في شأبه عبر  
 فآمنوا كلهم من بغد ما كفروا

ويكشف الشاعر عن الأسباب التي دعت أولئك الناس إلى مخاصمة مرثيه ابن تيمية، ويحاججهم بالدليل العقلي والنقلي ، إذ بين صحة مواقفه، وتجنيدهم عليه ، ويختتم قصيدته ، فيرسم لهم صورة ساخرة تنبئ عن جهلهم ، وضالة قدرهم، فيقول معبراً عن ذلك (2) :

ما أنكروا منك إلا أنهم جهلوا  
 عظيم قدرك لكن ساعد القدر

(1) المقرئ، المقفى، ٤٧٦/١، الكرعي، الكواكب الدرية، ص ١٨٤-١٨٥.

(2) المصدر نفسه، ٤٧٨/١، المصدر نفسه، ص ١٨٦، الشهادة الزكية، ص ٦٨.

قالوا بأنك قد أخطأت مسألةً  
ومَنْ يكونُ على التَّحْقِيقِ مُجْتَهِداً  
عليك في البَحْثِ أَنْ تُمْضِيَ غَوَامِضَهُ  
قَدِّمْتَ لَهِ ما قَدِّمْتَ مَنْ عَمَلَ  
أما أجَدتْ إصابَاتٍ فَنُغْتَذِرُ؟  
له الثَّوابُ على الحَالِينِ لا الوَزَرَ  
وما عليك إذا لم تَفْهَمْ البَقَرُ  
وما عليك بهم ذَمُّوكَ أو شَكَرُوا

ورثى ابن الوردي ابن تيمية بقصيدة ركز فيها على وصف محنته ، وسلط الضوء على حساده وأعدائه، فصورهم ذوي مكانة مرموقة ، جاهرُوا بعداوتَهُ لعجزهم عن بلوغ مرَامِهِ، والوصول إلى رتبته في العلم، وتنبأ لهم بمصير كلِّه ندم وخسران ، وزجرهم حين سألهم عن سبب تعذيبهم على ذلك الشيخ ، وهو الذي ترك لهم مناصب الدنيا ، وأثر الزهد والنقشَف والرضى بالقليل ، يقول (١) :

عنا في عِرْضِهِ قَوْمٌ سَلَاطُ  
فكم حسدوه لَمَّا لم يَنَالُوا  
وكانوا عن طرائقِهِ كَسَالِي  
إِمَامٌ لا وِلايَةَ كان يَرجو  
ولا جارِاكُمْ في كَسبِ مالٍ  
ففيهم سَجَنَمُوهُ وِغْظَمُوهُ  
لَهُم من نَثرِ جِوهرِهِ النَقَاطُ  
مناقِبُهُ فَقَد مَكروا وشَاطَوا  
ولكن في أذاه لَهُم نَشَاطُ  
ولا وَقَفَ عَلَيْهِ ولا رِباطُ  
ولم يُعْهَدَ لَهُ بكم اختِلاطُ  
أما لجزا أذيتِهِ اشْتِراطُ؟

ويبدو أن ابن الوردي كان مطلعاً على حقيقة نفوسهم حين عبّر عن رفضه لموقفهم من ابن تيمية، وأعلن عن رغبته في فضحهم ، ولكنه عدل عن ذلك كونهم من أهل العلم ، ودعاهم إلى الاستمرار في إثارة الضغائن والعداء حتى يلاقوا يومهم الموعود، وتكشف النفوس عن حقيقتها ، يقول (٢) :

(١) ابن الوردي ، الديوان ، ٢٦٦-٢٦٧ ، تاريخ ابن الوردي ، ٢٧٥/٢-٢٧٦ ، الصفدي ، الوافي ، ٣٢/٧ ، أعيان العصر ، ٢٥٠/١ ،

المقريزي ، الملقى ، ٤٧٨/١-٤٧٩ ، الكرّمى ، الكواكب الدرية ، ص ١٨٧-١٨٨ .

(٢) المصادر نفسها على التوالي : ص ٢٦٧ ، ٢٧٦/٢ ، ٣٣/٧ ، ٢٥٠/١ ، ٤٧٩/١ ، ص ١٨٨ .

ففيه لَقْدَرٍ مِثْلِكُمْ انْحَطَّاطُ  
 وخوفُ الشرِّ لَانْحَلَّ الرِّبَاطُ  
 بأهلِ العلمِ ما حَسُنَ اشْتِطَاطُ  
 ونَيْتِكُمْ إِذَا نَصَبَ الصَّرَاطُ  
 فعاطوا ما أردتمْ أَنْ تعاطوا  
 عليكمْ وانطوى ذاك البسَاطُ<sup>(١)</sup>

وَسَجُنُ الشَّيْخِ لَا يَرْضَاهُ مِثْلِي  
 أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا كِتْمُ سَرِّي  
 وَكُنْتُ أَقُولُ مَا عِنْدِي وَلَكِنْ  
 سَيَظْهَرُ قَصْدُكُمْ يَا حَابِسِيهِ  
 فَهَا هُوَ مَاتَ عِنْدَكُمْ اسْتَرَحْتُمْ  
 وَحَلَّوْا وَاعْقَدُوا مِنْ غَيْرِ رَدِّ

ورثى برهان الدين القيراطي العالم جمال الدين الأسناتي بقصيدة، قارن في بعض أبياتها بينه وبين خصومه، فصوره أفنى حياته في العلم والمثابرة حتى نال ما يستحق من رفعة وعلو شأن، وصورهم وقد قضوا حياتهم في جمع المال، والسعي في الوصول إلى رتبته ومكانته، ولكن هيهات لهم ذلك، فقد ابتعدت الشقة بينهم وبينه بُعد الأرض عن السماء، وتجلي ذلك في قوله<sup>(٢)</sup>:

سِيْفِضْحُكَ التَّخْجِيلُ بَيْنَ الْمَسَافِلِ  
 وَأَعْدَاؤُهُ كَمْ حَاوَلُوهَا بِيْطَاطِلِ  
 فَمَا ظَفَرُوا مِمَّا تَمَنَّوْا بِطَائِلِ  
 وَأَيْنَ الثَّرِيَا مِنْ يَدِ الْمَتَطَاوِلِ  
 عَلَى جَمْعِ مَالٍ مَا يَرَى مِنْهُ سَائِلِ

فَقُلْ لِحَسُودٍ لَا يَسُدُّ مَكَانَتَهُ  
 بِحَقِّ حَوَى عِبْدِ الرَّحِيمِ سَيَادَتَهُ  
 تَطَاوُلِ قَوْمٍ كِي يَحَلَّوْا مَحَلَّتَهُ  
 أَمْتَمْتُ نَحْوَ النَّجْمِ رَاحَةً قَاصِرِ  
 أَيُّشْبَهُهُ مِنْ ضَيِّعِ الْعُمَرِ كُلِّهِ

## التعزية

التعزي جزء أساسي من بنية قصيدة الرثاء ، وهو قديم لجأ الشعراء إليه ليتسلوا عن مصابهم، ويخففوا وطأته في نفوسهم ونفوس الآخرين، وقد كان العرب منذ الجاهلية ، يتحاضون على الصبر ، ويعرفون فضله ، ويعيرون بالجزع أهله إيثاراً للحزم وتزيناً

<sup>(١)</sup> ولمزيد من الأمثلة انظر الكرمني ، الكواكب الدرية ، ص ١٩٧ ، ٢٠٤ .

<sup>(٢)</sup> القيراطي ، الديوان ، ص ٢١ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ١/٣٦٣ .



بالحلم، وطلباً للمروءة، وفراراً من الاستكانة إلى حسن العزاء، حتى إن كان الرجل منهم ليفقد حميمه فلا يعرف ذلك فيه<sup>(١)</sup> .

انقسم شعراء هذا اللون من الرثاء إلى اتجاهين في التعبير عن معاني العزاء: اتجاه عزوا فيه أنفسهم والأمة جمعاء بمرثيهم، وآخر توجهوا فيه بالعزاء إلى ذوي المرثيين وأبنائهم.

كانت معانيهم منها ما هو تقليدي درج عليه الشعراء منذ الجاهلية ، ومنها ما هو مستمد من واقعهم ، كأن يتعزوا بأهل الفقيد وأبنائه، ومآثره، ومصنفاته، وتتنوع طرقهم في العزاء ومنها التأسى بموت الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين بذلك فقال: "تعزوا عن موتاكم بي"<sup>(٢)</sup> ، وتحدث المبرد عن شيوع هذه الوصية بعده فقال: "وهذا كلام تلقاه عنه المؤمنون ، ثم أدوه إلى مَنْ بعدهم من إخوانهم المؤمنين، فاحتذى هذا المثل يقيناً وإيماناً جماعة كلهم سلكه فاهتدى، ووصفه فأحسن"<sup>(٣)</sup> ، ومن الأمثلة على ذلك قول تقي الدين الدقوقي في رثاء ابن تيمية<sup>(٤)</sup> :  
لكن لنا عن كلِّ خُلِّ سلوة بمصاب سيدنا النبيِّ محمد  
وقول أحد الشعراء في رثاء النووي<sup>(٥)</sup> :

إن كان يحيى قد حواه لُخْدُهُ فكذا الرسولُ وبَعْلُ فاطمة الرضوي

وتعزى الشعراء عن موتاهم حين تحدثوا عن مشكلة الحياة والموت، فصوروه المصير المحتوم الذي يسعى إليه الخلق كلهم ، والمنهل الذي سيردونه جميعهم، لا حصن بقي منه ولا ملجأ ، ويتجلى ذلك في قول جمال الدين بن نباتة في رثاء تقي الدين السبكي<sup>(٦)</sup> :

(١) المبرد ، التعازي والمرثي ، ص ٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ٨ .

(٤) الكرسي ، الكواكب الدرية ، ص ٢١٧ .

(٥) ابن العطار ، ترجمة الأمام النووي ، ص ٤٩ ،

(٦) ابن نباتة، الديوان ، ص ٤٣ ، السبكي ، طبقات الشافعية ، ٣٩٩/٥ - ٤٠٠ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ٢٨١/١ ، ابن إياس ، بدائع

الزهور، ج ١ ص ١٥٧ .

وَخَفَّفَ الْحُزْنَ أَنَا لَاحِقُونَ بِمَنْ  
إِنْ لَمْ يَسِرْ نَحْوَنَا سِرْنَا إِلَيْهِ عَلَى

مَضَى فَأَمَضَى شِبَابَةَ الْحَادِثِ الْأَشْبِ  
أَيَّامَنَا وَاللَّيَالِي الذَّهَبِ وَالشَّهْبِ

وقول شهاب الدين محمود في رثاء شهاب الدين بن القلانسي (١) :

لَكِنَّهُ طَالِبٌ لَا حِصْنَ مِنْهُ فَمَنْ  
وَمَنْهَلٌ مَالِحٍ فِي الْوَرَى صَدْرٌ  
فَحَقٌّ مَنْ كَانَ هَذَا الْمَوْتُ غَايَتَهُ  
أَرْجَاهُ فِي يَوْمِهِ فَاجَاهُ فِي غَدِهِ  
إِلَّا عَنِ الرَّيِّ فِي أَثْنَاءِ مَوْرِدِهِ  
بَدَأَ الْعِزَّاءَ بِهِ مِنْ يَوْمِ مَوْلِدِهِ

وصوره الشعراء عادلاً يساوي في حكمه بين بني البشر غنيهم وفقيرهم، قويهم وضعيفهم ومن ذلك ما عبر عنه جمال الدين الحمصي إذ قال في رثاء مبارك بن حامد المنعوت بالنقي الحداد (٢) :

وَلَوْ أَنَّهُ مَمَّا يَرْدُ بِقُوَّةٍ  
وَلَكِنَّهُ الْمَوْتُ الَّذِي فِيهِ يَسْتَوِي  
رَدَدْنَاهُ بِالْبَيْضِ الرَّقَاقِ الْبَوَاتِكِ  
فَقَيْرٌ وَمَسْكِينٌ بِرَبِّ الْمَمَالِكِ

وتحدّث الشعراء عن الأمم السابقة وجبايرتها ، وعن الرسل والأنبياء ، وعدادوا بعض أسمائهم ، وتساءلوا عن مصيرهم ، وما فعل الموت بهم ، وتجلّى ذلك في قول جمال الدين بن نباتة في رثاء شهاب الدين محمود (٣) :

أَيُّنَ الْمَلُوكِ الْأَكْبَى كَانَتْ مَنَازِلُهُمْ  
لَمْ يَحْمَهُمْ سَرْدُ دَاوُدَ الَّذِي مَلَكُوا  
تَرَاحِمُ الْبَحْرِ فِي عِزٍّ وَتَشْيِيدُ  
مِنَ الْمَنُونِ وَلَا جَنْدُ ابْنِ دَاوُدَ

وقول أحد الشعراء في رثاء النووي (٤) :

أَيُّنَ الْمَعْمَرُ عَمْرُ سَبْعَةِ أَنْسُرٍ  
أَيُّنَ الْكَلِيمُ الْمَسْتَجَابُ دَعَاؤُهُ  
أَيُّنَ الْخَلِيلُ مَكْسَرُ الْأَصْنَامِ ؟  
بِالشَّامِ حِينَ دَعَا عَلَى بِلْعَامِ ؟

(١) الصفدي ، أعيان العصر ، ٥ ، ١٨٩ .

(٢) البيهقي ، ذيل مرآة الرمان ، ١٥٠/٢ .

(٣) ابن نباتة ، الديوان ، ص ١٥٦ .

(٤) ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٤٦ .

أين النبيُّ محمدُ الهاديُّ إلى سبيل الهدى وحلول دار مقام ؟

ونظر الشعراء إلى المصير الذي انتهى إليه مرثيوهم، إذ أصبحوا تحت التراب من بعد جاه وسلطان، وعلم غزير، ولم يدفع عنهم ذلك الموت، وجعلوا من موتهم دلالة على الزوال والفناء، وموعظة لهم وتسلية لنفوسهم، وتتجلى هذه المعاني في قول نجم الدين اللبّودي في رثاء شمس الدين الخسروشاهي<sup>(١)</sup>:

مصائبك شمسَ الدّينِ تسليةً لنا ومثلي من أضحى بمثلك يُمْتَحِن

وقول ابن نباتة في رثاء القاضي تاج الدين بن الزيات<sup>(٢)</sup> :

ولم أنسَ مسرى نَعْشِهِ يومِ جُمُعَةٍ      تَجَمَّعَ هَمًّا كالخميس إذا سرى  
وقد وَعَظَّتْنَا الحالُ منه كأنَّه      خطيبٌ رقى في صهوة النعش منبرا  
مواعظ من حيث السكوتِ وإنَّها      لأبْلَغُ من نطقِ الفصيح إذا انبرى

وتعزى الشعراء عن مصابهم حين تحدثوا عن الدنيا، ووصفوا متاعها الزائل، وغدرها ببني الإنسان، وقدموا لها صوراً متعددة، فهي كالأفعى التي تخدع الإنسان بملمسها، لكنها لا تلبث أن تعضه بأنيابها<sup>(٣)</sup>. والأمثلة على ذلك كثيرة، نكتفي منها بما جاء في القصيدة التي نظمها شمس الدين الهوارى الأندلسي في رثاء شهاب الدين أبي جعفر الأندلسي، إذ تتميز هذه القصيدة بكثرة الحديث عن مشكلة الحياة والموت، فالدنيا برأيه كالجيفة التي تتقاتل عليها الكلاب وسيفها مُسلّط على رقاب العباد، تغنيهم واحداً تلو الآخر، يقول<sup>(٤)</sup>:

لعمرك ما الدنيا بدار إقامَةٍ      فلنّاس عنها رحلة وذهابُ  
ومن صحب الأيام كرتَ خطوبُها      عليه وكرات الخطوبِ غرابُ  
وكيف خلاصُ المرءٍ منها وخلفه      خيولُ الردى يجريين وهي عرابُ

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٦٠٣.

(٢) ابن نباتة، اللديوان، ص ٢٢٤.

(٣) انظر اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٧٦/٤، الكتيبي، عيون التواريخ / ٢٦٥/٣٢١.

(٤) ابن العمري، كنوز الذهب، ٤٦٩/١-٤٧٠، الطباخ، أعلام النبلاء، ٧٦/٥.

تغرُّ الورى حتَّى إذا أطمعتهمُ  
 رمّتهمُ بأنواعِ الخطوبِ فلم تكنُ  
 وما مثلُ الدنيا وطلابِ مثلها  
 فتباً لها مذ جردتُ سيفَ غدْرِها  
 فطالوا إلى نيلِ المُرادِ وطابوا  
 لتسمعَ شكوى أو يخافَ جوابُ  
 سوى جيفٍ من حولهنّ كلابُ  
 لقتلِ الورى ما جفّ منه ذبابُ

ويصل الشاعر إلى أن الحياة لمع سراب ، ويدعو إلى أخذ العبرة ممن أفنتهم هذه الدنيا وكأنهم ذباب لا قيمة لهم ، ويعطي صورة جميلة حين صور الناس في حياتهم بحبات الماء الذي يعلو على السطح ثم ينطفئ ويتلاشى يقول معبراً عن ذلك (١) :

فكم قنّلتُ من ذي جلالٍ ولم تقلُ  
 لقد راع قلبي من تقلبِ دهرِهِ  
 أرى الناسَ تمضي واحداً بعد واحدٍ  
 همُ كحبابِ الماءِ يعلو فينطفئُ  
 كأن نفوسَ العالمين ذبابُ  
 أمورٌ قضتُ أنّ الحياةَ سرابُ  
 ولم أرهم بعد الترحّل أبوا  
 ولا طمّع في أن يدوم حبابُ

وتعزّي الشعراء عن موتاهم حين وصفوهم يتقلّبون في نعيم الجنة، ويفوزون بمناعها، وقد أكثروا من الحديث عن هذا الجانب، فصوروا سرعة انتقالهم إلى الجنة، واستقبال الملائكة، والهور والولدان، والجنان لهم واستبشارها بهم، واستمدوا معانيهم وصورهم وألفاظهم من القرآن الكريم والحديث الشريف، وعبروا عن الجنة بألفاظ "الفرديوس"، و"عليين" و"دار المقام"، ومن الأمثلة على ذلك قول صلاح الدين الصفدي في رثاء محمد بن أحمد بن سيّد الناس (٢) :

وباتَ بالهورِ والولدانِ مُشْتَغلاً  
 حتّى غدا في جنانِ الخلدِ مُبْتَهَجاً  
 إذ أقبلتَ تتهدى في تلقّيه  
 والقالبُ بالحزنِ يفنى في تظّيه

وقوله في رثاء أثير الدين أبي حيّان (٣) :

(١) ابن العمري ، كنوز الذهب ، ٤٧٠/١ ، الطباخ ، أعلام البلاء ، ٧٦/٥ .

(٢) الصفدي ، أعيان العصر ، ٢١٧/٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ٣٣٠/٥ ، الوافي ، ٢٨٣/٥ ، السيوطي ، بغية الوعاة ، ٢٨٥/١ ، حسن المحاضرة ، ٤٣٩/١ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ،

ما بات في أبيض أكفانه إلا وأضحى سُدساً أخضرا  
تُصافح الحور له راحة كم تَعَبَتْ في كل ما سَطَرا

ومن الأمور التي كانت عوناً للشعراء على الصبر والسلوان ما تركه مرثيوهم من علوم ومصنفات ، وفضائل ضمننت لهم الخلود ، وحسن الثناء ، وكذلك ما تركوا من أولاد ورثوا عنهم العلم والمناقب الحميدة ، وكأنهم يستلهمون معانيهم من قوله صلى الله عليه وسلم : "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة ، إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له" (١) " وتتجلى هذه المعاني في قول ابن الوردي في رثاء كمال الدين بن العجمي (٢) :

إن كان قد مات الكمال فذكره باقٍ ونشرُ علومه يتضوَع

وقول شمس الدين الهواري في رثاء شهاب الدين أبي جعفر (٣) :

أبا جَعْفَرٍ ما ماتَ منَ عاشَ ذِكْرُهُ وَذِكْرُكَ باقٍ لِمَ يَنْلُةُ ذَهَابُ

ورثى جمال الدين بن نباتة الإمام تقي الدين السبكي ، فتعزى عن موته حين صوره وقد ظل مائلاً في شخص ابنه، وأنه لم يغيب منه سوى جسده، فقال (٤) :

ما غابَ عَنَّا سِوَى شَخْصٍ لَوَالِدِهِ وَعَلْمُهُ وَالتَّقَى وَالجُودُ لِمَ يَغِيبُ

ومثله قول شهاب الدين محمود إذ رثى جلال الدين بن القلانسي، وتسلّى عن موته

ببقاء أخيه وابنه (٥) :

ولو لم أسأل القلب عنه برؤيتي أخاه لأودى بي بكائي وتسهيدي  
ولكن لي في أنسيه بعد وحشة لها حرق في مهجتي أي تبريد

(١) مسلم ، صحيح مسلم ، ص ٧٩١ .

(٢) ابن الوردي ، الديوان ، ٤٢٩ / ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ٢٦٤/٣ .

(٣) ابن العجمي ، كوز الذهب ، ٤٧٢/١ ، الطباخ أعلام البلاء ، ٧٨/ ٥ .

(٤) ابن نباتة ، الديوان ، ص ٤٣ ، السبكي ، طبقات الشافعية ، ٣٩٩/٥ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ٢٨١،/١ ابن إيسر ، بدائع الزهور ،

ج ١ ق ١ / ٥٥٧ .

(٥) الصفدي، أعيان العصر ، ١١٧ .

ولي في ابنه ظنٌ جميلٌ وأَنه سيخلفه في الزَّهد والنَّسك والجودِ

وعزَى الشعراء ذوي المرثيين ، وحضوهم على الصبر والتماسك واحتساب موتاهم عند الله سبحانه وتعالى كي ينالوا بذلك أجره وثوابه الذي أعدّه للصَّابرين ويتجلى ذلك في شعر غير شاعر ، ومنهم شهاب الیدن محمود الحلبي، إذ عزَى شرف الدين بن فضل الله العمري بوفاة أخيه محيي الدين (١):

عزاءك محيي الدين في الذَّاهب الذي قضي إذ قضي فرض المناقب والنَّفلا  
فمثلك من يلقي الخطوبَ بكاهلٍ يُقلُّ الذي تعيا الجبالُ له حملاً  
وفي الصبرِ أجرٌ أنت تعرف فضلهُ وأثاره الحسنى فلا تدع الفضلاً  
وسلمَ لأمر الله وارضَ بحكمهٍ تحزُّ منه فضلاً ما برحمتَ له أهلاً

وعزوا ذوي المرثيين حين بينوا لهم أنهم ليسوا وحدهم في المصيبة ، ولكنها عمت الناس جميعهم ، ويتجلى ذلك في قول الصفدي الذي عزى به بهاء الدين السبكي بموت والده تقي الدين (٢) :

فاصبر أبا حامدٍ فالناسُ قد فجعوا فيمن مضى لم تُخصَّصْ أنت دونهمُ  
تشارك الناسُ في هذا العزاءِ كما نُعمى أياديه فيها الناسُ تقنَّسِمُ

(١) الصفدي، أعيان العصر، ١٩٥/٣، الوافي، ٣٢٠، ١٩، الكتي، فوات الوفيات، ٤٢٤/٢ .

(٢) الصفدي، أعيان العصر، ٤٥٢/٣، السبكي، طبقات الشافعية، ٤٠٣/٥ .

الفصل الرابع

رثاء المرأة

يلاحظ المستقري للمصادر التي تحدثت عن أدب العصر المملوكي الأول، ودواوين شعرائه المطبوعة منها والمخطوطة قلة الأشعار التي نظمت في رثاء المرأة، إذا ما قورنت بتلك التي نظمت في ألوان الرثاء الأخرى، كما أن المراثي التي عثر عليها تتسم بالنفس الشعري القصير، إذ لا تعدو كونها مقطوعات لا تتجاوز البيتين أو الثلاثة أو الأربعة أبيات، أما القصائد، فليست كثيرة وطويلة، ويتضمن بعضها موضوعات أخرى طغت على شخصية المرأة المراثية، مما قد يخرجها من موضوع رثائها.<sup>(١)</sup>

ولعل قلة تلك المراثي تعود لأسباب منها:

أولاً: صعوبة رثاء المرأة، وقد تحدث عن ذلك ابن رشيق فقال: "ومن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلاً أو امرأة لضيق الكلام عليه فيهما، وقلة الصفات"<sup>(٢)</sup>، وقد عانى من تلك الصعوبة جمال الدين بن نباتة حين رثى والده ناصر الدين بن عبد الظاهر، فقال يخاطبها:<sup>(٣)</sup>

أذاتَ الحجى إنَّ الحِجَابَ لَيَمْنَعُ      عن اللَّفْظِ حَتَّى فِي رِثَائِكَ يُسْمَعُ

فهي امرأة ذات صون وعفاف يجعل القول في رثائها صعباً، ولعل هذه الصعوبة أكثر ما تواجه الشاعر في رثاء النساء اللواتي لا تربطن به علاقة خاصة، أما محارمه فالأمر في رثائهن أكثر سهولة، فهناك معان كثيرة يمكنه التعبير عنها مثل حديثه عن علاقته بها، وحزنه عليها، ووصف محاسنها، وحياته بعدها، وغير ذلك.

ثانياً: إن قلة تلك المراثي يمكن أن تفسرها النظرة العامة إلى المرأة في العصر المملوكي، فعلى الرغم من أن المصادر والدراسات التي تناولت الحياة الاجتماعية في ذلك العصر، تشير إلى أن المرأة تمتعت "بقسط وافر من الاحترام سواء في ذلك طبقة المماليك أم سائر طبقات الشعب"<sup>(٤)</sup>، وأن دورها كان بارزاً في مجالات الحياة المختلفة

<sup>(١)</sup> سيأتي الحديث عن ذلك في الصفحات القادمة.

<sup>(٢)</sup> ابن رشيق، العمدة، ١٥٤/١.

<sup>(٣)</sup> ابن نباتة، الديوان، ص ٣٠٦.

<sup>(٤)</sup> انظر في ذلك: بيمس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ٢٧، ٨٦، ٨٧، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢/١٨، ٢١، ٢٠٩، ٢٤٥، ٢٦٢، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٧، ٢٩٥، ٣٠١، ٣١٥، ابن بطوطة، الرحلة، ١/٨٣، ١١٣-١١٤، البوسفي، نزهة الناظر، ١٥٨، ٢٦١، ٢٦٢، ٤٠٦، السبكي، معبد النعم وميد النقم، ٦٩، ٧٢، ١٤٠، ابن الأحرار، معالم القرية في أحكام الحسبة، ص ٣٢، المقرئ، السلوك، ١/٤٩٣، ٤٩٥، ٥٢٥، ٢/١٨، ٢٨٣، ٣٦٢، ٤٠٣، ٤١٠، ٥٢١، ٥٠٨، ٤٨/٣، ١٢٨، ١٩٢، ١٧٥، الخطط ٢/١١٦-١٢٣، ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري ١/٥٩، ومن الدراسات الحديثة: د. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١٢٨ وما بعدها.



السياسية والدينية والاجتماعية والثقافية إلا أنها " ظلت محل الازدراء والاستخفاف" (١) من قبل مجتمع الرجال، إذ نظرُوا إليها عل أنها أقل مكانة ورتبة منهم، وأنها مجرد أداة للمتعة، وأن " دورها لا ينبغي أن يتعدى دور ربة المنزل القائمة على تدبير شؤون المأكل وتربية الصغار" (٢)، وعبر عن تلك النظرة أدب ذلك العصر، وكتب مؤرخه، والأمثلة على ذلك كثيرة، فقد بينت أن بعض الناس كان إذا بشر بالأنثى أسود وجهه، وامتلاً غيظاً، روي أن زوجة الأشرف خليل بن قلاوون كانت حاملاً، وكان زوجها يأمل أن يأتيه ذكر فاستعد للاحتفال بقدمه، وأسرف في ذلك، وبالغ في الإسراف، ولكن زوجته وضعت أنثى " فلما بلغه الخبر خامره الغيظ العظيم" (٣).

وقد أحسّ بالشعور ذاته سراج الدين الوراق حين رزق ببنت فقال معبراً عن ذلك: (٤)

رُزِقْتُ بِنْتاً لَيْتَها لَمْ تَكُنْ      فِي لَيْلَةٍ كَالذَّهْرِ قَضِيَّتِها  
فَقِيلَ: ما سَمِيَّتِها قَلْتُ لَوْ      مَكُنْتُ مِنْها كُنْتُ سَمِيَّتِها

وعدّ بعض الناس المرأة ضعيفة الرأي لا قدرة لها على اتخاذ القرارات الحاسمة، ولذا فالغالب أنها كانت تجبر على الزواج، إذ لم يكن لها رأي في اختيار شريك حياتها، فقد ظل الرأي الأول والأخير لوالدها وربما شاركته في ذلك أمها، (٥) ووقف بعضهم موقف الرفض من تعليم المرأة، فقد بلغ الأمر بابن بسام أن عدّ تعليمها شراً، للناس فقال معبراً عن ذلك " ولا يعلم الخطّ لامرأة ولا جارية لأن في ذلك مما يزيد المرأة شراً، وقد قيل إن المرأة التي تتعلم الخط كمثل الحية تسقى سماً" (٦) وبلغ الأمر بهم أنهم نظرُوا إليها على أنها رمز للغدر والخيانة وقلة الوفاء، وكفران العشير، وهذا ما عبر عنه الشاعر برهان الدين القيراطي في قوله: (٧)

(١) د. عبد الجليل عبد المهدي، المرأة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والملوكي، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ٣٨٤، سنة

١٩٩٠، ص ٣٥-٧٥. حلود حراة، المرأة في أدب الدولة المملوكية الأولى، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٣م.

(٢) د. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١٣١.

(٣) بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية، ص ١٣٤، المقرئ، السلوك، ٣/٣٥٤-٣٥٤.

(٤) الصفدي، فض الحتام، ص ٢١٤، ولزيد من الأمثلة انظر فوزي أمين، أدب العصر المملوكي الأول، وحلود حراة، المرأة في أدب الدولة

المملوكية الأولى، ص ٣٣ وما بعدها، ص ٢٩٨ وما بعدها.

(٥) انظر السخاوي، التبر المسبوك، ص ٣٩١، المقرئ، إيغاة الأمة، ص ٦، د. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ١١٩-١٢٠.

(٦) ابن بسام، هاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ١٦٢.

(٧) القيراطي، الديوان، ص ١١١.

فَبَرِّقُ الْوَقَا مِنْهُنَّ يَا صَاحِ خَلْبُ  
 وَإِنْ صَدَنْ مَوْلَانَا فَهِنَّ حَبَائِلُ  
 وَقَدْ يَفْلَتُ الطَّيْرُ الْمَصِيدُ فِيهِرْبُ  
 وَعَيْشُكَ لَا تَرْضَى النَّسَاءُ مَعِيشَةً  
 وَلَوْ أَنَّهَا مِنْ جَنَّةِ الْخُلْدِ تُجَلِّبُ  
 وَمَا زَلَنْ يَكْفُرَنَّ الْعَشِيرَ سَجِيَّةً  
 وَيَنْكُرْنَ خَيْرًا فِيهِ سَعْيِي وَمَدَّابُ

وأخذ العامة على بعض القضاة في ذلك العصر أنه إذا تحاكم إليه رجل وامرأته نصر المرأة مما جعلهم يثورون على القاضي ويضربونه بالنعال وينهبون بيته. (١) ويتحدث السبكي في كتابه "معيد النعم" عن جوانب من تلك النظرة السلبية، يقول: " وكثير من العرب لا يتزوجون المرأة بعقد شرعي، وإنما يأخذونها باليد، وربما كانت في عصمة واحد فنزل عليها أمير غيره، واستأذن أباهَا وأخذها من زوجها ..... ومن قبائحهم أنهم لا يورثون البنات ولا يمنعون الزنى في الجواري، بل جواريهم يتظاهرن بالزنا مع عبيدهم"، (٢) ويؤكد تلك النظرة ابن بطوطة، إذ بين بعد أن زار مدينة عيذاب ووقف عن كذب على موقف أهلها من المرأة أنهم لا يورثونها. (٣) وكثيراً ما تعرضت النساء في ذلك العصر للامتهان وهتك الاستار، من قبل أمراء المماليك، فقد كانوا يأخذون من حرم الناس دون أن يجروا أحد من العامة على ردهم، (٤)، يذكر اليوسفي أن الأمير أيدكين الأركشي والي القاهرة زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون كان ظالماً يظلم الناس، ويهتك المساتير، (٥) وأقدم بعضهم على التتكيل بهن وربطن بالحبال والزناجير، (٦) وربما أجبرن على الإقامة الجبرية في بيوتهن، فقد جاء في حوادث ٦٥٣هـ أن الملك المعز أيبك أمو " ألا تخرج امرأة من بيتها، ولا يمشی رجل بلا سراويل، فقال أبو الحسين الجزارفي ذلك (٧)

حَنَا الْمَلِكُ الْمُعَزُّ عَلَى الرَّعَايَا  
 وَأَلْزَمَهُمْ قَوَانِينِ الْمُرُورَةِ  
 وَصَانَ حَرِيمَهُمْ مِنْ كُلِّ عَارٍ  
 وَأَلْبَسَهُمْ سَرَاوِيلَ الْفُتُوَّةِ

(١) انظر ابن حجر، الدرر الكامنة، ٤٢/٢، د. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١٣٢.

(٢) السبكي، معيد النعم، ص ٥٥، وانظر ابن طولون، نقد الطالب إلى زغل المناصب، ص ٨٣.

(٣) انظر ابن بطوطة، الرحلة، ٣٩/١.

(٤) انظر السبكي، معيد النعم، ص ٥٢، المقرئ، السلوك، ٢٤٨/٣، ٢٨/٢، ابن طولون، نقد الطالب، ص ٨٣.

(٥) انظر اليوسفي، نزهة الناظر، ص ٢٣١.

(٦) انظر ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٣٢٤/٢.

(٧) المقرئ، السلوك، ٤٨٧/١.

وتجلت جوانب من تلك النظرة السلبية إلى المرأة في الأشعار التي نظمت في رثائها، فعلى الرغم من أن الشعراء كانوا يهدفون إلى الإشادة بها، ورفع منزلتها في تلك المراثي إلا أنهم لم يستطيعوا التخلص من إسار النظرة العامة، فعكسوا أفكاراً منها في مراثيهم، ومنها ما جاء في قول زين الدين بن الورد في رثاء الشیخة المسندة أم محمد أسماء بنت محمد بن صصري المتوفية سنة ٧٣٤هـ (١) :

كذلك فلتنكأخت ابن صصري      تفوق على النساء صبياً وشيياً  
طراز القوم أنثى مثل هذي      وما التأنيث لاسم الشمس عيباً

يضمن الشاعر شطر بيت للمتنبى من قصيدته المشهورة التي رثى بها أخت سيف الدولة وهو "وما التأنيث لاسم الشمس عيباً"، فيكشف عن نظرة عامة في مجتمعه، إذ كانوا يعيبون على الشمس أنها أنثى، ويؤكد ذلك أن غير شاعر ضمنوا الشطر ذاته في هذا اللون من الرثاء. (٢)

ويعبر ابن الورد عن ملامح من تلك النظرة حين يرثى ابنته، ويكيها بكاء مرأ، فيحاول بعض أصحابه أن يخفف عنه، ويبين له أنها لا تستحق كل ذلك البكاء والتوجع لأنها عورة سترها التراب، لكن ابن الورد يرفض ما قاله صديقه، ويرد عليه بقوة إذ بين له مكانتها من نفسه فهي جزء لا يتجزأ من كيانه وتستأهل ما نثره عليها من دموع، يقول (٣)

أثر الحزن بقلبي أنراً      يوم غيبت الثريا في الثرى  
إن تآلمت فقلبي موجع      أو تصبرت فمثلي صبرا  
درة يا طالما حجبها      وبرغمي نبذوها بالعرأ  
عنف العاذل في حزني ومن      حقه تمهيد عذري لو درى  
قال: هذي عورة قد سترت      قلت: لا بل ذاك بعضي قبرا  
فلذة الكبد التي لمآ نأت      نثرت منظوم دمعى درأ

(١) ابن الورد، تاريخ ابن الورد، ٢/٢٩٤، الديوان، ص ٤٨٢.

(٢) انظر ابن الورد، الديوان ص ٧٥.

بُعِدَتْ صَارَ بَكَائِي أَكْثَرًا  
وَكَفَى مِنْ رَوْعِ بَيْنِي مَا جَرَى

كُنْتُ أَبْكِي مِنْ تَشْكِيهَا فَمَنْذُ  
فَجَرَى مِنْ دَمْعِ عَيْنِي مَا كَفَى

ويعزى الشاعر جمال الدين بن نباتة بامرأة، فيقول: (١)

يا آل بيت العلاء والفضل والحسب  
فما يضر زوال السبعة الشهب

تفدي كرام الحمى منكم كرائمه  
أما وقد بقيت عليا سمانكمو

يمدح الشاعر أهل الفقيدة فيبين لهم أن موت امرأتهم ليس خسارة كبيرة، فذلك لا يضيرهم، " طالما بقي سادة البيت ورجاله، فكرائم النساء فداء لكرائم الرجال على حد قوله" (٢).

وتتجلى المعاني السابقة في قول الشاعر نفسه يعزى بامرأة، ويصورها تأتي بالدرجة الثانية بعد الرجال: (٣)

وَيَعْبِقُ الرَوْضُ إِنْ وَلَّتْ كَمَائِمُهُ  
صَرَفَ الزَّمَانَ وَلَا تُرْهِبُ عِظَائِمُهُ  
وَلَا التَّنْبِتُ مَنْقُوصٌ عِزَائِمُهُ

يَفْدِي كِرَامَ الْحِمَى مِنْكُمْ كِرَائِمُهُ  
يَا آلَ تَغْلِبَ لَا يَغْلِبُ تَصَبَّرُكُمْ  
لَيْسَ النَّفَائِسُ مِمَّا تَأْسَفُونَ بِهَا

فالمكان لا يخلو بموت المرأة ما دام الرجل يملؤه، كما أن الروض لا يضيره سقوط إحدى زهراته.

وهكذا تتجلى الصورة عن موقف طائفة من الناس من المرأة في العصر المملوكي الأول، وهو موقف يمتد في جذوره إلى العصر الجاهلي، تلك الجذور والأفكار التي توارثها الناس حتى وصلوا بها إلى ذلك العصر، ولم تستطع مبادئ الإسلام التي جاءت تضمن العدل والمساواة بين الجنسين أن تغيرها.

وعلى الرغم من ذلك فإن الأشعار التي قيلت في رثاء المرأة تكشف أيضا عن النظرة الإيجابية لها في ذلك العصر.

(١) ابن نباتة، الديوان، ص ٤٨.

(٢) د. فوزي أمين، أدب العصر المملوكي الأول، ص ٢٩٧.

(٣) ابن نباتة، الديوان، ص ٤٦٠.

أما عن الأشعار التي وصلت إلينا في رثاء المرأة فهي قسمان:

قسم نظم الشعراء في رثاء محارمهم، وذوات العلاقة الخاصة بهم من النساء، مثل:

الزوجة والأم والبنت والجارية، ولم يعثر على مرث في الأخت والعمة والخالة.

وقسم نظموه يعزون فيه أصدقاءهم أو من تربطهم بهم علاقة ود ومحبة بإحدى

نساءهم كأن يواسونهم بموت أمهاتهم أو زوجاتهم أو بناتهم أو أخواتهم، وقد حظيت أم

الصديق بنصيب الأسد في هذا القسم.

وكان جمال الدين بن نباتة، وابن الوردي، وبرهان الدين القيرواني أكثر الشعراء

قولا في هذا الاتجاه من الرثاء.

وتعددت المضامين التي قدمها الشعراء في مرثي المرأة، فقد صوروا فيها

مشاعرهم الحزينة، وأشادوا بمآثرهن وصفاتهن، ومدحوا أهاليهن، وبنوا فيها نفثات من

الحكمة والموعظة، والمعاني الفلسفية حين تناولوا مشكلتي الحياة والموت.

وبرزت العاطفة الصادقة بصورة جليلة في الأشعار التي نظمها الشعراء في رثاء

محارمهم، وذوات العلاقة الخاصة بهم. أما في الأشعار التي قالوها في رثاء النساء

اللواتي لا تربطهم بهن تلك العلاقة، فقد ظهرت عاطفتهم فيها بصورة باهتة وباردة،

وربما اختفت منها تماماً، ويفسر ذلك أنهم لم يقصدوا فيها بث أشجانهم ولوعتهم، وإنما

قصدوا تأدية واجب عليهم تجاه صديق أو أحد أرباب الدولة. وقد دفعهم ذلك الشعور

بواجب الوفاء، وتقدير فروض العزاء أن يعتذروا في أشعارهم عن تقصيرهم، وعن عدم

تمكنهم من المشاركة في مراسيم الدفن والجنائز، وهذا ما يوضحه قول محمد بن سليمان

الجعبري في تعزيتة علم الدين البرزالي بوفاة ابنته، إذ عبر فيه عن حرجه وخجله واعتذر

عن عدم تمكنه من أداء الواجب لمرض ألم به: (1)

عَنِ السَّعْيِ مَعَ مَنْ رَاحَ مَعَهَا إِلَى الْقَبْرِ

بِهَا قَدْ حُرِمْتُ النُّومَ مِنْ وَجَعِ الظَّهْرِ

وَفِي وَجَعِ بِي قَدْ عَدِمْتُ بِهِ صَبْرِي

بِهَذَا الَّذِي قَدْ صَارَ بِي وَاضِحَ الْعُذْرِ

أَنَا خَجَلٌ يَا مَالِكِي مِنْ تَخَلُّفِي

وَلَكِنِّي فِي شِدَّةِ بِي مَضْرُوبٌ

وَلِي هَكَذَا مِنْ مُدَّةٍ فِي تَأَلْمٍ

وَإِنِّي مَعَ النِّقْصِيرِ بِي حَقِيقَةٌ

(1) ابن الجعبري، تاريخ ابن الجزري، ٨٤١/٣.

وهذا الواجب هو الذي دعا جمال الدين بن نباتة إلى رثاء والده الكاتب ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر، إذ كان لذلك الكاتب أباد بيضاء على الشاعر، فقد كان يكرم جانبه، ويجود عليه، ولذا سعى ابن نباتة إلى مواساته، والتخفيف عنه، فحزن لحزنه، وشاركه في البكاء، ولكن دموعه لم تكن تعبر عن تعاسة حقيقية، وإنما هي دموع الوفاء والواجب، يقول: (١)

ولكن تطويقي لهيَ ناصرِيَّةَ      تَحْتُ عَلَى أَنِّي أَنُوحُ وَأَسْجَعُ  
وَلَمْ لَا وَقَدْ أَبْصَرْتُهُ مُتَحَرِّقاً      بِفِرْقَةٍ حَبِّ رَاحِلِ لَيْسَ يَرْجِعُ  
أَيْسُرُ لِي بِالْمَالِ جُوداً وَلَا أَرَى      بِمَاءِ جَفُونِي جَائِداً أَسْرَعُ

وفي الأعم الأغلب لا تكون دموع الشعراء سخية، وأحزانهم صادقة، وهم يرثون نساءً لا مكانة لهن في حياتهم ونفوسهم، ولا صلة تربطهم بهن سوى أنهم نساء أصدقاء، وقد أوما ابن رشيقي إلى ذلك حين بين أن الطريقة الدارجة في رثاء المحارم والقربيلت أن يعبر الشعراء عن جزعهم، وشجونهم وتباريحهم بحرارة وصدق، وعدها " الغاية التي يجري حذاق الشعراء إليها.. ما لم تكن المرثية من نساء الملوك، وبنات الأشراف، وغير ذوات المحارم، فإنه يتجافى عن هذه الطريقة إلى أرفع منها" (٢)، فهو يميز بين طريقتين في رثاء المرأة:

الطريقة التي ينهجها الشاعر في رثاء محارمه وقربياته، والطريقة التي يسلكها حين يعزي غيره بنسائهم، وفيها يجدر به أن يتجافى عن الحزن والبكاء، ويستعويض عنه بالمعاني الدالة على جلالة قدرهن، وشرف نسبهن، ومنزلتهن الرفيعة في قومهن، وهذا معنى قوله: "فإنه يتجافى عن هذه الطريقة إلى أرفع منها"، ويؤكد ذلك الأمثلة التي استشهد بها على المعاني السابقة. (٣)

وتلك الطرق هي التي جرى إليها الشعراء في هذا اللون من المراثي، لكن هذا لا يعني أنهم لم يصرحوا بأحاسيسهم وآلامهم على نساء الأصدقاء، بل فعلوا ذلك، إلا أن مشاعرهم جاءت مفتعلة وزائفة، إذ لا حرارة فيها تثير نفوس المتلقين وتجعلها تتوجع على

(١) ابن نباتة، الديوان، ص ٦٠٦.

(٢) ابن رشيقي، العمدة، ١٥٦/٢.

(٣) انظر ابن رشيقي، العمدة، ١٥٦/٢.

حالهم، وترثي لها، فالشاعر صلاح الدين الصفدي يعزي أثير الدين أبا حيان بوفاة ابنته نزار فيتصنع، ويأتي بالجناس والطباق الأمر الذي أخفى صدق مشاعره، وحدّ من انفعالاته، يقول: (١)

بَكَيْتُ بِاللَّجِينِ عَلَى نُضَارٍ      فَسَيْلُ الدَّمْعِ فِي الْخَدَيْنِ جَارٍ  
فِي اللَّهِ جَارِيَةٌ تَوَلَّتْ      فَنَبِّكِيهَا بِأُدْمَعِنَا الْجَوَارِي

ويكشف جمال الدين بن نباتة عن حزنه ودموعه في قوله يعزي بطفلة: (٢)

لَقَدْ وَضَعَ الْأَسَى حُزْنَآ عَلَيْهَا      وَقَدْ طَلَعَتْ شَجُونٌ مِّنْ ثَنَائِيَا

ويعزي الإمام علي بن عبد الكافي السبكي صديقة الإمام تقي الدين السبكي بوفاة والدته، فيدعوه إلى التجلد والتماسك في مصابه، ويعبر الشاعر عن حزنه وتألمه لوفاة تلك المرأة، ويكشف عن أثر ذلك في جسده وحياته فيقول: (٣)

تَسَلَّ تَقِيَّ الدِّينِ عَن فُقْدِ مَنْ أودَى      وَأُحْرَقَ لِي قَلْبًا وَشَيْبَ لِي فَوْدَا  
لَقَدْ بَانَ عَنَّا مُذْ تَرَحَّلَ شَخْصُهَا      سُرُورٌ وَآلِي لَا يُوَاصِلُهَا عَوْدَا

ونقل الشعراء مشاعر أصدقائهم الحزينة على من مات من نساتهم، وبينوا أن معاناتهم لم تقتصر عليهم، ولكنها تجاوزتهم إلى الناس جميعاً، ويوضح ذلك قبول جمال الدين بن نباتة يعزي بامرأة: (٤)

أَجَلٌ ذِكْرُكَ عَن سَعْدٍ وَأَعْلَمُ مَا      تَلَقَى الْعُلَا بِكَ مِنْ هَمٍّ وَمِنْ حَرْبٍ

وتتجلى المعاني السابقة في القصيدة التي نظمها الشاعر ذاته وعزى بها الكاتب ناصر الدين بن عبد الظاهر بوفاة والدته، إذ عبر فيها عن حزن ذلك الكاتب، وقارن بين

(١) الصفدي، الرواي، ١٢٤/٢٧.

(٢) ابن نباتة، الديوان، ص ٥٧٣.

(٣) السبكي، طبقات الشافعية، ٩٧/٥.

(٤) ابن نباتة، الديوان، ص ٤٨.

حالته وحال أمه، فهو يكتوي بنيران الحزن والأسى، أما هي، فتتعم في جنان الخلد،  
يقول: (١)

يعزّ عليها نار حُزْنٍ تَمَسُّهُ      وتلك بجَنّاتِ العُلا تَتَمَتَّعُ  
ولو بَلَغَتْ ما مَسَّه من مُصابِها      لكادتُ به في جَنَّةِ الخُلْدِ تجزَعُ

أما في مرثي المحارم من النساء وذوات القربى، فقد عبر الشعراء فيها عن  
انفعالات حقيقية، وأحاسيس صادقة، إذ صوروا معاناتهم، وما فعله بهم الجوى والشوق،  
وبكوهن بكاء صبباً أضناه البعد والجفاء، وتحدثوا عن ولعهم وهيامهم وولهمهم، وكشفوا  
عن العلاقة المتينة التي كانت تجمعهم بهن.

وقد ربط النقاد العرب القدامى منهم والمحدثون بين موضوع رثاء المرأة، والغزل  
الباكي، ذلك أن الشاعر الذي هجرته محبوبته يعبر في شعره عن تعاسته وحنينه إليها،  
وتشوقه، ويصف ما فعله الفراق به، ويصور مفاتنها ومواطن الجمال فيها، والمعاني ذاتها  
ينطق بها الشاعر الذي رثى امرأة هجرته بالموت، ولعل ذلك ما دفع حازماً القرطاجني  
إلى بيان أنه لا فرق بين الغزل ورثاء المرأة سوى أن الأول توجع على امرأة حية،  
والثاني توجع على ميتة، يقول معبراً عن ذلك: " والفرق بين النسب المقترن به وصف  
حال توجع القائل، ورثاء النساء به حال توجعه أيضاً أن النسب بموجود والرثاء  
لمفقود". (٢) ويقيم الدكتور عناد غزوان كتابه المعنون بـ " المرثاة الغزلية في الشعر  
العربي" على فكرة الربط بين الغزل الباكي ورثاء المرأة، وقد وضح ذلك في مقدمة كتابه  
إذ قال: " أما الرثاء فيشترك مع شعر الغزل في التعبير عن معنى الألم والأسى سواء أكان  
ذلك بكاء على عزيز غال، أم ندباً على حبيبة جميلة، والرثاء في رسمه لصوره الباكية  
الحزينة ينتزع تشبّهاته وأخيلته من واقع الأحداث المرتبطة بصاحب المرثاة، فلا غرابة  
إذا ما تفاعل الرثاء بواقع الحياة وعبر عن بعض هموم الشاعر ومشاعره عن طريق  
الحزن واللوعة والتحسر والبكاء، إن رثاء الحبيب لحبيبه أو الزوج لزوجته وبالعكس لا  
يختلف كثيراً في مظهره الحزين عن شعر الغزل الباكي، والذي يرثي به الشاعر تجربته  
وخيبة أمه، بل يرثي نفسه فيه، هذه الظاهرة الفنية النفسية جعلتني أحس بأن مثل هذا

(١) ابن نباتة، الديوان، ص ٣٠٧.

(٢) القرطاجني، منهاج البلغاء، ص ٣٣٩.



الغزل هو رثاء، ومثل هذا الرثاء هو غزل"،<sup>(١)</sup> وبناء على ذلك عرّف الكاتب المرثاة الغزلية بأنها تلك التي تجمع بين البكاء على المرأة الجميلة، وبين التغزل بها وبمفاتيحها.<sup>(٢)</sup> إن ما ذهب إليه أولئك النقاد حق في بعض جوانبه، فموطن الاتفاق بين الغزل الباكي ورثاء المرأة يكمن في المعاني التي أشير إليها آنفاً، ولكن في الوقت ذاته هناك اختلافات بين الموضوعين ففي شعر الرثاء معان يعز وجودها في شعر الغزل مثل الحديث عن القبر والجنة والمصير، ومشكّلاتي الحياة والموت.

وتبين من البحث آنفاً أن الشعراء ندبوا بناتهم وأمهاتهم وزوجاتهم وجواريتهم وتوجعوا لفراقهن، وقد مرت في الصفحات الماضية قصيدة ابن الوردي التي رثى بها ابنته، فبكاها بكاءً مرأً، وزجر فيها من لا موه في ذلك إذ بين لهم أنها فلذة الكبد والحبيبة الغالية التي يحق عليها البكاء. وفي الحقيقة إن مرثي الأبناء والبنات من أكثر ألوان الشعر ذاتية فالعاطفة تبرز فيها جياشةً وصادقة، إذ لا مجال لتزييفها أو الشك فيها، فمن أغلى على الإنسان من هؤلاء فيبكيه ويتماوت في بكائه؟.

وممن ندبوا بناتهم الشاعر شهاب الدين بن الخيمي، فقد رثاها بقصيدة تفيض بمعاني اللوعة والأسى، وتنعكس بكل صدق حالته النفسية، وحياته التعيسة، يقول منها.<sup>(٣)</sup>

إني لأكره أن أنام فالنقي	بك في الكرى خوف الفراق الثاني
ويلد لي سكن الثرى إذ صيرت سا	كنة به والدار بالسكان
ويقول خال القلب: تلك صغيرة	لا تستحق أسى على الفقدان
يا صاح إن العين وهي صغيرة	فضلت كبار جوارح الإنسان
والقلب يا هذا على صغر به	مأوى العلوم ومنزل الرحمن
وأبيك إن أحق مفسود بأن	نحني الضلوع له على الأحران
ويعز فيه عند مخلفه العزا	من لم يسيء بيد ولا بلسان
لم تكتسب إثماً لجارحة ولم	تملأ لها صندراً من الأضغان

(١) د. عناد غزوان، المرثاة الغزلية، ص ٢-٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٤.

(٣) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبيصار، ١٢/١٩٣.

إن الأبيات السابقة لوحةً حزينةً تعبر عن نفثات أب محزون يجفو النوم حتى لا يرى فيه ابنته فيفقدوها مرةً أخرى، ويلدّ في فمه طعم الموت بعدها، وتظهر هنا صورة اللائم الذي يعاتب الشاعر على بكائه تلك الصغيرة، ولكنه يرد عليه كما رد ابن الوردي من قبل بأنها أحقّ موجود بالدموع، وبأن تحنى عليها الضلوع من الأسى، ويحاججه بالدليل العقلي فإذا كانت تلك البنت صغيرة فإن العين والقلب وهي أصغر أعضاء الإنسان وجوارحه، ولكنها مع ذلك أرفعهن رتبةً ومنزلةً، ويتعزى الشاعر في نهاية الأبيات عن موتها بأنها قضت دون أن ترتكب الخطايا والآثام، ودون أن تقدم إساءةً لأحد من الخلق.

أما أمهات الشعراء، فإنهن لم يحظين بنصيب كبير من مراثيهم، ولم يعثر إلا على مقطوعة واحدة نظمها رشيد الدين الفارقي في رثاء والدته، وفيها تبرز المعاني الدينية جلية، ويظهر استسلام الشاعر لقضاء الله وقدره وصبره على حكمه، يقول: (١)

إنّا لله وإنّا إليه راجعون      ولدعوة داعية سامعون  
وإنّا على قضائه صابرون      وإلى الرضا والتسليم صائرون

أما الزوجات، فقد رثاهن غير شاعر، وفجعوا بموتهن فهم قد فقدوا الأنيس الذي شاركهم أكثر أيام العمر حلوها ومرها، وصبر معهم على مشاقها، ولذا بدوا في أشعارهم بمظهر متيم سلاه الحبيب، فهذا القاضي علم الدين المعروف بابن كاتب قراسنقر يرثي زوجته، فيصور منزلتها من نفسه، وحبه العظيم لها فيقول: (٢)

إنّي لأعجبُ لاصطباري بَعْدَ ما      قَدْ غُيِبَتْ بَعْدَ التَّنْعَمِ فِي الثَّرَى  
هَذَا وَكُنْتُ أَغَارُ حَالَ حَيَاتِهَا      مِنْ مَرِّ عَاطِفَةِ النَّسِيمِ إِذَا سَرَى

ويتعزى الشاعر ذاته عن موت زوجته، فيخاطب قلبه ويحثه على الصبر والسلوان مبرراً موتها بالموت الذي هو مآل كل حي، يقول: (٣)

(١) ابن الجوزي، تاريخ ابن الجوزي، ١٠/١.

(٢) الصفدي، الوافي، ٣٤٢/١٥.

(٣) العمري، مسالك الأبيصار، ج ١١ ق ١٦٠/١، الصفدي، الوافي، ٢٤٣-٣٤٢/١٥.

أَقُولُ لِقَلْبِي حِينَ غَيْبِهَا الثَّرَى  
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لِلْفَتَى أَلْفُ حِيلَةٍ

تَسْأَلُ فَكُلٌّ لِلْمَنْزِلَةِ صَائِرُ  
وَلَا حِيلَةَ فَيَمُنُ حَوْتُهُ الْمَقَابِرُ

ورثى الشاعر جمال الدين بن نباتة زوجته بقصيدة بلغت ثمانية عشر بيتاً بدا فيها بصورة زوج ملثاع، ومفجوع بزوجة غالية، يقول فيها: (١)

هَجَرْتُ بَدِيعَ الْقَوْلِ هَجْرَ الْمَبَايِنِ  
وَكَيْفَ أَعَانِي سَجْعَةٌ أَوْ قَرِينَةٌ  
فَوَاللَّهِ مَا أُدْرِي لِحَسَنِ خَلَائِقِ  
إِلَى اللَّهِ أَشْكَو يَوْمَ فَقْدِكَ إِنَّهُ  
وَكُنْتُ أَخَافُ الْبَيْنَ قَبْلَكَ وَالنَّوَى  
شَكُوتُ زَمَانًا خَانَ بَعْدَ أَحِبَّتِي  
فَلَوْ طَابَ لِي طَابَتْ حَيَاتِي بَعْدَهُمْ  
فَلَا بِالْمَعَالِي لَا وَلَا بِالْمَعَايِنِ  
وَقَدْ فُقِدْتُ مَنِي أَجَلَ الْقَرَائِنِ  
تَسْحُ جَفُونِي أَمْ لَخَلْقِ مَحَاسِنِ  
عَلَيَّ لِيَوْمِ الْحَشْرِ يَوْمِ التَّغَابِنِ  
فَأَصْبَحْتُ لَا أَسَى عَلَى إِثْرِ بَائِنِ  
وَبَالَغَ فِي الْعَدْوَى وَبِثَّ الضَّغَائِنِ  
وَكُنْتُ الْأَقْبَهُمُ بَطْلَعَةَ خَائِنِ

يعبر الشاعر عن حبه لتلك الزوجة والتصاقها بنفسه ووجدانه، فقد كانت من أجل زوجاته منزلة، يعشقها ويبتاعها في عشق جمالها وحسن خلقها، ولذا كان موتها فاجعة سلبته القدرة على نظم الشعر، وتركته مذهولاً يعاني أهوال يوم القيامة، ويشكو الشاعر الزمان ويحمله مسؤولية ما جرى لزوجته، ويسمه بالعدو الذي طالما وقف له بالمرصاد وسلب منه طعم السعادة.

وتموت زوجة الشاعر سراج الدين الوراق، ولكنه لا يأسى عليها مثل غيره من الشعراء، ويؤكد ذلك أنه نسي حادثة موتها، وتعزى عنها بدراهم بعثها له بهاء الدين بن حنا، يقول معبراً عن ذلك: (٢)

أَنْتَنِي صَنْجَةً (٣) وَأَتَتْ مَعَادَهُ  
وَأَنْسَيْتَنِي مَصِيبَةً مَنْ تَوَلَّاتْ  
عَلَى عَادَاتِهَا وَالْخَيْرُ عَادَهُ  
فَلَا وَلَّاتْ عَنِ الْمَوْلَى السَّعَادَهُ

(١) ابن نباتة، الديوان، ص ٥١٦-٥١٧، الصفدي، الغيث المسجم، ٢/٢٣٤.

(٢) الصفدي، الغيث المسجم، ٢/١٨٥.

(٣) نوع من الدراهم.

وحظيت الجواري بنصيب الأسد من مراثي الشعراء، وهذا يدل على المكانة المرموقة التي بلغنها آنذاك، ويعكس مظهراً اجتماعياً، وجانباً من الحياة في ذلك العصر الذي زخر بالجواري اللواتي جلبن من سبي الحروب، ومن بلاد الفرنج والأتراك والمغول، وقد شغف سلاطين المماليك باقتنائهن، ودفعوا الأموال الطائلة في شرائهن، وحاكاهم في ذلك الأمراء وعامة الناس كل حسب سعته،<sup>(١)</sup> والأمثلة على ذلك كثيرة، ومنها ما قيل بحق الملك الناصر محمد بن قلاوون فقد روي أنه كان مغرماً بهن، " فكتب إلى أعمال مصر ببيع الجواري المولدات، وحملهن إليه، وأخذهن حتى من المغنيات فزادت عدتهن عنده على ألف ومائتين وصيفة"،<sup>(٢)</sup> وذكر المقرئ أن مقداد بن شماس أحد أمراء العربان " بلغ عدد جواريه أربعمائه جارية"،<sup>(٣)</sup> ونقل اليوسفي أنه كان لشخص يدعى ابن زعازع مائتان وعشرون جارية.<sup>(٤)</sup>

ومن يطالع كتب ذلك العصر يرى أن اقتناءهن أصبح أمراً عادياً ومتقشياً في المجتمع المملوكي، وأن وجودهن أصبح أمراً قائماً تُسنّ له القوانين والشرائع لتنظيمه.<sup>(٥)</sup> وقد كان هناك سوق خاصة لبيعهن عرفت " بسوق الجواري"<sup>(٦)</sup>، وغيرها من الأسواق حيث كانت تباع فيها الرقيق، "كما تباع الأنعام والمواشي، ولكل سوق منها دلال يجيد عرض البضاعة والترويج لها، وإظهار محاسن الجارية ذات الوجه الجميل أو الصوت العذب أو غير ذلك من ضروب الفتنة والإغراء".<sup>(٧)</sup>

ومن الشعراء الذين رثوا جواريهم ابن نباتة المصري، وزين الدين بن الوردي، أما ابن نباتة، فقد رثى جارية له غير مرة، ويبدو من شعره أنها كانت " مريضة بالسل ويظهر أنها توفيت بهذا الداء بعد أن أصبح مرضها عضالاً وطال عليه الأمد"،<sup>(٨)</sup> وقد رثاها بقصيدة تجلت فيها العاطفة الصادقة، ومعاني الأسى والحزن والعشق، يقول فيها:<sup>(٩)</sup>

<sup>(١)</sup> انظر، د. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١٣٢.

<sup>(٢)</sup> المقرئ، السلوك، ٣١٨-٣١٩، وانظر ٦٦/٣، اليوسفي، نزهة الناظر، ص ١٣١.

<sup>(٣)</sup> المصدر نفسه، ٤٨٩/٢.

<sup>(٤)</sup> انظر اليوسفي، نزهة الناظر، ص ٢٤٥.

<sup>(٥)</sup> انظر: د. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١٣٣.

<sup>(٦)</sup> المقرئ، الخطوط، ٧٩/٣.

<sup>(٧)</sup> د. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١٣٣.

<sup>(٨)</sup> ابن نباتة، الديوان، ص ٧٣.

<sup>(٩)</sup> المصدر نفسه، ص ٧٣-٧٤.

أقيما فروض الحُزن فالوقتُ وقتُها  
ولا تبخلا عني بإنفاق أدمع  
يقولون كم تجري لجارية بكى  
ملكت جهاتي الست فيك محبة  
تعرفتها دهرأ يسيراً فأعقبت  
وقال أناس إن في الدمع راحة  
هل الدمع إلا مقلّة قد أذبّتها  
نصبت جفوني بعد بعدك للذجي  
وقال زماني هاك بعد تنعم

لشمس ضحى عند الزوال ندبّتها  
ملوتة أكوى بها إن كترتها  
وما علموا النعمى التي فقدتها  
فأنت وما أخطا الذي قال ستها  
دوام الأسى يا ليتني لأعرفتها  
وتلك لعمري راحة قد نكرتها  
عليك وإلا مهجّة قد غسّلتها  
وأما أحاديث الكرى فرفعتها  
كؤوس الأسى والحزن ملأى فقلت ها

إن الأبيات السابقة تجسيد لمشاعر الحب الرقيقة، والحنين إلى الماضي، والبكاء عليه، وهي صورة من رثاء النفس، تمثل الحرمان وخيبة الأمل واليأس، فالشاعر لا يريد وحده أن يكتوي بنيران الحزن، ولكنه يدعو غيره إلى مشاركته وإقامة ماتم الحزن والبكاء عليها، ويكشف الشاعر عن منزلة تلك الجارية من نفسه، ودورها في إبعاده، فعلى الرغم من المدة القصيرة التي عاشتها معه إلا أنها تركت أثراً كبيراً في نفسه، فأحبها حباً جماً، ولذا كان موتها ضربة قاصمة له حرمة طعم النوم، وسلب منه السعادة، ولكنه يؤكد عشقه لها حين صور قلبه وقد أضحى مثنوى لها، وحين رد على من يلومونه في بكاؤها وبين لهم أنها الحبيبة التي عاش معها أحلى أيام عمره.

ويواصل الشاعر بث جواه وحرقته وسقمه، ويتمنى لو أنه يفديها بروحه، وأن يموت إثرها، إذ لا حياة تُرتجى، ولا عيش يبتغي بعد موتها، وتردد على قبرها عله يخفف من آلامه، ولكن دون جدوى فيستعين بالشعر والدموع، يقول: (1)

كلانا طريح الجسم بال قلو درت  
بروحي من أخفي إذا زرت قبرها  
كفى حزنا أن لا معين على الأسى  
إذا ندبتني في الثرى من ندبّتها  
جواي ولو أعلمتها لعففتها  
سوى أنني تحت الظلام بعثتها

(1) ابن نباتة، الديوان، ص ٧٤.

كَأَنِّي مِنْ نَبْرِ الدُّمُوعِ نَظَمْتُهَا  
وَلَا فِي أَمَانٍ لَوْ بَقِيَتْ بَلْغَتُهَا  
تَطَلَّبْتُهَا مِنْ أَجْلِهِ وَأُرَدَّتْهَا

وَتَمِيقُ أَلْفَاظٍ عَلَيْكَ رَقِيقَةً  
قَضَيْتَ فَمَا فِي الْعَيْشِ بَعْدَكَ لَذَّةٌ  
سَلَامٌ عَلَى الدُّنْيَا فَقَدْ رَحَلَ الَّذِي

إن العواطف الشجية التي عبر عنها ابن نباتة، وتلك اللوعة التي أظهرها دعت عمر موسى باشا إلى القول: إن تلك المرأة كانت زوجة أخرى للشاعر بالإضافة إلى زوجته أم بنيه،<sup>(١)</sup> ولكن الحزن الذي أبداه الشاعر لا يكفي دليلاً على أنها كانت زوجته، وخاصة إذا علم أنه لا يستطيع أن يجمع بين زوجته الحرة وبينها في عصمته، إلا إذا منحها حرّيتها، وهذا ما اشترطه الفقهاء،<sup>(٢)</sup> ولكنه يصرح في رثائه لها أنها ما زالت جاريته، وأنه لم يمنحها الحرية، ولذا يمكن القول: إنها لم تكن زوجة له وإنما محبوبة، فهي ملك اليمين تحل له كما تحل زوجته.

ويرثي ابن نباتة جاريته بقصيدة أخرى تمتاز بالحكمة والهدوء، ويعبر عن معاني اللوعة والفراق يقول فيها:<sup>(٣)</sup>

وَرِحْلَةً لِلنَّوَى لَا تَشْبِهُ الرِّحْلَا  
لَانَاقَةَ للسُّرَى فِيهِ وَلَا جَمَلَا  
بَأَدْمُعِ النَّوَى لِلْبَدْرِ الَّذِي أَفْلَا  
إِلَّا أَوَاخِرِ عُمْرٍ تَنْدُبُ الأَوْلَا

أَشْكُو إِلَى اللَّهِ بَيْنَا لَا انْقِضَاءَ لَهُ  
بَيْنَا أَرَى فِيهِ لِلنَّعْشِ انْبِعَاطَ سُورَى  
فَلَيْتَ أَنْ بَنَاتِ النَّعْشِ تُسْعِدَنِي  
لَمْ يَتْرِكِ الدَّهْرُ مِنْ أَوْقَاتٍ مُنْتَظِرِي

يصور الشاعر رحلة الموت فيبين أنها رحلة " لا رحل فيها ولا ناقة تسير في مسارب الخلود نحو الدنيا الآخرة، ويذكر الشاعر في هذه الرحلة نعشها،...، ويذكر بنات نعش وهن يندبنها، ويودعنها إلى مقرها الأخير، ثم يتحدث بعد ذلك عن الدهر، ويصف لنا أيامه تندب أوائلها"<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر: د. عمر موسى باشا، أمير شعراء المشرق، ص ٢٥٣.

(٢) انظر: د. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١٣٣.

(٣) ابن نباتة، الديوان، ص ٥٥٧.

(٤) د. عمر موسى باشا، أمير شعراء المشرق، ص ٢٥٥.

ويرثي الشاعر ذاته جاريته بمقطوعة أخرى فيصور فيها أحزانه، ودموعه التي جفت من كثرة البكاء، وجفونه التي تقرحت، ويكرر صورة اللائمين له في ذلك، يقول: (١)

يَقُولُونَ قَدْ أَخْلَقْتَ جَفْنَكَ بِالْبِكَاءِ      نَعَمْ إِنْ جَفَنِي بِالْبِكَاءِ حَقِيقُ  
دَعَا الدَّمْعَ لِلجَفْنِ القَرِيحِ مُؤاخِياً      فَإِنِّي عَدِمْتُ الدَّمْعَ وَهُوَ شَقِيقُ

أما ابن الوردي، فقد كانت له جارية اسمها " لؤلؤ " يحبها حباً شديداً، فماتت وهي شابة جميلة، ولذا رثاها بخمس مقطوعات، (٢) عبر عن هيامه بها، وجعلها ربة للحسن والجمال، ومنها ما جاء في قوله يشكو فيه فراق تلك الحبيبة والشباب معا: (٣)

مَضَتِ الحَبِيبَةُ والشَّبِيبَةُ آهَ وَا      أَسْفَاهُ مِنْ فَقْدِ الصَّبِيبَةِ والصَّبَا  
يَا رَبُّ ذُقْتَ الحَادِثَاتِ فَلَمْ أَجِدْ      شَيْئاً أَمراً مِنَ الفِرَاقِ وَأصْغَبَا

وفي مقطوعة أخرى يصفها وهي في العالم الآخر تبحث عنه ويبحث عنها فلا تجده ولا يجدها، فيبكي ويستبكي النادبات بكل أرجاء الدنيا لينحن على شبابها الزائل، يقول: (٤)

وتَنْظُرُ فِي القُبُورِ فَلَا تَرَانِي      وَأَنْظُرُ فِي القُصُورِ فَلَا أَرَاهَا  
فَلَيْتَ البَاكِياتِ بِكُلِّ أَرْضٍ      جُمِعْنَ لَهَا فَنَحْنُ عَلَى صِيَاهَا

وتحدث الشعراء عن صفات النساء المرثيات ومآثرهن، وقد أطلق د. إحسان عباس على هذا الاتجاه من الرثاء اسم " البكاء على زوال الرقة والجمال"، (٥) ذلك أن الشاعر يتحدث فيه " عن الجمال وحلاوة العشرة، وعن سهره، وحزنه، ويمثل في دوره دور المحب الشغوف". (٦) فهو يمزج بين التغزل والبكاء والشعور بالخسارة العظيمة التي لا تعوض.

وقد اتجه شعراء العصر المملوكي الأول اتجاهين في حديثهم عن صفات المرأة المرثية:

(١) ابن حجة، خزنة الأدب، ١٥٤/٢.

(٢) انظر ابن الوردي، الديوان، ص ٣٩٣، د. أحمد فوزي الهيب، الحركة الشعرية، ص ٢٦٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٩٣.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٩٣.

(٥) د. إحسان عباس، تاريخ الأدب العربي عصر الطوائف والمرابطين، ص ١١٩-١٢٠.

(٦) المرجع نفسه، ص ١٢٠.

الاتجاه الأول: ويتمثل في حديثهم عن صفاتها الحسية المادية، فقد صوروا ما كانت تتمتع به من جمال، وحسن حتى أظهروها بصورة المثال أو التمثال الذي نحتت أجزاؤه بكل دقة ومهارة، فعدت متناسقة تتطوق بالروعة والجمال، وغلبت تلك الصور الحسية المادية في الأشعار التي نظمها الشعراء في رثاء محارمهم وغيرهن ممن تربطهم بهن علاقة حب متينة وخاصة الزوجة والجارية، وهي صور شائعة درج الشعراء على تداولها والاهتمام بها منذ القدم، ذلك أن الشاعر نظر إلى امرأته على أنها متعته ومحل رغبته، فلا يعنيه من أمرها " ما هي عليه من عقل، وما وراء جمالها من فكر، وما بين جنبيها من هم أو مثل عليا، فلا يخلق في رسم عواطفها ورغباتها وأهوائها وتفكيرها، وإنما يحوم حول نفسه، ويجعلها المثال المنشود".<sup>(١)</sup> وقد سعى الشعراء الذين رثوا المرأة إلى جعلها ربة للحسن والجمال، وبعيدة عن كل منقصة وعيب، ولذا نعتوها بنعوت تعبر عن جمالها المتألق، فضلاً عن الاستعارات التي تربط جمالها بمظاهر الطبيعة الجميلة، فهي كالبدر أو الشمس أو الثريا أو الطيبي أو الدر، وهي في العقد واسطته، وتلك الصور التي رسموها لمفاتها الجسدية تقليدية طرقها الشعراء كثيراً في غزلهم وتشبيهم، وربما أتوا بها عينها. وكشف الشعراء كذلك عن صفات المرأة المحببة إلى نفوسهم مثل النضارة والشباب وحسن الوجه، ورشاقة القد الذي يشبه الغصن في تأوده ولينه، وهي التي دعتهم إلى بكائها وندبها، وهذا ما يوضحه قول ابن نباتة في رثاء جاريتها:<sup>(٢)</sup>

ألا في سبيلِ الله شَمْسُ مَحَاسِنِ	وإن لم تَكُنْ شمسُ النهارِ فأخْتِها
بَكَيْتُكَ لِلحَسَنِ الَّذِي قَدْ شَهَدْتُهُ	وَلِلشَّيْمِ الغُرِّ الَّذِي قَدْ عَهَدْتُهُ
وَرَوْضَةَ لَحْدِ حَلَّةِ غُصْنِ قَامَةٍ	لَعَمْرِي لَقَدْ طَابَتْ وَطَابَ نَبَاتُها
خَبِيَّةٌ حُسْنِ كُنْتُ مُغْتَبِطاً بِها	ولكن برغمي في الترابِ دَفَنْتُها
أُنَادِي تَرَى الحَسَنَاءِ وَالتَّرْبُ بَيْننا	وَعَزَّ عَلَي صَمْتِ المَتِيمِ فَقَدْها

إنه المتيم الذي أنهكه الحزن فتردد على قبر محبوبته يرثي جمالها، ويخاطب قبرها علها تسمعه فترفق بحاله وتجيبه، ولكن علامات اليأس تبدو عليه فلا أمل له بعودتها.

(١) سامي الدهان، الغزل منذ نشأته حتى صدر الدولة العباسية، ص ١١، وانظر ج.ك فادية، الغزل عند العرب، ص ٧٢.

(٢) ابن نباتة، الديوان، ص ٧٣-٧٤.



ويتحسر الشاعر ذاته في القصيدة التي رثى بها زوجته على مظاهر حسننها التي اختطفها الموت، ويعبر عن شغفه بها، ويصور عيونها ووجهها وقوامها، ويبين أن موتها كان منقذاً له من ذلك السحر، ولكنه مع ذلك يتأسف على الخسارة الكبيرة التي مني بها، ويتمنى لقاءها يوم القيامة كي يمتع ناظره بمفاتنها، يقول: (١)

ثَوَّتْ فِي مَهَاوِي التَّرْبِ كَالتَّبْرِ خَالِصًا	فَحَقَّقْتُ أَنْ التَّرْبَ بَعْضُ المَعَادِنِ
كَأَنَّكَ بَادَرْتَ الرِّيحَ لِتَخَوِّفًا	عَلَيَّ مِنَ الحُسْنِ الَّذِي هُوَ فَاتِنِي
أَأَنسَى قَوَامًا مَا أَتَقَفَ الحُسْنَ رُمَحَهُ	فَمَا فِيهِ مِنْ عَيْبٍ يَعْدَ لَطَاعِنِ ؟
وَوَجَّهَ حَكْيَ عَن حُسْنِهِ كُلَّ مَقْمِرٍ	وَلَحْظًا رَوَى عَن طَرَفِهِ كُلَّ شَادِنِ
فَوَا أَسْفًا حَتَّى أُوَسَّدَ فِي الثَّرَى	وَيُدْنِي الرَّدَى مِنَّا مَقِيمًا لَطَاعِنِ
وَيَا لَيْتَ شِعْرِي فِي القِيَامَةِ هَلْ أَرَى	مَحَاسِنَهَا مَا بَيْنَ تِلْكَ المَوَاطِنِ
رَشَاقَةَ ذَاكَ القَدِّ فَوْقَ صَرَاطِهِ	وَدِينَارِ ذَاكَ الخَدِّ بَيْنَ المَوَازِنِ

إن أكثر ما يلفت النظر في الأبيات السابقة الصورة التي جاءت في الأخيرين منها، فالمرء يتوقع في ذلك اليوم العظيم أن يكون الناس في هول وخوف شديد، ولكن ابن نباتة استطاع أن يرسم بريشته زوجته وهي تزداد جمالاً وتألقاً، فلا يغير من محاسنها شدة الحدث أو مرورها عن الصراط، أو عرض أعمالها على الميزان.

ونظم الشاعر زين الدين بن الوردي قصيدة على لسان صاحب له ماتت زوجته، وهذا الأسلوب من الأساليب الجديدة التي برزت في الرثاء في العصور المتأخرة، وقد اتقن ابن الوردي ذلك الدور، وتمثل تجربة الحزن التي عاشها صاحبه، واستطاع أن يعكسها بكل دقة وصدق، فكشف عن عشقه لها، ومنزلتها في حياته، وقارن بين حاليهما، فهو يتلظى بنيران الحزن، أما هي فتتقلب في جنان النعيم، يقول: (٢)

(١) ابن نباتة، الديوان، ص ٥١٦.

(٢) ابن الوردي، الديوان، ٣٩٧-٣٩٨.

أُنْسِي وَيَا مَوْدِعَ أَسْرَارِي  
وَمُهِجَتِي بَعْدَكَ فِي نَارِ  
فِي عِشْقِي الطَّارِي صَبَا طَارِ  
بُنَيْتَ فِيهَا قَلْبَةَ أَنْصَارِي  
تَكَادُ أَنْ تَذْهَبَ أَثَارِي

يَا نَوْراً عَيْنِي وَيَا حَيَاتِي وَيَا  
لَمْ تَتَّصِفْنِي أَنْتِ فِي جَنَّةِ  
وَإِنْ لَمْ أَجِدْ مِثْلَكَ مِنْ أَيْنَ لِي  
إِنْ كَانَ صَبْرِي نَاصِرِي بَعْدَمَا  
أَثَارُكَ الْحُسْنَى إِذَا مَا بَدَّتْ

ويحاول ابن الوردي أن يرسم صورة مثالية لزوجته صديقه، فيصفها خالية من العيوب الأمر الذي جعل من الصعب على زوجها أن يقتنع بغيرها وإن كانت ممن الغيد الحسان، يقول: (١)

جَمَالُكَ الْعَارِي مِّنَ الْعَارِ  
وَلَوْ غَدَّتْ كَالْكُوكَبِ السَّارِي  
أَوْحَشْتِ يَا شَمْسَ الضُّحَى دَارِي

أَوْحَشْتَنِي يَا صَنْعَةَ الْبَارِي  
بَعْدَكَ لَا تَعْجِبْنِي غَادَّةُ  
وَاللَّهِ قَدْ أَبْكَيْتِ عَيْنِي وَقَدْ

ويرثي الشاعر ذاته جاريته "لولؤ" فيخاطب الموت طالباً منه أن يرفق بجمالها، ويعاقبه على اختطافها منه فيقول: (٢)

فَقَدْ بَلَغْتَ رَوْحَهَا السَّرْقُوهَ  
وَتَحْسُدُ مِثْلِي عَلَى لَوْلُوهِ

أَيَا مَوْتَ رَفِقاً عَلَى حُسْنِهَا  
تَرَكَتَ جَوَاهِرَ عِنْدَ اللَّئِيمِ

وفي مقطوعة أخرى يصورها شابة غضة وبدراً حواه التراب، فيقول: (٣)

وَهُوَ غُصْنٌ يَنْتَثِرُ

خَلَعَتْ ثَوْبَ صِيَاهَا

قَدْ حَوَى بَدْرًا وَغُصْنًا

إِنْ قَبْرًا قَدْ حَوَاهَا

ويتساءل الشاب الظريف حين يرى مرثيته الحسناء محمولة على الرقاب عن جمالها الذي أخفاه الموت في نعش وأدرجه في كفن، وهو تساؤل يحمل في طياته معنى التعجب والاستغراب مما يفعله الموت بالحسن والجمال، يقول مورياً: (٤)

(١) ابن الوردي، الديوان، ص ٣٩٧، ٣٩٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٩٣.

(٣) ابن الوردي، الديوان، ص ٣٩٣.

(٤) الشاب الظريف، الديوان، ص ١٨٩-١٩٠.

قُلْتُ وَقَدْ أُبْرِزْتُ بِنَعْشٍ      فَوْقَ رِقَابِ الْأَنْامِ تَمْشِي  
 مِنَ الْبَدْرِ التَّمَامِ كَأَنْتِ      فَلَمْ غَدَّتْ مِنْ بَنَاتِ نَعْشٍ؟

وَيُصَوِّرُ الشَّعْرَاءَ الْمَرْأَةَ الْمَرْتِيئَةَ مَنَعْمَةً فِي حَيَاتِهَا، تَعِيشُ حَيَاةً مَتْرَفَةً وَكَرِيمَةً،<sup>(١)</sup>  
 وَهَذَا مَا يُوَضِّحُهُ قَوْلُ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الْكَافِي السَّبْكَي إِذْ رَتَّى وَالِدَةَ تَقِي الدِّينِ السَّبْكَي<sup>(٢)</sup>  
 وَلَوْ كَانَ حُزْنٌ نَافِعًا لَجَعَلْتُهُ      شِعَارِي عَسَى أَفْذِي مُكْرَمَةً خُودَا

لَمْ يَحَالَفِ الشَّاعِرُ التَّوْفِيقِ حِينَ صَوَّرَ تِلْكَ الْمَرْأَةَ خُودًا بِمَعْنَى " الْفَتَاةَ الْحَسَنَةَ الْخَلْقِ  
 الشَّابَّةَ"،<sup>(٣)</sup> وَذَلِكَ أَنَّهُ وَصَفَهَا بِغَيْرِ مَا فِيهَا، فَهِيَ لَا شَكَّ امْرَأَةٌ كَبِيرَةٌ تَجَاوَزَتْ مَرَحَلَةَ  
 النُّضَارَةِ وَالشَّبَابِ.

أَمَّا الْإِتِّجَاهُ الثَّانِي: فَيَتِمُّثَلُّ فِي حَدِيثِ الشَّعْرَاءِ عَنِ الصِّفَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَالْخِصَالِ  
 الْحَمِيدَةِ الَّتِي كَانَتْ تَتَحَلَّى بِهَا الْمَرْأَةُ الْمَرْتِيئَةُ مِثْلَ: حَسَنِ الْخَلْقِ، وَالصُّونِ وَالْعِفَافِ،  
 وَالرِّزَانَةِ، وَالنَّقْوَى وَالْمَكَانَةَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ، وَبَرَزَتْ تِلْكَ الْمَعَانِي بِصُورَةٍ جَلِيَّةٍ فِي الْأَشْعَارِ  
 الَّتِي قِيلَتْ فِي رِثَاءِ نِسَاءِ الْأَصْدِقَاءِ وَأَرْبَابِ الدُّوَلِ وَلَعَلَّ مِمَّا يَفْسِرُ ذَلِكَ:

أَوَّلًا: حَسَاسِيَّةُ ذَلِكَ الْمَوْضُوعِ، فَهَنَّاكَ قِيُودٌ كَثِيرَةٌ يَفْرُضُهَا الْمَجْتَمَعُ عَلَى الشَّاعِرِ،  
 تَمْنَعُهُ مِنَ التَّغْنِيِ بِالْجَمَالِ الْحَسِيِّ لِنِسَاءٍ لَا تَرْتَبِطُهُ بِهِنَّ عِلَاقَةٌ وَثِيقَةٌ، هَذَا فَضْلًا عَنِ أَنْ  
 تَتَاوَلَهَا وَوَصَفَهَا قَدْ يَثِيرُ الضَّغِينَةَ وَالْحَقْدَ فِي نَفُوسِ ذَوِي الْمَرْأَةِ.

ثَانِيًا: أَنَّ جِلَّ النِّسَاءِ الْمَرْتِيئَاتِ كُنَّ قَدْ بَلَغْنَ مِنَ الْعُمُرِ عَتِيًّا، الْأَمْرَ الَّذِي جَعَلَ  
 مَحَاسِنَهُنَّ تَخْتَفِي أَوْ تَكَادُ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ تَجَرَّأَ بَعْضُ الشَّعْرَاءِ فَصَوَّرَ صِفَاتَهُنَّ الْحَسِيَّةَ  
 الْمَادِيَّةَ، وَلَكِنْ ذَلِكَ بَدَأَ بِصُورَةٍ نَادِرَةٍ، وَتَجَدَّرَ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الصِّفَاتِ الْحَسِيَّةِ  
 لِلْمَرْأَةِ الْكَبِيرَةِ كَانَ مَوْضِعَ طَعْنٍ عَلَى الشَّاعِرِ مِنَ النَّقَادِ الْعَرَبِ الْقَدَامِيِّ، فَقَدْ أَخَذُوا عَلَى  
 الْمَتَنَّبِيِّ قَوْلَهُ فِي رِثَاءِ أُمِّ سَيْفِ الدَّوَلَةِ:<sup>(٤)</sup>

(١) انظر الصفدي، الرواي، ٣٤٢/١٥.

(٢) انظر الصفدي، الرواي، ٣٤٢/١٥.

(٣) ابن منظور، اللسان، مادة "خود".

(٤) البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ١٤٤/٣.

صَلَاةُ اللَّهِ خَالِقَنَا حَنُوطٌ عَلَى الْوَجْهِ الْمَكْفَنِ بِالْجَمَالِ

" فقالوا: ماله ولهذه العجوز يصف جمالها؟" (١)

ومن شعراء هذا العصر الذين مزجوا بين الصفات الحسية والمعنوية برهان الدين

القيراطي، فقد قال في رثاء زوجة القاضي تقي الدين ناظر الجيش (٢)

انظرُ إِلَى الشَّمْسِ كَيْفَ تَنْكَسِفُ وَالغُصْنِ الرَّطْبِ كَيْفَ يَنْقْصِفُ  
وَالْقَمَرِ التَّمَّ كَيْفَ غَابَ وَقَدْ وَضَمَّهُ بَعْدَ عَقْدِهِ الصَّدْفُ  
وَالدَّرَ إِذْ عَادَ وَهُوَ مُنْتَثِرٌ وَزَالَ ذَاكَ الدَّلَالُ وَالسَّرْفُ  
وَالْحُسْنُ كَيْفَ انطَوَتْ مَحَاسِنُهُ جَمِيعُهَا وَالْجَمَالُ وَالصَّنْفُ  
لَهْفِي عَلَى حُمْرَةِ الْعَفَافِ مَضَّتْ كَيْفَ بِصَرَفِ الزَّمَانِ مُنْصَرِفُ  
لَهْفِي وَلَهْفِي وَلَيْسَ يَنْفَعُنِي مِنْ بَعْدِ مَا غَابَ وَجْهَهَا اللَّهْفُ  
إِنْ غُيِّبَتْ فِي ثَرَى اللَّحُودِ فَكَمْ قَدْ حَجَبَتْهَا السُّتُورُ وَالسُّجْفُ  
أَهَالِهَا زَهْرَةٌ مَعْطُورَةٌ أَضْحَتْ بِأَيْدِي الْخُطُوبِ مُخْتَطَفُ  
وَرْدَةٌ زَيْتٌ الْعُقُودُ بِهَا أُمْسَتْ بِأَيْدِي الْخُطُوبِ تُخْتَطَفُ

لقد كان القيراطي أكثر الشعراء جرأة في التلغني بمحاسن امرأة لا تخصه، فمن يقوياً الأبيات السابقة قبل أن يعرف فيمن قبلت لا يستوقفه أدنى شك أن تلك المرأة هي محبوبه الشاعر، وأنه يرتبط بها بعلاقة متينة، فهو يبدو في لهفته المتكررة كالعاشق المتميم الذي هجرته الحبيبة، وتركته يعاني مرارة الفراق، بيد أن الشاعر في الوقت ذاته يقع في تناقض مع نفسه حين يفصل في عرض مفاتها الجسدية، إذ كيف عرف تلك الصفات؟ وكيف رأى تلك المحاسن؟ وهي المحجبة ذات الطهر والعفاف.

ويؤكد الشاعر ذاته جمال تلك المرأة حين صور مظاهر الطبيعة الجميلة متأثرة

بجاذبية جمالها، ولذا راحت تندبها بعد موتها وتذرف عليها الدموع الغزار، يقول: (٣)

(١) ابن رشيق، العمدة، ١٥٤/٢.

(٢) انظر الصفدي، الوافي، ٣٤٢/١٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٠.

شَمْسٌ بَكَتْهَا السَّمَاءُ إِذْ غَرَبَتْ  
 قَدْ ضَرَبَ الْبَدْرُ خَدَّهُ أَسْفَاً  
 فَطَرَفُهَا لَا يَكْفُ إِذْ يَكْفُ (١)  
 مِنْ بَعْدِهَا أَوْ بَدَا بِهِ الْكَكْفُ  
 حُزْناً وَمَاهِزّاً بَانَةً هَيِّفُ  
 وَأَطْرَقَ الظُّبْيُ بَعْدَ لَفْتَتِهِ

أما الصفات المعنوية، فقد تعددت وتنوعت، وكانت خصال العفاف والصون والطهارة والرزانة أكثرها تردداً، فقد حظيت بإعجاب الشعراء فعبروا عنها حين صوروا مرثيتهم متحجبة داخل جدران منزلها لا تنظرها عيوب الناظرين، فهي التي قضت حياتها كذلك، وحين ماتت حجبها التراب، وتلك السمات كانت محببة إلى نفوس الناس في المجتمع المملوكي، إذ كان اختلاط المرأة فيه يثير الأنظار حولها "فتلك الأجواء الاجتماعية التي تجاوزت فيها بعض النساء حدود الحرية المعطاة لها في الأسواق والمتنزهات والحمامات ومجالس الغناء بل وتمرد بعضهن على بعض حدود التقاليد والعادات المتبعة في المجتمع دفع الرجال الذين يعرفون تلك الأجواء ... إلى الخوف على نساتهم وبناتهم من ذلك، ففرضوا عليهن ضروب الحراسة والاحتجاب" (٢)، ولم يقتصر منعهن من الخروج على عامة الناس، وإنما كانت الدولة في كثير من الأحيان تجبرهن على التزام بيوتهن، والاحتشام وترك التبرج والتشبه بالرجال، (٣) فالأمير علم الدين الشجاعى "أمر بدمشق ألا تلبس النساء خفافاً ولا عمائم" (٤)، فقال علاء الدين الوداعى الكندي معبراً عن ذلك: (٥)

هَذَا الْأَمِيرُ غَيْرُ  
 عَمَائِمَ وَأَخْفَافاً  
 لِأَنََّّهُ قَدْ أزالَا  
 عَلَى النِّسَاءِ ثِقَالَا  
 وَغَارَ لَمَّا تَبَرَّجُوا  
 وَكَانَ قَبْلَ رَجَالَا

(١) بمعنى يسيل.

(٢) خلود جرادقة، المرأة في أدب الدولة المملوكية الأولى، ص ٢٧.

(٣) انظر ذلك في: ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٥٩/١، المقرئ، السلوك، ٣/٢، ٤١٠، ٣٦٢.

(٤) الصفدي، الوافي، ٤٧٨/١٥.

(٥) المصدر نفسه ٤٧٨/١٥.

وقد أكثر شعراء ذلك العصر من التعبير عن حبهم واحترامهم للمرأة العفيفة المحتجبة، وذلك حيث تغزلوا بها،<sup>(١)</sup> وكذلك فعلوا حين رثوها، فابن نباتة يعزي بامرأة، ويفخر بها حين صورها لم تخرج من بيتها إلا إلى القبر فيقول:<sup>(٢)</sup>

يا نَبْعَةَ الْفَضْلِ مُذْ فَازَ التَّرَابُ بِهَا      لَمْ تَسْرِ مِنْ حُجْبٍ إِلَّا إِلَى حُجْبٍ

ويتخذ الشاعر برهان الدين القيراطي من صون والدة القاضي تاج الدين المليحي وعفائها وتقواها وسيلته في تعزية ذلك الابن، فيقول مخاطباً إياه:<sup>(٣)</sup>

وَتَعَزَّ عَنْ جِهَةِ سَمَتٍ      عَنْ كُلِّ مَنْقَصَةٍ وَعَابٍ  
شَمْسَ الصِّيَانَةِ وَالنُّقَى      سَارَتْ إِلَى أَفْقِ الْغِيَابِ  
لَزِمَتْ فَنَاءَ حِجَابِهَا      حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ

إلى جانب تلك الصفات لم يغفل الشعراء الحديث عن مكانة المرأة وعن الدور الذي لعبته في مجتمعها، فالشاعر زين الدين بن الوردي رثى زوجة الشيخ محمد بن نبهان، فتحدث عن جودها، وما كانت تقدمه للفقراء من عطف ورعاية، ويفضلها على الرجال حين جعلها أكثر منهم عقلاً ونهى، يقول:<sup>(٤)</sup>

وماضية إلى الرَّحْمَنِ أَضَحَّتْ      أَجَلَ نِسَاءِ أَهْلِ الْعَصْرِ صَيِّبَا  
مَبَارَكَةٌ مُتَعَمَّةٌ رِزَانٌ      تَرَدُّ عَنِ النِّسَاءِ نَمًّا وَرَيْبَا  
تَحَنَّنَ عَلَى الْفَقِيرِ حَنِينَ أُمٍّ      وَتَرَحَّمَهُ فَوْيَبَ الْمَوْتِ وَيْبَا  
تَزِيدُ عَلَى الرِّجَالِ نُهَى وَعَقْلًا      "وَمَا التَّائِيثُ لِاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبَا"

ويخاطب الشاعر شهاب الدين بن فضل الله العمري الإمام تقي الدين السبكي فيشيد بـ  
والدته المتوفية قائلاً:<sup>(٥)</sup>

(١) انظر خلود حرادة، المرأة في أدب الدولة المملوكية الأولى، ص ٢٦ وما بعدها، ص ٤٣ وما بعدها.

(٢) ابن نباتة، الديوان، ص ٤٨.

(٣) القيراطي، الديوان، ص ٥٥.

(٤) ابن الوردي، الديوان، ص ٧٤-٧٥.

(٥) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٩٩/٥.

فَقَدَّتْ أُمَّ بَرَّةَ لَمْ يَزَلْ كَوَكَّبَهَا الْمُشْرِقُ فِي سَاعِدِهِ

ويكثر الشاعر جمال الدين بن نباتة في القصيدة التي نظمها في رثاء والدة الكاتب ناصر الدين ابن عبد الظاهر من الحديث عن صونها وعفافها وتقواها التي تجلت فيما كانت تقوم به من أعمال بر وإحسان، وفي مداومتها على الصلاة والصوم والتسبيح، ولذا فقد بكتها بعد موتها محاريب المساجد والكعبة والأماكن المقدسة جمعاء، يقول: (١)

فمالي لا أرثي نفاها وفضلها وأرثي له والقلب حزان موجع  
وأندب للمحراب قنديل غيرة ونور التقى طول الدجى يتشعشع  
وأندب للمعروف والبر راحة ترى راحة تعبانها حين ينفع  
وأندبها للتراب في حجب العلاء وديعة أستار إلى عدن تودع  
وأندبها لليوم صوماً وللدجى صلاة واذكاراً ونسكا يوزع  
وللبيت بيت الفضل كدر صفوه وللبيت من ذات الصفا حين يهرع  
فيالك من بيت جديد بكى لها وبيت عتيق نحوها يتطأع

وتتجلى بعض المعاني السابقة في قول الشاعر ذاته يعزي قاضي القضاة نجم الدين

بن صصري بوفاة بعض حرمه: (٢)

إنّا إلى الله من رزء برأطة وبكى لها الحرم الأقصى وقادمة  
وبئر زمزم قد حاجت مدامعها وبيت وائل قد حاجت دعائمه  
إن لم تزاحم بأولاها لها نسبا فقد غدت بمساعيها تزاحمه  
ما خص ما تم أهلها بل انفقت في كل باب من النقوى ماتمه

ومما يدخل تحت الحديث عن مكانة المرأة الاجتماعية وصف تنشئتها، فالشاعر ابن نباتة يعزي بطفلة فيتحدث عن كرم أصلها ويصورها من بيت علم ومجد وسودد، يقول مخاطباً أباه: (٣)

(١) ابن نباتة، الديوان، ص ٣٠٦-٣٠٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٥٩.

(٣) ابن نباتة، الديوان، ص ٥٧٣.

فَقِيدَتِكَ الَّتِي صَغُرْتَ كَبِيرًا  
فِيَا لَكَ طِفْلَةً مِنْ بَيْتِ عِلْمٍ  
قَضَاءَ عَزَائِهَا بَيْنَ الْقَضَايَا  
وَيَا لَكَ زَهْرَةً مِنْ دُوْحِ قَوْمٍ  
عَلَيْهَا قَدْ تَطَفَّأَتِ الْمَنَارِيَا  
سَرَّتْ بِجُدُودِهَا مَسْرَى الْبَجَايَا

واشتملت قصائد التعزية التي أرسلها الشعراء إلى أصدقائهم أو من تربطهم بهم علاقة من أرباب الدول على الدعوة لهم، ومدحهم، وحثهم على التماسك والصبر، وقد اختلف من بعضها الحديث عن المرأة المرثية لتحل محله المعاني السابقة، الأمر الذي قد يخرجها من موضوع رثائها.

وتنوعت الأساليب التي نهجها الشعراء في تعزية أهل الفقيده ومواساتهم، فحين توفيت والدة الإمام تقي الدين السبكي عزاه غير شاعر، فحثوه على الصبر الجميل، والتجلد، ودعوه إلى الرضا بحكم الله وقضائه، وأن يحتسب أمه عنده سبحانه وتعالى عليه يظفر بالثواب الجزيل، وهم في ذلك كله يشيدون بقوة تحمله، وقدرته على مواجهة الخطوب، ومن هؤلاء الشعراء شهاب الدين بن فضل الله العمري إذ قال مخاطباً إياه: (١)

فَاسْمَعْ أَبَا الْفَتْحِ وَقُبَيْتَ الرَّدَى      وَلَا تُثِيرُ النَّارَ مِنْ زَنْدِهِ  
مِثْلَكَ مَنْ يَلْقَى الرَّدَى صَابِرًا      مَحْتَسِبًا لِلْأَجْرِ فِي قَقْدِهِ

ومثله ما جاء في قول الإمام علي بن عبد الكافي السبكي في تعزيته: (٢)

فَرَا جِعَ وَكُنَ بِالصَّبْرِ وَالْحُكْمِ وَالرِّضَا      عَنِ اللَّهِ لِلْبَلْوَى تَذَوْدُ بِهِ ذَوْدًا  
وَلَا تُبْدِ ضَعْفًا إِنْ عَلِمَكَ قُدْوَةٌ      وَكُنْ جَبَلًا ذَا قُوَّةٍ شَامِخًا

ويخاطب الشاعر محمد بن سليمان الجعبري الشيخ علم الدين البرزالي فيشيد به ويعزيه بابنته التي قضت مكتملة المحاسن والصفات، وخلفت وراءها الذكر الطيب وحسن الثناء، يقول: (٣)

(١) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٩٩/٥.

(٢) المصدر نفسه، ٩٧/٥.

(٣) ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٨٤١/٣.



أَيَا عَلَّمَ الدِّينَ الَّذِي بِصِفَاتِهِ      مَحَاسِنَ لَمْ يَبْرَحْ بِهَا عَالِيَ القَدْرِ  
أَعَزَّكَ فِيمَنْ قَدْ مَضَّتْ لَسْبِيلُهَا      مَكْمَلَةَ الأَوْصَافِ طَيِّبَةَ الذِّكْرِ

وينهج الشاعر برهان الدين القيراطي نهجاً آخر في تسليية القاضي تقي الدين ناظر الجيش عن زوجته فيعزيه عنها ببقاء والده، ولكي يكون أسلوبه مؤثراً في نفس القاضي، راح يثني على والده ويطنل في وصف جوده وكرمه، فيصوره مأوى للفقراء والمحتاجين، ويكشف عما يقوم به من أعمال برِّ وإحسان هذا فضلاً عن وصف قدرته على الكتابة وتمكنه من البيان، يقول: (١)

أَبْقَى لَكَ اللهُ وَالِدًا عَلمًا      جَبْدُ المَوَالِي إِلَيْهِ تَنَعَطُفُ  
تَصَفَّحْتَ مُقَاتِلِي الوَرَى فَإِذَا      صِفَاتُهُ يُزْدَهِي بِهَا الصُّخْفُ  
تَحَفَّ عَلِيَّاهُ أُرِيحِيَّتُهُ      جُودًا فَتَأْتِي وَفُودُهُ التَّحَفُ  
فَلَا تَقَاسِيسُ بِجُودِهِ أَحَدًا      هَلْ يَتَسَاوَى النَّضَارُ وَالْحَرْفُ (٢)  
عَلَى سِوَاهِ الأَنَامِ مَا اتَّقُوا      وَفِي مَعَالِيهِ قَطْ مَا اخْتَفُوا  
ذُو قَلَمٍ مَا انْبَرَى لِيَوْمِ نَدَى      إِلا تَوَلَّتْ غَمَائِمٌ وَطَفُفُ  
يَلْمَعُ كَالْبَرْقِ فِي أَنَامِلِهِ      لَنَا وَتَهْمِي السَّحَابُ الذَّرْفُ  
لَهُ غَرَامٌ بِكُلِّ مَكْرَمَةٍ      وَكُلُّ فَضْلٍ لَهُ بِهِ شَغْفُ  
فَالْبُخْلُ مِنْهُ عَلَى شَفَا جَرَفِ      وَبَحْرُ جُدَوَاهُ مَالُهُ جَرَفُ  
إِنْ قَالَ قَوْمٌ لَا خَيْرَ فِي سَرَفِ      يَقُولُ وَالْخَيْرُ مَا بِهِ سَرَفُ  
وَأَنْتَ نَجَلٌ لَهُ وَفَضْلُكُمْ      بِهِ جَمِيعُ الأَنَامِ قَدْ عَرَفُوا

وعزى الشعراء أهل الفقيده وحضوهم على التماسك حين تحدثوا عن الموت، فبينوا حتميته، وعدله، وقوة باسه، وما فعله ببني البشر قويمهم وحقيرهم منذ بدء الخليقة، وقد أخذ الحديث عنه حيزاً كبيراً من بعض القصائد، وممن لجأ إليه برهان الدين القيراطي حين عزى القاضي تقي الدين ناظر الجيش عن زوجته، يقول مخاطباً إياها: (٣)

(١) القيراطي، الديوان، ص ٤١.

(٢) بمعنى مال وعدل، وحرف الشيء صار لاذعاً في الغم والنسان، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة، "حرف".

(٣) القيراطي، الديوان، ص ٤٠-٤١.

فاملاً بصَبْرٍ يَدَا فأنْتَ فتَيِّ  
واعلمُ بأنَّ الأنامَ كلُّهُمُ

ومثله قول الشاعر ذاته يعزي القاضي تاج الدين المليحي عن موت أمه: (١)

لا تُجْزَعَنَّ فَإِنَّمَا خُلِقَ البريَّةُ للذَّهَابِ

ويطيل الشاعر شهاب الدين بن فضل الله العمري في الحديث عن مشكلة الحياة والموت، جاء ذلك في القصيدة التي عزي بها تقي الدين السبكي بوالدته، وفيها يبدو متأثراً بفلسفة أبي العلاء المعري ويؤكد ذلك أنه عارض بها إحدى قصائده، وقد رسم الشاعر صورة للموت تنبئ عن حتميته وبطشه، ومساواته بين الناس عبر العصور، فقيرهم وغنيهم، عبدهم وسيدهم، وبين أن الإنسان في هذه الدنيا إما والد يبكي على ولده أو ولد يبكي على والده، وما دامت تلك صورة الحياة والموت، فلا جدوى من البكاء على الميتين، وعلى الإنسان أن يستعيض عن ذلك بأن يسلم أموره جميعاً إلى الله، ويؤمن بقضائه المحتوم كي ينال رضاه، ويفوز بجناته، يقول: (٢)

وكلُّ مَنْ طالَتْ به مُدَّةٌ  
وما على المرءِ إذا لم يمُتْ  
لو كان يغنيه عَليَّه البُكا  
ميعادُنا الموتُ فما لامرئِ  
وإنما الأيَّامُ مَعْدودةٌ  
وكلُّ مَنْ حَامَ على مَورِدِ  
وسائقُ الموتِ بنا مُزعجُ  
كم ولدٍ يبكي على والِدِ  
فقدْ تَساوى في الثرى أولُّ  
مَنْ سَلَّمَ الأمرُ إلى رَبِّه  
كلُّ امرئٍ مِنَّا سَيَلقى الردى

فَنَقِصُهُ في مُنْتَهَى حَدهِ  
من ميتٍ قدْ صارَ في أَحَدِهِ  
لكانتِ الأنواءُ مِنْ مَدِّهِ  
يفرُّ في الميعادِ من وَعَدِهِ  
لا يَغْلَطُ الإنسانُ في عَدِّهِ  
مَصيرُهُ يَأْتِي إلى وِردِهِ  
وكلُّ مَنْ يَسْعَى على جَهْدِهِ  
ووالِدٍ يبكي على وَلَدِهِ  
وآخرُ قدْ جاء من بَعْدِهِ  
فازَ بما يَرجوه من قَصدِهِ  
بذمِّه إنْ شاءَ أو حَمْدِهِ (٣)

(١) القيراطي، الديوان، ص ٥٥.

(٢) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٩٨/٥-٩٩.

(٣) لمزيد من الأمثلة انظر: ابن نباتة، الديوان، ص ٣٠٧، القيراطي، الديوان، ص ٥٥.

وأشاد المعزون في قصائدهم بأهل الفقيده، ودعوا لهم بأن يظل جنابهم محروساً من  
خطوب الدهر ومصائبه، وألا تنزل بساحتهم الأحزان، وأن يبقى مجدهم وعزهم في ازدياد  
ورفعة، وهذا ما عبر عنه برهان الدين القيراطي في قوله يعزي القاضي تاج الدين  
المليحي بوالدته: (١)

عُوفِيَتْ مِنْ جَوْرِ الزَّمَا      نَ وَعِشْتَ مَخْرُوسَ الْجَنَابِ  
لَا ذُقْتَ تَاجَ الدِّينِ فِي      دُنْيَاكَ بَعْدَ أذَى مُصَابِ  
حَصَلْتَ بِالصَّبْرِ الْجَمِيـ      لٍ عَلَى الْجَزِيلِ مِنَ الثَّوَابِ  
لَا زِلْتَ تَرْقَى لِلْعُلَا      رْتِباً تَفُوقُ عَلَى السَّحَابِ  
حَتَّى تَرَى الشَّهْبَ السُّـ      عَ بَطِيءٍ وَالْبَرْقَ كَابِي

ومن ذلك ما جاء في دعوة جمال الدين بن نباتة للكاتب ناصر الدين بن عبد الظاهر: (٢)

وَحَفَّفَ عَنْ أَحْشَاءُ وَهَجَأُ لَوْ أَنَّه      سَخَائِبُ صَيْفٍ عَنْ قَرِيبٍ تُقَشِّعُ

ويمدح الشاعر برهان الدين القيراطي القاضي تقي الدين ناظر الجيش حين عزاه بوالدته،  
ويغتنم الفرصة ليهنيه بمنصبه الجديد وهو نظر خزانة السلاح، وهنا يعلي الشاعر من  
قيمة ذلك المنصب بعد أن تولاه ممدوحه، ويشخص السلاح فيصوره مغتبطاً بناظره  
الجديد، ومعلنًا عن رغبته في خوض الحروب ضد الأعداء يقول: (٣)

تَقِي دِينَ إِلَهٍ عِشْ أَبَدًا      مَا لَلِهْنَا عَنْ جِمَاكَ مُنْصَرَفُ  
بِكُمْ تَهْتَى مَنَاصِبٌ كَسَبَيْتُ      مِنْكَ فَخَارًا وَنَالَهَا الشَّرْفُ  
أَهْنَأُ بِهَا خَلْعَةً مَكْمَلَةً      صِفَاتُهَا الْغُرُفُ فَوْقَ مَا أُصِيفُ  
عَزَّ سِلَاحٌ غَدَّتْ خَزَائِنُهُ      بِالنَّظْرِ الصَّدْقِ مِنْكَ تُكْتَفُ  
فَلَا يُرَاعِ الظُّبَالَهَا زَعْفًا      وَلَا ظُبَاهَا يَرْدَهَا الزَّعْفُ  
وَالسَّهْمُ قَدْ كَادَ أَنْ يَطِيرَ بِلَا      رِيشٍ لَنُخْرِ الْعِجْدَا وَيَزْدَلْفُ  
جَاءَتْكَ بِكَرًا مِنَ الْكَوَاعِبِ لَا      شُمَّاءُ إِنْ أَسْقَرْتُ وَلَا نَصْفُ (٤)

وفي مقابل القصائد التي كان يبعثها المعزون إلى ذوي الفقيده، كان هؤلاء يردون  
عليهم بقصائد على نفس الوزن والقافية، فيثنون عليهم، ويمدحونهم، ويشيدون بقدرتهم

(١) القيراطي، الديوان، ص ٥٥.

(٢) ابن نباتة، الديوان، ص ٣٠٧.

(٣) القيراطي، الديوان، ص ٤١.

(٤) النصف: الكهل كأنه بلغ نصف عمره، والأنتى نصف ونصفه، اللسان، مادة، "نصف".

الشعرية، ويكشفون عن الأثر الذي خلفته أشعارهم في نفوسهم، وعن دورها في مواساتهم وحملهم على الصبر والسلوان، فالإمام تقي الدين السبكي على سبيل المثال ردّ على القصيدتين اللتين بعث بهما الشاعران علي ابن عبد الكافي السبكي، وشهاب الدين بن فضل الله العمري حين عزياه بوالدته، فتحدث في القصيدة التي رد بها على عليّ السبكي عن فضل ذلك الرجل، وأشاد بعلمه وتفوقه فيه على الخلق كلهم، وأثنى على مقدّره الشعرية وفصاحته، وقدمه فيها على فصحاء العرب مثل قسّ بن ساعدة الإيادي، وأودّ بن سعد العشيرة،<sup>(١)</sup> وألقى الضوء على الدور الذي أدته قصيدة ذلك الشاعر في إزالة همومه، وشبه أثرها في نفسه بالأثر الذي يتركه السحر والخمر في الإنسان، يقول:<sup>(٢)</sup>

أَيَا مُحْسِنًا بَدَأَ وَمُسْتَأْيِفًا عَوْدًا      وَمَنْ حَازَ مِنْ وَصْفِ الْعَلَا سَوْدًا عَوْدًا  
وَمَنْ عِلْمُهُ بَحْرٌ تَزَايِدَ مَدَّهُ      وَفَيْضُ نَدَى كَفَيْهِ عَمَ الْوَرَى جُودًا  
مَلَكْتَ زِمَامَ الْعِلْمِ فَانْقَادَ طَائِعًا      وَإِنَّكَ بِالْإِذْعَانِ إِذْ قُدَّتَهُ قَوْدًا  
وَأَرْسَلْتَ سِحْرًا يُطْرِبُ السَّمْعَ نَفْثُهُ      وَخَمْرًا تَذُودُ الْهَمَّ عَنْ خَاطِرِي ذُودًا  
وَسَلَيْتِنِي عَنْ ذَاهِبٍ أَحْرَقَ الْحَشَا      وَأَذْهَبَ عَن قَلْبِي الْمَسْرَةَ إِذْ أُوْدَى  
وَعَادِرٍ مِنِّي أَسْوَدَ الشَّعْرِ أَبْيَضًا      كَمَا كُلُّ بَيْضًا مِنْ تَنَائِيهِ لِي سَوْدًا  
فَبَرَدَتْ نَارَ الشَّوْقِ إِذْ زَادَ وَقْدَهَا      وَخَفَّتْ حِمْلَ الْوَجْدِ إِذْ آدَنِي أُوْدَا

وتجلت أكثر المعاني السابقة في القصيدة التي أرسلها تقي الدين السبكي إلى

شهاب الدين بن فضل الله العمري، وأضاف إليها مدحه بالجود والتقوى، وإظهار براعته في الكتابة، يقول:<sup>(٣)</sup>

لِللَّهِ دَرٌّ فَاقَ فِي عَقْدِهِ      جَاءَ مِنَ الْمَوْلَى إِلَى عَبْدِهِ  
أَرْبَى عَلَى الزَّهْرِ عَلُّوَا كَمَا      عَلَا شَذَا الزَّهْرِ شَذَا رَنْدِهِ  
فَأَنْعَشَ الصَّبَّ وَقَدْ كَادَ مِنْ      أَحْزَانِهِ يَهْلِكُ فِي جَلْدِهِ  
فَأَيَّ فَضْلِ جَادٍ فِي وَبْلِهِ      وَأَيَّ بَحْرِ زَادَ فِي مَدِّهِ  
مِنَ الْمُقَرِّ الْأَشْرَفِ الْمُرْتَضَى      يَكْشِفُ صَعْبَ الْأَمْرِ مِنْ شَدِّهِ  
شَهَابُ دِينَ اللَّهِ رَبُّ النَّدَى      وَجَامِعُ الْوَفْدِ عَلَى رِفْدِهِ  
يَصْنَعُ إِنْ مَرَّ عَلَى طَرَسِهِ      مَا يَصْنَعُ النَّاشِرُ فِي بُرْدِهِ

(١) انظر ابن حزم، جمهرة ابن حزم، ص ٤١١.

(٢) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٩٨/٥.

(٣) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٩٩/٥.

الفصل الخامس

رثاء المدن

## رتاء المدن التي احتلها المغول

أفاق العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري على هجمة مغولية شرسة، استهدفت القضاء عليه، وتصفية وجوده السياسي، وبدأت تلك الحملة سنة ٦١٦هـ على الدولة الخوارزمية التي امتدت من العراق إلى حدود تركستان<sup>(١)</sup>، فازتها، ووضعت أقاليم إيران تحت نفوذها<sup>(٢)</sup>، فلم تبق هنالك قوة تستطيع أن تقف أمام المغول، وذلك لأن السلطان محمد خوارزمشاه كان قد استولى على البلاد وأفتى ملوكها، وبقي وحده سلطان البلاد جميعها، فلما هزمه المغول لم يبق فيها من يمنعهم ولا يحميها.<sup>(٣)</sup>

وفي أوائل العصر المملوكي كان المشرق الإسلامي مقسماً بين قوى سياسية رئيسية ثلاث: الدولة العباسية في بغداد، والدولة الأيوبية في أجزاء من الشام، والدولة المملوكية ومقرها مصر.

وقد زاد في هذا العصر عنف المغول وهمجيتهم، وأطماعهم في السيطرة على بلاد الإسلام، فهاجموا دولاً من المشرق الإسلامي، واستطاعوا القضاء على الدولة العباسية، ثم الدولة الأيوبية، وأرادوا التوجه إلى مصر، إلا أن المماليك استطاعوا أن يوقفوا زحفهم بعد الانتصار عليهم في معركة عين جالوت قرب بيسان في فلسطين سنة ٦٥٨هـ، وقد استمر الصراع بين دولة المماليك والمغول مدة قرن من الزمن تقريباً وتمكن المماليك خلاله من دحر القوات المغولية، وتسجيل أروع الانتصارات عليها، وإنقاذ المسلمين وأوطانهم من فظائعها<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر ابن الأثير، الكامل، ٢٧١/١٢، الذهبي، العبر، ١٦٥/٣، ١٦٨، ١٧٣، تاريخ الإسلام، حوادث ٦١٦هـ، ص ٣٥، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢١٨/٨، ابن العماد، شذرات المذاهب، ١١١/٧، ١١٨، ١٣٠، ١٣١.

(٢) انظر تفصيل ذلك: ابن الأثير، الكامل، ٣٥٨/١٢ وما بعدها، ابن واصل، مفرج الكرب، ٣٤/٤، الداوداري، كثر الدرر، ٢٣٦/٧، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ١٥١/٢ وما بعدها، السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٣٢٩/١، الياقبي، مرآة الجنان، ٣٠/٤ وما بعدها.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٣٦١/١٢، ابن الجوزي، مرآة الجنان، ج ٨، ٦١/٢.

(٤) لزيد من التوسع انظر: النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، برتولد شوبلر، العالم الإسلامي في عصر المغول، رينيه غروسبيه، جنكركان قاهر العالم، هارولد لام، جنكيز خان وجمافل المغول، فواد الصياد، المغول في التاريخ، الباز العريني، المغول.

## رثاء بغداد

عهد منكوقان إلى أخيه هولكو "بفتح غرب إيران" والشام، ومصر، وبلاد الروم والأرمن، وطلب منه أن يكون موقعه القلب من الجيش" (١)، وفي سنة ٦٥٢هـ غادر هولكو ثكناته متوجهاً إلى تلك الديار (٢)، فبدأ بالاستيلاء على قلاع الإسماعيلية، وعددها مئة قلعة (٣) فتم له ذلك سنة ٦٥٤هـ (٤).

وكان في ذلك الوقت المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين في بغداد، وقيل إنه كان "مستضعف الرأي... قليل الخبرة بأمر المملكة، مطموحاً فيه غير مهيب في النفوس، ولا مطلع على حقائق الأمور، وكان زمانه ينقضى أكثره بسماع الأغاني، والتفرج على المسخرة، وكان أصحابه مستولين عليه، وكلهم من أراندل العوام" (٥).

أما جيشه، فكان في غاية القلة، ونهاية الذلّة، لا يبلغون عشرة آلاف فارس، وهم بقية الجيش، كلهم صرفوا عن أقطاعاتهم، حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد (٦)، وكانت أخبار زحف المغول واقترابهم من بغداد تصل إلى الخليفة تبعاً، لكنه لم يتخذ الإجراءات اللازمة لصدّهم، بل كان يقول: "أنا بغداد تكفيني، ولا يستكثرونها عليّ إذا نزلت لهم عن باقي البلاد، ولا أيضاً يهجمون عليّ وأنا بها، وهي بيتي، ودار مقامي" (٧)، "ومما اشتهر عنه أنه كتب إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه منجنيقات، وآلات الحصار، فقال بدر الدين: انظروا إلى المطلوبين، وابكوا على الإسلام وأهله" (٨)، ولكن المستعصم بالله حين أحس بالخطر الحقيقي المحيط به، ورأى ذلك عياناً،

(١) المنلاني: جامع التواريخ، ٢٣٤/٢.

(٢) المصدر نفسه، ٢٣٨/٢.

(٣) المصدر نفسه، ٢٥٥/٢.

(٤) انظر ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ٣١٢-٣١٤، ابن الأثير، الكامل، ٩/٣٢٠، النويري، نهاية الإرب، ٢٧/٣٧٩، الكشي، عيون التواريخ، ١٣١/٢٠، المنلاني، جامع التواريخ، ٢٥٤/٢.

(٥) ابن الطقطقا، الفخري، ص ٣٣٣، الدواداري، كثر الدرر، ٧/٣٤٩-٣٥٠، النهي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٦هـ، ص ٢٥٩، الأشرف الغساني، المسجد المسبوك، ٢/٦٢٥، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٧.

(٦) انظر ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٢٠-٣٢١، أبو الفداء، المختصر، ٣/١٩٤، البيهقي، ذيل مرآة الزمان، ١/٨٧، ٢٥٥، النويري، نهاية الأرب، ٢٣/٣٢٣، النهي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٦هـ، ص ٣٤، الكشي، فوات الوفيات، ٢/٢٣١، عيون التواريخ، ٢٠/١٣٢٩، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣/٢٢٧، ٢٢٩، ٢٢٨، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٧/١٢٧-١٢٨.

(٧) ابن العربي، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٥٥.

(٨) ابن الطقطقا، الفخري، ص ٤٦، ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ٣٢٠-٣٢١، الأشرف الغساني، المسجد المسبوك، ٢/٦٢٥، الكشي، عيون التواريخ، ٢٠/١٢٩-١٣٠.

واستيقن قصد التتار بلاده، أرسل إلى الأيوبيين مستجداً، إلا أن بغداد سقطت قبل تحرك  
العساكر الشامية . (١)

وكان لسقوط بغداد صدى كبير في الشعر العربي، فقد نظم الشعراء أشعاراً كثيرة  
في رثائها (٢) ، ووصف المؤرخون ذلك فقالوا: "وعمل الشعراء والعلماء قصائد في  
مراثي بغداد وأهلها" (٣)، وقال ابن الفوطي: "ولقد قال الشعراء في واقعة بغداد أشعاراً  
كثيرة" (٤) ، ووصل من تلك الأشعار إحدى وعشرون قصيدة ومقطوعة، في حين ضاع  
الكثير منها أيضاً، ولم تكن كل القصائد التي عثر عليها كاملة، بل جاء بعضها مختزلاً،  
ومنها على سبيل المثال قصيدة الشاعر تقي الدين ابن أبي اليسر التتوخي، "وجملتها ستة  
وستون بيتاً" (٥)، ولكن البحث لم يسفر إلا عن اثنين وعشرين بيتاً منها (٦) .

كان الشاعر شمس الدين الكوفي الواعظ في مقدمة الشعراء الذين عانوا مرارة  
سقوط بغداد، وشاهد النكبة بأم عينيه، فرثاها بأشعار كثيرة، وصل إلينا منها خمس قصائد  
ومقطوعتان، ولعل هذا ما حدا ببعض الباحثين إلى تسميته بـ "شاعر مأساة بغداد" (٧).  
ولم يقتصر رثاؤها على الشعراء، بل جر الحدث جميع الفئات المثقفة إلى النظم فيه، ومنها  
العلماء والمؤرخون والفقهاء.

وهز سقوط حاضرة الخلافة العالم الإسلامي بأسره، فرثاها شعراء من بلاد  
فارس، منهم سعدي الشيرازي، فقد رثاها باللغتين العربية والفارسية (٨)، وكانت قصيدته  
العربية أطول قصيدة وصلت إلينا، إذ بلغ عدد أبياتها أربعة وتسعين بيتاً.

(١) انظر اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٧٣/١.

(٢) أنظر مأمون جرار، أصداة الغزو المغولي، ص ٥٤، د. نوري حمودي القيسي، تقويم جديد للور الأدب في العصور المتأخرة، ص ٣٩، محمد  
التونجي، التيارات الأدبية إبان الزحف المغولي، ص ١٦٠، فؤاد الصياد، المغول في التاريخ، ص ١٨٩-١٩٠، حسن الأمين، جنكيز وهولاكو  
الغزو المغولي للبلاد الإسلامية، ص ١٤٠، د. أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية في مصر والشام، ص ٥٥٧.

(٣) النهي، تاريخ الإسلام، حوادث، ٦٥٦هـ، ص ٣٧، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٧٢، ابن تفردي بردي، النجوم الزاهرة، ٤٨/٧،  
العاصمي، سمط النجوم العوالي، ٥٢٠/٣.

(٤) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣٤ .

(٥) النهي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٦هـ، ص ٣٩، ابن تفردي بردي، النجوم الزاهرة، ٤٨/٧.

(٦) النهي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٦هـ، ص ٣٩/٣٧، العاصمي، سمط النجوم العوالي، ٥٢٠/٣.

(٧) انظر الشيبني، مؤرخ العراق ابن الفوطي، ج ١٦٤/٣.

(٨) انظر براون، تاريخ الأدب في إيران، ص ٤٠-٤٢، عبد الوهاب عزام، الشيخ سعدي الشيرازي، ص ٧، مأمون جرار، أصداة الغزو المغولي،



وتفاوتت الأشعار التي قيلت في رثاء بغداد، فبعضها جاء طويلاً أتاح للشاعر التفصيل والتعبير عن تلك المأساة، ومكنه من بث آهاته ولوعاته، أما بعضها الآخر، فلم يتجاوز البيت أو البيتين.

أما عن مضامين تلك الأشعار فهي متعددة ومتنوعة، فقد وقف الشعراء حائرين مذهولين أمام المصيبة التي نزلت ببغداد وأهلها، فراحوا يبكونها، ويتوجعون لحالها، محاولين تعليل مصابها، وواصفين ما نزل بها من دمار وتخريب، وقد أرجعوا مسؤولية ما جرى لها لأسباب عديدة، فبعضهم حمل وزير المستعصم بالله مؤيد الدين العلقمي تبعه كارثتها، والأحداث التي جرت فيها <sup>(١)</sup>، فهاجموه، وصرخوا بخيانتته، وتحدثوا عما جره فعله من وبال عليه، وعلى أشياعه، وعلى المستعصم بالله، فالشاعر زين الدين بن الوردي ينظم مقطوعتين في ذلك، فيقول مشيراً إلى المستعصم: <sup>(٢)</sup>

وْخَانَهُ الْفَاجِرُ ابْنَ الْعَلْقَمِيِّ إِلَى      أَنْ بَدَلَ الدَّوْلَةَ الْغُرَاءَ تَبْدِيلًا  
وَكَانَ مَا كَانَ لَسْتُ أَذْكَرُهُ      "لِيَقْضِي اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا"

وقال في مقطوعة أخرى مصوراً ذلك: <sup>(٣)</sup>

وَأَتَى الْخَائِنُ الْخَبِيثُ بِمِغْلٍ      طَبَّقَ الْأَرْضَ بَعْثَهُمْ تَطْبِيقًا  
هَكَذَا يَنْصُرُ الْجَهْلُ أَخَاهُ      وَمِنَ الْبِرِّ مَا يَكُونُ عَقُوقًا

وصرح ابن أبي حجلة التلمساني بمكاتبة ابن العلقمي للتتار إذ قال: <sup>(٤)</sup>

وَلَمْ يَزَلْ وَزِيرُهُ ابْنُ عَلْقَمٍ      يَكَاتِبُ التَّتَارَ فِي الْمُسْتَعْصِمِ

وذهب بعض الشعراء إلى أن ما تنزل بالمسلمين في بغداد، كان عقاباً من الله لهم

على حياة اللهو والفساد التي كانوا يعيشونها، وعلى إغفالهم حقوقه سبحانه وتعالى، فسلط

<sup>(١)</sup> ذكر عدد من المؤرخين العرب أن ابن العلقمي كان شيعياً، كاتب التتار ومالأهم على المسلمين بعد أن أمر الخليفة المستعصم بنهب الشيعة في الكرخ، وقد سهل ابن العلقمي على المغول دخول بغداد والاستيلاء عليها، ولكنه لم "يتم له ما أراد، وما اعتقد أن التتار يذلون السيف مطلقاً في أهل السنة والرافضة معاً". انظر: اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١/٨٦-٨٧، الكشي عيون التواريخ، ١٣١٢-١٣٢٢، الأشرف القساني، المسجد المسبوك، ٢-٢٦٦، ابن كثير، البداية والنهاية، ٣/١٢٨-١٢٩، الذهبي، دول الإسلام، ٢/١٢٠، أبو الفداء، المختصر، ٣/١٩٣-١٩٤، الدواداري، كثر الدرر، ٨/٢٩٨، ٣٩، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢/١٨٩، السبكي، طبقات الشافعية، ٨/٢٦٩، النويري، نهاية الأرب، ٢٣/٣٢٤، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٧/٤٣-٤٥، المنهل الصافي، ٧/١٢٨.

وهناك بعض المؤرخين والدارسين برأوا ساحة ابن العلقمي. انظر: ابن الطقطقا، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٣٣٨، محمد الشيخ الساعدي، مؤيد الدين العلقمي وأسرار سقوط الدولة العباسية.

<sup>(٢)</sup> ابن الوردي، الديوان، ص ٤٩٧، تاريخ ابن الوردي، ٢/٢٥٢.

<sup>(٣)</sup> ابن الوردي، تممة المختصر، ٢/١٩٠، وانظر رائد عبد الرحيم، صورة المغول، ص ١٥.

<sup>(٤)</sup> ابن أبي حجلة، سلوة الحزين في رثاء البنين، ص ٨٣.

عليهم أولئك الكفرة الأشداء الذين لا يخشونه، ولا يرحمون المسلمين<sup>(١)</sup>، وقد تجلى ذلك في قول تقي الدين ابن أبي اليسر: <sup>(٢)</sup>

والله يعلم أن القوم أغفلهم ما كان من نعم فيهنّ إكثار  
فأهملوا جانبَ الجبارِ إذ غفلوا فجاءهم من جنودِ الكفرِ جبارُ

ولجأ الشعراء إلى تحميل الدهر مسؤولية الغزو المغولي، وهذه سنة قديمة، سار عليها الشعراء منذ الجاهلية، فهم ما إن تزل بهم مصيبة، أو يصيب أمتهم حتى ينسبونها إلى تقلبات الدهر، الذي لا يبقى شيئاً على حاله وهم بذلك يؤمنون بحركة المجتمعات، وزوال الدول، وولادة دول جديدة، وقد عبر الشعراء عن الدهر بتعبيرات متعددة، مثل "صروف الليلي"، "أيادي الدهر"، "تصاريف الزمان"<sup>(٣)</sup> ومن ذلك جاء في قول شمس الدين الكوفي الواعظ: <sup>(٤)</sup>

ثم عانتْ أيدي صروف الليلي في الجنبِ الممتّع المحروسِ  
يا ديارَ الأحبابِ ما صنّعَ الدهرُ المعادي برّبعك المأنوس؟  
وقول أبي عبد الله المعروف بابن الشروي: <sup>(٥)</sup>

عَرَمَ الزَّمانُ على الذين عهدتْهم بك قاطنين وللزمانِ عرامُ  
وقال سعدي الشيرازي معبراً عن ذلك: <sup>(٦)</sup>

إلّامَ تصاريفُ الزّمانِ وجوره، تكلفنا ما لا نطيقُ من الإصرِ

ووصف الشعراء الذين رثوا بغداد عنف الغزو المغولي لها، وكشفوا عن شدته، وصوروا أحداثه المهولة، وعبروا عن ذهولهم جراء ذلك الحدث<sup>(٧)</sup>، فالشاعر بدر الدين بن حبيب صورته مصيبة كبرى ستبقى نكراها محفورة في ذاكرة التاريخ، فقال: <sup>(٨)</sup>

<sup>(١)</sup> انظر مأمون جزار، أصلاء الغزو المغولي، ص ١٤٢، وائد عبد الرحيم، صورة المغول، ص ٢٨.

<sup>(٢)</sup> الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٦هـ، ص ٣٨. SOMOGY, Aqasida On The Destruction Of Baghdad, Page. ٤٤.

<sup>(٣)</sup> انظر وائد عبد الرحيم، صورة المغول ص ٣٠.

<sup>(٤)</sup> الكشي، عيون التواريخ، ٣٤٣/٢٠، النويري، الإلّام، ١٣٩/٢.

<sup>(٥)</sup> الكشي، عيون التواريخ، ١٤١/٢٠.

<sup>(٦)</sup> جعفر الشيرازي، سعدي الشيرازي أشعاره العربية، من ٣٨، سعدي الشيرازي، كليات سعدي، ص ٨٧، حسين محفوظ، الشني وسعدي، ص ٧٥، سعدي الشيرازي خريج بغداد، ص ١٧٩.

<sup>(٧)</sup> انظر وائد عبد الرحيم، صورة المغول، ص ٣٢ وما بعدها.

<sup>(٨)</sup> ابن حبيب، درة الأسلاك، ٢٥/١.

دَهَمَ الْعِرَاقَ مُصِيبَةً أَهْوَالَهَا      مَا تَنْقُضِي أَبَدًا وَلَا تَتَعَدَّدُ  
وَأَهْلًا لَهَا مِنْ مَحَنَةٍ فَتَاكَةِ      يَبْلَى الزَّمَانُ وَذَكَرُهَا يَتَجَدَّدُ

وصوره تقي الدين بن أبي اليسر إعصاراً لقوته وشدته فقال: (١)

يَا نَارَ قَلْبِي مِنْ نَارِ لِحْرَبٍ وَعَيْ      شَبِّتَ عَلَيْهِ وَوَأَى الرَّبِّعِ إِعْصَارُ

وقرن الشعراء أحداث ذلك الغزو في بغداد بأحداث يوم القيامة، وهذا يعبر عن

عمق الصدمة التي منوا بها، ومنهم تقي الدين بن أبي اليسر، إذ قال: (٢)

إِنَّ الْقِيَامَةَ فِي بَغْدَادَ قَدْ وُجِدَتْ      وَحَدَّثَهَا حِينَ لِلْإِقْبَالِ إِذْبَارُ

أما سعدي الشيرازي، فقد تضخمت صورة أحداث الغزو المغولي في نفسه حين

جعلها مثل يوم القيامة، وصورها "فتنة عامة، كالنار التي تتأجج وتتقل من قطر إلى قطر،

وكان أولئك المغول من مرادة الشياطين، الذين قيدهم سليمان بن داود عليه السلام، انطلقوا

وأسالوا على بغداد عيناً من النحاس المذاب فأحرقها، وقد كان لجحافلهم غبار ارتفع حتى

جعل على وجه البدر ركاماً لا يزول فأصيب بالخسوف الدائم<sup>(٣)</sup>، وهذا ما عبر عنه

بقوله: (٤)

وَإِنَّ صَبَاحَ الْأَسْرِ يَوْمَ قِيَامَةٍ  
لَقَدْ كَانَ فِكْرِي قَبْلَ ذَلِكَ مَائِزًا  
وَبَيْنَ يَدِي صَرْفِ الزَّمَانِ وَحُكْمِهِ  
نَعُودُ بَعْفِ اللَّهِ مِنْ نَارِ فِتْنَةٍ  
كَأَنَّ شَيَاطِينَ الْقِيُودِ تَفَلَّتَتْ  
بَدَا وَتَعَالَى مِنْ خُرَاسَانَ قَسَطَلًا

عَلَى أَمَمٍ شُعْتُ تُسَاقُ إِلَى الْحَشْرِ  
فَأُحْدِثُ أَمْرًا لَا يُحِيطُ بِهِ فِكْرِي  
مُغَلَّلَةً أَيْدِي الْكِيَاسَةِ وَالْخُبْرِ  
تَأْجِجُ مِنْ قَطْرِ الْبِلَادِ إِلَى قَطْرِ  
فَسَالَ عَلَى بَغْدَادَ عَيْنٌ مِنَ الْقَطْرِ  
فَعَادَ رُكَامًا لَا يَزُولُ عَنِ الْبَدْرِ

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٦هـ، ص ٣٨، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٤٨/٧، العاصمي، سخط النجوم العمالي، ٥٢١/٣،

ابن العماد، شذرات الذهب، Page ٤٤، ٤٨/٧ . SOMOGY, Aqasida On the Destruction of Baghdad,

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٦هـ، ص ٣٨، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٤٨/٧، SOMOGY, Aqasida On the

Destruction of Baghdad, Bage ٤٤

(٣) مأمون حرار، أصلاء الغزو المغولي، ص ١٥٦ .

(٤) جعفر شيرازي، سعدي الشيرازي أشعاره العربية، ص ٣٦ : ٣٧، ٣٨، سعدي الشيرازي، كليات سعدي، ص ٨٧، حسين محفوظ، المتسني

وسعدي، ص ٧٥، سعدي الشيرازي خريج بغداد، ص ١٧٦، د. عبد الوهاب عزام بك، سعدي الشيرازي شعره العربي، ص ٦ .

وتحدث الشعراء في مرآتهم عن مشاعرهم الحزينة، وصوروا الجرائم التي اقترفها المغول في بغداد من قتل، ونهب، وسبي، وتدمير، ووصفوا ما حل ببني العباس فيها، وتحدثوا عن أحلاف المغول وما ارتكبه فيها من فظائع.

لقد كانت مأساة بغداد لظمة قاسية وبلاءً عظيماً سلط على رؤوس المسلمين، ومعركتها لم تكن في الحقيقة حدثاً عادياً يمكن أن يمر بسهولة ويسر، بل كانت قضية الأمم الإسلامية جمعاء التي أحست بالخطر الداهم خصوصاً بعد أن توقف قلبها، وانتزعت منها كعبتها، وانفرط عقد الوحدة الإسلامية المقدس<sup>(١)</sup>، ولذا بكى الشعراء بدموع سجام حتى تقرحت جفونهم، وصوروا ما انتابهم من يأس وإحباط بعدما وجدوا أنفسهم دون خليفة للمرة الأولى في التاريخ، وجاء بكاؤهم صادقاً ومعبراً عن مرارة نفوسهم التي أرهقتها حوادث الدمار والتخريب، وفقدان الأهل والوطن.

ومن الشعراء الذين رثوا بغداد شاعر النكبة شمس الدين الكوفي الواعظ، فقد جاءت قصائده لوحة تفيض بالحزن والأسى، تجول فيها بين أطلال بغداد وخرائبها، وبكى مصابها، وظهر في صورة عاشق فارق أحبابه، فوقف على ديارهم يناجيها، ويسألها عن ساكنيها، ويبثها أحزان قلبه<sup>(٢)</sup>، فقد تحدث في إحدى قصائده عن المغول الذين ساروا بأحبابه أهل بغداد، وصور حياته بعدهم، إذ صار يعاني مرارة العيش، ويتجرع كؤوس الآلام واللوعة، والاشتياق، وتبدلت حياته، بعد النعيم بشقاء، ولازمته الأسقام والأحزان والدموع، حتى غدت طعامه وشرابه ولباسه، وأكد حبه العميق لأولئك الراحلين ومكانتهم في نفسه، فقال معبراً عن ذلك: (٣)

أين سارت ترى حداة العيس  
حين ساروا حنوا الزكباب ولم  
جرعوني من الفراق كؤوساً  
فتبدلت بعد عز بذل  
وشرابي دمعى وزادي حزني  
يا غصوناً غرستها في فؤادي

بحبيبي وواحدني وأنيسي؟  
يلووا على راحة ولا تغريس  
مرة ما أمرها من كؤوس  
وتبدلت من نعيم بيوس  
وسقامي من بعدهم ملبوسي  
وبماء المنى سقيت غروسي

(١) فؤاد الصياد، المغول في التاريخ، ص ١٨٨.

(٢) مأمون جرار، أحداث الغزو المغولي، ص ١٤٤.

(٣) الكنتي، عيون التواريخ، ٢٠/١٣٨-١٣٩.

عِنْدَمَا رُمْتُ أَنْ أَنْالَ جَنَاهَا  
كُنْتُمْ لِلْقُلُوبِ رَوْحاً وَلِلْأَوْ

رُمَيْتَ بِالذَّبُولِ وَالتَّيْبِيسِ  
طَانَ رَوْحاً وَرَاحَةً لِلنَّفُوسِ

وفي قصيدة أخرى وقف الكوفي على أطلال بغداد، وبكى على فراق أهلها، وصور عجزه عن الصبر بعد رحيلهم، وخطب صاحبه طالباً منه العون والمساعدة والبكاء على مصابه، وعبر عما يشعر به من ضيق وحيرة حين أيقن انه لن يرى أحبائه مرة أخرى، ووجد في نفسه الرغبة في الانتقام من المغول، ولكنه كالطائر الذي وقع في الشرك، وهذا ما جاء في قوله: (١)

بانوا ولي أدمع في الخد تشببك  
بالرغم لا بالرضى مني فراقهم  
يا صاحبي ما احتيالي بعد بعدهم  
عز اللقاء وصانقت ثونه حيلي  
يعوقني عن مرادي ما بليت به  
أروم صبراً وقلبي لا يطاوعني  
إن كنت فاقد الف نخ عليه معي  
لا تحسبوا الدمع ماء في الخود جرى

وتووعة في مجال الصدر تعترك  
ساروا ولم أدر أي الأرض قد سلخوا  
أشرك علي فإن الرأي مشترك  
فالقلب في أمره حيران مرتبك  
كما يعوق جناحي طائر شرك  
وكيف ينهض من قذ خانة الورك؟  
فإننا كلنا في النوح نشترك  
وإنما هي روح الصب تنسبك

وعانى الشاعر سعدي الشيرازي، من الحزن ما عاناه غيره من الشعراء، فقد صور في قصيدته انعكاس النكسة في نفسه، وعبر عن ذهوله وحيرته، وعجزه عن الاحتمال، فقال: (٢)

حبست بجفني المدامع لا تجري  
نسيم صبا بغداد بعد خرابها  
لأن هلاك النفس عند ذوي النهي  
زجرت طبيبا جس نبضي مداويا

فلما طغى الماء استظال على السكر  
تمنيت لو كانت تمر على قبيري  
أحب لهم من عيشي منقبض الصدر  
إليك فما شكواي من مرض يبيري

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، من ٣٢٤-٣٣٥، الكتي، عيون التواريخ، ١٣٧/٢٠.

(٢) جعفر شيرازي، سعدي الشيرازي أشعاره العربية، ص ٣٩، ٤٠، سعدي الشيرازي، كليات سعدي، ص ٨٧، حسين محفوظ، المنشي وسعدي، ص ٧٦-٧٧، سعدي الشيرازي حريح بغداد، ص ١٧٧. ولزيد من الأمثلة انظر القصائد التي نظمها ابن الشروي، وياقوت المستعصي، وشمس الدين الكوفي في: الكتي، عيون التواريخ، ١٤١/٢٠، فوات الوفيات، ٢٣٤/٢.

لزمتُ اصطباراً حيثُ كُنْتُ مُفَارِقاً      وهذا فراقٌ لا يعالجُ بالصَّبْرِ  
مَرَرْتُ بِصَمِّ الرَّاسِيَاتِ أَجُوبِهَا      كخَنَسَاءٍ مِنْ فَرَطِ الْبِكَاءِ عَلَى صَخْرٍ  
أيا ناصحي بالصَّبْرِ دَعْنِي وَزَفَرْتِي      أَمْوَضِعُ صَبْرَ وَالْكَبُودُ عَلَى جَمْرٍ؟  
تُهَدِّمُ شَخْصِي مِنْ مَدَاوِمَةِ الْبِكَاءِ      وَيَنْهَدِمُ الْجُرْفُ الدَّوَارِسُ بِالْمَخْرِ

ومن الجدير ذكره أن القصائد التي نظمت في رثاء بغداد حملت نزعة تشاؤمية سيطرت عليها روح الرضوخ والاستسلام للواقع المرير، فقد اكتفى الشعراء بالانغماس في البؤس، والإعراض عن الدنيا، وتمني الموت، والشعور بالغبرة، واختفت من شعرهم الدعوة إلى الجهاد وضرب الأعداء<sup>(١)</sup>، ولم يملكوا سلاحاً غير البكاء، ونرف الدموع الغزار، ووصف الدمار والخراب، ولذا كان شعرهم من الأدب الباكي، بمعنى أنهم اكتفوا بتصوير مشاعرهم وأحزانهم، وما أصاب بغداد جراء هذا الحدث الجلل مع أنهم ينبغي أن يكونوا لسان الأمة الداعي إلى الجهاد والتحرير، وأن يكون شعرهم ذا أثر كبير في انتشال الأمة من وهدة الهزيمة، وتخليصها مما لحق بها، وبهذا يكون شعرهم مقاوماً معبراً عن الأمة أخذاً بيدها ملتزماً مدافعاً عن الدين والأرض والإنسان، داعياً إلى الجهاد والوحدة، ولا يكون شعراً باكياً يكتفي بتصوير الفاجعة وإحساسات النفوس ومشاعرها الآتية<sup>(٢)</sup>

ولعل ما دعا الشعراء إلى تلك النظرة السوداوية هو ما كان عليه واقعهم من تمزق وتناحر واختلاف، فلا مغيث يستمع لندائهم، ولا مجير يدفع عنهم الضيم، ولذلك كانت آخر خطبة في بغداد تحمل مشاعر الانكسار والاستسلام ومضمونها "الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الأعمار، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار، إلى أن قال: اللهم أجرتنا في مصيبتنا التي لم يصب الإسلام، وأهله بمثلها، وإنا لله وإنا إليه راجعون"<sup>(٣)</sup>، فالخطيب لا يملك إلا التوجه إلى الله، وطلب العون والمساعدة منه، لإنقاذ هذه الأمة، وكذلك الشعراء توجهوا بالشكوى إلى الله، وطلبوا الخلاص من أولئك الكفار، وتوسلوا بنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم، وبآل البيت جاعلين التضرع والتوسل سبيلين إلى النجاة والخلاص، ويتجلى ذلك في قول تقي الدين بن أبي اليسر: <sup>(٤)</sup>

(١) انظر مأمون جراز، أصداء الغرور المغولي، ص ٢٢٤، د. نوري حمودي القيسي، تقوم جديد لدور الأدب العربي في العصور المتأخرة، ص ٦٩.

(٢) د. عبد الجليل عبد المهدي، بيت القفس في أدب الحروب الصليبية، ص ١٥.

(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٦هـ، ص ٣٧، ابن تفرج بردي، النجوم الزاهرة، ٤٨/٧، الأشرف القسطنطيني، المسجد المسبوك،

٦٣١/٢-٦٣٢، ابن العماد، شذرات الذهب، ٤٦٩/٧.

(٤) العاصمي، سبط النجوم العوالي، ٥٢١/٣.

ما حلّ بالدينِ والباغونَ فُجَارُ

إليك ربنا الشكوى فأنّت تَرى

وقول السراج عبد اللطيف التكريتي: (١)

عَظَمَتْ وَحَارَتْ عِنْدَهَا الْأَبَابُ

يَا رَبَّ قَدِ عَمَّ الْبِلَادَ مَصَائِبُ

وَتَقَطَّعَتْ مِنْ دُونَكَ الْأَسْبَابُ

وَوَهَتْ عُرَى الْإِسْلَامِ وَأَحْلَ الْقَوَى

يَا آلَ غَالِبٍ أَنْتُمْ الْغَالِبُ

يَا آلَ هَاشِمٍ يَا قَرِيشَ وَسَيْلَةَ

فَأَعِثْ إِذَا مَا صُنِّقَتِ الْأَطْلَابُ

فَارْفَعِ لُؤَاءَ النَّصْرِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا

وَسَلِّ إِلَهَ لَهْمَ فَأَنْتَ مُجَابُ

وَأَشْدُدْ عُرَى الْإِسْلَامِ مِنْكَ بِعَزْمَةٍ

وَأَلْوَيْتَ جَيِّدًا مِنْ وَجُودِكَ طَابُوا

فَمَتَى عَطَفْتَ عَلَى الْوُجُودِ بِعِطْفَةٍ

وصور الشعراء في مرآتهم بغداد بعد نكبتها، وما أصاب عمارتها من دمار وتخريب ، وألقوا الضوء على عمليات الإبادة والقتل، والتشتيت والنهب وانتهاك المحرمات التي قام بها المغول هناك، وقد أطلق الناس على تلك السنة سنة المصائب، لشدة ما نزل بهم من المغول. (٢)

ولعل تلك الوحشية التي تميز بها هؤلاء القوم تعود إلى أسباب منها إيمانهم بأنهم يملكون تفويضاً إلهياً للسيطرة على الشعوب الأخرى، وشعارهم "هنالك شمس واحدة في السماء، وسيد واحد على الأرض" (٣) وهذا الاعتقاد دفعهم إلى الاندفاع بكل قوتهم، ودحر كل معترض يقف في طريقهم، ولذا كان الجندي المغولي الذي يجبن في المعركة يعاقب دونما شفقة، أو رحمة بعقوبة الموت (٤)، ومنها طبيعتهم البدائية، بحيث كانوا إذا احتكوا ببلدٍ من البلدان المتحضرة يندفعون إلى تدمير ما يجدونه فيه من مظاهر الحضارة والمدنية بسبب خوفهم منها، فيهاجمونه ويحرقون المدن، وينكلون بالرجال والنساء والأطفال بحيث لم يتركوا بعد انتهاء فترة الغزو إلا بلداناً مخربة مكتظة بجثث القتلى. (٥) وتعود همجية المغول إلى أهدافهم التوسعية، فقد كانوا يرغبون في إنشاء دولة واسعة قوية (٦)، ولذلك لم

(١) النويري، الإلمام، ٢٢٧/٢.

(٢) انظر العاصمي، سبط النجوم العوالي، ٢٢٧/٢، الكافي، نزعة الناظر، ص ٩٩.

(٣) انظر برتولد شبولر، المغول في التاريخ، ص ١٩، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص ٢٦.

(٤) برتولد شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص ٢٧.

(٥) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص ١٣ من مقدمة المحقق، فواد الصياد، المغول في التاريخ، ص ٣٤.

(٦) برتولد شبولر، المغول في التاريخ، ص ١٨، فواد الصياد، المغول في التاريخ، ص ٢٢٥.

يكن كما يقول السيوطي: "في قتلهم استثناء، ولا إبقاء يقتلون الرجال والنساء والأطفال، وكان قصدهم إفناء النوع وإبادة العالم"<sup>(١)</sup>.

ويرى أحد الباحثين: "أن قسوة المغول وشدتهم جرت وفقاً لخطة موضوعة كيما يثيروا من الخوف والرعب ما يشل حركة الذين سوف يعترضون لهجومهم، ورأوا أن ما ينزلونه بالمدن والبلاد من خرائب تتدلح فيها النيران، يكفل لجيشهم الأمن والسلامة، ويجنبهم تمرد الذين نجوا من القتل"<sup>(٢)</sup>.

ويضاف إلى ما سبق إلى أن همجية المغول وفظائعتهم في بغداد مرجعها أوامر منكوقان الصارمة لهولاكو قبل مغادرته بالحملة العسكرية، فقد أوصاه قائلاً: "أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه، وأبنائه وأقاربه، وكل ما يتعلق به"<sup>(٣)</sup> "وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة فلا تتعرض له مطلقاً، أما إذا تكبر فألحقه بالآخرين من الهالكين"<sup>(٤)</sup>، وكان تنفيذ هولاكو "للوصية تنفيذاً حرفياً، إذ أغرق في الذلة والمهانة فضلاً عن المنية كل من أجتاز بهم، وزاد فلم يقتصر في التخريب على القلاع والحصون، بل شمل جميع العمران"<sup>(٥)</sup>.

ومن الشعراء الذين رثوا بغداد، وصوروا ممارسات المغول الوحشية فيها، علي بن ممدود بن مسعود السنجاري، فقد وصف ما نزل بها من دمار، إذ وقف على أطلالها متحسراً ومتفجعاً، ومخاطباً إياها "يا دار"، ومتسائلاً عن أهلها الذين كانوا يعمرونها، وعن مظاهر الحضارة والمدنية التي كانت تزينها، وعن الأسباب التي جعلتها خراباً، ويكني عن المغول بـ "الشانى" ويصور ما غمرهم من سعادة بعد استيلائهم عليها، إلا أن الشاعر يعدم المجيب عن أسئلته ولا يجد سوى الطيور الصادحة الحزينة الواقفة على أطلال بغداد معلنة عن فناء أهلها، وزوال عمارتها، وهو في كل ذلك يصور ما في نفسه من ألم وتعاسة وبؤس، وما ينسكب من عينيه من دموع، وما يجيش في خاطره من آماني وذكريات، فيقول:<sup>(٦)</sup>

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٧.

(٢) العريبي، المغول، ص ٣-٢.

(٣) الممنان، جامع التواريخ، ٢/٢٣٦.

(٤) المصدر نفسه، ٢/٢٣٧.

(٥) حسن الأمين، حنكيز وهولاكو الغزو المغولي للبلاد الإسلامية، ص ١٠٨.

(٦) الكشي، عيون التواريخ، ٢٠/١٤١-١٤٢.



دارَ الأَحَبَّةِ بِالزُّورِاءِ حَيَّاكَ      وَجَادَكَ المَزْنَ هَطَّالاً وَرَوَاكَ  
 كَمْ قَدْ جَنِينَا ثَمَارَ الوَصْلِ فَيْكَ وَكَمْ      فُزْنَا بِنَيْلِ المَنَى مِنْ قَرُبِ سَكْنَاكَ  
 يَا دَارُ عَهْدِي بِشَمْلِ القَوْمِ مَجْتَمَعِ      فِي سَاحَتَيْكَ وَبَدْرُ التَّمِّ يَغْشَاكَ  
 وَأَنْتِ بِالسَّعْدِ وَالإِقْبَالِ ضَاحِكَةٌ      فَمَا الَّذِي أَضْحَكَ الشَّانِي وَأَبْكَكَ  
 وَأَيْنَ مَنْ كَانَتْ الأَيَّامُ مُشْرِقَةً      بِنورِهِمْ وَإِلَيْهِمْ مُشْتَكِي الشَّاكِي؟  
 وَأَيْنَ تِلْكَ النُّجُومُ الزَّاهِرَاتُ لَنَا؟      تَرَى الَّذِي أَبْلَاهُنَّ أَيْلَاكَ؟  
 أَجَابَتِ الدَّارُ وَالأَطْيَارُ صَادِحَةً      فِيهَا وَكُلُّ عَلَيْهَا نَائِحٌ بَاكِي  
 أَخْنَتَ عَلَيْهِمُ صُرُوفَ الدَّهْرِ فَافْتَرَقُوا      وَأَصْبَحُوا عِبْرَةً يَحْكِيهِمُ الحَاكِي

ويقف الشاعر موفق الدين ابن أبي الحديد على أطلال بغداد "ويكنى عنها بدار  
 علوة، فيبكيها، ويعطي صورة قديمة حين يتحدث عن الغراب الذي نعب بديار  
 محبوبته، فتشتت أهلها بعد طول اجتماع، وقد كانت المصائب التي حلت بتلك الديار أكبر  
 من أن يتحملها الشاعر، فبكى ولم يعد للأفراح مكان في نفسه، ذلك أن سيوف المغول  
 ورماحهم قضت على أهلها، ونهبتهم، وفرقتهم حتى أصبحوا يسكنون القفار مجاورين  
 وحوشها الضارية" (١)، يقول: (٢)

قَدْ أَوْحَشْتَنِي دَارُ عَلْوَةَ لَا أَرَى      إِنْسَانَهَا فِي لَيْلَتِي وَصَبَاحِي  
 نَعَبَ الغُرَابُ بِأَهْلِهَا فَتَفَرَّقُوا      بِالنَّهَبِ بَيْنَ صَفَائِحِ وَرَمَاحِ  
 تَرَكَوا مَنَازِلَهُمْ وَصَارُوا جِيرَةً      لِلوَحْشِ بَيْنَ مَقَاوِزِ وَضَوَاحِي  
 كَانَتْ طَرِيقِي قَبْلَ حَادِثَةِ النُّوَى      وَهُوَ غَدَوِي دَائِماً وَرَوَاحِي  
 وَأَقْرَبَ السَّلَامِ عَلَى الأَهْلِ وَقُلِّ لَهُمْ      بِنْتَمُ فَبَانَتْ بَعْدَكُمْ أَفْرَاحِي

ووصف شمس الدين الكوفي الواعظ ما حل ببغداد من دمار حين راح يتجول في  
 ربوعها الخربة، ويناجيها، ويسألها عن ساكنيها، ويصف حواضرها المقفرة، المدمرة بفعل  
 أيدي المغول، ونيرانهم، وقد هيجت تلك المشاهد مشاعره، فاعتصر ألماً وحنناً وشوقاً إلى

(١) رائد عبد الرحيم، صورة المغول، ص ٨٤.

(٢) الكندي، عيون التواريخ، ١٣٨/٢٠.

الأيام الخوالي حين كانت بغداد عامرة بسكانها، وحسانها، وحين كان الشاعر يتقلب في

أرغد عيش وأهنئه بين أهله وجيرانه وأحبائه، ومن ذلك قوله مخاطباً أهل بغداد: (١)

فدهاكمُ مالو فدى لَفِداهُ      كلُّ شَخْصٍ بِنَفْسِهِ وَالنَّفِيسِ  
ومغانٍ كانت بكم فِرِحَاتِ      بُدِّلَتْ بَعْدَ بِشْرِهَا بِالْعَبُوسِ  
أين تلك الوجوه فيك منيرا      تَ حَسَانٌ مَضِيئَةٌ كَالشَّمُوسِ  
كلُّ وَجْهٍ كَالشَّمْسِ لَكِنْ سَرَى بَيْنِ      أَوْجِ سَعْدٍ إِلَى حَضِيضِ النُّحُوسِ  
وقد وَقَفْنَا فِي الدَّارِ سَكْرَى وَلَكِنْ      سَكْرَ حَزْنٍ لَا سَكْرَةَ الْخَنْدَرِيسِ  
حين أَضْحَتْ عَوَاطِلًا بَعْدَمَا كَا      نَتِ تَجَلَّى فِي زِينَةِ كَالْعُرُوسِ  
ما انتفاعي بَعْدَهُمْ بِوَقُوفِي      فِي مَحَلِّ بَالٍ وَرَسْمِ دَرِيسِ؟

ويبين الكوفي في قصيدة أخرى أن المغول قد قتلوا سكان بغداد ، واستوى في

ذلك الناس جميعهم، فقال: (٢)

يا نَكْبَةَ مَا نَجَا مِنْ صَرَقِهَا أَحَدٌ      مِنْ الْوَرَى فَاسْتَوَى الْمَمْلُوكُ وَالْمَلِكُ  
تَمَكَّنَتْ بَعْدَ عَزٍّ فِي أَحْبَبْنَا      أَيَدِي الْأَعَادِي فَمَا أَبْقُوا وَمَا تَرَكَوا

وتجدر الإشارة إلى أن الشعراء البغاددة (٣) ، الذين عاشوا النكبة ، وشاهدوها

بعيونهم، وعاشوا تحت ظل الحكم المغولي، لم يصرحوا باسم المغول في أشعارهم، بل

لجأوا إلى الكنيات للتعبير عنهم، ولعل سبب ذلك خوفهم من بطش المغول (٤) ، ومن

الوشاة الذين كانوا يراقبون حركة أهل بغداد، ويلتقطون أنفاسهم لينقلوها إلى المغول (٥) ،

وهذا ما كشف عنه علي بن ممدود السنجاري في قوله: (٦)

أَقْسَمْتُ يَا دَارُ بِالْقَوْمِ الَّذِينَ هُمْ      كَانُوا مَغَانِي بَنِي الدُّنْيَا وَمَغْنَاكِ  
لَوْلَا مَخَافَةٌ وَاشٍ كُنْتُ أَحْذَرُهُ      سَقَيْتُ مِنْ مَاءِ جَفْنِي تَرُبَّ مَغْنَاكِ  
وَتَحْتُ فَيْكَ خِلَافَ النَّاتِحَاتِ عَلَى      مَرِّ الزَّمَانِ وَمَا انْسَيْتُ رُؤْيَاكِ

(١) الكشي، عيون التواريخ، ١٣٩/٢، التويري، الإلمام، ٣٤٤/٢، ولزبد من الأمثلة انظر فوات الوفيات ، ٢٣٤/٢.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣٤، الكشي، عيون التواريخ ، ١٣٧/٢٠.

(٣) وهم: شمس الدين الكوفي الواعظ، وعلي بن ممدود السنجاري، وياقوت المستعصي، وموفق الدين بن أبي الحديد.

(٤) انظر مأمون حراز، أصداء الغزو المغولي، ص ١٤٥، رائد عبد الرحيم، صورة المغول ، ص ٣٠.

(٥) انظر رائد عبد الرحيم، صورة المغول، ص ٣٠.

(٦) الكشي، عيون التواريخ، ١٤٢/٢٠.

فالشاعر يصرح أن الذي يمنعه من البكاء والتعبير عن مشاعره الحزينة وجود  
واش يقف له بالمرصاد.

أما تقي الدين بن أبي اليسر، فقد تجلت في قصيدته ملامح النكبة بأدق صورها  
ومعانيها، إذ ألقى الضوء على أفعال المغول في بغداد، فوقف على أطلالها متسائلاً عن  
جدوى الوقوف على خرائب صماء رحل عنها أهلها، وطلب من الوافدين إليها أن يكفوا  
عن زيارتها، فلا مضيف لهم بعدما قتل سكانها، وأقفر ربعاها، وعفيت آثارها، فقال: (١)

لَسَائِلُ الدَّمْعِ عَنْ بَغْدَادَ أَحْبَارُ      فَمَا وَقُوفُكَ وَالْأَحْبَابُ قَدْ سَارُوا  
يَا زَائِرِينَ إِلَى الزُّورِ لَا تَفْدُوا      فَمَا بِذَلِكَ الْحَمَى وَالِدَارِ دِيَارُ  
تَاجُ الْخِلَافَةِ وَالرَّبِيعِ الَّذِي شَرَفَتْ      بِهِ الْمَعَالِمُ قَدْ عَفَاهُ إِقْفَارُ  
أَضْحَى لِعِصْفِ الْبُلْبُلِ فِي رَبِيعِهِ أَثْرُ      وَلِلدَّمْعِ عَلَى الْآثَارِ آثَارُ

ثم صور الشاعر ما فعل المغول بنساء بغداد الجميلات العفيفات، فقد سيوهن،  
وانتهكوا أعراضهن، وأخذوا " الدفاتن والأموال التي لا تعد ولا تحصى، وكانوا يدخلون  
الدار فيجدون الخبيثة فيها، وصاحب الدار يحلف أن له السنين ما علم أن بها خبيثة" (٢)،  
وقاموا أيضاً بقتل السكان، ولا يملك الشاعر حين شاهد النساء الشريفات يسوقهن المغول  
إلى السفاح، ويدفعوهن إلى الموت إلا أن يرفع يديه إلى السماء راجياً من الله تعالى أن  
يسلط عليهن عذابه ونقمته، وأن يحرقهن بالنار قبل أن يتلطنن بالعار والمذلة، يقول: (٣)

وكم حريم سبته التُّركُ غاصبةً      وكان من دون ذلك السِّترِ أَسْتَارُ  
وكم بدورٍ على البدرية (٤) انخسفتُ      وَلَمْ يَعْذُ لِبَدْوَرٍ الْحَيِّ إِيدَارُ  
وكم ذخائرَ أضحتْ وهي شائعةٌ      من النَّهَابِ وَقَدْ حَازَتْهُ كُفَّارُ  
وكم حدودٍ أُقيمتُ من سيوفهم      على الرِّقَابِ وَحَطَّتْ فِيهِ أَوْزَارُ  
ناديتُ والسَّبِيُّ مَهْتُوكٌ تَجْرَهُمُ      إِلَى السَّفَاحِ مِنَ الْأَعْدَاءِ دُعَارُ

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٦هـ، ابن حبيب، درة الأسلاك، ٢٥/١، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٤٨/٧، السيوطي، تاريخ  
الخلفاء، ص ٣٧٣، ابن العماد، شذرات الذهب، ٤٦٩/٧، العاصمي، سمط النجوم العوالي، ٥٢١/٣. SOMOGY, Aqasida On

the Destruction Of Baghdad, Page ٤٤.

(٢) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٢٧١/٨.

(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام، ص ٣٨، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٤٨/٧-٤٩، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٧٣، العاصمي، سمط  
النجوم العوالي، ٥٢١/٣، ابن العماد، شذرات الذهب، ٤٨/٧. SOMOGY, Aqasida On the Destruction Of

Baghdad, Page ٤٤.

(٤) البدرية: أحد أبواب الخلافة في بغداد، يسكن فيه أمراء الدولة وقوادها، انظر ابن الكروني، مقامة في قواعد الدولة العباسية، ص ٢٠.

وهم يُساقون للموت الذي شهدوا النَّار يا رب من هذا ولا العارُ

وكشف الشاعر سعدي الشيرازي في قصيدته عن جرائم المغول في بغداد، وجسد مأساتها الحضارية، وبيّن فداحة خطبها، وما نزل بأهلها من عذاب، فقد حاصرهم المغول، وتقاسمتهم أيدي المنايا، وعمهم القتل، وكان لتلك الأفعال صداها في الأماكن الدينية الأخرى، فتكلمت مكة، وسكبت الكعبة دموعها من الميزاب الذي يصب في حجر إسماعيل، ولم يستثن المغول العلماء من القتل، بل شملهم الفناء<sup>(١)</sup>، حتى بكتهم مدرسة المستنصرية<sup>(٢)</sup>، التي كانوا يدرّسون فيها، ومحابرهم التي كانوا يستعملونها، وتمنى الشاعر الموت قبل نكبة أولئك العلماء، فقال:<sup>(٣)</sup>

تسائلني عما جرى يوم حصرهم      وذلك مما ليس يَدْخُلُ في الحَصْرِ  
أُبيرتُ كؤوسُ الموتِ حتّى كأنه      رؤوسُ الأسارى ترَجَحْنَ من السِّكْرِ  
لقد تكلمت أمُّ القُرَى والكعبة      مدامعُ في الميزابِ تُسكَبُ في الحِجْرِ  
بكتُ جُدرُ المُستَنصِريّةِ نُدْبَةً      على العلماءِ الرّاسخين نوي الحِجْرِ  
نَوَائِبُ دَهْرٍ ليَتِي متُ قَبْلِهَا      ولم أرَ عُدوانَ السَّقِيهِ على الحَبْرِ  
محابرُ تبكي بعدهم بسوادها      وبعضُ قلوبِ النَّاسِ أحلك من حَبْرِ  
لحى اللهُ من يُسدى إليه بنعمة      وعِنْدِ هجومِ النَّاسِ يَأْلَفُ بِالغَدْرِ

ويقف الشاعر عند عبادان<sup>(٤)</sup> يرقب نهر دجلة، فيجد مياهه مصبوغة بالدماء، ويسلط الضوء على ما حلّ بمدينة واسط من القتل والسجن والنهب، فتشتعل نار الحرقه في قلبه، ولم يجده ذلك في تخفيف الألم واللوعة، ويتخيل الشاعر المكان الذي ذبح فيه أهل بغداد، وقد نبت فيه العندم، فيقول:<sup>(٥)</sup>

(١) لقد ارتكب المغول جرائم كبيرة بحق علماء بغداد وأدبائها، انظر الأشرف الغساني، العسجد المسبوك، ٦٣٥/٢-٦٤٠، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٣٩٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ٢٦٢/٤-٢٦٤، الكشي، عيون التواريخ، ٢٠٤/٢، اليونيني، ذيل مرآة الرومان، ٣٤٠/١، ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ٣٢٨، ابن تقي بريدي، النجوم الزاهرة، ٦٢/٧-٦٣، ابن العماد، شذرات الذهب، ٤٨١/٧-٤٩٤.

(٢) بناها الخليفة العباسي المستنصر بالله، سنة ٦٣٠هـ، وسميت باسمه، انظر كليمان هوار، عطلت بغداد، ص ٢١.

(٣) جعفر شيرازي، سعدي الشيرازي أشعاره العربية، ص ١٢، سعدي الشيرازي، كليات سعدي، ص ٨٦، حسين محفوظ، المتنبي وسعدي، ص ٧٣، سعدي الشيرازي، ص ١٧٤، د. عبد الوهاب عزلم، سعدي الشيرازي شعره العربي، ص ٥.

(٤) عبادان: جزيرة في فم دجلة العوراء، انظر البغدادي، مرصد الاطلاع، ٩١٣/٢٠.

(٥) جعفر شيرازي، سعدي الشيرازي أشعاره العربية، ص ٣٤، سعدي الشيرازي، كليات سعدي، ص ٨٦، حسين محفوظ، المتنبي وسعدي، ص ٧٣، سعدي الشيرازي خريج بغداد، ص ١٧٤-١٧٥.

وَقَفْتُ بَعْدَانِ أَرْقُبُ دَجَلَةَ      كَمَثَلِ دَمِ قَانٍ يَسِيلُ إِلَى الْبَحْرِ  
 وَفَائِضُ دَمْعِي مِنْ مُصِيبَةِ وَاسِطِ      يَزِيدُ عَلَيَّ مَذَّ الْبَحِيرَةِ وَالْجَزْرِ  
 فَجَرَتْ مِيَاهُ الْعَيْنِ فَازْدَدْتُ حُرْقَةً      كَمَا احْتَرَقَتْ جَوْفُ الدَّمَامِيلِ بِالْفَجْرِ  
 وَلَا تَسْأَلْنِي كَيْفَ قَلْبِكَ وَالنَّوَى      جِرَاحَةُ قَلْبِي لَا تَبِينُ بِالسَّبْرِ  
 كَانَ دَمُ الْأَخْوِينِ أَصْبَحَ نَابِتًا      بِمَذْبَحِ قَتْلِي فِي جَوَانِبِهِ الْخُمْرِ

ويتحدث الشاعر عما أصاب نساء بغداد من ذل الأسر، ويقارن بين وضعهن قبل ذلك وبعده، فهن عزيزات، ومتنعمات، وكواعب وغازيات كالشهب جمالاً، ومخدرات لم يبرزن من خدورهن، أما بعد الأسر فقد أشقاهن المغول، وقطعوا بهن القفار الشاسعة مشياً على أقدامهن، وساقوهن وهن لم يعتدن الزجر والمشى على الحجارة، وكشفوا أستارهن. ولذلك نجد الشاعر متمنياً لو أنه أصيب بالصمم قبل استماع نبأ سبيهن وهتك أعراضهن<sup>(١)</sup>، ويكرر الشاعر وقوفه على عبادان، ونهر الصراة<sup>(٢)</sup>، ويبدو أن تلك الأماكن كانت ملطخة بدماء المسلمين أكثر من غيرها، ويقرنها بمنى حيث ينحر المسلمون ذبائحهم، ثم يرسم صورة للدموع الغزيرة، التي تدفقت من عيون النساء الثكالي حزنًا على من فقدن من أولادهن، وأزواجهن. ويكنى عن المغول "بعتره قنطوراء"<sup>(٣)</sup>، ويصور ما فعلوه ببني العباس بعد أسرهم إذ طافوا بهم الأسواق بحثاً عن مشتريين، يقول:<sup>(٤)</sup>

فَلَيْتَ صِمَاخِي صَمَّ قَبْلَ اسْتِمَاعِهِ      بِهَتِكِ أَسَاتِيرِ الْمَحَارِمِ فِي الْأَسْرِ  
 عَدَوْنٌ حَفَايَا سَبَسَبًا بَعْدَ سَبَسَبِ      رَخَائِمِ لَمْ يَسْطَعْنَ مَشِيًّا عَلَى الْحَبْرِ  
 لِعَمْرِكَ لَوْ عَايَنْتَ لَيْلَةَ نَفَرِهِمْ      كَأَنَّ الْعَذَارَى فِي الدَّجَى شَهَبٌ تَسْرِي  
 وَمَسْتَصْرَخٌ يَا لِلْمَرْوَةِ فَانصُرُوا      وَمَنْ يُصْرَخُ الْعُصْفُورُ بَيْنَ يَدَيِ صَقْرٍ؟  
 يَسَاقُونَ سَوْقَ الْمَعْرِ فِي كَبْدِ الْفَلَا      عَزَائِرُ قَوْمٍ لَمْ يَعْوَدْنَ بِالزَّجْرِ  
 جَلْبِينَ سَبَايَا سَافِرَاتٍ وَجَوْهَهَا      كَوَاعِبُ لَمْ يَبْرَزْنَ مِنْ خَلْلِ الْخُذْرِ  
 وَعَتْرَةُ قَنْطُورَاءَ فِي كُلِّ مَنْزِلِ      تَصِيحُ بِأَوْلَادِ الْبَرَامِكِ مَنْ يَشْرِي؟  
 وَقَفْتُ بَعْدَانِ بَعْدَ صَرَاتِهَا      رَأَيْتُ خَضِيبًا كَالْمَنَى بِدَمِ النَّحْرِ

(١) رائد عبد الرحيم، صورة المغول، ص ٨٨.

(٢) نهر في بغداد يصب في دجلة عند باب البصرة، انظر ياقوت، معجم البلدان، مادة "صراة".

(٣) اسم يطلق على الترك والصين، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة "قنط".

(٤) جعفر شيرازي، سعدى الشيرازي أشعاره العربية، ص ٣٦-٣٧، سعدى الشيرازي، كليات سعدى، ص ٨٧، حسين محفوظ، المتنبي وسعدى،

ص ٧٤-٧٥، سعدى الشيرازي خريج بغداد، ص ١٧٥-١٧٦.

وقد أكثر الشعراء الذين رثوا بغداد من وصف ما حل ببني العباس على أيدي المغول، وكشفوا عن أثره على الدين الإسلامي، فقد قتل المغول "من كان في دار الخلافة من الأشراف، ولم يسلم منها إلا من هرب أو كان صغيراً، فإنه أخذ أسيراً"<sup>(١)</sup>، وأسروا "من دار الخلافة من الأبيكار ما يقارب ألف بكر فيما يقال"<sup>(٢)</sup>. ومن الطبيعي أن يتوجع الشعراء على مصير الخليفة وآل بيته، ويركزوا على تصوير ما نزل بهم، فالخليفة رمز موحد للمسلمين، ونفوذه الديني بعيد الأثر في نفوسهم، والقضاء عليه يعني اضمحلال الإسلام، وفقدان رمز وحدتهم وحمايتهم، وقد أشار السبكي إلى ذلك حين قال: "هذه بغداد لم تكن دار كفر قط، جرى عليها هذا الذي لم يقع منذ قامت الدنيا مثله، وقتل الخليفة، وإن كان وقع في الدنيا أعظم منه إلا أنه أضيف له هوان الدين والبلاء الذي لم يختص بل عم سائر المسلمين"<sup>(٣)</sup>، فهذا الشاعر تقي الدين ابن أبي اليسر أنطفأت في نفسه الرغبة بالحياة، واسودت الدنيا في عينيه، بعدما أسر المغول العباسيين، وقتلوا رجال العلم في بغداد، وبين الشاعر مكانة العباسيين الدينية حين نعتهم "بآل النبي"، وكشف عن أثر قدهم على الدين والدنيا، فقال:<sup>(٤)</sup>

يا للرجالِ بأحداثٍ تحدثنا	بما غدا فيه إعدارٌ وإنذارُ
من بعد أسر بني العباسِ كلهمُ	فلا أنارَ لوجهِ الصُّبحِ إسفارُ
فما راق لي قطّ بعد بينهمُ	إلا أحاديثُ أرويهَا وأخبارُ
لم يبقَ للدينِ والدُّنيا وقد ذهبوا	شوقٌ لمجدٍ وقد بانوا وقد باروا
آلُ النبيِّ وأهلُ العلمِ قد سبوا	فمن ترى بعدهم تحويه أمصارُ ؟
ما كنتُ أملُ أنْ أبقى وقد ذهبوا	لكن أتتْ دون ما أختارُ أقدارُ

وقال أحد الشعراء في "فقد الخلافة من بغداد بيتاً مفرداً وأجاد"<sup>(٥)</sup>

خَلَّتْ المنابرُ والأسرةُ منهمُ  
فعلیهمُ حتَّى المماتِ سلامُ

<sup>(١)</sup> اليونيني، ذيل مرآة الزمان، الممندان، جامع التواريخ، ٢/٢٩٤، العيني، عقد الجمان، ١/١٧٥، النويري، نهاية الأرب، ٢٣/٣٢٤.

<sup>(٢)</sup> ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣/٢٢٩، وانظر الممندان، جامع التواريخ، ٢/٢٩٢، ابن العربي، تاريخ مختصر الدول، ص ٤٧٥، السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٨/٢٧١.

<sup>(٣)</sup> السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٨/٢٧٢.

<sup>(٤)</sup> الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٦ هـ، ص ٣٨-٣٩، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٧/٤٩، SOMOGY, Aqasida On

<sup>(٥)</sup> بيرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ٣٨، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٧/٤٩.

أما سعدي شيرازي، فتساءل عن مصير بني العباس ذوي الأخلاق الحميدة والسيادة، فأجاب بأنهم هلكوا وأصبحوا ذكراً يسترجعها الناس في مسامراتهم وأخاديثهم، وبين أثر هلاكهم على الدين، وتأثر بقوله صلى الله عليه وسلم: "بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ" (١)، ليصور غربة الإسلام بعد زوال الخلافة، وأسر نساء المسلمين ونقلهن إلى ديار الكفر، وتعجب من الخطب التي غدت خالية من ذكر المستعصم بالله، واستعار صورة الضفادع المتجمعة حول مياه المستنقعات ليشير إلى المغول، وما غمرهم من فرح حين شعروا بنشوة الانتصار، وشمتموا بالخليفة الذي استعار له شخصية يونس عليه السلام الذي التقمه الحوت، واستقر به في قعر البحر لتصوير شدة المحنة التي وقع فيها، ثم أورد صورة لبغداد وقد امتلأت بالغربان فلزمت العنقاء وكرها، والغربان هنا هم المغول، والعنقاء الخليفة (٢)، وهذا ما عبر عنه في قوله: (٣)

وهب أن دار الملك ترجع عامراً	ويُغسل وجه العالمين من العقر
فأين بنو العباس مُفْتَخِرُ الوَرَى	ذوو الخلقِ المرضي والغررِ الزهر؟
غدا سمرأ بين الأنام حديثهم	وذا سمرأ يدمي المسامع كالشمر
وفي الخبرِ المرويِّ دين محمد	يعود غريباً مثل مُبتدا الأمر
أغرب من هذا يعود كما بدا	وسبي ديار السلم في بلد الكفر؟
أذكر في أعلى المنايرِ خطبة	ومستعصم بالله لم يك في الذكر
ضفادع حول الماء تلعب فرحة	أصبر على هذا ويونس في القعر؟
تراحمت الغربان حول رؤومها	فأصبحت العنقاء لازمة الوكر

ولم يكتف المغول بالاعتداء على الأحياء من بني العباس، بل تعداهم إلى الموتى منهم، فحين شاهد شمس الدين الكوفي الواعظ "ترب الرصافة" (٤) وقد نبشت قبور الخلفاء، وأحرقت تلك الأماكن وأبرزت العظام والرؤوس، كتب على بعض الحيطان (٥):

إِنْ تَرَدُّ عِبْرَةٌ فَتِلْكَ بَنُو الْعَبَّاسِ  
بِاسٍ حَلَّتْ عَلَيْهِمُ الْآفَاتُ

(١) صحيح مسلم، ١٣٠/١.

(٢) انظر مأمون جزار، أصلاء الغزو المغولي، ص ١٥٥، وائد عبد الرحيم، صورة المغول، ص ٧٣، ٧٩.

(٣) جعفر شيرازي، سعدي الشيرازي أشعاره العربية، ص ٣٤-٣٥، سعدي الشيرازي، كليات سعدي، ص ٨٦-٨٧، حسين محفوظ، المتنبي وسعدي، ص ٧٤، سعدي الشيرازي خريج بغداد، ص ١٧٤-١٧٥، د. عبد الوهاب عزام، الشيخ سعدي الشيرازي شعره العربي، ص ٥-٦.

(٤) هي مدفن الخلفاء العباسيين في بغداد.

(٥) ابن القوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣٥.

استبيح الحريمُ إذ قُتِلَ الأَحَمُ

يأء منهم وأحرقَ الأمواتُ

وأكد الشاعر نفسه أثر سقوط حاضرة الخلافة على الدين الإسلامي في غير

قصيدة، ومن ذلك قوله: (١)

ربيعُ الهداية أضحى بعدَ بعدهمُ

معطلاً ودمُ الإسلامِ مُنْسَفِكُ

والشركُ منجبرٌ والملكُ منكسرٌ

والحقُّ مُسْتَبْرٌ والسُتْرُ مُنْهَتِكُ

وقوله: (٢)

فأبعدهمُ قُربَ الرَدَى ولَفَقَدَهُمُ

فَقَدَ الهدى وتزلزلَ الإسلامُ

وتحدث الشعراء عن الأفعال التي ارتبكتها أحلاف المغول من النصارى في

بغداد، وأشاروا إلى المنزلة الرفيعة التي وصلوا إليها آنذاك (٣) ، وتجدر الإشارة إلى أن

المسيحيين في أوروبا حرصوا على عقد تحالفات مع المغول لضرب العالم الإسلامي،

والقضاء على الخلافة الإسلامية، ولتحقيق ذلك تبادلوا الرسل معهم، ووقعوا اتفاقيات

هدفوا من ورائها التعاون للسيطرة على السبلد الإسلامية (٤) ، ولقد هلك المسيحيون

الشرقيون لما قام به المغول من أعمال ضد المسلمين، وعدوهم حماة للمسيحية الذائدين

عنها، الآخذين بالتأثر لها، فحرص بعض ملوكهم وأمرائهم على ملازمتهم، وتحريضهم

ضد المسلمين، ووجدوا غزو المغول للعراق فرصة طيبة للتأثر من الإسلام، والمسلمين "

واعتبروا تلك الغزوة حملة صليبية أتت لنصرة المسيحيين (٥) ، ولذلك كانت القوات

المغولية التي غزت بغداد مدعومة بقوات من أرمينيا، وجورجيا، وبعض الإمارات

الصليبية (٦) ، وبعد اقتحامهم بغداد لم يكن هؤلاء أقل عنفاً من المغول في تصرفاتهم تجاه

أهل بغداد. (٧)

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣٤، الكشي عيون التواريخ، ١٣٧/٢٠.

(٢) الكشي، فوات الوفيات، ٢٣٢/٢، عيون التواريخ، ١٤٠/٢٠.

(٣) انظر مامون جران، أصداء الغزو المغولي، ص ٨٩ وما بعدها، رائد عبد الرحيم، صورة المغول، ص ١٠٤ وما بعدها.

(٤) انظر د. نعمان جبران، د. محمد العمري، محاولات المغول "إيلخانية فارس" للتحالف مع القوى الأوروبية لاقتسام بلاد الشام، ص ٢٣٧،

ص ٢٤٥-٢٤٦.

(٥) د. سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ١٠٧٦/٢.

(٦) انظر الذهبي، دول الإسلام، ١٦٠/٣، د. سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ١٠٦٧/٢، فايد عاشور، العلاقات السياسية بين المغول والمماليك،

ص ٤٠، د. عادل هلال، العلاقات بين المغول وأوروبا، ص ٩٩، د. نعمان جبران، د. محمد العمري، محاولات المغول "إيلخانية فارس" ،

للتحالف مع القوى الأوروبية، ص ٢٤٨.

(٧) د. سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ١٠٦٧/٢.



أما المسيحيون الذين كانوا يقطنون بغداد، فقد عاملهم المغول برفق، وقاموا برعايتهم، فهولاكو نفسه كان متأثراً بالمسيحية، ومتعاطفاً معها إرضاءً لزوجته النصرانية "دوقوز خاتون" التي كانت دائمة المؤازرة لأبناء ملتها<sup>(١)</sup>، ولذلك أعزهم هولوكو، واستثناهم من القتل<sup>(٢)</sup>، وعين لهم حراساً يحرسون بيوتهم<sup>(٣)</sup>، وأعطاهم "الإذن ببناء كنائسهم"<sup>(٤)</sup>، وتقدم للجائليق ميخا "بسكنى دار علاء الدين الطبرسي الدويدار التي على شاطئ دجلة فسكنها، ودقّ الناقوس على أعلاها، واستولى على دار الفلك التي كانت رباطاً للنساء وعلى الرباط البشري المجاور لها، وهدم الكتابة التي على البابين، وكتب عوضها بالسرياني<sup>(٥)</sup>"، وقد صور تقي الدين بن أبي اليسر المجد الذي أحرزه النصارى في بغداد إذ أصبحوا أصحاب الأمر والنهي، وعلت صلبانهم منابر المسلمين. فقال: <sup>(٦)</sup>

عَلَا الصَّلِيبُ عَلَى أَعْلَى مَنَابِرِهَا      وَقَامَ بِالْأَمْرِ مَنْ يَحْوِيهِ زَنَارُ

وأشار شمس الدين الكوفي الواعظ إلى عمليات الأسر التي قام بها النصارى في بغداد إذ قال: <sup>(٧)</sup>

رَبَّنَا أَرْجِعْ أَحِبَابَنَا عَنْ قَرِيبٍ      لَا تَدْعُهُمْ إِمَاءَ كُلِّ حَسِيْسٍ  
 وَاحْمِهِمْ مِنْ جَمِيعِ كُفْرِ النَّصَارَى      لَا تَدْعَهُمْ يُصْغُوا<sup>(٨)</sup> إِلَى قَسِيْسٍ

أما أبو شامة المقدسي، فقد أشار في أبيات أرخ فيها نكبة بغداد إلى تعاون قوى الكفر لطمس الدين الإسلامي فقال: <sup>(٩)</sup>

لَمْ يَعْنِ أَهْلُهَا وَلِلْكَفْرِ أَعْوَا      نَنْ عَلَيْهِمْ يَا ضِيعَةَ الْإِسْلَامِ  
 وَانْقَضَتْ دَوْلَةُ الْخِلَافَةِ مِنْهَا      صَارَ مَسْتَعَصِمٌ بِغَيْرِ اعْتِصَامِ

<sup>(١)</sup> انظر الهمنان، جامع التواريخ، ٢٢٠/٢، برتولد شولر، المغول في التاريخ، ص ٤٧، العالم الإسلامي، ص ٤٧.

<sup>(٢)</sup> انظر ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٢٨/١٣.

<sup>(٣)</sup> انظر ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ٣٢٩، الكتي، عيون التواريخ، ١٣٥/٢٠.

<sup>(٤)</sup> برتولد شولر، المغول في التاريخ، ص ٤٧، الشيبني، مؤرخ العراق ابن الفوطي، ١٦٤/٣، حسن الأمين، جنكيز وهولاكو، ص ٧٩-٨٠.

<sup>(٥)</sup> ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ٢٣٣-٢٣٤، وانظر ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٨٩، السبكي، طبقات الشافعية، ٢٧١/٨، الشيبني،

مؤرخ العراق ابن الفوطي، ١٧٢/٢-١٧٣، حسن الأمين، جنكيز وهولاكو، ص ٣٥٤، رائد عبد الرحيم، صورة المغول، ص ١٠٥.

<sup>(٦)</sup> الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٦هـ، ص ٣٨، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٤٨/٧، انسيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٧٣،

العاصمي، سبط النجوم العوالي، ٥٢١/٣، ابن العماد، شذرات الذهب، ٤٧٠/٧.

<sup>(٧)</sup> النويري، الإلمام، ٣٤٤/٢.

<sup>(٨)</sup> الصّحیح "يصفون".

<sup>(٩)</sup> العيني، عقد الجمان، ١٢٩/١-١٣٠، ابن إياس، بلتاع الزهور، ج ١ ق ٢٩٩.

## رثاء الشام

تعرضت الشام في العصر المملوكي الأول غير مرة لغزو المغول، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها، وهزيمة الجيش الإسلامي سوى مرتين. أما المرة الأولى، فكانت سنة ٦٥٨هـ، فبعد سقوط بغداد لم يبق أمام هولاءكو من الخطة المرسومة له سوى الشام ومصر، فراح يخطط للاستيلاء عليها، وكانت الشام آنذاك تخضع في جزء كبير منها لسيطرة الملوك الأيوبيين، وفي مقدمتهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان الأخير على عدا مع غيره من أمراء الأسرة الأيوبية، ومع الدولة المملوكية في مصر<sup>(١)</sup>، ولم يتخذ المذكور الإجراءات اللازمة لصد المغول، بل على العكس من ذلك تقاعس على نصرته غيره من الأمراء الأيوبيين، الذين جاءوا يعرضون عليه الوحدة لصد المغول<sup>(٢)</sup>، وبعد أن أرسل له هولاءكو رسالة يتهدده فيها، ويأمره بتقديم فروض الطاعة والاستسلام<sup>(٣)</sup>، ما كان منه إلا أن خارت قواه، ومال إلى المسالمة والموادعة، ورغب في عقد حلف مع هولاءكو، فأرسل إليه ابنه العزيز مع غيره من الأمراء بهدايا كثيرة، وطلب منه "جدة ليأخذ مصر من المماليك"<sup>(٤)</sup>، إلا أن هولاءكو شك في صدق نية الملك الناصر فأرسل إليه رسالة مع ابنه العزيز يطلب منه المجيء إليه وإعلان الخضوع والتبعية، فلما وصلت الرسالة الناصر تملكه الخوف، وبقي متردداً، ولم يمكنه الأمراء من المشي إليه<sup>(٥)</sup>، "وأجابه بجواب يظهر فيه القوة وعدم المبالاة"<sup>(٦)</sup>، ولما علم الناصر بحركة التتار رحل إلى وطاة برزة شمالي دمشق "في جحافل كثيرة من الجيش والمتطوعة والأعراب وغيرهم، ولما علم ضعفهم عن مقاومة المغول ارفض ذلك الجمع ولم يسر هو ولا هم".<sup>(٧)</sup>

(١) انظر ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٤٧/١٣.

(٢) انظر ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٧٧.

(٣) انظر الرسالة في الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٧هـ، ص ٤١، ٥٨، الكتي، عيون التواريخ، ١٣٦/٢٠، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٧٣-٤٧٥، الطباخ، أعلام النبلاء، ٢٢٧/٢.

(٤) المقرئ، السلوك، ج ١/٤١٠-٤١١، وانظر ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ١٩٤/٢، النويري، نهاية الأرب، ٣٨٢/٢٩، العيني، عقد الجمان، ٢١٧/١.

(٥) انظر ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٤٨٦.

(٦) الغزي، هجر الذهب، ١٥٦/٣، الطباخ، أعلام النبلاء، ٢٢٨/٢.

(٧) ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٤٤/١٣، وانظر الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ١٥٥/٢، الكتي، عيون التواريخ، ٢١٤/٢٠، النويري، نهاية الأرب، ٣٨٩/٢٩، المقرئ، السلوك، ج ٢/٢٤٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٦٩/٧، العيني، عقد الجمان، ٢١٩/١، أبو الفداء، المختصر، ٣٠٠/٣.

أما هولاءكو ، فقد سار من بغداد بنفسه، وأخذ يستولي على ما تحت يد الملك الناصر حتى استولى على مدينة حلب "وقتل فيها أكثر من الذي قتل في بغداد"<sup>(١)</sup>، وسبى من النساء والذري، وبقي السيف مذبولاً سبعة أيام، وامتنعت عليهم قلعة حلب فحاصروها مدة شهر ثم سلمت إليهم بالأمان<sup>(٢)</sup> ، ثم استولى المغول على دمشق بالأمان وسائر الشام إلى غزة، واستقر نوابهم فيها<sup>(٣)</sup>، وبسقوط الشام سقطت الدول الأيوبية منها، وكانت قد انقضت من مصر قبل ذلك.

أما المرة الثانية التي سقطت فيها الشام، فكانت سنة ٦٩٩هـ، وكانت وقتذاك تحت سلطة الدولة المملوكية، ففي تلك السنة سار القائد المغولي غازان بجموعه إلى بلاد الشام، فخرج المسلمون بقيادة الملك الناصر محمد بن قلاوون لقتاله، والتقى الجمعان في وادي الخزندار بين حمص وسلمية، فلحقت الهزيمة بعساكر المسلمين، واستولى المغول على حمص ودمشق، وتبعوا المنهزمين إلى غزة والقدس، والكرك، وتوجهت طائفة منهم إلى صفد وبيسان، ولم تمتنع عليها سوى قلعة دمشق، فإن نائبها علم الدين أرجواش المنصوري، امتنع عن تسليمها، وقام في حفظها خير قيام، وأقام غازان في الشام نواباً عنه، سيف الدين قبجق، وسيف الدين بكتمر، وسيف الدين إلبكي، وكان هؤلاء قد رحلوا إلى غازان، وحثوه على دخول الشام، ثم غادر غازان راجعاً إلى بلاده.<sup>(٤)</sup>

أما عن سقوط الشام سنة ٦٥٨هـ، فقد نظم الشعراء أشعاراً عبروا من خلالها عن تلك المأساة، وكانت مدينة حلب أكثر مدينة حظيت باهتمام الشعراء، وذلك لكثرة ما نزل فيها من بلاء المغول الذين نكلوا بسكانها، وقتلوا الكثيرين منهم حتى غدت الطرقات ممتلئة بجثث القتلى.

(١) ابن العربي، تاريخ مختصر الدول، ص٧٨٧، الطباخ، أعلام النبلاء، ٢/٢٣٢.

(٢) انظر أبو الفداء، المختصر، ٣/١٩٩، ابن العربي، تاريخ مختصر الدول، ص٤٨٦، النويري، نهاية الأرب، ٢٧/٣٨٥، اليونيني، ذيل مرة الرومان، ١/٣٤٢، العيني، عقد الجمان، ١/٢٣٠، المقرئ، السلوك، ج١٢/٤١٩، الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٨هـ، ص٥٠.

(٣) انظر أبو الفداء، المختصر، ٣/٢٠٥، بيريوس المنصوري، التحفة للملكية، ص٤٣، المقرئ، السلوك، ج٢١/٤٤٦، ابن الشحنة، تاريخ ابن الشحنة على هامش الجزء التاسع من تاريخ ابن الأثير، ص١٢١، الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٦هـ، ص٥١، ص٥١.

(٤) انظر وقائع المعركة: ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٥٠٢-٥٠٣، بيريوس المنصوري، مختار الأخبار، ص١١٢، اللواداري، كثر الدرر، ١٥/٩ وما بعدها، المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٣، أبو الفداء، المختصر، ٤/٤٣، الذهبي، العبر، ٣/٣٩٤، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤/٧، الكشي، عيون التواريخ، ١٩/١٤٦، الصندي، تحفة ذوي الألباب، ٢/٢٠٤، أمراء دمشق في الإسلام، ص١٥٧، النويري، نهاية الأرب، ٣١/٣٨٤، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٨/٩٤، العيني، عقد الجمان، ٤/٨، ابن سباط، تاريخ ابن سباط، ١/٥١٩-٥٢٠، ابن حبيب، تذكرة النبيه، ١/٢٢٠، المقرئ، السلوك، ج٣١/٨٨١، اليافعي، امرأة الجنان، ٢/١٧٢، ابن الشحنة، تاريخ ابن الشحنة، ص١٠٣، ابن لباس، بدائع الزهور، ج١ ق٤٠٣.

ويلخص الذهبي نكبتها بقوله: فصارت حلب "خاوية على عروشها، فقد هدت أسوارها، وهدمت قلعتها، وأحرقَت دورها الفاخرة، وباد أهلها ، وأصبحت عبرة للناظرين".<sup>(١)</sup>

ولم يشر المؤرخون إلى حجم الشعر الذي نظم في رثاء تلك المدينة، كما أشاروا من قبل حينما سردوا وقعة بغداد على سبيل المثال، ولكن البحث والتنقيب أسفر عن العثور على قصيدة نظمها الشاعر كمال الدين بن العديم، وبلغت خمسة وثلاثين بيتاً، وشارك الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب في رثاء حلب، فبعد أن أسره المغول، ومروا به على خرائب ملكه، صنع "في نعيها أشعاراً يغني بها المسمعون"،<sup>(٢)</sup> ، ولم يصل إلينا منها سوى مقطوعات قليلة، وأجزاء من قصائد مختزلة.

وأشار الدواداري، إلى طول بعض القصائد التي نظمها ذلك الملك، فقال بعد أن ذكر أجزاء من قصيدة الناصر التي مطلعها:

يَعزُّ عَلَيْنَا أَنْ نَرَى رَبْعَكُمْ يَبْلَى      وَكَانَتْ بِهِ آيَاتُ حُسْنِكُمْ تُتْلَى

"وهي قصيدة طويلة نيف وستون بيتاً ..... فلذلك أضربت عن إثبات جملتها كون تاريخنا تاريخ اختصار لا تاريخ تحشية وإكثار"<sup>(٣)</sup>.

أما دمشق، فلم ينظم الشعراء أشعاراً خاصة في رثائها، ووصف سقوطها ، بل جاء الحديث عن ذلك في الأشعار التي تناولت الغزو المغولي عامة، وتلك التي رثت الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، ومرد ذلك إلى أنها لم تستعص على المغول مثل حلب، بل سلّمت إليهم بالأمان ، ولقيهم كبارها بالترحيب والتهليل<sup>(٤)</sup> ، ولذا لم يرتكب فيها هولاً ووحشية مثلما فعلوا في حلب، فهو إلى جانب الأمان الذي أعطاه لسكانها، كان يحمل فكرة مفادها أنه "من أذى دمشق وأهلها يموت"<sup>(٥)</sup> .

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٩هـ، ص ٤٠٣، وحوادث ٦٥٨، ص ٥٠، وانظر العبر، ٢٨٧/٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٤٧/١٣.

(٢) المقرئ، نفع الطيب، ١٢٧/٣.

(٣) الدواداري، كثر الدرر، ٥٩/٨.

(٤) انظر الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٨، ص ٥١، العبر، ٢٨٨/٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٤٧/١٣.

(٥) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٨هـ، ص ٥٩.

واختفى الشعر الذي رثى مدن الشام الأخرى، على الرغم من فطائع المغول فيها<sup>(١)</sup>، ولم يصل سوى مقطوعة واحدة صورت ما فعله المغول بقلاع معرة النعمان.

أما الأشعار التي رثيت بها مدينة حلب، فقد تنوعت مضامينها، فالشاعر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب عزّ عليه أن يرى دار ملكه يتحكم فيها الغرباء، وآلمه حالة الدمار التي وصلت إليها بعدما كانت عامرة بالحسن والجمال، ولذا راح يتوجع على ما أصابها، ويبكي بدموع غزار، وصار يستذكر أيام نعيمها، وصور حالته النفسية، وما يعانيه من ذل الأسر، حين رأى جموع المغول وأحلافهم من الأتراك يصلون في أكناقها، ولكنه عزّى نفسه بما نكب به العباسيون قبله، فقد نكل بهم المغول، وأسروا بعضهم، وقتلوا الآخرين، وهذا ما عبر عنه في قوله:<sup>(٢)</sup>

يَعزُّ عَلَيْنَا أَنْ نَرَى رَبْعَكُمْ يَبْلِي	وكانت به آياتُ حُسْنِكُمْ تُتلى
لقد مرّ لي فيه أفانين لئذ	فما كان أهنأ العيش فيه وما أحلا
أقلب قلبي نحوكم في دياركم	فأكثرُ فيه النوح كالناحة التكلّي
أحبابنا والله ما قلتُ بعدكم	لحادثة الأيام رفقا ولا مهلا
عبّرت على الشهباء وفي القلب حسرة	ومن حولها تركّ يشايعهم مغلا <sup>(٣)</sup>
لقد حكموا في مهجتي حكم ظالم	ولا ظالم إلا سيّلى كما أبلى
ولي أسوة مع آل بيت محمد	فبعضهم أسرى وبعضهم قتلى

وقال متوجعا ومعبرا عن حبه لحلب:<sup>(٤)</sup>

مَرَرْتُ بِجَرَاعِ الحَمَى فَتَلَقَّيْتُ      لحاظي إلى الدار التي رحلوا عنها  
ولو كان عندي ألف عينٍ وقمتُ في      معالمها عمري لما شبتُ منها

وفي مقطوعة أخرى يدعو الشاعر لحلب بالسقيا، ويصور دموعه المتدفقة، ويؤكد حبه لها، فهي البلد الوحيد الذي يصبو للعيش فيه، يقول:<sup>(٥)</sup>

(١) انظر ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٤٨٨، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢/٢٠٠، ابو الفداء، المختصر، ٣/٢٠٣، اللواداري، كثر الدرر، ٤٧/٨، المقرئ، السلوك، ج ١/٤٤٦، العيني، عقد الجمان، ١/٣٤٠.

(٢) اللواداري، كثر الدرر، ٨/٥٨-٥٩، ابن دقماق، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، ص ٢٦٠، الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٩هـ، ص ٤٠٣، بيمس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ٥٠، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢/٢٩٦، العيني، عقد الجمان، ١/٢٣٥، أعلام النبلاء، ٢/٢٣٥.

(٣) خطأ نحووي والصواب "مغل"، وهذا إقواء.

(٤) المقرئ، نفع الطيب، ٧/١٢٣.

(٥) اللواداري، كثر الدرر، ٨/٥٧.

سقى حلب الشهباء في كل بقعة  
فتلك مرامي لا العقيق ولا اللوى  
سحائب غيث نوءها مثل أدمعي  
وأكثر ما يؤلم الملك الناصر أن يموت في أسر المغول، وديار الغربية، ولا يشعر  
به أحد من أحبائه، ويوضح ذلك قوله: (١)

لكن أصعب ما لقيه من ألم  
وواصل الشاعر الدعوة للشام بالسقيا، ويخص حلب وأهلها بالحزن المتجدد  
والشوق، ولكن روح اليأس تغلب عليه، فيستسلم للقضاء، الذي حكم عليه بالفراق  
فيقول: (٢)

سقى الله أكناف الشام ومعهداً  
ولا برحت أرض المواسم عصمة  
أيا ساكن الشهباء لا زال حبكم  
وخرني عليكم لا يزال مجدداً  
أروم لقاكم والقضاء يعيقني  
وعفرت خذي في الثرى قرحاً بكم  
به العهد باق لا يزال مواظباً  
من السوء تسقى دائم الأفق دائباً  
يخالط مني أعظمي والترائب  
وشوقي إليكم لا يزال مغالباً  
قلو جاد سيرت السحاب ركائباً  
وقلت لقلبي قد بلغت المأرباً

تكمُن أهمية تلك الأشعار في أنها صدرت من رحم المعاناة التي عاشها ملك فقد  
ملكه، وصار ذليلاً بين يدي أسريه، ولذلك جاءت مشاعره صادقة تنطق عما يجيش في  
نفسه، وتتجسد في ثناياها معاني الألم، والغربة، والحزن، والضياع، والذكريات، والتلهف  
على الأمجاد الزائلة، فهو لا يرثي حلب فحسب، ولكنه يرثي نفسه أيضاً.

أما كمال الدين بن العديم، فكان قد قدم "مصر لما جعل الناس من التتار، ثم عاد  
إلى حلب بعد خرابها، فلما نظر إليها ورأى ما فعله التتار بها، تأسف وقال في ذلك قصيدة  
طويلة" (٣)، بدأها بالحكمة والموعظة والشكوى من الدهر الذي لا يبقي شيئاً على حاله،  
فقانونه التبديل والتغيير والهدم، وقد أفنى هذا الدهر قديماً ممالك كسرى وقيصر المنيعه،  
وبدد جيوشها، وقضى على ملك العباسيين، وطمس آثارهم، وبدل حالهم، فبعدهما كانوا قبلة

(١) النواداري، كثر الدرر، ٥٨/٨.

(٢) المصدر نفسه، ٥٨/٨.

(٣) العيني، عقد الجمان، ١/٣٤٠٠.

الملوك يزدحمون على أبوابهم، نزلت بهم وبقصورهم المذلة، والهوان، وأزال كذلك دولة الأيوبيين على الرغم من عظمتها ومنعتها، قال: <sup>(١)</sup>

هُوَ الدَّهْرُ مَا تَبْنِيهِ كَفَّاكَ يَهْدِمُ  
أَبَادِ مُلُوكِ الأَرْضِ كِسْرَى وَقَيْصِرَا  
وَمَلِكُ بَنِي العَبَّاسِ زَالٌ وَلَمْ يَدَعْ  
وَأَعْتَابُهُمْ أَضْحَتْ تَدَاسُ وَعَهْدَهَا  
وَأَفْنَى بَنِي أَيُّوبَ مَعَ كَثْرِ جَمْعِهِمْ  
وَإِنْ رُمْتَ إِنْصَافًا لَدِيهِ فَيَظْلَمُ  
وَأَصْمَتْ لَدَى فِرْسَانِهَا مِنْهُ أَسْنَهُمْ  
لَهُمْ أَثْرًا مِنْ بَعْدِهِمْ وَهُمْ هُمْ  
تُبَّاسٌ بِأَفْوَاهِ المُلُوكِ وَتُلْتَمُ  
وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَلِكٌ مَعْظَمٌ

مهد الشاعر بأبياته السابقة للحديث عن حلب، التي شملها عدوان الدهر، وليعزي نفسه، فإن ما أصابها قانون عام يشمل جميع المدن والممالك، ثم ألقى الضوء على نكبتها منذ لحظة هجوم المغول عليها، وحصارهم لها، وكشف عن عددهم وعدتهم، وخططهم العسكرية، وأجل ما جرى فيها من المصائب، أما الغزاة، فكانت أعدادهم كبيرة كالسحاب المتراكم، أو أسراب القطاة، أو أمواج البحار الزواخر، هاجموا حلب بخيولهم السريعة الجرداء، وحاصروها ستة أيام، ثم شرعوا باقتحامها، والاستيلاء عليها، وكان هجومهم مباغتاً وسريعاً وعنيفاً لم تصمد أمامه حصونها المنيعه، وهذا ما عبر عنه إذ قال: <sup>(٢)</sup>

وَعَنْ حَلَبٍ مَا شِنِتَ قُلُومَ عَجَائِبِ أَحَلَّ بِهَا يَا صَاحِبَ إِنْ كُنْتَ تَعَلَّمُ  
غَدَاةَ أَتَاهَا لِلْمَنِيَةِ بَغْتَةً مِنَ الْمُغْلِ جَيْشٌ كَالسَّحَابِ عَرَمَرَمٌ  
أَحَاطُوا كَأَسْرَابِ القَطَا بِرَبْوَعِهَا عَلَى سَبْقِ جُرْدٍ مِنَ الخَيْلِ طَهُمُ  
وَمِنْ بَعْدِ سِتِّ هَاجَمُوهَا وَمَا لَهُمْ مِنَ المَوْتِ وَاقٍ لِأَنَّ مِنْهُ مِعْصَمُ  
فَمَا دَقَعَتْ أَسْوَارَهَا عَنْهُمْ الَّذِي ذَهَابَتْ وَلَا مَا شَيَّدُوا وَرَمَوْا  
أَتَوْهَا كَأَمْوَاجِ البَحَارِ زَوَآخِرِ بَيْضِ وَسُمْرِ وَالْقِتَامِ مُخَيَّمُ

ويسلط الشاعر الضوء على الأفعال التي اقترفها المغول في حلب، ويصور دخولهم لها يوماً عصبياً وهنا يتأثر بالقرآن الكريم، إذ جعل أحداثه تشبه أهوال يوم القيامة، فقد أظلم جوها، وسيرت الجبال، وعطلت العشار <sup>(٣)</sup>، وأذهلت كل مرضعة عما

<sup>(١)</sup> أبو الفداء، المختصر، ١٢١٥/٣، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢٠٨/٢، العيني، عقد الجمان، ٣٤٠/١، الغزي، نهر الذهب، ١٦٤/٣،

الطباخ، أعلام النبلاء، ٢٥٤/٢.

<sup>(٢)</sup> العيني، عقد الجمان، ٣٤٠-٣٤١.

<sup>(٣)</sup> الناقة التي أتى عليها من وقت الحمل عشر أشهر. الرازي، مختار الصحاح، مادة "عشر".

أرضعت، وأجرى المغول من دماء أهلها أنهاراً، واعتدوا على مساجدها ومدارسها فهدموها وجعلوها ركاباً<sup>(١)</sup>، وعبثوا بمصاحفها وكتب علومها، ويركز الشاعر على وصف ما جرى لنساء حلب الجميلات، فقد سباهن المغول، وأهانوهن، وجزوا منهن الشعور، ولطخوا وجوههن بالدماء من شدة اللطم، وكانوا قساة في تعاملهم معهن، ينالون أغراضهم الدنيئة بالقوة، ولا يرقون للوجوه الجميلة ولا تلين قلوبهم للأصوات الضعيفة التي تستغيث مولولة شاكية<sup>(٢)</sup>، يقول: <sup>(٣)</sup>

فَلَوْ حَلَبُ الْبِيضَاءُ عَايَنْتَ تَرْبِهَا	وَقَدْ عَنَدَمُ الْفِضْيُ مِنْ تَرْبِهَا الدَّمُ
وَقَدْ سِيرَتْ تِلْكَ الْجِبَالُ وَسَجَرَتْ	بِهَنْ بَحَارُ الْمَوْتِ وَالْجَوُّ أَقْتَمُ
وَقَدْ عَطَلَتْ تِلْكَ الْعِشَارُ وَأَذْهَلَتْ	مَرَاضِعُ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَهِيَ هَيْمُ
فِيَالِكَ مِنْ يَوْمٍ شَدِيدٍ لُغَامَةٌ	وَقَدْ أَصْبَحَتْ فِيهِ الْمَسَاجِدُ تُهْدَمُ
وَقَدْ دَرَسَتْ تِلْكَ الْمَدَارِسُ وَارْتَمَتْ	مَصَاحِفُهَا فَوْقَ الثَّرَى وَهِيَ ضُخْمُ
وَقَدْ جُرِّزَتْ تِلْكَ الشُّعُورُ وَضُمِّخَتْ	وَجُوهَ بِأَمْوَاهِ الدِّمَاءِ وَهِيَ تُلْطَمُ
وَكُلَّ مَهَاةٍ قَدْ أَهَيْنَتْ سَبِيَّةٌ	وَقَدْ طَالَ مَا كَانَتْ تُعَزُّ وَتُكْرَمُ
وَتَتَادِي إِلَى مَنْ لَا يَجِيبُ نَدَاءَهَا	وَتَشْكُو إِلَى مَنْ لَا يَرْقُ وَيَرْحَمُ
فَمَا غَادَرُوا إِلَّا الْيَسِيرَ وَقَدْ أَتَى	الْحَسَابُ عَلَى الْبَاقِينَ بِالْحَرْفِ يَقْسَمُ

ويستمر الشاعر في مناجاة حلب، ووصف ربوعها الدارسة المقفورة، ويتساءل عن سبب انقلاب الأحوال فيها مستخدماً أسلوب المقابلة، فقد أضحت تلك المدينة جهنم تحرق كل شيء فيها، وصار لسان حالها ينطق عن بؤسها وشقائها، بعدما كانت عامرة، وملجأ للخائفين، والمحتاجين، ومصدر رعب للمسيئين، ويكرر السؤال عن أهلها وعن أحبائه فيها وعن نساءها الجميلات، وينتهي قصيدته ببيان أن ما نزل بها هو من قضاء الله وقدره، فيقول: <sup>(٤)</sup>

فِيَا حَلْبَا<sup>(٥)</sup> أَنَى رُبُوعِكَ أَقْفَرْتُ وَأَعْيَتْ جَوَاباً فَهِيَ لَا تَتَكَلَّمُ

<sup>(١)</sup> انظر ما فعل المغول بمساجد حلب وعمارتها: أبو الفداء، المختصر، ٢٠٣/٣، المقرئ، السلوك، ج ١٦١/١، ٢٣١.

<sup>(٢)</sup> رائد عبد الرحيم، صورة المغول، ص ٨٨، ٩٦.

<sup>(٣)</sup> أبو الفداء، المختصر، ٢١٥/٣، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢٠٨/٢، العيني، عقد الجمان، ٣٤١/١، الغزي، حر الذهب، ١٦٥/٣، الطباخ، أعلام النبلاء، ٢٥٤/٢.

<sup>(٤)</sup> العيني، عقد الجمان، ٣٤٢-٣٤١/١، وورد البيت الأخير في أبو الفداء، المختصر، ٢١٦/٣.

<sup>(٥)</sup> الصحيح، "يا حلب".



فَمَا بَالُ هَذَا الْيَوْمِ أَنْتِ جَهَنَّمُ ؟  
 بَعِينِ الرَّدَى وَالْبُؤْسُ عَنْكَ يَتْرَجُمُ  
 وَفِيكَ لَذَى الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَّ أَنْعَمُ  
 يَخَافُكَ ذُو شَرٍّ وَيَرْجُوكَ مُعْدَمُ  
 أَرَى رَبَّكَ الْمَانُوسَ قَفْرًا وَيَعْظُمُ  
 بِرَبِّعِكَ وَالْقَطَانَ فِيكَ مُخَيَّمُ ؟  
 فَأَيْنَ اسْتَقَلُّوا بِالرِّكَابِ وَيَمَمُّوا ؟  
 فَيَفْعَلُ فِينَا مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ

وَكُنْتِ لِمَنْ وَافَاكَ بِالْأَمْسِ جَنَّةً  
 وَكَيْفَ أَصَابَتْكَ الْحَوَادِثُ غِرَّةً  
 أَمَا كُنْتِ مَلْجَأً لِمَنْ خَافَ حَاتِرًا  
 أَمَا كُنْتِ غَوْتًا لِلْوَفُودِ وَمَقْصِدًا  
 يَعْزَى عَلَى قَلْبِي الْمَعْنَى بِأَنْنِي  
 فَأَيْنَ أَحْبَابِي الَّذِينَ عَهَدْتَهُمْ  
 وَأَيْنَ شَمُوسٌ كَنَ بِالْأَمْسِ طَلْعًا  
 وَلَكِنَّمَا اللَّهُ فِي ذَا مَشِيئَةٍ

ويلاحظ على الشعراء الذين رثوا حلب أن روحهم المعنوية كانت محطمة، وقد بدت روح الاستسلام جلية في أشعارهم، ومرد ذلك إلى الواقع المرير الذي يحيط بهم، فلا مجير يسمع صوت استغاثتهم، إذا ما استغاثوا، وهم في المقابل يواجهون عدوا شرساً لا رحمة لديه ولا شفقة، ولم يكن قد مني بهزيمة واحدة حتى ذلك الوقت أي إلى سنة ٦٥٨ هـ .

وتلك الروح الإنهزامية التي سيطرت على المسلمين آنذاك عبر عنها أبو الفداء إذ قال: "وكانت القلوب قد ينست من النصر على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام، ولأنهم ما قصدوا إقليمياً إلا فتحوه، ولا عسكرياً إلا هزموه"<sup>(١)</sup>، لذلك خلت المراثي من الاستجداد والحض على الجهاد، فلمن يتوجه الشعراء بالنداء بعدما سقطت الدولة الإسلامية في إيران، وبغداد والشام؟.

ووصف أحد الشعراء ما أصاب معرة النعمان على أيدي لمغول، فكنى عنهم "بالأعاجم"، وصورهم وهم يسخرون أهلها لهدم قلعته، وحث أولئك الأهل على الامتناع عن ذلك لأنه تفریط بممتلكاتهم، لكن صوته الداعي إلى التمرد ما لبث أن خفت حين بين حالة العجز التي كانوا عليها، وكشف في نهاية أبياته عن موقف المغول من الحضارة والمدنية، فبين أن السبب الذي دعاهم إلى هدم القلعة هو إسرافها في علوها، وهذا ما جاء في قوله: (٢)

رِفْقًا عَلَيْهَا قَلْعَةٌ مَنِيْعَةٌ      يَهْدُمُهَا مَنْ هُوَ مِنْ حِزْبِهَا

(١) أبو الفداء، المختصر، ٢٠٥/٣، وانظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٦٩/٧.

(٢) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ١٩٩/٢.

فغاية المفرط في سلمها  
تحتنا في هذمها أعجم  
تبخل أيدينا بأرواحنا  
لما رأوها أسرقت في العلا

كغاية المفرط في حربها  
ونحن مكروبون من كربها  
وتشتكي منا إلى ربها  
كان علاها منتهى ذنبها

وكان لسقوط الشام سنة ٦٩٩ هـ - صدئ كبير في الشعر العربي، فقد عمل الشعراء في هذه النازلة أشعاراً كثيرة<sup>(١)</sup>، إلا أن ما عثر عليها منها قليل، ووجه في رثاء دمشق، وذلك لكثرة ما نزل فيها وبضواحيها، من عمليات قتل ونهب وأسر وتدمير أطال المؤرخون في وصفها، والحديث عنها<sup>(٢)</sup>، وقد عثر على قصيدتين في رثائها إحداهما للشاعر تقي الدين بن تمام الحنبلي، وبلغت ثمانية وثمانين بيتاً، ونظم الأخرى علاء الدين بن علي الأوتاري الدمشقي، وعدد أبياتها تسعة وأربعون بيتاً، فضلاً عن عدد من المقطوعات نظمها شعراء آخرون، ولم تحظ الشام عامة إلا بمقطوعة واحدة قيلت في رثائها. وتجدر الإشارة إلى أن هناك شعراً ضاع ولم يصل إلينا، ودليل ذلك ما قاله ابن الجزري في ترجمة شهاب الدين أبي العباس التبريزي المعروف بابن كرّشت، المتوفى سنة ٧٣٥ هـ، فقد ذكر أن للأخير قصائد في واقعة التتار سنة ٦٩٩ هـ، إلا أنه لم يثبت شيئاً منها<sup>(٣)</sup>.

وتعد قصيدة تقي الدين بن تمام الحنبلي من أبرز القصائد التي قيلت في رثاء دمشق، فقد تعرض قائلها للتكليل من المغول، إذ أسروه وربطوا في رقبته حبلاً وجروه<sup>(٤)</sup>، فنظمها وهو في أسره يعاني مرارة العذاب<sup>(٥)</sup>.

وبدأ الشاعر قصيدته بالشكوى من الدهر وخطوبه التي سلطت الأعداء المغول على دمشق، يتحكمون بأهلها، ويعفون رسومها، ويكشف الشاعر عن الأثر الذي خلفته تلك المأساة في نفوس المسلمين، فقد تمزقت قلوبهم حسرة عليها، ويكوها بالدماء، يقول: <sup>(٦)</sup>

(١) الداوداري، كثر الدرر، ٣٠/٩.

(٢) انظر الداوداري، كثر الدرر، ٤٣/٩، الكشي، عيون التواريخ، ١٤٦/١٩، الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ٢٠٤/٢، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٠/١٤، العيني، عقد الجمان، ٣٤/٤، المقرئ، السلوك، ج ١ ق ٣/٨٩٥.

(٣) ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٧٨٨/٣.

(٤) انظر الكشي، عيون التواريخ، ١٤٦/١٩، العيني، عقد الجمان، ٣٧/٤.

(٥) انظر الكشي، عيون التواريخ، ١٥٠/١٩.

(٦) المصدر نفسه، ١٥٠/١٩.

هو الخَطْبُ من شَكوى الرزيّة      أعظَمُ أصابَ فما أبقي وللدهر أسهمُ  
فلا قلبُ إلا قد تمزقَ حَسْرَةً      ولا طرفُ إلا كفَ مَذْمَعَه دمُ  
على جلقِ الفيحاء تَعفو رُسومها      وأيدي العدا فيها تَجورُ وتَحكُمُ  
دمشقُ ديارُ الشّامِ للحُسنِ شامَةٌ      بها تُشرقُ الدُّنيا مناراً وتبسّمُ  
جرتُ زفراءُ الدهرِ فيها فَحَرَقَتْ      موسمَ حُسنٍ بالملاحَةِ تُوَسِّمُ  
وهبتَ عَليها الحادِثاتُ فأفقرتُ      ربوعُ بها كان السرورُ يَخيمُ

وينتقل الشاعر إلى تصوير الأعمال الوحشية التي اقترفها المغول في دمشق، فقد تفننوا في تعذيب السكان، وأنزلوا فنون العقاب المختلفة بهم، وعلى الرغم من أن القائد المغولي غازان كان مسلماً حين غزا الشام سنة ٦٩٩ هـ، إلا أن الشاعر وسمه بالكافر<sup>(١)</sup> الذي ملك دمشق واستباح دماء المسلمين، ولم ينج من مجازهم حتى الأطفال الصغار، فارتكبوا بحقهم أبشع صور القتل، ولم يرحموا طفولتهم وبراعتهم، كما أهانوا علماء المسلمين، وتعرضوا للنساء نوات الحسن والجمال، والصون، والعفاف، ففجروا بهن، وتركوهن يلطنن الخدود، ويذرفن الدماء الغزار، ويشير الشاعر إلى انعدام المجير الذي يذب عنهن، وينقذهن من وحشية المغول<sup>(٢)</sup>، يقول: (٣)

تَمَلَّكها مَلِكٌ من التَّركِ كافرٌ      فَكَمَ مُسَلِّمٍ فيها إلى السيفِ يُسَلِّمُ  
وَحَكَمَ فيها المَعْلَ بالِحورِ أثمًا      فكم جارٍ فيها بالرديّةِ مجرمُ  
وكم قَتَلوا طِفْلاً يُرْعِرُغُ ماشياً      كما افتَرَ عن ثَغْرِ الأفاقَةِ مَبْسَمُ  
إذا قَابَلتُ شمسَ الضحَى نورَ      وَجْهِهِ فَعَنَ فَلَقَ الصُّبْحِ المنيرِ تترجمُ  
وكم زجروا من عالمٍ وهو عاملٌ      أقامَ منارَ الحقِّ والحقِّ أقومُ  
وكم هتكوا من دُميَّةِ بدمائها      وكم تركوا من حيِّ حوراءَ تَلْطُمُ  
مُحَجِّبَةً ما لاحت الشمسُ وَجْهها      ولا نظرتها العينُ أو نالها الفمُ  
معقَرةً في التَّربِ في كَفِّ فاجرٍ      ولا مانعٍ من ظلمها وهي تَظْلُمُ  
تَبَدَّلها منهم دنْيٌ وفاجرٌ      وطالَ إلى أوطانها وهي تتعمُ

(١) انظر رائد عبد الرحيم، صورة المغول، ص ٥٢

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٩.

(٣) الكتي، عبون التواريخ، ١٥١-١٥٠/١٩

ومثل المغول بجثث القتلى، وأحرقوا المدينة، وهدموا مدارسها ومساجدها وعفوا

رسومها (١) ، ونهبوا أموالها، وأذلوا ساداتها ذوي العز والجاه، وهذا ما جاء في قوله: (٢)

وَكَمْ مِنْ أُمُورٍ لَيْسَ يُمْكِنُ وَصْفُهَا  
حَرِيقٌ وَقَتْلٌ وَابْتِذَالٌ وَمَثَلَةٌ  
المعمورُ بِالذِّكْرِ عَاطِلٌ  
مدارسُهَا أَضْحَى يَقْسَمُ نَهْبُهَا  
وَجَامِعُهَا وَهُوَ الْجَدِيدُ حَدِيثُهُ  
وَسَادَاتُ أَهْلِ الشَّامِ أَضْحُوا أَذَلَّةً  
يَطِيبُ النَّبَأَ عَنْهُمْ بِطِيبِ حَدِيثِهِمْ  
أَنَاخَ عَلَيْهِمْ كَامِلُ الدَّهْرِ عَادِيًا  
إِذَا ذُكِرَتْ أَعْيَتْ وَلِلْفِكْرِ تَفْحَمُ  
وَسِبِيَّ وَسَلْبَ الْفِعَالِ الْمُحْرَمِ  
وَسِ الْعِلْمِ فِيهَا تَهْتَدُمُ  
وَكَانَتْ بِهَا الدُّنْيَا تَتِيرُ وَتَبْسُمُ  
يُعَادُ ذُرُوسًا فِي الطَّرُوسِ وَيَرْدُمُ  
بِهِمْ كَانَتْ الدُّنْيَا تُعَزُّ وَتُكْرَمُ  
وَيَحْلُو إِذَا مَا حَدَّثَ الرَّكْبُ عَنْهُمْ  
فَأَخْنَى عَلَيْهِمُ وَالْحَوَادِثُ تَحْطُمُ

ثم يسלט الشاعر الضوء على هزيمة عساكر المسلمين في معركة وادي الخزندار ويعبر عن ذهوله وحيرته ، فهو لم يخطر في ذهنه أن يفر المسلمون من ساحة الوغى ، وأن يتركوا ديارهم فريسة سهلة يلتهمها المغول ، ويستولون عليها ، ولذا يتوجه بالدعاء إلى الله أن يهيئ لهذا الدين ، ولهذه الأمة من يخلصها من براثن الغزاة ويحمي ديارها من عدوانهم ، ويحث المسلمين على التكاتف والتعاقد لنصرة الإسلام ، وصد ذلك الغزو ، فيقول (٣)

وَمَا كَانَ ظَنِّي أَنْ قَوْمِي يَصْدَهُمْ  
وَلَكِنَّهُمْ فَرَوْا فَلَا فَلَ جَمْعَهُمْ  
عَسَى ثَائِرًا لِلَّهِ يَنْصُرُ دِينَهُ  
يُرَاعِي حِمَى الْإِسْلَامِ بِالسَّيْفِ ضَارِبًا  
فِيَا عُضْبَةَ الْإِسْلَامِ دَعْوَةَ مُنْشِدِ  
تَوَلَّتْ جِيُوشُ السَّلَامِ عَنَّا فَنَالْنَا  
عَنِ الرُّوحِ سَهْمٌ أَوْ مِنَ الْمَوْتِ يَهْدُمُ  
لَأْمُرٍ أَرَادَ اللَّهُ وَاللَّهُ يَحْكُمُ  
يَغْيِرُ عَلَى الْأَعْدَاءِ يَوْمًا وَيُرْغَمُ  
وَيَهْتِكُ سِتْرَ الْخُطْبِ وَالْخُطْبُ مُظْلَمُ  
فَشْتَوْا عُرَى الْإِسْلَامِ عَقْدًا وَابْرَمُوا  
مِنَ الدَّهْرِ خُطْبًا بِالْحَوَادِثِ يَدُهُمُ

(١) لقد فصل المؤرخون في وصف الأعمال الوحشية التي ارتكبتها المغول بحق مدارس دمشق ومساجدها، انظر السواداري، كثر الدرر، ٣١، ٤٠/٩، الكتي، عيون التواريخ، ١٩/١٤٤-١٤٨-١٥٠، الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ٢/٢٠٤-٢٠٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٠/١٤، النويري، نهاية الأرب، ٣١/٣٩٦، العيني، عقد الجمان، ٤/٣٧٠، ٣٨٠، ٣٩٦، القرظي، السلوك، ج ١، ٣/٨٩٣-٨٩٥.

(٢) المصدر نفسه، ١٩/١٥١-١٥٠.

(٣) الكتي، عيون التواريخ، ١٩/١٥١.

وساروا وشاقوا السيمعات<sup>(١)</sup> رواسياً  
فجاءوا لها الأعداء جيشاً وخيموا  
وخلّوا وأخلّوا للعدا دار ملكهم  
إلى أرض مصر فالصّعيد فيمموا

والجديد في قصيدة الشاعر هو الدعوة إلى الجهاد ، وهذا ما اختفى في مرثي بغداد  
سنة ٦٥٦ هـ ، والشام سنة ٦٥٨ هـ ، وذلك لأن روح الأمل تجددت في نفوس  
المسلمين ، وأحيته انتصاراتهم على المغول .

ويخص الشاعر الصالحية في دمشق بالثناء ، فقد كان البلاء هناك شديداً ، وكان  
معظم فساد المغول وأحلافهم<sup>(٢)</sup> فيها ، ويقال : إنه لم يبق شيء فيها على حاله<sup>(٣)</sup> وقد  
صورها الشاعر قفراً موحشاً ، هدمت قصورها ، وصار بنيانها العالي ركاماً ، وشنتت  
أهلها ، حتى غدا حديثهم مثل حديث عاد وجرهم الذين أهلكهم الله تعالى ، ولم يبق لهم  
باقية ، وصور الشاعر ما حل بالمساجد من أعمال هدم وتخريب ، وبين صدى ذلك في  
الأماكن الدينية الأخرى<sup>(٤)</sup> ، فقال<sup>(٥)</sup> :

أَسْكَانَ سَفْحِ الصَّالِحِيَّةِ لَا خَلَّتْ  
نَأَيْتُمْ عَنِ الْأَوْطَانِ يَا جِيرَةَ الْحَمَى  
وَكُنْتُ أُرَاعِي الدَّارَ وَالرَّبِيعَ أَهْلًا  
فَلَمَّا رَأَيْتُ الْحَيَّ أَصْبَحَ خَالِيًا  
بَكَيْتُ وَأَبْكَيْتُ الرَّسُومَ وَطالَمَا  
فَكَمَ مِنْ قُصُورِ شَاهِقَاتِ رَأَيْتُهَا  
تَشَنَّتْ أَهْلُهَا وَقُوضَ حُسْنُهَا  
نَأْسَى بِمَا قَدْ أَصَابَ بَيْتًا مَقْدَسًا  
وَبِالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى تَشْرَفَ قَدْرُهُ  
فَقَدْ أَوْحَشَتْ لَمَّا نَأَيْتُمْ وَبَنَيْتُمْ  
فَمَا الَّذِي ضَرَكَمَ لَوْ عَطَفْتُمْ  
وَلِلطَّيْرِ فِي ذَاكَ الْجَنَابِ تَرْنُمٌ  
وَلَمْ أَلْقَ حَيًّا فِي الدِّيَارِ يُسَلِّمُ  
بِكِي الدَّارَ بَعْدَ الظَّاعِنِينَ مُتَمِّمٌ  
وَبِنْيَانِهَا الْعَالِي عَلَى الْأَرْضِ يَرْكُمُ  
كَأَنَّ حَدِيثَ الْقَوْمِ عَادَ وَجُرْهُمُ  
عَلَى مِثْلِهِ تَبْكِي الحَطِيمَ وَزَمَزَمُ  
عَلَى أَنَّهُ أَمَرَ مِنَ اللَّهِ مُبْرَمُ

(١) واحدها يعمل ، وهي الناقة السريعة اشتق اسمها من العمل ، انظر ابن منظور ، اللسان ، مادة (عمل) .

(٢) انظر الصفدي ، تحفة ذوي الألباب ٤٨/٤٠ العين ، عقد الجمان ، ٤٨/٤٠

(٣) انظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٠/٤ الذهبي ، دول الإسلام ، ١٠٤/١٠ ، العبر ، ٣٦٥/٣ ، الكشي ، عيون التواريخ ، ١٤٤/١٩ ، المقرئ ،

السلوك ، ج ١ ق ٨٩٢/٣ .

(٤) انظر رائد عبد الرحيم ، صورة المغول ، ص ٨٣ ، ٩٧ .

(٥) الكشي ، عيون التواريخ ، ١٥٢/١٩ .

أما قصيدة علاء الدين علي الأوتاري الدمشقي التي قالها في رثاء دمشق، فقد عزي فيها تلك المدينة بمغانيها التي تضررت أكثر من غيرها في المزة<sup>(١)</sup>، والنيربين<sup>(٢)</sup> والوادي، وصور ما نزل بجبل قاسيون<sup>(٣)</sup> والعقيبة والقصر<sup>(٤)</sup>، والشاغور<sup>(٥)</sup>، فقد نهب المغول سكانها، وقتلهم، وأسروا أولادهم، وسبوا الذراري ذوات الصون والعفاف، وأخذوهن إلى بلادهم، ودمروا القصور، وأحرقوا المساجد<sup>(٦)</sup>، وخربوها وبدا الشاعر مؤمناً بأن ما نزل في تلك المناطق أمر مبرم من الله سبحانه وتعالى، فقال<sup>(٧)</sup>:

أَحْسَنَ اللهُ يَا دِمَشْقُ عَزَاكَ	فِي مَغَانِيكَ يَا عِمَادَ الْبِلَادِ
وَبِرَسْتَاقِ نِيرِبِيكَ مَعَ الْمَرْزِ	زَةَ مَعَ رُونِقِ بِذَاكَ الْوَادِي
وَبِأَنْسِ بَقَاسِيُونَ وَنَاسِ	أَصْنَبَحُوا مَغْنَمًا لِأَهْلِ الْفَسَادِ
طَرَقْتَهُمْ حَوَادِثُ الدَّهْرِ بِالْقَتْلِ	لِوَهْبِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ
وَبِنَاتٍ مَحْجَبَاتٍ عَنِ الشَّمْسِ	سِ تَقَاعَتْ بِهِنَّ أَيْدِي الْأَعَادِي
وَقِصُورٍ مَشِيدَاتٍ تَقْضَتْ	فِي ذَرَاهَا الْأَيَّامُ كَالْأَعْيَادِ
وَبِيوتِ فِيهَا التَّلَاوَةُ وَالذِّكْرُ	رُ وَعَالِي الْحَدِيثِ بِالْإِسْنَادِ
حَرَقُوهَا وَخَرَّبُوهَا وَبَادَتْ	بِقَضَاءِ الْإِلَهِ رَبِّ الْعِبَادِ
وَكَذَا شَارِعُ الْعَقِيبَةِ وَالْقَصْرِ	رُ وَشَاغُورُهَا وَذَاكَ النَّادِي
أَصْبَحُوا الْيَوْمَ مِثْلَ أَمْسِ تَقْضَى	وَيَكْتَهُمْ سَمَاوُهُمُ وَالْغَوَادِي

وصور الشاعر المعاناة الشديدة التي قاساها أهل دمشق، فقد قرحت المأساة قلوبهم، وذاقوا مرارة العيش، وكانت أصواتهم ترتفع مولولة شاكية، وعيونهم تفيض من الدمع، ولكن المغول لم يرحمهم، ولم يأبهوا باستغاثاتهم، وكان لذلك الغزو أثره على

(١) قرية كبيرة وسط بساتين دمشق، انظر ياقوت، معجم البلدان، مادة "مزة".

(٢) حلة في دمشق، وهي من أعظم الحلات وأحضرها، انظر البدري، نزهة الأنام، ٨٠-٨٢.

(٣) الجبل المشرف على مدينة دمشق، انظر ياقوت، معجم البلدان، مادة "قاسيون".

(٤) وهو قصر حجاج الذي تعرض لعبت المغول في تلك السنة، انظر الدوادري، كثر الدرر، ٢٤/٩.

(٥) حلة بالباب الصغير من دمشق مشهورة، وهي في ظاهر المدينة، انظر ياقوت، معجم البلدان، مادة "شاغور".

(٦) انظر ما قاله المؤرخون عن أعمال المغول في تلك المناطق: الدوادري، كثر الدرر، ٢٤/٩، الذهبي، دول الإسلام، ١٥٤/١، المقرئ،

السلوك، ج١، ٨٩٣/٣، العيني، عقد الجمان، ٣٤/٤، ٣٢.

(٧) النويري، نهاية الأرب، ٢٢٧/٥، محمد كرد علي، حطط الشام، ٣٧٦/٦.

جميع نواحي حياة أهل دمشق. إذ غلت الأسعار، وجاعوا، وأجلوا من ديارهم ، وزجوا مع ساداتهم في السجون ، وجبى المغول أموالهم ونهبوها، فقال<sup>(١)</sup>:

وَلَكُمْ سِوَاهَا حَوَى مِنْ مُعْنَى  
 إِنَّ بَكِي لَا يَفِيدُهُ أَوْ تَشْكَى  
 يَشْتَكِي فَوْقَ مَا اشْتَكَاهُ بِأَضْعَا  
 فَالْغَلَا وَالْجَلَا مَعَ الْجُوعِ وَالْعُرَى  
 وَبُوزِنِ الْأَمْوَالِ مِنْ غَيْرِ وَجَدِ  
 مَقْرَحَ الْقَلْبِ وَالْحَشَى وَالْفُؤَادِ  
 وَجَدَ الْمُشْتَكَى حَلِيفَ سُهَادِ  
 فَيَغْدُو وَهَمُّهُ فِي ازْدِيَادِ  
 ي وَتَهْبِيبِ الْأَقْوَاتِ وَالْأَزْوَادِ  
 بِاعْتِسَافِ الْغُتْمِ<sup>(٢)</sup> الْغِلَظِ الشَّدَادِ

ثم صور الشاعر الهزيمة التي مني بها الجيش الإسلامي في تلك السنة ، فعلى الرغم من أن أفرادهم كانوا شجعاناً ومزودين بأحدث الأسلحة ، إلا أنهم لم يصمدوا أمام المغول ، وقوتهم ، وحشودهم العسكرية ، ففروا لا يلوون على شيء ، وتمنى الشاعر أن يأتيه البشير بأخبارهم ، وأن يجتمع بهم ، فقال متحسراً<sup>(٣)</sup>:

لَهْفَ نَفْسِي عَلَى جِيوشٍ تَوَلَّتْ  
 كَلَّ نَدْبِ عَضْبٍ حَمِيٍّ كَمِيٍّ  
 إِنَّ سَطَا فِي هَبَاتِهِ كَانَ بَحْرًا  
 أَوْ بَدَا حَامِلًا تَخَلَّ عَنْتَرِيًّا  
 إِنَّ أَتَانِي مَبْشَرٌ بَلَقَاهُمْ  
 وَكَلَّمْتُ التَّرَابَ شُكْرًا وَعَفَرُ  
 ثُمَّ وَلَّتْ جَرِيحَةَ الْأَكْبَادِ  
 أَمَجِدٍ أُنَيْدٍ شُجَاعِ جَوَادِ  
 أَوْسَطَا خَلْتَهُ مِنَ الْأَسَادِ  
 أَوْ غَدَا سَابِقِ الْجَوَادِ فَعَادِ  
 حَازَ رُوحِي وَمُهْجَتِي وَقِيَادِي  
 تُ خُدُودِي عَلَى بُلُوغِ مُرَادِي

وكشف الشاعر عن أفعال جديدة ارتكبتها الغزاة بحق أسرى المسلمين من الأطفال والشيوخ والنساء ، فقد داستهم خيول المغول بسنابكها ، وعوضوا عن حياة النعيم بالذل والشقاء ، وصور الشاعر صرخات الاستجداء التي كانوا يطلقونها ولكن لا مجيب لندائهم ، وبين كثرتهم وكساد سوقهم ، إذ صور المغول يطوفون بهم الأسواق ، وليبيعوهم بالثمن القليل ، فقال<sup>(٤)</sup> :

(١) النويري ، هاية الأدب ، ٢٢٧/٥ - ٢٢٨.

(٢) جمع أغمتم ، وهو من لا يفصح ، انظر ابن منظور ، اللسان ، مادة "غتم".

(٣) النويري ، هاية الأرب ، ٢٢٨/٥ - ٢٢٩.

(٤) المصدر نفسه ، ٢٢٩/٥.

مَنْ لَأَسْرَى كَسْرَى حَيَارَى دَهْتَهُمْ      دَهَمَتْهُم جِيَادُ أَهْلِ الْعِنَادِ  
 مِنْهُمْ الطُّفْلُ وَالصَّبِيَّةُ وَالشَّاءُ      بِي يَنَادِي فَمَنْ يَجِيبُ الْمَنَادِي ؟  
 وَيَنَادِي عَلَيْهِمْ بِرَغِيْفٍ      وَبَنْزَرٍ بَخْسٍ بِسُوقِ الْكَسَادِ  
 عَوَّضُوا عَنْ سُرُورِهِمْ بِغُرُورٍ      وَقُصُورِ الْبِلَادِ سُكْنَى الْبُؤَادِ  
 وَبِأَهْلِ الْوُدَادِ شَرَّ أَنْبَاسٍ      وَبِلَيْنِ الْمِهَادِ شَوْكَ الْقَتَادِ

وركز الشعراء على إبراز عمليات نهب الأموال التي قام بها المغول في دمشق، فقد قرروا على البلد تقارير تضاعفت غير مرة ، وحصل على أهل دمشق الذل والهوان ، وطال ذلك عليهم<sup>(١)</sup> "وكان المطلوب شيئاً كثيراً لا تحمله البلاد ولا تقاربه، فعرس ذلك على الناس"<sup>(٢)</sup>، ولم يعف من المصادرة والجباية الحثيثة أحد، ولم تبق محل ولا حارة إلا ودخلها المغول<sup>(٣)</sup> حتى قيل : إن "الواحد منهم يأتي إلى الطميرة والخبيثة كأنه هو الذي تولى طمرها ، ودفنها من سرعة هدايته إلى مكانها"<sup>(٤)</sup> ،وجملة الأمر كما يقول المقرئزي : لم تخرج هذه السنة "إلا وأهل دمشق في فقر مدقع"<sup>(٥)</sup> ، وقد صور صلاح الدين الصفدي القائد المغولي غازان غولاً ابتلع أموال دمشق ، وترك سكانها يقاسون الشدائد<sup>(٦)</sup> فقال<sup>(٧)</sup> :

وَجَاءَهَا غَازَانُ بِالْمَغُولِ      وَأَكَلَ الْأَمْوَالَ مِثْلَ الْغُولِ  
 وَأَبْصَرَ النَّاسُ بِهِ شِدَائِدًا      كَادُوا يَكُونُونَ لَهُ حَصَائِدًا  
 ثُمَّ جَبَى أَمْوَالَهَا وَسَارًا      وَتَرَكَ النَّاسَ بِهَا سُكَارًا

وجعل الشاعر علاء الدين الوداعي " غازان شيخاً صوفياً يسلك الناس في طريق الزهد، حتى غدوا على يديه فقراء يلبسون الصوف والخلقان"<sup>(٨)</sup> وهذا ما عبر عنه بقوله<sup>(٩)</sup>:

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٣٦/٤ ، العيني ، عقد الجمان ، ٣٦/٤ .

(٢) الوداداري ، كدر الدرر ، ٣٠/٩ ، الكشي ، عيون التواريخ ، ١٤٦/١٩ .

(٣) الكشي ، عيون التواريخ ، ١٤٧/١٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ١٤٤/١٩ .

(٥) المقرئزي ، السلوك ج١٣/٣٠٣ ، ٩٠٣—٨٩٤ .

(٦) انظر رائد عبد الرحيم ، صورة المغول ، ص ٩١ .

(٧) الصفدي ، تحفة ذوي الألباب ، ٢٠/٢ ، أمراء دمشق في الإسلام ، ص ١٥٨ .

(٨) رائد عبد الرحيم ، صورة المغول ، ص ٩١—٩٢ .

(٩) الكشي ، عيون التواريخ ، ١٥٣/١٩ ، المقرئزي ، السلوك ج١٣/٣٠٤ . وانظر في الموضوع ذاته الأشعار التي وردت في عيون التواريخ

١٥٣/١٩ ، السلوك ج١٣/٣٠٤ .



لا ولا الخُلقان مَجَانَا  
فقراءِ الشيخِ غازانا

مَا لَبِسْتُ الصُّوفَ مِنْ عَبَثٍ  
إِنَّهُ زِيٌّ لِمَنْ هَرَمَ مِنْ

وصور الشعراء الجيش المغولي الغازي ، فألقوا الضوء على حشودهم الكثيرة، وأضفوا على أفرادها صفات خارقة إذ جعلوهم كالجن في تصرفاتهم ، ولعل ما حدا بالشعراء إلى ذلك أنهم نظروا إلى أفعال المغول " الخارقة في الشام في تلك السنة ، فاستبعدوا أن تكون تلك أفعال بشر" (١).

ولم يغفل الشعراء عن ذكر أحلاف المغول الذين قدموا برفقتهم إلى ديار الإسلام، وهؤلاء الأحلاف صنفان ، صنف من العرب المسلمين ، وآخر من غيرهم لا تربطهم بالمسلمين رابطة دينية ، ولكنهم أعداء لهم اغتتموا فرصة الزحف المغولي للثأر منهم وضرب دينهم (٢) .

أما الأحلاف من العرب المسلمين ، فكان أكثرهم تردداً في الشعر "الحن والبن" وهما ولدا الشيخ علي الحريري، شاركا المغول في نهب أموال المسلمين ، والمطالبة بها ، وكانا من أكبر المصائب على الناس (٣).

وقد تجلت المعاني السابقة في غير مقطوعة ، ومنها قول كمال الدين بن الزمكاني (٤) :

لَهْفِي عَلَى جَلْقٍ يَا سُوءَ مَا لَقَيْتُ      مِنْ كُلِّ عِلْجٍ لَهُ فِي كُفْرِهِ فَنُ  
بِالطَّمِّ وَالرَّمِّ (٥) جَاعُوا لَا عَدِيدَ لَهُمْ      فَالْجَنُّ بَعْضُهُمُ وَالْحَنُّ وَالْبِنُّ

وقول علاء الدين الوداعي الكندي (٦) :

دَهَنَتْنَا أُمُورٌ لَا يُطَاقُ احْتِمَالُهَا      فَسَلَّمْنَا مِنْهَا إِلَّا لَهُ الْمَنُّ

(١) رائد عبد الرحيم ، صورة المغول ، ص ٧١ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٥ وما بعدها .

(٣) العيني ، عقد الجمان ، ٣٦/٤ ، وانظر البوداري ، كثر الدرر ، ٣١/٩ ، الكشي ، عيون التواريخ ١٤٦/٩ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٠٢/٨ .

(٤) البوداري ، كثر الدرر ، ٣٠/٩ ، الكشي ، عيون التواريخ ، ١٤٥/٩ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٠٢/٨ . المقريزي ، السلوك ج ١ ، ٨٩٤/٣ ، العيني ، عقد الجمان ، ٣٦/٤ .

(٥) بمعنى العدد الكثير ، انظر الزبيدي ، تاج العروس ، مادة "طمم" .

(٦) البوداري ، كثر الدرر ، ٣٠/٩ ، الكشي ، عيون التواريخ ، ١٤٥/٩ ، العيني ، عقد الجمان ، ٣٦/٤ ، ولزيد من الأمثلة انظر : كثر الدرر ، ٣٠/٩ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٢/٨ .

أَتَقْنَا تَتَارَ كَالرَّمَالِ تَخَالِهِمْ      هُمُ الْجَنُّ حَتَّىٰ مَعَهُمُ الْحَنُّ وَالسُّبْنُ

ومن أحلاف المغول المسلمين سيف الدين قبچق المنصوري ، وكان المذكور من مهّد للمغول غزو الشام في تلك السنة (١)، وهذا ما عبر عنه الصفدي بقوله (٢):

هو الذي أتى بغازان إلى      دمشق فانهلّ بها منه البلا  
وصار للمُغَلِّ عَلَيْهَا نَائِباً      وكان عيناً للخطوبِ حاجباً

وممن عاونوا المغول شيخ الشيوخ نظام الدين محمود بن علي الشيباني ، وكان ذا هيبة في نفوس المغول ، حصل "فوق الثلاثين ألف دينار ، وكان لا يزال الدبوس على كتفه ، ويفخم كلامه ، ولم يكن فيه شيء من أخلاق المشايخ، وكان كثير الطمع" (٣) . وقد سخر منه علاء الدين الوداعي الكندي حين صوره شيخاً صوفياً يدعو أهل دمشق إلى التزهّد والتجرد من كل شيء ، حتى تم له ما أراد فغدوا على يديه فقراء لا يملكون شيئاً ، فقال (٤) :

شَيْخُ غَازَانَ مَا خَلَا      أَحَدٌ مِّنْ تَجَرْدَةٍ  
وَعَدَا الْكُلَّ لِأَبْسِي      خِرْقَةٍ الْفَقْرِ مِّنْ يَدِهِ

ومن الشعوب الأخرى الذين مالوا المغول وشاركوهم في غزو الشام في تلك السنة الكرج والأرمن ، وقد قام هؤلاء بتدمير المدارس في دمشق ، ونهبوا مساجدها ، وأحرقوا بعضها مثل جامع التوبة في العقبية ، وأسروا خلقاً كثيراً ، وسبوا من بنات المشايخ جمّاً غفيراً (٥)، وهذا ما عبر عنه الكمال ماجد الشافعي في قوله (٦):

أتى جيشهم بالمُغَلِّ والكُرجِ عُصْبَةً      وَأَصْحَابِ سَيْسٍ فِيهِ الْحَنُّ وَالسُّبْنُ

(١) انظر رائد عبد الرحيم ، صورة المغول ، ص ١١٦ .

(٢) الصفدي ، تحفة ذوي الألباب ، ٢٠٢/٢ ، أمراء دمشق ، ص ١٥٧ .

(٣) العيني ، عقد الجمان ، ٣٩/٤ ، وانظر المقرئ ، السلوك ، ج ١ ق ٨٩١/٣ .

(٤) الكشي ، عيون التواريخ ، ١٥٣/٩ ، العيني ، عقد الجمان ، ٨٧/٤ ، المقرئ ، السلوك ، ج ١ ق ٨٩١/٣ .

(٥) انظر أبو الفداء ، المختصر ، ٤٢/٤ ، ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، ٢٣٩/٢ ، الذهبي ، دول الإسلام / ١٥٤/١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٩/١٤ - ١٠ ، ابن سباط ، تاريخ ابن سباط ٥٢١٢٥١٩/١ ، الغزي ، نهر الذهب ، ١٧٢/٣ ، عادل هلال ، العلاقات بين المغول

وأوروبا ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ ، رائد عبد الرحيم ، صورة المغول ، ص ١١١ .

(٦) البواداري ، كثر الدرر ، ٣٠/٩ ، الكشي ، عيون التواريخ ، ١٤٥/١٩ .

ولم يقتصر الأمر على تلك الأحلاف بل صور الشعراء ما فعله بعضها في مدينة دمشق سنة ٦٩٩ هـ ، فهذا الشاعر جمال الدين عبد الواحد التبريزي نظم قصيدة بعد انتصار المسلمين على المغول في معركة مرج الصفر سنة ٧٠٢ هـ ، فحرض فيها المسلمين على القضاء على الأرمن ، وإبادتهم وهدم ديارهم وإحراقها ، وحتى ينجح في مسعاه ، وفي التأثير على نفوس المسلمين ، واستثارة حميتهم ، ذكّرهم بما اقترفه أولئك القوم بحق المسلمين حين دخلوا دمشق سنة ٦٩٩ هـ ، في أبيات ترتفع "فيها نبرة الغضب ويلهب رنينها كل من عنده حمية للإسلام والمسلمين"<sup>(١)</sup> ، وفيها طلب الشاعر من المسلمين مهاجمة سيس موطن الأرمن لأخذ الثأر منهم ، وعجب من قعود المسلمين عن محاربة قوم ما فتتوا يسهرون ويخدطون ، ويكيدون للإسلام والمسلمين ، وحذرهم التقاعس ، فإنهم إن فعلوا ذلك فإن الأرمن طالما آذوهم ، وخير دليل على ذلك الفظائع التي ارتكبوها في الصالحية حيث أسروا الشيوخ وسبوا الحريم ، وهتكوا أعراضهن ، وقتلوا الأطفال ودمروا وأحرقوا المساجد والمباني ، وهذا ما جاء في قوله<sup>(٢)</sup>:

هَبُوا إِلَى سَيْسٍ مِنْ أَخْلَامٍ رَقَدْتَكُمْ	وَسَارِعُوا فِي طَلَابِ الثَّأْرِ وَابْتَدَرُوا
بِكُلِّ غَيْرَانٍ أَخَذَ الرُّوحَ هَمَّتَهُ	فِي غَيْرِ نَفْسِ المَرْدَى مَالَهُ وَطَرُّ
أَيْرَقْدُ اللَّيْلِ فِي أَمْنٍ وَفِي دَعَاةٍ	عَنْ كَيْدِ قَوْمٍ لَهُمْ فِي شَأْنِكُمْ سَهْرُ
إِنْ تَتْرَكُوهُمْ فَإِنَّ القَوْمَ مَا تَرَكَوْا	يَوْمًا عَلَيْكُمْ وَلَا أَبَقَوْا وَلَمْ يَذَرُوا
أَمَا رَأَيْتُمْ وَعَايْنَتُمْ وَقَدْ فَعَلُوا	فِي الصَّالِحِيَّةِ مَا لَا تَفْعَلُ النَّتْرُ
أَشْفَوْا صُدُورَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرًا	عَلَى نَسَائِكُمْ يَا قَوْمُ وَادْكُرُوا
كَمْ مِنْ عَجُوزٍ وَمِنْ شَيْخٍ وَمَكْتَهَلٍ	وَمِنْ فَتَاةٍ نَمَاهَا الحُسْنُ وَالخَفَرُ <sup>(٣)</sup>
بِيضَاءِ خِرْعُوبِيَّةٍ <sup>(٤)</sup> بَكْرٍ مُحَجَّبَةٍ	لَا الشَّمْسُ تَنْظُرُهَا صَوْنًا وَلَا القَمَرُ
وَذَاتِ بَغْلٍ مَخْبِئَةٍ مَخْدَرَةٍ	مِنْ دُونِهَا تُضْرَبُ الأَسْتَارُ قَدْ أَسْرُوا
وَمُطْفَلٍ أَتَكَلَّوْا وَجَدًا بَوَاجِدِهَا	وَحَامِلٍ أَحْمَصَتْ خَوْفًا وَقَدْ ذُكِرُوا

<sup>(١)</sup> وائد عبد الرحيم ، صورة المغول ، ص ١١٠ .

<sup>(٢)</sup> اللواداري ، كثر الدور ، ٩٦/٩ - ٩٧ ، النويري ، نهاية الأرب ، ٣٢/٥١ - ٥٣ .

<sup>(٣)</sup> الشابة حسنة القوام دقيقة العظم كثيرة اللحم ناعمة انظر ابن منظور ، اللسان ، مادة "خرعب" .

<sup>(٤)</sup> الخفر : شدة الحياء ، انظر الرازي ، مختار الصحاح ، مادة "خفر" .

وَمَرَبَعٍ أَقْفَرٍ مِنْ بَعْدِ سَاكِنِهِ  
وَكَمْ أَرَاقُوا وَكَمْ سَاقُوا وَكَمْ هَتَكُوا  
وَحَرَقُوا فِي نَوَاحِيهَا فَوَا حَرَبَا  
وَجَامِعَ التَّوْبَةِ الْمَحْرُوقِ مُهْجَتُهُ  
وَعَقْدَ شَمْلِ نَظِيمِ جَامِعِ نَشْرُوا  
وَكَمْ تَمَلَّوْا بِمَا نَالُوا وَكَمْ فَجَّرُوا  
وَحَرَبُوا الشَّامِخَ الْعَالِيَّ وَكَمْ دَثَرُوا  
يَشِيرُ لَا تَوْبَةَ لِلْقَوْمِ إِنْ ظَفَرُوا

## رثاء المدن التي احتلها الصليبيون

### رثاء الإسكندرية :

تعرضت مدينة الإسكندرية في العصر المملوكي الأول لهجمة صليبية عنيفة بقيادة ملك قبرص بطرس لوزنجان ، وذلك سنة ٧٦٧هـ، وكان المذكور قد تولى الحكم سنة ٧٦١ هـ ، فكرس جهده لخدمة القضية الصليبية، فاستطاع أن يهيئ حملة عسكرية صليبية قوامها سبعون قطعة بحرية من أهل رودس والبنادقة والجنويين والفرنسيين والقبارصة، وكانت نقطة تجمع تلك القوات جزيرة رودس (١).

أما الدولة المملوكية في ذلك الوقت، فكانت تعاني شيئاً من عدم الاستقرار السياسي ، ذلك أن سلطانها الأشرف شعبان بن الملك الناصر محمد كان صغير السن، ويتولى أمور دولته الأمير الأتابكي يلبغا الخاصكي، فهو "صاحب الأمر والنهي والحل والعقد، وهو السلطان في الباطن والأشرف بالاسم" (٢).

وكانت أخبار الحشود الصليبية تأتي يلبغا وهو لا يكثرث بها ، بل كان يقول : "إن القبرسي أقل وأذل من أن يأتي إلى الإسكندرية" (٣)، وكان يعتقد أن تلك الأخبار إشاعة ومكيدة من منافسيه على السلطة والحكم (٤).

(١) انظر النويري ، الإلام ، ١٧٤/٢ ، ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ٢٨٨/٣-٢٨٤ ، درة الأسلاك ، ٤٣/٣ ، المقرئ ، السلوك ، ٢٨٣/٤ ، ابن تقي بردي ، النجوم الزاهرة ، ٢٤/١١ ، ابن إياس ، بلدائع الزهور ، ج ١ ق ٢٣/٢ ، ابن العراقي ، الذيل على العبر ، ١٩١/١ ، عزمي أبو عليان ، ضد الصليبيين في عهد المماليك ، ص ١٠٩ .

(٢) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ٢١٣/٥ ، وانظر النويري ، الإلام ، ٩/١ .

(٣) النويري ، الإلام ، ١١١/٢ ، وانظر عزمي أبو عليان ، ضد الصليبيين في عهد المماليك ، ص ١٠٩-١١٠ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ١٣٦٤-١١٦٥ .

(٤) انظر المقرئ ، السلوك ، ٢٨٣/٤ ، ابن إياس ، بلدائع الزهور ، ج ١ ق ٢٢/٢ .

وتوجه الملك القبرصي بقواته إلى الإسكندرية وأرسى بمينائها وبات يتحين الفرصة المناسبة للانقضاض عليها، وكانت طريقته إليها سالكة، ذلك أن نائبها صلاح الدين خليل بن عرام قد توجه إلى الحج، واستتاب عنه الأمير (جَنغَرًا) أحد أمراء العشرات، فصار الأمر كما يقول النويري إلى غير أهله "بولاية جَنغَرًا وقلّة جنده، وجهله بتدبير الأمور، وعدم معرفته بمواقع الحروب، فحصل التفريط بولاية ضعفاء الرجال كبار الأعمال<sup>(١)</sup>."

وفي يوم الجمعة الرابع والعشرين من محرم من سنة ٧٦٧هـ —، اقتحم بطرس لوزنجان بجنوده الإسكندرية "والنيل منتشر على البلاد، قصد الملعون بإتيانه ذلك الزمن لتتعوق النجدة من مصر"<sup>(٢)</sup> والتفوا بالمسلمين فهزموهم لقلّة عددهم وعدتهم، ففروا لا يلوون على شيء واستولى الذعر على أهل الإسكندرية فتركوا مدينتهم بما فيها للفرنج، حتى ضاقت الأبواب على الفارين لكثرتهم<sup>(٣)</sup>، وأقام الصليبيون في المدينة ثمانية أيام،<sup>(٤)</sup> يقتلون، وينهبون، ويأسرون، ويحرقون،<sup>(٥)</sup> ثم هربوا إلى البحر لما أحسوا بمجيء العساكر الإسلامية لنجدة الإسكندرية<sup>(٦)</sup>.

وقد هز سقوط الإسكندرية العالم الإسلامي بأسره، ذلك أن المأساة التي حلت بها كانت "من أشنع ما مر بالإسكندرية، من حوادث ومنها اختلت أحوالها، واتضع أهلها، وقلت أموالهم، وزالت نعمهم"<sup>(٧)</sup>، وكان لذلك صدهاء في الشعر العربي، فنظم الشعراء قصائد كثيرة في رثائها، يقول ابن حبيب: "وتكلم أهل الأدب في هذه الواقعة نظماً ونثراً"<sup>(٨)</sup>، ووصل من تلك المراثي سبع قصائد وثلاث مقطوعات جلّها أوردتها النويري في كتابه "الإمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمر المقضية في وقعة الإسكندرية".

(١) النويري، الإمام، ١٣١/٢، المقرئ، السلوك، ٢٨٣/٤.

(٢) النويري، الإمام، ٦٥/٣.

(٣) النويري، الإمام، ٢٠١٦٢، المقرئ، السلوك، ٢٨٤/٤.

(٤) وذكرت بعض المصادر أنهم أقاموا ثلاثة أيام أو أربعة انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه ٢٨٩/٣٠. ابن تعري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٥/١١.

(٥) انظر النويري، الإمام، ٢/٣ ص ١٥٩ وما بعدها، ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٣٦/١٤، المقرئ، السلوك، ٢٨٤/٤، ابن تعري بردي،

النجوم الزاهرة، ٢٥/١١، ابن إياس، بدائع الزهور ج١ ق٢١/٢٢٢، ٢١.

(٦) انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٢٨٩/٣، المقرئ، السلوك، ٢٨٤/٤. ابن تعري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٥/١١، ابن العراقي،

الذيل على العبر، ١٩١/١.

(٧) انظر عزمي أبو عليان، ضد الصليبيين في عهد المماليك، ص ١١٦.

(٨) ابن حبيب، درة الأسلاك، ٤٤/٣، وانظر المقرئ، السلوك، ٢٨٥/٤، ابن العراقي، الذيل على العبر، ١٩١/١، ابن إياس، بدائع

الزهور، ج١ ق٢/٢٤.

وهو كتاب كما يتضح من عنوانه هدف صاحبه من تأليفه الحديث عن تلك الواقعة، ووصف ما جرى بالإسكندرية وسكانها جراء الغزو الصليبي .

واتسمت جل القصائد التي رثت الإسكندرية بسمات عدة ، منها الطول الذي أتاح للشعراء التفصيل في عرض الأحداث ، ومنها الأسلوب القصصي والواقعية ، وهاتان السمتان ينبغي تأكيدهما ليروهما بصورة جلية في جميع تلك القصائد ، فقد عمد قائلوها إلى وصف وقعة الإسكندرية منذ قدوم الفرنج بسفنتهم إليها ، والتفاتهم بالمسلمين هناك وكسرهم ، وما تخلل ذلك من أعمال قام بها الصليبيون في تلك المدينة ، حتى قدوم العساكر من قبل السلطان الأشرف وأتابكه يلْبُغا الخاصكي ، ورحيل الفرنج عنها مراعين في ذلك كله تسلسل الأحداث وواقعيتها ، وتكاد تتفق المضامين التي قدموها مع ما ذكره المؤرخون وزاد من واقعية تلك الأشعار أن معظم الرثاة كانوا معاشين للأحداث ، وربما اصطلى بعضهم بنارها، لذلك جاء وصفهم لها دقيقاً ، ويلاحظ أن أبياتاً من قصائدهم نظمت بضمير المتكلم ، وهي تدلل على المشاركة في الصراع ، وصرح بعضهم بالذعر الذي استولى على نفسه ، وصور فراره من الإسكندرية تاركاً وراءه ممتلكاته (١) .

وزاد من واقعية تلك الأشعار كذلك أن بعض الشعراء نظموا بهدف التأريخ لوقعة الإسكندرية ، ومن هؤلاء محمد بن قاسم النويري ، وهذا ما يوضحه قوله في ختام إحدى مراثيه(٢):

فالنويري قد رثى الثغرَ حقاً      عام سَبَعٍ يا وَيْحَهُ من عام  
بَعْدَ سَتَيْنِ بَعْدَ سَبْعِ مئين      وأتى بالتاريخ للأعلام

وعلى ما يبدو أن ذلك كان هدفاً عاماً سعى الشعراء إليه ، وكشفت عنه قصائدهم إذ عنوا بذكر التواريخ والأيام والأعداد بصورة دقيقة لا تختلف عما ذكره المؤرخون، فضلاً عن دقتهم في بيان تفاصيل الواقعة.

أما عن مضامين المراثي الأخرى، فقد تعددت وتنوعت، وتناولت النكبة من جوانبها المختلفة، تحدث الشعراء فيها عن الأسباب التي أدت إلى سقوط الإسكندرية،

(١) انظر النويري ، الإلام ، ٢١٦/٢ ، ٥٢/٤ .

(٢) النويري ، الإلام ، ٢١٨/٣ .

وصوروا العدو الصليبي القادم إلى أرض المعركة، وما قام به من أعمال وحشية فيها، وألقوا الضوء على هزيمة الجيش الإسلامي، ودعوا المسلمين إلى الجهاد.

لقد كان الشعراء مشاركين في غمرة الأحداث، ومطلعين على خفايا الأمور، لذلك راحوا يفتشون عن الأسباب الحقيقية التي وقفت وراء هزيمة المسلمين في الإسكندرية، وجرت ذلك البلاء عليهم، فتكلموا بصراحة وجرأة، وألقوا باللوم على الأمير جنغرا، وكان المذكور قد أشير عليه قبل الالتقاء بالصليبيين أن يدخل بجيشه مدينة الإسكندرية، ويتحصن بالأسوار، ويقاوم خلفها حتى تأتي النجدة من سلطان المماليك، لكنه أبى وفضل المواجهة قائلاً "لست أترك أحداً من الفرنج يصل إلى الساحل ولو قُطعت مني الأوداج، ونفذت المقاتل".<sup>(١)</sup> ولكن قراره كما صوره أبو عبد الله محمد بن طاهر الإخميمي لم يكن صائباً، وجر الوبال على المسلمين وذلك انه لم يصمد أمام قوة الهجوم الصليبي، فولى من أمامهم، وترك الإسكندرية فريسة سهلة، ولقمة سائغة في أفواههم ، وهذا ما عبر عنه بقوله:<sup>(٢)</sup>

وَهُمْ<sup>(٣)</sup> كَانُوا عَلَيْهِ ضَرَرًا  
غَرَّ بِالْعَالَمِ إِذْ أَخْرَجَهُمْ  
خَارِجَ الْأَبْوَابِ إِذْ فَتَحَهَا  
لَوْ عَلَى الْأَسْوَارِ أَضْحَى رَاكِبًا  
كَانَ لِلثَّغْرِ وَقَاءَ وَالْعَدَا  
بَلْ أَضَاعَ الْمُسْلِمِينَ رَأْيُهُ  
لَا لَكِنَّ جَنْغَرًا أَصْلُ الضَّرَرِ  
لَلْقَا الْأَعْدَادِ عِبَادِ الصَّوَرِ  
وَهُوَ مِنْهُ كَانَ خَطَاً وَغَرَّرَ  
ثُمَّ بِالْخَنْدَقِ قَدْ أَجْرَى نَهْرَ  
لَمْ تَتَلَّ مِنْهُ مَدَى الدَّهْرِ وَطَرَّ  
حِينَ لَا أَسْعَدُهُ حَكْمُ الْقَدَرِ

ويُرجع محمد بن قاسم النويري سقوط الإسكندرية إلى خلوها من الحامي ذي الحنكة السياسية، وهو يقصد به صلاح الدين بن عرام الذي ذهب إلى الحجاز حاجاً، وترك جنغرا مكانه في نيابة الإسكندرية ، فلم يستطع الذب عنها، بل هُزم هزيمة نكراء، وأصيب في أرض المعركة، ولُطِّخَ بدمائه ، فلو كان ابن عرام هناك - كما يعبر عن ذلك

<sup>(١)</sup> النويري، الإلام، ١٤٥/٢، وانظر ١٤٣/٢.

<sup>(٢)</sup> المصدر نفسه، ٢٢٥-٢٢٦.

<sup>(٣)</sup> "هم" يعني هم العربان الذين تحدث عنهم في الأبيات السابقة.

الشاعر - لقاتل الصليبيين قتالاً عنيفاً ومنعهم بشجاعته، وحذقه وحسن تدبيره من دخولها،  
يقول: (١)

لو بها كان حامياً يَحْمِيَنَّهَا  
لم يرعها جمعُ النَّصارى بسوءٍ  
لهف نفسي لو كان فيها صلاحُ الدِّ  
نائباً للسلطانِ فيها فأضحى  
جنغرا صار نائباً عنه فيها  
فغدا جرحه يسيّلُ دمَاءَ  
لهف نفسي لو كان فيها مقيماً  
كان يلقاهمُ بصدْرِ رحيبٍ  
وبرأي مهذبٍ مع قومٍ

من ذوي الرأيِ ناهضاً متسامي  
لو أتوا كالتسيولِ أو بحر طامي  
دين المقرِّ العالِي زين الكرامِ  
قاصداً للحجازِ بالإحرامِ  
زمنَ الحجِّ مَدَّةَ الأيامِ  
من سهامِ أصابه وسهامِ  
ابنِ عرامٍ عند وقعِ الصِّدامِ  
وبِرمحٍ مُتَّقِفٍ وحُسامِ  
وحدوا الله عند وقعِ الصِّدامِ

أما شعر أبي عبد الله محمد بن حسن الشاطبي، فبين أن سبب انكسار المسلمين  
وهزيمتهم أنهم استهانوا بالصليبيين، واستهونوا أمرهم، وقالوا بحق بطرس لوزنجان: " ما  
يقدر على هذه المدينة الحصينة والقلاع المشيدة المتينة، (٢) وجاء ذلك في قوله: (٣)

هونَ المسلمونَ أمرَ لقاتهم  
فأذيقوا منهم أشدَّ هوانِ

وذهب بعض الشعراء إلى أن الهزيمة كانت عقاباً من الله تعالى للمسلمين على  
تفريطهم بحقوقه، وعزوفهم عن شرعه، وغرقهم في المفاسد والمحرمات مثل: شرب  
الخمِر، وخيانة الأمانة، وتجلي ذلك في قول الشاعر ذاته: (٤)

إباحةُ قبحٍ وارتكابُ جرائمٍ  
وبعد فأمرُ الله ما منه مهربٌ  
أرى ذاك تمحيصاً لنا من ذنوبنا

وتضييعُ أحكامِ وخونُ أمينٍ  
ولا معقلٌ من حكمِهِ بحصينٍ  
وما أنا فيما قُلْتَهُ بضئيينِ

وقول ابن أبي حجلة التلمساني: (٥)

(١) النويري، الإلام، ٢١٧/٢-٢١٨.

(٢) المصدر نفسه، ١٣٩/٢.

(٣) المصدر نفسه، ٢٢٢/٣.

(٤) المصدر نفسه، ٢١٨/٣.

(٥) المصدر نفسه، ١/٣، ولزريد من الأمثلة انظر، ١٧٧/٤.



وَحَقُّكَ هَذَا مِنْ ذُنُوبٍ تَقَدَّمَتْ      وَقَرَعَ كُؤُوسَ الْخَمْرِ فِي الثَّغْرِ بِالثَّغْرِ  
 ويعطل أحد الشعراء كسرة المسلمين، وعجزهم عن الصمود لقلة استعدادهم أمام  
 الفرنج المدججين بالسلاح، فقد كان هؤلاء لابسين الحديد، والمسلمون "كلحم على وضم،  
 فكيف يقا تل هؤلاء اللحم الحديد، وكيف يبرز العاري لمن كسي الزرد النضيد؟"<sup>(١)</sup>،  
 يقول: <sup>(٢)</sup>

قَدَ وَلَّتِ الْمَسْلُومَ لَمَّا      بِاللَّبَسِ وَافَاهُم جَنُودُ  
 وَكَيْفَ لَا يَهْرَبُونَ مِنْهُمْ      وَالنَّاسُ لِحَمِّ وَهْمٍ حَدِيدُ

ويرد بعض الشعراء تلك النازلة إلى تدبير الله وقضائه الذي لا مرد له، ويتضح  
 ذلك في قول أبي عبد الله بن طاهر الإخميمي: <sup>(٣)</sup>

إِنْ يَكُنْ حَكْمُ الْقَضَاءِ أَبَادَهُ <sup>(٤)</sup>      وَعَلَيْهِ حَادِثُ الدَّهْرِ جَسَرُ  
 فَلَهُ الْعَقَبَى بِنَصْرِ عَاجِلٍ      مِنْ إِلَهِ الْعَالَمِينَ يَنْتَظِرُ  
 وَإِذَا مَا أَنْفَذَ اللَّهُ الْقَضَاءَ      لَمْ يَكُنْ لِمَخْلُوقٍ فِيهِ مَفْرُ

وقد اتخذ الصراع بين المسلمين والصليبيين منذ بداية الحملات الصليبية على بلاد  
 المسلمين شكلا دينيا، فقد صورهم الشعراء وقد قدموا تحت شعار الصليب للقضاء على  
 المسلمين<sup>(٥)</sup>، ولم يفت الشعراء الذين رثوا الإسكندرية ذلك، ولذا هاجموا الفرنج في  
 عقيدتهم، ورموهم بالكفر والشرك والضلال، ومن ذلك قول أبي عبد الله محمد بن حسن  
 الشاطبي: <sup>(٦)</sup>

عَصَابَةٌ كَفَرٍ أترَعَتْ أكوُسَ الرَّدى      مذاقَتَهَا تُنَحِّلُنَ كُلَّ سَمِّينِ  
 معالمُ توحيدٍ أَباحَ جَنابَهُم      عديمو حجى بين الأنام ودينِ

<sup>(١)</sup> النويري، الإمام، ١٤٨/٢، السلوك ١٠٩/٥.

<sup>(٢)</sup> المصدر نفسه، ١٤٨/٢، المصدر نفسه، ١٠٩/٥.

<sup>(٣)</sup> النويري، الإمام، ٢٣٠/٣.

<sup>(٤)</sup> الهاء تعود على نثر الإسكندرية

<sup>(٥)</sup> انظر د. عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، ص ١٨٢، عبد القادر أبو شريفة، صورة الصليبيين في الأدب

العربي، ص ٥٣.

<sup>(٦)</sup> النويري، الإمام، ٢١٨/٣، ٢٢٠.

لقد شاهدت عيني العجائب ما رأت

كظفر شمال وانهازم يمين

يقول فقيذ الأهل بالحال معلمي

ألم تر حزب الشرك قد ملكوني

تتجلى في هذه الأبيات طبيعة الصراع، فالصليبيون عصابة كفر لا دين لهم، وهم

أهل الشمال، أما المسلمون فهم أهل التوحيد، كتابهم يمينهم يوم القيامة.

ومثله قول ابن أبي حجلة التلمساني: (١)

ألا في سبيل الله ما حلّ بالثغر

على فرقة الإسلام من عصبة الكفر

ويجعلهم النويري عبادا للأصنام في قوله: (٢)

لهف نفسي على مدينة قوم

وحدوا للمهيمن العلام

كيف أمست بها الفرنج النصارى

الكلاب العباد للأصنام

وهم في نظر أبي عبد الله محمد النستراوي عباد للصور، وهذا ما جاء في قوله إذ كنى

عنهم ببني الأصفر، ووصف تغير الحال في ثغر الإسكندرية: (٣)

فغدا بعد ابتسام عابسا

ببني الأصفر عباد الصور

ويصورهم النويري كفارا وشياطين، ومجسمة، عطلوا دين الله تعالى كما يبدو في قوله: (٤)

نُهبت بأيدي كلّ كافر

متعطّل متجسّم خناس

\* \* \*

ومن الأمور التي لفتت أنظار الشعراء، وركزوا على تصويرها، عنف الحملة

الصليبية على الإسكندرية، وقوة ذلك الغزو وقسوته، فقد أجمعوا على أنه حادث جلل،

وغزو فظيع مادته الأرض، وجعل هوله الأعمى بصيراً، والسميع أصم، وهو فتنة

وبلاء أصاب الإسلام، وعم جميع المسلمين وداهية حطت على رؤوسهم، وجعلتهم عبرة

لكل معتبر، وحديثه يشجي القلوب، ويذمي العيون، ومصيبة تخرج عن حد الوصف

والتعبير، ومن ذلك ما قاله أبو عبد الله بن طاهر الإخميمي: (٥)

فيما قد هال منه يُعتبر

حادث حلّ أرى الناس العبر

(١) المصدر نفسه، ٢٢٩/٢، ابن حبيب، تذكرة النبي، ٢٩١/٣، درة الأسلاك، ٣/ ورقة ٤٥، ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١ ق ٢٤/٢ وانظر

أمثلة أخرى في الإلام، ٢٢٣/٣

(٢) النويري، الإلام، ٢١٣/٢.

(٣) المصدر نفسه، ٢٢٤/٣.

(٤) المصدر نفسه، ٥١/٤.

(٥) المصدر نفسه، ٢٢٣/٣-٢٢٤.

يا له من حادث ما مثله  
 وبلاء قد دها الناس فلم  
 جرّع الإسلام سما ناعماً  
 فلکم أطرش سمعاً وأعياناً  
 مادت الأرض له واضطربت  
 ليس يرجى للهناء من أوبة  
 لبت يوم دخلوه عنوة  
 أسفرت غرته عن فتنة  
 ويقول محمد بن قاسم النويري: (١)

طرق الإسلام من عهد عمر  
 نر منه أذهى وأمر  
 وعليهم سيف بغى قد شهر  
 ذكره ولكم أعمى بصر  
 ولقد حل بها كل العبر  
 لا ولا صفو الزمان من كدر  
 صبحه الواضح ما كان انفجر  
 ذهل البادون منها والحضر

هو يشجي القلوب عند سماع  
 كيف لا أجري الدموع كويل  
 لبلاء قد عم جمع أناس

فتصير الدموع منه هوامي  
 هاطل منبيل كهطل الغمام  
 سلبوا عزهم بحد الحسام

وكان لهذا الغزو أثر في نفس أبي عبد الله محمد النستراوي فأيقن أنه غمة لا ملاذ  
 منها ولا مناص ولا تكشف إلا بالاستغاثة بالرسول صلى الله عليه وسلم، فهو الكهف الذي  
 يأوى إليه المسلمون عند كربتهم، وهو الذاب عنهم في الدنيا والآخرة لأنه صاحب الدعاء  
 المستجاب عند الله سبحانه وتعالى، يقول: (٢)

يالها من خذلة قد خذلوا  
 لا يرجى لبلاها كاشف  
 كاشف الخطب المهول إن غزا  
 سيد الرسل الذي يقدمه  
 يا رسول الله إنا فتنة  
 يا رسول الله قد حل بنا  
 يا ملاذ الناس يا كهف الوري  
 لك نشكو ما أتى من حادث  
 فاسأل الرحمن في نصرتنا

كسرة يجبرها من قد كسر  
 غير من لله حقاً قد نصر  
 فارح الهمة إذا ضاق المقر  
 نصره بالرب شهر إن سفر  
 بك لذننا من لئيم قد غدر  
 من بني الأصفر بؤس وضرر  
 يا كليل البدو جمعاً والحضر  
 قد عرانا من ملاعين غور  
 وخذ الثار لنا ممن قهر

(١) المصدر نفسه، ٢/٢١١.

(٢) النويري، الإلام، ٤/١٧٦-١٧٧.

ووقف الشعراء طويلاً يتحدثون عن العدو الصليبي الغازي، ويصفون حشوده وجيشه القادم إلى الإسكندرية، فهو على أكمل هيئة، أعداده كبيرة، وامتزود بأحدث الأسلحة وأقواها، ومعتمد على القطع البحرية المتنوعة والكثيرة في نقل الرجال والأسلحة والطعام والخيول، أما الفارس الصليبي فمحصن تحصيناً كاملاً يرتدي الدروع من رأسه إلى أخمص قدميه، وعلى رأسه خوذة مصقولة تقيه الحرّ، وضربات المسلمين، ويحمل سيفاً حاداً، ورمحاً طويلاً ويتكبد قوساً، وقد وصفه النويري إذ قال: "وكانت الفرنجة مسرلة بالزرد النضيد، متجلبة بصفائح الحديد، على رؤوسهم الخوذ اللامعة، وبأيديهم السيوف القاطعة، قد تنكبوا القسي الموتورة، ورفعوا أعلام الصليبان المنشورة".<sup>(١)</sup>

وفي القصيدة التي نظمها النويري في رثاء الإسكندرية صور الشاعر عدة الجيش الصليبي، فقد اصطحبوا معهم سبعين مركباً هيئوها للحرب والقتال، وعمروها في قبرص، فدهنوها بالشحم والقار والزفت، وكانت هيئاتها وهي تزدهم في الماء كالثعابين حين تلتقي ببعضها البعض، أما الجنود الصليبيون فذوو أجساد قوية، يتسربلون بالحديد والدروع، ويحملون الأسلحة الفتاكة، وهاجم هؤلاء الإسكندرية هجوماً عنيفاً وسريعاً، معتمدين على خيولهم القوية، يقول: (٢)

عمرها بقبرص في سنين	نحو سبعين مركباً بتمام
دهنوها بالقار ثم بزفت	ويشحم تمشي بلا أقدام
فوق شبر من المياه تراها	كالثعابين تلتقي بازدهام
فأتوا سرعةً ببيض قلوع	نحو إسكندرية كالغمام
قصدوا نحوها بحرب متين	بلباس سردٍ وحدٍ حسام
عن قريبٍ شاهدت جمع النصاري	نزلوا البرّ فيهم كلّ حام
بدروع ما مثلها من دروع	مُسبلاتٍ على علوجٍ جسام
وخيولٍ قد أنزلوها سريعاً	عالياتٍ كأكبر الأنعام

ويعدد الشاعر أبو عبد الله محمد بن حسن الشاطبي أنواع القطع البحرية التي عبر بها الصليبيون البحر إلى ثغر الإسكندرية فيقول: (٣)

(١) النويري، الإلام، ١٤٧/٢.

(٢) المصدر نفسه، ٢١٣/٢-٢١٤.

(٣) المصدر نفسه، ٢١٨/٣.

معدّ ببقياها بحرب زبون  
وكم من غراب كالتيور وشيني<sup>(٢)</sup>

أتاه عدوّ مارداً في عوالم  
قراقر<sup>(١)</sup> في آثارهنّ مراكب

ويقول ابن أبي حجلة التلمساني مصوراً عدة الفرنج: <sup>(٣)</sup>

أتاها من الإفرنج سبعون مركباً فصاحت بها الغربان في البر والبحر  
وصير منها أزرق البحر أسوداً بنو الأصفر الباغون بالبيض والسمر  
لا يخفي ما في أبيات الشاعر من صورة جميلة جمع فيها "ألواناً مختلفة من الزرقة  
والسواد والصفرة والبياض والسمر،<sup>(٤)</sup> فمراكب الفرنج سوداء اللون وهي التي تسمى  
بالغربان ملأت البحر والبر، حتى صار منها لون البحر الأزرق أسود لكثرتها، أما البيض  
والسمر، فهي الأسلحة التي كانت بحوزتهم وعنى بها السيوف والرماح.  
ويقول النويري مصوراً أشرعة سفن الصليبيين، وهياة الجندي الصليبي وتجهيزاته  
العسكرية: <sup>(٥)</sup>

من قبرس جاء بسفن خلتها  
أنت الفرنج إلى محل ديارها  
من أعين الزرد النفيذ تسربلوا  
والبيض فوق رؤوسهم مصقولة  
بقلوعها تزهو على القرطاس  
بالمرفقات تجلبوا بلباس  
وتكّبوا بوقارة الأقواس  
موضوعة كالوزن بالقسطاس  
فأشرعة سفنهم بيضاء تزهو على أوراق الكتابة، وجنودهم يغطي أجسادهم  
الحديد، ولا يظهر منها سوى العينين.

وتحدث الشعراء في قصيدة الرثاء عن القتال الذي دار بين المسلمين والصليبيين  
حين اقتحموا الإسكندرية، وسلطوا الضوء على الهزيمة التي نزلت بالمسلمين، والفرز  
الذي ملأ قلوبهم، وأفقدتهم القدرة على مواصلة الجهاد، ففروا مكسورين يجرون أذيال  
الفشل.

<sup>(١)</sup> قرقور أو قرقورة، والجمع، قرار وقرقر، نوع من السفن الحربية ذات أحجام مختلفة، ومنها أنواع حربية، وأخرى مدنية، وتستخدم بصفة  
عامة لحمل المؤن، انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٢٨٨/٣ حاشية (١).

<sup>(٢)</sup> شيني أو شاني، أو شينة أو شونة، والجمع شوان، سفينة حربية كبيرة، ومن أهم القطع التي يتكون منها الأسطول في العصور الوسطى، انظر  
ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٢٨٨/٣.

<sup>(٣)</sup> النويري، الإمام، ٢٥٤/٢، تذكرة النبيه، ٢٩١/٣، درة الأسلاك، ٤٥/٣.

<sup>(٤)</sup> النويري، الإمام، ٢٥٤/٢.

<sup>(٥)</sup> المصدر نفسه، ٥١/٤.

وكان ذلك مجالاً واسعاً للشعراء لمهاجمتهم، والتعريض بهم، ووصف تخاذلهم وتراجعهم في وقت كانت الأمة في أشد الحاجة إليهم، ليذودوا عن حياضها، وكشف الشعراء عما فعل الصليبيون بهم، فقد غدوا لعبة في أيدي جنودهم، فالمسلمون منهزمون والصليبيون يقنقون أثرهم، يقتلون ويذبحون ويشتتون وتحدث الشعراء كذلك عن شجاعة الجندي الصليبي وبأسه في القتال وكأنهم أرادوا بذلك " المقارنة بين موقف الصليبيين الذي يثير الإعجاب، وموقف المسلمين الذين لم يقذفوا بقوتهم كلها في الميدان، ولم يستنفذوا الطاقة في دفع العدو عن بلادهم".<sup>(١)</sup>

ومن الجدير ذكره في هذا المقام أن هناك مقولة تداولها الباحثون ومفادها، أن الشعر العربي شعر انتصارات لا شعر هزائم،<sup>(٢)</sup> وهي مقولة صادقة إلى حد ما، ولكنها لا تنطبق على مرثي الإسكندرية لكثرة ما فصلت في وصف الهزيمة، وتقريع الجنود المسلمين ولعل ذلك يدل على نقمة الشعراء على الجنود الفارين.

ومن الأمثلة على ذلك القصيدة التي نظمها أبو عبد الله محمد بن طاهر الإخميمي، فقد خصص الشاعر جزءاً كبيراً منها تناول فيه موضوع الهزيمة، مبيناً عجز أسلحة المسلمين، وقوتهم العسكرية والدفاعية عن التصدي للصليبيين، ومكرراً حرف النفي "لا" للدلالة على ذلك الفشل الذريع، يقول:<sup>(٣)</sup>

لم يكن في ذلك اليوم الذي	شره كان على الناس استطر
نفع الإسلام سوراً مانعاً	أحكمت من حُكم بانيه المرر
لا ولا دافع عنهم مدفع	للعدا من ناره يرمي شرر
لا ولا أسلحة معتدة	للقا الأعداء كانت تدخر
لا ولا نيران نبط لا ولا	منجنيق قد رمى ثاني حجر
لا ولا عبد تقي قد دعا	باننصار الدين في وقت السحر

لقد تعطلت كل الأسلحة في أيدي المسلمين، ولم تتل من أعدائهم مرادها، ودارت الدوائر على أصحابها، فغدت هاماتهم منتشرة في أرض المعركة، وأجسادهم مقطعة فتكت

(١) عبد القادر أبو شريفة، صورة الصليبيين، ص ١٠٠.

(٢) انظر، د. نصرت عبد الرحمن، شعر الصراع مع الروم، ص ٩٧، د. عبد الخليل عبد المهدي، بيت القلس في أدب الحروب الصليبية ص ١٥٠ و ١٩٦، عبد القادر أبو شريفة، صورة الصليبيين في الأدب العربي، ص ١٣٢، رائد عبد الرحيم، صورة المغول في الشعر العربي، ص ٦٣.

(٣) النويري، الإلمام، ٣/٢٢٦.

فيها أسلحة الصليبيين، وتعثرت خيولهم فصارت تلقى بفرسانها من فوق ظهورها، ويتضح ذلك في قول الشاعر نفسه: (١)

كان في الصخرٍ لحديه أثر	لكم سيفٍ نبا من بعدما
رامحٌ يبغي طعناً فانكسر	ولكم رمحٍ طويلٍ هزه
فأتى في رميهم عنهم قصر	ولكم قوسٍ رمي نحو العدا
فلققتها البيضُ تفلقَ الشجر	ولكم من قامةٍ مفلوقة
من على الأبدانِ تجري كالأكبر	ولكم رأسٍ على وجه الثرى
إذ كبا من فوقه للأرض خر	ولكم من سابقٍ فارسُة

ويصور محمد بن قاسم النويري الذعر الذي استولى على نفوس المسلمين عقب الهجوم الصليبي، فقد ترك الباعة بضائعهم، وأسرعوا يبتدرون الهرب، والفرنج في إثرهم، فكان أولئك الفارون فريقين: فريق نجا من القتل، وآخر عملت به سيوف الصليبيين عملها، فأطارت منهم الرؤوس وكسرت منهم العظام، يقول: (١)

قصدوهم بالضربِ في الأجسام	فرت المسلمون منهم سريعاً
س دسوت الطغام بالانهزام	تركوا الباعة التي حاككوا الننا
ثم منهم رؤوسهم في الطغام	منهم سالمٌ من القتل حتماً
غمغمت باللسانِ لا بالسلام	قطعتها السيوفُ ثم تراها
خرط العنقَ سرعةً بالعظام	عائماتٌ من حدِّ سيفٍ صقيلٍ

ويستمر الشاعر في عرض كسرة المسلمين ووصف فرارهم، فقد تزاحموا على باب ورد المطل على بحر الإسكندرية فمات كثير منهم في الزحام، ونجح آخرون في النجاة فاعتلوا الأسوار وراحوا يرمون الصليبيين بسهامهم، ولكنها لم تجد نفعاً في جنودهم المتدرعين بالحديد، فقاموا بدورهم بحرق ذلك الباب، ودخول المدينة، والتكيل بسكانها، يقول: (٢)

(١) النويري، الإلام ٣/٢٦٦.

(٢) المصدر نفسه، ٢/٢١٤.

(٣) المصدر نفسه، ٣/٢١٩.

قصد المسلمون للباب قصداً  
غلقوا الباب واعتلوا فوق سور  
صارت السهم لا تؤثر فيهم  
زحفوا أحرقوا للباب صغير  
هجموا منه هجمة عاصفوهم  
ضربوهم ضرباً قوياً فخرّوا

مات من مات من قوى الازدحام  
ورموه بخارقات السهم  
من لباس الحديد والاخترام  
باب ورد موجه بالرخام  
بسيوف في المسلمين الكرام  
بصعيد صرعى بنوق الحرام

ويعرض أبو عبد الله محمد بن حسن الشاطبي بالجنود المسلمين الذين ولوا الأديار  
بعدما حمى الوطيس، ويتعجب من جنهم وإقائهم السلاح، ويصور صرخات الاستجداد  
التي كانوا يطلقونها والفرنج يفتكون بهم، ويذيقونهم من العذاب ألواناً، يقول: (١)

عجبت لمن ألقى السلاح جبانة  
إذ أدارك المولى بلطف عبيده  
وإن خذلوا فالرأي منهم مشتت  
ينادي لسان الحال بالحال انظروا  
تحكم أعداء الهدى في الردى  
وولى بوجه كالح ومهين  
أمتوا بعقل في الخطوب رصين  
ولو أنهم في الحرب أسد عرين  
كلاب النصارى ويحكم أكلوني  
فلو أن حولي عصبة نصروني

ويكشف الإخميمي عن شجاعة الجندي الصليبي، فهو كالليث في الشجاعة، أما  
الجنود المسلمون فقد تراجعوا أمام تلك الشجاعة، وكانت حالهم معهم كحال الأنعام الفارة  
من ليث مفترس، وينعتهم الشاعر بالجبن، ويعد تخاذلهم، وتهاونهم في الدفاع عن ديار  
المسلمين ودينهم من الكبائر التي لا تغفر، يقول: (٢)

وبنو الأصغر في ثغر الهدى  
وأبادوا بالقناة حماته  
وهم جفلاً من الرعب كما  
واستهاب المسلمون حربهم  
وعلى الأعقاب وآوا هرباً  
قبّحها عند اللقا تولىة  
لو بهم كان شجاعاً باسلاً  
جعلت أسياهم فيه ثغر  
وإليه كل عرج قد عبر  
تجفل الأنعام من ليث زار  
وبدا منهم ملأ وضجر  
والعدا من خلفهم تقفو الأثر  
فهي عند الله من إحدى الكبر  
بقتال ذلك اليوم اشهر

(١) النويري، الإلمام، ٢١٩/٣.

(٢) المصدر نفسه، ٢٢٣/٣، ٢٢٥.



لمحى عن حوزة الدين الردى

بالردينيات والعضب الذكر

ويصور الشعر العربي الذي قيل في رثاء الإسكندرية الأفعال التي ارتكبتها الصليبيون هناك، وكشف عن أخلاقهم وهمجيتهم وخلو قلوبهم من الرأفة والرحمة، وبين ما يتصفون به من قسوة ولؤم وحقد، وتحدث المؤرخون عن تلك الفظائع فذكروا أن الفرنج أسروا النساء والأطفال، وانتهكوا المحرمات، وقتلوا الرجال والعجائز حتى الأطفال والمجانين والبلهاء، وجرقوا كثيرا من الأسواق والحوانيت والرباطات، واعتدوا على المساجد، ونهبوا من الأموال والذخائر الشيء الكثير، وملأوا منها مراكبهم<sup>(١)</sup>، حتى "قلقت بما فيها فصاروا يلقون في البحر على ما قيل لتخف"<sup>(٢)</sup>، ومن القصائد التي صور فيها الشعراء ما نزل بالإسكندرية والمسلمين فيها، قصيدة أبي عبد الله بن طاهر الإخميمي، ومما جاء فيها:<sup>(٣)</sup>

كم أراقوا دما فيه وما	رق قلباً منهم وانزجر
ولكم شيخ تفانى عمره	ذبحوا بالمدا ذبح البقر
وصغير بضعوه ثم ما	رحموا من كفرهم منه الصعر
ولكم طفل نجيب قارئ	حسبه من عمره درس السور
وإذا لم ينظر الله له	أخرجوه عن هدى خير البشر
ولكم ستر غداً منه تكأ	وبدا للناس منه ما ستر
ومبان زخرفت أرجاؤها	فوهى ما طال منها وأندثر
ومن الأموال مالو قصدوا	حصن نزر منه يوماً ما انحصر
ولقد أضحى بها من كان في	أعظم العز نليلاً محتقر
قد خلّت أوطانه من أنعم	وهو من بعد الغنى قد افتقر

يكشف هذا الشعر عن معالم النكبة، فالصليبيون وحوش كاسرة لا ترق قلوبهم ولا تلين، فقد استباحوا دماء المسلمين، فذبحوا الشيوخ والعجائز، وقتلوا الحيوانات وقطعوا الأطفال الصغار، ومن نجا منهم أجبروه على مفارقة الإسلام واعتناق النصرانية، واعتدوا

(١) انظر: النويري، الإلام، ١٥٩/٢، ١٦٤، ١٦٦، ١٧١-١٧٢، ١٧٩، ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٢٧٩/٣، درة الأسلاك، ٤٤/٣، المقريري، السلوك، ٢٨٤/٤، ابن عباس، بدائع الزهور، ج ١ ق ٢٣/٢، ابن العماد، شذرات الذهب، ٣٥٧/٨.

(٢) النويري، الإلام، ١٧٤/٢.

(٣) المصدر نفسه، ٢٢٣/٣-٢٢٤.

على النساء المستورات فكشفوا سترهن، وفجروا بهن، وهدموا المباني العامرة ذات الزخارف الجميلة، ونهبوا الأموال الكثيرة، فغدا العزيز من أهل الإسكندرية ذليلاً والغني فقيراً.

ويتحسر أبو عبد الله بن حسن على ما اقترفه الفرنج من عمليات قتل وهتك، ونهب للأموال الظاهرة والمخزونة، فيقول: (١)

وقتل رجال وانتهاب ذخائر  
 وقد قطعت مني المفاصل مذ رأت  
 وهتك حريم في الخدور مصون  
 لكل قتيل ظل غير دفين  
 وحرمت الأجفان نومي وحق لي  
 على حرم فارقت كل خدين  
 تلهب صدري من شواظ حريقهم  
 ومن نهب مال ظاهر ودفين

ويتحدث الشاعر محمد بن قاسم النويري عن جرائم الصليبيين هناك، فقد نهبوا السلاح الذي ادخره قادة المماليك عبر السنين، واستولوا على أموال التجار وتركوهم يعانون ذل الفقر، وسطوا على الحوانيت، وأخذوا ما فيها من قماش ومطرزات، وحلي، وفراش وحرير، كما خربوا الربط وقتلوا الدواب (٢)، يقول متحسراً: (٣)

لهف نفسي على سلاح كثير  
 أخذوه من القياح اللواتي  
 كيف صار السلاح عند اللئام  
 حبستها بها كرام الأنام  
 لهف نفسي على الجزيرة ماذا  
 حل فيها من الفرنج الطغام  
 خربوا ربطها وعاثوا وعادوا  
 عرقبوا للجمال والأنعام  
 لهف نفسي على التجار جميعاً  
 أصبحوا بعد العز في إعدام  
 لهف نفسي على حوانيت بز  
 وقماش مطرر الأكمام  
 لهف نفسي على حلي كثير  
 وستور الحرير ذي الإرتسام  
 كيف صارت عند النصاري بقهر  
 ويجور وعلوة وانتقام

ويتحدث الشاعر نفسه عن أسرى المسلمين وما فعل بهم الفرنج بعد أسرهم، فقد قيدوا أقدامهم بالحديد، وأهانوهم بعد طول عز واحترام، وشمل الأسر الرجال والنساء

(١) المصدر نفسه، ٢١٩/٣.

(٢) ذكر النويري أن الصليبيين اعتمدوا على الدواب في نقل غنائمهم إلى مراكزهم، وعندما انتهوا من ذلك قتلوها، انظر الإلام، ١٣٧/٢.

(٣) النويري، الإلام، ١١٢/٢.

والخدم والشباب، وحرق الفرنج صروح العلم والمدينة وتركوها خراباً بعد ما كانت  
مركزاً للإشعاع الحضاري، يقول: (١)

لَهْفَ نَفْسِي عَلَى الْأَسْرَى جَمِيعاً      أَصْبَحُوا بَعْدَ عِزَّةٍ وَاحْتِرَامِ  
فِي كِبُولِ الْحَدِيدِ قَدْ قَيَّدُوهُمْ      بَقِيُودِ الْحَدِيدِ فِي الْأَقْدَامِ  
يَنْهَبُونَ وَيَأْسُرُونَ رَجَالاً      وَنِسَاءً مَعَ جَمَلَةِ الْخُدَامِ  
لَهْفَ نَفْسِي عَلَى مَدِينَةِ عِلْمٍ      بِحَرِيقِ مَتَوَجِّحٍ بِقَتَامِ  
أَسْرُوا مِنْ شَبَابِهَا كُلِّ شَبَابٍ      حَسَنٍ مُشْبِهٍ لِإِدْرِ التَّمَامِ  
حَمَلُوا الْمَالَ وَالْأَسْرَى جَمِيعاً      سُرْعَةَ لَا إِطَالَةَ الْأَيَّامِ

ويبين ابن أبي حجلة التلمساني أن الفرنج خصوا فقراء الناس بالقتل، وأجبروا  
الأسرى من الصغار على التنصر وخاصة البكر من النساء، لضعفهن وقلة حيلتهن، ويعد  
الشاعر ذلك فتنة عظيمة أضر وأعظم على المسلمين من فتنة القبر، يقول: (٢)

وَكَمْ قَتَلُوا فِيهَا فَقِيْرًا وَنَصْرُوا      صَغِيْرًا مِنَ الْأَسْرَى وَلَا سِيْمَا الْبِكْرِ  
فِيَا لَكَ مِنْ هَوْلٍ عَظِيْمٍ وَفَتْنَةٍ      أَضْرَّ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ فَتْنَةِ الْقَبْرِ

إلى جانب الأعمال السابقة، شرد الصليبيون سكان الإسكندرية في البلاد، فغدوا  
حيارى هائمين على وجوههم، ويتجلى ذلك في قول النويري متحدثاً عن ذلك الشتات،  
ومصوراً صرخات الحزن والألم التي كانت تطلقها نساء الإسكندرية بعد ما فقدن الكرامة  
والزوج والابن والبيت والحلي: (٣)

شَرَدَتْ مِنْهُمْ خَلَاتِقُ شَتَى      عَالَمٌ لَا تَعْدُ بِالْأَقْلَامِ  
خَرَجُوا بِالشَّتَاتِ مِنْ بَابِ بَرٍّ      سَلَكُوا الطَّرِيقَ يَرْتَمُونَ المَرَامِ  
وَعَدُوا فِي الْبِلَادِ جَمْعاً حِيَارَى      سَكِرُوا بِالْإِرْجَافِ لَا بِالْمَدَامِ  
كُلُّ أَنْثَى تَصِيحُ بِعَلِيٍّ وَابْنِي      ثُمَّ بِنْتِي وَالطَّرْفُ بِالْتَمَعِ هَامِي  
ثُمَّ أُخْرَى تَقُولُ دَارِي وَحَلِيَّتِي      وَقَمَاشِي وَاكْشَفْتِي وَاسْقَامِي  
وَإِبْلَاتِي عَدِمْتُ سِتْرَةَ حَالِي      مَا بَقِيَ لِي خَلْفِي وَلَا قَدَامِي  
يَا عِيُونِي ابْكُوا عَلَى مَا جَرَى لِي      ضَاعَ عَقْلِي مَنِي وَزَالَ احْتِشَامِي

(١) النويري، الإلام، ٢١٢/٢-٢١٣، ٢١٥.

(٢) النويري، الإلام، ١٧٠/٢، ٢٧٢، ابن حبيب تذكرة النبي، ٣/٢١٩، درة الأسلاك، ٣/٤٥، ابن لياس، بدائع الزهور، ج ١، ٢٤/٢٤.

(٣) النويري- الإلام، ٢١٥/٢، ٢١٦.

ولم يكن الصليبيون وحدهم الذين عاثوا في الإسكندرية فساداً وغنموا أموال سكانها، بل فعل مثلهم عوام الناس والعربان، فقد نهب هؤلاء نهباً كثيراً من أهل الإسكندرية الشاردين، وأخذوا ما تركه الفرنج، فاستغنى منهم "من كان فقيراً وافترق من أهل البلد من كان غنياً"<sup>(١)</sup>، ولو سلمت الإسكندرية منهم كما يقول النويري لبقى "لغالب أهلها متاعهم وأثاثهم"<sup>(٢)</sup>.

ويهاجم أبو عبد الله محمد بن حسن الشاطبي أولئك العربان، ويتعجب من أفعالهم تلك التي لا يقوم بها مسلم يخشى الله، ويحسب للعواقب حساباً، يقول:<sup>(٣)</sup>

ومن أعظم الأوصاب أن مسلماً غداً يحوزُ ويحوي لا يدينُ بدينِ  
تجراً بعد الروم بالنهبِ عادياً ولم يخشَ ما يلقاهُ بعد متونِ  
ولم يرتقبِ سوء الحسابِ وهوله وَضَبَطَ حَفِيفٌ كَاتِبٌ وَظَنِينِ  
ويقول في قصيدة أخرى:<sup>(٤)</sup>

أغربُ القولِ بعدَ ذا في فريقِ — من راعِ النَّاسِ والعربانِ  
طُعِنوا في كبودهم بالطواعي — من لأجلِ الفرارِ يومَ الطعانِ  
ودنوا لانتهاجِ كلِّ مكانِ من النواحي وكلِّ قاصٍ وداني  
وقد عبر عن ذلك ابن أبي حجلة التلمساني في قوله:<sup>(٥)</sup>

لئن نهَبَ الإفرنجُ جانبَ بحرِها فقد نهَبَ العربانُ جانبها البرّ

ودعا الشعراء في مراتبهم إلى الجهاد وضرب الأعداء الصليبيين، واستثاروا حمية المسلمين للنهوض والأخذ بالثأر منهم، وغزوهم في عقر ديارهم، وتوجهوا بالخطاب إلى قادة المسلمين، وحثوهم على ترك الخنوع، واستنهاض الهمم، ليزبوا عن حماهم، ويحفظوا لأمتهم ماء وجهها، من ذلك قول أبي عبد الله محمد بن حسن الشاطبي:<sup>(٦)</sup>

فيا ليت شعري هل لثأري طالبٌ يجلي صدَى قلبي بفكِّ رهينِ  
أيا معشرَ الإسلامِ باللهِ فاضرعوا بإخلاصِ قصدٍ واصطحابِ يقينِ

(١) النويري، الإمام، ٢/٢٧٠.

(٢) المصدر نفسه، ٢/٢٦٩.

(٣) المصدر نفسه، ٣/٢٢٠.

(٤) المصدر نفسه، ٣/٢٢٢.

(٥) المصدر نفسه، ٢/٢٦٩.

(٦) المصدر نفسه، ٣/٢٢١.

بتمكين أرباب النهى من عدوتنا بنصرٍ وفتحٍ للأنام مبین  
وتتضح الدعوة إلى الجهاد بصورة جلية في قصيدة الشاعر أبي عبد الله الإخميمي،  
فهو يخاطب الأمير يلبغا الخاصكي، ويحضه على جهاد الصليبيين ونصره الدين، ويبين له  
أنه القادر على حفظ البلاد من اعتداءات الفرنج والتتار، ويدعوه إلى إعداد العدة للقتال بأن  
يجفو النوم ويعمر السفن، ويشحنها بالرجال الشجعان المزودين بالأسلحة والدروع،  
ويطلب منه أن يتوجه بهم إلى قبرص لتخريبها وإيادة سكانها، وأن لا يستثني منهم أحداً  
سوى المسلمين، يقول: (١)

أيها المولى الأميرُ و الذي	من نداءه وأبلُ السَّحْبِ انهمر
إنَّ دينَ الله أنْت سَيْفُه	وعلى نُصْرَتِكَ الدِّينُ اقتصر
وإذا ما لم تَقُمْ في نصره	طَمَعَ الإفْرانجُ فيه و التتار
لا تتم عن نصره واجفُ الكرى	واسهر العَيْنِ فذا وقتُ السَّهَرِ
واعمر السِّنَّ كثيراً مثل ما	ذلك الكلبُ اللَّعينُ قد عمر
لا تكن في حملها مُختصراً	مثل سيفٍ في الوغى قد انشهر
من كماءِ التَّركِ كلُّ باسِلٍ	ثابتٌ عند اللِّقَا فحلُّ ذكْر
وتوجّه بهم لقبرص	واركز الصَّنَجُ فيها فوق بر
وضع السَّيفِ ولا تتركْ سوى	مَنْ لتوحيدِ الإلهِ قد ذكْر

ويواصل الشاعر دعوة يلبغا إلى الاقتصاص من القبارصة، وكسر صليبيهم ، وإحراق  
العامر في ديارهم وهدمه، وأسر ملكهم، والتكيل به كما نكل بحريم المسلمين، حادثاً إياه  
على استرداد أسرى المسلمين، يقول: (٢)

واكسر الصلْبَانَ واحرقُ قُبْرصاً	ثم لا تترك بناءً من حَجَر
وخذ السلْطانَ مأسوراً كما	لحريم المسلمين قد أسَرَ
واقترخ ما شئتَ في تعذيبه	فهو كلبٌ للأنامِ قد عقر
ولأسرى المسلمين ردهم	لحماهم أيها المولى الأقر
لتكون الآخذُ الثَّارَ الذي	لك في الدُّنيا له عَظْمُ الفخر

(١) المصدر نفسه، ٢٢٨/٣-٢٢٩.

(٢) النويري، الإلام، ٢٢٩/٣. ولزيد من الأمثلة انظر ، ٨٨/٣-٨٩.

## الفصل السادس موضوعات رثاء أخرى

- ١- رثاء الحيوان
- ٢- رثاء الغلمان والمغنين
- ٣- رثاء مظاهر حضارية
- ٤- رثاء اللهو والمجون

## رثاء الحيوان

كان رثاء الحيوان من الموضوعات الجديدة التي طرأت على شعر الرثاء في العصر العباسي الأول لأسباب حضارية وإنسانية، وكان أبو نواس أول من رثاه في ذلك العصر عندما رثى كلب صيد له نهشته حية.<sup>(١)</sup>

أما في العصر المملوكي الأول، فقد رثى الشعراء حيواناتهم بقصائد ومقطوعات كثيرة ضاع أغلبها، ولم يبق منها سوى القليل، وهذا ما أكده المؤرخون أنفسهم إذ أحجموا عن إثبات بعضها، واختزلوا بعضها الآخر، ولا أدل على ذلك مما عبر عنه الصفدي حين تحدث عن الأشعار التي نظمت في رثاء حمار أبي الحسين الجزار يقول: "وحكى لي بعض الأفاضل أنه جمع مرثي حمار أبي الحسين الجزار في مجلدة جيدة، ولم أرها أنا"<sup>(٢)</sup>. وقد فقدت تلك المجلدة، ولم يبق منها إلا ما عثر عليه من أشعار في كتب الأدب والتاريخ، ولكنها لا تشكل بمجموعها مجلدة، أو جزءاً صغيراً منها. ومن الأمثلة على اختزال مرثي الحيوان ما قيل بحق حمار السراج الوراق، فقد ذكر أنه سقط في بئر ونفق، فنظم الصاحب تاج الدين بن حنا أبياتاً يعزي الوراق به، فأجابه الأخير بقصيدة طويلة على وزنها، إلا أنهم لن يثبتوا منها سوى تسعة أبيات.<sup>(٣)</sup>

وقد اشتهر في هذا الاتجاه من الرثاء عدد من الشعراء، ومنهم بالإضافة إلى الجزار والوراق وتاج الدين بن حنا، ابن نباتة، وناصر الدين بن النقيب، وشمس الدين بن دانيال وغيرهم، وكان الأخير أكثرهم قولاً فيه، فقد عثر على ثلاث قصائد كاملة من شعره الذي جمعه الصفدي، اثنتان في رثاء إكديشة، وواحدة في رثاء ثور القاضي شرف الدين بن زنبور. وإلى جانب تلك الحيوانات، رثى الشعراء الخيل والبغال والحمير، في حين اختفت الأشعار التي ترثي البعير أو الناقة أو الطيور وغيرها من الحيوانات.

وقبل الشروع في تناول مضامين تلك المرثي يجدر السؤال عن البواعث التي

حفزت الشعراء على رثاء الحيوان؟

(١) انظر في ذلك طه عبد الرحمن، ملامح من رثاء الحيوان في الشعر العباسي، ص ٤٧٢، مظفر غام، الرثاء في شعر العصر العباسي الأول، ٤٣٤، ٤٣٦، د. محمد هدارة، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص ٤٦٩.

(٢) الصفدي، الغيث المسحوم، ٢٣٥/٢.

(٣) انظر الصفدي، أعيان العصر، ١٢٣/٥، الوراق، ٢١٩/١، الكشي، فوات الرقيات، ٢٥٧/٣-٢٥٨.

إن من يقرأ التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي للعصر المملوكي الأول، ويعكف على النظر في حياة الأدباء الذين نظموا في هذا اللون من الرثاء، ويتعرف إلى مذاهبهم الأدبية يدرك ببساطة الأسباب التي جعلتهم يطرقون هذا الموضوع، وهي أسباب متنوعة منها:

أولاً: روح الفكاهة والدعابة التي صبغت جزءاً كبيراً من أشعار ذلك العصر، وجعلت منها تياراً قائماً بذاته له أدياؤه، وأساليبه وطرق التعبير الخاصة به، ولعل هذه الروح الفكاهة الساخرة لم تتسع في عصر كما اتسعت في عصر المماليك، فمن يتصفح آثار الشعراء فيه "لا يلبث أن يغرق في الضحك لكثرة ما دأبوا عليه من مزاح ومداعبات في كل مكان، وفي كل نادٍ لاهمّ للشعراء إلا أن يتحفوا معاصريهم بنكتهم ونوادرهم"<sup>(١)</sup> ولكنهم لم يقصدوا في كثير من الأحيان إلى الإضحاك والتندر بحد ذاته، وإنما هناك رسالة يسعون إلى تبليغها، فكاهتهم كانت مرآة تعكس الواقع وجوانبه الاجتماعية والنفسية والفكرية والسياسية، فهي تؤدي "أغراضاً مختلفة منها الدلالة على وضع الشاعر ونفسيته، ومنها الدلالة على المجتمع والعصر، ومنها انتقاد المظاهر الخاطئة والتنبيه عليها، وإظهار عبثية الحياة في عصر اختلطت فيه الأمور وشاعت المظالم، واشتد الفقر، ومنها ضرورة الضحك لتخفيف الكبت الذي يحسه الشاعر، ويعاني منه الناس"<sup>(٢)</sup> إن تلك الدلالات هي التي تفسر رواج شعر الفكاهة في ذلك العصر، وفي غيره من العصور التي اتسمت بالضعف والتفكك سواء على المستوى السياسي أو الاجتماعي، ذلك أنها بما تقدمه من هزل ودعابة تعيد للنفس توازنها وتخرج الإنسان من دائرة الحرج فتتحول المأساة إلى ملهاة"<sup>(٣)</sup>.

وقد كان رثاء الحيوان إحدى وسائلهم المتنوعة في التفكك، ونقد أوضاعهم الشخصية، ووصف فقرهم، ومعاناة الناس في المجتمع المحيط بهم، ونجحوا في رسم صورة واضحة لتلك الحياة المريرة، وساعدهم على ذلك النجاح أمران:

الأمر الأول: أنهم يعبرون عن واقع حقيقي كانوا يعانونه، فجلهم من أصحاب الحرف الذين عاشوا حياة فاقة وشظف وفقر مدقع، فابن دانيال كان كحالا، وأبو الحسين

<sup>(١)</sup> د. شوقي ضيف، الفكاهة في مصر، ص ٥٤.

<sup>(٢)</sup> د. محمود سالم، أدب الصناعات وأرباب الحرف، ص ٢٨٥.

<sup>(٣)</sup> د. رياض فريجة، الفكاهة في الأدب الأندلسي، ص ٦.



الجزار كان جزاراً، واشتغل السراج الوراق بالوراقة، وهذه المهنة كانت تدر عليهم دخلاً شحيحاً، ولذا أكثروا من الشكوى ووصف حياتهم البائسة وفقدهم في شعرهم، وعبروا عن ضيقهم وعوزهم، فابن دانيال مثلاً اتخذ من شعره "وسيلة للتفريج عن هموم النفس، وكبح جماحها في وقت لا يجد فيه متنفساً لضيقه وبرمه بالحياة".<sup>(١)</sup> فقد ظل "يعاني من الفقر والبؤس والحرمان فترة تطول وتقتصر حسب الظرف الذي يقتضيه تحصيل المال وعدمه".<sup>(٢)</sup>

يقول معبراً عن فقره ورزقه الشحيح:<sup>(٣)</sup>

يا سائلني عن حرفتي في الورى      واضيعتني فيهم وإفلاسي  
ما حال من درهم إنفاقه      يأخذه من أعين الناس<sup>(٤)</sup>

وعاش مثله أبو الحسين الجزار إذ كان فقيراً مرتزقاً بشعره في أول حياته، واحتاج في آخر عمره إلى الاستجداء بغير الشعر، وكان كثير التبذير لا تكاد خلته تسد أبداً، ولا يغفل طلبه، ولكن بأحسن الصور".<sup>(٥)</sup>

الأمر الثاني: أن أصحاب الحرف هؤلاء تميزوا بالدمائة وخفة الظل وروح التندر والدعابة، فشكلوا بمجموعهم مدرسة للأدب الساخر في ذلك العصر، وقد أفاض المؤرخون في وصف مجونهم والحديث عن قصصهم الساخرة، وبينوا دورهم في إتخاف أبناء مجتمعهم وإضحاكهم بما قدموه لهم من أدب ساخر، فقد قالوا عن ابن دانيال: إنه "صاحب النكت الغريبة العجيبة ٠٠٠ وكان كثير المجون والدعابة"<sup>(٦)</sup>، وأنه "حين يصور كثيراً من أحوال عصره في شعره ونثره يميل إلى المجون واللهو والخلاعة".<sup>(٧)</sup> ويدل على خفة ظله وتحامقه أنه كان يرفقه عن الشعب المصري في وقته ويسليه عن طريق تمثلياته المعروفة بـ "خيال الظل"، إذ كان هو الممثل والمؤلف في آن واحد. وقد جعلت

<sup>(١)</sup> الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ٦ من مقدمة المحقق.

<sup>(٢)</sup> المصدر نفسه، ص ١٧ من مقدمة المحقق.

<sup>(٣)</sup> الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ٩٢-٩٣، أعيان العصر، ٤/٤٣١، الواقي، ٥/٥٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٩/١٥٢.

<sup>(٤)</sup> إشارة إلى حرفة الكحالة التي كان يمتنعها.

<sup>(٥)</sup> الكتيبي، فوات الوفيات، ٤/٢٧٧-٢٧٨.

<sup>(٦)</sup> ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٩/١٥١ وانظر الصفدي، أعيان العصر، ٤/٤٢٢، الواقي، ٣/٥١ المختار من شعر ابن دانيال، ص ٦ من

مقدمة المحقق، المقريري، السلوك، ٢/٤٦٢، شوقي ضيف، الفكاهة في مصر ص ٨٢.

<sup>(٧)</sup> الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ٨ من مقدمة المحقق.

تلك الروح الساخرة أدياء عصره "يخشون دعابته، أو يقصدون إليها، ويثيرونه من أجلها"،<sup>(١)</sup> وهي التي دعت بعض الباحثين إلى القول: إنه كان "امتداداً لتلك المدرسة التي تزعمها أبو نواس، ومطيع ابن إياس، والحسين بن الضحاك وغيرهم من شعراء المجون في العصر العباسي".<sup>(٢)</sup> وقيل في أبي الحسين الجزار ما قيل في ابن دانيال فقد كان "حلو النادرة صاحب مجون وزوايد"،<sup>(٣)</sup> و "ظريفاً حلو المحاضرة"،<sup>(٤)</sup> وكذلك وصف الأديب سراج الدين الوراق.<sup>(٥)</sup>

وحين مزج هؤلاء الشعراء بين دعابتهم وفقدهم وبراعتهم الفنية خرجت مراثي الحيوان عندهم تعكس روحهم الساخرة، وتعبّر عن تعاستهم وعوزهم، وتكشف عن حال الناس في واقعهم وما هم عليه من شظف وفقر، وقد وصلوا في أشعارهم تلك "إلى مرتبة عالية من الإبداع لأنهم لا يتكلفون القول فيها، ولا يدعونها ادعاءً، وإنما يقررون حالاً موجودة وإن زادها الفن مبالغة، وزادتها السخرية طرافة".<sup>(٦)</sup> واستطاعوا من خلال هذا الأسلوب أن يعبروا عن مكنونات نفوسهم، ويصوروا نقمتهم على أنظمة الحكم دون أن يتمكن أحد من معاقبتهم أو أخذهم بما يقولون، فرثاء الحيوان كان بمثابة التقية التي تحمي أولئك المبدعين من بطش السلطة الحاكمة.

ثانياً: لا يعني ما سبق أن الشعراء لم يرثوا حيواناتهم بقصد الإطراف والتلمح والتسلية فحسب، وإنما فعلوا ذلك، فهناك بعض المقطوعات والقصائد لا تحمل في مضمونها دلالات نقدية، ذلك أنها كانت مادة لمطارحاتهم الشعرية، فقد كان هؤلاء الأدياء من أصحاب الحرف كثيراً "ما يتبادلون الرسائل الشعرية مادحين أو شاكرين أو ممازحين، ومؤكدين صفاء العلاقة الإنسانية بين أبناء الهم الواحد والفئة الواحدة"<sup>(٧)</sup>، وهذا ما حدث

(١) د. محمود سالم، أدب الصناع وأرباب الحرف، ص ٢٨٠.

(٢) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ٨ من مقدمة المحقق.

(٣) الكندي، فوات الوفيات، ٢٧٧/٤، ابن سعيد، المغرب قسم شعراء مصر، ٢٩٧/١، ابن حبيب، تذكرة النبي، ٦٠/١.

(٤) العيني، عقد الجمان، ٢٨٠/٢.

(٥) انظر ابن حبيب، تذكرة النبي، ٣٣١/١، الكندي، فوات الوفيات، ١٤٠/٤، ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٣١٦/١، ابن إياس، بدائع

الزهور، ج ١ ق ٣٨٨.

(٦) د. محمود سالم، أدب الصناع وأرباب الحرف، ص ٢٧١.

(٧) المرجع نفسه، ص ١٠٨، ٢٧٢، وانظر ابن حبيب، تذكرة النبي، ٣٣٤/٦٠-١، الكندي، فوات الوفيات، ٢٧٨/٤ ابن تغري بردي، النجوم

الزاهرة، ٢٩٢/٧ د هنريت الصايغ، اتجاهات الشعر، ص ٢٤٩

مع أبي الحسين الجزار فما إن مات حماره حتى راح الأدباء ينثالون عليه بأشعار التعزية التي هدفوا من ورائها الإضحاك المحض وهجاء ذلك الشاعر والسخرية منه.

ثالثاً: رثى شعراء ذلك العصر الحيوان رغبة منهم في "تناول مواضيع لم يطرقها غيرهم لإبراز قدرتهم في الاتجاه إلى موضوعات تتسم بالجدة والطفرة".<sup>(١)</sup>

رابعاً: ويمكن الوقوف على الأسباب التي حفزت الشعراء على رثاء حيواناتهم بالنظر إلى أهميتها في حياتهم، ودورها العظيم في مجتمعهم، فقد كانت الدابة في العصر المملوكي الأول على درجة كبيرة من الأهمية، فهي تساعد صاحبها على القيام بالكثير من أعباء الحياة كالزراعة وحرث الأرض وسقيتها، والتنقل بين الأحياء والمدن والقرى، كما أنها كانت رمزا من رموز الطبقة والغنى آنذاك، وركوبها من عوامل المفاخرة والتباهي في ذلك المجتمع، وهذا ما عبر عنه أبو الحسين الجزار في قوله يتوسل ممدوحه: <sup>(٢)</sup>

فاغنني عن سؤل كل لئيم      قد علا قدره وإن كان سيفلة  
أنا فيهم عار وماشٍ وغيري      وهو دوني له ثيابٌ وبغلة

ويدلل على أهميتها في المجتمع المملوكي سعة انتشارها، فقد ذكر ابن بطوطة في رحلته " أن بمصر من السفائين على الجمال اثني عشر ألف سقاء، وأن بها ثلاثين ألف مكار"<sup>(٣)</sup>، ويؤكد ذلك الدكتور سعيد عاشور إذ تحدث عن كثرة الحمير آنذاك فقال: "أما الحمير فبلغت عددا كبيرا لأنها قامت بدور سيارات الأجرة في عصرنا، فعني أصحابها برشمها وتطهيمها حتى يستأجرها الناس في قضاء حاجاتهم وسفرياتهم نظرا لسرعتها ووداعتها"<sup>(٤)</sup>، وقال: "وقد أدى ضيق الطرقات وكثرة ما فيها من مارة ودواب إلى أن شدد المحتسب على أصحاب الدواب بأن يشددوا في أعناق دوابهم الأجراس وصفاقات الحديد والنحاس ليعلو جلبة الدابة إذا عبرت السوق"<sup>(٥)</sup>، وأكثر أدباء ذلك العصر من

(١) د. هنريت الصايغ، اتجاهات الشعر، ص ٢٤٩.

(٢) الكنتي، فوات الوفيات، ٢٨٧/٤، ابن سعيد، المغرب قسم شعراء مصر، ٣٠٤/١.

(٣) ابن بطوطة، الرحلة، ص ٢٥.

(٤) د. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ٨٤.

(٥) المرجع نفسه، ص ٨٤ وانظر ص ٨٢.

وصفها والحديث عنها في أدبهم<sup>(١)</sup>، على العكس مما صرّحت به بعض الدراسات الحديثة<sup>(٢)</sup>، وقد كان الأدباء أصحاب الحرف ممن صوروا مكانتها في حياتهم، وكشفوا عن دورها في توفير سبل الراحة لهم، فهذا أبو الحسين الجزار يقول: (٣)

لئن قطع الغيثُ الطّريقَ فبغلتي وحاشاك فبقايي وجوختي الدّارُ

ويعكس ابن دانيال حالة الذل التي آل إليها بعدما ترك ركوب الدواب وأضحى راجلاً: (٤)

قُلْتُ لَمَنْ أَبْصَرَنِي مَاشِيًا      بَعْدَ رُكُوبِ الْمُهْرِ وَالْجَحْشِ  
مَا طَبَعِي الذَّلَّ وَكُنْتُ سَيِّ      أَمْشِي مَعَ الذَّهْرِ كَمَا يَمْشِي

ومن الطبيعي بعد ذلك أن يكون موت تلك الحيوانات خسارة لأولئك الشعراء، فهي التي تضمن لهم الاحترام والتقدير، وبموتها أضحوا أذلاء، وفقدوا المعين الذي لا يرجون شراء غيره لبؤسهم وفقرهم، ولذلك قاموا يرثونها ويكون أنفسهم من خلالها.

إن الحديث عن البواعث والحوافز السابقة ليس كلاماً نظرياً، وإنما تؤديه وتدعمه النصوص الشعرية، ومنها مرثي الحيوان التي نظمها شمس الدين بن دانيال، فقد رثى هذا الشاعر إكديشه بقصيدتين جميلتين نظمها بأسلوب قصصي ساخر، فصور ما عاناه ذلك الحيوان من جوع، وما أصابه من أمراض أدت به إلى الهلاك. وتبدأ القصيدة الأولى حيث أعلن الشاعر عن حزنه على إكديشه، فطلب من عيونه استدرار الدموع الغزار، وبين أن الجوع هو السبب الحقيقي وراء نفوقه، فقد اضطره إلى أكل روثه وزبله حتى أضحى ممغوصاً وفاقداً القدرة على الشم، ثم أخذ في تصوير ضعفه والحديث عن عيوبه، فتبين

(١) انظر الحلبي، الديوان، ص ٢١٧-٢٤٦ الصفدي أعيان العصر، ٢١/٥، الكتي، فوات الوفيات، ٢٨٩/٤ الغزولي، مطالع البدر، ١٩١/٢-

١٩٢، ٢٠٢-٢٠٣.

(٢) انظر ياسين الأيوبي، آفاق الشعر في العصر المملوكي، ص ١٩٦.

(٣) الكتي، فوات الوفيات، ٢٨٩/٤.

(٤) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ٢١٧.

أنه كان حين يركبه في الغزو دائم التوجس والخوف، ولا أمل له بالنجاة، ولكنه مع ذلك يعترف بفضلله عليه إذ كان عوناً له وصديقاً وفيها، يقول: (١)

يا عينُ جودي بدمعٍ منك مُنْسَجِمٍ  
قضى له الجوعُ أن يقضى بلا سببٍ  
ما زال يَسْتَأْفُ زبلاً إذ يروث إلي  
كم وقعت لي عليه في الغزاةِ وكَم  
يرجو الفرارَ سوى مَنْ كان رَأْيَهُ  
قد كان عوني على ضَعْفٍ به زَمناً  
وأبكي على فَقْدِ إكديشٍ لنا هَرَمٍ  
سواه لا مِن أذى داءٍ ولا أَلَمٍ  
أن ماتَ من علةِ الأَمْعَاصِ والخَشَمِ (٢)  
جَفَلتُ مِن جَفَلَةٍ كالتَّوَمِ فِي الحُلَمِ  
في الحَرْبِ فَهُوَ شَهِيدٌ غيرُ مُنْهَزِمٍ  
حَتَّى غدا زَمناً (٣) بِالوَيْلِ ثُمَّ عَمِي

ويرسم الشاعر صورة ساخرة ومؤلمة لإكديشه، إذ كان في اسطبله كالخلد يبحث تحت أكوام الزبل عن طعامه، ويصف ما نزل به من عمى وصمم وقد تجاوز التسعين من عمره، وتبدو هنا روح التندر جلية، فلم يسمع عن إكديش بلغ ذلك العمر. ويختم الشاعر قصيدته إذ جعل ذلك الحيوان رفيقه، يقول: (٤)

وَصَارَ فِي عَرِصَةِ الإِسْطَبْلِ تُبْصِرُهُ  
وَمَاتَ فِي آخِرِ التَّسْعِينَ ذَا هَرَمٍ  
فَبِتُّ أَبْكَى لِأَيَّامِ لَنَا سَلَفَتِ  
إِنَّ الرِّفِيقَ لِيَبْكَى لِلرِّفِيقِ وَقَدْ  
كَالْخُلْدِ يَبْحَثُ فِي الأَزْبَالِ والأَكْمِ  
وَذَا خَنَانٍ وَذَا مَعْلٍ (٥) وَذَا صَمَمٍ  
لِحِفْظِ عَهْدِي وَمَا بِالْعَهْدِ مِنْ قَدَمٍ  
قالوا: المعارفُ بَيْنَ النَّاسِ كالأذَمِّ

تكشف القصيدة السابقة عن مراد ابن دانيال من رثاء إكديشه، فليس همه البوح بأحزانه وأشجانه عليه، ذلك أن موت حيوان هرم كهذا فيه كل تلك العلل والأمراض لا يعني له شيئاً، ولكنه أراد من ذلك إبراز قدرته على في استغلال المواقف وجعلها مادة مسلية تغرق متلقيها في الضحك، وتخفف عنه أعباء الحياة، هذا فضلاً عن أنه اتخذ من إكديشه رمزاً لنقد أوضاعه الشخصية، وبيان أنه ليس وحده الذي يعاني مرارة الجوع

(١) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ٢١٦.

(٢) "داء يعترى الأنف" الرازي، مختار الصحاح، مادة "حشم".

(٣) آفة في الحيوانات مستدعة. انظر الرازي، مختار الصحاح، مادة "زمن".

(٤) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ٢١٦-٢١٧.

(٥) داء في البطن، انظر ابن منظور، لسان العرب "معل".

والفقر، وإنما شاركه في ذلك حيوانه، فهو لو كان غنيا لما تركه ينفق جوعاً، وتطبق الصور السابقة على قسم كبير من أبناء مجتمعه ودوابهم، فمن المؤكد أنهم كانوا يتضورون جوعاً مثله، ويعانون منه كما يعاني.

أما القصيدة الثانية، فإنها تزيد على الأولى جمالاً وبراعة في التصوير، وتبرز فيها معالم التجديد بصورة جلية، ويبدوها الشاعر بالحديث عمّن بكى ذلك الإكديش، فإذا كان الإنسان يندبه أهله وأقاربه ومن لهم علاقة به، فإن إكديشه بكته الخيول ورجال الحرب والغزو، فهذه المعاني جديدة نابعة من واقع ذلك الحيوان، ثم ينتقل الشاعر إلى وصف فقره حين صور عجزه عن توفير القوت لإكديشه، الأمر الذي دفعه إلى جمع زبله وتقديمه طعاماً له، وتظهر المعاني الجديدة إذ أكد الشاعر ضعف إكديشه وهرمه، فرسم له صورة شيخ كبير يتزياً بزّي الحكمة والذكاء، قد عمل فيه الهزال وتقدم العمر عمله، فأفقدته القدرة على الحركة وورود الماء، ويستفيد الشاعر من المتنبّي لا ليصف شجاعة إكديشه، وإنما ليكشف عن عجزه عن المواجهات في الحروب، فإذا كان الأبطال يصلون ويجولون بدوابهم في ساحة المعركة، فإن إكديشه جامد كالحائط لا يقوى على الحركة، وقد بلغ به الضعف أن جعل كلاب السوق تتغامز عليه، وهنا تبرز المفارقة في هذه القصيدة، فإذا كان ذلك الحيوان قد وصل إلى تلك الحالة من السقم والإعياء فلمّ البكاء والتحسر على فقده، يقول: (١)

بَكَتْ فَقَدَ إِكْدِيشِي خِيولُ المَرابِطِ	وَناحَ عَلَيْهِ كلُّ غَازِ مُرابِطِ
لَقَد كانَ شِخاً ما يَزالُ مُحَنَكاً	بِتَجْرِبةِ ذا فِطنةِ بَشرائِطِ
وَكانَ إِذا ما رَأَتْ أَجمَعُ رَوْتَه	بِكَفَيِّ وَأحويهِ لَه في الخَرائِطِ
وما كانَ مِنَ فَرطِ الشَّجاقِطِ وارِداً	سِوى ما أسقىهِ لَه بِالْمَساعِطِ
وَكَنتُ عَلَيْهِ راکِباً مِثْلَ راجِلِ	لِحَقَرَتِهِ أو صاعِداً مِثْلَ هابِطِ
وما سَقَّتُهُ في السَوقِ إِلا تَغامَزتُ	عَلى أَخذِهِ مِنّي كِلابُ المَسافِطِ

ثم يرسم الشاعر بأسلوب القصة والحوار لوحة جميلة تعبر عن حال إكديشه الجائع، وشكواه إلى صاحبه ونقمة عليه، ومن ثم موته واجتماع الكلاب الجائعة لأكله من كل حذب وصوب، يقول: (٢)

(١) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ١٥٩-١٦٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٠-١٦١.

وَكَمْ قَالَ لِي إِذْ كَانَ يَأْكُلُ زَيْلَهُ  
فَقُلْتُ لَهُ يَكْفِيكَ زَيْلُكَ بَلْغَةً  
فَهَمَلَجَ مِنْ غَيْظٍ عَلَيَّ بِرَفْسَةٍ  
وَقَالَ لِحَاكِ اللَّهِ مِنْ مُتَّصِنِعٍ  
وَبَطْنِي خَالٍ مِثْلَ رَأْسِكَ فَارْعُ  
فَأَغْلَقْتُ لِلإِسْطَبِلِ بَاباً مَوْثِقاً  
فَأَصْبَحَ مَرْفُوعَ الْقَوَائِمِ دَاعِياً  
وَعَايِنْتَهُ كَالطَّبْلِ مَنْتَفِخاً وَقَدْ  
وَجَاءَتْ كِلَابُ السُّوقِ مَا بَيْنَ لَاهِثٍ  
فَأَعْلَيْتُ صَوْتِي بِالْبُكَاءِ لَفَقْدِهِ

أَتَمَعْنِي لِلجُوعِ مِنْ أَكْلِ غَائِطِي  
إِذَا عَزَّ مَا تَقَاتَهُ كَالْمَغَالِطِ  
وَقَدْ كَانَ لَوْلَا غَيْظُهُ غَيْرَ نَاشِطِ  
يَصُوقُنِي بِالْمَسْحِ مِثْلَ الْمَوَاشِطِ  
عَلَى أَنَّهُ مِنْ حَرْقَةٍ مِثْلَ شَائِطِ  
وَعَادَرْتُهُ فِي زَيْلِهِ أَيِ خَابِطِ  
عَلَيَّ وَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى رَدِّ فَاوْطِ  
أَضِيفَ إِلَى مَوْتِي الْخِيُولِ السُّوَاقِطِ  
طَمَاعِيَةً فِيهِ وَمَا بَيْنَ لَاعِطِ  
فَأَهَا عَلَيْهِ مِنْ أُنَيْسٍ مَخَالِطِ

إن هذه القصيدة غنية بدلالاتها، فهي تفوق سابقتها في ذلك، فواضح أن الشاعر يسخر من نفسه، ومن إكديشه، ومن مجتمعه، وواضح أنه يوجهها إلى الناس كي يستمتعوا وينفكها بمعانيها الساخرة، وتكمن براعة الشاعر في هذه القصيدة أيضاً أنه استطاع أن يتخذ من إكديشه رمزاً يعبر عن بؤسه وسوء حاله، وعن الثورة التي قد يسببها الجوع، فكانه يحذر أصحاب السلطة من تماديهم وظلمهم للناس، وينذرهم مما قد يفعله الجوع بالشعب، وهو حين يعطي صورة للكلاب الجائعة التي اجتمعت لتأكل إكديشه الميت يدلل على أن الجوع قد تجاوز الناس إلى حيواناتهم، يهددها بالانقراض والهلاك، ويؤكد ذلك حين بين أن إكديشه ليس وحده الذي نفق منه، "ولكنه أضيف إلى موتى الخيول السواقط". ونال الحمار عناية الشعراء فكان أكثر حيوان حظي بمراثيمهم، فقد اتخذوا من موته مادة لمراسلاتهم الشعرية، وإظهار روحهم الفكاهة، ونقد بعض المظاهر الاجتماعية في عصرهم، فهذا حمار سراج الدين الوراق يسقط في بئر وينفق، فينظم الصحاح الوزير تاج الدين بن حنا قصيدة يعزّي بها ذلك الأديب، ويصور فيها الحالة المتردية التي وصل إليها الحمار من شدة جوعه وعطشه، الأمر الذي أجبره على الانتحار ورمي نفسه في البئر، ثم يتوجه بسهام النقد اللاذع إلى صاحبه الوراق، فيرميه بالبخل والتقصير في رعاية حماره، ولا يكتفي الوزير بذلك، ولكنه يهاجم قوم الشاعر مباشرة، ويقصد بهم العرب، فيبين

أَنَّ أُمَّةً نَفَقَ حِمَارُهَا جُوعًا وَعَطْشًا قَدْ حَطَّتْ مِنْ قَدْرِ حَاتِمِ الطَّائِي الَّذِي مَلَأَ صَبِيئَهُ الْأَرْضَ  
لجوده وكرمه، وضرب به المثل،<sup>(١)</sup> يقول: <sup>(٢)</sup>

يَفْدِيكَ جَحْشُكَ إِذَا مَضَى مَرْدِيًّا  
عَدِمَ الشَّعِيرَ فَلَمْ يَجِدْهُ وَلَا رَأَى  
وَرَأَى الْبُؤَيْرَةَ غَيْرَ خَافٍ مَاوَهَا  
فَهُوَ الشَّهِيدُ لَكُمْ بِوَأْفِرِ فُضْلِكُمْ  
قَوْمٌ يَمُوتُ حِمَارُهُمْ عَطْشًا لَقَدْ

وَيَتَالِدِ يُقْدَى الْأَدِيبُ وَطَارِفِ  
تَبْنَأُ وَرَاحَ مِنَ الظَّمَا كَالنَّالِفِ  
فَرَمَى حُشَاشَةَ نَفْسِهِ لِمَخَاوِفِ  
هَذِي الْمَكَارِمُ لَا حَمَامَةَ خَاطِفِ<sup>(٣)</sup>  
أَرْزُو بِحَاتِمِ فِي الزَّمَانِ السَّالِفِ

ويرد سراج الدين الوراق على قصيدة الوزير ابن حنا بقصيدة أخرى يرثي بها  
حماره، وصفت بأنها في غاية الحسن،<sup>(٤)</sup> عبر فيها عن حزنه وأساه على ذلك الحمار،  
وأضفى عليه سمات معنوية تقرب من السمات الإنسانية، فبين أنه كان صابرا على عسوه  
ويسره، ومسلما زمام أموره له، ومقتديا به في القناعة، ومشاركا إياه في السراء  
والضراء، واستمر على طاعته حتى سقط في البئر ونفق، ثم ألقى الشاعر الضوء على  
أهمية ذلك الحمار بالنسبة له، حين تحدث عن الوظائف المنوطة به مثل تحريك السواقي  
ونقل الماء، ولذلك كله استحق رثاء صاحبه وبكاءه<sup>(٥)</sup>، يقول: <sup>(٦)</sup>

وَلَكُمْ بَكَيْتُ عَلَيْهِ عِنْدَ مَرَابِيعِ  
يُؤْسِي عَلَى يُسْرِي وَعُسْرِي صَابِرًا  
وَقَدْ اسْتَمَرَ عَلَى الْقَنَاعَةِ يَفْتَدِي  
وَدَعَاهُ لِلْبُئْرِ الصَّدَى فَأَجَابَهُ  
وَهُوَ الْمُدْلُ بِالْفَةِ طَالَتْ وَمَا  
وَمُؤَافِقِي فِي كُلِّ مَا حَاوَلْتُهُ

وَمَرَاتِعِ رَشَّتْ بِدَمْعِي السَّارِفِ  
بِمَعَارِفِ تَلْهِيهِ دُونَ مَعَالِفِ  
بِي وَهِيَ فِي ذَا الْوَقْتِ جَلُّ وَظَانِفِي  
وَاعْتَاقُهُ صَرَفُ الْجِمَامِ الْأَرْفِ  
أُنْسَى حَقُوقَ مَرَابِعِي وَمَأَلْفِي  
فِي الدَّهْرِ غَيْرَ مُؤَافِقِي وَمُخَالِفِي

<sup>(١)</sup> انظر د. محمود سالم أدب الصناعات وأرباب الحرف، ص ٢٦٧.

<sup>(٢)</sup> الصفدي، أعيان العصر، ١٢٢/٥، الواقي، ٢١٩/١، الكتي، فوات الوفيات ١٥٧/٣.

<sup>(٣)</sup> قوله: لا حمامة خاطف، إشارة إلى الأبيات التي مدح بها ابن عيين الإمام فخر الدين الرازي، وقد جاءت حمامة فدخلت حجره هربا من

جارج كان حلقها. انظر الصفدي، الواقي، ٢١٩/١٠، أعيان العصر ١٢٢/٥-١٢٣.

<sup>(٤)</sup> انظر الصفدي، الواقي، ٢١٩/١، الكتي، فوات الوفيات، ٢٥٧/٣.

<sup>(٥)</sup> انظر د. محمود سالم، أدب الصناعات وأرباب الحرف، ص ٢٦٧.

<sup>(٦)</sup> الصفدي، الواقي، ٢١٩/١، أعيان العصر، ١٢٣/٥، الكتي، فوات الوفيات، ٢٥٧/٣-٢٥٨.



دوران ساقية لطاحون لنقل  
لكن بماء البئر راح بنقله

الماء في شات ويوم صائف  
فثلاث شامات<sup>(١)</sup> بموت جارف

ويموت حمار أبي الحسين الجزار فيهب  
ما كل حين تتجح الأسفار  
خرجي على كتفي وها أنا دائر  
ماذا علي جرى لأجل فراقه لم أنس  
حدة نفسه وكأنه وكانه  
وتخاله في القفر جنأ إنما  
وإذا أتى للحوض لم يخلع له  
ويلين في وقت المضيق فيلتوي  
ويشير في وقت الزحام برأسه  
لم أدر عيباً فيه إلا أنه  
ولقد تحامته الكلاب وأحجمت  
راعت لصاحبه عهداً قد مضت

نفق الحمار وبارت الأشعار  
بين البيوت كأنني عطار  
وجرت دموع العين وهي غزار  
من أن تسابقه الرياح يغار  
ما كل جن مثله طيار  
في الماء من قبل الورود عذار  
فكأنما بيديك منه سوار  
حتى يحد أمامك الخطار  
مع ذا الذكاء يقال عنه حمار  
عنه وفيه كلما تختار  
لما علمن بأنه جزار

لقد مزج الجزار في هذه القصيدة بين دعابته وخفة ظله وبين براعته الفنية، فإذا بها كما يقول ابن أبي حجلة التلمساني من أطرف ما مرّ في هذا الباب<sup>(٢)</sup>، ويكشف الشاعر عن الخسارة الكبيرة التي مني بها بعد موت حماره، ويقارن بين حاله قبل موته وبعده، ويبين أنه كان معيناً له في سفره وتجوّاله، ولذا غدا عقب نفوقه راجلاً يحمل متاعه على كتفه، ويتجول به بين البيوت، وتلك المعونة التي كان يقدمها الحمار للشاعر هي التي دعت إلى بكائه والوفاء له، وتذكّر خصاله الحميدة، إذ كان يسابق الريح والجن في سرعته، و يخلو من العيوب، ويتمتع بذكاء نادر، ويصوره بعد موته تتحاشاه الكلاب، ولا تجرؤ على الاقتراب من رّمته على الرغم من رغبتها فيها، ذلك أنها حفظت عهد صاحبه

(١) "والمراد شاه مات، حسب ما يقال في لعب الشطرنج" الكتي، فوات الوفيات، ٢٥٨/٣، حاشية ١.

(٢) الصفدي، الغيث المسحوم، ٢٣٥/٢، الغزولي، مطالع البدر، ٢٠٢/٢.

(٣) ابن أبي حجلة، سلوة الحزين، ص ١٢٤.

الجزار الذي كان يعطف عليها، ويطعمها ما تبقى من أشلاء الحيوانات التي لا حاجة له فيها إن هذه القصيدة فضلا عما فيها من فكاهاة وإطراف تعكس أهمية الحمار في المجتمع المملوكي، وتكشف عن دوره، في خدمة سكانه والتخفيف عنهم، وهي تصلح أن تكون دليلا ووثيقة تشهد على جانب من جوانب حياتهم في ذلك المجتمع الذي عاش فيه الجزار، وسبر أغواره، والتقط صورته من حوارية وطريقة.

وقد جعل الشعراء من موت ذلك الحمار مادة لمبارياتهم الشعرية، إذ نظموا مقطوعات كثيرة بعثوا بها إلى الجزار ليعزوه بحماره، ولم يكن قصد الشعراء من ذلك مواساة صديقهم وتسليته، وإنما هدفوا منها إظهار روح الفكاهاة والدعابة والسخرية منه حتى وصلت في بعضها إلى درجة الهجاء، ويوضح ذلك ما كتبه له بعض أصحابه: (١)

ماتَ حِمَارُ الأَدِيبِ قُلْتُ لَهُمْ      مَضَى وَقَدَفَاتٍ فِيهِ مَا فَاتَا  
مَاتَ فِي عِزِّهِ اسْتِرَاحَ وَمَنْ      مَنْ خَلَّفَ مِثْلَ الأَدِيبِ مَا مَاتَا

فهذا هجاء مقذع وإهانة وصل فيه الشاعر إلى أن نسب الجزار إلى الحمار.

وقريب من المعنى السابق ما جاء في قول شرف الدين البوصيري حين عزاه: (٢)

فَلَا تَأْسَ يَا أَيُّهَا الأَدِيبُ      عَلَيْهِ فَللمُوتِ مَا يُولَدُ  
إِذَا أَنْتَ عِشْتَ لَنَا بَعْدَهُ      كَفَانَا وَجُودُكَ مَا نَفَقَدُ

وكان الجزار يرد عليهم إهانتهم فيواجههم الهجاء بهجاء مثله، وقد تجلّى ذلك حين

أجاب على سؤال رجل رآه ماشيا بعد موت حماره، فسأله عن حاله، فقال: (٣)

كَمْ مِنْ جَهُولٍ رَأَيْتُ      أَمْشِي لِأَطْلَبَ رِزْقَا  
فَقَالَ لِي: صِرْتُ تَمْشِي      وَكُلُّ مَاشٍ مَلَقَى  
فَقُلْتُ: مَاتَ حِمَارِي      تَعِيشُ أَنْتَ وَتَبْقَى

(١) الصفدي، الغيث المسجم، ٢٣٥/٢، ابن أبي حجلة، سلوة الخزين، ١٢٤، الغزولي، مطالع البدور، ١٩٢/٢.

(٢) الصفدي، الغيث المسجم، ٢٣٥/٢، الغزولي، مطالع البدور، ١٩٢/٢.

(٣) المصدر نفسه، ٢٣٤/٢ - ٢٣٥، ابن أبي حجلة، سلوة الخزين، ص ١٢٤.

ويظهر أن سائله أراد العبث به "فرد عليه هذا الرد المفحم، المتمثل في العبارة التي يتبادلها الناس في التعزية "تعيش أنت وتبقى"، وكأنه بهذا الرد جعله خلفاً للحمار الميت فأهانته، وأضحك الناس منه، مثلما أضحكهم من أديب مات حماره" (١).

ويظهر أن حمار كل من الجزار والوراق لم يكن وحده الذي عزي فيه الشعراء، فهذا الشاعر جمال الدين بن نباتة يعزي رجلاً بحمار له نفق، فيصور حزن صاحبه عليه، وبكاء الإسطبل الذي كان يعيش فيه، والحبال التي كانت تقوده، يقول: (٢)

مَضَيْتَ وَقَدْ كَانَتْ لِمَنْ أَنْتَ عِنْدَهُ      مَصَائِدُ نَرَجُو نَفْعَهَا وَنَطَارِدُ  
فَأَصْبَحَ بِيكِي وَالْمَجْرَ (٣) الَّذِي خَلَا      وَمَثَلُكَ مَنْ تَبْكِي عَلَيْهِ الْمَقَاوِدُ

ومن الحيوانات التي رثاها الشعراء "البغل"، فقد عثر على مقطوعة واحدة نظمها الشاعر ابن نباتة في رثاء بغل كان يعتمد عليها في رحلة تجارية، فنفتت معه في الطريق، ولكنه يقلل من قيمتها إذا ما قورنت بالربح الوفير الذي عاد به، يقول: (٤)

سَافَرْتُ لِلسَّاحِلِ مُسْتَبْضِعاً      قَصِداً وَحَمِداً حَسَنَ الْجَمَلِ  
فِيالَهُ مِنْ مَتَجَرِّ وَاْفِرِّ      مَا نَفَقْتُ فِيهِ سِوَى بَغَاتِي

ولم تحظ الخيول بعناية كبيرة من الشعراء على الرغم من دورها الكبير في ذلك العصر، وربما يفسر ذلك أن الشعراء الذين رثوا الحيوان كانوا من الطبقة الفقيرة التي كان مركوبها الحمار، ولم يكن يسمح لها بركوب الخيول، ذلك أنها كانت مركوب أرباب الدولة الذي يميزهم عن عامة الشعب، ويؤيد هذا الكلام أن المقطوعة التي وصلت في رثائها كانت للأمير الشاعر ناصر الدين بن النقيب، وهو أحد أرباب الدولة المملوكية، وفيها يقارن الشاعر بين حصانه الميت وبين الحي الذي يركبه، فيبين أن الأول كان

(١) د. محمود سالم، أدب الصناعات وأرباب الحرف، ص ٢٦٤.

(٢) ابن نباتة، الديوان، ص ١٦٤.

(٣) لم يعثر في المعاجم العربية على دلالة مناسبة لهذه الكلمة تناسب هذا السياق، ولعلها كلمة كان لها دلالة خاصة في ذلك العصر، وربما كانت بمعنى "إسطلبل" كما هو واضح من السياق.

(٤) الصفدي، المعث المسحوم، ٢/٢٣٥.

سريعا يسابق الريح والبرق، ويسخر من الثاني فيصوره مقيداً وعاجزاً عن الحركة، يقول: (١)

نَفَقْتُ لِي رَأْسٌ مِنَ الْخَيْلِ كَأَنْتَ      تَسْبِقُ الْبَرْقَ وَالرِّيَّاحَ الزَّعَازِعُ  
وابتلى الله في المشاعرِ أُخْرَى      بشقاقٍ لها عن المشي مانع  
وإذا قيلَ كم لك اليوم رأسٌ      قَلْتُ رَأْسٌ لَكِنْ بغيرِ كَوَارِعُ

ورثى الشاعر شمس الدين بن دانيال ثور القاضي شرف الدين بن زنبور بقصيدة وصلت إلينا كاملة، قصد الشاعر من قولها الوصف المحض، والتندر والفكاهة، وإبراز قدرته على توظيف ثقافته المتنوعة وبيئته المحيطة في التصوير والإتيان بالمعاني الجديدة الظريفة، وقد عبر فيها عن أحزانه وهي مشاعر زائفة لا حرارة فيها ولكنها من مقتضيات قصيدة الرثاء، ثم يبين المكانة العظيمة التي كان عليها ذلك الثور، ولكنه لم يعبر عنها بطريقة تقليدية، وإنما حاول التجديد، فعمد إلى قصة الإسكندر الكبير ذي القرنين ليربط بين شخصيته وشخصية ذلك الثور، فذو القرنين كان ذا قوة وبأس ونجدة وسيادة، اتخذ من القرنين شعاراً يضعه على رأسه ليرمز به إلى السيادة، وهكذا صور الشاعر ثور ابن زنبور، وليصوره الشاعر مقاتلاً عنيدا لا يقهر جعل من لونه الأبيض وما عليه من بقع حمراء بمثابة الدرع الذي يحميه، وتحدث عن ترفه حين صورته يتحلى بأنواع الزينة والأحجار الكريمة غالية الثمن، يقول: (٢)

على مثله ثوراً بكاي يزِيدُ      فَلَا بَرْدًا جَفْنَاي وهو يَجُودُ  
رُزْنَا بذي القرنينِ بأساً ونَجْدَةً      له عَدَدٌ من بأسه وعَدِيدُ  
بدا وهلالُ الأفقِ تاجَ لرأسه      ومن شَفَقِ درعٍ له وبُرُودُ  
وذي أربَعٍ قد قُمِعَتِ بزبرجدٍ      وهِيَّاهُ يَحْكِي وما أَقْلَ عَمُودُ  
وفي الجَزَعِ من رَوقيهِ شَبَّةٌ ولَوْنُهُ      عَقِيقٌ ونَظْمُ الوَدْعِ منه عَقُودُ  
خَلَا مِنْهُ بُرْجُ الثَّورِ والشَّرْفُ الَّذِي      سَعُودٌ لَهُ نَحْوُ العُلا وصُعودُ

(١) ابن حجة، كشف اللثام، ص ٢٨، الغزولي، مطالع البدر، ١٩٢/٢.

(٢) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ١٣٢.

ثم يسرد الشاعر محاسن ذلك الثور، ووظائفه التي كان يتولاها، فيصوره قويا تضطرب الأرض من حركته، يفوز دائما بمصارعات الثيران، ويدير الدولاب فيسقي الأرض ويرويها، وفي كل ذلك يلجأ الشاعر إلى المبالغة، ويستوحي معاني القرآن للتعبير عن مضامينه، وبلغ الأمر به أنه راح يتغزل بالثور كما يتغزل بالنساء، فوسمه بالنضارة والشباب، ووصف رضابه وشفتيه، ولذلك كله أدركته عين الحسد فأهلكته "وحزنا عليه حرمت البراهمة أكل لحم البقر، وبكته دواليب السقي، وأنت له الأتراس التي كان يجرها في البيادر، وهذه أمور معروفة، ربطها ابن دانيال بموت الثور عن طريق الإيham، فالبراهمة يحرمون أكل لحوم البقر منذ القدم، ولا علاقة لذلك بثوره، ودواليب الماء ترفع الماء وتنزله، والأتراس تصدر صوتا عند جرها، وقد تنبه ابن دانيال لذلك، فربطها بموت الثور ببراعة وفن"،<sup>(١)</sup> يقول:<sup>(٢)</sup>

فَكَمْ لِرِهَانٍ مِنْهُ فَرَّ مُحَارِبٌ      هزيماً وأدنى ما وراه بريدُ  
 وقالوا نراه يَنَحُّثُ الأَرْضَ نَاطِحاً      فَيَصْنَعُدُ نَحْوَ الجَوِّ مِنْهُ صَعِيدُ  
 فَقَلْتُ لَهُمْ يَبْغِي الَّذِي يَحْمِلُ الثَّرَى      بقرنيه فالأرضون منه تَمِيدُ  
 وما زال يسقي الحَرثَ رِيّاً فَأَخْصَبَتْ      مرابعُ منها قائمٌ وَحَصِيدُ  
 فَأَهَالَهُ رُودُ الشَّبَابِ أَخَالِمِي      شهى رَضَابِ المَرشَفِينَ بَرُودُ  
 رَمَتْهُ عَيُونُ الحَاسِدِينَ بِنَظْرَةٍ      فَلَيْتَ بَقَى دَهْرًا وَمَاتَ حَسُودُ  
 وَمِنْ أَجْلِهِ قَدْ حَرَمْتَ لَحْمَ مِثْلِهِ      بَرَاهِمَةٌ فِي شَرعِهَا وَهَنُودُ  
 بَكَتُهُ قَوَادِيسُ<sup>(٤)</sup> السَّوَاقِي بِأَدْمَعِ      غزارِ لها بين الحِيَاضِ مَدُودُ  
 وَأَنْتَ لَهُ الأَتْرَاسُ حَزْناً وَحَرْقَةً      وَذَابَ لَهُ قَلْبٌ عَلَيْهِ جَرِيدُ

ويختتم الشاعر قصيدته بالتأكيد على مكانة الثور، فجعله مميزاً بروثه ذي الرائحة العطرة، وسيداً لأبقار البلاد جميعها، لو أدرك زمان المرتدين من اليهود لعبدوه، يقول:<sup>(٣)</sup>

وَمَنْ بَعْدَهُ مَا عَانَقَ البَابُ سَيِّدَا      لَهُ كُلُّ أبقَارِ البِلَادِ عبيدُ

(١) د. محمود سالم، أدب الصاع وأرباب الحرف، ص ٢٧١.

(٢) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ١٣٢-١٣٣.

(٣) أوعية مربوطة بعجلات السواقي، تملئ بالماء عند انخفاضها، ويفرغ ما فيها في الحوض الموصل إلى ترعة الأرض المراد سقيها، انظر د. عامر نجيب، الزراعة في مصر في الدولة المملوكية الثانية، ص ١٨٢، ١٨٣، المعجم الوسيط، مادة "قنسر".

(٤) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ١٣٣-١٣٤.

ولا جازَ من تحَتِ الجَوائزِ مِثْلُهُ      وسرِقِينُهُ مِيسَكٌ يَفُوحُ وَعُودُ  
فَلَوْ كَانَ فِي أَيَّامِ مُوسَى صَبَا إِلَى      عِبَادَتِهِ فِي المَشْرَكِينَ يَهُودُ

وقبل ختم الحديث عن هذا الموضوع لا بد من تسجيل النتائج التي وصل اليها البحث

إليها وهي:

أولاً: أن هذا اللون من الرثاء ليس جديداً على الأدب العربي، وإنما الجديد تلك الرمزية والدلالات النقدية الساخرة التي نفذ إليها الشعراء من خلاله، وتلك الألفاظ والصور التي استوحوها من بيئتهم وأودعوها في قصائدهم ومقطوعاتهم، هذا فضلاً عن ثقافتهم الشخصية وبراعتهم الفنية التي ساعدتهم في تقديم صور جديدة لم يسبقوا إليها.

ثانياً: توصل البحث إلى أن هناك أوجه اتفاق واختلاف بين مراثي الحيوان ومراثي الإنسان .

أما عن أوجه الاتفاق، فتتلخص في تصوير الحزن والدموع، وفي بعض الصفات التي وسما بها حيواناتهم، كالقوة والشجاعة، والسيادة، والضعف، والذكاء، والحكمة، والصبر، والقناعة.

أما أوجه الاختلاف، فتتمثل في المعاني التي تصلح للحيوان ولا تصلح للإنسان مثل حديثهم عن وظيفة ذلك الحيوان كالنقل، وتحريك السواقي والدوايب، وتصويرهم حياته في الإسطبل، وأكله من روثه وزبله، وحركاته الخاصة كالرفس وضرب الأرض بقرنيه، وكذلك حديثهم عن قوائمه الأربعة، وقرنيه، بالإضافة إلى ذلك حديثهم عن يبكي عليه مثل السواقي، والنواعير، والمقاود، والإسطبلات.

ثالثاً: اختلف في هذا الاتجاه من الرثاء الحديث عن المصير والقبر، والمعاني الفلسفية التي تفيض بالحكمة والموعظة، وتتناول مشكلتي الحياة والموت، والمعاني المعبرة عن الدعوة بالسقيا والمغفرة.

## رثاء والغلمان والمغنين

انتشر الغلمان انتشاراً كبيراً في العصر المملوكي الأول، فقد كانت هناك روافد عدة تغذي المجتمع بأعدادهم الكبيرة، " فهناك أسواق النخاسة التي تقذف كل يوم بأجناس

وأجناس من الغلمان، وهناك سبي الحروب، وهناك الطوائف الوافدة" (١)، ومن تلك الطوائف المغول، فبعد دخولهم الإسلام تدفقت أعداد كبيرة منهم إلى بلاد المسلمين، واختلطوا بسكانها، وشاركوهم جوانب حياتهم المختلفة حتى وصل بعضهم إلى السلطة والحكم، وقد كثر الوافدون منهم في عهد الظاهر بيبرس، إذ ملأ مصر والشام بطوائفهم "وانتشرت عاداتهم بها وطرائقهم" (٢)، ولم يقتصر مجيئهم على زمن ذلك الملك، وإنما توافدوا بكثرة بعده، ففي سنة ٧٠٢ هـ قدم "البريد بحضور جماعة من المغل وافدين إلى بلاد الإسلام نحو مائتي فارس بنسائهم وأولادهم.." (٣)، وقد أشاد المؤرخون بجمال أولئك الوافدين، ووصفوا شغف السادة وعامة الشعب بهم، وخاصة بتلك الطائفة منهم المعروفة "بالأويراتية"، التي قدمت إلى مصر والشام سنة ٦٩٤ هـ في عهد السلطان المغولي الأصل زين الدين كتبغا، وعددها ثلاثمائة وافد، وكان هؤلاء "صورا جميلة فأفتن بهم الأمراء، وتنافسوا في أولادهم من الذكور والإناث، واتخذوا منهم عدة صيروهم من جملة جندهم، وتعشقوهم، فكان بعضهم يستنشد من صاحبه من اختص به، وجعله محل شهوته، ثم ما قنع الأمراء ما كان منهم بمصر حتى أرسلوا إلى البلاد الشامية واستدعوا منهم طائفة كبيرة، فتكاثر نسلهم في القاهرة، واشتدت الرغبة من الكافة في أولادهم على اختلاف الآراء في الإناث والذكور، فوقع التحاسد والتشاجر بين أهل الدولة إلى أن آل الأمر بسببهم، وبأسباب أخر إلى خلع السلطان الملك العادل كتبغا من الملك" (٤). وبلغ شغف الناس بهم أن راح شعراؤهم ينظمون فيهم الأشعار معبرين عن محاسنهم، وهيامهم بهم (٥).

واتخذ السلاطين والأمراء، وبعض عامة الشعب الميسورون مماليك يربونهم، ويعتمدون عليهم في حاجاتهم، وكان عددهم عند بعضهم كبيرا، فهذا الملك الظاهر بيبرس وصل عدد مماليكه "أربعة آلاف مملوك" (١)، وقيل عن المنصور قلاوون: إنه جمع "من المماليك خلقاً عظيماً لم يجمعهم أحد قبله، فبلغت عدتهم اثني عشر ألفاً، وصار منهم

(١) فوزي أمين، أدب العصر المملوكي الأول، ص ٣٥٨.

(٢) المقرئ، الخطط، ٣/٣٨٥.

(٣) المقرئ، السلوك، ٢/٣٧٨.

(٤) المصدر نفسه، ٣/٤٤، الخطط، ٣/٤٤.

(٥) انظر المقرئ، الخطط، ٣/٤٤، راند عبد الرحيم، صورة المغول، ١٢٤.

(٦) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ٢٤٤، الصفي، الوافي، ١٠/٣٣٨، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٧/١٦٠.

الأمرء والكبار والنواب، ومنهم تسلطن" (١)، وذكر أن الملك الناصر محمداً بن قلاوون كان يعطي التاجر الذي يجلب له الممالك أعلى القيم فيهم، فيأخذهم ويحسن تربيتهم، وينعم عليهم بالملابس الفاخرة والذهب والخيول فشاع "في البلاد إحسان السلطان إليهم، فأعطى المغل أولادهم وأقاربهم للتجار رغبة في السعادة، فبلغ ثمن المملوك على التاجر أربعين ألف درهم... وكان الملك الناصر يدفع للتاجر في المملوك الواحد مائة ألف درهم وما دونها" (٢).

وتفشى الفسق بهؤلاء الممالك حتى إذا أراد سلطان أن يبطش بأحد أمرائه اتخذ من فسق ذلك الأمير بمماليكه ذريعة يصدر الفقهاء على أساسها فتواهم بقتله، وهذا ما فعله السلطان كتبغا المنصوري مع الأمير بيدرا (٣). ولا أدل على تلك الممارسات الخاطئة مما ذكره السبكي عن فرقة من الممالك تدعى "الجمدارية" فقال: "وأكثر ما يكونون صبيانا ملاحا مرداء، ويتعاناهم الملوك، وكذا الأمرء، يكونون بالنوبة مع أكثر أهل الدنيا، وصارت الجمدارية تتنوع في الملابس المهيجة للشهوات، ويتزينون فيربون في ذلك على النساء، ويفتنون الناس بجمالهم" (٤).

واستولت فئة من الغلمان على قلوب العامة والخاصة في ذلك العصر، وهم طائفة المغنين، ولا بد هنا من الحديث عن الغناء والمغنين آنذاك لعلاقة ذلك بالموضوع الذي نتناوله بالدراسة، فقد اتسم الناس في العصر المملوكي، وخاصة في مصر بروح المرح، وسيطرت عليهم تلك الروح حتى في أحلك ظروفهم، وهذا ما عبر عنه ابن بطوطة حين وصف أهل مصر بأنهم "ذوو طرب وسرور ولهو" (٥).

وتعددت وسائل التسلية والترفيه عن النفس يومذاك، ومنها الغناء، إذ اهتم الناس "اهتماما كبيرا بأنواع الموسيقى والغناء، ومما جعل للموسيقى والغناء أهمية كبيرة، تشجيع السلاطين وإغداقهم على المغنين والمغنيات" (٦)، والأمثلة على ذلك كثيرة، ومنها أنه حين ولد للملك الناصر محمد بن قلاوون ابنه الصالح عمل الأفراح مدة أسبوع، واستدعى

(١) ابن تعري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٧٧/٧.

(٢) ابن تعري بردي، النجوم الزاهرة، ١٢٧/٩ - ١٢٨.

(٣) انظر المقرئزي، السلوك، ٢٤٨/٢.

(٤) السبكي، معبد النعم، ص ٣٥.

(٥) ابن بطوطة، الرحلة، ٢٥/١.

(٦) د. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١٠٣.



المغنين والمغنيات، فحصل لهم شيء كثير، حتى إن مغنيات القاهرة جاء قسم كل واحدة منهن عشرة آلاف سوى التفاصيل والحريير والمفانج (١) والخلع (٢). وكان عدد أولئك المغنين كبيراً فما إن يسمعون بحفلة أو فرح حتى يجتمعوا من كل حدب وصوب للمشاركة فيه (٣)، ففي سنة ٧٢٣هـ "حضرت ثمانى جوق من مغاني القاهرة" عرس ابنة السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٤). وفرضت الدولة المملوكية على المغنين والمغنيات ضريبة عرفت باسم "ضمان المغاني"، وقد وصفها المقرئزي بأنها بلاء عظيم (٥)، إذ كانت تحصل الدولة على نقود كثيرة ذلك أن "العرس ما كان يتهيأ حتى يغرم أهله للضامنة خمسمائة درهم فما فوقها، بحسب حال أهل العرس، ولا تقدر امرأة وإن جلت تنتقش إلا باطلاق من الضامنة، ولا يضرب بدف في عرس أو ختان أو نحو ذلك إلا باطلاق، وعلى كل إطلاق فريضة مال مقررة في الديوان، وكان على كل مغنية قطيعة تحملها إلى الضامنة، فإن باتت في غير بيتها قامت بمال للضامنة، واستمرت تلك الضريبة حتى أبطلها السلطان الأشرف شعبان سنة ٧٧٨هـ (٦).

واشتهر عدد من المغنين والمغنيات والموسيقيين في ذلك العصر ترددت أسماؤهم في كتب التاريخ والتراجم، ومنهم من كان يلزم السلطان طوال الوقت، وآخرون كان يدعون إلى الاحتفالات والأفراح، ومن المغنين مغني الشام واسمه خروف (٧)، وخالد بن المصنف، وقد ترجم له الصفدي وأشاد به كثيراً ووصف شهرته وتمكنه، وملازمته للأمير سيف الدين تنكز نائب الشام فقال: "ولقد رأيت بمصر جماعة من أبواب هذا الفن... يعترفون له ويعظمونه ويأخذون در قوله، وينظمونه، وقالوا: هذا ذكره إلى يوم القيامة خالد، لأن علم النغم قال له دون الناس نعم" (٨)، ومن المغنين عبد العزيز الحفني المتوفى سنة ٧١٠هـ، وقد وصف بأنه أعجوبة زمانه في فن الغناء (٩)، ومن الموسيقيين الذين

(١) غطاء الرأس.

(٢) المقرئزي، السلوك، ٢٣٢/٣.

(٣) انظر المصدر نفسه، ٣٦٢/٢.

(٤) المصدر نفسه، ٦٦/٣.

(٥) انظر المقرئزي، الخطط، ٢٠٠/١.

(٦) انظر ابن العراقي، الذيل على المر ٤٢٧/٢، ٤٤٩، المقرئزي، السلوك، ٤/٥.

(٧) انظر الصفدي، أعيان العصر، ٦٧٣/٢.

(٨) المصدر نفسه، ٣٠٨/٢.

(٩) ابن حجر، الدر الكامنة، ٣٨٤/٢.

أشير إلى عظم مكانتهم في ذلك العصر، الشاعر شمس الدين الدهان دمشقي الذي كان ينظم الشعر ويعرف الموسيقى، فيعمل الشعر ويلحنه ويغني به المغنون، وكان يلعب بالقانون<sup>(١)</sup>، وقد أدى اهتمام الناس بالموسيقى في ذلك العصر أن ألف بعضهم التصانيف المفيدة فيها<sup>(٢)</sup>.

وقد أكثر المؤرخون من الحديث عن إعجاب علماء ذلك العصر وأدبائه وشغفهم بالغناء والمغنين، فهذا عبد القوي بن محمد بن جعفر الإنساني المتوفى سنة ٦٩٨هـ مدرس العزبة بقوص كان "محباً للسمع، لا يؤثر عليه شيئاً في الانتفاع، يكاد إذا سمع شبابه يطير طرباً"، وكانت وصيته بعد موته "أن تخرج جنازته بالدفوف والشبابه، وتمنع النائحات والباقيات عليه"<sup>(٣)</sup>، ويذكر الصفدي أن القاضي أبا بكر بهاء الدين ابن غانم حين كان في صفد "حصل له ميل إلى مغن يدعى طُقُصْبًا، وصار يعمل به السماع في كل ليلة، وقرّر ذلك كل ليلة عند واحد من أكابر الناس"<sup>(٤)</sup>.

ولذلك لا عجب إذا أكثر الأدباء من ذكر الغناء والمغنين في شعرهم ونثرهم، فقد احتل التغني بجمال الغلمان أو التغزل بالمذكر مساحة واسعة من غزليات العصر المملوكي، وناقس المرأة في ذلك الغرض الشعري كثرة وصفات<sup>(٥)</sup>. ووجدت مصنفات أدبية وضعت خصيصاً لذلك، ومنها كتاب الصفدي "الحسن الصريح في وصف مئة مليح،" وشعر ابن الوردي في "مئة غلام مليح"<sup>(٦)</sup>، هذا فضلاً عن الأشعار المتفرقة في كتب الأدب والتاريخ والتراجم<sup>(٧)</sup>، وهي أشعار نظمها أدباء ماجنون، وفقهاء أتقياء، فالتغزل بالمذكر كان ظاهرة عامة آنذاك لم تقتصر على فئة من الشعراء دون غيرهم، ويستشف من كلام المؤرخين والأدباء أن هناك مدرسة خاصة في ذلك الموضوع ينتمي إليها عدد من الأدباء، وهم في ثلاثة فرق: فريق قصد الأطراف والخلاعة والمجون، وفريق عبر عن حبه الحقيقي للغلمان، والفريق الثالث رغب في المنافسة والابتكار والتجديد، والأدلة

(١) انظر الصفدي، الرواق، ٢٠٩/٤، الكتي، فوات الوفيات، ٥/٤، ابن حجر، الدرر الكامنة، ١٩٦/٤.

(٢) انظر د سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١٠٤.

(٣) الأدفوي، الطالع السعيد، ص ٣٣٣، الصفدي، أعيان العصر، ١٣١/٣، الرواق، ٧٠/١٩.

(٤) الصفدي، الرواق، ٢٥٣/١٠، أعيان العصر، ٦/٢، ابن حجر، الدرر الكامنة، ٤٩١/١.

(٥) انظر د. فوزي أمين، أدب العصر المملوكي الأول، ٣٦٢.

(٦) انظر ابن الوردي، الديوان، ص ٤٤٠ - ٤٥٨.

(٧) انظر الصفدي، الرواق، ٢١٠/٤ - ٢١٢، الكتي، فوات الوفيات، ٥/٤ - ٦، الشاب الظريف، الديوان، ٩١، ٩٢، ٩٦، ١٠٢، ١٥٦.

١٥٧، ١٦٠، الحلبي، الديوان، ٣٨٧ - ٤٠٧، ابن مراد العمري، كتاب النضر في ترجمة أدباء العصر ١٦٨/٢ - ١٧٧.

على ذلك كثيرة، ومنها ما قيل في ترجمة عبد الرحيم بن محمد السهوي المتوفي سنة ٧٢٠ هـ أنه كان "جاريا على مذهب أهل الأدب في حب الشراب والشباب والطرب"<sup>(١)</sup> وقيل في الأديب محمد بن فضل الله بن كاتب المرج القوسي: "وَجَرى على مذهب أهل الأدب في أنهم يستجلون محاسن الشباب ويستحلون التشبيب بالشراب ووصف الحباب"<sup>(٢)</sup> ويدلل على أن غرض بعض الشعراء الفقهاء من التغزل بالغلما هو الابتكار والتجديد ما قاله ابن الوردي قبل ذكره الأبيات التي نظمها في مئة مليح "٠٠٠ فإني التقطت من شعري، وجلوت من بنات فكري هذه النبذة التي أكثر معانيها مبتكر، وغالب اقتباسها وتضمنها لم تتقدمني به الفكر ولعمري ما أنصفتي من أساء بي الظن، وقال عني: كيف رضي مع درجة العلم والتقوى بهذا الفن، فالصحابة رضي الله عنهم كانوا ينظمون وينثرون، ونعوذ بالله من قوم لا يشعرون، وما كل متهالك هالك"<sup>(٣)</sup>، واضح من كلام ابن الوردي أن هناك طائفة تستنكر على الشعراء النظم في ذلك الموضوع، وقد استنكروا عليه القول فيه، ولكن مبرره لهم أنه لا ينظم فيه بقصد التهتك والخلاعة، وإنما بقصد الابتكار والتجديد.

ولم يكتف رواد هذه المدرسة بالغزل، ولكنهم نظموا أشعارا في رثاء الغلمان والمماليك والمغنين للغايات التي قالوا من أجلها في غزلهم، وهي قصائد ومقطوعات ضاع كثير منها، ولم يبق سوى القليل، ذلك أن المؤرخين أحجموا عن ذكر بعضها، واختزلوا بعضها الآخر، ويؤكد ذلك ما جاء في أخبار الشاعر شمس الدين بن الدهان، فقد قيل عنه: إنه "رَبى مملوكا اشتراه وأحبه وهذبه، وخرجه فمات فأسف عليه أسفا كبيرا، ورثاه بشعر كثير غنى به ونقله المغنون، وتداوله الناس"<sup>(٤)</sup> وأنه كان "يلحن الأبيات، ويغني بها على قانونه على طريق الحزن فلا يكون له في ذلك نظير"<sup>(٥)</sup>، ولكن المؤرخين

<sup>(١)</sup> الصفدي، الوافي، ٣٩٢/٨-٣٩٣، أعيان العصر، ٥٦٣، الأدفوي، الطالع السعيد، ٣١٣، ابن حبيب، تذكرة النبي ١١١/٢، ابن حجر، الدرر الكامنة، ٤٧٢/٢، السيوطي، بغية الوعاة، ٩٤/٢.

<sup>(٢)</sup> الأدفوي، الطالع السعيد، ص ٦٠٣، الصفدي، الوافي، ٣٣٠/٤.

<sup>(٣)</sup> ابن الوردي، الديوان، ٤٤٠.

<sup>(٤)</sup> الصفدي، الوافي، ٢١٠/٤، أعيان العصر، ٦٠٦/٤، الكتيبي، فوات الوفيات، ٥/٤، ابن حجر، الدرر الكامنة، ١٩٧/٤.

<sup>(٥)</sup> ابن حجر، الدرر الكامنة، ١٩٧/٤، وانظر الصفدي، أعيان العصر، ٦٠٦/٤.

لم يثبتوا له إلا مقطوعة واحدة<sup>(١)</sup>، وأجزاء من قصيدتين ذكروا أنهما طويلتان، وأن إحداهما "تزيد على الخمسين بيتاً".<sup>(٢)</sup>

وشارك في نظم هذه المراثي عدد من الملوك والفقهاء والشعراء، والكتاب والنقاد أمثال شهاب الدين محمود، وصلاح الدين الصفدي، وشمس الدين بن الدهان، وجمال الدين بن نباتة، وصفي الدين الحلبي، ومجير الدين بن تميم، والملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب وغيرهم. وأكثر شاعر وصل شعره في هذا الموضوع هو صفي الدين الحلبي، إذ وصل من شعره قصيدتان كاملتان في رثاء مملوكه، بلغت إحداهما عشرين بيتاً، والثانية خمسة وعشرين، ويليه شهاب الدين محمود إذ نظم في رثاء شاب جميل فبلغت قصيدته خمسة وعشرين بيتاً، ثم محمد بن كاتب المرج القوصي، إذ وصلت قصيدته عشرين بيتاً.

ومن الجدير بالذكر أن هذا اللون من الرثاء لم يكن جديداً في هذا العصر، وإنما نظم فيه الشعراء منذ العصر العباسي، وسببه التغيرات الحضارية التي أحدثتها الانفتاح على الشعوب المختلفة والاندماج بهم آنذاك<sup>(٣)</sup>، وقد عد الدكتور عناد غزوان هذا الرثاء جزءاً من كتابه "المرثاة الغزلية"، ذلك أن الشعراء يكون فيه غلمانهم، ويتغزلون بهم<sup>(٤)</sup>.

أما عن مضامين ذلك اللون من الرثاء فقد تعددت وتنوعت، واختلفت من شاعر إلى آخر على حسب درجة العلاقة التي كانت تربطه بالمرثيين، وإن كانوا يشتركون في الحديث عن حزنهم عليهم، وفي التغزل بهم، ووصف جمالهم الحسي المادي أو المعنوي، ومن الشعراء الذين رثوا غلمانهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فقد ذكر المقرئ أن النور بن سعيد صاحب كتاب "عدة المستنجز، وعقلة المستوفز" ذكر في كتابه "قال من دخل على الملك الناصر وقد نزل بميدان دمشق: قبلت يده، وجعلت أدعوا له، وأظهر تعزيته على ما جرى من تلك المصائب العظيمة"<sup>(٥)</sup>، فأضرب عن ذلك، وقال لي فيم تتغزل اليوم؟ ثم أنشدني قوله في مملوك فقد له في هذه الكائنة: <sup>(٦)</sup>

(١) انظر الكتيبي، فوات الوفيات، ٥/٤.

(٢) الصفدي، أعيان العصر، ٦٠٧/٤، ابن حجر، الدرر الكامنة، ١٩٧/٤، وانظر الأدفوي، الطالع السعيد، ص ٦٠٧-٦٠٨.

(٣) انظر مظفر غام، الرثاء في شعر العصر العباسي الأول، ص ٣٧٩.

(٤) انظر المرثاة الغزلية، ص ٤١.

(٥) يعني سقوط الشام سنة ٦٥٨ هـ بيد المغول.

(٦) المقرئ، نصح الطبيب، ١٢٧/٣.

والله ما أبكي لملك مَضَى  
وإنما أبكي وَقَدْ حُقَّ لِي -  
يَطْلُعُ بَدْرًا يَنْتَهِي بَأَنَّةً  
في خاطري أَبْصِرُهُ خَاطِرًا  
يا عاذلي دَعْنِي وَمَا حَلَّ بِي  
إِنْ مِتُّ مِنْ حُزْنٍ لَهُ أَسْتَرْحُ

ولا لحال ظاعنٍ أو مقبمٍ  
لَفَقَدِ مَنْ كُنْتُ بِهِ فِي نَعِيمٍ  
يَمُرُّ فِيمَا رُمْتُهُ كَالنَّسِيمِ  
فَأَلْتَوِي مِثْلَ التَّوَاءِ السَّقِيمِ  
فَمَا سِوَى اللَّهِ بِحَالِي عَلِيمٌ  
وَإِنْ أَعِشَ عِشْتُ بِهِمْ عَظِيمٌ

تعكس الأبيات السابقة حالة الحزن التي عاشها ذلك الملك عقب زوال ملكه على يد المغول سنة ٦٥٨ هـ. ولكن معاناته كما صرح هو لم يكن سببها ما خسر من ملك أو قتل من المسلمين، وإنما عز عليه موت مملوكه الذي كان مصدر سعادته، لما كان يتحلى به من جمال وجهه، ولين قد، ووصل به الأسى عليه أنه تمنى الموت بعده، وإذا كان الملك الناصر قد نظم فعلا تلك الأبيات في تلك الأوقات العصبية التي كان يمر بها، وتمر بها دولة المسلمين، فإن ذلك مؤشر على مدى السقوط والفردية التي وصل إليها، إذ لم يعد يعنيه أمر المسلمين، ولا ما نزل بهم من قتل وأسر وتشريد على يد أعدائهم المغول وأحلافهم من الصليبيين وغيرهم، وإنما همه الوحيد من بين الآلاف الذين قتلوا مملوكه وأيامه معه.

وفي الحقيقة إن مضمون أبيات الملك الناصر يشكك في نسبتها إليه، إذ لا يعقل أن تصدر عن رجل وصف بأنه كان حسن السيرة، "سمحا، جوادا، حلما، حسن الأخلاق، محببا إلى الرعية، فيه عدل"<sup>(١)</sup> "وحسن العقيدة، والظن بالصالحين، يكرمهم ويجري عليهم الرواتب"<sup>(٢)</sup>، وخاصة في ذلك الوقت العصيب، ولا يعقل أيضا أن يرى ملكه يسلب أمام عينيه، ولا يشغله سوى مملوكه، ويؤكد ذلك المؤرخون الذين ذكروا أن الهم الذي كان يؤرقه وقتذاك هو موطنه، ولذا رثاه بمراتٍ كثيرة.

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، وفيات ٦٥٩ هـ، ص ٤٠١، العبر، ٢٩٧/٣، اليوناني، ذيل مرآة الزمان، ١٤٠/٢.

(٢) المصدر نفسه، وفيات ٦٥٩ هـ، ص ٤٠٢.

ويموت مملوك الشاعر شمس الدين بن الدهان دمشقي الذي رباه، وشغف به حبا،  
فيرثيه، ويذرف عليه الدموع الغزار، ويحزن حزنا عظيما يوشك منه على التلف، ويتأسف  
على قامته الرشيقة، ووجهه الذي فاق البدر حسنا، فيقول: (١)

بَذْرُ بِهِ الْبَدْرُ قَدْ غَدَا كَلْفَا	تَيْمَ قَلْبِي وَزَادَنِي أَسَفَا
عَلِمَ غُصْنَ الْأَرَاكَةِ الْهَيْفَا	مُهَفَّهْفُ الْقَدِّ لَيْسَ قَامَتِهِ
كِدْتُ بِهَا أَنْ أَشَارِفَ التَّلْفَا	يَا راحلاً أودع الحشا حرقاً
وَكَلَّمَا قُلْتُ قَدْ كَفَى وَكَفَا	بَعْدَكَ دَمْعِي قَدْ كَادَ يُغْرِقَنِي

ويتحدث في قصيدة أخرى عن تعاسته بعد ذلك المملوك، ويصف أرقه، وقله صبره،  
فيقول: (٢)

بَأْتِي لَمْ يُغَمِّضْ لِفَقْدِكُمْ جَفْنِي	سَلُوا طَوْلَ هَذَا اللَّيْلِ يَخْبِرُكُمْ عَنِّي
وَأَسَلْتُمُ قَلْبِي إِلَى لَوْعَةِ الْخُزْنِ	رَحَلْتُمْ بَصْبَرِي وَأَسْتَمِرَّ مَرِيرُكُمْ
وَبِالْبُعْدِ عَن قُرْبِي وَبِالْخَوْفِ عَن أَمْنِي	وَعَوَّضْتُمُونِي عَن سُورِي بِالْأَسَى
فَأَخْلَفْتِ الْأَيَّامُ فِي وَصْلِكُمْ ظَنِّي	وَقَدْ كَانَ ظَنِّي أَنْ يَدُومَ وَصَالِكُمْ

ويركز الشاعر الدهان في قصيدة أخرى على وصف مناقب مملوكه، واستجلاء  
محاسنه، فيصوره كالبدر أو الشمس جمالاً، ويجعله خال من العيوب، وعفيف النفس،  
يحمل رزانة الشيوخ على الرغم من صغر سنه فيقول: (٣)

وَكَالشَّمْسِ فِي إِشْرَاقِهَا وَالْمُنَافِعِ	فُجِعْتُ بِهِ كَالْبَدْرِ فِي السَّنِّ وَالسَّنَا
مِنَ الْعَيْبِ عَفَّ طَرْفُهُ فِي الْمَجَامِعِ	سَرِيعٌ إِلَى دَاعِي الْجَمِيلِ مُبَرِّراً
رَزَانَةٌ كَهْلِ وَهُوَ فِي سِنِّ يَافِعِ	جَمِيلٌ مَحْيَا فِيهِ تَلْمُحٌ صَادِقاً

وعلى ما يبدو أن الدهان كان يقوم بممارسات لا أخلاقية مع مملوكه الراحل، وهذا  
ما كشف عنه جمال الدين الخطيب الصوفي، إذ تحدث عن ذلك صراحة، وسخر من  
الدهان، فطلب منه أن يصنع تمثالا لذلك المملوك ليقتضي وطره منه، يقول: (٤)

(١) الكتي، فوات الوفيات، ٥/٤.

(٢) الصفدي، أعيان العصر، ٦٠٧/٤.

(٣) المصدر نفسه، ٦٠٦-٦٠٧/٤.

(٤) الصفدي، الوافي، ٢١٠/٤، أعيان العصر، ٦٠٦/٤، ابن حجر، الدرر الكامنة، ١٩٧/٤.

لَنْ مَاتَ يَا دَهَانَ مَمْلُوكُكَ الَّذِي      بَلَّغْتَ فِي الْفُسْقِ مَا كُنْتَ تَرْتَجِي  
فَمَثَلُهُ بِالْأَصْبَاغِ وَجَبَّهَا وَقَامَةً      وَخَصْرًا وَرَدِفًا ثُمَّ عَانَقَهُ وَاصْتُلِحَ<sup>(١)</sup>

ولفظه "الفسق" هي رواية الوافي، وأعيان العصر، أما في الدرر فقد وردت "العشق" وإن صحت رواية الوافي، وأعيان العصر، فإنها تميظ اللثام عن مدى الانحدار الذي بلغه بعض الناس في المجتمع المملوكي، فجعلهم يتركون النساء جانباً، ويقضون وطهرهم من الغلمان والمماليك.

ولم يكن الشاعر مجير الدين بن تميم وحده الذي بكى محاسن غلامه، وإنما شاركته في ذلك حمائم الأيك، يقول: <sup>(٢)</sup>

وَكَمْ سَاعَدْتَنِي مُذْ دَفَنْتُ قَوْمَاهُ      حَمَامَةٌ أَيْكَ بِالْغَرَامِ تَبُوحُ  
فَكُنْتُ وَإِيَاهَا لِأَجْلِ قَوْمَاهُ      كَلَانَا عَلَى الْغُصْنِ الرَّطِيبِ يَنُوحُ

ولا يخفى ما في البيت الثاني من تورية في قوله: "كلانا على الغصن الرطيب ينوح"، وهذا يدل على أن الشاعر لم يكن صادقاً في حزنه، وإنما رغب في التصنع والابتكار والتجديد، ولكنه لم يفلح في مسعاه، ذلك أن الصور التي قدمها تقليدية ومتداولة في شعر الغزل.

ولم يكن ابن تميم وحده الذي رغب في الابتكار والتجديد والإتيان بالمحسنات البديعية، وإنما شاركه في ذلك شعراء آخرون، الأمر الذي يؤكد أن الحزن الحقيقي لم يكن حافزهم على النظم في ذلك الموضوع، ومن هؤلاء الشعراء جمال الدين بن نباته، فقد رثى عبداً له اسمه فرج، فاتخذ من اسمه وسيلة ليصنع منه تورية، ويبرز قدرته على التلاعب بالألفاظ، يقول: <sup>(٣)</sup>

كَانَ لِي عِنْدَ يُسَمَى فَرَجًا      نَصَبَ الدَّهْرُ عَلَيْهِ الشَّرْكََا  
وَأَنَا الْيَوْمَ كَمَا تَنْظُرُنِي      لَيْسَ عِنْدِي فَرَجٌ غَيْرَ الْبُكََا

<sup>(١)</sup> وردت في المعاجم بمعنى أضم، انظر ابن منظور، اللسان "صلح"، المعجم الوسيط، مادة "صلح"، ولعل الشاعر يريد بها معنى آخر.

<sup>(٢)</sup> الصفدي، نوافي، ٦١/٤.

<sup>(٣)</sup> ابن أبي حمزة، سلوة الحزين، ص ١٠٨.

ولعل التلاعب بالألفاظ هو ما جعل ابن حجلة التلمساني يشيد بتلك المقطوعة، إذ قال: "وما أحسن ما أنشدني به الشيخ جمال الدين نباته..."<sup>(١)</sup>، فهو حتماً لم يبين رأيه على ما فيها من حزن عميق وأسى بالغ، فهي لا تشي بذلك، وإنما بناه حين أعجبه قدرة الشاعر على توظيف اسم عبده "فرج" فيها.

وإذا كان الشعراء السابقون قد فتنوا بمحاسن غلمانهم ومماليكهم المادية، فإن بعضهم شغف بالمعنوية منها، فهذا الشاعر صلاح الدين الصفدي يعبر عن إعجابه بسمتي العفة والطهارة اللاتي كان يتحلى بهما مليح من قرية قَدَس، وهي بليدة ينسب إليها بحيرة بين صفد وبانياس<sup>(٢)</sup>، يقول في رثائه:<sup>(٣)</sup>

يا حبيباً قد قَضَى وَمَضَى      طاهراً ما عيبَ بالدنس  
إن تفرقنا عن قَدَس      فاللقا في حضرة القُدس

ولا تخفى رغبة الشاعر في التصنع والإتيان بالجناس المحبب إلى قلبه، ولعل الذي حدا بالشعراء إلى إسباغ سمتي العفة والطهارة على مماليكهم وغلمانهم، هو شيوع الفحش بهؤلاء، فصار الشعراء يتحرزون بذكرها خشية أن يظن أحد أنهم من أرباب الفسق والفجور، وأن الذي دعاهم إلى رثائهم هو شعورهم بفقدان متعهم وملذاتهم.

ويرثي الشاعر شرف الدين الأنصاري المملوك سابق الدين على لسان صاحبه المنصور علي، فيلقي مسؤولية موته على الدهر، ويشيد بما كان يتحلى به من حسن وشجاعة، وعطف على الفقراء، ويعجب من الدهر الذي طوى تلك المحاسن والمآثر تحت التراب، فيقول:<sup>(٤)</sup>

إن خائنني زَمَنِي فِيهِ فَلَا عَجَبٌ      قَدْ كُنْتُ أُذْخِرُهُ عَوْناً عَلَى زَمَنِي  
ما راق في ناظري من بَعْدِهِ أَسَدٌ      على جوادٍ، ولا بَدْرٌ على غُصْنِ  
ما كُنْتُ أَحْسَبُ كَفَّ الدَّهْرِ قَادِرَةً      أن تُدرج الحُسْنَ والإحْسَانَ فِي كَفْنِ

(١) ابن أبي حجلة، سلوة الحزين، ص ١٠٨.

(٢) انظر ياقوت، معجم البلدان، مادة "قدس".

(٣) الصفدي، جنان الجناس، ص ٥٨-٥٩.

(٤) شرف الدين الأنصاري، الديوان، ص ٤٧٣.



ورثى الشعراء الغلمان والمماليك والشباب بقصائد طويلة، عبروا فيها عن حزنهم الصادق والحقيقي عليهم، وتغزلوا فأشادوا بحاسنهم وفضائلهم النفسية، وتحدثوا عن مكانتهم عندهم، والدور الذي لعبوه في حياتهم، ومن هؤلاء الشعراء شهاب الدين محمود الحلبي الذي رثى شاباً جميلاً فقد بقصيدة هي أطول ما وصل في هذا الباب، وفيها يصور شغفه بذلك الفقيء، والألم الذي يعتصره عليه، فيجرد من نفسه شخصاً آخر يخاطبه ويحاوره، ويطلب منه ترك ملذات الحياة ومتعتها التي غدت مرة بعده، لا طعم لها، ويصب جام غضبه على الدهر، ويظهر نغمته عليه فهو الذي اختطف منه ذلك الجار الحبيب، يقول: (١)

واسئلُ عن طيبِ الحياةِ ففقدُ	صيرتَ لا قلباً ولا سَكناً
لا نَقْلُ أرجو الإيابَ فكَمُ	نازحِ بعد البعادِ دنا
فهو دَهْرٌ كان مَتْنَهياً	عنكمُ والآنَ قد فطَنا
جيرةٌ واللهِ بَعْدَهُم	لم أجذُ حُسناً ولا حَسناً
سألوا رُوحِي فليَنَّهُمُ	عوضوني عودَهُم ثَمَّنا
ودرُوا أَنِّي أموتُ بِهِمُ	فكسوني بالضنَّا كَفَّنا

ثم يمزج الشاعر حزنه على ذلك الراحل بالتغزل به واستجلاء محاسنه، وقد عبر عن معانيه حين أجرى حواراً بينه وبين مظاهر الطبيعة الجميلة التي أضناها الأسى عليه، فتوقف النسيم عن الهبوب، وشجر الدوح عن الحركة، وهجرته الحمام، وغابت البذور عن أفق السماء، وهو في كل ذلك يظهر براعته في التصوير، وقدرته على حسن التعليل الذي شاع وانتشر في شعر ذلك العصر، يقول: (٢)

قُلْتُ للبذرِ المنيرِ وَقَدُ	غابَ من أربى عليه سَنَّا
غيبُ أوِ اطلُعِ إن أردتَ فما	فيكَ لي عَن مَن فَقَدتُ غِنِي
أنباتني الشَّمْسُ عَنهُ وَعَن	بَدْرها إذ غابَ واقتَرنا
نَحْنُ كُنَّا إخوةَ شَرَفاً	فأصابَ الدَّهْرُ أحسَّنا
وسألتُ الدَّوحَ بَعْدَهُم	هل أمألتَ نَسَمَةَ غُصنَّا

(١) الكندي، فوات الوفيات، ٨٧/٤.

(٢) المصدر نفسه، ٨٨/٤.

أَوْ تَمَشَّتْ فِي خَمَائِلِهِ  
أَوْ سَقَاهُ الطَّلَّ مَضْطَجِعاً  
قَالَ لِي ذَاكَ النَّسِيمُ نَأَى  
وَعَيُونَ النُّورِ قَدْ رَمَدَتْ  
فَإِذَا مِلْنَا فَلَاطَ طَرَبٌ  
ذَاتُ طَوْقٍ تَبَعَتْ الشَّجَنَا  
فَلَوَى أَعْطَافَهُ وَتَشَى  
مُذْ تَنَاءَوْا وَالغَمَامُ وَنَى  
وَعِنَاءُ الْوُورِقِ عِنَادُ عَنَا  
بَلْ لَأَنَّ الْوُورِقَ نَحْنُ لَنَنَا

ويواصل الشاعر قصيدته مخاطباً أولئك الجيران الذين هجروه، ويتمنى أن تعود أيام الوصل تجمعهم، ولكن اليأس من اللقاء يغلب على مشاعره، فقد غادروا دون رجعة أو أمل باللقاء، وتركوه يصارع الموت وحيداً، ويختتم قصيدته بالدعوة لقبرهم بالسقيا، وهو في كل ذلك يقصد الشاب الراحل، يقول: (١)

سَادَتِي هَلْ بَعْدَ بُعْدِكُمْ  
أُرْتَجِي وَالْيَأْسُ يَهْزَأُ بِي  
وَضَلَالُ الْحَبِّ غَادِرٌ لِي  
إِنْ قَضَى صَبُّ يَهِيمٍ عَلَيَّ  
فَسَقَاكُمْ كُلُّ سَارِيَةٍ  
تَرْجِعُ الْإِيَّامُ تَجْمَعُنَا  
أَنْ يَضُمَّ الدَّهْرُ الْفَتْنَا  
فِيكُمْ بَعْدَ الْمَنُونِ مَنَى  
فَقَدْ أَحْبَابُ نَأَوْا فَأَنَا  
مِنْ دُمُوعِي تَخْجَلُ الْمُرْنَا

تعبر القصيدة السابقة عن أحاسيس نفس صادقة، لوعها الفراق، وأشجاها الحزن والبكاء، وتكشف عن علاقة وثيقة ربطت الشاعر بالشباب الفقيد جعلته يحظى بتلك المكانة الكبيرة في قلبه، ولذا خاطبه الشاعر بـ "جبرتي"، و "جيرة"، و "سادتي"، وهي ألفاظ ودلالات تجعل القصيدة بمنأى عن أنها قيلت في رثاء شاب لا صلة له بالشاعر، ولا تربطه به علاقة وطيدة.

ومثل تلك المشاعر والأحزان عكسها محمد بن فضل الله بن كاتب المرج القوصي في قصيدته التي رثى بها شاباً أمرد من أولاد الجند كان يشتغل بالأدب، ويقال له ابن بدران، وهو لا يكتفي فيها بتجسيد أحاسيسه الحزينة، وإنما صور مشاعر الناس كلهم على ذلك الفقيد، وتحدث عن المرض الذي ألم به فأودى بحياته، وهو مرض ذات الجنب، وهاجم الدنيا ووسمها بالغرر ببني الإنسان، لأنها تسعدهم وتشقيهم في الوقت ذاته، والكل فيها إلى زوال، يقول: (٢)

(١) الكندي، فوات الوفيات، ٨٨/٤.  
(٢) الأدفوي، الطالع السعيد، ٦٠٧-٦٠٨.

تَزَلْزَلْ عَقْلٌ فِيكَ كَالجَبَلِ المَرَسِيِّ  
وَجَرُّعَ كُلِّ مَنْ حِمَامِكَ غُصَّصَةً  
مَرَضَتْ فَطَمَّنَا بِأَخْبَارِ صَحَّصَةٍ  
وَمَتَّ بِذَاتِ الجَنْبِ وَهِيَ شَهَادَةٌ  
سَبَقَتْ بِطَرْفِ فِي يَدِي المَوْتِ بِأَكْيَا  
وَتَعَسَا لَدُنْيَاكُمْ أَرَا حَتُّ وَأَتَعَبَّتْ  
أَيَا مَوْتُ كَمْ أَبْلَيْتَ ثُوبَ شَبِيبَةٍ

وَلَأَنْتَ قَلُوبٌ كَالحِجَارَةِ أَوْ أَقْسَا  
وَمَا مِثْلَهَا مِمَّا يُسَاغُ وَلَا يُحْسَا  
فِيَا لَيْتَهَا صَحَّتْ وَلَوْ أَعْقَبْتَ نَكْسَا  
فَبَعْدَكَ فِيهِ قَارِنَ السَّعْدِ لَا النَّحْسَا  
فَلَيْتَكَ لَمْ تَسْبِقْ وَلَمْ تَدَّعِ النَّفْسَا  
وَصَبَّحَ فِيهَا البِشْرُ قَوْمًا فَمَا أُمْسَى  
فَأَنْتَ الَّذِي تُبْلِي وَنَحْنُ الَّذِي نُكْسَا

ثم يخاطب الشاعر الباكين على ذلك الشاب، ويطلب منهم أن يكفوا عن ذلك، فليس هو ممن يخشى عليه وحشة القبر، وقبره قد حوى بموته الأُنس كله، ويؤكد الشاعر محاسن الفقيد إذ طلب من المعزين أن يعزوا فيه الشمس والقمر، ويعجب منها إذ رآها تبرز بعده، يقول: (١)

أَيَا مَنْ بَكَاهُ حَسْرَةً وَتَفَجَّعَا  
عَلَى غَيْرِهِ خَفٌ وَحَشَّةُ القَبْرِ إِنْسِي  
وَيَا مَنْ تَوَاسَى عَنْهُ مَالِكٌ وَالْأَسَى  
فَإِنَّ أَنْتَ كُنْتَ عَنْهُ مُسْلِيًّا وَمُعْزِيًّا  
وَأَعْجَبَ مِنْهَا اليَوْمَ أَضْحَتْ مَسِيرَةٌ

لَأَنَّ حَلَّ قَبْرًا مَوْحِشًا ضَمَّهُ رَمْسَا  
رَأَيْتَهُمْ فِي قَبْرِهِ دَفَنُوا الأُنْسَا  
أَأَبْصَرْتَ مَحْزُونًا لَدَى حُزْنِهِ آسَا ؟  
فَعَزَّ أَخَاهُ البَدْرَ أَوْ أَخْتَهُ الشَّمْسَا  
وَرَوَّنَقُ ذَاكَ الوَجْهِ كَالْأَمْسِ قَدْ أُمْسَى

ثم يلقي الشاعر الضوء على مصير ذلك الرجل، فيأسى عليه إذ أضحي مرتعاً للديدان، وهو الذي كان يأنف عن تقبيل الشفاه اللعس في حياته، ويشيد بجماله وفصاحته ويعجب من الأرض التي طوت تلك المحاسن والصفات، وعلى ما يبدو أن الشاب مات في شهر رمضان، ولذا يهنيه الشاعر بذلك، ويختم قصيدته بالدعوة له بالرحمة ولقبره بالسقيا، فيقول: (٢)

عَقَبَكَ الدِّيدَانُ مَيِّتًا وَكُنْتِ لَا  
أَتَعْدُو خَلِيطَ الأَرْضِ مَعَ مَا حَوَّيْتَ مِنْ

تَقْبَلُ مِنْ غَيْدٍ مَرَّاشِفَهَا اللُّعْسَا  
فَصَاحَةُ نَطْقٍ وَهِيَ تُعْرِفُ بِالخَرَسَا ؟

(١) الأديوي، الطالع السعيد، ص ٦٠٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٠٨.

وَتَسْلُبُ أَثْوَابَ الشَّبَابِ جَدِيدَةً  
لِيَهْنِكَ لِقَاءَ اللَّهِ فِي شَهْرِ رَحْمَةٍ  
لَئِنْ كُنْتَ غُصْنًا طَابَ أَصْلًا وَمُغْرَسًا  
لَكِنْ عَهْدُنَا الْغُصْنُ يُنْقَلُ لِلتَّوَرَى

وغيرك يُتلفها وَيَحْلُقُهَا لِنَسَا  
تَقَدَّسَتْ الدُّنْيَا بِهِ وَعَدَّتْ قُدْسًا  
فَكَمْ جَعَلُوا فِي التَّرْبِ غُصْنًا وَكَمْ غُرْسًا  
فيزدادُ ترطيباً فزادتَ بِهِ يَبْسَا

ويموت للشاعر صفي الدين الحلي مملوك رباه فأحسن تربيته، فيرثيه بقصيدتين من أروع ما قيل في هذا الغرض الشعري، وتكمن أهميتها في أنهما تكشفان عن معاناة حقيقية، وحب عميق هذا فضلاً عن أنهما تضيفان معاني جديدة لم يوردها الشعراء في مراثيمهم السابقة، وهي معان تؤكد أن العلاقة التي كانت تربط المملوك بصاحبه، ليست علاقة العبد بسيده، وإنما قد تتقوى وتتوطد أواصرهما، فيصبح معها المملوك بمثابة الابن الذي يحرص سيده على تنشئته وتعليمه وتنقيفه، ويبني الآمال الكثيرة عليه، الأمر الذي يجعله يفضل على غيره من بني البشر.

وتبدأ قصيدة الحلي الأولى حين عبر عن مشاعره الحزينة، وحياته المرة عقب موت مملوكه، فقد صدع قلبه الفراق، وأظلمت دنياه، وصار طعمها علقماً، ثم يشيد الشاعر بصفات ذلك المملوك ومحاسنه التي تستوجب بكاءه وتقديره واحترامه، فعلى الرغم من صغر سنه، إلا أنه كان جميلاً كالبدر، وصاحب خلق عظيم، ولسان فصيح، وخط جميل، وعقل كبير، ومعرفة واسعة استفاد منها الشاعر، ثم ينتقل للحديث عن الحب العميق الذي يكنه له، والآمال العظيمة التي كان يعقدها عليه، ولكنها آمال بددها الموت، يقول: (١)

حِينَ أُمَسْتُ مِنْكَ الرَّبُوعُ رُسُومًا  
فَاسْتَحَالَ النَّهَارُ لَيْلًا بَهِيماً  
صَارَ عِنْدَ الْكَمَالِ بَدْرًا وَسَيِّمًا  
فَدَوَى حِينَ صَارَ غُصْنًا قَوِيماً  
رِ وَأَنَّ الْحِمَامَ يَغْشَى النُّجُومًا  
أَوْجَبْتُ فِي قُلُوبِنَا التَّعْظِيمًا

هَجَرْتُ بَعْدَكَ الْقُلُوبَ الْجِسُومًا  
وَحَلَّتْ مِنْ سِنَاكَ زُهْرُ الْمَغَانِي  
يَا هَلَالًا أَوْدَى بِهِ الْخَسْفُ لَمَّا  
وَقُضِيًّا رُمْتَنَا لِذِيذِ جَنَاهِ  
مَا ظَنَّنَا الْمُنُونَ تَرْقَى إِلَى الْبَدْرِ  
يَا صَغِيرًا حَوَى عَظِيمَ صِفَاتِ

(١) الحلي، الديوان، ص ٢٨٨-٢٨٩.

ولساناً طلقاً، وطبعاً سليماً  
بحجى منك يستخفُ الخلوما  
ظن أني منك استفدت العلوما  
خالني منك أطلبُ التعلوما

خلقاً طاهراً، وكفاً صنّاعاً  
كُنتَ رقي، فصيرتَ مالكَ رقي  
ومقال إذا دعاه لسيباً  
وإذا ما تلوتُ نظمي ونثري

ثم يكشف الحلي عن الرابطة القوية التي جمعتَه بمملوكه، فقد كان له بمثابة الصديق الذي يدافع عنه في الملمات، ويعاود الحديث عن آماله التي كان يرجوها من حياته، وعن خلجات نفسه وأشجانه، ويقارن بين حالهما، فمملوكه دخل الجنة وتمتع بنعيمها، وتركه يتظلى بجحيم من العيش، وقسوة الفراق، وينهي الشاعر قصيدته بالدعوة لقبور مملوكه بالسقيا، فيقول: (١)

كيف صيرتَ لي الغرامَ غريماً ؟  
وقد كُنتَ لي صديقاً حميماً  
لتنايك مفعوداً ومقيماً  
صيرَ الحزنُ في الفؤادِ مقيماً  
منك نطقاً عذباً وصوتاً رخيماً  
وتواري في الترابِ عظمي الرميماً  
بِ فأمسى نواك خطباً جسيماً  
د فأورثتَ في فؤادي الجيماً  
ش وأبقيتَ لي العذابَ الأليماً  
ت بزلفى الجبان فوزاً عظيماً  
ورضيماً وبافسماً وفطيماً

يا خليلاً ما زال خصماً لخصمي  
كيف جرعتني الحميم من الحزن  
نمتَ عن حاجتي، فأحدثتَ عندي  
وترحلتَ عن فنائي رحيلاً  
لستُ أنساك والمنية تخفي  
كنتُ أملتُ أن تشيع نعشي  
وتوقعتُ أن أردَّ بك الخطي  
قد تبواتَ قاطناً الخل  
وتفردتَ بالنعيم من العي  
فسقى عهْدك العهادُ فقد فز  
وعليك السلامُ حياً وميتاً

وتصور القصيدة الثانية الخسارة الكبيرة التي مني بها الحلي بموت مملوكه، وتعبّر عن علاقة أمتن وأشد قوة ربطتهما، فقد عده الشاعر فيها بمثابة الابن، وجعله يتفوق على أقربائه الحقيقيين حظوة ومنزلة، لأن هؤلاء كانوا يرجون موت الحلي وهلاكه كي يتمتعوا

(١) الحلي، الديوان، ص ٢٨٩.

بماله وجاهه، أما مملوكه الذي جلبه رضيعاً ورباه، فكان له نعم الخادم المطيع، الذي أفنى حياته في خدمته، وحرص دائماً على إرضائه وعلى مصالحه وتلبية احتياجاته، ولو كان ذلك على حساب نفسه، ثم يستجلي الشاعر محاسن مملوكه وخصاله الحميدة، فيتحدث عن أمانته وفصاحته وقوته وجماله، فيقول: (١)

لا عَبْدٌ يُغْنِي عَنْهُ وَلَا وَالدٌ	مَا كُلُّ عَبْدٍ عَلَيْهِ يُعْتَمَدُ
وَلَا سَلِيلٌ يَسْرُهُ تَلْفِي	كِنَاصِحِ فِي رِضَايَ يَجْتَهِدُ
ذَا يَتَمَنَى فَقَدِي لَكِي يَجِدُ	مَالٌ وَهَذَا لِحَزْنِهِ يَجِدُ
رَبِيبٌ بَيْتِي، بَلْ رَبٌّ نَعْمَتِهِ	وَمَنْ بِهِ فِي الْأُمُورِ أَعْتَضِدُ
يَسْعَى لِنَفْعِي بِالطَّبْعِ مِنْهُ، وَلَا	يَقْصُرُ فِي فِعْلِهِ وَيَضْطُّ هِدُ
وَهُوَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ إِنْ عَرَضَتْ	لِي أَرْمَةٌ كَانَ مِنْهُ لِي مَدَدُ
مَنْظَرُهُ صَالِحٌ وَمَخْبَرُهُ	فَالْبَدْرُ فِي بُرْدَتِيهِ وَالْأَسَدُ
كَانَ لِسَانًا لِي نَاطِقًا، وَبَدَأَ	طُولِي، وَظَهَرَ إِلَيْهِ اسْتِنْدَادُ

ثم يتحدث عن رعايته لذلك المملوك مذ كان صغيراً، وحسن معاملته له، إذ كان له بمثابة الأب العطوف الذي أشرف على تعليمه وتثقيفه وتهذيبه حتى غدا على درجة عالية من الثقافة والفصاحة وحسن الخلق، والقدرة على الكتابة، واتقان فن القول، وهو يمزج ذلك كله بالحسرة عليه واللوعة على فراقه، يقول: (٢)

كَفَانَتُهُ يَافِعًا فَكُنْتُ لَهُ	كَالْوَالِدِ الْبَرِّ، وَهُوَ لِي وَالدٌ
مُعْتَقِدًا فِيهِ مَا تَحَقَّقَ لِي	مَنْ وَدَّ وَهُوَ فِي مَعْتَقِدِ
وَوَظَلْتُ أَغْذُوهُ بِالْعُلُومِ، وَمَا	يَزِينُهُ وَهُوَ فِيهِ مُجْتَهِدُ
فَجَاءَ مُسْتَعَذِبُ الْخَلَائِقِ وَاللَّفِّ	ظٌ وَمَصْبِيحُ فَهْمِهِ يَقْدُ
مَهْدَبُ اللَّفْظِ مَا بِمَنْطِقِهِ	زَيْغٌ، وَلَا فِي خِلَالِهِ أَوْدُ
يُعْرَبُ أَلْفَظُهُ فَيَنْفُثُ فِي	سِحْرِ الْمَعَانِي وَمَا بِهَا عَقْدُ
وَإِنْ خَطَّ طَرَسًا، فَالْدَرُّ مُنْتَظَمٌ	أَوْ قَالَ لَفْظًا فَجَوْهَرٌ بَدْدُ

(١) الحلبي، الديوان، ص ٣١١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣١٢.

لله قلب رثت علائقهُ به وأثوابُ حزنه جُدُدُ  
 قَطَعْتُ من غيرهِ الرجاءَ فما وَجَدْتُ مثلاً له ولا أَجْدُ

تكشف القصيدتان السابقتان عن المكانة العظيمة التي حظي به ذلك المملوك في حجر سيده الحلبي، وتبينان أنه لم يكن مملوكاً عادياً كغيره من المماليك، وإنما هو على درجة كبيرة من العلم والمعرفة وحسن الخلق فضلاً عن الجمال وحسن الخلقة، وتجليان الصورة عن الدور الذي لعبه في حياة سيده، ولذا كان موته خسارة عظيمة، ومصاباً جليلاً نزل بالحلي الأمر الذي جعله يرثيه، ويندبه ويكثر فيه البكاء.

أما المغنون في ذلك العصر، فلم يحظوا بمراتٍ كثيرة على الرغم من شهرتهم ودورهم في المجتمع المملوكي، وشغف العامة والخاصة بهم، وكل ما عثر عليه أربع مقطوعات نظمها صلاح الدين الصفدي، إحداهما في رثاء خالد بن المصنف المغني المتوفى سنة ٧٣٥هـ، وثلاثة في رثاء طقصبأ المغني.

أما المقطوعة التي رثى بها خالد بن المصنف، فقد وصف فيها الحزن العام على ذلك الفقيد، وأشاد بقدرته على الغناء حين جعله سيد ذلك الفن، وجعل بقية المغنين سلبقيهم ولاحقهم عيالاً عليه، ثم صور حزن آلات الغناء عليه ودعوتها بالرحمة له، وهي صورة مستوحاة من بيئة الغناء والمغنين آنذاك، يقول (١)

دَمَضَى خَالِدُ الْمَغْنِيِّ وَوَلِيَّ قِوَعِ الدَّمُوعِ وَقَفَا جَوَارِ  
 كَمْ لَهُ نُوبَةٌ، وَمَا كَانَ فِينَا بِأَمِيرٍ تُدَقُّ فِي الْأَسْحَارِ  
 وَلِأَقْوَالِهِ الْمَطَاعَةَ يَعْتَوِ كُلُّ مَنْ جَاءَ بَاقِي فِي الْأَعْصَارِ  
 هَكَذَا فَلْتَكُنْ أَمَارَةٌ مَنْ أَتَى قَنَّ فَنَّا وَغَيْرُهُ ذُو الْفَتَقَارِ  
 رَحْمَةُ الْجَنِّكَ وَالذَّقُوفِ عَلَيْهِ وَصَلَاةُ الْعِيْدَانِ وَالْمِزْمَارِ

أما المقطوعات الأخرى، فيذكر الصفدي أنه نظمها تلبية لارغبة القاضي بهاء الدين بن غانم، وذلك حين زار بصحبته قبر طقصبأ فوجدا "قبره قد نبئت به أنواع الزهور" (٢)، وهي مقطوعات لا تنبئ عن مشاعر صادقة، وحزن حقيقي، وإنما هدف

(١) الصفدي، أعيان العصر، ١١/٢.

(٢) المصدر نفسه، ١١/٢.

الشاعر من نظمها إظهار براعته الشعرية وقدرته على التصوير وحسن التعليل، ولذا راح يحلق بخياله معللاً ومفسراً وجود الزهور الجميلة على قبر ذلك المغني، فتارة يبين أن أنفاسه هي التي أهدت إلى وجه الأرض تلك الزهور، فيقول: (١)

بنفسي حبيباً قَبْرُهُ رَاحَ رَوْضَةً      خَمَلْتُهَا مَسْرُوقَةً مِنْ مَخَائِلِهِ  
دَرَى أَنَّهُ لَا صَبْرَ لِلنَّاسِ بَعْدَهُ      فَأَهْدَى لَهُمْ أَنْفَاساً فِي شَمَائِلِهِ

وتارة يكشف عن أن محاسنه الجميلة التي ذوت في باطن الأرض وهي التي خرجت على ظهرها على شكل زهور ورياض جميلة، يقول: (٢)

لَا تُنْكِرُوا زَهْرًا مِنْ حَوْلِ تَرْبَتِهِ      أَضْحَى نَسِيمُ الصَّبَا مِنْ نَشْرِهَا عَطِرًا  
هَذِي مَحَاسِنُ ذَاكَ الْوَجْهِ غَيْرَهَا      بَطْنُ الثَّرَى فَاسْتَحَالَتْ فَوْقَهُ زَهْرًا

وتارة أخرى يصور ذلك المغني بالقمر، وتلك الزهور بالنجوم التي تدور في فلكه، فيقول: (٣)

أَفْدِي حَبِيبًا غَدَا فِي التَّرْبِ مَضْجَعُهُ      وَفِيهِ لَدَّ بَجْفَنِي الدَّمْعُ وَالسَّهْرُ  
تَحْكِي نَجْمَ السَّمَاءِ زَهْرًا تَرْبَتِهِ      لِأَنَّ طَلْعَتَهُ تَحْتَ الثَّرَى قَمَرُ

وبعد تلك الجولة في الأشعار التي رثي بها الغلمان والمماليك والشباب والمغنين، تبين أن الشعراء عبروا فيها عن مشاعرهم الحزينة، وأساهم ولوعتهم، وقد تفاوتت درجة الصدق فيها من شاعر إلى آخر حسب درجة العلاقة التي تربطه بمرثيه، وكشف البحث عن أن بعض الشعراء لم يرث مملوكه أو غلامه بدافع إظهار حرقة عليه، وإنما قصد من ذلك إظهار براعته الفنية، وقدرته على التلاعب بالألفاظ.

وأظهر البحث أن الشعراء تغزلوا بمرثيهم، وأثروا على خصالهم الحميدة، وأنهم سلكوا في التعبير عن ذلك نهجين:

(١) الصفدي، أعيان العصر، ١١/٢.

(٢) المصدر نفسه، ١٢/٢.

(٣) المصدر نفسه، ١٢/٢.



الأول: وصفوا محاسن مرثيهم الحسية المادية، فأبرزوا جمال وجوههم، ورشاقة قدودهم وجعلوها تضاهي في حسنها مظاهر الطبيعة الجميلة، ولذا صوروا حزن تلك المظاهر عليهم، وتعطلها بعدهم.

أما في النهج الثاني، فقد أشادوا بفضائلهم النفسية وصفاتهم المعنوية، وتعددت المعاني التي قدموها وتنوعت واتسع مجال القول فيها، إذ تحدثوا عن أخلاق غلمانهم ومماليكهم، وشجاعتهم وثقافتهم، وعلومهم وفصاحتهم وأمانتهم وعطفهم على الفقراء وغير ذلك من الخصال الحميدة التي أوضحتها الصفحات السابقة.

وكشف بعض الشعراء عن الممارسات للأخلاقية التي كان يمارسها بعض الناس مع مملوكه، وفي مقابل ذلك بينوا المكانة المرموقة التي حظي بها بعض المماليك في حياة أسيادهم ونفوسهم حتى أنزلوهم منها منزلة الابن أو الصديق، وفضلوهم على الخلق كلهم، وأشرفوا على تربيتهم وتثقيفهم، وبنوا الآمال العظيمة عليهم.

وتحدث الشعراء عن مصير مرثيهم بعد الموت، وجاء ذلك في معرض مقارنتهم بين حالتهم النفسية الحزينة والوضع الذي آل إليه أولئك المرثيون، الذين غدوا يتقبلون في نعيم الجنة ومتعها، ودعوا لهم بالرحمة والمغفرة، ولقبورهم بالسقيا، كما تناولت أشعارهم المعاني الفلسفية التي تتحدث عن مشكلتي الحياة والموت.

## رثاء مظاهر حضارية

وصف شعراء العصر المملوكي الأول أدواتهم وأشياءهم المادية التي يستخدمونها في حياتهم، ويعتمدون عليها في أمورها، وأكثروا من ذلك، فقالوا في الكأس، والبساط، والمصلى، والناعورة، والمروحة، وغير ذلك، وكان وصفها ظاهرة عامة لم يقتصر على شاعر دون غيره، ولعل شعر الألباز الذي شاع في ذلك العصر، كان قائماً على التلغيز بتلك الأدوات والأشياء الحضارية.<sup>(١)</sup>

ولم يكتف شعراء هذا العصر بوصف أدواتهم، ولكنهم رثوا حين تلفت، وحين شعروا بفقد عامل من عوامل عونهم وسعادتهم، ولم يكن رثاء تلك الأدوات جديداً في

(١) انظر ياسين الأيوبي، آفاق الشعر في العصر المملوكي، ص ٣٩٤-٣٩٩.

لشعر العربي، وإنما وجد منذ العصر العباسي الأول.<sup>(١)</sup> إلا أن الشعر الذي نظم في العصر المملوكي الأول كان قليلاً ولا يمثل ظاهرة عامة، إذ لم يسفر البحث في المصادر المتوفرة إلا عن مقطوعتين، وقصيدة طويلة، قيلت في رثاء قدح، وسهم، ونسرد، وبعد الإطلاع على تلك النصوص الشعرية، وحياة ناظميها اتضح أن الهدف من نظمها لم يكن سببه إظهار الحزن والبكاء والتفجع على ما خسره الشعراء بفقدتها، وإن حاولوا إقناع المتلقين بذلك وإنما كان الهدف منها:

أولاً: رغبة الشعراء في إظهار قدرتهم على الابتكار والتجديد والتصوير، وتوظيف المعاني المستمدة من بيئة الأداة المرثية.

ثانياً: إبراز روحهم الفكاهة والساخرة عن طريق تلك الأشعار، وبدل على ذلك مضمونها، وأن بعض ناظميها وهو شمس الدين بن دانيال تميز بروحه الهزلة ومجونه. ثالثاً: نقد المجتمع وإظهار ما فيه من انحرافات، وتجلي ذلك في قصيدة ابن دانيال في رثاء نرد صديقه صفي الدين.

ومن الشعراء الذي رثوا أدواتهم مجير الدين بن تميم إذ قال يرثي قدحه:<sup>(٢)</sup>

أَيَا قَدْحًا قَدْ صَدَعَ الدَّهْرُ شَمْلَهُ  
فَأَصْبَحَ بَعْدَ الرَّاحِ قَدْ جَاوَرَ التُّرْبَا  
سَأُبْكِيكَ فِي وَقْتِ الصَّبُوحِ وَإِنِّي  
سَأَكْتُرُ فِي وَقْتِ الْغَيْبِ لَكَ الذُّبَا

يستعين الشاعر على رثاء قدحه بالمعاني التقليدية المستوحاة من مرثي الإنسان، وبالألفاظ المستمدة من وظيفة ذلك القدح، فيحمل الدهر مسؤولية تلفه، ومجاورته السراب، ويعاهد نفسه أن يظل وفياً له وباكياً عليه في أوقات شرب الخمر وهي الصبوح والغبوق، وهي الأوقات التي يفترقه فيها.

ويرثي أيدم المحيوي سهماً له انكسر بأبيات يعبر فيها عن أثر انكساره في نفسه، فقد لازمته الأحزان، وهجره النوم، ويستذكر وظيفة ذلك السهم حين كان يروع الحيوانات، ويصطادها، ويكشف عن غبطة تلك الحيوانات والطيسور بموته، إذ نعمت بالحياة، وأضحيت في مأمن من المخاوف، ثم يوظف الشاعر ألوان القسي الصفرة، وحركتها أثناء الرمي، ليجعل منها دليلاً على حزنها وأنيبها على سهمه المكسور، وينتهي

<sup>(١)</sup> انظر مطهر غانم، الرثاء في شعر العصر العباسي الأول، ص ٤٩١، ٤٩٢.

<sup>(٢)</sup> الصغدي، الوابي، ٢٣٠/٥، الكتبي، فوات الوفيات، ٥٥/٤.

أبياته متعجباً من الموت الذي سطا على سهمه، بعد أن كان له دور كبير في خطف الأرواح وإنهاء الأجال، يقول: (١)

يا سَهْمُ هَاجَ رَدَاكَ لِي بَلْبَالاً  
مُدُّ بِنْتِ مَا رَاعَ الْحَمَامُ حَمَامَةً  
ولطالما شَوَّسْتَ مِنْ سِرْبِ الْمَهَا  
ولطالما أَوْجَسْتَ نَبَاةَ طَائِرِ  
وَقَدْ كُنْتُ أَعْجَبُ لِلْقَسِيِّ سَقِيمَةً  
فَإِذَا بِهَا عِلْمًا بِيَوْمِكَ فِي الرَّدَى  
عَجَبًا مِنَ الْأَجَالِ كَيْفَ تَقَسَّمَتْ  
وأطالَ نومي والهمومَ أطالاً  
ومأً ولا علقَ المَنونَ غَزالاً  
ألفاً ومن سَطَرَ الكراكِي دالاً  
يوماً فَطَرْتُ فَجُسْتُ مِنْهُ خِلالاً  
صَفْراً تَرَنَّ كَأَنَّهُنَّ تَكَالِي  
كَانَتْ عَلَيْكَ تَكَابِيْدُ الْأَهْوَالِ  
فِيهِ وَكَانَ يُقَسِّمُ الْأَجَالَ

ولا يخفى من الأبيات حرص الشاعر على إبراز براعته الفنية، وسعيه إلى توظيف المعاني المنتزعة من بيئة ذلك السهم ووظيفته لابتكار معاني جديدة لم يسبق إليها. ونظم الشاعر شمس الدين بن دانيال قصيدة رثى بها نرد صاحبه صفى الدين، بلغ عدد أبياتها خمسة عشر بيتاً، وفيها يعزّي الشاعر صاحبه بنرده ويواسيه، ويطلب منه التجميل والعزوف عن البكاء خشية سخرية الحساد الذين يترقبون نزول المصائب به، ثم يتحدث عن أحجار ذلك النرد والمادة المصنوعة منها وهي العاج، ويصف ما عليها من نقوش خضراء، ويجعلها تضاهي بجمالها ما يزين أكف النساء البيض المخدرات من وشم وحناء، ويشير الشاعر إلى الوظيفة التي كانت تؤديها تلك الأحجار في عصره، ويبين أهميتها عند من يمارسون لعب القمار، ويعكفون على شرب الخمر، ثم يكشف في نهاية قصيدته عما فعلته بصاحبها صفى الدين، إذ شغلت عقله، وأنسته أداء واجباته الدينية من صلاة وصوم وغيرها، وهو في كل ذلك يستخدم أسماءها الفارسية للتعبير عن معانيه ومنها قوله: (٢)

عَزَاوُكَ طَوْلَ الدَّهْرِ يَا ابْنَ أَبِي الفَخْرِ  
فَلا تَبْدِينْ حُرْناً فَيَشْمَتُ حاسِداً  
وَعَجْجُ سَالِيَاً عَنِ بِنْتِ عَاجِ عِدْمَتِهَا  
عَزِيْزُ أَسَى إِذْ لَسْتُ تَجْنَحُ لِلصَّبْرِ  
وَكَفْكَ دُمُوعَ العَيْنِ فِي السَّرِّ والجَهْرِ  
فصُوصُ قَمَارِ كُنْ أَعْلَى مِنَ البَدْرِ

(١) الصغدِي، (الرواق ١٠/١٠، الكتبي، فوات الوفيات، ٢١٠/١-٢١١، الغزولي، مطالع البدور، ١٦٧/٢).

(٢) الصغدِي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ٢٢٢-٢٢٣.

مُنْعَمَةٌ بِيضَاءُ خُضْرٍ نَقُوشُهَا  
تُطَاوِعُهَا فِي الْأَمْرِ وَهِيَ أَيْبَى  
وَلِلْبَنْجِ (١) فِعْلُ الْبَنْجِ فِي اللَّبِّ مَا بَدَأَ  
إِذَا مَا بَدَأَ لِلدُّوِّ (٢) شِكْلَانِ أَمْسِيَا  
وَكَالْخَالِ نَقَشُ الْبَيْكِ يَسْبِيكَ لَوْنُوهُ  
تَرَوْفَكَ مِنْ شَفْعٍ وَوَتَرٍ نَقُوشُهَا

ويبدو أن الشاعر حين يرثي ذلك النرد، ويتحدث عن دوره في حلقات القمار والشراب، وشغف صفي الدين به شغفاً جعله يلهو عن فرائض دينه، يعطي صورة عن مجتمعه، وما فيه من انحرافات، ويكشف عن موهبته الفنية، ورغبته في الابتكار والتجديد، وإظهار ما يتحلى به من خفة ظل ومرح.

ومن المظاهر الحضارية التي رثاها الشعراء البساتين، وهي من ألوان الرثاء التي ظهرت في الشعر العربي منذ العصر العباسي الأول، (٣) وقد نظم فيه شعراء العصر المملوكي الأول إلا أن ما وصل من مراثيهم لا يمثل ظاهرة عامة شاع القول فيها شيوعاً كبيراً، ذلك أن البحث لم يسفر سوى عن ثلاث مقطوعات نظمها الشعراء عقب ما أصاب الصقيع بساتين دمشق سنة ٦٦٦هـ، وقد ذكر المؤرخون في حوادث تلك السنة أنه حين "أراد الظاهر (بيبرس) أن يقرر القطيعة" (٤) على البساتين بدمشق، واحتاط عليها وعلى الأملاك والقرى، وهو نازل على الشقيف، قال القاضي شمس الدين بن عطا الحنفي: هذا ما يحل ولا يجوز لأحد أن يتحدث فيه، وقام مغضباً، وتوقف الحال، وصقعت البساتين تلك السنة، وهدمت الثمار جملة كافية" (٥)، وقد وصف الشعراء في مقطوعاتهم ما نزل بالبساتين جراء البرد والصقيع، وقارنوا بين حالها قبله وبعده، إذ هدمت الثمار والنضارة والجمال بعد ما كانت مأوى للحسن والبهاء كله، وتحسروا عليها وبكوها، وعللوا ما

(١) الحجر الذي يحمل العدد خمسة.

(٢) الحجر الذي يحمل العدد اثنين.

(٣) انظر مظفر غام، الرثاء في شعر العصر العباسي الأول، ص ٤٧٩.

(٤) بمعنى الضريبة.

(٥) الصفدي، الوافي، ١٠/٣٤٥، الكتبي، عيون التواريخ، ٢٠/٣٦٢، فوات الوفيات، ١/٢٤٧.

أصابها بأنه حزن منها على ما نزل بأصحابها الذين أجبروا على تركها ودفع الضريبة  
لبيبرس.

ومن هؤلاء الشعراء الذين رثوها، وتحسروا عليها مجد الدين بن سحنون خطيب  
النيرب في قوله معبراً عن المعاني السابقة<sup>(١)</sup> :

وَأَهَا لِأَعْطَافِ الْعُصُونِ وَمَا الَّذِي صَنَعْتَهُ أُيْدِي الْبَرْدِ فِي أَثْوَابِهَا  
صَبَّغَتْ خَمَائِلَهَا الصَّبَا فَكَأَنَّهَا قَدْ سُوِّدَتْ أَسْفَاً عَلَى أَصْحَابِهَا

وقريب من المعنى السابق ما يحمله قول الشاعر الشيخ نور الدين أحمد بن  
مصعب، ولكنه يجعل ذلك السواد الذي صبغها ثياب حداد ارتدتها الأشجار حزناً على  
فراقها لأربابها<sup>(٢)</sup>

لَهْفِي عَلَى حَلِّ الْعُصُونِ تَبَدَّلْتُ مِنْ بَعْدِ خُضْرَةٍ لَوْنِهَا بِسَوَادِ  
وَأَظْنَهَا حَزْنَتْ لِفِرْقَةِ أَهْلِهَا فَلِذَلِكَ قَدْ لَبِسْتُ ثِيَابَ حَدَادِ

ويقف الشاعر ذاته في مقطوعة أخرى على تلك البساتين والرياض، فيسألها عن  
حسنها وجمالها ونضرتها، فتجيبه أنها احترقت من أنفاسها الحزينة بعدما هجرها روادها،  
وهجرتها الطيور المغردة، وقت الربيع، ويبيد الشاعر حزنه وأسفه، ويذرف عليها  
الدموع، فيقول:<sup>(٣)</sup>

لَمَّا وَقَفْتُ عَلَى الرِّيَاضِ مُسَائِلًا مَن كَانَ يَأْلُفُنِي مِنَ الْعُشَاقِ  
قَالَتْ أَتَى زَمَنُ الرَّبِيعِ وَلَا أَرَى لَمَّا أَضَاءَ الْجَوُّ بِالْإِشْرَاقِ  
وَتَنَاشَدَتْ أَطْيَارُهَا فِي دَوْجِهَا فَأَصَابَهَا لَهَبٌ مِنَ الْإِخْرَاقِ  
فَتَذَكَّرْتُ أَيَّامَهُمْ فَتَنَفَّسْتُ هَا قَدْ وَقَفْتُ بِالْعَهْدِ وَالمِثْاقِ  
وَأَبْلَغُهُمْ عَنَّا السَّلَامَ وَقُلْ لَهُمْ وَالذَّمْعُ يَسْبِقُنِي مِنَ الْأَمَاقِ  
فَعَدَوْتُ أُبْدِي مَا جَرَى مَتَأَسَفًا

(١) الصفدي، الوافي، ٣٤٥/١٠، الكتي، عيون التواريخ، ٣٦٢/٢٠، فوات الوفيات، ٢٤٦/١.

(٢) المصدر نفسه، ٣٤٥/١٠، المصدر نفسه، ٣٦٣/٢٠، المصدر نفسه، ٢٤٦/١، ابن حبيب، درة الأسلاك، ١١٦/١.

(٣) الكتي، عيون التواريخ، ٣٦٣/٢٠.

ويظهر من المقطوعات الماضية أن الشعراء كانوا على درجة كبيرة من الحزن والأسى على تلك البساتين، ولعل ذلك ما يميزها عن مرثي البساتين التي نظمت في العصر العباسي الأول، ذلك أن الأخيرة جاءت خالية من الحزن والبكاء حتى كادت "تتباعد عن الرثاء".<sup>(١)</sup>

## رثاء اللّهُو والمجون

عاش الناس في العصر المملوكي الأول حياة قاسية وصعبة سببها الحروب التي دارت بينهم وبين أعدائهم من مغول وصلبيين، والكوارث الطبيعية والأمراض التي كانت تصيب البلاد بين حين وآخر، هذا فضلا عن ظلم الطبقة الحاكمة وقهرها لهم، وقد ولدت تلك الحياة اتجاهين في مجتمعهم: اتجاه ارتد إلى الدين والزهد فوجد فيه ملاذ، واتجاه آثر حياة العبث واللّهو ليخفف من معاناته، وينسى همومه. وقد توفرت لرواد هذا الاتجاه، عوامل شجعتهم على الانغماس فيه، ومنها انتشار الخمر والحشيش والحانات التي كانت تملأ البلاد، وقد شاعت الخمرة شيوعاً كبيراً فعصرت في أنحاء البلاد، وبيعت على رؤوس الأشهاد<sup>(٢)</sup>، ولا أدل على ذلك مما ذكره المقرئ حين تحدث عن عيد من أعياد النصارى شاركهم فيه المسلمون، قال "ويباع في ذلك اليوم من الخمر بنحو مائة ألف درهم حتى إنه في سنة باع رجل نصراني بمائتين وعشرين ألف درهم خمرأ، فكان أهل شبرا يوفون الخراج من ثمن الخمر"<sup>(٣)</sup>، ونكر كثير من الأوروبيين الذين زاروا مصر في ذلك العصر "أن الخمر متوفرة في البلاد وأنهم لم يلقوا أية صعوبة في الحصول على نبيذ فاخر في أي وقت"<sup>(٤)</sup>.

ولم يقل انتشار الحشيش عن الخمر آنذاك فقد فشا كما يقول المقرئ: "أمرها واشتهر أكلها وارتفع الاحتشام من الكلام بها حتى لقد كادت أن تكون من تحف المترفين، وبهذا السبب غلبت السفالة على الأخلاق، وارتفع ستر الحياء والحشمة من بين الناس، وجهروا بالسوء من القول، وتفاخروا بالمعائب، وانحطوا عن كل شرف وفضيلة، وتحلوا

(١) مظفر غانم، الرثاء في شعر العصر العباسي الأول، ص ٤٨٠.

(٢) د. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ٢٣١.

(٣) المقرئ، السلوك، ٣٦٢/٢.

(٤) د. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ٢٣١.

بكل ذميمة من الأخلاق وردذيلة؛ فلولا الشكل لم تقض لهم بالإنسانية، ولولا الحس لَمَا حكمت عليهم بالحيوانية" (١). ولم يتقش الحشيش بين الطبقات الدنيا فحسب، وإنما تخطاها إلى غيرها من الطبقات، فأكله كثير من العلماء، وأفتى بعضهم بإباحته، وشغف به الصوفية والفقراء شغفا كبيرا فنسب إليهم، إذ أطلق عليه المعاصرون "حشيشة الفقراء"، وكان للحشيش أماكن خاصة لزراعته معروفة بين الناس، وتتميز بعضها بجودة إنتاجها دون غيرها، ولذلك كله نظم بعض أدباء ذلك العصر أشعارا كثيرة أوضحوا فيها مزايا الحشيش وفضلوه على الخمر. (٢)

وقد دفع ذلك الأمر وتلك التجاوزات الخاطئة بعض أرباب الدولة المملوكية إلى وقفها، ومعاقبة المخالفين بعقوبات تصل إلى حد القتل، ومن هؤلاء الملك الظاهر بيبرس، فقد ذكر المؤرخون أنه لم يشرب خمرا قط في حياته، "وحذر منه وأخذ خطوط ولاية ممالكة بأن لا يمكنوا أحدا من تعاطيه البتة، وساوى في المنع بين أمرائه ورعيته" (٣)، وأثر عنه أنه شنق أحد أمرائه بيده لأنه أدمن شربها (٤)، وأنه كان لا يشمل بإحسانه أرباب الملاهي والمغاني "فإنه لم ينفق لهم في أيامه سلع، ولا لهم بالأرزاق بذلك طمع" (٥). وقد أطال المؤرخون في الحديث عن دوره في إبطال الخمر وإراقها، وإزالة المنكرات، ونفي الفساد من البلاد على مدار سنوات حكمه (٦)، واتخذ إجراءات صارمة لمنعها كان أشدها ما فعله سنة ٦٦٦ هـ، ففيها أمر "بإبطال ضمان الحشيش، وإحراقها، وأخرب بيوت المسكرات، وكسر ما فيها من الخمر وأراقها، ومنع الحانات والخواطيء واستتاب العلوق واللواطى، وعم هذا الأمر سائر جهات الديار المصرية، وبرزت المراسيم الشريفة، بمنع ذلك من سائر الجهات والبلاد الشامية، فظهرت في أيامه سائر البقاع، وامتنع الناس غاية الإمتناع" (٧)، ولم يكتف بإصدار ذلك المرسوم، وإنما تشدد في تطبيقه، وجعل الحد على مخالفه القتل بالسيف والصلب، وهذا ما فعله مع ابن الكزروني

(١) المقرئ، الخطط، ٢٣١/٣.

(٢) انظر المصدر نفسه، ٤٨/٣، ٤٩، ٢٠٩، ٢٢٦، ٢٣١، د. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ٢٢٩-٢٣٠.

(٣) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٣٠٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٣٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ٤٢٥، وانظر، المقرئ، السلوك، ٨٧/٢.

(٦) انظر بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ٥٦، ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٠/١٣، المقرئ، الخطط، ١٩٨/١، السلوك، ٣٤/٢، ٣٦.

٤٩، ٥٩، ٧١، ٧٥.

(٧) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١ ق ١/٣٢٦، وانظر الكتي، عيون التواريخ، ٣٨٠/٢٠، المقرئ، الخطط، ١٩٩/١.

إذ أمسك "وهو سكران فصلب وفي حلقه جرة خمر" (١)، وكان لتلك الإجراءات الصارمة صداها في شعر الشعراء إذ راح الأدباء يتحدثون عن قسوتها، ويصفون ما نزل بالمخالفين من عقوبات، وكثرت مقطوعاتهم التي تخاطب إبليس، وتعلن عن توبته، وتصور حالته وحال أتباعه، وتحذره من البقاء في مصر (٢)، وكان الأديب شمس الدين بن دانيال أحدهم، فقد صورها في أدبه، إذ نظم المقطوعات في ذلك، وجعل تلك الحادثة مادة تمثيلية المعروفة بـ "طيف الخيال، ورثي الخلاعة والمجون بقصيدة طويلة، ومما جاء في تلك التمثيلية قوله "إلا أنني من حين توبتي من هذه الخصال، وتوديعي لأخي وصال، ورجوعي من الموصل الحدباء إلى الديار المصرية في الدولة الظاهرية، سقى الله عهدها، وأعذب في الجنان وردها، وجدت تلك الرسوم الدارسة، ومواطن أنسها غير آنسة، عافية الآثار ساقطة الجد بالعثار، وقد هزم أمر السلطان جيش الشيطان، فانكفت السنة البواطية، (٣)، وتابت الباغيات والخواطيء، وتآذى الفلاح غاية الأذية، وصلب نبال في عنقه نبالية (٤)...، وشاعت الأخبار، وقوي الإنكار، وانكسر الخمار، وانطحن المزار (٥)، وانزوى المسطول في القرنة الغبراء، وصارت كل يابسة بين يديه خضرا، ونقرت في الأصفاد، وبات محمص الفؤاد، فدعاني بعض الأخلاء إلى محله، وأنزلني بين قومه وأهله، واعتذر إليّ عن تقصيره في إكرامي، ولاختصاره في الضيافة، إذ لم يأت بمرامي، وقال غلب على ظني أن أبا مرة (٦) قد مات، وعد من جملة الرفات، قم بنا نبكيه، ونصف الحالة هذه ونرثيه.. " (٧).

قد بدأ قصيدته برثاء إبليس، فأعلن عن موته، وبطلان شرائعه بعد تعطل حانات الخمر، وأماكن شربها، ثم ألقى الضوء على ما أصاب مجمع الخلاعة من دمار وتخريب،

(١) الصفدي، الوافي، ٣٤٣/١٠، وانظر الكنتي، عيون التواريخ، ٣٨٠/٢٠، المقرزي، السلوك، ٤٩/٢.

(٢) انظر هذه الأشعار في: الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ١٠٥، الوافي، ٣٤٣/١٠ - ٣٤٤، أعيان العصر، ٤٣٢/٤ - ٤٣٣، الكنتي، فوات الوفيات، ١/٢٤٥، ٣/٥٤، عيون التواريخ، ٣٨٠/٢٠ - ٣٨١، بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ٥٦، المقرزي، الخطط، ١٩٩/١، السلوك، ٣٨/٢.

(٣) جمع باطية إناء للخمر ضيق أسفله، واسع أعلاه، "معرب"، ويتخذ من الحزف عادة، انظر المختار من شعر ابن دانيال، ص ١٢ حاشية (٣١٥)

(٤) وعاء الخمر

(٥) صانع المزور وهو النبيذ المأخوذ من الشعير والحنطة، المنجد في اللغة والإعلام، مادة "مزر".

(٦) يقصد إبليس.

(٧) إبراهيم حمادة، خيال الظل وتمثيلات ابن دانيال، ص ١٥٠ - ١٥١ ابن إبليس، بدائع الزهور، ج ١ ق ١ - ٣٢٥١ - ٣٢٦.



فأوعية الخمر كسرت، وزج بائعها في السجن، وروادها أضحوا ذاهلين من هول ذلك اليوم، وفضل بعضهم التجريس<sup>(١)</sup> على تركها، ونعى الشاعر على إبليس صمته، مكررا السؤال عن حاله، وهي تساؤلات جاءت لتؤكد هلاكه وتراجع سطوته، وحتى تكون المعاني مقبولة عند المتلقين، وشاهدا على واقع الحال، استوحى الشاعر ألفاظه وصوره من مجتمعه عامة، وبيئة اللهو والمجون خاصة، ولذا امتازت تلك الصور بالجلبة، والتكسير، والزعيق، يقول: (٢).

ماتَ يا قومُ فجأةً إبليسُ  
ونعاني حدسي به إذ تُوفي  
هو لو لم يكن كما قلتُ ميتاً  
أين عيناه تنظرُ الخمرَ  
والبواطِي بها تكسرنَ والخمّا  
وذوو القَصْفِ ذاهلون وقد كا  
كم خليعٍ يقول ذا اليوم يومٌ  
وفتى قائلٍ لقد هان عندي  
أين عيناه تنظرُ المِزرَ إذا أو  
وعجينُ البقولِ قد بددوه  
والقناني مكسراتٌ كما قَدِ

وَخَلا مِنْهُ رَبْعَةُ المَأْنُوسُ  
وَلَعَمْرِي مَمَاتُهُ مَحَادُوسُ  
لَمْ يَغْيِرْ لِحُكْمِهِ نَامُوسُ  
إِذْ عَطَّلَ مِنْهُ الرَّاوِقُ وَالْمَجْرِيْسُ (٣)  
رُ مِنْ بَعْدِ كَسْرِهَا مَحْبُوسُ  
دَتَ عَلَى سَلْهَا تَسِيلُ النَّفُوسُ  
مِثْلَمَا قِيلَ قَمَطِرِيرٌ (٤) عِبُوسُ  
بَعْدَ هَذَا فِي شَرْبِهَا التَّجْرِيْسُ  
حَسَّ مِنْهُ المَاجُورُ وَالْقَادُوسُ (٥)  
وَهُوَ بِالتَّرْبِ خَلَطُهُ مَبْسُوسُ  
كُسِّرَتْ فِي رَحَى البِدُورِ الكُوسُ

ثم يصور أرباب الخلاعة وهو ينادون على بعضهم بأسمائهم المستعارة، ويكون على مصيرهم بعد ما كسدت سوقهم، وأضحوا بلا مأوى، وينشدون الرحيل عن مصر، ويعاود الحديث عن إبليس فينعي عليه صمته، ويتحسر على ما فعله جنود الظاهر ببيرس بالحشيش إذ اقتلعوها من أماكن زراعتها، وأحرقوها بنار عظيمة، يقول: (٦)

(١) وأصله أن يركب المذنب دابة ووجهه إلى ذنبها وفي عنقه حرس، انظر الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ١١٢ حاشية ٣١٧.

(٢) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ١١١-١١٣، إبراهيم حمادة، خيال الظل وتمثيلات ابن دانيال ١٥١-١٥٢ ابن إبليس، بدائع الزهور، ج ١ ق ١/٣٢٧-٣٢٨، الكتيبي، عيون التواريخ، ٣٨١/٢٠.

(٣) الراويق والمجريس، أماكن شرب الخمر انظر الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ١١٢، حاشية ٣١٤، المعجم الوسيط مادة "روق"

(٤) شديد البرد

(٥) المأجور والقادوس: أوعية الخمر انظر إبراهيم حمادة، خيال الظل، ص ١٥١، حاشية (٣)، المعجم الوسيط، مادة "قدس".

(٦) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ١١٣-١١٤، إبراهيم حمادة، خيال الظل، ص ١٥٢-١٥٣، الكتيبي، عيون التواريخ،

٣٨١/٢٠-٣٨٢، ابن إبليس، بدائع الزهور، ج ١ ق ١/٣٢٧-٣٢٨.

نَ "ونأتو" يصيحُ يا جاموسُ  
 وضاعت خريطتي والفلوسُ  
 ر وأين المزراقُ (٤) والدبوسُ (٥)  
 أخي من قضيتي محبوسُ  
 قنَ بنار تُراعُ منها المجوسُ  
 صيفاراً خضراً وهنَّ غروسُ  
 دموعاً يُطفئُ بهنَّ الوطيسُ  
 هذا يصيحُ يا جاموسُ  
 وسعودُ الخلاعُ فيها نحوسُ

وترى "زنكلون" يزعقُ زينو  
 نهبوا الكلَّ والطراير (١) والطار  
 أين سكركتي (٢) وطاجنة (٣) الفا  
 أين نمشي يا بنت عمي وزينون  
 أين عيناه والحشائشُ يُخرَ  
 قلعوها من البساتين إذ ذاك  
 والحرافيشُ حوالها يتباكون  
 ذا ينادي رفيقهُ يا عنيكير  
 أرحلوا هذه بلادُ عفافٍ

يتحدث الشاعر عن عنصر جديد من عناصر اللهو والمجون، وهن الخواطيء من النساء اللواتي احترفن الزنى والعمل في الخمارات، فيفحش في القول إذ وصف معاناتهن بعد ما فقدن الأنيس ومصدر الرزق، ثم عاد مرة أخرى فصور حال أرباب اللهو والخلاعة، يقول: (٦)

باكيات ونزهة و عروسُ  
 لا عناق ولا ضم لا تبويسُ  
 قي لم يبق بَعْدَها لي أنيسُ  
 مردَ والأحمدون يا طـاوسُ  
 شوق لي إن بدابه تعبيسُ

وقضيبُ وزينبُ وكهارُ  
 ذي تنادي حريفها لوادع  
 انقضى كلُّ ذاك والعهدُ في حنـ  
 أين زامرُدُ ازعقوا لي بزأ  
 من ترى بَعْدَ موتهِ يُضحكُ المعـ

(١) مفردها طار وتعني الآلات موسيقية، انظر الصفدي، أعيان العصر، ٣٠٧/١.

(٢) السكركة: شراب مسكر يصنع من طحين الذرة والشعير، انظر إبراهيم حمادة، خيال الظل، ص ١٥٢، حاشية (١).

(٣) الطاجنة، المقلبي فارسية معربة، ابن منظور، لسان العرب، مادة "طحن".

(٤) المزراق: الرمح القصير انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة "زرَق".

(٥) عصا طويلة في طرفها كتلة من الحديد، دوزي، تكلمة المعاجم العربية، ٢٨٩/٤، مادة "دبس".

(٦) الصفدي، المختار من شعر ابن دنياال، ص ١١٤ - ١١٥، إبراهيم حمادة، خيال الظل، ص ١٥٣ - ١٥٤ الكتبي، عيون التواريخ،

٣٨٢/٢٠، ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١ ق ٣٢٨/١.

وهناك أبيات أخرى أوردتها الصفدي في "المختار من شعر ابن دانيال"، مدح فيها الشاعر الوزير تاج الدين بن حنا، فصور عدله وجوده، وأثنى على دوره في القضاء على الفساد والمعاصي، وتطهير البلاد منها، وإعادة المجتمع إلى الطريق القويم، ومنها قوله: (١)

وَلَقَدْ قُلْتُ يَوْمَ أَنْكُرَ مِنْ أَنْكُرٍ      قَوْلِي لِمَا ثَوَى إِبْلِيسُ  
هو لولا عدلُ الوزير لما مات      ولا ضَمَّ جَسْمَهُ نَاوُوسُ (٢)  
كَيْفَ يَحْيَا فِي عَصْرٍ مِنْ لَيْسَ يَخْفَى      عَنْهُ مَيِّنٌ كَلَّا وَلَا تَلْبِيسُ  
طَهَّرَ اللهُ بِالْمَطْهَرِ تَاجَ الدِّينِ      دِينَ الْوَرَى فَلَا تَدْنِيسُ  
عِزَّةَ مِنْهُمْ الْعَطَاءُ طَلِيقٌ      وَعَلَيْهِمْ كُلُّ الْفَخَارِ حَبِيسُ  
وَلَقَدْ قِيسْتَهُ بِجَنَّةِ عَزْنٍ      وَحَمَاهُ بِغَيْرِهِ لَا أَقْبِيسُ

إن الأبيات السابقة وغيرها التي انتزعتها ابن دانيال من تمثليته، وأثبتها الصفدي تبرز عنصر المفارقة جلية في هذه القصيدة، وتثير أسئلة عديدة أهمها:

كيف نوفق بين حزن الشاعر على مجمع الخلاعة والمجون، وبين مدحه ابن حنا والإشادة بدوره في محاربة الماجنين؟، ولماذا لم يثبت الشاعر تلك الأبيات في تمثليته؟ وهل كان ابن دانيال حزينا بالفعل أم لا؟.

يمكن الإجابة عن تلك الأسئلة بالنظر إلى الدوافع التي حفزت ابن دانيال على نظم تلك القصيدة، فهو لم يكن حزينا بالفعل على ما نزل بالخلاعة والمجون، ولكنه سعى إلى تحقيق غايات خاصة منها:

أولاً: الترفيه عن الشعب المصري، وتسليته والحصول على نقوده، فمن المعروف أن ابن دانيال كان يؤلف تمثلياته المعروفة بخيال الظل، ويمثلها بنفسه أمام الجماهير المصرية، ويجعل الواقع وما يدور فيه من أحداث مادة لها، لتكون أكثر وقعا في نفوس الناس في مجتمعه، وتلقى قبولا لديهم، وهذا ما عبر عنه حين قال: "إن لكل أسلوب طريقة، وتحت كل خيال حقيقة" (٣)، ولذا عمد الأديب إلى هذه الحادثة فأخرج منها عملا فنيا أقبل الناس على مشاهدته ليستريحوا من كد الحياة وعنائها، ولينسوا همومها

(١) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ١١٦ - ١١٨.

(٢) وجمعا نواوس، وهي قبور النصارى "انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة "نوس".

(٣) إبراهيم حمادة، خيال الظل، ص ١٤٩.

ومشكلاتها، وقد ضمن عمله ذلك قصيدته التي رثى بها الخلاعة والمجون، ولكنه حذف منها الأبيات المتعلقة بالوزير ابن حنا لأن إثباتها ليس في مكانه، ولن يساعد الشاعر على تحقيق غرضه وهو جلب السرور إلى العامة، فهؤلاء لن يقبلوها، أو يقتنعوا بها، ذلك أن قسما كبيرا منهم ناغم على الوزير الذي حرّمهم متعمهم ولذاتهم.

ثانياً: إن ابن دانيال وجد الفرصة مواتية لتحقيق غاية أخرى، وهي كسب رضى الوزير ابن حنا، ونقوده، ولذا نظم تلك الأبيات التي أطال فيها من مدحه، ويؤكد رغبة ذلك الشاعر في الحصول على المال أنه أكثر من الإشادة بجود ابن حنا وكرمه، ولعله كان مدركاً أن الوزير مهتم بالشعر وأنه كان "يختار الشعراء لمدحه، ويجزل لهم العطاء".<sup>(١)</sup>

ومهما قيل في هذه القصيدة فإنها تبقى دليلاً على عبقرية فذة، وموهبة عظيمة تمتع بها ابن دانيال مكنته من استغلال أحداث عصره، واقتناصها لينسج منها عملاً فنياً جديراً بالاهتمام، استطاع من خلاله أن يصور جوانب من المجتمع المملوكي، ولذا استوحى معانيه وألفاظه وصوره منه، فساهم في إعطاء صورة عن أرباب اللهو والمجون وممارساتهم، وكشف عن العنف الذي انتهجه بيبرس في تطبيق مرسومه، كما كشف عن الاختلاط الذي حدث بين الجنس العربي وغيره من الأجناس التي سكنت مصر آنذاك أمثال المغول والأتراك، فأبرز ناحية حضارية ومنعطفاً تاريخياً عاشته الأمة العربية في عصر المماليك.

وقد نالت هذه القصيدة إعجاب الأوساط الأدبية في عصره الأمر الذي دفع بعضهم إلى النظم على منوالها، فهذا الشاعر الشعبي إبراهيم المعمار يصرح بذلك الإعجاب حين قال: "ولما وقفت على قصيدة الشيخ شمس الدين دانيال، فقلت لو أنني أدركت ذلك الزمان لرثيت الخلاعة والمجون بهذا الزجل المصون"<sup>(٢)</sup> وهو زجل طويل نظم باللهجة العامية، وتكفي هذه الدراسة بالحديث عن مضمونه.

وفيه يحتذي المعمار حذو ابن دانيال، فيصور مجمع الخلاعة عقب القرار الذي أصدره بيبرس بتعطيل الحانات والخمور، فجميع عناصر ذلك المكان باكية وحزينة، ومنها أوعية الخمر وآلات الطرب والرياحين، وأرباب اللهو والمجون، ثم يتخيل الشاعر

(١) الصفدي، أعيان العصر، ٥/٥١٣.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١ ق ١/٣٢٨ - ٣٢٩.

صاحباً خليعاً له جاء يطلب الخمرة فلم يجدها، فيصف تنقله وإياه في بلاد مصر يبحثان عنها، ويصور المشقة التي كابداها والمشكلات، وهو يعرض ذلك بأسلوب قصصي يذكّر بطريقة أبي نواس في وصف مغامراته الماجنة، وظلا على تلك الحال إلى أن وصلا ديرا، فطلبنا من صاحبه الخمرة، فلبى بدوره طلبهم، وأحضر لهما ما يريدان، ولكنه كان خائفاً ترتعد فرائصه خشية أن يراه أحد، فابتهجا لها، ولكن سعادتهما لم تكتمل إذ اكتشفا أنها خمرة فاسدة، فعاودا البحث عنها دون جدوى، فقد خلت البلاد منها، الأمر الذي اضطر الشاعر إلى إعلان توبته، والرجوع عن ذنوبه الكثيرة.<sup>(١)</sup>

<sup>(١)</sup> انظر الرجل في ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١ ق ١/٢٢٨-٢٣٠.

الفصل السّابع  
الدراسة الفنية

## بنية القصيدة

اهتم النقاد العرب ببنية القصيدة، وعناصر هذا البناء، وهي : المطلع، والمقدمة، وحسن التلّص، والمضمون، والخاتمة.

أما المطلع، فقد أطلقوا عليه حسن الابتداء، وبراعة الاستهلال، وعنوا به عناية كبيرة، فإنه أول ما يطرق السّمع من الكلام، فإذا كان الابتداء لائقاً بالمعنى الوارد بعده. توفّرت الدواعي على استماعه<sup>(١)</sup>، واستماع ما "يجيء بعده من الكلام"<sup>(٢)</sup>، وعدّوا إجادته دليلاً على مقدرة الأديب شاعراً كان أم ناثراً، فقد سئل "بعضهم عن أحذق الشعراء، فقال: من أجاد الابتداء والمطلع"<sup>(٣)</sup>، وقال بعض الكتاب: أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات فإنهن دلائل البيان"<sup>(٤)</sup>.

ولكي يحقق المطلع دوره في تحسين القصيدة وتجميلها، وفي جذب انتباه المتلقين، اشترطوا أن يكون دالاً على ما بنيت عليه القصيدة "مشعراً بغرض الناظم من غير تصريح بل بإشارة لطيفة تعذب حلاوتها في الذوق السليم، ويستدل بها على قصده من عتب أو عذر، أو تنصل، أو تهنئة، أو مدح، أو هجو"<sup>(٥)</sup>، وأن يحترز الشاعر فيه "مما ينطير منه، ويستجفى من الكلام والمخاطبة والبكاء، ووصف اقتفار الديار، وتشثيت الألف، ونعي الشباب، وذم الزمان ولا سيما في القصائد التي تتضمن المدائح والتهاني، ويستهل ذلك في المراثي، ووصف الخطوب الحادثة.." <sup>(٦)</sup>. ومن معايير المطلع "أن يكون خالياً من المآخذ النحوية، وأن تراعى فيه جودة اللفظ والمعنى معاً"<sup>(٧)</sup>، و "أن يكون تام الموسيقى بالتصريح بأن يستوي آخر جزء في صدر البيت، وآخر جزء في عجزه وزناً وروياً وإعراباً"<sup>(٨)</sup>.

(١) ابن الأثير، المثل السائر، ٢٢٤/٢، وانظر ابن حجة، خزنة الأدب، ٢١/١.

(٢) العسكري، الصناعتين، ٤٩٦، ابن رشيق، العمدة، ٢١٨/١.

(٣) ابن الأثير، المثل السائر، ٢٢٧/٢.

(٤) العسكري، الصناعتين، ٢٨٩، وانظر ابن حجة، خزنة الأدب، ٣٠/١.

(٥) ابن حجة، خزنة الأدب، ٣٠/١، وانظر ابن الأثير، المثل السائر، ٢٢٣/٢، د. يوسف بكار، بناء القصيدة، ٢٦٩، د. عبده قلقيلة، النقد في

العصر المملوكي، ص ٤٠١، د. أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي، ص ٣٠٦، د. محمد عبد المطلب، اتجاهات النقد، ص ١٦٦.

(٦) العسكري، الصناعتين، ص ٤٨٩، وانظر ابن الأثير، المثل السائر، ٢٢٤/٢، ابن حجة، خزنة الأدب، ٢١/١.

(٧) د. يوسف بكار، بناء القصيدة، ص ٢٧٥.

(٨) د. أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي، ص ٣٠٧، وانظر د. عبده قلقيلة، النقد في العصر المملوكي، ص ٣٩٦، د. محمد عبد المطلب، اتجاهات

النقد، ص ١٧١.

وإذا نظرنا إلى قصائد الرثاء في هذا العصر، فإننا نجد عناية فائقة من الشعراء بمطالعتها، إذ جاءت في أغلبها متفقة مع ما ذهب إليه النقاد واشترطوه، وأشعرت بمضمون القصيدة وهو الرثاء، واتسمت بالسهولة، والبعد عن التعقيد والتكلف، والحشو، والغريب من الألفاظ، كما يبدو التلاؤم واضحاً بين شطري المطلع الواحد، ولجأ كثير من الشعراء إلى التصريح رغبة منهم في تحقيق الموسيقى، وجذب انتباه المتلقين وإصغاثهم، وابتعد جلّهم عن المطالع الغزلية، لأنها مناقضة لغرض الرثاء.<sup>(١)</sup>

وتحدث عدد من الشعراء في المطلع عن الموت، وتقلبات الحياة والدنيا والدهر، ومن ذلك ما استهل به شافع بن علي الكاتب قصيدته التي نظمها في رثاء الملك المنصور قلاوون:<sup>(٢)</sup>

ومن كانت منيئة بأرضٍ      فليس يموتُ في أرضٍ سواها

وصوروا فيها حزنهم وأرقهم، وما فعله بهم الفراق، كما وصفوا عظم الخطب والمصيبة التي خلفها المرثي بموته، ويتجلى ذلك في مطلع القصيدة التي رثى بها علم الدين البرزالي تقي الدين ابن تيمية:<sup>(٣)</sup>

عزّ النَّصِيرُ والفراقَ رمانِي      بسهامِهِ وترانفتْ أحزانِي

ومطلع قصيدة ناصر الدين بن النقيب في رثاء الظاهر بيبرس:<sup>(٤)</sup>

للأرضِ بَعْدَكَ رَجَةٌ وتَزَلُّزٌ      لم يَسْتَقِرَّ بمنْ عليها مَنْزِلُ

وحين رثى العلماء والأدباء تحدث الشعراء في مطالع قصائدهم عن أثر موتهم على الأقلام، والعلوم والآداب، والأوراق، والسيوف، وصوروا حزنها عليهم، ومثال ذلك مطلع القصيدة التي نظمها صلاح الدين الصفدي في رثاء جمال الدين بن غانم:<sup>(٥)</sup>

<sup>(١)</sup> انظر القرطاجي، منهاج البلاغ، ص ٣٥١.

<sup>(٢)</sup> شافع بن علي، الفضل المأثور، ص ١٧٦، حسن المناقب السرية، ص ١٤٠.

<sup>(٣)</sup> ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٣/٨٤٠.

<sup>(٤)</sup> ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٤٨.

<sup>(٥)</sup> الصفدي، الرافق، ١٧/٣٥٢، الكشي، نوات الوفيات، ٢/٢٠٧.



تبكي الطُروسُ عليكَ والأقلامُ وتتوخُ فيكَ على الغُصونِ حَمَامُ

ودعا كثير من الشعراء في مطالع قصائدهم لقبير المرثي، كما دعوا للمعزى وحثّوه على الصبر الجميل، وحمدوا الله على مصابهم، ومن ذلك مطلع قصيدة ابن نباتة التي رثى بها شرف الدين ابن فضل الله العمري: (١)

سَقَاكَ وَحَيَاكَ الْحَيَا أَيُّهَا الْقَبْرُ وَفَاضَتْ عَلَى مَغْنَاكَ أَدْمُعُهُ الْغُزْرُ

ومطلع قصيدة شهاب الدين التبريزي في رثاء ابن تيمية: (٢)

صَبْرًا جَمِيلًا فَالْمُصَابُ كَبِيرُ كَانَتْ جِبَالُ الْأَرْضِ مِنْهُ تَمُورُ

وجَمع بعض الشعراء في المطلع بين التهنئة والعزاء، واقتصر ذلك على القصائد التي رثى بها أرباب الدول، وهو ابتداء متلائم مع الموقف الذي وقفه أولئك الشعراء أمام الملوك الجدد، ومراعٍ لمقتضى الحال، ويتجلى ذلك في مطلع القصيدة التي نظمها تقي الدين بن شبيب الحرّاني في رثاء بيبرس، وتهنئة ابنه الملك السعيد: (٣)

جَلَّ الْمُصَابُ وَلَكِنْ جَلَّتِ النَّعْمُ وَأَجْذَبَ الْكُونُ لَكِنْ جَاءَتْ الدَّيْمُ

وزاد من جمال المطلع في مرثي هذا العصر أن الكثير من قائلها استخدموا فيها النداء، والاستفهام والتصريح، وهذا الأمر كما يقول ابن الأثير يوقظ السامعين للإصغاء "لأنه يقرع السمع شيء غريب ليس بمثله عادة ليكون سبباً للتطلع نحوه والإصغاء إليه" (٤). ومن ذلك مطلع قصيدة أبي الحسين الجزّار في رثاء بيبرس: (٥)

أَيَطْمَعُ خَلْقٌ أَنْ يَكُونَ مُخَلِّدًا وَقَدْ قَضَتْ الْأَيَّامُ أَنْ يَرِدَ الرَّدَى ؟

أما التصريح، فأمثلته كثيرة، ومنه ما جاء في مطلع القصيدة التي نظمها ابن الوردي في رثاء أحد أصدقائه: (٦)

(١) ابن نباتة، الديوان، ص ٢٣٢.

(٢) الكرمي، الكواكب الدرية، ص ٢٣٢.

(٣) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٥.

(٤) ابن الأثير، الملل السائر، ٢/٢٢٤، وانظر حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص ٣١٠.

(٥) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٢.

(٦) ابن الوردي، الديوان، ص ٤٢٨.

ومن الأمور التي ساهمت في تحسين المطالع أن بعض الشعراء تأثر فيها بمعاني القرآن الكريم، وصوره، وقصصه، ويتجلى ذلك في مطلع القصيدة التي نظمها صفي الدين الحلبي في رثاء خاله جلال الدين عبد الله بن حمزة: (١)

جبالٌ بأرياحِ المنيةِ تتسَفُ      غَدَتُ وهي قاعٌ في الوقائعِ صُفِّصَتْ

وأخفق بعض الشعراء في مطالعهم، وذلك لطغيان الصنعة والتعقيد عليها، ومن الأمثلة على ذلك مطلع القصيدة التي نظمها الصفدي في رثاء نجم الدين الصفدي: (٢)

يا ذاهباً عَظُمَتْ فيه مُصِيباتي      بأَسْهُمٍ رَشَقَتْ قَلْبِي مُصِيبَاتِ

ومطلع قصيدة محمد بن طاهر الإخيمي في رثاء الإسكندرية: (٣)

حادثٌ حلَّ أرى النَّاسَ العبر      فَبِمَا قَدْ هَالَ مِنْهُ يُعْتَبَرُ

ابتعد أغلب الشعراء في العصر المملوكي الأول في مراتبهم عن المقدمة الغزلية والطليلية، وولجوا إلى موضوعهم مباشرة، وهذا تقليد سار عليه جلُّ شعراء العربية منذ العصر الجاهلي في هذا الغرض الشعري، ذلك أن الغزل لا يتلاءم وموضوع الرثاء، ولا يتفق مع حالة الشاعر النفسية التي تعيش تحت وطأة الحزن، وتقل واقعة الموت، وقد أشار ابن رشيق إلى ذلك حين قال: "وليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيباً كما يصنعون ذلك في المدح والهجاء" (٤)، "لأن الآخذ في الرثاء يجب أن يكون مشغولاً عن التشبيب بما هو فيه من الحسرة والاهتمام بالمصيبة" (٥).

(١) الحلبي، الديوان، ص ٢٨٣، وانظر ابن نباتة، الديوان، ص ٤٣.

(٢) الصفدي، الواقي، ٢٦٢/١٢.

(٣) النويري، الإلام، ٢٢٣/٣.

(٤) ابن رشيق، العمدة، ١٥١/٢.

(٥) المصدر نفسه، ١٥٢/٢.

ولا يعني ذلك أن المقدمات اختفت كلياً من مراثي هذا العصر، بل إن هناك بعض الشعراء قدّم لقصيدته بمقدمة غزلية وطليلية، وبعضهم الآخر أتى بمقدمة خميرية، إلا أن ذلك قليل قياساً مع حجم المراثي المنظومة.

أما المقدمة الغزلية والطليلية، فقد برزت في مراثي العلماء فحسب، ومن أمثلتها قصيدة أبي محمد اليافعي اليميني التي نظمها في رثاء شيخه جمال الدين البصّال، وعلي بن عبد الله، فقد تحدث في أبيات كثيرة عن محبوبته "مي"، وعن رحلتها، ولكنها ليست رحلة في الصحراء، وإنما إلى القبر حيث البلى والدود، فقال: (١)

دعا ذكرها ميّ طرفاً مُسَهِّدِ	بتذكار أطلال لميٍّ ومعهَدِ
لِفِرْقَةٍ أَحْبَابٍ لَنَا قَطَعَتْ بِهِم	مَطَايَا الْمَنَائِيَا فَذَقْدَا بَعْدَ فَذَقْدِ
فَأَمْسُوا بَدَارٍ قَدْ نَأَتْ لَا يَزُورُهَا	سُورَى رَاكِبٍ حَذْبًا إِلَى قَعْرِ مَلْحَدِ
مَقِيمِينَ حَتَّى يَرْحَلَ الرِّكْبُ كُلُّهُمْ	لِدَارِ نَعِيمٍ أَوْ عَذَابٍ مُؤَبَّدِ
وَقَدْ فَارَقُوا لِلْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْهَنَاءِ	وَجَاهِ وَعَيْشِ الْحَبِيبِ الْمُوَدِّ
وَقَدْ لَبَسُوا ثُوبَ الْبَلَى بَعْدَ لِبْسِهِمْ	لِثُوبِ الْبَقَا الزَّاهِي الْجَمَالِ الْمَحْدَدِ

ثم يتحدث الشاعر عن أشجانه ومعاناته، وكربه، وصباباته، ويتغزل بمحبوبته، فيصف مفاتنها، ومواطن الجمال فيها، ويقصد الشاعر بهذه المحبوبة شيخه كما يصرح في نهاية هذه المقدمة، يقول: (٢)

وريمٍ طويلٍ الجيدِ أذعجٍ أهيف	أغنّ كحيل الطرف من غير إثمٍ
أحلت هوى لَمَّا شَدَّتْ وَتَرَنَمَتْ	فؤادِ خليّ البالِ غير مُعوَدِ
وهذي سباني في الكهولة حُسْنُهَا	وبهجتها لكن غزالةً مَعْبُدِ
تصيدُ ولا تُصنطأُ في شَرَكِ الهوى	فأعجبُ بِمُصنطادِ لها مُتَصَدِّدِ
خليلي ما ريمٌ عَدَّتْ وَحَمَامَةٌ	شَدَّتْ مَا بِهِ مَوَّهَتْ لَيْسَ بِمَقْصِدِ
ولكن أكني عن مليحيّ حماهُمَا	وعَصْرُهُمَا بَدْرِي دِيَاجٍ لِمُهْتَدِ

(١) اليافعي، امرأة الجنان، ٢٤٥/٤.

(٢) المصدر نفسه، ٢٤٦-٢٤٥/٤.

إن هذه المقدمة لا تعد إخلالاً بوحدة القصيدة، فهي مرتبطة بموضوعها وهو الرثاء ارتباطاً وثيقاً، فالشاعر تحدث فيها عن رحلة الموت، ومصير الإنسان في قبره، ورمز لشيخيه بتلك المحبوبة "مي"، فوصف جمالها، ومآثرها، وتحدث عن حبه العميق لها.

ونظم الشاعر عبد الله بن خضر الرومي قصيدتين في رثاء ابن تيمية، فقدم لهما بالغزل، والوقوف على الأطلال، وقد بلغت القصيدة الأولى مئة واثنى عشر بيتاً، تغزل في ستة وعشرين بيتاً، فوصف حبه وعشقه لجيران الحمى الذين هجروه، وتحدث عن مكانتهم في نفسه، واسترجع الأيام التي قضها بقربهم، وألح على ذكراهم، ومنها قوله: (١)

لقد عذبوا قلبي بنار المحبة	وذاب فؤادي من فراق الأحبة
وزاد غرامي واشتياقي إلى الحمى	وهيج بلبالي حنيني وألوعتي
فيا عظم أجزائي ووجدي عليهم	ويا طول أشواقني إليهم ووحشتي
ملأت النواحي من نواحي وكيف لا	أنوح على قوم هم خير جيرتي
فلم أنس أياماً تقضت بقربهم	ومن عيشتي لما تولت تولت
ومن عجبني أني أحن إليهم	وهم ساكنو قلبي وروحي ومهجتي

وبلغت القصيدة الثانية إحدى وأربعين بيتاً، وجاءت المقدمة الغزلية في سبعة عشر بيتاً، تحدث فيها الشاعر عن جيرانه وأحابه الذين سارت بهم الهواج، تاركة إياه وحيداً ملوعاً يقاسي مرارة العشق، ونيران الفراق، ولعل هؤلاء الأحبة هم مرثيه ابن تيمية، ويؤكد ذلك أن رحلتهم كانت إلى الموت، مما يجعل هذه المقدمة جزءاً لا يتجزأ من موضوع المرثية غير منفصل عنه أو مخللاً بوحده، ومنها قوله: (٢)

لله عيشاً تقضت بالتئيبات	مع جيرة لذلي فيهم صباباتي
ما كان أهنأ زماني في ربوعهم	والسعد يسعى بما في إراداتي
والكأس تجلى بأنواع السرور وفي	قرب الأحبة تبدو لي سعاداتي
قد كنت في قربهم والوصل مقترني	لم يخطر الصد والهجران في ذاتي
واليوم أصبحت أبكي بعد بُعدهم	لما تقاعوا نأت عنّي مسرّاتي

(١) الكرمي، الكواكب الدرية، ص ٢٢١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٢٨-٢٢٩.

لما سرّوا وفؤادي في هواجهم  
فاندب على ما مضى من عيشنا وصفا  
واذكر مصارع قوم كيف قد شربوا

ناديت من حرقى: يا عظم لوعاتي  
وابكي على ما جرى يا قلبي العاني  
بعد الزلال بكاسات المنيات

واستعاض بعض الشعراء في مقدمة قصائدهم عن أطلال سلمى وليلى وسعاد بأن وقفوا على أطلال المرثي نفسه، ودياره التي كان يعيش فيها، أو يعمل، وهي أماكن مستقاة من واقعهم، وحياتهم، وحضارتهم، ولا تمثل حياة البادية وخيامها. وقد أشاد ابن رشيّق بهذا النهج، وعده تطوراً طبيعياً يتلاءم مع الحياة الجديدة التي أفرزتها الحضارة والمدنية، وانتقد شعراء الحاضرة الذين يقفون في مقدمة قصائدهم على أطلال المحبوبة المتمثلة في الخيام والنوى والأثافي، ويبيّن أنه لا معنى أن يذكر الحضري ديار البادية وخيامها التي تقلبها الرياح، وتهدم أركانها، ويعلّ ذلك بأن هذه المقدمة لا تتلاءم مع حياة الحضارة والمدنية، "لأن الحاضرة لا تنسفه الرياح، ولا يحوها المطر، إلا أن يكون ذلك بعد زمان طويل لا يمكن أن يعيشه أحد من أهل الجيل".<sup>(١)</sup>

ومن ذلك قصيدة ابن نباتة، التي رثى فيها القاضي كمال الدين بن الزمكاني، وقدم لها بالوقوف على مدارس العقل والنقل التي كان يدرس فيها ذلك القاضي، فقال: <sup>(٢)</sup>

بلغنا القاصدين أن الليالي قبضت جملة العلاب بالكمال  
وقفا في مدارس النقل والعقل لي ونوحا معي على الأطلال  
سائلها عسى يجيب صداها أين ولي مجيب أهل السؤال

ومن أمثلتها أيضاً مقدمة القصيدة التي نظمها الشاعر شهاب الدين محمود في رثاء الملك الأمجد الأيوبي، فقد وقف على أطلال ذلك الملك، واصفاً أيام العز التي كانت في أكنافها، وهي أيام بدلتها تصاريح الزمان، فقال: <sup>(٣)</sup>

هو الربع ما أقوى وضاعت ملاعبه  
مشرعة إلا وقد لان جانبه

(١) ابن رشيّق، العمدة، ٢٢٦/١.

(٢) ابن نباتة، الديوان، ص ٤٠٥، الصفدي، الوافي، ٢١٩/٤، أعيان العصر، ٦٣٨/٤، الكتي، فوات الوفيات، ١١/٤، ابن العجمي، كنوز الذهب، ٣٢٦-٣٢٧.

(٣) اليونبي، ذهل مرآة الزمان، ٢٢٧/٢، الكتي، عيون التواريخ، ٤٢٣/٢٠.

وَقَفْتُ بِهِ وَالشَّوْقُ نَحْوَ قِيَابِهِ  
أَسْأَلُهُ جَهْلًا وَمَنْ سَفَهُ الْهَوَى  
وَعَهْدِي بِهِ وَالْعِزَّ عَنْ كُلِّ نَاطِرٍ  
لِنَنْ قَلَّصْتُ كَفُ الزَّمَانِ ظِلَالَهُ  
فَقَدْ كَانَ مَغْنَى صَافِيَاتِ ظِلَالَهُ

تَجَادِبُنِي طَوْرًا وَطَوْرًا أَجَادِبُهُ  
مَخَاطِبَةُ الْإِنْسَانِ مِنْ لَا يَخَاطِبُهُ  
يَطُوفُ بِهِ إِلَّا عَنِ الْعِزِّ حَاجِبُهُ  
وَسَابَتُ هُنَى الْعَيْشِ فِيهَا شَوَائِبُهُ  
عَلَى نَازِلِيهِ صَافِيَاتِ مَشَارِبُهُ

ومن أمثلة المقدمة الخمرية ، مقدمة قصيدة صفي الدين الحلي في رثاء الملك المنصور الأرتقي، وهي مقدمة على غير عادة الشعراء في مرثيتهم، ولعل سبب ذلك أن الحلي حين قدم إلى العراق، وحضر إلى ماردين للجزاء، وجد العزاء قد انقضى، وأبناء الملك قد خلعوا الحزن، ونصبوا مجلس الأُنس<sup>(١)</sup>، ومن هنا كانت هذه المقدمة متلائمة مع الظرف، والموقف الذي نظمت فيه القصيدة، ومنها قوله: (٢)

أَدْرِهَا بِأَمْنٍ لَا يَغْيِرُكَ الْوَهْمُ  
وَدَاوِ أَذَاهَا بِالسَّمَاعِ فَإِنَّهَا  
مُعْتَقَّةٌ لَوْ غَسَّلُوا مَيْتًا بِهَا  
وَلَوْ لَا اتَّقَاءُ اللَّهِ قُلْتُ بِأَنَّهَا  
فَخِذَاهَا عَلَى طَيْبِ السَّمَاعِ فَإِنَّهَا  
وَلَا تَخْشَ مِنْ إِيْمٍ إِذَا مَا شَرِبْتَهَا  
وَزَفَّ عَلَى الْجَلِاسِ مَا خَلَّفَ الْكِرْمُ  
بِلَا نَعْمٍ غَمٌّ بِلَا دَسَمٍ سُمْ  
لَا ذَابَ مِنْهُ مِنَ الْمَخِّ وَأَنْهَشَمَ الْعَظْمُ  
بِهَا تَتَطَقُّ الْأَمْوَاتُ أَوْ تُسْمَعُ الصَّمُّ  
بِشَاشَةٍ وَجِهَ الْعَيْشِ إِنْ عَبَسَ الْهَمُّ  
لِظَاهِرِ قَوْلِ النَّاسِ إِنْ اسْمَهَا الْإِيْمُ

ثم تخلص إلى رثاء الملك المنصور، فقال: (٣)

فَمَا كُلُّ وَصْفٍ فِي الْحَقِيقَةِ ذَاتُهُ  
وَلَوْ أَنْ وَصَفَ الشَّيْءَ عَيْنٌ لذَاتِهِ  
لَمَا مَاتَ مِنْ سَمَوِهِ بِاللَّفْظِ خَالِدًا

وليس المُسمَى في حقيقته الإسمُ  
أو الذكْرُ للشَّيْءِ المُرادِ هو الجُرْمُ  
ولا خَرَّ مَلِكٌ فِي الثَّرَى واسمه نَجْمُ

(١) الحلي، الديوان، ص ٢٨٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٨٧.

أما التخلص أو الخروج، فقد اهتم النقاد العرب به، ووضعوا له المحددات والضوابط، فهو أن "يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني، فبينما هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره، وجعل الأول سبباً إليه، فيكون بعضه آخذاً برقاب بعض، ومن غير أن يقطع كلامه، ويستأنف كلاماً آخر، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغاً" (١)، "ولا يشترط أن يتعين المُتخلِّص منه، بل يجري ذلك في أيّ معنى كان، فإن الشاعر قد يتخلَّص من نسيب أو غزل، أو فخر، أو وصف روض، أو وصف ظلال بال، أو ربيع خال، أو معنى من المعاني يؤدي إلى مدح أو هجو، أو وصف حرب، أو غير ذلك" (٢)، ويرى حازم القرطاجني أن التخلص قد يأتي في "شطر بيت أو في بيت بجملة، أو في بيتين" (٣)، ودعا إلى أن يحرص الشاعر فيه من "انقطاع الكلام، ومن التضمين، والحشو، والإخلال، واضطراب الكلام، وقلة تمكّن القافية" (٤).

إن اهتمام النقاد العرب بالتخلص نابع من حرصهم على وحدة القصيدة وتلاحم أجزائها، ذلك أن الكلام إذا انقطعت أجزاؤه، ولم تتصل فصوله، ذهب رونقه، وغاض ماؤه (٥).

وإذا نظرنا إلى قصائد الرثاء في هذا العصر، فإننا نجد جل الشعراء قد أجادوا حسن التخلص، والربط بين أجزاء القصيدة ومعانيها، وجاء ذلك في القصائد المبدوءة بالغزل، والطلل، والخمر، وفي تلك القصائد التي نظمت بهدف التعزية، إذ تخلَّص الشعراء فيها من الحديث عن المرثي والإشادة بصفاته ومآثره، إلى الإشادة بالمعزّي، وحثّه على الصبر والسلوان. (٦)

ومن ذلك ما جاء في القصيدة التي نظمها شهاب الدين محمود في رثاء الملك الأماجد الأيوبي فقد بدأها بالوقوف على أطلال ذلك الملك، "هو الربع ما أقوى وضاعت ملاعبه"، ثم تخلَّص إلى رثائه والإشادة به، فقال: (٧)

(١) ابن الأثير، المثل السائر، ٢/٢٢٤، وانظر ابن رشيق، العمدة، ١/٢٣٧، ابن حجة، خزنة الأدب، ١/٣٢٩.

(٢) ابن حجة، خزنة الأدب، ١/٣٢٩.

(٣) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص ٣٢٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٢١، وانظر د. عبد قتيبة، النقد في العصر المملوكي، ص ١٣.

(٥) انظر العسكري، الصناعتين، ص ٤٢.

(٦) انظر الصفيدي، أعيان مصر، ٣/٤٤٩، ٥/١٨٩.

(٧) اليونيني، ذريرة الزمان، ٢/٤٧٧، الكشي، عيون التواريخ، ٢٠/٤٢٣.

عَهَدْتُ بِهِ مِنْ آلِ أَيُّوبَ مَا جَدًّا      كَرِيمَ الْمُحَيَّا زَاكِيَاتٍ مَنَاسِبُهُ

وبرز حسن التخلص في المراثي التي رثي بها الظاهر بيبرس، فقد انتقل الشعراء من رثائه إلى الحديث عن مناقب ابنه الملك السعيد<sup>(١)</sup>، ويتجلى ذلك في قصيدة ناصر الدين بن النقيب في رثائه إذ قال: (٢)

لَمْ أُنْسَهُ فِي يَوْمِ عَرَضِ جِيُوشِهِ      وَأَمَامَةَ الْوَلَدِ السَّعِيدِ الْمُقْبِلِ

وقصيدة أبي الحسين الجزار التي يقول فيها: (٣)

وَلَوْ فُدِيَ الْإِنْسَانُ يَوْمًا بِدُونِهِ      كَانَتْ لَهُ الْأَمْلَاكُ حَاشَا ابْنَهُ الْفَدَا

وأخفق بعض الشعراء في التخلص، ووقعوا في الاقتضاب، وهو "أن يقطع الشاعر كلامه الذي هو فيه، ويستأنف كلاماً آخر من مديح أو هجاء، أو غير ذلك، ولا يكون للثاني علاقة بالأول"<sup>(٤)</sup>. ومن أمثلته ما جاء في إحدى القصائد التي نظمها عبد الله بن خضر الرومي في رثاء ابن تيمية، إذ بدأها بالغزل "لقد عذبوا قلبي بنار المحبة..."، ثم انتقل إلى الرثاء، فقال: (٥)

وَقَدْ أَنْ أَنْ أَبَدِي خَفَايَا صَبَابَتِي      وَأَظْهَرُ لِلْعَدَالِ أَصْلَ رَزِيَّتِي  
وَأَبْكِي عَلَى مَنْ كَانَ يَجْمَعُ شَمَلَنَا      عَلَى طَاعَةِ الرَّحْمَنِ فِي كُلِّ لَمَحَةٍ

ومن ذلك ما نجده في قصيدة صلاح الدين الصفدي التي نظمها في رثاء كمال الدين بن جمال الدين بن ريان، فإنه لم يحالفه التوفيق في التخلص، إذ استخدم عبارة "دع ذا"، حين خرج من الحديث عن سني عمره، ونوبه الكثيرة إلى الإشادة بمرثيته، فقال: (٦)

سَتَوْنَ عَامًا كَانَتْ أَمَامِي      لَمْ أَدْرِ حَتَّى غَدَّتْ وَرَائِي  
وَأَتَقَلَّتْ بِالذَّنُوبِ ظَهْرِي      وَأَسْمَعْتَنِي دَاعِي الْفَنَاءِ  
دَعِذَا فُخْطِبِي بِهِ جَسِيمٌ      جَلَّ وَعُذْبِي إِلَى الرَّثَاءِ  
كَانَ جَمِيلَ الصَّفَاتِ فَرْدًا      فِي الْجَهْرِ مِنْهُ وَفِي الْخَفَاءِ

(١) انظر ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٤٧، ٢٥٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٥٣.

(٤) ابن الأثير، المثل السائر، ٢/٢٤٤، وانظر ابن رشيقي، العمدة، ١/٢٢٩، ابن حجة، خزنة الأدب، ١/٣٣١.

(٥) الكرمي، الكواكب الدرية، ص ٢٢٣.

(٦) الصفدي، أعيان العصر، ١/٧٦.



أما الخاتمة، فقد أطلق عليها النقاد حسن المقطع، وحسن الخاتمة<sup>(١)</sup>، والانتهاء<sup>(٢)</sup>، ودعوا إلى تحسينها، وإجادتها، لأنها "آخر ما يبقى في الأسماع، وربما حفظ دون سائر الكلام"<sup>(٣)</sup>، وهي "أبقى في السمع، وألصق بالنفس لقرب العهد بها، فإن حسنتُ حَسُنَ، وإن قبحت قبح"<sup>(٤)</sup>.

ويرى حازم القرطاجني أن تكون خاتمة القصيدة أحسن مما جاء في حشوها، وأن يتجنب الشاعر فيها اللفظ الكريه، والمعنى المنفر للنفس، كما رأى أن تكون مناسبة للغرض الذي سيقى إليه<sup>(٥)</sup>، قال: "فأما الاختتام، فينبغي أن يكون بمعانٍ سارة فيما قصد به التهنائي والمديح، وبمعانٍ مؤسفة فيما قصد به التعازي والرتاء، كذلك يكون الاختتام في كلِّ غرض بما يناسبه"<sup>(٦)</sup>، واشترط النقاد أن تتضمن الخاتمة "معنى تاماً يؤذن بأنه الغاية والمقصد والنهاية"<sup>(٧)</sup>، وأن "تتضمن حكمة أو مثلاً سائراً"<sup>(٨)</sup>.

وإذا نظرنا إلى قصائد الرثاء في هذا العصر، فإننا نجد عناية من الشعراء في خواتيمها، فجاءت ملائمة لغرض الرثاء. فقد ختموها بالحكمة والموعظة، والحديث عن الموت وحميمته، وقوة بأسه، وهذا الأمر أعجب حازم القرطاجني، فعده عاملاً من عوامل جمال الخاتمة، وزيادة حسننها، قال: "وإذا ذُلت أو أواخر الفصول بالآيات الحكيمية والاستدلالية، واتضحت شيات المعاني، التي بهذه الصفة على أعقابها، فكان لها ذلك بمنزلة التحجيل، زادت بذلك بهاءً، ووقعت في النفوس أحسن موقع"<sup>(٩)</sup>، ومن ذلك ما قاله برهان الدين القيراطي في خاتمة قصيدة رثى فيها جمال الدين الإنساني: <sup>(١٠)</sup>

(١) انظر ابن حجة، خزنة الأدب، ٤٩٣/٢.

(٢) انظر ابن رشيق، العملة، ٢٣٩/١.

(٣) ابن حجة، خزنة الأدب، ٤٩٣/٢، وانظر ابن رشيق، العملة، ٢٣٩/١.

(٤) ابن رشيق، العملة، ٢١٧/١، وانظر د. يوسف بكار، بناء القصيدة، ص ٣٠١، د. عبده قلقيلة، النقد في العصر المملوكي، ص ٤٠٩.

(٥) انظر د. محمد عبد المطلب، اتجاهات النقد، ص ١٨٠، د. عبده قلقيلة، النقد في العصر المملوكي، ص ٤٠٩.

(٦) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص ٣٠٦.

(٧) د. محمد عبد المطلب، اتجاهات النقد، ص ١٨٠، وانظر د. يوسف بكار، بناء القصيدة، ص ٣٠٢.

(٨) د. يوسف بكار، بناء القصيدة، ص ٣٠٢.

(٩) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص ٣٠٠.

(١٠) القيراطي، لدبران، ص ٢٢.

وهذي سبيلُ العالمينَ جميعهمُ  
فما الناسُ إلا راحلٌ بعد راحلٍ

وختم عدد من الشعراء قصائدهم بالدعاء، وبرز ذلك بصورة جلية في مرثي العلماء، وخاصة في الأشعار التي نظمت في رثاء محيي الدين النووي<sup>(١)</sup>، ومنها خاتمة القصيدة التي رثاه بها الشاعر محمد المنبجي البزاز: <sup>(٢)</sup>

فسقى ضريحاً حلّ فيه رَحْمَةً      يَهْمِي عَلَى كَرِّ العصورِ سجالها  
وأحلّه الرَّحْمَنُ عَالِي جَنَّةٍ      مَأْنوسَةً رضوانه بوابها

وقال الصفدي في خاتمة قصيدة رثى بها محمد بن سيد الناس: <sup>(٣)</sup>

سقى الغمَامُ ضريحاً قد تَضَمَّنَهُ      صوباً إذا انهلَ لا ترقى غواديه  
وبكرته تحيَّاتٌ نوافحها      من الجنان تحيَّيه فتحبيبه

وختم بعضهم قصائده بالسلام على المرثي وضريحه، ومن ذلك خاتمة القصيدة التي نظمها برهان الدين القيراطي في رثاء تقي الدين السبكي، يقول: <sup>(٤)</sup>

سلامٌ عليه من ضريحِ فإنّه      تحومُ المعالي حواله فَنُسلِّمُ <sup>(٥)</sup>

وختم آخرون قصائدهم بحمد الله والتسليم لقضائه ومشينته، ويتجلى ذلك في

خاتمة قصيدة كمال الدين بن العديم في رثاء حلب سنة ٦٥٨هـ: <sup>(٦)</sup>

ولكنما لله في ذا مشينة      فيفعلُ فينا ما يشاء ويحكُمُ

وخاتمة القصيدة التي نظمها عبد الله بن خضر الرومي في رثاء ابن تيمية، يقول: <sup>(٧)</sup>

والحمْدُ لله حمداً لا انقطاعَ له      أرجو به من إلهي مَحْوزلاتي

اهتم النقاد العرب بوحدة القصيدة، ففي كتبهم التفاتات نقدية كثيرة تؤكد حرصهم

عليها، وعنايتهم بها<sup>(٨)</sup>، فابن طباطبا يرى أن "أحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاماً

<sup>(١)</sup> انظر ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٥٦، ٥٥، ٥٢، ٤٩، ٤٧، ٤٦، ٤٤، ٤٣، ٣٤، ابن الوردي، الديوان، ص ٢٢٨، القيراطي، السديوان، ص ٧٩، ٢١، السيوطي، حسن المحاضرة، ٤٣٩/١.

<sup>(٢)</sup> ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٣٧.

<sup>(٣)</sup> الصفدي، الوافي، ٣٠٢/١.

<sup>(٤)</sup> القيراطي، الديوان، ص ٥٠.

<sup>(٥)</sup> ولزيد من الأمثلة انظر ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٤٤، القيراطي، الديوان، ص ٥١، ٦٠، ابن نباتة، الديوان، ص ١٠٠، الحلبي، الديوان، ص ٣٢٢.

<sup>(٦)</sup> العيني، عقد الجمان، ٣٤٢/١، الطباخ، أعلام النبلاء، ٢٥٤/٢.

<sup>(٧)</sup> الكرمي، الكواكب النورية، ص ٢٣١.

<sup>(٨)</sup> انظر تفصيل ذلك في يوسف بكار، بناء القصيدة، ص ٣٨٧ وما بعدها.

يتساوى به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله، فإذا قُدم بيت على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب إذا نقض تأليفها، فإن الشعر إذا أسس تأسيس فصول الرسائل القائمة بنفسها وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها، والأمثال السائرة الموسومة باختصارها لم يحسن نظمه، بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها، نسجاً وحسناً وفصاحة، وجزالة ألفاظ، ودقة معان، وصواب تأليف ...<sup>(١)</sup>، ويرى الحاتمي أن " القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر وبابنه في صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه"<sup>(٢)</sup>.

وإذا نظرنا إلى قصائد الرثاء في هذا العصر، فإننا نجد الوحدة الموضوعية تجلت فيها بأدق صورها، فقد وصف الشعراء فيها حزنهم على الفقيد، وحزن الناس، وبينوا أثر موته على كل ماله علاقة به، وعلى مظاهر الطبيعة، وصوروا فداحة الخطب، وعظم المصيبة، وتحدثوا عن مناقب الفقيد ومآثره، ودعوا له بالرحمة والمغفرة، ولقبره بالسقيا، كما تحدثوا عن الحياة والموت، والدهر، وعزوا نوي الفقيد، وحثوهم على التجلد والصبر، وأشادوا بهم. وهذه المحاور جميعها تصب في موضوع الرثاء، وهي جزء لا يتجزأ من بناء قصائده، صحيح أن بعض الشعراء ابتدأ قصيدته بالغزل والوقوف على الأطلال، إلا أن ذلك - كما اتضح في الصفحات السابقة - كان ممتزجاً بموضوع القصيدة وهو الرثاء.

وتجلت هذه الوحدة في القصائد التي رثت المدن الإسلامية، فقد صور الشعراء فيها حزنهم وحياتهم المريرة، وتحدثوا عن المحتل، فتناولوا صفاته، وأخلاقه، وعدده وعدته، وخططه العسكرية، وصوروا ما فعله بالمسلمين وديارهم من قتل، وأسر، وسبي، ونهب، وتشريد، وتدمير، كما صوروا هزيمة الجيش الإسلامي، ودعوا إلى الجهاد واسترداد البلاد المحتلة، وهذه الموضوعات جميعها تصب في موضوع رثاء المدن.

وتجلت في بعض مرثي هذا العصر الوحدة العضوية، وبرز ذلك بصورة جلية في مرثي الإسكندرية، وساعد على ذلك الأسلوب القصصي، فكان كل جزء منها يؤدي إلى الذي يليه، ويمكن التمثيل على ذلك بالقصيدة التي نظمها الشيخ أبو عبد الله النستراوي في رثائها، فقد بدأها الشاعر بتصوير الغزو الصليبي، فبين أنه غزو مباحث جاء الناس

<sup>(١)</sup> ابن طباطبا، عيار الشعر، ص ١٢٦.

<sup>(٢)</sup> ابن رشيق، العمدة، ١١٧/٢.

على حين غرة، وداهية لم ير مثلها من قبل غيرت معالم الإسكندرية، وقلبت أحوالها،  
يقول: (١)

خاطر فاجا الورى لَمَا خَطَرَ      أَوْعَعَ النَّاسَ الرَّزَايَا وَالْخَطَرَ  
بَغْتَةً جَاءَ فَمَا أُعْجَلَهُ      أَخَذَةً كَانَتْ كَلْمَجِ الْبَصَرَ  
يَا لَهَا مِنْ دَاهِيَةٍ مَرَّتْ فَلَمْ      أَرَّ مِنْهَا أَذْهَى وَأَمَرَ

ثم تحدث الشاعر عن الجيش الصليبي القادم إلى الإسكندرية بقيادة بطرس  
لوزنجان، وسفنه الكثيرة التي ملأت الميناء، وشحنت بالخيول والرجال والطعام، ووصف  
بعض خطط الصليبيين العسكرية، قبل هجومهم على المدينة، فقد أرسلوا غراباً، للتحرش  
بالمسلمين، وقياس قدرتهم على المواجهة، وحين تأكدوا من ضعفهم، شرعوا في منازللة بر  
الإسكندرية، يقول: (٢)

جاء كلبُ الرومِ بالسَّفنِ التي      وَقَرُّهَا خَيْلٌ وَرَجُلٌ وَمِير  
مَلَأَ الْمِينَةَ مِنْهُمْ وَقَد      سَئِرَ الْمَلْعُونُ فِيهَا وَعَبَّر  
وَأَتَى مِنْهُمْ غُرَابٌ مُسْرِعاً      جَرَّ بِالْمَجْدَافِ جَرّاً مُسْتَطَرّاً  
جاء للبرِّ فاحتاطت به      عُصْبَةُ الْإِسْلَامِ يَبْغُونَ الظَّفَرَ  
فانتفى منهم سريعاً راجعاً      وَلِبَاقِيهِمْ جَمِيعاً قَدْ صَفَرَ  
فأتوا للبرِّ عن آخرهم      وَرَمَوْا خَيْلاً وَرَجُلًا وَنَقَرَ

وصور الشاعر المعركة التي دارت بين الفرنج والمسلمين، فركز على هزيمة  
العساكر الإسلامية، فقد دارت عليهم الدوائر، وتعطلت الأسلحة في أيديهم عن أداء  
مهمتها، فلم تعد منجنيقاتهم ولا رماحهم، ونبالهم، وسيوفهم، وخيولهم، في دفع الفرنج  
عنهم، ففروا تاركين ساحة القتال: (٣)

وَأَحْيَطَ الْمُسْلِمُونَ بِالْبَلَا      وَاسْتَطَالَ السَّيْفُ فِيهِمْ وَأَنْشَهَرَ  
لَمْ يَفْذَ مَذْ دَفَعُوا بِمَدْفَعِ      وَرَمَوْا بِالْمَنْجَنِيْقِ فَاَنْكَسَرَ

(١) التويزي، الإلام، ١٧١/٤.

(٢) التويزي، الإلام، ١٧٢/٤.

(٣) المصدر نفسه، ١٧٢/٤-١٧٣.

لا ولا عـدتهم مـعدتة  
فلكم رام رمى عن قوسه  
ولكم سيف صقيل باتر  
ولكم من رامح عاجلة  
ولكم من فارس جواده

للقاء الروم وكان يُختبر  
نبلة خابت وأرمت بالوتر  
قد نبا في ضربة ثم انبت  
عـج روم قـولى ودبـر  
كره في حلبة الميدان خـر

ثم ألقى الشاعر الضوء على أفعال الصليبيين في الإسكندرية ، فقد قاموا بعد اقتحامها بهتك النساء الجميلات العفيفات، وقتل الأطفال الرضع، والشيوخ الكبار، وأسر الشبان والصغار، والشيوخ، فقال: (١)

أين عينيك ترى الثغر وقد  
وبنات خفرات حُرم  
ولكم مـرضعة قد نـحروا  
ولكم شيخ كبير قتلوا  
أسروه واستباحوا أسرة  
ما رعوا شاباً ولا ذا شـيبة

هناك الإفرنج منه ما استتر  
قد أزالوا عنهن ذاك الخـفر  
طفلها في صـدرها أيضاً انتحر  
ما رعوا في أمره حق الكـبر  
وبهم أمسى ذليلاً مـحتقر (٢)  
فصغيرٌ وكبيرٌ مُستطـر

وتحدث الشاعر عن موقف سلطان مصر الأشرف شعبان من سقوط الإسكندرية، فقد ذكر أنه كان غداة وصول نبا الواقعة بسرياقوس (٣)، فقام من وقته ورجع إلى القلعة ورسم للعساكر بالسفر إلى الإسكندرية، وصل السلطان الظهر، وركب من يومه ومعه الأتابك يلُغا والعساكر الإسلامية في الحال، وعدوا النيل، وجدوا في السير من غير ترتيب، ولا تعبئة، وبينما هم في ذلك جاء الخبر بأن العدو لما سمعوا بقدوم السلطان تركوا الإسكندرية وهربوا (٤)، وقد صور الشاعر ذلك بقوله: (٥)

سأقت البُرذ لمصر غارة  
وجدوا السلطان في سرياقس  
بطقوا بلبيس في ساعتهم

سوق عـنف لا يخافون الغير  
نازلاً فيها فأعطوه الخـبر  
في حمام طالعوا المولى الأقر

(١) المصدر نفسه، ١٧٤/٤-١٧٥.

(٢) خطأ نحوي والصواب "محتقرا".

(٣) بلدة في نواحي القاهرة، ياقوت، معجم البلدان، مادة "سرياقوس".

(٤) انظر ابن تفردي بردي، النجوم الزاهرة، ٢٥/١١.

(٥) التويري، الإلام، ١٧٥/٤-١٧٦.

يَبْغَا مَدْبَرَ الْمَلِكِ الَّذِي  
جَاءَهُمْ سَوَقًا عَلَى حَالْتِهِ  
جَهَزَ الْجَيْشَ وَأَعْطَى بِالْمَلَا  
لَمْ يَكُنْ إِلَّا قَلِيلًا وَصَلُوا  
وَمَضُوا الْإِفْرَنْجُ فِي سَاعَتِهِمْ  
وَعَدَا الثَّغْرُ الشَّيْبُ أَبْخَر

أَمْرُهُ وَنَهَيْتُهُ قَدْ اشْتَهَرَ  
سَاعَةَ الْوَقْتِ سَرِيعًا مَا فَتَرَ  
أَوْقَرَ السَّفْنَ وَنَادَى بِالسَّفْرِ  
بجِيوشٍ لَيْسَ تُحْصَى كَالْمَطَرِ  
وَوَخَدُوا فِي الْبَحْرِ جَدًّا فِي السَّفْرِ  
عَبْرَةً يُبْصِرُهَا مَنْ اعْتَبَرَ

تتكون هذه القصيدة من خمسة أجزاء تبدو فيها الوحدة الموضوعية والعضوية جلية، ففي الجزء الأول، أعطى صورة عن الغزو الصليبي وعنفه، وفي الجزء الثاني والثالث صور الصليبيين لحظة اقتحامهم الإسكندرية ومقاتلتهم للعساكر الإسلامية، وانتصارهم عليها، ووصف في الجزء الرابع ما فعلوه في المدينة من قتل وسبي ونهب وغير ذلك، وفي الجزء الخامس تحدث عن خروج المماليك لجهادهم، ومن ثم رحيل الصليبيين عن المدينة بعد أن تركوها خراباً.

إن كل جزء من هذه الأجزاء ساهم في بناء قصة سقوط الإسكندرية الأمر الذي يصعب معه زحزحة أي جزء من مكانه إلى مكان آخر في القصيدة.

ومن الأمثلة على الوحدة الموضوعية في مراثي هذا العصر قصيدة ابن نباتة في رثاء القاضي الأديب بدر الدين بن العطار، فقد بدأها الشاعر بالتعبير عن ذموله من موت مرثيه، وتصوير جزعه، وحزنه، وأرقه، ودموعه الغزار، فقال: (١)

حُجِبَتْ وَلَمْ أَحْسَبْ سَنَا الْبَدْرِ يُحْجَبُ  
وَأُوزِنَتْ عَيْنِي جُودَ كَفِّكَ فَانْبِرَتْ  
يُذَكِّرُنِي بَدْرُ السَّمَاءِ سَمِيَّةٌ  
عَلَيْكَ خَشِيْتُ الْخَطْبَ قَبْلَ أَوَانِهِ  
وَلَا خَلَّتْهُ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ يَغْرُبُ  
تَسْحُ بِأَنْوَاءِ الْغَمَامِ وَتَسْكُبُ  
فَهَا أَنَا أَرْعَى كُلَّ بَدْرِ وَأَرْقُبُ  
وَحَازَرْتُ صَرْفَ الدَّهْرِ وَهُوَ مَغِيْبُ

ثم صور الشاعر أثر موت ابن العطار على حياته وشعره، وعلى الفقراء والمحتاجين الذين يتوافدون عليه، وألقى الضوء على حال الأخلاق والآداب بعده، فقال: (٢)

مِنْ يَسْتَجِدُّ الْفِكْرُ بَعْدَكَ مَدْحَةً  
لِمَنْ نَتَرَجَى بَعْدَ بَابِكَ إِنَّهُ  
يُقَضِّضُ فِي أَلْفَظِهَا وَيَذْهَبُ  
لِيَذَلِّ النَّدَى بَابَ صَحِيحٍ مَجْرَبُ

(١) ابن نباتة، الديوان، ص ٤٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٤.

على شرف الأخلاقِ بعدك والوفاء  
مضت صدقاتُ السرِّ بَعْدَكَ وانقضتْ  
مضى رونقُ الآدابِ بعد وضوحِهِ

سلامٌ كوجهِ الرّوضِ والرّوضُ مُعْجَبٌ  
فيا أسفاً للسرِّ بالصّدْرِ يذهبُ  
وغَيْبَ ذاكِ المُنْظَرِ المتــــادَّبُ

ثم انتقل الشاعر إلى الحديث عن مناقب مرثيه، فأشاد بنسبه، وأثنى على جوده، وأخلفه الحميدة، وتقواه، وأدبه، ووصف حسن أيامه، فقال: (١)

ألا في سبيل الله ساكن مَلْحِدِ  
فتى كَرُمْتَ أنسابُهُ وخالأهُ  
أخا أدبٍ بين المكارم والتقى  
فلو لم تجدنا غرّاً نعماء جادنا  
مضى حيثُ تتأى عنه كلُّ ذميمةٍ  
وأيامُهُ بدريةٌ لا يضيرُهُــــا

وأوصافُهُ في الأرضِ تَملى وتُكْتَبُ  
فالأوّه إرثٌ لديهِ ومكسبُ  
على شرف الدارين يسعى ويدأبُ  
بفضل دُعاهُ وإبل الغيثِ يسكبُ  
وأعمالُهُ بالصّالحاتِ تَقْرَبُ  
بوادِرُ ما تأتي وما تتجنَّبُ

وهاجم الشاعر الدنيا، فوسمها بالغدر، وصورها مطية يركبها الخلق إلى الموت، وعجب من المغترين بها، وهي التي تختطف أحلامهم وآمالهم، فقال: (٢)

لحى الله دنيا لا تكون مطيةً  
عَجِبْتُ لِمَنْ يرجو الرضا وهو مُهْمَلٌ  
ما هذه الأيامُ إلا مراحلٌ  
إذا كانت الأنفاسُ للعمرِ كالخطــــا

إلى ذرِكِ الأخرى تُزَمُّ وتُرْكَبُ  
وتسويقنا مع ذلك العلمِ أعْجَبُ  
وأجدرُ بها تقضي قريباً وتقضبُ  
فإن المدى أذنى منالاً وأقــــربُ

ويختم الشاعر قصيدته بالحديث عن مصير مرثيه، وبالنداء لقبره بالسقيا، وتمنى الموت بعده، يقول: (٣)

أساكنَ جناتِ النعيمِ مهتاً  
سقى عَهْدَكَ الصّوبُ الملتُّ فطالما  
ولا أغمدتُ أيدي النوائبِ غرْبها

وتاركنافِ حَسْرَةٍ نتلَهَبُ  
سقانا ملثٌ من نوالِكَ صَيَّبُ  
فما في حياةٍ بعد موتك مرغــــبُ

إن هذه القصيدة على الرغم من تعدد المحاور فيها إلا أنها تصب في غرض واحد وهو الرثاء.

(١) ابن نباتة، الديوان، ص ٤٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٥.

## اللغة والأسلوب

اهتم النقاد بلغة الشعر، فهي المادة الأولية له، وهي كالألوان للتصوير، والرخام للنحت، وربطوا بين الأسلوب والمضمون، فذهبوا إلى أن كل موضوع يناسبه شكل معين من أشكال التعبير الشعري، فإذا كان الغرض رثاءً أو غزلاً، كانت ألفاظ الشعر رقيقة سهلة، وإن كان الغرض حماسية، أو فخرًا، أو مدحًا، كانت لغة الأدب جزلة، يقول الجرجاني: "ولا أمرك بإجراء أنواع الشعر كله مجرى واحداً، ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه بل أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني، فلا يكون غزلك كافتخارك، ولا مدحك كوعيدك... بل ترتب كلا مرتبته، وتوفيه حقه، فتلطف إذا تغزلت، وتفخم إذا افتخرت، وتتصرف للمديح تصرف مواقفه، فإن المديح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف، ووصف الحرب والسلاح، ليس كوصف المجلس والمدام، فلكل واحد من الأمرين نهج، هو أملك به، وطريق لا يشاركه الآخر فيه"<sup>(١)</sup>.

وينبغي أن يكون هناك تلاؤم بين الألفاظ والمعاني، فاللفظ "جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته"<sup>(٢)</sup>، ولهذه المشاكلة بين اللفظ والمعنى قيمة جمالية، لأنها تؤدي إلى حسن الشعر وحلاوته، وقوة تأثيره في نفس المتلقي<sup>(٣)</sup>، أما إذا قصر الشاعر في ذلك، فإنه يكون سبباً في ضعف بنائه اللغوي، وسوء تأثيره في النفوس<sup>(٤)</sup>. وإذا نظرنا إلى أسلوب أشعار الرثاء في العصر المملوكي الأول، فإننا نجد أن كثيراً منها جاء متفقاً مع ما ذهب إليه النقاد، فقد اتسم بالبرقة واللين، والسهولة، والفصاحة، والبعد عن الابتذال، ويبدو التلاؤم بين الألفاظ والمعاني جلياً. ولعل سبب ذلك أن أكثر تلك المراثي نظمها شعراء احترفوا فن الشعر، وعدوا من فحول زمانهم أمثال: ابن نباتة، وصفي الدين الحلبي، وبرهان الدين القيراطي، وشمس الدين بن دانيال، وناصر الدين بن النقيب، وشمس الدين الكوفي الواعظ، وأبي الحسين الجزار، وسراج الدين الوراق، وابن الوردي، وشهاب الدين محمود الحلبي، وعلاء الدين الوداعي، ومجد الدين ابن الظهير الإربلي، ومحيي الدين بن عبد الظاهر<sup>(٥)</sup>، وغيرهم.

(١) الجرجاني، الوساطة، ص ٢٣، وانظر ابن الأثير، الملل السائر، ١/١٦٨، د. احسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص ٣٢٢، د. عبد الفتاح عثمان، نظرية الشعر، ص ١٢٦، محمد البرازي، في النقد العربي القديم، ص ٢٧٢، د. يوسف بكار، بناء القصيدة، ص ١٩٠-١٩١، ٢٠٢، ١٩٤، د. أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي، ص ٤٧٧، د. محمد عبد المطلب، اتجاهات النقد، ص ١٢٩.

(٢) ابن رشيق، العمدة، ١/١٠٤، وانظر ابن طباطبا، عيار الشعر، ص ١٢٦، العسكري، الصناعيتين، ص ١٧٩.

(٣) د. عبد الفتاح عثمان، نظرية الشعر، ص ١٢٦.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٢٦.

(٥) انظر ما قيل فيهم، ابن سعيد، المغرب، ١/٢٩٦، الصندي، الواني، ١/١٩٩، ٢/٢٧٤، ٣/٥١، ٤/٢٧٧، ١٨/٤٨١، أعيان العصر، ٣/٦٨، الكشي، فوات الوفيات، ١/١٥٧، ص ٣٣٥، ٣/٣٣٠، ص ٣٧٢، العمري، مسالك الأبيصار، ج ١١، ١/٨٣، المقرئ، المفقى، ٥/٦٩٤، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١/٧٤٩.



وكان كثير من الشعراء الذين نظموا في الرثاء يشتغلون بالفقه، والحديث، والإفتاء، والقضاء، والنحو، واللغة، والكتابة، وهؤلاء تفرض عليهم طبيعة وظائفهم وشروطها أن يشتغلوا باللغة ويتقنوها، ولذا يتوقع القارئ لأشعارهم أن تكون لغتها فصيحة.

أما السهولة التي دعا إليها النقاد في الشعر عامة، والرثاء خاصة<sup>(١)</sup>، فكانت مذهب الشعراء في العصر المملوكي الأول، إذ حرصوا على اختيار اللفظ العذب الرقيق، والابتعاد عن الألفاظ الغريبة، وطلبوا أن يكون الشعر سهلاً، فهذا ابن الوردي يقول:<sup>(٢)</sup>

إِذَا أَحْبَبْتَ نَظْمَ الشُّعْرِ فَاخْتَرِ      لِنَظْمِكَ كُلَّ سَهْلٍ ذِي امْتِنَاعِ  
وَلَا تَقْصِدْ مِجَانِسَةً وَمَكَّنْ      قَوَافِيهِ وَكُلُّهُ إِلَى الطَّبَاعِ

وامتدح نقاد العصر المملوكي الأديب الذي يستعمل الألفاظ السهلة في أدبه، وعابوا عليه استعماله الغريب منها، ومن ذلك ما جاء في قول الصفدي في ترجمته للشاعر الحسن بن علي ابن شنار. كان "متين التركيب بليغ المعاني، فصيح الألفاظ، إلا أنه يستعمل الغريب فيما يعاني، فيثقل على السمع"<sup>(٣)</sup>، وامتدح الصفدي الكاتب عبد الوهاب بن فضل الله العمري لأنه كان يتجنب "مستقل الألفاظ، ويتحيد عن الألفاظ الغريبة التي تهجر من الإعراب، فلا يخرج الكتاب من يده إلا عذباً، فصيح الألفاظ، ظاهر المعاني"<sup>(٤)</sup>.

ومن الأشعار التي اتسمت بالرقة واللين، والفصاحة، والسهولة، والتلاوم بين الألفاظ والمعاني، قول الشاعر جمال الدين بن نباتة في رثاء ابنه عبد الرحيم:<sup>(٥)</sup>

لَيْتَ الْقَضَا إِذْ لَمْ يَدَعَكَ أَهَابَ بِي      حَتَّى نَدُومَ مَعَاً عَلَى مِضْمَارِ  
لَيْتَ الْقَضَا الْجَارِي تَمَهَّلَ وَرُدُّهُ      حَتَّى حَسِبْتَ عَوَاقِبَ الْإِضْمَارِ

(١) انظر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص ٣، قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص ١٠، الصناعتين، العسكري، ص ٨١، ابن رشيق، العمدة، ٢٢٨/١، حازم القرطاجني، منهاج البلاغة، ص ٣٥١.

(٢) انظر محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ج ٤، ٣٨١/٨٤، د. هنري الصايغ، اتجاهات الشعر، ص ٤٤، د. عبد قنبلية، النقد الأدبي، ص ٢٨٦-٢٨٧، د. أحمد الحبيب، الحركة الشعرية، ص ٣٧٨.

(٣) الصفدي، أعيان العصر، ٢/٢١٤.

(٤) المصدر نفسه، ٣/١٩١.

(٥) ابن نباتة، الديوان، ص ٢١٨، ابن أبي حجلة، سلوة الحزين، ص ١٢٨.

ما كُنْتَ إِلَّا مِثْلَ لَمَحَةِ بَارِقٍ      وَلَى وَأَغْرَى الْجَفْنَ بِالْإِمْطَارِ  
أَبْيَكِ مَا بَكَتِ الْحَمَامُ هَدِيْلَهَا      وَأَحْنُ مَا حَنَّتْ إِلَى الْأَوْكَارِ  
أَبْيِي بِمَحْمَرِ الدَّمُوعِ وَإِنَّمَا      تَبْكِي الْعْيُونَ نَظِيرَهَا بِنَضَارِ

يعبر الشاعر عن معاني الحزن والبكاء، ولذا استخدم الألفاظ والعبارات الدالة على ذلك "أغرى الجفن بالإمطار"، "أبيك"، "أحن"، "أبكي بمحمر الدموع"، "تبكي العيون"، هذا فضلاً عن تكرار أسلوب التمني الذي زاد من التعبير عن حزن الشاعر، وعمق مأساته.

ومن ذلك القصيدة نظمها عفيف الدين التلمساني في رثاء ابنه شمس الدين، ومنها قوله: (١)

يا نار قلبي وأين قلبي أو      يا كبدي لو يكون لي كبذ  
يا بائع الموت مشتريه أنا      فالصبر ما لا يصاب والجلذ  
يا ليتني لم أكن أبالك ويا      ليت ما كنت أنت لي ولذ  
لو أن عيني منك ما رأتا      ما رأتا ما دهاهما الرمد  
لو أن أذني منك ما سمعنا      نطقاً لما صمتا لما أجذ

ومن القصائد الجميلة التي تحققت فيها الأساليب السابقة، قصيدة شمس الدين

الكوفي الواعظ، في رثاء تاج الدين بن عبدوس، ومنها قوله: (٢)

أتاج الدين قد أفنيت صبري      وكنت على الخطوب من الجاد  
أتاج الدين قد أوحشت عيني      وإن كنت انتقلت إلى فوادي  
فلو كان التلاقي بعد شهر      لكنت أضج من طول البعاد  
فكيف وليس في التيا تلاقٍ      وميعاد التلاقي في المعاد؟

ويبدو التلاؤم بين الألفاظ والمعاني في القصائد التي رثت المدن المحتلة بيد

المغول، فقد عبر فيها الشعراء عن أشجانهم، وصوروا فظاعة ما ارتكبه المغول فيها من قتل وأسر، وسبي ونهب، وتدمير (٣)، ومن ذلك قصيدة كمال الدين بن العديم، في رثاء حلب

سنة ٦٥٨هـ، يقول (٤)

(١) الصفدي، الوافي، ٣/١٣٥-١٣٦، الكشي، فوات الوفيات، ٣/٣٨٢، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٨/٨٨-٨٩.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣٨.

(٣) انظر الكشي، عيون التواريخ، ١٩/١٥٢٠٢٠/١٣٧-١٤٢.

(٤) الصفدي، أعيان العصر، ١/٣٣٢.

يَعَزُّ عَلَى قَلْبِي الْمُعْنَى بَأَنِّي  
فَأَيْنَ أَحِبَائِي الَّذِينَ عَهَدْتُهُمْ  
وَأَيْنَ شَمُوسٌ كُنَّ بِالْأَمْسِ طَلَعَا  
فَهَا أَنَا ذُو وَجْدٍ يَحِيدُ بِأَضْلَعِي  
أَنُوحُ عَلَى أَهْلِيكَ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ  
أَرَى رَبْعَكَ الْمَأْنُوسَ قَفْرًا وَيَعْظُمُ  
بَرْبِعَكَ وَالْقَطَانَ فِيكَ مَخِيمٌ؟  
فَأَيْنَ اسْتَقَلُّوا بِالرَّكَابِ وَيَمَمُوا؟  
عَلَيْكَ وَعَيْشِي فِي السِّبْلِ يُنْزِمُ  
وَأَبْكِي الدَّجَى شَوْقًا وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ

فالشاعر يعبر عن معاني الدمار والفناء، والحزن، والشوق، فاختار الألفاظ  
والعبارات الدالة على ذلك، "قفراً"، "أحبائي"، "وجد يحيد بأضلعي"، "أبكي"، "شوقاً".

وبرز التلاوم بين الألفاظ والمعاني في الأشعار التي نظمت في رثاء العلماء  
والأدباء، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في القصيدة التي نظمها شهاب الدين في رثاء  
القاضي نجم الدين ابن صصري: (١)

وكتابة يَجْلُو السَّجْلَ جَلَّهَا  
وبلاغة لا قَلْبَ إِلا وَدَّ أَنْ  
وفصاحة في الْقَوْلِ أَتَقَنَّ عِلْمَهَا  
وعبارة كَالنَّيْلِ نَيْلَ بَيَانِهَا  
ولكم له من قَبْلِ دُرِّ رَسَائِلِ  
تاجاً يزينُ النِّيرَاتِ مُرْصَعَا  
تُمَلَى وَتُنْشَرُ لَوْ تَحَوْلَ مَسْمَعَا  
نَظْمًا وَنَثْرًا حِينَ حَازَمَا مَعَا  
مع أَنهَا أروى وَأَعْدَبُ مَشْرَعَا  
أَبْدَى دُرَّرَ الْبَيَانِ فَأَبْدَعَا

يعبر الشاعر عن مقدرة ابن صصري العلمية والأدبية، فاختار الألفاظ والعبارات  
المعبرة عن ذلك "كتابة"، "السجل"، "بلاغة"، "فصاحة"، "نظماً ونثراً"، "عبارة"، "رسائل"،  
"البيان".

واتسمت الأشعار التي نظمت في رثاء المرأة بالتلاوم بين الألفاظ والمعاني أيضاً،  
إذ عبر الشعراء فيها عن حُبهم للمرأة المرثية، وصوروا محاسنها، ومواطن الجمال فيها،  
ولذا استخدموا الألفاظ الدالة على ذلك، ويتجلى ذلك في القصيدة التي نظمها ابن نباتة في  
رثاء جاريته، ومنها قوله: (٢)

بِكَيْتِكَ "لِحُسْنِ" الَّذِي قَدْ شَهِدْتَهُ  
وَلِلشَّيْمِ الْغُرِّ الَّتِي قَدْ عَهَدْتَهَا

(١) الصفيدي، أعيان العصر، ١/٣٢٢.

(٢) ابن نباتة، الديوان، ص ٧٤.

”وَرَوْضَةٌ لَخَدِ حَلِّهَا “عُصْنٌ قَامَةٌ  
 ”خَبِيَّةٌ حُسْنٌ“ كُنْتُ مَغْتَبِطاً بِهَا  
 وَأَنْسَةَ قَدْ كَانَ لِي ”لَيْنٌ عَطْفَهَا“  
 أَنَادِي ثَرَى ”الْحَسَنَاءُ“ وَالتَّرْبَ بَيْنَنَا  
 لِعَمْرِي لَقَدْ طَابَتْ وَقَدْ طَابَ نَبْتُهَا  
 وَلَكِنْ بَرَعَمِي فِي التَّرَابِ دَفَنْتُهَا  
 فَلَمْ يَبْقَ لِي إِلَّا نِدَاها وَنَعْتُهَا  
 وَعَزَّ عَلَى صَمْتِ ”الْمَتِّيمِ“ صَمْتُهَا

واستخدم عدد من الشعراء ألفاظ الهجاء وعباراته، وذلك حين رسموا صوراً  
 ساخرة للموتى من أرباب الدول، والعلماء والأدباء، وحين سخروا من أعداء المسلمين  
 وقادتهم<sup>(١)</sup>، فالشاعر أبو عبد الله بن حسن الشاطبي، استخدم لفظة ”كلاب“، إذ قال في رثاء  
 الإسكندرية، ووصف الصليبيين المهاجمين لها:<sup>(٢)</sup>

يَنَادِي لِسَانُ الْحَالِ بِالْحَالِ انظُرُوا  
 وَمِثْلَهُ قَوْلُ النَّسْتَرَاوِي فِي وَصْفِ الْقَائِدِ الصَّلِيبِيِّ بِطَرَسِ لُوزَنْجَانَ: <sup>(٣)</sup>

جَاءَ كَلْبُ الرُّومِ بِالسَّقَنِ الَّتِي  
 وَقَرَّهَا خَيْلٌ وَرَجُلٌ وَمَيَّرَ  
 وَهَجَا قَطْبَ الدِّينِ عَمْرَ أَبَا الْحُسَيْنِ الْجَزَارِ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَاسْتَعْمَلَ الْأَلْفَاظَ الْمَعْبُورَةَ عَنِ ذَلِكَ،  
 فَقَالَ: <sup>(٤)</sup>

الشَّاعِرُ الْجَزَارُ مَا  
 قَدْ وَافَقَ الْعُقْلَاءَ رِيْبُ  
 تَ فَبِئْسَ مَا ضَمَّ التَّرَابُ  
 بِهِمْ عَلَيْهِ فَهَمْ غِضَابُ  
 حَزَنْتُ لِمَوْتِهِ الْكِلَابُ  
 وَالْبِخْلَهُ بِالْعَظْمِ مَا

ويتسم أسلوب الرثاء بالجزالة والقوة، وذلك عندما ينتقل الشاعر من البكاء  
 والحزن على المرثي إلى الإشادة بخصاله، ووصف بطولاته، ومعاركه، وفتوحاته، وبرز  
 ذلك بصورة جلية في مرثي أرباب الدول، إذ صور الشعراء حروبهم التي خاضوها ضد  
 المغول والصليبيين، وتحذثوا عن مجرياتها، وما تخللها من طعن وضرب، وكر وفر،  
 وقعة للسلح، وجاء الأسلوب، جزلاً حين دعا بعض الشعراء في مرثيهم إلى الأخذ

<sup>(١)</sup> انظر ص ٨٨، و ١٢٤ من هذه الرسالة.

<sup>(٢)</sup> التنويري، الإلمام، ٢/٢١٩.

<sup>(٣)</sup> المصدر نفسه، ٤/١٧٢.

<sup>(٤)</sup> الكشي، فوات الوفيات، ٤/٢٧٩.

النَّارَ، وصوروا عظم المصيبة التي خلفها موت مرثيهم على مظاهر الطبيعة والكون، وكل ماله علاقة بذات المرثي.

ومن ذلك ما جاء في قول نقي الدين بن شبيب الحراني في رثاء بيبرس: (١)

فكَمْ تَزَلْزَلْتَ الدُّنْيَا لِسَطْوَتِهِ      بالمشركين وَكَمْ زَلَّتْ بِهِمْ قَدَمُ  
وَكَمْ تَحْرَقَ فِي نِيرَانِ عَزْمَتِهِ      للكُفْرِ قَلْبٌ وَنَارِ الْحَرْبِ تَضْطَرُّمُ  
وَكَمْ رَمَتْ جَمَرَاتِ الْهَامِ مُخْرَمَةً      سيوفُهُ وَأَحْلَتْ لِلْعَدَا حُرْمُ  
وَكَمْ كَسَا لِعِرَاةِ الْبَيْضِ مِنْ حَلَلٍ      حُمْرٌ وَلِلسُّمْرِ تِيْجَانًا هِيَ الْقِمَمُ

فالشاعر يتحدث عن شجاعة بيبرس، وبطولاته، فاستخدم الألفاظ والعبارات الدالة على ذلك، "تزلزلت"، "سطوته"، "تحرق"، "نيران عزمته"، "نار الحرب تضطرم"، "جمرات الهام"، "سيوفه"، "البيض"، "السمر"، "القمم".

وتتسم قصيدة صفي الدين الحلبي التي نظمها في رثاء خاله بالقوة والجزالة في لغتها وأسلوبها ومنها وقوله: (٢)

لَمْ أَبْكِ بِالْحَزَنِ الطَّوِيلِ تَمَلُّقًا      حَزَنِي عَلَيْكَ وَقَاتِعَ وَحُرُوبُ  
فَلأَبْكِيَّتِكَ بِالصَّوَارِمِ وَالْقَنَا      حَتَّى يُحَطِّمَ ذَابِلٌ وَقَضِيْبُ  
لَا يَأْمُنُ بَنُو أَبِي الْفَضْلِ الْبَقَا      إِنْ الْفَنَاءَ إِلَيْهِمْ لَقَرِيْبُ  
وَوَرَاهُمْ مِنْ آلِ سَنَبِسٍ عَصْبَةٌ      مُرَدَّةٌ وَشَبَّانٌ تَهَابُ وَشَيْبُ  
قَوْمٌ إِذَا غَضِبُوا عَلَى صَرْفِ الْقَضَا      جَاءَ الزَّمَانُ مِنَ الذَّنُوبِ يَتُوبُ  
وَإِذَا دُعُوا يَوْمًا لِدَقِّ مَلْمَةِ      بَسَمُوا وَفِي وَجْهِ الزَّمَانِ قَطُوبُ  
فَلْيَبْكِيَنَّكَ طَرْفُ كُلِّ مُتَقِفٍ      يَزْهَى بِحَمَلِ سَنَانِهِ الْأَنْبُوبُ  
وَالصَّبْحُ لَيْلٌ بِالْعَجَاجِ وَقَدْ بَدَا      بِالْبَيْضِ فِي فَوْدِ الزَّمَانِ مَشْيِبُ

وأتسمت بعض المرثي في هذا العصر بالضعف والركاكة، وعدم الملاءمة بين الألفاظ والمعاني، ويعود ذلك إلى غير سبب، ومنها الصنعة والتكلف، واستخدام

(١) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٦.

(٢) الحلبي، اللديوان، ص ٢٨٥، وانظر ص ٢٩٧.

مصطلحات العلوم<sup>(١)</sup>. ومنها أن كثيراً من الذين شاركوا في نظم تلك المراثي كانوا لا يحترفون فن الشعر، فقد كان منهم العالم، والفقير، والتاجر، والجندي، ولذا أتوا يشعرون ركيك ليس له من الشعر سوى الوزن والقافية، وزاد من ركاكتها، وضعف أسلوبها أن العلماء والفقهاء استخدموا فيها أساليبهم التي يعتمدون عليها في مجادلاتهم ومناظراتهم، وأبحاثهم العلمية، وهي أساليب لا تليق بالشعر.

وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك حين تحدث عن الملكة الشعرية، فبين أن الفقهاء، وأهل العلوم قاصرون في البلاغة، ذلك أن محفوظهم ممثلي بالقوانين العلمية والعبارة الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة وهي عبارات وقوانين تجعل الملكة الناشئة عنها في غاية القصور والانحراف عن أساليب العرب في كلامهم<sup>(٢)</sup>.

إن ما قاله ابن خلدون ينطبق على جل المراثي التي نظمها العلماء والفقهاء في العصر المملوكي الأول. ويمكن التمثيل على ذلك بما جاء في قصيدة تقي الدين حسين التي نظمها في رثاء جمال الدين بن مالك النحوي، فقد لجأ فيها إلى أساليب العلماء، فاستعمل لفظة "أعني"، ويتجلى ذلك في قوله: <sup>(٣)</sup>

رَحِمَ المَهِيمُنْ رَوْحَه فَضَرِيحُه      يَعتَاذُه صَوْبَ يسْحُ غَمَامُه  
"أعني" ابن مالك الموسد في الثرى      وعلومه بين الورى أعلامه

ومثله قول الشيخ محفوظ بن وشاح الحلبي في رثاء نجم الدين الحلبي المعروف بالمحقق: <sup>(٤)</sup>

أَلقَنتي الدَّهْرُ وفَرطُ الأسي      وزادَ في قلبِي لَهيبَ الضَّرامِ  
لَقَد بَحَر العِلْمِ والمُرتَضَى      في القولِ والفعلِ "وفصل الخصام"  
"أعني" أبا القاسمِ شمسَ العُلا      الماجدَ المقدامَ ليثَ الزَّحامِ

ويستخدم محمود بن الأثير الحلبي لفظة "أيضاً" إذ قال في رثاء ابن تيمية: <sup>(٥)</sup>

لا يخافُ الملوكُ أيضاً ولا الخَلْـ      قَ ولا العداة مع اللوامِ

<sup>(١)</sup> سيأتي الحديث عن ذلك في الصفحات القادمة من هذا الفصل.

<sup>(٢)</sup> انظر ابن خلدون، المقدمة، ٣/١٣١٤-١٣١٥.

<sup>(٣)</sup> البيهقي، ذيل مرآة الزمان، ٣/٧٨.

<sup>(٤)</sup> السيد الهادي، فقهاء النجباء، ١/٢٠٤.

<sup>(٥)</sup> الكرمي، الكواكب الدرية، ص ٩٦.

ولم يحالف بعض الشعراء التوفيق في الملاءمة بين ألفاظهم ومعانيهم، ذلك أنهم نظموا مرثيتهم بهدف التسجيل التاريخي، فسعوا إلى المعنى، وقلّت عنايتهم بالألفاظ الأمر الذي جعل أشعارهم تخلو من العاطفة، ولا ترتفع إلى مستوى الحدث، وبرز ذلك بصورة جلية في مرثي الإسكندرية، وبعض الأشعار التي رثت بغداد، والشيخ تقي الدين ابن تيمية<sup>(١)</sup>، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في قول ابن أبي حجلة التلمساني واصفاً ما فعله المغول في بغداد:<sup>(٢)</sup>

فَقَتَّلَ الخليفة المُستعصمًا	فلا تَسَلْ عما جرى من الدِّما
ولم يزلْ يقتل قومًا قومًا	والدم يجري أربعين يوماً
وقتلوا حتى الضَّربير الصَّرصري	والبنتَ والطفْل الذي في السَّرر
فما جرى في سائر الأعصارِ	نظيرَ فعلِ هذه التَّنارِ

ومن المآخذ والعيوب التي يمكن أن تؤخذ على لغة المرثي في هذا العصر، وقوع بعض الشعراء في اللحن، والضرورات الشعرية، ولم يكن سبب ذلك ضعف ثقافتهم اللغوية، ذلك أنهم من الشعراء والفقهاء والكتاب، الذين عرفوا بثقافتهم اللغوية الواسعة أمثال جمال الدين بن نباتة، وبرهان الدين القيراطي، وشافع بن علي الكاتب، وغيرهم. وقد عاب بعض النقاد العرب القدامى والمحدثين على الشعراء اللحن في شعرهم، لما فيه من تحطيم للغة، وعبث بتقاليد المرعية، وقوانينها المتوارثة<sup>(٣)</sup>، فالعسكري ينصح الشاعر قائلاً: "وينبغي أن تتجنب ارتكاب الضرورات، وإن جاءت فيها رخصة من أهل العربية فإنها قبيحة تشين الكلام وتذهب بمائه."<sup>(٤)</sup>

ويرى ابن طباطبا أنه ينبغي للشاعر "أن لا يظهر شعره إلا بعد نقته بجودته وحسنه وسلامته من العيوب التي نبه عليها، وأمر بالتحرز منها، ونهي عن استعمال نظائرها، ولا يضع في نفسه أن الشعر موضع اضطرار، وأنه يسلك سبيل من كان قبله،

(١) ابن أبي حجلة، سلوة الحزين، ص ٨٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٣.

(٣) انظر نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، ص ٢٩٦، د. عبد الفتاح عثمان، نظرية الشعر، ص ١١٥، د. يوسف بكار، بناء القصيدة،

ص ١٠٦-١٠٩.

(٤) العسكري، الصناعين، ١٦٨.

ويحتج بالأبيات التي عيبت على قائلها، فليس يُقْتَدَى بالمسيء، وإنما الاقتداء بالمحسن<sup>(١)</sup>.  
فالشعر الحسن عنده هو الذي يكون خالياً من الخطأ واللحن، لأن الفهم يأنس من الكلام  
الصواب، ويستوحش من الخطأ<sup>(٢)</sup>، ونجد نقاد العصر المملوكي الأول يؤاخذون الشاعر إذا  
لحن، وخرج عن قواعد اللغة<sup>(٣)</sup>.

ومن مظاهر ذلك اللحن صرف ما لا ينصرف، كما يبدو في قول شافع بن علي الكاتب: <sup>(٤)</sup>  
أين الذي رأينا في الوجود لهم  
"عجائباً" من ذوي الأديان والممل  
ومثله قول ابن نباتة: <sup>(٥)</sup>

وكان عليه جَوْهرُ الذَّكَرِ "أبيضاً"  
فزاوجت فيه جِوهرِ الدَّمعِ "أحمرًا"  
وكثر اللحن في القصائد التي قيلت في رثاء الإسكندرية، فالشاعر النويري يحذف النون  
من الفعل "يكتبون" وإن لم يسبقها ناصبٌ أو جازم، فيقول: <sup>(٦)</sup>

يكتبوا النَّهَبَ في الجرائدِ حقاً  
بخلاها بالسنِّ الأَقلامِ  
وتميزت مرثي الشعراء في العصر المملوكي الأول بميزات عديدة، ومنها الأثر  
الإسلامي الذي بدا جلياً فيها، وقد فرض عليهم ذلك طبيعة الموضوع الذي عبروا عنه،  
فهم ينظمون في موضوع الرثاء، فيتحدثون عن القبر، والمصير، والحشر، والآخرة،  
والموت، وهي أمور جلى الإسلام حقيقتها، وكشف النقاب عن كثير من خباياها، ولذا فإن  
من الطبيعي أن ينهل الشعراء المسلمون من الأفكار التي قدمها الإسلام، وأن يعكسوها  
في مرثيهم، خاصة وأنها أضحت جزءاً لا يتجزأ من فكرهم وكيانهم. إلى جانب ذلك فإن  
القرآن الكريم منذ نزوله على سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، والشعراء يعدونه المثال  
المُحتذى، يغرفون من معينه، ويسعون إلى الاستفادة من بلاغته ومضامينه المختلفة هذا  
فضلاً عن أن جل شعراء الرثاء في هذا العصر كانوا يشتغلون في العلوم الدينية مثل:  
الفقه وأصوله، والحديث، والتفسير، ويتولون المناصب الدينية مثل: القضاء، والإفتاء،

<sup>(١)</sup> ابن طباطبا، عيار الشعر، ص ١٦.

<sup>(٢)</sup> المصدر نفسه، ص ٢٠.

<sup>(٣)</sup> انظر د. عبده قليلة، النقد الأدبي، ص ٢٩٥-٣٠١.

<sup>(٤)</sup> شافع بن علي، حسن المناب السرية، ص ١٤١، الفضل المأثور، ص ١٧٣.

<sup>(٥)</sup> ابن نباتة، الديوان، ص ٢٢٣.

<sup>(٦)</sup> النويري، الإمام، ٢/٢١٢، ولزبد من الأمثلة انظر القيراطي، الديوان، ص ٥٨.



وقراءة القرآن، ومن البدهي أن تتسرب إلى أشعارهم ألفاظ، ومصطلحات ومعان وصور من تلك العلوم.

وقد بدا التأثير بالقرآن الكريم جلياً، ويتجلى ذلك في أربعة وجوه، المعاني والصور، والقصص القرآني، والاعتباس. ففي قول شرف الدين بن سليمان الإربلي: (١)  
عَزَّ البَقَاءُ فَكُلُّ حَيٍّ فَا نِ      لَا دَائِمَ يَبْقَى سِوَى الرَّحْمَنِ  
نَفْذَ القَضَاءِ بِسَابِقِ المَحْتَمِ فِي      قَوْلِ المَهِيْمِ مِنْ عَلَيْهَا فَا نِ

يبدو الشاعر متأثراً بقوله تعالى: "كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الجَلَالِ والإِكْرَامِ" (٢).

والشاعر صلاح الدين الصفدي في قوله مصوراً الحزن على أخيه إبراهيم: (٣)  
أَلَا يَا ذَهْرٌ قَدْ رَاعَيْتَنَا فِي      أَخِي فَتَرَكْنَا نَصْلِي سَعِيرَا  
ينظر الى قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا، وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا" (٤).

ويبدو الشاعر ذاته في قوله مصوراً حياة أخيه في القبر: (٥)  
وَقَدْ نَوَّرَ التَّوْحِيدُ ظِلْمَةَ قَبْرِهِ      وَحَيَاةَ رِضْوَانِ بَرُوحِ وَرِيحَانِ  
متأثراً بقوله تعالى: "فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ، فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ" (٦)  
وقال برهان الدين القيراطي مصوراً أثر تقي الدين السبكي في أهل الإلحاد والضلال: (٧)  
وَأَخَافُ فِي ذَا الْآنَ كُلِّ أَخِي هَوَى      فِي النَّارِ يَنْهَلُ مِنْ حَمِيمِ آنِ

فهو يأخذ معانيه من قوله تعالى في صفة أهل النار: "هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا المَجْرِمُونَ، يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمِ آنِ" (٨).

(١) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٧.

(٢) سورة الرحمن، آية ٢٦-٢٧.

(٣) الصفدي، الوافي، ٣٣٥/٥.

(٤) سورة النساء، آية ١٠.

(٥) الصفدي، الوافي، ٣٣٣/٥.

(٦) سورة الواقعة، آيات ٨٨-٨٩.

(٧) القيراطي، الديوان، ص ٥٩.

(٨) سورة الرحمن، آيات، ٤٣-٤٤.

وقال محيي الدين بن عبد الظاهر مصوراً أثر موت الظاهر بيبرس على الأرض: (١)

أم ترى الأرضَ قد بها خَسَفَ اللـه

هـ تعالى بالخلْقِ فهي تمورُ

فهو ينظر إلى قوله تعالى: "أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ".

وبرز التأثير بمعاني القرآن الكريم وصوره جلياً في مرثي صفي الدين الحلي،

ففي قوله في رثاء أخيه عبد الله بن سرايا: (٢)

جَعَلَتْ جِبَالَ الصَّبْرِ بِالْحَزَنِ صَقْصَقاً

وَصَيَّرَتْ أَطْوَادَ التَّجْدِ كَالْعِهْنِ

يبدو متأثراً بقوله تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا، فَيَذَرُهَا

قَاعًا صَقْصَقًا" (٣)، وقوله تعالى: "وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ" (٤).

ويتجلى تأثيره بمعاني القرآن وصوره في قوله: (٥)

شوسَ تظنُّ العدا سِهَامَهُمْ

شُهْبًا بِهَا الماردونَ قد رُجموا

وقوله: (٦)

يا رَجِيمَ الخُطوبِ فاسترقِ السَّم

عَ فافقُ العُلا بغيرِ شهابِ

فهو ينظر إلى قوله تعالى: "إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ" (٧)، وقوله

تعالى: "إِلَّا مَنْ اسْتَرْقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ" (٨)

واقتبس بعض الشعراء آيات من القرآن الكريم، أو أجزاء منها، ولكن ذلك كان

قليلاً في المرثي قياساً بتأثر الشعراء بمعاني القرآن وصوره، ويتجلى ذلك في قول ابن

الوردي في رثاء الشيخ مهنا بن إبراهيم الفوعي: (٩)

"ليتني متُّ قبلَ هذا" (١٠) فإني

حاملٌ فيك ما شجاني وأضنى

(١) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام، ص ١٨١.

(٢) الحلي، الديوان، ص ٣١٠.

(٣) سورة طه، آيات ١٠٥-١٠٦.

(٤) سورة المعارج، آية ٩.

(٥) الحلي، الديوان، ص ٢٨٢.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٩٠.

(٧) سورة الصافات، آية ١٠.

(٨) سورة الحجر، آية ١٨.

(٩) ابن الوردي، الديوان، ص ٢٢٨.

(١٠) انظر سورة مريم، آية ٢٣.

وقول أبي محمد البسطي: (١)

سَقَيْتَ الْحَيَا مَا دَامَتِ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَمَا تَلَيْتَ "إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا" (٢)

ويكثر الاقتباس في قول ابن نباتة: (٣)

عَرَيْتَ وَجَوَّعْتَ الْفَوَادَ فَحَبَا  
بِكِي الْجَامِعِ الْمَعْمُورِ فَقَدَكَ بَعْدَمَا  
وَفَارَقْتَهُ بَعْدَ التَّوْطَنِ سَارِيًّا  
لَقَدْ كُنْتُ أَلْقَاهُ وَصَدْرِي مُخْرَجٌ  
مَسَاكِنُ فِيهَا "لَا تَجُوعُ وَلَا تَعْرَى" (٤)  
"أَبَيْتَ عَلَى رَغَمِ الدِّيَارِ بِهِ عُمْرًا" (٥)  
إِلَى جَنَّةِ الْمَأْوَى "فَسُبْحَانَ مَنْ أَسْرَى" (٦)  
فِيَفْتَحُ لِي يُسْرًا "وَيُشْرُخُ لِي صَدْرًا" (٧)

واستوحى الشعراء قصص القرآن الكريم، واستفادوا من دلالاتها في التعبير عن معانيهم وفي تشكيل صورهم، ومن أكثر هذه القصص تردداً في شعرهم قصة سيدنا يوسف عليه السلام، وحزن أبيه يعقوب عليه السلام عليه حتى ابيضت عيناه، يقول تعالى في حديثه عن يعقوب وأبنائه: "وتولّى عنهم وقال يا أسقى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم، قالوا تالله نفثا نكراً يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين" (٨) وقد شبه الشعراء أنفسهم بيعقوب عليه السلام، وشبهوا المرثي بيوسف، ويتجلى

ذلك في قول السيف الشطرنجي في رثاء الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب: (٩)

قَدْ سَقَى يَوْسُفَ النَّاسَ كَأْسَ صَنْبِرٍ مَرَّةً لَا تَقَرُّ فِي الْأَحْشَاءِ  
فَهُمْ فِي مَحَلِّ يَعْقُوبَ فِي الْخُزْنِ ن وَإِجْرَاءِ دَمْعُهُمُ بِالْبِكْرِ

وقول ابن نباتة: (١٠)

(١) ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٤٢.

(٢) انظر سورة ص، آية ٤٤.

(٣) ابن نباتة، الديوان، ص ٢٢٠، الصغدي، أعيان العصر، ٦٣/١، ابن حبيب، تذكرة النبي، ٥٨/٢.

(٤) انظر سورة طه، آية ١١٨.

(٥) انظر سورة يونس، آية ١٦.

(٦) انظر سورة الإسراء، آية ١.

(٧) انظر سورة طه، آيات ٢٥-٢٦.

(٨) سورة يوسف، آيات ٨٤-٨٥.

(٩) البيهقي، ذيل مرآة الزمان، ١٥٠/٢.

(١٠) ابن نباتة، الديوان، ص ٣٠٧.

ويا لك من حزنٍ تجددَ عندنا

به حزن يعقوب الذي كاد يُقلعُ

وقول صفي الدين الحلبي: (١)

هدّ قلبي من كان يُؤنسُ قلبي

إذ نبذناه بالعراء سقيماً

ونأى يُوسُفي، فقد ذهبْتُ عيـ

سناي من حزنه وكنْتُ كظيماً

وترددت قصة موسى عليه السلام في غير سورة من سور القرآن الكريم، واشتملت على أحداث متنوعة استفاد منها الشعراء، ووظفوها في مرثيهم، ومنها هلاك فرعون في النيل إثر ملاحقته موسى وأتباعه، وجاء ذلك في قول علاء الدين بن فضل الله العمري بحق النشو المقتول سنة ٧٤٠هـ: (٢)

في يومِ إثنينِ ثانيِ الشهرِ من صَفَرٍ

نادى البشيرُ إلى أن أسمعَ الفلَكا

يا أهلَ مِصرَ نجا موسى ونيلكمُ

طغى وفرعونُ وهو النشو قد هلكا

ويصور صفي الدين الحلبي نفوس أنسابه وخاله بعصي السحرة، والموت بعضاً موسى التي لقيت تلك العصي وقهرتها، فيقول: (٣)

أفي كلِّ يومٍ للمنيّةِ غارةٌ

تُغيرُ على سِرْبِ النَّفوسِ فتخطفُ

كأنَّ جبالَ السّاحرينَ نفوسُنَا

وتلك عصا موسى لها تتلَقَّفُ

ويشير الشاعر شمس الدين الكوفي الواعظ إلى قصة موسى وهارون في قوله: (٤)

لذنياء هارون استخارَ مُساعداً

وموسى لأخراه شفيحاً مُكرماً

واستوحى غير شاعر قصة نوح عليه السلام والظوفان، ومنهم صلاح الدين الصفدي في قوله: (٥)

ظوفان علمٍ جرّت فيه السّقينةُ من

آدابه واستوت منه على الجودي

ويوظف صفي الدين الحلبي قصة إسماعيل عليه السلام حين فدي بذبح عظيم في قوله: (٦)

(١) الحلبي، الديوان، ص ٢٢٨.

(٢) ابن تفردي بردي، النجوم الزاهرة، ١٠٤/٩.

(٣) الحلبي، الديوان، ص ٢٨٣.

(٤) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٦/٣.

(٥) الصفدي، أعيان العصر، ٣٧٥/٥.

(٦) الحلبي، الديوان، ص ٣٢٧، ابن حبيب، تذكرة النبي، ٢٢٤/٢.

لو أن إسماعيلَ مثلَ سمِيهِ

ويستلهم أحد الشعراء قصة موسى عليه السلام حين كلم الله سبحانه وتعالى، وقصة نوح والسفينة وقصة إسماعيل في قوله: (١)

شاهدت بَعْدَكَ حَال مَنْ فارقَتَهُ  
أَمْسَى لَهُ قَلْبُ الكَلِيمِ ونارِهِ  
وَلقد رأيتُكَ فوق أعواد الرَدَى  
والنَّاسُ كالطَّوفانِ وهى سَفِينَةٌ  
أَنْتَ الحَياءُ لَهُ وَأَنْتَ الرُّوحُ  
يَصْنُلِي الخَلِيلُ بِها وَأَنْتَ ذَبِيحُ  
وأمامكَ التَّهْلِيلُ والتَّسْبِيحُ  
تَجري بِأدْمَعِنا وشخصُكَ نوحُ

وتأثر الشعراء بمعاني الحديث النبوي الشريف وصوره، وأخذوا منها ما يتلاءم مع المعاني والمواقف التي عبروا عنها، فالشاعر صلاح الدين الصفدي في قوله: (٢)

وتدبيرٌ خلا عن حظِّ نفسٍ  
ينظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "أعطيتُ خَمْساً لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ من قبلي، نُصِرْتُ  
بالرَّعبِ مسيرةَ شهرٍ... (٣)"

وقال الشيخ أبو عبد الله الغرناطي: (٤)

ولا بدَّ أن يستوفي المرءُ عُمْرَهُ  
فهو يستوحى قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أيها الناس اتقوا الله وأجملوا في  
الطَّلبِ، فإنَّ نفساً لن تموتَ حتى تستوفي رزقها وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله، وأجملوا في  
الطلبِ، خذوا ما حلَّ، ودعوا ما حرَّم" (٥)

واستلهم غير شاعر المعاني (٦) التي جاءت في قوله صلى الله عليه وسلم، "إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فاستلوا فأخذوا بغير علم، فضلوا وأضلوا" (٧)

(١) ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٤٨.

(٢) الصفدي، أعيان العصر، ١٣٦/٢، الوابي، ٤٣٤/١٠.

(٣) البخاري، الصحيح، ١٠٩/١، ٣٣٤/٤.

(٤) ابن العجمي، كنوز الذهب، ٤٧٠/١، الطباخ، أعلام النبلاء، ٧٨/٥.

(٥) ابن ماجه، السنن، ٦/٣.

(٦) انظر الكرمي، الكواكب الدرية، ص ٢١٥، ٢١٠.

(٧) البخاري، الصحيح، ٢٥٨/١.

وممن تأثروا به أبو الفضل يوسف بن محمد المصري إذ قال في رثاء النووي: (١)

فالعلم مقبوضٌ بقبضِ نفوسهم  
واستخدم الشعراء حشداً كبيراً من الألفاظ والمصطلحات الدينية، ولا تكاد تخلو  
قصيدة أو مقطوعة منها، وهي مستمدة من القرآن الكريم والحديث الشريف، والعلوم  
الدينية، ومن ذلك قول علاء الدين بن غانم في رثاء ابن تيمية: (٢)

صارَ جارَ الإله ربِّ السَّمَاوَا  
ويستخدم الأديب الأمين سلطان ألفاظ "الدين"، "والشريعة"، "والأمر بالمعروف"، و"رب"،  
و"دار النعيم" في قوله: (٣)

يا مُخَيِّباً لِلدِّينِ بَعْدَ إِمَاتَةِ  
ومؤيداً لشريعة أسماها  
يا أَمِراً بِالْعَرَفِ يُرَضِّي رِبَّهُ  
بوكت من دار النعيم علاها

ويستخدم برهان الدين القيراطي حشداً من الألفاظ الإسلامية في قوله: (٤)

ورواه مولاهُ الرَّحِيمُ بِرَحْمَةٍ  
يحييه منها هاطلٌ بعد هاطلِ  
وواقاه رضوانُ الجنانِ مُبادراً  
بشيراً برضوانٍ سريعٍ مُعاجلِ  
وحياه بالريحان والروح والرضى  
إله البرايا في الضحى والأصائلِ

وظهرت معانٍ إسلامية كثيرة في مرثي هذا العصر ، وهي معانٍ قدمها القرآن  
الكريم والحديث النبوي الشريف، فصارت جزءاً لا يتجزأ من الفكر الديني الإسلامي ، فقد  
بين الإسلام لأتباعه أن الموت حتم على بنى البشر، وأن الحياة الدنيا دار الفناء ، ومعبر  
إلى الحياة الآخرة، وقد صدر جلّ الشعراء عن هذه الأفكار حين تحدثوا عن الموت  
والدنيا، ومثال ذلك قول شرف الدين بن سليمان الإربلي: (٥)

عَزَّ البَقَاءُ فَكُلُّ حَيٍّ فَا نِ  
لا دائمٌ يَبْقَى سِوَى الرَّحْمَنِ  
ننسى الردى ونغالط الأيام في  
تبعيده وهو القريب الداني

(١) ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي، ص ٣٨.

(٢) الكرمي، الكواكب الدرية، ص ١٩٢.

(٣) ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٥٣.

(٤) القيراطي، الديوان، ص ٢١، السيوطي، حسن المحاضرة، ١/٢٦٣-٢٦٤.

(٥) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ٢٥٧.

وقول السيف الشطرنجي: (١)

كلّ حيٍّ مصيره للفناء      ثم لم يبقَ غيرُ ربِّ السّماءِ

والموت في الفكر الإسلامي ليس فناء للبشر، فهناك حياة القبر والبرزخ وهي الحد الفاصل بين الدنيا والآخرة، وفيها إما أن يعيش الإنسان في نعيم، فيكون قبره قطعة من الجنة، وإما أن يعيش في شقاء، واستفاد الشعراء من هذه المعاني حين دعوا للمرثي وقبره، وصوروه جنة فيه الحور والولدان، والسندس، والأرائك، والأمثلة على ذلك كثيرة، ومنها قول الصفدي في رثاء أثير الدين أبي حيان: (٢)

ما بات في أبيض أكفانه      إلا وأضحى سندساً أخضراً

تصافح الحور له راحةً      كم تعبت في كل ما سطرًا

وقال الشيخ محمد الحنفي في رثاء جمال الدين بن مالك النحوي: (٣)

رَوْضَةُ حَفْرَةٍ أَعَدَّتْ لِمَثْوَا      ةً يَزْهَرُ أَعْمَالُهُ أَكْمَامَةً

زَخْرَفَتْ لِلْقُدُومِ مِنْهُ قَصُورًا      وَجَنَانٍ وَلِدَانِهِ خَدَامَةً

وبرزت المعاني الدينية حين صوروا الملائكة متزاحمة حول قبر المرثي ونعشه،

ويتجلى ذلك في قول زين الدين بن الوردي في رثاء ابن تيمية: (٤)

ولو حَضَرُوهُ حِينَ قَضَى لِأَلْفُوا      ملائكةَ النّعيمِ به أحاطوا

وتأثروا بالمعاني الإسلامية والصور التي جاءت في القرآن الكريم والحديث حين

تحدثوا عن البعث، والحساب، والصراط، والميزان، ومن ذلك قول برهان الدين

القيراطي: (٥)

ما هذه الأرواح من خلّقتنا      إلّا ودائع كنّ في الأبدانِ

رَجَعَتْ لِعَالَمِهَا الَّذِي كَانَتْ بِهِ      فِي الْبَرْزَخِ الْمَعْلُومِ لِلدِّيَانِ

حتى إذا الأخرى أطلّ زمانها      عادت بإذن الله للجثمانِ

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٤٩/٢.

(٢) السيوطي، حسن المحاضرة، ٤٣٩/١، بغية الرعاة، ٢٨٥/١.

(٣) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٧٧/٣.

(٤) ابن الوردي، الديوان، ص ٢٦٦.

(٥) القيراطي، الديوان، ص ٥٩.

وتجمعت بعد البلى أجسادنا حتى استوت بالهيكل الإنسان

ويرسم أحد الشعراء صورة ليوم الحساب والناس يومذاك في قوله يرثي النووي: (١)  
يوماً تكون عصاة الناس قد جمعت والنار ذات لظى والرب غضبان  
يفر كل امرئ من هول مصرعه من ابنه وأخيه وهو حيران  
فعد ذلك بلا ريب على عجل بالبشر من ربنا يأتيك رضوان

وتأثر الشعراء بالمعاني الإسلامية وصور القرآن والحديث حين صوروا المرثي من أهل الجنة ينعم فيها، ويتقلب بمتعها وملذاتها، كما تأثروا بها حين صوروا الملائكة والحدود والولدان والجنة مهللة مستبشرة بقدوم المرثي ، ويتجلى ذلك في قول الصفدي: (٢)  
وبات بالحدود والولدان مشتغلاً  
ومن المعاني الإسلامية الإيمان بالقضاء والقدر، وحمد الله في السراء والضراء، والرضاء بحكمه، ومنها الإيمان بفكرة الثواب الذي يناله الصابرون على مصابهم، ويتضح ذلك في قول ابن الوردي: (٣)

وكيف رضيت هذا البعد لكن وقضاء الواحد الرب القدير  
ولو أنا صبرنا كان أولى فما نال الثواب سوى الصبور  
وفي خير الأنام لنا عزاء وغايتنا إلى هذا المصير

وقول شهاب الدين الزرعي: (٤)

فالحمد لله المهيم دائماً وإليه فيما نابني استرجع

واستلهم الشعراء التاريخ بأحداثه وشخصياته ، ووظفوه في خدمة المعاني التي عبروا عنها، فحين تحدثوا عن حزنهم استحضروا شخصية النساء، وبكاءها على أخيها

(١) ابن المطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٥٧.

(٢) الصفدي، الوافي، ٣٠٠/١.

(٣) ابن الوردي، الديوان، ص ٣٢٨.

(٤) ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٥٦٨/٢.



صخر، وتجلّى ذلك في شعر غير شاعر، ومنهم صفي الدين الحلبي، إذ قال في رثاء الأمير ركن الدين إسحاق: (١)

أيا صخرَ الجنانِ أدمنت نوحى  
فها أنا فيك خنساءُ الرجال

وجاء ذلك في قول ابن الوردي في رثاء الشيخ مهنا بن إبراهيم الفوعي: (٢)  
أَيَّ قَلْبٍ بِهِ لَوْ كَانَ صَخْرًا  
مَا يُحَاكِي الْخَنَسَاءَ نَوْحًا وَخُرْنَا

واستدعى الشعراء الشخصيات التاريخية حين أشادوا بمرثيهم، ووصفوا جودهم، وحلمهم، وتقواهم، وشجاعتهم، وهنا برزت أسماء مثل "حاتم الطائي"، و"البرامكة"، و"الأحنف ابن قيس"، و"الإسكندر"، ومن ذلك ما جاء في قول مجد الدين الإربلي: (٣)  
وَجَنَّتْ عَلَى الدِّينِ الحَنِيفِ جَنَابَةٌ  
وَقَوْلُ كَمَالِ الدِّينِ بنِ العَطَارِ: (٤)

قد حركَ الثَّقَلَيْنِ فَقَدْ مُصَابِهِ  
فَالظَّاهِرُ المُوَدِيِّ أَوْ الإِسْكَندَرُ

ويطالعنا في مرثي هذا العصر حشد من أسماء العلماء والأدباء السابقين، استحضرها الشعراء حين قرنوا بينها وبين مرثيهم من العلماء والأدباء، كما يبدو في قول برهان الدين القيراطي: (٥)

أرَبَيْتَ فِي الجُودِ عَلَى حَاتِمٍ  
وَقُفَّتَ فِي العِلْمِ عَلَى "الحَاتِمِي"

إِحْسَانُكُمْ نَرُويهِ عَن نَاقِصِ  
وَعُونُكُمْ نَرُويهِ عَن "عَاصِمِ"

وقول محمد بن فضل الله بن كاتب المرج القوصي: (٦)

وَيَا مَنْ يُعَزِّي فِيهِ هَلْ أَنْتَ بَالِغٌ  
عِزَاءِ الوَرِيِّ لَوْ كُنْتَ سَحْبَانِ أَوْ قُسْنَا

ويوظف ابن نباتة شخصية مالك بن نويرة، وأخيه متمم إذ قال في رثاء الملك المؤيد، وأشاد بابنه الأفضل: (٧)

(١) الحلبي، الديوان، ص ٢٩٦.

(٢) ابن الوردي، الديوان، ص ٢٢٧، تاريخ ابن الوردي، ٣٠٢/٢.

(٣) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٦٢.

(٤) الصفدي، الوافي، ١٧٢/٨، العمري، مسالك الأبصار، ج ٨ ق ٩٥/١.

(٥) القيراطي، الديوان، ص ٧٦.

(٦) الأذفوي، الطالع السعيد، ص ٦٠٨.

(٧) ابن نباتة، الديوان، ص ٢٤٩، ابن حجة، خزنة الأدب، ١٤٠/١.

فَقَدْنَا لِأَعْنَاقِ الْبَرِيَّةِ "مَالِكًا"

وَشُمْنَا لِأَنْوَاعِ الْجَمِيلِ "مُتَمِّمًا"

وعاد الشعراء إلى التاريخ اليوناني، ووظفوا بعض شخصياته في شعرهم، أمثال:

"جالينوس، وبطليموس"، وتجلّى ذلك في قول شمس الدين الكوفي الواعظ: (١)

أنا أشكو أمراضَ حُزْنٍ وَشَوْقٍ      كَلَّ عَنْهَا عِلاجُ جالينوس

وقول شمس الدين بن دانيال: (٢)

نَجْمٌ هَذَا آيُ النُّجُومِ وَلَمْ لَا      أَخْبَرَ النَّاسَ عَنْهُ بَطْلِيمُوسُ

واستفاد الشعراء من الأمثال الشعبية، فوظفوها في مرثيهم، ومنها ما زال يتردد

على ألسنة الناس في أيامنا هذه، ومن ذلك ما جاء في قول صفى الدين الحلبي: (٣)

وراموا بأنواعِ العَقَائِرِ برأه      "وَهَلْ يُصَلِّحُ العَطَّارُ ما أَفسَدَ الذَّهْرُ"

وقول أحد الشعراء: (٤)

عَلَامَةٌ وَلَئِنْ يَكُنْ عِلْمَاؤُنَا      جَمًّا "فَكَلَّ الصَّيِّدُ فِي جَوْفِ الفَرَا"

ويضمن أحد الشعراء المثل الشعبي "من خَلَّفَ ما مات" إذ قال معزياً أبا الحسين

الجزّار بحماره وساخرأ منه: (٥)

مَنْ ماتَ فِي عِزِّهِ اسْتَرَاحَ وَمَنْ      "خَلَّفَ مِثْلَ الأَدِيبِ ما ماتا"

ويوظف الشاعر تقي الدين المغربي المثل القائل: "إنّ الزيادة فوق القدر نقصان"، في قوله: (٦)

قَدْ كانَ يَكْفِيهِ أَدْنَى ما تَعَلَّمَهُ      "إنّ الزيادة فوق القدر نُقْصان"

وقال الصفدي: (٧)

أهْ كَيْفِ القَرارُ فَوْقَ فِراشِ      مَلَأَتْهُ الأَحْزانُ خَرَطَ القَتادِ

فهو ينظر إلى المثل: "دونه خرط القتاد" الذي يضرب لما هو مستحيل وقوعه. (٨)

وَضَمَّنَ شَهابُ الدِّينِ العِزْزِيُّ، المِثْلَ القائِلُ: "العَيْثُ أوَّلُهُ الوِمْضُ" فِي قولِهِ: (٩)

(١) الكنتي، عبون التاريخ، ١٣٨/٢٠، ولزيد من الأمثلة انظر الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ١١٦، إبراهيم حمادة، خيال الظل، ص ١٥٤، ابن لباس، بدائع الزهور، ج ١ ق ٣٢٨.

(٢) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ١١٧.

(٣) الحلبي، الديوان، ص ٣٢١.

(٤) ابن المطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٥٤.

(٥) ابن أبي حجلة، سلوة الخزين، ص ١٢٤، الصفدي، الثبت المسجم، ٢٣٥/٢، الغزولي، مطالع البور، ٩٢/٢.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٤٠٩.

(٧) الصفدي، الواقي، ٢١٨/١٩، أعيان العصر، ٥١٩/١.

(٨) الصفدي، أعيان العصر، ٥١٩/١ حاشية ٢.

(٩) العزازي، الديوان، ص ٧٥، ولزيد من الأمثلة انظر الحلبي، الديوان، ص ٣١٠، ابن نباتة، الديوان، ص ٥٧٣، العترابي، الديوان، ص ٤٠.

وكان إذا استجداه عاف تَهَلَّت

أَسْرَتُهُ "والغيثُ أوله الوَمَضُ"

ومن السمات الأسلوبية التي تميزت بها مرثي هذا العصر أسلوب الحوار، وهو ما أطلق عليه علماء البديع المراجعة<sup>(١)</sup>، وبرز ذلك في المرثي التي نظمها شمس الدين بن دانيال في رثاء إكديشه، فقد راح يحاوره فيها، ويصف له فقره، ويشكو له جوعه، وحالته السقيمة<sup>(٢)</sup>. وبرز أسلوب الحوار في مرثي بغداد، وذلك حين وقف الشعراء على أطلالها يناجونها، ويسألونها عن مصابها، وعمّا فعل الدهر بسكانها، وعمارتها، وحضارتها، فتجيبهم أنهم هلكوا وأصبحوا عبرة لكل معتبر، ومن ذلك ما جاء في قول شمس الدين الكوفي الواعظ: <sup>(٣)</sup>

وَلَقَدْ قَصَدْتُ الدَّارَ بَعْدَ رَحِيلِكُمْ  
وَسَأَلْتُهَا لَكِنَ بَغَيْرِ تَكْلُمِ  
نَادَيْتُهَا يَا دَارُ مَا صَنَعَ الْأَلَمِ  
أَيُّنَ الَّذِينَ عَهَدْتُهُمْ وَلَعَزَّهُمْ  
قَالَتْ: غَدَا لِمَا تَبَدَّدَ شَمْلُهُمْ  
كَدِمَ الفَصَادِ يُرَاقُ أَرْتَلَّ مَوْضِعِ  
وَوَقَّفْتُ فِيهَا وَقْفَةَ الحَيْرَانِ  
فَتَكَلَّمْتُ لَكِنَ بِغَيْرِ لِسَانِ  
كَانُوا هُمُ الأوطَارِ فِي الأوطَانِ  
ذَلًّا تَخَرُّ مَعَاقِدُ التَّيْجَانِ  
وَتَبَدَّلُوا مِنْ عَزَمِهِمْ بِهِوَانِ  
أَبْدًا وَيَخْرُجُ مِنْ أَعَزِّ مَكَانِ

وحاور الشعراء الموت حين تساءلوا عن المصير الذي آل إليه مرثيوهم بعد عز

وسلطان، ومن ذلك قول ناصر الدين بن النقيب في رثاء بيبرس: <sup>(٤)</sup>

أَيُّنَ الَّذِي كَانَتْ أَبْوَدُ خِيُولِهِ  
أَيُّنَ الهمَامُ الظَّاهِرُ المَلِكُ الَّذِي  
فَأَجَابَ صَوْتَ المَوْتِ: حَيٌّ قَدْ مَضَى  
لَيْسَتْ تَجِفُّ وَلَيْسَ عَنْهَا يَنْزَلُ؟  
كَمْ أَعْمَلُ الأَفْكَارَ فِيمَا يَعْْمَلُ؟  
لِسَبِيلِهِ وَإِلَى القُبُورِ المَوْتِ لُ

ويحاور أحد الشعراء شقيقته، فيصف لها حزنه وحياته بعد مرثية محيي الدين النووي، وهي بدورها ترد عليه، وتتعى عليه ذلك، يقول: <sup>(٥)</sup>

(١) انظر الحموي، خزنة الأدب، ٢١٨/١.

(٢) انظر ص ٢١٥ وما بعدها من هذه الرسالة.

(٣) الكندي، فوات الوفيات، ٢٣٤/٢.

(٤) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٠.

(٥) ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٥٤.

ناعي به إذ قُمْتُ أمشي القهقري  
وأهيمُ منه تأسُفاً وتَحسُّراً  
لَكَ قد أصابَ وما الذي لك قد عَرا  
عَمَّا جَرى لي هلْ قَليلٌ ما جَرى ؟  
إن الرزِيَّةَ فيه أم حَبَّو كَرى (١)

وشقيقة أفرعتها لَمَّا أتى النـ  
وأعضُ من وَجِدٍ عليه أناملي  
قالت: أويحك ما دهاك وما الذي  
فأجبتُها ثكلك أمك تسألي  
هذا دعامةً ديننا بل كسرة

ومن الأساليب الجديدة في هذا العصر الرثاء على ألسن الآخرين، ومن ذلك قول

شرف الدين الأنصاري في رثاء سابق الدين مملوك المنصور على لسانه: (٢)

لِمَنْ أَسَكَّنَ قَلْبِي عَنكَ يَا سَكَنِي ؟  
يَمَنْ أَعَلَّ آمَالِي ؟ يَمَنْ ؟ يَمَنْ ؟  
يَا هَالِكاً عَدَرْتَنِي فِيهِ عَانِلْتِي  
وَلَوْ عَدَلْتُ لَطَاشَ الْعَدْلُ عَن أُنْزِي

ونظم الشاعر زين الدين بن الوردي قصيدة في رثاء زوجة على لسان زوجها  
ومطلعها: (٣)

أَوْحَشَنِي يَا صَنْعَةَ الْبَارِي جَمَالُكَ الْعَارِي مِّنَ الْعَارِ

ومن الأساليب البارزة في مراثي هذا العصر المبالغة، وهي سمة أساسية من سمات الشعر، وقد تجلت حين تحدث الشعراء عن حالتهم النفسية، وصوروا حزنهم، ودموعهم التي استحالت إلى دماء، وحين صوروا الأرض قد اضطربت ومادت بسكانها، ومظاهر الطبيعة تعطلت عن أداء مهمتها، كما ظهرت تلك السمة حين رسم الشعراء صورة مثالية لمرثيهم في شجاعتهم، ونداهم، وعلمهم، وزهدهم وغير ذلك، وبرزت هذه السمة في مراثي المدن الإسلامية، وذلك في الصور التي قدمها الشعراء لمصابها، وما فعل الأعداء فيها من قتل ونهب وتدمير. والأمثلة على ذلك كثيرة ومنها قول أبي عبد الله الغرناطي في رثاء أحمد بن يوسف الغرناطي: (٤)

(١) كناية عن الداهية، ولزيد من الأمثلة انظر الصغدي، الواقي، ٣٩٣/٢١، الحلي، الديوان، ص ٢٩٦، ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٤٧، اللواداري، كثر الدرر، ٢١٧/٨، العيني، عقد الجمان، ٤١٤/٤.

(٢) شرف الدين الأنصاري، الديوان، ص ٤٧٣.

(٣) انظر ابن الوردي، الديوان، ص ٣٩٧-٣٩٨.

(٤) سبط ابن العجمي، كوز الذهب، ٤٧١/١-٤٧٢، الطباخ، اعلام النبلاء، ٧٧/٥-٧٨.

فوالله ما يأتي الزمانُ بمِثْلِهِ      وإن زَعَمُوا إِتْيَانَهُ فَكَذَابُ  
ولو أن ما بي من فراقك بالحصَى      لذاب فكيف القلبُ ليس يُذابُ ؟

ويبالغ ابن نباتة حين صور بذل الملك الأفضل في حال فقره يفوق عطاء السحاب: (١)  
وأعطى عطاءَ السحبِ في حالِ عُسْرَةٍ      تقومُ بأعذارِ النفوسِ الشَّحائحِ

ويبالغ سراج الدين الوراق إذ صور موت الحافظ زكي الدين المنذري رزاً لا مثيل له،  
وحين صور الخلق كلهم قد أودى بهم الحزن وأهلكهم، فقال: (٢)

عمّ فيك المصابُ حتّى لقينا      كلّ حيّ أودى به ما لقينا  
فكأننا لم نذر قبلك رزاً      أو كأننا لم ندر من قد رزينا

ومن المبالغة قول أحد الشعراء في رثاء النووي: (٣)

قد رجّت الأرضُ الفضاءَ لِقَدِّهِ      وتزعزعتُ برواسي الأعلامِ

ومن السمات الأسلوبية الأسلوب القصصي، ونجد هذا الأسلوب جلياً في مراثي  
المدن الإسلامية وخاصة مدينة الإسكندرية (٤)، وفي مراثي أرباب الدول وذلك حين أشاد  
الشعراء بشجاعتهم وصوروا معاركهم التي خاضوها ضد الصليبيين والمغول، فقد  
وصفوها من بدايتها إلى نهايتها وما تخللها من ضرب، وقتل، وكر، وفر (٥). وبرز هذا  
الأسلوب في القصيدة التي نظمها شمس الدين بن دانيال في رثاء مجمع الخلاعة  
والمجون، وذلك حين رسم على شكل قصة صورة لما أصاب ذلك المجمع ورواده،  
وأدواته، وأوعية الخمر، وبائعيه (٦).

(١) ابن نباتة، الديوان، ص ٩٩.

(٢) الصفدي، الوراق، ١٥/١٩.

(٣) ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٤٥.

(٤) انظر ص ٢٠٠ من هذا الكتاب.

(٥) انظر ص ٢٥٩ وما بعدها من هذا الكتاب.

(٦) انظر ص ٢٤٤ من هذا الكتاب.

ولجأ ابن دانيال الى ذلك الأسلوب في الأشعار التي نظمها في رثاء إكديشه، فقد صورته وهو يعاني الجوع، ويبحث في إسطلبه عن الطعام، ويهاجم صاحبه الشاعر، وما زال كذلك حتى نفق وتجمعت الكلاب من كل حدب وصوب، لتأكل من رتمته.

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في قول النويري في رثاء الإسكندرية، إذ صور هجوم الصليبيين على المدينة، وسفكهم دماء المسلمين فيها، يقول: (1)

لاقتهم جمع المغاربة التي	من تونس أو ضيغم مكناس
رمت الفرنج عليهم فتراجعوا	عنهم ففروا مع رعاع الناس
فسعى العدو وراءهم بسلاحه	ضربوا الجسوم وسفقوا للرأس
قصدوا المدينة أحرقوا باباً لها	يذعى بباب الورد بين الناس
هجموا من الباب المعين ذكره	دخلوا وكرّوا كربة في الناس
فسعوا ورا من فر عند دخولهم	سفكوا الدماء بكل قلب قاس

ورسم السراج عبد اللطيف التكريتي بأسلوبه القصصي صورة تتبع فيها حركة المغول وجيشهم، منذ بدء الهجوم على العالم الإسلامي، واستيلائهم على المدن الإسلامية في إيران والعراق، والجزيرة الفراتية والشام، يقول: (2)

تتر أتوا تترى كأن جيوشهم	سئل تحادر أو أظل سحاب
فتحوا مدائن فارس وحصونها	وسبوا نزاريهما ولم يرتابوا
وأثوا إلى دار السلام فنكسوا	علم الخلافة بالعراق وآبوا
وديار بكر والجزيرة كم خلت	منها قرى وشوارع ورحاب
ركبوا ظهور الصافنات وغيروا	نهر الفرات وهم له ركاب
ملكوا الشام مع العراق فعم وا	دينا بمصر الخوف والإرهاب

ومن الأساليب التي برزت في المراثي ظاهرة التكرار وتعني تناوب الألفاظ وإعادةتها في سياق التعبير بحيث تشكل نغماً موسيقياً يتقصده الناظم (3)، ويبين ابن رشيق،

(1) النويري، الإلام، ٥٢/٤.

(2) النويري، الإلام، ٢٢٦/٢-٢٢٧.

(3) ماهر هلال، جرس الألفاظ، ص ٢٣٩، وانظر ابن حجة، خزنة الأدب، ٣٦١/١.

أن أولى "ما يكرر فيه الكلام باب الرثاء، لمكان الفجعة، وشدة القرحة التي يجدها المتفجع" (١). وقد حرص شعراء الرثاء في هذا العصر على تكرار ألفاظهم وعباراتهم إدراكاً منهم لما يوفره ذلك من قيم موسيقية تؤكد معانيهم، وتقرع نفوس المتلقين "فالتكرار يضع في أيدينا مفتاحاً للفكرة المتسلطة على الشاعر، ومن ثم يغدو بمثابة الضوء الذي يسلطه الشاعر على الأعماق كي يسهل الإطلاع على خباياها وعلى اللاشعور الكامن فيها" (٢).

وجاء هذا التكرار على مستوى البيت الواحد، والأبيات المتتابعة، ومن الأمثلة على ذلك قول شهاب الدين بن الفضل الله العمري في رثاء ابن تيمية: (٣)

" أهكذا" بالدياجي يُحْجَبُ الْقَمَرُ	وَيُحْبَسُ النَّوْءُ حَتَّى يَذْهَبَ الْمَطَرُ ؟
" أهكذا" تُمْنَعُ الشَّمْسُ الْمَنِيرَةَ عَنِّ	مَنَافِعِ الْأَرْضِ أحياناً فَتَسْتَتِرُ ؟
" أهكذا" الدَّهْرُ لَيْلًا كُلُّهُ أبدأ	فَلَيْسَ يُعْرِفُ فِي أوقَاتِهِ سَحَرُ ؟
" أهكذا" السَّيْفُ لَا تَمْضِي مَضَارِبُهُ	وَالسَّيْفُ فِي الْفَتْكِ مَا فِي عَزْمِهِ خَوْرُ ؟
" أهكذا" الْقَوْسُ تُرْمَى بِالْعَرَاءِ وَمَا	تَصْنَمِي الرَّمَايَا وَمَا فِي بَاعِهَا قِصْرُ ؟
" أهكذا" يُتْرَكُ الْبِخْرُ الْخِصَمَ وَلَا	يُلَوِّى عَلَيْهِ، وَفِي أَصْدَافِهِ الدَّرْرُ ؟
" أهكذا" بِنَقْيِ الدِّينِ قَدْ عَثَبَتْ	أَيْدِي الْعَدَا وَتَعَدَا نَحْوَهُ الضَّرْرُ

فهو يكرر أداة الاستفهام الهمزة، ولفظة "هكذا" سبع مرات، ليؤكد بتكرارها استغرابه وتعجبه من المصير الذي آل إليه رجل عظيم مثل ابن تيمية، وليعبر عن حسرته، ويثير الأسى في نفوس المتلقين.

وكررُوا ألفاظ اللهفة، والحسرة، والأسف، ليؤكدوا حزنهم ولوعتهم، والخسارة الكبيرة الناجمة عن موت المرثي، فالشاعر محيي الدين بن عبد الظاهر يكرر لفظه "أسفي"، أربع مرات إذ قال في رثاء بيبيرس: (٤)

أَسْفِي عَلَى تِلْكَ الْجِيُوشِ وَقَوْلِهَا	أَيْنَ الَّذِي كَتَبَ بِهِ لَا نُخَذَلُ ؟
أَسْفِي عَلَى السَّيْرِ الَّتِي أَلْفَتْهَا	كَيْفَ اغْتَدَّتْ بِوَفَاتِهِ تَتَكَمَّلُ ؟

(١) ابن رشيق، العمدة، ٧٦/٢.

(٢) د. مصطفى الشورى، شعر الرثاء في العصر الجاهلي، ص ٥٣.

(٣) القرظي، القفى، ٤٧٥/١، الكرمي، الكواكب الندية، ص ١٨٢-١٨٣.

(٤) شافع بن علي، حسن المناقب السرية، ص ١٦٥، الدواداري، كز الدرر، ٢١٦/٨، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٩١/٧.

أَسْقَى عَلَى الدَّرْرِ الَّتِي نَظَّمْتُهَا

كَيْفَ انْتَثَتْ بَرْنَائِي فِيهِ تَفْصِلُ؟

أَسْقَى عَلَى الْغُرْرِ الَّتِي بَيَّنْتُهَا

لِمَ لَا بَدَتْ بِحَيَاتِهِ تَتَحَجَّلُ؟

ولننظر إلى هذا الإيقاع الحزين الذي يوفره الشاعر جمال الدين بن نباتة بتكراره

لفظة "لهفي" ست مرات، في قوله في رثاء القاضي تاج الدين بن الزيات: (١)

فَلَهْفِي عَلَى دُنْيَا الْعَفَاةِ تَنَكَّرْتُ      وَلَهْفِي عَلَى رَيْعِ السَّمَاحَةِ أَقْفَرَا

وَلَهْفِي عَلَى بَيْتِ السَّيَادَةِ وَالتَّقَى      وَلَهْفِي عَلَى حَيِّ الْقِرَاءَةِ وَالْقِرَى

وَلَهْفِي عَلَى حَكْمِ تَحْفٍ بِلَيْنِهِ      بُوَادِرِ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يَكْدَرَا

وَلَهْفِي عَلَى رَأْيِ يَضِيءُ بِهِ الْهُدَى      إِذِ النَّجْمُ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ تَحْيَرَا

ومن التكرار ما جاء في قول صفي الدين الحلبي في رثاء الملك الناصر محمد بن

قلاوون: (٢)

فَتَى كَانَ مِثْلَ الدَّهْرِ بَطْشًا وَبَسْطَةً      يُرْجَى وَيُخْشَى عِنْدَهُ النَّفْعُ وَالضَّرُّ

فَتَى طَبَقَ الْأَرْضَ الْبَسِيطَةَ جَوْدُهُ      فِي كُلِّ قَطْرٍ مِنْ نَدَاةٍ بِهَا قَطْرُ

فَتَى لَفْظُهُ مَعَ رَأْيِهِ وَتَوَالِهِ      يَجِيءُ ارْتِجَالًا لَا يُغْلِغِلُهُ الْفِكْرُ

فَتَى لَمْ تَرْنَحْ نَشْوَةَ الْكِبَرِ عَطْفُهُ      وَمِنْ بَعْضِ مَا قَدْ نَالَهُ يَخْذُ الْكِبَرُ

فَتَى لَمْ يَدْعُ فِي مُهْجَةِ الْمَجْدِ حَسْرَةً      مَدَى الدَّهْرِ إِلَّا أَنْ يَطُولَ لَهُ الْعُمْرُ

فَتَى نَخَرَ الْحُسْنَى فَأَعْقَبَ فِعْلُهُ      عَوَاقِبُهُ الْحُسْنَى، فَقَدْ نَفَعَ الذَّخْرُ

فالحلبي يكرر لفظة "فتى" ست مرات ليفيد بتكرارها إضافة إلى تقوية الجرس

الموسيقي، التأكيد على عظمة الناصر وخصاله الحميدة.

ويكرر الشاعر شهاب الدين محمود الحلبي الفعل الماضي "كان" ثلاث مرات

ليؤكد عمق السعادة التي قضاها في صحبة مرثية شمس الدين المقدسي، فيقول: (٣)

كَانَتْ تَطْيِيبُ لَنَا الْحَيَاةَ بِأَنْسِهِ      وَبِقُرْبِهِ فَعَلَى الْحَيَاةِ سَلَامُ

(١) ابن نباتة، الديوان، ص ٢٢٤.

(٢) الحلبي، الديوان، ص ٣٢٠.

(٣) الصفدي، الوافي، ١٨/٢٢٤، ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، ٤/٣٠٩، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٤/١٨٧-١٨٨، الكهي، عيون

التواريخ، ٢١/٣٣٤.



كأنت ليالينا بطيب بقائه  
 كانت به تُروى القلوب وتنتني  
 فينا تضيء كأنها أيام  
 ولها إليه تعطش وأوام

وأكثر الشعراء من تكرار "كم الخبرية"، وبرز لك بصورة جلية في معرض حديثهم عن الخصال الحميدة التي كان يتحلى بها المرثي، وعن المآثر التي خلفها وراءه، وقد أفاد تكرارها التكثر والتعظيم، ومن ذلك ما جاء في قول علاء الدين علي المعروف بقاضي اللاذقية في رثاء بيبرس: (١)

كم قد أبادَ جُموعَ الكُفْرِ حين طغوا  
 وكم حصونٍ منيعاتٍ مُشَيِّدة  
 وكم غزاةٍ في إثرها صِلَةٌ  
 وكم أقامَ مَنارَ السِّدِّينِ مُجْتَهِّداً  
 وكَمَ عَزِيزٍ رَأَى مِنْ سَيْفِهِ الْهَوْنَ  
 عَزَّتْ عَلَى غَيْرِهِ دَانَتْ لَهُ لَيْنَا  
 وَفَكَ نَفْسٍ قَضَّتْ فِي سَجْنِهَا حِينَا  
 فَأَصْبَحَ النَّاسُ صُورَاماً مُصَالِينَا

فقد أفاد تكرارها هنا التأكيد على شجاعة بيبرس، وفتوحاته، ومآثره الحميدة. وعمل الشعراء على زيادة النغم الموسيقي داخل القصيدة وتويعه، وذلك عندما كرروا فيها غير لفظة وعبارة، ويتضح هذا التنوع في التكرار في قول جمال الدين بن نباتة: (٢)

"ليت" المؤيد لا زالت عوارفه  
 "ليت" الحمام حبا الأيام موهبة  
 "ليت" الأصاعر تغدي الأكبرون بها  
 "أعزز علي" بأن ألقى عوارفه  
 أعزز علي" بأن تبلى شمائله  
 "أعزز علي" بأن ترعى النجوم على  
 "هلا" بغير عماد الدين حادثه  
 فزاد قلب المعنى في تظليه  
 فكان يقني بني الدنيا وبيقيه  
 فكانت الشهب في الأفاق تغديه  
 ملء الزمان وأنى لا ألقيه  
 تحت التراب وما تبلى أيديه  
 سرح من الملك قد خلاه راعيه  
 ألفت رداه وأوتت من مبانيه

ويستمر الشاعر في أبيات كثيرة على هذا المنوال: (٣)

(١) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٤.

(٢) ابن نباتة، الديوان، ص ٥٧١، الصفدي، الواقي، ١٧٥/٩، ابن تغري بردي، المهمل الصافي، ٤٠٤/٢، السجور الزاهرة، ٢١٦/٩.

(٣) ولزيد من الأمثلة على تكرار العبارات والألفاظ انظر ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٣٤٥٠، ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٤، ابن الوردي، الديوان، ص ٢٢٧، الصفدي، الواقي، ٢١٨/٢١٩، ٦/٤، أعيان العصر، ٦٣٨/٤، ابن نباتة، السديوان، ص ١٣٨.

وبرزت ظاهرة في مرثي هذا العصر يجدر تسجيلها في هذا المقام، وهي أن بعض الشعراء كرروا أبياتاً شعرية في غير قصيدة نظموها، وربما أجروا عليها تعديلاً طفيفاً، وبدل ذلك على زيف مشاعرهم وانفعالاتهم، وهذا الأمر هو ما جعلهم يقتطعون تلك الأبيات من قصيدة كانوا قد نظموها سابقاً، ثم يضمنونها إلى قصيدة قالوها لاحقاً، ويرسلونها إلى ذوي المرثي ليعزروهم في مصابهم، ومن الأمثلة على ذلك هذه الأبيات، التي جاءت في القصيدة التي نظمها برهان الدين القيراطي في رثاء بهاء الدين السبكي: (١)

تَعزِّي بِكَ الْأَمْصَارُ مِصْرًا لَعَلَّهَا	بَأَنَّكَ مَا زَلْتَ الْعَزِيزَ عَلَى مِصْرٍ
بَكَتْ عَيْنُ شَمْسِ الْأَفْقِ بَدْرَ مَنْ	مَنَاقِبُهُ تَزْهَوُ عَلَى الْأَنْجَمِ الزَّهْرِ
تَوَقَّعَ قَلْبُ التَّيْلِ فَقَدَانَ ذَاتَهُ	أَلَسْتَ تَرَاهُ فِي احْتِرَاقٍ وَفِي كَسْرِ
لَنْ غَادَرْتُكَ الْأَرْضُ حَمَلًا بِيَطْنِهَا	فَإِنَّا حَمَانًا كُلَّ قَاصِمَةِ الظَّهْرِ
وَلَوْ أَنَّ عَيْنِي يَطْرُقُ النَّوْمُ جَفْنَهَا	تَعَلَّتُ لِلنَّوْمِ الَّذِي لِي بِهِ يَسْرِي
لَقَدْ عَطَلَتْ مِنْهُ الرِّيَاسَةَ جِيدَهَا	وَقَدْ كَانَ حَلَامًا بَعْقِدٍ مِنَ النَّخْرِ
وَطَرَفُ الدَّوَاةِ الْأَسْوَدِ أبيضَ بَعْدَهُ	مِنَ الحُزْنِ يَشْكُو قَعْدَ أَقْلَامِهِ الخُضْرِ

فهذه الأبيات وردت بعينها في القصيدة التي نظمها القيراطي في رثاء سعد الدين بن موفق الدين. (٢)

وبرزت هذه الصورة في مرثي الشاعر جمال الدين بن نباتة، ومن ذلك قوله في رثاء محمد بن شهاب الدين محمود الحلبي: (٣)

والمَرْءُ فِي الْأَصْلِ فَخَّارٌ وَلَا عَجَبٌ إِنْ رَاحَ وَهُوَ بِكَفِّ الدَّهْرِ مَكْسُورٌ

وقد غير الشاعر الكلمة الأخيرة من البيت، وضمه إلى القصيدة التي نظمها في رثاء بدر الدين ابن فضل الله العمري، فقال: (٤)

٤٠٥-٢١٨-٤٠٦، الحلبي، الديوان، ص ٢٩٣-٢٩٤، ص ٣٢٣، القيراطي، الديوان، ص ٢٠، الكشي، فوات الوفيات، ١١/٤، ابن العمسي،

كنوز الذهب، ٣٢٧/١، الكرمي، الكواكب الدرية، ص ١٩٤-١٩٥.

(١) القيراطي، الديوان، ص ٢٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٠-٥١.

(٣) ابن نباتة، الديوان، ص ٢٢٢، الصغدني، الوافي، ١٤/٥، أعيان العصر، ٢٥٦/٥.

(٤) ابن نباتة، الديوان ص ٤٦١.

والمَرءُ في الأصلِ فَخَّارٌ ولا عَجَبٌ  
إن راحَ وهو بكفِّ الذَّهرِ مُنحَطَمٌ  
ومما يؤكد أن هذا التكرار مقصود، أن الشاعر لم يجر تغييره إلا في الكلمة  
الأخيرة حيث اضطرتة القافية لذلك.

وقال ابن نباتة في رثاء ابنه عبد الرحيم: (١)

وبدت لدى البيداءِ مطيُّ قبورهم  
علماً بأنهم على أسفارِ  
وقد جاء هذا البيت بعد تغيير طفيف في القصيدة التي نظمها الشاعر في رثاء  
شرف الدين بن فضل الله العمري فقال: (٢)

وبدت لدى البيداءِ مطيُّ قبورهم  
ليعلم أهل العَقْلِ أَنَّهُمْ سَفَرُ

وتتسم مرثي هذا العصر بالطابع الإنشائي من نداء واستفهام وأمر وتمنٍ،  
وبرزت هذه الأساليب بصورة جلية، وربما جاء معظمها في بيت واحد من أبيات الشاعر،  
وقد استخدم الشعراء النداء بأدواته المختلفة "يا"، "الهمزة"، و"أيها"، وعبروا من خلاله عن  
معان عدة، منها الألم والحزن والحسرة، ومن ذلك قول مجد الدين بن ظهير الإربلي: (٣)

يا طول لَهْفِ المسلمين عَلَيهِ من  
راعٍ وما يُجدي على المُتَلَهِّفِ  
يا لهفَ وفدٍ كان مؤمناً رَكِبَهُ  
وركابه في كلِّ قاعٍ صَنَصَفِ  
يا للنَّوادي والرجالِ لحادثِ  
جليلٍ لأشْقاتِ الهمومِ مُؤَلَّفِ

وقول سيف الدين أبي بكر المنجم: (٤)

وا لهفَ قَلْبِي ووا حزني ويا أسفي  
ويا مُصاباً دهاني فيك واحزبي

وجاءت تلك المعاني حين خاطب الشعراء عيونهم وقلوبهم، كي تلتهب حزناً،  
وتجود بالدموع الغزار، وكذلك حين توجهوا بالخطاب إلى المرثي، ونقلوا له لوعتهم

(١) ابن نباتة، الديوان، ص ٢١٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٣٣.

(٣) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٦٣، ٢٦٠.

(٤) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٣١٣/٤.

وحرقتهم وكشفوا عن حالهم بعده، وتجلّى ذلك في قول علاء الدين المعروف بابن قاضي اللاذقية: (١)

يا عينُ جودي وفاءً بالدموع له  
وقول شهاب الدين العزازي: (٢)

أيا عَيْنُ لا تَطْمَعِي بالكُرى  
ويا قَلْبُ نُبْ أَسْفَأُ والتهبُ  
فإنّ الكرى طَعْمُهُ صار مرّاً  
كما التهبَ كَبَدٌ منك حراً

وقال مجد الدين بن الظهير الإبلي مخاطباً مرثيه النووي: (٣)

يا محييَ الدّين كم غادرتَ من كَبِدٍ  
وَأستخدِمُ الشّعراءِ النداءَ ليعبروا عن معنى الدعاء، ومن ذلك ما جاء في القصيدة التي نظمها علاء الدين الأوتاري في رثاء دمشق وخاطب فيها الرسول صلى الله عليه وسلم: (٤)

يا حبيبَ الإلهِ لا تتخلى  
يا حبيبَ الإلهِ قد مسّنا الضر  
يا حبيبَ الإلهِ تَبْنَا إلى اللـ  
عن عُصاةِ غَمَرْتَهُمُ بالأَيادي  
ر فجد بالإسعافِ والإسعادِ  
ه وأنتِ العماذُ حتّى المَعادِ

وأفاد النداء معنى التعظيم، ومن ذلك قول ابن الوردي: (٥)

فيا لله ماذا ضَمَّ لَحْدُ

ويا لله ما ضَمَّ البِساطُ

وأستخدِمُ الشّعراءِ النداءَ المعبر عن معنى التعجب ، وتجلّى ذلك في قول ابن الوردي: (٦)

فيا بَدَرَ السَّمَاءِ أراك تَبْدُو  
ويا مَطَرَ السَّمَاءِ أراك تَهْمِي  
وَقَدَّ واروا سَمِيكَ في القُبُورِ  
أظنّك باكيّاً صَدَرَ الصَّدُورِ

وخرج النداء ليفيد معنى الزجر ، وهذا ما جاء في قول محمد بن عيسى

القوصي، إذ نعى على الشمس طلوعها بعد مرثيه تقي الدين بن دقيق العيد: (٧)

(١) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٤.

(٢) العزازي، الديوان، ص ٩٢.

(٣) ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٢٩.

(٤) النويري، نهاية الأرب، ٥/٢٢٩.

(٥) ابن الوردي، الديوان، ص ٢٦٦.

(٦) المصدر نفسه، ص ٣٢٧.

(٧) السيوطي، حسن المحاضرة، ١/٢٧٦.

يا شمسُ مالكِ تطلعين ألمَ ترَي  
ومنه قول أحد الشعراء: (١)

يا نفسُ لا تخدعي باللَّهو واتعظي

شَمْسَ المعارفِ غَيَّبَتْ بِكُسُوفِ؟

فإن ربحك عند اللّهُ خسرانُ

وكثيراً ما خاطب الشعراء المرثي دون اللجوء إلى أدوات النداء ومن ذلك قول  
القيراطي: (٢)

أبا حامدٍ كُنْتَ الفريدَ الذي له

أما الاستفهام فهو كما يرى الزوزني "مستحب في النسب والمرثية لأن الهوى  
والمصيبة يدلها صاحبهما" (٣)، وقد استعان الشعراء بأدواته المختلفة مثل "أين"، و"من"،  
و"الهمزة"، وعبروا من خلالها عن معاني عدة، ومنها الألم والحزن، ومن ذلك قول محيي  
الدين بن عبد الظاهر: (٤)

أين الذي أسرَ الملوكَ فأصنَبَحو  
أين الذي فتح البلادَ فسيفهُ

في أسره من بعض ما يتخولُ  
مفتاح ما بيد الأعداءِ يقفلُ

واستخدم الشعراء الاستفهام ليفيد معنى التعظيم، وهذا كثير في مرثيتهم، ومنه  
قول محمد المنبجي البزاز: (٥)

مَنْ للمَسائلِ أعضَلتْ مَنْ للفتا  
مَنْ للثقى من للحيا من للحجى

وي اشكَلتْ عن أن يردَ جوابها ؟  
طويت لِقَد أليفها أبوابها ؟

وقول شهاب الدين محمود الحلبي: (٦)

مَنْ للعفاةِ والعناةِ وهَلْ لَهُمْ  
مَنْ بَعْدُ في ذلك المقام مقامُ ؟

(١) ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٥٧.

(٢) القيراطي، الديوان، ص ٢٦.

(٣) الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص ١٣١.

(٤) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٤٥، شافع بن علي، حسن المناقب السرية، ص ١٦٥، الدواداري، كز الدرر، ٢١٦/٨، ابن الفرات،  
تاريخ ابن الفرات، ٩١/٧.

(٥) ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٣٧.

(٦) الصفدي، الوافي، ٢٤٣/١٨.

ومن المعاني التي عبر عنها الاستفهام التمني، وجاء ذلك في قول أبي الفضل يوسف المصري: (١)

أترى تعودُ لنا ليالي أنسِكُمْ ؟ هَيْهَاتَ لَكِن ذَاكَ يَوْمٌ مَعَادِي  
وقول شمس الدين الكوفي الواعظ: (٢)

أترى تعودُ الدارَ تَجْمَعُنَا كَمَا كُنَّا بِكُلِّ مَسْرَةٍ وَتَهَانِي  
واستخدم الشعراء أسلوب الاستفهام الدال على الاستتكار، وتجلي ذلك في قول أحد الشعراء: (٣)

أين الوفاءُ وما العيونُ قريحةً لَمَّا فَقدتِ وَلَا الجفونُ دوامي ؟  
وجاء الاستفهام دالاً على التعجب، والاستبعاد، والنفي. أما التعجب فقد جاء في قول ابن نباتة: (٤)

أينفذ عَنِّي الخُزْنَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ وَمَا اسْتَفذتُ كَفَي نَوَاقِلَ مَالِهِ ؟  
أ أنسى له في كلِّ جَذْبٍ غَمَاماً تَحُثُّ عَلَى رَغَمِ الحيا وَمَطَالِهِ  
أ أنسى له في كلِّ نُرُجٍ قَلَائِدًا مَنظَمةً من رَفْدِهِ وَمَقَالِهِ

ومن الاستفهام الذي يفيد معنى الاستبعاد قول أحد الشعراء: (٥)

كيف التَّصَبُّرُ وهو فيك ملامَةٌ ؟ وبما التَّسْلِي وهو عَنكَ بعيدٌ ؟

وجاء معنى النفي، في قول أبي محمد عبد الله الأندلسي: (٦)

تَبْكِي وَهَلْ يَتَفَعُّ التُّكْلَى تَعَدُّهَا ؟ أَوْ هل يردُّ فقيداً دَمْعُها الجاري ؟

واستخدم الشعراء أسلوب الأمر، وقد خرج عن معناه الحقيقي ليعبر عن معانٍ شتى، وأبرزها الالتماس، وهو طلب الفعل الصادر عن الأنداد والنظراء المتساوين قدراً ومنزلةً (٧)، وجاء هذا المعنى حين عزي الشعراء ذوي المرثيين، وحثوهم على الصبر

(١) ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٣٩.

(٢) الكشي، فوات الرقيات، ٢/٢٣٤.

(٣) ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٤٥.

(٤) ابن نباتة، الديوان، ص ٤٠٨.

(٥) ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٤٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ٥٠.

(٧) عبد العزيز عتيق، علم المعان، ص ٨٤.

والتجدد والتماسك في مصابهم، مثل قول الصفدي معزياً كمال الدين بن إبراهيم الحلبي في والده: (١)

كَمَالِ الدِّينِ لَا تَجْرَعُ وَسَلَّمَ      لِأَمْرِ شَاءَهُ الْبَارِي تَعَالَى

وجاء الأمر الدال على الالتماس في قول نجم الدين بن صصري: (٢)

تَعَزَّوْا جَمِيعَ النَّاسِ عَنْهُ فَكَلِّكُمْ      مُصَابَ بِهِ مِنْ عَالَمِينَ وَجَاهِلٍ

وجاء الأمر دالاً على التمني، وذلك في قول نجم الدين بن صصري مخاطباً عيونه: (٣)

وَسِيلِي دَمًا فَالذَّمْعُ لَيْسَ بِنَافِعٍ      غَلِيلِي وَلَا مُطْفٍ أَوَامٍ مَفَاصِلِي

وخرج الأمر ليفيد معنى الدعاء حين دعا الشعراء لمرثيهم بالرحمة والسقيا، ومن

ذلك قول ابن نباتة في رثاء ابنه: (٤)

وَيَا رَحِيمًا دَعَاهُ      وَاصِلِ بِرَحْمَاكَ عِبْدَكَ

ويستخدم أبو الفضل محمد بن يوسف المصري الأمر الدال على النصيح والإرشاد

والدعاء في قوله: (٥)

يَا صَائِرًا هَذَا الْمَصِيرَ أَلَا اسْتَفْقُ      مِنْ غَفْلَةٍ تَرْدِي وَطُولِ رِقَادِ

وَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ سَكْنَاكَ الثَّرَى      وَتَصِيرُ فِي لَحْدٍ مِنَ الْأَحَادِ

لَا تَسْتَطِيعُ إِذَا لِنَفْسِكَ حِيلَةٌ      وَأَحْذِرِ إِلَهَكَ فَهُوَ بِالْمَرْصَادِ

أما أسلوب التمني فقد جاء معبراً عن آمال الشعراء ورغباتهم لحظة وقوع

الحدث، فقد تمنوا الموت على الحياة، وتمنوا لو أنهم يستطيعون فداء مرثيهم بمهجهم

ونفوسهم، ومن الأمثلة على ذلك قول شمس الدين الكوفي الواعظ: (٦)

يَا لَيْتَنِي قَدْ مِتُّ قَبْلَ فِرَاقِكُمْ      وَلِسَاعَةِ التَّوَدِّيعِ لَا أَحْيَانِي

وبرز التمني بصورة جلية في مرثي جمال الدين بن نباتة، ومن ذلك قوله: (٧)

(١) الصفدي، أعيان العصر، ١/١٣٠.

(٢) ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٣٤.

(٣) ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٣٣.

(٤) ابن نباتة، الديوان، ص ١٥٧.

(٥) ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٣٩.

(٦) الكنتي، فوات الوفيات، ٢/٢٣٤.

(٧) ابن نباتة، الديوان، ص ١٣٨.

لَيْتَ الرَّدَى إِنْ لَمْ يَدْعَكَ أَهَابَ بِي  
لَيْتَ اللَّقَا الْجَارِي تَمَهَّلَ وَرَدَّهُ

حَتَّى نَدُومَ مَعَاً عَلَى مِضْمَارِ  
حَتَّى حَسِبْتَ عَوَاقِبَ الإِضْمَارِ

وفي قصيدة أخرى نظمها ابن نباتة في رثاء ابنه عبد الرحيم، تمنى الموت على الحياة، وتمنى لو أنه لم ينجب ذلك الابن فقال: (١)

بَنِي لَيْتَكَ لَمْ تَعْرِفْ وَلَا عَكَ فِي  
وَلَيْتَ نَجْمَكَ لَمْ يُشْرِقْ عَلَى سَحْرِي  
مَا كَانَ أَقْصَرَ أَوْقَاتِ بِكَ اسْتَرْقَتْ

حَتَّى فَرَحْتُ بِدَمْعِي شَاكِي الْغُرْقِ  
وَلَيْتَ بَرَقَكَ لَمْ يُومِضْ عَلَى أَقْفِي  
فَلَيْتَ عُمْرِي مَقْطُوعٌ عَلَى السَّرْقِ

ومن الأساليب البارزة في مرثي العصر المملوكي الأول استخدام مصطلحات العلوم، وقد حذر النقاد القدماء من استخدامها في الأدب عامة والشعر خاصة، وذلك لحرصهم على نقاء لغة الشعر، ولأنها تضعف الصناعة الشعرية بجمودها وفراغها من النبض الإنساني<sup>(١)</sup>. يقول ابن سنان: "ومن وضع الألفاظ في مواضعها أن لا يستعمل في الشعر المنظوم والكلام المنثور من الرسائل والخطب ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم، والألفاظ التي تختص بها أهل المهن والعلوم"<sup>(٢)</sup>.

ولعل سبب استخدام الشعراء المصطلحات في مرثيهم يعود إلى "أنهم كانوا يمتنون الكثير من المهن غير صناعة الشعر، فمنهم القاضي، والمفتي، والمحدث، والفقير، والكاتب، والعالم في اللغة والنحو، وقراءة القرآن، ومن الطبيعي أن تنعكس الكثير من المصطلحات التي كانوا يستخدمون في أشعارهم"<sup>(٣)</sup>، هذا فضلاً عن ملاءمة استخدام تلك المصطلحات لبعض ألوان الرثاء، ومنها مرثي العلماء والأدباء على سبيل المثال، إلى جانب ذلك فإن استخدام مصطلحات العلوم سمة بارزة في شعر العصر المملوكي، ومرد ذلك إلى الثقافة العلمية الواسعة آنذاك، فقد أخذ الشعراء منها بنصيب وعكسوه في شعرهم<sup>(٤)</sup>، كما اتجهوا إلى النظم العلمي "فنظموا في الفقه والمواريث والأحكام المختلفة،

(١) المصدر نفسه، ص ٣٤٨، وانظر ص ٥٧١.

(٢) انظر د. عبد الفتاح عثمان، نظرية الشعر، ص ١٠٨، ١٠٧.

(٣) ابن سنان، سر الفصاحة، ص ١٤١.

(٤) رائد عبد الرحيم، صورة المغول، ص ١٨٢.

(٥) انظر محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ج ٨ م ٤/١٣١.



وفي النحو والبلاغة والعروض، والتاريخ وغير ذلك".<sup>(١)</sup> وأشار السبكي إلى شيوعها وقتذاك، وأثر ذلك على الشعر حين تحدث عن علماء عصره فقال: "ومن العلماء طائفة استغرق حب النحو واللغة قلبها، وملاً فكرها، فأداها إلى التفرغ في الألفاظ، وملازمة حوشي اللغة، بحيث خاطب به من لا يفهمه"<sup>(٢)</sup>.

ويضاف إلى الأسباب السابقة أن عدداً من نقاد العصر المملوكي قد استحسنوا زركشة لغة الشعر بمصطلحات العلوم<sup>(٣)</sup>، وجعلوا من استخدامها قانوناً يصدر عن غيره في نقد الشعر، وحكمهم على تميزه. ومن الأمثلة على ذلك القصيدة التي نظمها شرف الدين الحصني في رثاء جمال الدين بن مالك، فقد طغت عليها المصطلحات النحوية، الأمر الذي جعل الصفدي يشيد بها وينظم على منوالها، فقال معبراً عن إعجابها بها: "وما رأيت مرثية في نحوي أحسن منها على طولها، ولي في شيخنا العلامة أثير الدين أبي حيان مرثية تقاربه هذه"<sup>(٤)</sup> "ومما جاء في مرثية الحصني قوله:<sup>(٥)</sup>

يا شتات الأسماء والأفعال	بَعْدَ مَوْتِ ابْنِ مَالِكِ الْمُفْضَالِ
وانحراف الحروف من بعد ضبط	مِنْهُ فِي الْإِنْفِصَالِ وَالْإِتِّصَالِ
مصدراً كان للعلوم بإذن الـ	لَهُ مِنْ غَيْرِ شَبِيهِةٍ وَمُحَالِ
عَدَمِ النَّعْتِ وَالتَّعْطُفِ وَالتَّو	كَيْدُ مُسْتَبَدِّلاً مِنَ الْإِبْدَالِ
أَلْمِ اعْتَرَاهُ أَسْكَنَ مِنْهُ	حَرَكَاتٍ كَانَتْ بِغَيْرِ اعْتِلَالِ
رفعوه في نعشه فانتصَبْنَا	نَصَبَ تَمْيِيزِ كَيْفِ سَيْرِ الْجِبَالِ

وكانت المصطلحات النحوية من أكثر المصطلحات شيوعاً في مرثي هذا العصر، فالشاعر صلاح الدين الصفدي استعمل حشداً منها في قصيدته التي رثى بها أثير الدين أبا حيان ومنها قوله:<sup>(٦)</sup>

(١) المصدر نفسه، ج ٨ م ٤/١٣١.

(٢) انظر د. عبده قليقة، النقد الأدبي، ص ٢٨٧، د. هنري الصايغ، اتجاهات الشعر العربي، ص ٤٢٦، رائد عبد الرحيم، صورة المغول، ص ١٨٣.

(٣) الصفدي، الوافي، ٣/٣٦٤، السيوطي، بغية الوعاة، ١/١٣٥.

(٤) الصفدي، الوافي، ٣/٣٦٣، السيوطي، بغية الوعاة، ١/١٣٤-١٣٥، الكشي، فوات الوفيات، ٣/٤٠٨-٤٠٩.

(٥) المصدر نفسه، ٣/٣٦٣، المصدر نفسه، ١/١٣٤-١٣٥، الكشي، فوات الوفيات، ٣/٤٠٨-٤٠٩.

(٦) الصفدي، الوافي، ٥/٢٨١-٢٨٢، أعيان العصر، ٥/٣٢٨-٣٢٩، السيوطي، حسن الخاضرة، ١/٤٣٨، بغية الوعاة، ١/٢٨٤، ابن عباس،

بدائع الزهور، ج ١ ق ١/٥٠١-٥٠٢.

أمسى "منادى" للبلى "مفرداً"  
يا أسفاً كان هدىً "ظاهراً"  
وكان "جمع" الفضل في غير عصره  
و"عرف" الفضل به بزهة  
وكان "ممنوعاً من التصرف" لا  
"قضمه" القبر على ما ترى  
فعاذ في تربته "مضمراً"  
"صح" فلما أن قضى كسراً  
والآن لما أن قضى "نكراً"  
يطرق من واقاه خطب عرا

وأكثر جمال الدين بن نباتة من استخدام مصطلحات النحو في مراثيه، ويتجلى ذلك في قوله: (١)

كُنْتَ غَوْتِ الْوَجُودِ حَقًّا وَلَكِنْ  
كُنْتَ دُونَ الْأَنْامِ عَوْنًا عَلَى خَفْ—  
ليس في النَّاسِ عَنْكَ مِنْ "إِدال"  
ضِ حَيَاةٍ لَنَا "بتمييز حال"

وقوله: (٢)

حَتَّى إِذْ لَاحَ "مرفوعاً" مَدَائِدُهُ  
مَا أَعْجَبَ الدَّهْرُ فِي حَالِي تَقْلَبُهُ  
وراح ذيل علاه وهو "مجرور"  
"وَصَلَّ" و"صَدُّ" و"تَعْرِيف" و"تَكْبِير"

واستخدم الشعراء مصطلحات أدبية ، فالشاعر سراج الدين الوراق يستخدم مصطلحات "النظم" ، و"القفية" ، و"النثر" ، في قوله: (٣)

رثياك بالدرّ النّظيم فهذه  
وتوخيا نثر العقيق مدامعاً  
للدالّ قافيةً وتلك الرأء  
إذ كُنْتَ لَمْ تُنصَفْ بنظم رثاء

واستخدموا مصطلحات عروضية، ويتجلى ذلك في قول شهاب الدين بن العطار: (٤)

بَدَتْ أَجْزَا ابْنِ عِرامِ خَلِيلِ  
وَأَبْدَتْ أَنْجُرَ الشَّعْرِ المِراثِي  
مَقْطَعَةٌ مِنَ الضَّرْبِ النَّقِيلِ  
مَحَرَّرَةٌ بِتَقْطِيعِ الخائِلِ

(١) ابن نباتة، الديوان، ص ٤٠٦.

(٢) المصدر نفسه، ٢٢١، الصفدي، الواقي، ١٣/٥-١٤، أعيان العصر، ٢٥٦/٥.

(٣) الصفدي، الواقي، ١٣/١٩، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٣٠٩/٧.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٥١/١١.

فهو يستخدم مصطلحات "مقطعة"، "والضرب الثقيل"، "وبحور الشعر".  
 وقال برهان الدين القيراطي مستخدماً عدداً من أسماء بحور الشعر: (١)  
 أفان أصم صدك عني إن لي  
 منك الصدى "المهموز" المقصور"  
 وقول أحد الشعراء: (٢)

وأرى "حقيقة" عشنا مجازها"  
 ما أشبه الإيجاد بالإعدام  
 وأكثر الشعراء من استخدام مصطلحات الحديث، وبرز ذلك بصورة جلية في  
 مرثي العلماء، ومن ذلك ما جاء في قول تقي الدين الدقوقي: (٣)

يشتاقه "الإرسال" في إسناده  
 والنسخ والمنسوخ ثم المحكم  
 وبكته عننة الحديث طرفه  
 وبيان ما يحوي عليه المعجم  
 وقول أبي الفضل يوسف بن محمد الكاتب: (٤)

من ذا يبين "مرسلاً" من "مُسند"  
 أو كان "مقطوعاً"، "ضعيفاً" مُعضلاً  
 أو من يبين "منكراً" في "متنه"  
 أو من يُعرف "علة الإنسان"

واستخدموا الكثير من المصطلحات الفقهية، فالشاعر محيي الدين بن عبد الظاهر  
 يستخدم مصطلحي "معجل"، و "مؤجل" في قوله: (٥)  
 قد جاءه الملك العقيم "مُعجلاً"  
 وليأتين إليه منه مؤجلاً

ويستخدم صفى الدين الحلبي مصطلحات "الجمع والقصر"، و "الحرام" في قوله: (٦)  
 فتى يكره التَّقْصِيرَ تَى تَنْنَةً  
 يكون "حراماً" عنده "الجمع والقصر"

واستخدم عدد من الشعراء مصطلحات صوفية مثل "التجريد"، و"التسليك"، و"المريد"،  
 ويتجلى ذلك في قول ابن نباتة: (٧)

(١) القيراطي، الديوان، ص ٢١، السيوطي، حسن المحاضرة، ٣٦٣/١.

(٢) ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٤٥.

(٣) الكرمي، الكواكب اللرية، ص ٢١٩.

(٤) ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٣٨.

(٥) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٦.

(٦) الحلبي، الديوان، ص ٣٢١.

(٧) ابن نباتة، الديوان، ص ٣٦٧.

إن يفقد المستفيد العلم من كلم

وقول أبي المعالي القاسم بن أبي الحديد: (١)

مُلْكًا فَقَدْ فَقَدَ الصَّوْفِيُّ تَسْلِيكًا

طُرُقَ الْفِقْهِ عَلَى سُلُوكِ الْمُرِيدِ

أَغْفَلَتْ بَعْدَهُ الْعُلُومُ وَضَاعَتْ

وأكثر الشعراء من استخدام المصطلحات الفلكية، وبرز ذلك بصورة جلية في مرثي ابن نباتة كما يبدو في قوله: (٢)

أَمْ قَسَمْتَ شَمْسَ النَّهَارِ دَرَارِي  
لَا كَوَكْبِي فِيهَا وَلَا أَسْحَارِي  
وَلَقَدْ تُصَابُ الشَّهْبُ بِالْأَقْدَارِ  
يَنْجُو وَلَا أَسْدُ الْبُرُوجِ الضَّارِي  
وَلَقَدْ تُصَابُ الْقَوْسُ بِالْأَوْتَارِ

خَلَعَ الصَّبَاحُ عَلَى الْمَجْرَةِ سَجَقَهُ  
أَمْ غَابَ مَعَ طِفْلِ أَخِيرِ دَجْنَتِي  
مَالِي وَعَتَبَ الشَّهْبُ فِي تَقْدِيرِهَا  
لَا عَقْرَبُ الْفَلَكِ اللَّسُوبِ (٣) مِنَ الرَّدَى  
يَرْمِي الْهَلَالَ بِقَوْسِهِ أُرُوحَنَا

واستخدم عدد من الشعراء ألفاظاً ومصطلحات من واقع الصراع في العقيدة مع

الصلبيين، وبرز ذلك بصورة جلية في مرثي أرباب الدول، ومنها ألفاظ "بيعة"، "كنيسة"، و"الناقوس"، ويتجلى ذلك في قول أبي الحسين الجزار في رثاء بيبرس: (٤)

وَكَمْ بَيْعَةٌ قَدْ جَاءَهَا وَكُنَيْسَةٌ  
فَغَادَرَهَا بِالْمَشْرِفَةِ مَسْجِدًا  
وَكَمْ خَلَفَ النَّاقُوسَ فِيهَا مُؤَدِّنٌ  
وَكَمْ كَرَّرَ التَّوْحِيدَ فِيهَا وَرَدَّدَا

ووردت ألفاظ "الإنجيل"، و"الصلبان"، و"الأسقف"، في قول شرف الدين بن سليمان الإربلي: (٥)

وَمُبَعَّدُ "الْإِنْجِيلِ" وَ"الصُّلْبَانِ"

وَمَقْرَبُ الْأَمَلِ الْبَعِيدِ بَفَتْحِهِ

وقول مجد الدين بن الظهير الإربلي: (٦)

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣١١.

(٢) ابن نباتة، اللديان، ص ٢١٩، وانظر ص ٣٤٨، ١٩١، الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ١٣٢، ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٩.

(٣) بمعنى لدغ انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة "لسب".

(٤) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٥٣.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٦١.

لولا له دام وتلك أشنعُ خطبةً أبدأ على الحكام حكم الأستف

ويستخدم ابن أبي حجلة التلمساني لفظة "التثليث" في قوله في رثاء الإسكندرية: (١)  
أقاموا على التثليث فيها ثلاثة كعبودهم في التهب والقتل والأسر

وتسربت إلى اللغة العربية في العصر المملوكي الأول ألفاظ غير عربية من لغات عديدة أمثال: التركية، والمغولية، والأرمنية، وقد وجدت بعض تلك الألفاظ طريقها إلى اللغة الشعرية، ومنها لغة شعر الرثاء. ومنها لفظ "البشاخين" (٢)، التي وردت في قول النويري مصوراً ما فعله الصليبيون في الإسكندرية: (٣)

والبشاخين والمساند أيضاً مع فرش وثيرة الأجرام

واستخدم برهان الدين القيراطي لفظة "يزك"، وهي تركية بمعنى طلائع الجيش (٤)، فقال (٥):

وكم أدارَ على حصن الهدى "يزكاً" وقامَ في مرقبِ التنزيه كالرَّصَدِ  
ونجد لفظة "رنك"، وهي لفظة تركية، وتعني الشعار الذي يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير السلطان له كما في قول كمال الدين بن العطار في رثاء بيبيرس: (٦)  
أرخت ذوابلُهُ ذوابها أسيّ "ولرنكه" وجّة عليه أصقرّ

واستخدم شمس الدين بن دانيال لفظة "قربوس"، وهي لفظة تركية بمعنى حنوّ الفرس، (٧)، كما يبدو في قوله: (٨)

قالت النَّاسُ قَبْلَها ما بلغنا أن بَحْراً يحوزه "قربوس"

وفي القصيدة ذاتها استعمل ابن دانيال حشداً من الألفاظ التركية فقال: (٩)

أَسْمُرُ لِرِكَزِكَ بَيْنَ الْأَكْوَاشِي بسعي وهو كَرٌّ لِكُلِّ خَشْنِي يَمُوسِ  
ليس تُصمِّي كَشَّ الْمَزْيِيلةِ إِلَّا مِنْ مَها الرِّصْفِ أَوْ فِتْيِ سَالِـمُوسِ

(١) النويري، الإمام، ٢٥٦/٢، ابن حبيب، درة الأسلاك، ٤٥/٣، تذكرة النبي، ٢٩١/٣.

(٢) ومفردها بشخانة، وهي بالفارسية بُشَه خانة، وتعني "كله"، "ناموسية"، وزخارف السرير أو العرفة لصيانة الحشايا والمخدات. دوزي، تكملة المعاجم العربية، مادة "بشخانة"، ٣٤٨/١.

(٣) النويري، الإمام، ٢١٢/٢.

(٤) انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ٦١٠، ٣٩٩٣/٢٣، ٨/٧، ١٠، ١٢/١٠٣، ٢١٢/١٠٣، ٤٥٧.

(٥) القيراطي، الديوان، ص ٣٢.

(٦) الصفدي، الرواق، ١٧٢/٨.

(٧) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ١١٧، حاشية ٢٤٥.

(٨) المصدر نفسه، ص ١١٧.

(٩) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ١١٤، الكني، عيون التواريخ، ٣٨٢/٢٠.

واستخدم الشاعر علاء الدين الأوتاري مجموعة من الألفاظ المغولية في قصيدته التي نظمها في رثاء دمشق سنة ٦٩٩هـ، فقال: (١)

كاتر أفجا كبر خوار أنت يا غية      لمحمود غازان قا آن البلاد (٢)  
ووردت لفظة "تكفور" وهي بالأرمنية تاكفور، ومعناه الملك (٣) في قول الصفدي  
وكم قدساس في سيس أمورا      رأى "تكفورها" فيها الخبالا (٤)

## الاتباعية

أشار النقاد العرب القدامى وهم يتحدثون عن الزاد الثقافي الذي ينبغي على الشاعر أن يتزود به إلى ضرورة الاهتمام بأشعار السابقين، والتعمق في دراستها، والإكثار من حفظها وتأمل الأساليب المتنوعة للشعراء الفحول الذين سبقوه، وترسم تقاليدهم الفنية الموروثة "حتى تنشأ عنده ملكة الشعر، وتقوى باحتذائه النماذج الجيدة، والنسخ في منوالها" (٥).

وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني بينهم، فليس على أحد فيه عيب إلا إذا أخذه بلفظه كله أو أخذه فأفسده، وقصر فيه عن تقدمه (٦)، يقول أبو هلال العسكري: "ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم، والصب على قوالب من سبقهم، ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظا من عندهم، ويبرزوها في معارض من تأليفهم، ويوردوها في غير حليتها الأولى، ويزيدوها في حسن تأليفها، وجوده تركيبها، وكمال حيلتها ومعرضها" (٧).

(١) البويري، نهاية الأرب، ٢٢٨/٥.

(٢) يقول محققو كتاب "نهاية الأرب": عرضنا هذا البيت على العالم الجليل موسى أندي جار الله نزيل القاهرة... فشرحه بما يأتي:

كاتر: هات، آقا: النقود، كبر خوار: كافر حقير غير كتابي، ياغية: العدو الباغي، قا آن: كبير الملوك. ومعنى البيت: هات أيها الكافر الخراج أنت لقآن "خاقان البلاد محمود غازان"، انظر نهاية الأرب، ٢٢٨/٥ حاشية (٣).

(٣) المصدر نفسه، ٢٢٨/٥.

(٤) المصدر نفسه، ٢٢٨/٥.

(٥) د. عبد الفتاح عثمان، نظرية الشعر، ص ٧٩، وانظر د. بدوي طبانة، السرقات الأدبية، ص ٥١.

(٦) انظر العسكري، الصناعتين، ص ٢١٨، ابن وكيع، المنصف، ١٠٢/١ وما بعدها، ابن حجة، خزنة الأدب، ٢/٢٦٠، د. بدوي طبانة،

السرقات الأدبية، ص ١٨٧.

(٧) العسكري، الصناعتين، ص ٢١٨، وانظر د. بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية، ص ١٧٢.

وقد شاعت ظاهرة الاحتذاء والتقليد عند شعراء العصر المملوكي الأول، ومن يطالع كتب الأدب والنقد في ذلك العصر يدرك تلك الحقيقة، ويتبين له أن بعضهم رمى بالسرقة لشهرته في ذلك، ومن هؤلاء صلاح الدين الصفدي. يذكر ابن حجة أن الشاعر جمال الدين بن نباتة كان "يخترع المعنى الذي لم يسبق إليه، ويسكنه بيتاً من أبياته العامرة بالمحاسن فيأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدي بلفظه، لم يغير فيه غير البحر"<sup>(١)</sup>، الأمر الذي جعل ابن نباتة يضح من ذلك، ويؤلف كتابه المعنون بـ "خبز الشعير" ويعني أنه مأكول مذموم، وبينه "على قوله قلت أنا، فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال ..."<sup>(٢)</sup>.

وممن هاجم الصفدي ورماه بالسرقة الشاعر ابن أبي حجلة التلمساني، قال: <sup>(٣)</sup>

إِنَّ ابْنَ أَبِيكَ لَمْ تَزَلْ سَرِقَاتُهُ تَأْتِي بِكُلِّ قَبِيحَةٍ وَقَبِيحِ  
نَسَبِ الْمَعَانِي فِي النَّسِيمِ لِنَفْسِهِ جَهلاً فَرَّاحَ كَلَامُهُ فِي الرِّيْحِ

ورمي جمال الدين بن نباتة بالسرقة، فقد تتبع ابن حجة الحموي سرقاته، وقال فيه: "ومع علو قدر الشيخ جمال الدين بن نباتة، وهو الذي مشت ملوك الأدب قاطبة بعد الفاضل تحت أعلامه تطفل على موائد الوداعي"<sup>(٤)</sup> ومعانيه، وعلى الأنواع الغريبة من تواريه <sup>(٥)</sup> ".

إن الأمثلة السابقة <sup>(٦)</sup> تدل على شيوع ظاهرة الاحتذاء في ذلك العصر، وتبين أن الشعراء لم يكتفوا بتقليد سابقهم، وإنما كانوا يأخذون المعاني من بعضهم، وينسبونها لأنفسهم.

ويؤكد شيوع تلك الظاهرة ما نجده في شعر الرثاء، إذ يتضح أن ناظميه كانوا مطلعين اطلاعاً واسعاً على التراث الشعري، فحذوا حذو سابقهم من فحول الشعراء العرب عبر عصور الأدب العربي المختلفة، وتأثروا بهم، وقلدوهم، واتخذ هذا التقليد سبلاً شتى: ومنها أن كثيراً منهم نقلوا عبارات سابقهم من الشعراء بلفظها ومعناها، وربما

<sup>(١)</sup> ابن حجة، خزنة الأدب، ١٢١/٢.

<sup>(٢)</sup> المصدر نفسه، ١٢١/٢، كشف اللثام، ص ٦٩.

<sup>(٣)</sup> ابن حجة، خزنة الأدب، ٦٥/٢.

<sup>(٤)</sup> يقصد الشاعر علاء الدين الوداعي الكندي.

<sup>(٥)</sup> انظر ابن حجة، خزنة الأدب، ١٠٨/٢، كشف اللثام، ص ٥٦ وما بعدها.

<sup>(٦)</sup> لمزيد من الأمثلة انظر ابن حجة، خزنة الأدب، ٢١٠، ٣١٤/٢، كشف اللثام، ص ١٥٠.

أجروا عليها تعديلاً بسيطاً، كأن يقدموا ويؤخروا فيها، أو يباعدوا بين ألفاظها، ومن ذلك ما جاء في قول برهان الدين القيراطي: (١)

وأقلامه قيد الأوابد لم يزل  
يقيدُ منها كل صَعْبِ التناول

فهو يأخذ عبارة "قيد الأوابد" من قول امرئ القيس: (٢)

وقد اغتدي والطيرُ في وُكُنَاتِهَا  
بمنجردِ قيد الأوابد هيكل

ويأخذ الشاعر شهاب الدين بن فضل الله العمري عبارة "فتيت المسك" في قوله: (٣)

وسرى عليك من القبول مُعَطَّرٌ  
يلقي فتيتَ المِسْكِ من أنياله

من قول امرئ القيس: (٤)

وتضحى فتيتُ المسكِ فوق فراشها  
نورمُ الضحى لم تتنطقَ عن تفضل

ويبدو الشاعر صلاح الدين الصفدي في قوله: (٥)

جَرى الأسي عَبرَاتِي كالعقيقِ وقد  
أصمَّ سَمْعِي وَأصمَى القَلْبَ نَاعِيهِ

وقوله: (١)

أصمَّ نَعْيِكَ سَمْعِي عن تَحَقُّقِهِ  
وهانَ ما للليالي من مَلَمَاتِ

متأثراً بقول أبي تمام: (٦)

أصمَّ بك النَّاعِي وإنْ كانَ أَسْمَعَا  
وأصْبَحَ مَغْنَى الجودِ بَعْدَكَ بَلْقَعَا

وقال شرف الدين حسين: (٨)

سَتَذْكُرُ عندَ المَعْضَلاتِ لِكَشْفِهَا  
كمثلِ افْتِقَادِ البَنَرِ في الظُّلْمِ الحُكِّ

فهو يقدم ويؤخر في قول أبي فراس الحمداني: (١)

سيذكرني قومي إذا جدَّ جدُّهمُ  
وفي الليلةِ الظلماءِ يُفْتَقَدُ البَنَرُ

ويأخذ شمس الدين الكوفي الواعظ عبارة "الذكر الجميل" في قوله: (٢)

(١) القيراطي، الديوان، ص ٢٠.

(٢) امرؤ القيس، الديوان، ص ٥١.

(٣) ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٢/٢٣٤.

(٤) امرؤ القيس، الديوان، ص ٤٥، الزوزن، شرح الملقات السبع، ص ٣١.

(٥) الصفدي، الواقي، ١/٣٠.

(٦) الصفدي، الواقي، ١٢/٢٦٢.

(٧) التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، ٤/٩٩.

(٨) السبكي، طبقات الشافعية، ٥/٤٠٧.

(٩) أبو فراس، الديوان، ٢/١١٠.



هو الحاكمُ العَدْلُ الذي شاعَ فَضْلُهُ

فانجَدَ بالذَكرُ الجميلُ واثمَما

من قول المتنبى: (٣)

لحبُّ ابن عبد الله أَوْلَى فإنَّه

به يبدأ الذَكرُ الجميلُ ويُختمُ

وحذا الشعراء حذو سابقهم في المعاني والصور، فأخذوا منها ما يتلاءم مع الموضوعات التي عبروا عنها، وصوروها، وبرز ذلك بصورة جلية في مرثيهم. فقد نهجوا نهج سابقهم في المعاني والصور التي قدموها للموت، وذلك حين تحدثوا عن حتميته وعدله، وصوروه كأساً يدور على الخلق كلهم قويهم وضعيفهم، مليكهم وعامتهم وضربوا الأمثال على ذلك بالأمر البائدة والملوك السابقين أمثال عاد وتبع وإرم، وكسرى، وقيصر، والهرمزان، والزباء.

وحذوا حذو سابقهم في نظرتهم للدهر، إذ عبروا عنه بصروف الليالي، وتصاريف الزمان، وصوروه عدواً لبني البشر، وجعلوا له أيدٍ تختطفهم واحداً تلو الآخر. وبرزت الاتباعية حين تحدثوا عن الدنيا، فبينوا أنها دار فناء لا أمان لها، ووسموا بالغدور والخيانة.

وجاروا القدماء في رسم صورة مثالية للمرثي، فقد أضفوا عليه كل الصفات الحميدة التي يعتر بها العربي والمسلم منذ القديم مثل: الجود، والشجاعة، والحلم، والعفة، والزهد، والتقوى، وغيرها مما مر في ثنايا هذه الرسالة.

وأخذوا معاني سابقهم وهم يصفون حزنهم ودموعهم الممتزجة بالدماء، وحين صوروا أرقهم وتعاستهم، وأكبادهم الممزقة، وقلوبهم المشتعلة بنيران الحزن والأسى. والأمثلة على هذا الضرب من التأثر كثيرة في مرثي هذا العصر، يتبين منها أن عدداً من الشعراء كانوا يقصدون احتذاء نماذج شعرية معينة، محاولين تقليدها، والاستفادة مما جاء فيها من معاني وصور. ومن ذلك ما جاء في القصيدة التي نظمها شمس الدين الهواري في رثاء شهاب الدين أبي جعفر الأندلسي، فقد عبر الشاعر عن علاقته المتينة بمرثيه، وشبهها بتلك العلاقة التي ربطت جذيمة الأبرش بندمانه، وتحدث عن سرعة الموت وزوال الدنيا وانقضائها، فقال: (١)

(٣) البونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٦/٣

(٣) البرقوقي، شرح ديوان المتنبى، ٩٦/٤.

(١) ابن العمري، كوز الذهب، ٤٧٢/١، الطباخ، أعلام النبلاء، ٧٧/٥-٧٨.

وَكُنَّا كَنَدْمَانِي جُذَيْمَةَ لَمْ يَكُنْ      يَعْضُ عَلَيْنَا لِلتَّفَرُّقِ نَابُ  
 فَلَمْ نَذِرْ إِلَّا وَالتَّفَرُّقِ وَقَعَّ      وَقَدْ سُدَّ مِنْ دُونَ التَّوَاصِلِ بَابُ  
 كَانَ لَمْ يَكُنْ مِنَّا اجْتِمَاعٌ وَلَمْ نَبِتْ      وَمِنْ بَيْنِنَا لِلكَّشْفِ مِنْهُ كِتَابُ

يتأثر الشاعر بالمعاني والصور التي قدمها مُتَمِّمُ بن نويرة في رثاء أخيه مالك: (٢)

وَكُنَّا كَنَدْمَانِي جُذَيْمَةَ حَقْبَةً      مِنْ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ نَتَّصِدَعَا  
 وَعِشْنَا بِخَيْرٍ فِي الحَيَاةِ وَقَبْلَنَا      أَصَابَ المَنَايَا رَهْطُ كَسْرِي وَتَبَعَا  
 فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا      لَطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا

ويتأثر شهاب الدين العزازي بأبيات مُتَمِّمِ السابقة، فيحاول توظيف معانيها

وصورها، في بيت واحد فيقول في رثاء الملك المنصور الثاني صاحب حماة: (٣)

نَشَا وَالنَّدَى تَرْبِيَّ هَوَى وَمَوَدَّةً      فَلَمَّا قَضَى نَحْبًا قَضَى وَالنَّدَى مَعَا

وصور الشعراء المنية ذات أظفار ، وتجلى ذلك في قول شهاب الدين العزازي: (٤)

فَقَدْ جَلَّ حَظْبٌ تَخَطَّ إِلَيْهِ      بِسَوْءٍ وَأَتَشَبَّ نَابًا وَظَفْرًا

وقول صفي الدين الحلبي: (٥)

وَلِلْمَنِيَّةِ أَظْفَارٌ إِذَا ظَفَرْتُ      رَأَيْتُ كُلَّ عَمِيدٍ وَهُوَ مَعْمُودٌ

وقول ابن نباتة: (١)

بَيْنَا الْفَتَى رَاتِعٌ بِالْأَمْنِ إِذْ بَرَزَتْ      أَهْلَةٌ بِالمَنَايَا ذَاتُ أَظْفَارِ

فهؤلاء الشعراء يتأثرون بالصورة التي رسمها أبو ذؤيب للموت، إذ قال في رثاء أبنائه: (٢)

(٢) المبرد، العزازي والمرثي، ص ١٦، القرشي، جبهة أشعار العرب، ٢/٣٣٠.

(٣) العزازي، الديوان، ص ٢٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٩١.

(٥) الحلبي، الديوان، ص ٣٠٣.

(١) ابن نباتة، الديوان، ص ٢٢٣.

(٢) القرشي، جبهة أشعار العرب، ٢/٣٣٠.

وقول ابن نباتة: (١)

بيننا الفتى راتع بالأمن إذ برزت  
أهله بالمنايا ذات أظفار

فهؤلاء الشعراء يتأثرون بالصورة التي رسمها أبو ذؤيب للموت، إذ قال في رثاء أبنائه: (٢)  
وإذا المنية أنشبت أظفارها  
ألفت كل تميمة لا تنفع

ويبدو الشاعر زين الدين بن الوردى، في قوله مصوراً شخصية كمال الدين بن العجمي: (٣)

تتصرم الدنيا وتأتي بعده  
أمم وأنت بمثله لا تسمنع

متأثراً بقول أبي تمام في رثاء محمد بن حميد: (٤)

هيئات لا يأتي الزمان بمثاه  
إن الزمان يمثله لبخيل

وبقول المتنبي في مدح سيف الدولة: (٥)

مصنت الدهور وما أتيت بمثله  
ولقد أتى قعيزن عن نظرائه

وقال الحلبي رابطاً مصير الأمة بموت الملك ناصر الدين الأرتقي: (٦)

لم يعلم العالمون ما فقدوا  
منه ولا الأقربون ما عدموا

ما فقد فرد في الأنام كمن  
إن مات مائت لفقده أمم

فهو يتأثر بالمعاني التي جاءت في قول أحد الشعراء: (٧)

لعمرك ما الرزية فقد مال  
ولا شاة تموت ولا بعير

ولكن الرزية فقد قرم  
يموت لموته خلق كثير

إن الأمثلة السابقة تؤكد أن احتذاء الشعراء كان واعياً مقصوداً، ويتبين منها أنهم

أخفقوا في التفوق على سابقهم، فظلت أشعارهم أقل جمالاً وفنية.

وتأثر الشعراء بمعاني سابقهم حين نظموا المنثور من كلامهم، ويتجلى ذلك في

قول صلاح الدين الصفدي، في رثاء أخيه: (٨)

(١) ابن نباتة، الديوان، ص ٢٢٣.

(٢) القرشي، جمهرة أشعار العرب، ٢/٣٣٠.

(٣) ابن الوردى، الديوان، ص ٤٢٩.

(٤) التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، ٤/١٠٢.

(٥) البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ١/١٢٧.

(٦) الحلبي، الديوان، ص ٤٦.

(٧) ابن رشيق، قراضة الذهب، ٣٨-٣٩.

(٨) الصفدي، الوافي، ٥/٣٣٧.

بأي خديك تبدى البلى

وأي عيتيك رعى الدود

فهو يأخذ شطره الأول من قول عمر بن عبد العزيز يعظ أصحابه، ويحذرهم من الموت وما بعده: "يا مُعْضِضَ الوالد والولد، وغاسله، يا مكفن الميت، ويا مُدْخِله في القبر، وراجعاً عنه، لَيْتَ شعري بأيّ خديك بدأ البلى".<sup>(١)</sup> وقال ابن نباتة في رثاء تاج الدين بن الزيات: (٢)

وَقَدْ وَعَظْتَنَا الحَال منه كَأَنَّهُ      خَاطِبٌ رَقِي من صَهْوَةِ النَّعْشِ منبراً  
مَوَاعِظُ من حيث السكوت وإنّها      لأَبْلَغُ من نُطْقِ الفصيح إذا انبرى

فهو يأخذ معانيه من قول "خطيب من الخطباء حين قام على سرير الإسكندر وهو ميت، الإسكندر كان أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس"<sup>(٣)</sup>.

وينظم الشاعر ذاته عبارة عبد المطلب حين قدم أبرها لهدم الكعبة وهي: "إن للبيت رباً يحميه" في قوله: (٤)

لا تخش بيتك أن يلوي الزمان به      فإن للبيت رباً سوف يحميه

ومن مظاهر الاتباعية المعارضة، وقد شاعت هذه الظاهرة شيوعاً كبيراً في مرثي هذا العصر، فقد أعجب الشعراء بقصائد نظمها فحول الشعراء السابقين في العصر الجاهلي والإسلامي والعباسي، فعارضوها محاولين إظهار براعتهم الشعرية وقدرتهم على الإبداع والتفوق، والتزموا فيها البحر والقافية، وحرف الروي، وتأثروا بمعانيها وألفاظها وصورها، وضمنوا بعض أبياتها، الأمر الذي يدل على أن معارضتهم واعية مقصودة.

ولم تكن معارضتهم لقصائد الرثاء فحسب، ولكنهم عارضوا قصائد نظمت في موضوعات أخرى، مثل الغزل والمديح والهجاء.

وكان أبو تمام والمنتبّي أكثر شاعرين عارضهما الشعراء، وذلك لشهرتهما الفنية، وجودة مرثيتهما، فهذا ابن رشيق يصف مرثي أبي تمام فيقول: "أبو تمام من المعدودين في إجادة الرثاء".<sup>(٥)</sup>

ومن الجدير ذكره أن معارضة المنتبّي وأبي تمام وتقليدهما لم يقتصر على شعراء المرثي، بل كان ظاهرة عامة في العصور المتأخرة<sup>(٦)</sup>، وبلغ الأمر بشعراء العصر

(١) ابن الجوزي، مناقب عمر بن عبد العزيز، ص ٢٥٧.

(٢) ابن نباتة، الديوان، ص ٢٢٤.

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، ٨١/١.

(٤) ابن نباتة، الديوان، ص ٥٧٣.

(٥) ابن رشيق، العمدة، ١٤٩/٢.

(٦) انظر د. عبد الجليل عبد الهدي، بيت المقدس، ص ٢٨٥، د. هنريت الصايغ، اتجاهات الشعر، ص ٤٠٣.

المملوكي الأول أنهم انقسموا فريقين: فريق يقدم أبا تمام ويدافع عنه، وآخر يقدم المتنبّي ويدافع عنه أيضاً، ويؤكد ذلك ما ذكره ابن حجة الحموي، من أن الشاعرين صلاح الدين الصفدي وابن نباتة كانا يقدّمان المتنبّي، وأن أثير الدين أبا حيان كان يقدم أبا تمام قلاماه على ذلك، فقال: أنا لا أقبل لوماً في حبيب<sup>(١)</sup>. ومن الأمثلة على المعارضات قصيدة برهان الدين القيراطي في رثاء تاج الدين السبكي، ومطلعها: <sup>(٢)</sup>

فيا بني الدهر لا حيّ على الأبد

سَهْمُ المنية لا يبقى على أحدٍ

فهو يعارض قصيدة النابغة في مدح النعمان بن المنذر، ومطلعها: <sup>(٣)</sup>

أفوت وطال عليها سالف الأبد

يا دار مية بالعلياء فالسند

ويبدو الشاعر متأثراً بالألفاظ والمعاني والصور التي قدمها الذبياني، ففي قوله: <sup>(٤)</sup>

أخنى عليك الذي أخنى على لبدٍ

كأنني بك يا نسرَ الزمانِ وقَد

متنّ قالت العلياء واسندي

وهي به من جناب العلم حين نأى

فاصبر تمرُّ وما بالربع من أحدٍ

غربانُ بين الردى في ربّهم نعبتُ

فهو يأخذ من قول النابغة: <sup>(٥)</sup>

عيّت جواباً وما بالربع من أحدٍ

وقفتُ فيها أصيلاً أسألتها

أخنى عليها الذي أخنى على لبدٍ

أضحّت خلاء وأضحى أهلها احتملوا

وعارض الشاعر شرف الدين حسين في قصيدة رثى بها والدة القاضي جمال الدين

بن ريان الطائي، ومطلعها: <sup>(٦)</sup>

أسألتِ الدمعَ من جفني طوفانا

جددتَ في القلبِ آلاماً وأحزاناً

قصيدة قريظ بن أنيف، وهو أحد شعراء الحماسة، ومطلعها: <sup>(٧)</sup>

بنو اللقيطة من دهل ابن شيبانا

لو كنتُ من مازنٍ لم تستبجِ إبلي

ويؤكد هذه المعارضة أن الشاعر ضمن قصيدته أجزاء من قصيدة قريظ تتلام

والمعاني التي عبر عنها. <sup>(٨)</sup>

<sup>(١)</sup> ابن حجة، خزنة الأدب، ٢٠٧/١-٢٠٨.

<sup>(٢)</sup> القيراطي، الديوان، ص ٣١.

<sup>(٣)</sup> الذبياني، الديوان، ص ٧٦.

<sup>(٤)</sup> القيراطي، الديوان، ص ٣٢، ٣٣.

<sup>(٥)</sup> الذبياني، الديوان، ص ٧٨.

<sup>(٦)</sup> الصفدي، أعيان العصر، ٢/٢٣١.

<sup>(٧)</sup> المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ١/٢٣.

<sup>(٨)</sup> انظر الصفدي، أعيان العصر، ٢/٤٣١-٤٣٢.

والشاعر شهاب الدين العزازي في قصيدته التي رثى بها الملك المنصور الثاني صاحب حماة، ومطلعها (١)

ترى علمَ النَّاعِي جَلَالَةً مَنْ نَعَى  
وهل عَرَفَ الذَّاعِي إلى الموتِ مَنْ دَعَا

يعارض قصيدة متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك ، ومطلعها: (٢)

لعمرى وما دَهْرِي بتأبين مالك  
ولا جَزَعًا ممَّا أصَابَ فأوجعًا  
ويشير ابن أبي حجلة التلمساني إلى أن ابن نباتة في قصيدته التي رثى بها ابنه عبد الرحيم، ومطلعها: (٣)

الله جارك إن دمعى جاري  
يا موحش الأوطان والأوطار

يعارض قصيدة أبي الحسن بن علي التهامي في رثاء ابنه ومطلعها: (٤)

حكْمُ المنيّةِ في البريّةِ جاري  
ما هذه الدنيا بدار قرار

والشاعر علاء الدين بن علي المعروف بابن قاضي اللاذقية في قصيدة رثى بها الظاهر بيبرس، ومطلعها: (٥)

دَهْرٌ خُوونٌ ووقْتٌ جائرٌ فينا  
ولا نرى فيه أياماً تصافينا

يعارض نونينه ابن زيدون "أضحى التثنائي بديلاً من تدانينا ....."، ويتأثر بألفاظها، وصورها، ومعانيها، وينقلها من الحزن على فراق الحبيبة إلى الحزن على المرثي. ففي قوله مخاطباً عيونه: (٦)

ولتنتري الدرّ من دمعى المصون جوئ  
مُجَزَعًا بجُمان من مآقينا  
وقوله: (٧)

أو كُنْتَ تَنْظُرُ في الدّيجورِ حَالَتَنَا  
فهو يستمد معانيه وألفاظه من قول ابن زيدون: (٨)

بنتم وبنّا فما ابتلت جوانحنا  
شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا

(١) العزازي، الديوان، ص ٢٣٠.

(٢) القرشي، جهرة أشعار العرب، ٢٣٠/٢.

(٣) ابن نباتة، الديوان، ص ٢١٧، ابن أبي حجلة، سلوة الحزين، ص ١٣٨.

(٤) ابن أبي حجلة، سلوة الحزين، ص ١٣٤.

(٥) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٤.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٥٤.

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٥٤.

(٨) ابن زيدون، الديوان، ص ١٤٢-١٤٣، المقرئ، نفع الطيب، ٣/٢٧٦.

تَكَادُ حِينَ تَتَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا يَقْضِي عَلَيْنَا الْأَسَى لَوْلَا تَأْسِينَا

وعارض عدد من الشعراء أبا العلاء المعري في غير قصيدة من قصائده، ففي القصيدة التي نظمها شهاب الدين بن فضل الله العمري في رثاء والدته الإمام تقي الدين السبكي، ومطلعها: (١)

مُصِيبَةُ الْفَاقِدِ فِي فَقْدِهِ تَظْهَرُ لِلوَاحِدِ فِي وَحْدِهِ

يعارض قصيدة أبي العلاء في رثاء ابن عمه جعفر بن علي بن المهذب، ومطلعها: (٢)

أَحْسَنُ بِالوَاحِدِ مِنْ وَجْدِهِ صَبْرٌ يَعِيدُ النَّارَ فِي زَنْدِهِ

وعارض صفي الدين الحلبي في قصيدة نظمها في رثاء أخيه، ومطلعها: (٣)

بَكَيْتُ دَمًا لَوْ كَانَ سَكَبُ الدَّمَا يُغْنِي وَضَاعَتْ حُرَّتِي لَوْ شَقَى كَمَا حَزَنِي

قصيدة أبي العلاء في رثاء أبيه، ومطلعها: (٤)

نَقَمْتُ الرِّضَا حَتَّى عَلَى ضَاكِكِ الْمُرْنِ فَلَا جَادَنِي إِلَّا عِبُوسٌ مِنَ الدَّجْنِ

وعارض الشعراء أبا تمام في غير قصيدة من قصائده، ومنها أبياته المشهورة "السيف أصدق أنباء من الكتب .."، وعلى الرغم من أن هذه القصيدة قيلت في مدح المستعصم، ووصف شجاعته، وفتحه عمورية، وما جرى فيها من قتال، إلا أن بعض الشعراء استطاع أن يستفيد من معانيها وصورها وتراكيبها وألفاظها، ويوظفها في شعر الرثاء، إلا أنه قصر في الوصول إلى المستوى الفني الذي وصلت إليه قصيدة أبي تمام.

ومن هؤلاء ابن نباتة، فقد عارضها في قصيدة رثى بها تقي الدين السبكي، ومطلعها: (٥)

نِعَاةٌ لِلْفَضْلِ وَالْعِلْيَاءِ وَالنَّسَبِ نَاعِيَةٌ لِلْأَرْضِ وَالْأَفْلَاقِ وَالشُّهُبِ

وممن عارضوها تاج الدين السبكي في قصيدته التي رثى بها شمس الدين الذهبي، ومطلعها: (٦)

(١) السبكي، طبقات الشافعية، ٩٨/٥.

(٢) المعري، ديوان سقط الزند، ص ٧١.

(٣) الحلبي، الديوان، ص ٣٠٩.

(٤) المعري، ديوان سقط الزند، ص ٥٨.

(٥) ابن نباتة، الديوان، ص ٤١، السبكي، طبقات الشافعية، ٣٩٧/٥، السيوطي، حسن المحاضرة، ٢٧٩/١، ابن إياس، بلاتع الزهور، ج ١

ق ٥٥٦/١.

(٦) السبكي، طبقات الشافعية، ١٠٩/٩، السيوطي، ذيل طبقات الحفاظ، ص ٢٣١.

من للحديث وللسارين في الطلب

من بعد موت الإمام الحافظ الذهبي

وعارضها أحد الشعراء في قصيدة رثى بها أبا الفرج الموفق يعقوب بن القف

النصراني الطيب، ومطلعها: (١)

رَمَيْتَ رُكْنَ الْحِجَا وَالْعِلْمَ بِالْعَطْبِ

يَا مَاتِمًا قَدْ أَتَى بِالْوَيْلِ وَالْحَرْبِ

وعارض الحلبي في قصيدة رثى بها الملك الناصر محمد بن قلاوون، ومطلعها: (٢)

وَأَجَدَّ فِيكَ التَّنْظِمَ إِذْ خَذِلَ الصَّبْرُ

وَفِي لِيَ الدَّمْعِ إِذْ خَانَنِي الصَّبْرُ

قصيدة أبي تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي، ومطلعها: (٣)

فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عَدْرُ

كَذَا فَلِيَجَلَّ الْخَطْبُ وَلِيَفْدَحَ الْأَمْرُ

ويتأثر الشاعر بكثير من المعاني التي جاء بها أبو تمام، وضمن بعض ألفاظها

وأجزاء من أبياتها كما يتجلى في قوله: (٤)

وَأَصْبَحَ فِي شُعْلٍ عَنِ السَّقَرِ السَّقَرُ

تَوَفَيْتَ الْأَمَالَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ

وَذَلِكَ بَيْنَ النَّاسِ آخِرَةُ الْحَشْرِ

عَلَيْكَ سَلَامٌ اللَّهُ مَا ذَكَرَ اسْمُكُمْ

واهتم الشعراء بأشعار المتنبّي، فعارضوا غير قصيدة منها، واتبعوه في أوزانها،

وقوافيها، وحروف رويها، وضمنوا بعض أجزائها، وأبياتها، ونالت قصيدته "وا حر قلباه

ممن قلبه شيب ....."، عناية الشعراء، فعارضها غير شاعر منهم. ويتجلى ذلك في

قصيدة ابن نباتة، التي نظمها في رثاء بدر الدين بن فضل الله العمري، ومطلعها: (٥)

وَالْمَاضِيَانِ سَنَانُ الرَّأْيِ وَالْقَلَمُ

بَكَى لَكَ الْعَالِيَانِ الْقَدْرُ وَالْهَمَمُ

ويبدو تأثر ابن نباتة جلياً في قوله: (٦)

وَالضَّرْبُ وَالطَّغْنُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ

وَالخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبِيدَاءُ شَاهِدَةٌ

فَأَسْمَعَ النَّوْحَ شَجْوًا مِنْ بِهِ صَمَمُ

عَمْرِي لَقَدْ صَرَخَ النَّاعُونَ فِي رَجَبِ

وعارضها الصفدي في قصيدة رثى بها تقي الدين السبكي، ومطلعها: (٧)

(١) الصقاعي، تالي وفيات الأعيان، ص ٤٤.

(٢) الحلبي، الديوان، ص ٣١٩.

(٣) التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، ٧٩/٤.

(٤) الحلبي، الديوان، ص ٣١٩، ٣٢٢.

(٥) ابن نباتة، الديوان، ص ٤٦٠.

(٦) ابن نباتة، الديوان، ص ٤٦٠، وانظر البرقوق، شرح ديوان المتنبّي، ٨٣، ٨٥، ٨٧/٤.

(٧) الصفدي، أعيان العصر، ٤٥٠/٣، السبكي، طبقات الشافعية، ٤٠١/٥.



أ هكذا جَبَلُ الإسلامِ يَنْهَدُمُ

وهكذا سَيْفُهُ المسلولُ يَنْتَلِمُ

ويضمن الصفدي أبياتاً وأجزاء من قصيدة المتنبّي، ويأخذ بعض ألفاظها، ويحاول تقليد معانيها، وإبرازها في حلية جديدة، كما يبدو في قوله: (١)

واللَّيْلُ وَالذِّكْرُ وَالْمِحْرَابُ شَاهِدَةٌ  
وَالشَّرْعُ وَالْحُكْمُ وَالنَّصِيفُ وَالْقَلَمُ

ويظهر من البحث في مرثي هذا العصر أن صلاح الدين الصفدي كان أكثر شاعرٍ إعجاباً بالمتنبّي، إذ عارضه في غير قصيدة، واستفاد من معانيه وصوره، ونقل الكثير من ألفاظه، وأجزاء قصائده، ففي القصيدة التي نظمها في رثاء موسى بن يحيى بن فضل الله العمري، ومطلعها: (٢)

قَدْ شَبَّ جَمْرُ الأَسَى فِي القَلْبِ وَاشْتَعَلَ  
مُدَّ قَيْلٍ لِي إِنْ موسى قَدْ قَضَى الأَجَلَ  
يعارض قصيدة المتنبّي في مدح سعيد بن عبد الله بن الحسن الكلابي المنبجي، ومطلعها: (٣)

حَيًّا وَأَيْسَرُ مَا قَاسَيْتُ مَا قَتَلَا  
والبينُ جَارَ عَلَي ضِعْفِي وَمَا عَدَلَا  
وعارض الصفدي في قصيدة رثى بها الأمير ناصر الدين محمد بن جنكلي بن البابا، ومطلعها: (٤)

هي الأَيَّامُ لَيْسَ لَهَا ذِمَامُ  
وَلَيْسَ لَهَا عَلَي عَهْدِ دَوَامُ  
قصيدة المتنبّي في مدح المغيـث بن العجلي: ومطلعها: (٥)  
فَوَإِذَا مَا تَسَلَّىهِ المَدَامُ  
وَعَمْرٌ مِثْلُ مَا تَهَبُّ اللُّنَامُ

وشاعت ظاهرة التضمين في مرثي هذا العصر شيوعاً كبيراً، وهي ما أطلق عليها النقاد الاجتلاب (٦)، أو الإيداع بمعنى "أن يودع الناظم شعره بيتاً من شعر غيره، أو نصف بيت، أو ربع بيت بعد أن يوطئ له توطئة مناسبة" (٧).

(١) المصدر نفسه، ٤٥٠/٣، المصدر نفسه، ٤٠١/٥.

(٢) الصفدي، أعيان العصر، ٤٩٢/٥.

(٣) البرقوق، شرح ديوان المتنبي، ٢٨٢/٣.

(٤) الصفدي، أعيان العصر، ٣٨٢/٤، الواقي، ٣١١/٢.

(٥) البرقوق، شرح ديوان المتنبي، ١٩٠/٤.

(٦) انظر ابن رشيق، قراضة الذهب، ص ٨٥.

(٧) ابن حجة، خزانة الأدب، ٣١٢/٢.

وقد اهتم شعراء العصر المملوكي ونقاده بالتضمين، فأعجبوا به، وأدخلوه في أنواع البديع، وعدوه علامة هذا الفن، ويبين ابن حجة أن المتأخرين من الشعراء أو الذين عبر عنهم بالفرقة "التي مشت تحت العلم الفاضلي، وتحلّت بالقطر النباتي"، أضافوا إليه محاسن "ولم يرضوا بنقله مجرداً من التورية، أو ما يناسبها من أنواع البديع"<sup>(١)</sup> وكان التضمين مذهب بعض الشعراء في ذلك العصر، ومنهم مجير الدين بن تميم، يقول: (٢)

أطالع كل ديوانٍ أراه      ولم أجز عن التضمين طيري  
أضمن كل بيت فيه معنى      فشعري نصقه من شعر غيري

وقد ضمن شعراء المراثي أشعاراً لامرئ القيس، وحسان بن ثابت، وقريظ بن أنيف، وجريز، والفرزدق، وأبي نواس، وابن الرومي، وأبي تمام، والمتنبي، وأبي العلاء، وغيرهم وبرز التضمين بصورة جليلة في المراثي التي نظمها صلاح الدين الصفدي. وحاول الشعراء توظيف تلك الأشعار في التعبير عن مواقفهم المختلفة، إلا أن جلهم أخفقوا في جعلها جزءاً من قصائدهم، وأبياتهم، فلم تبد ملتحمة في النص، وإنما بدت غريبة عنه.

ومن أمثلة ذلك قول برهان الدين القيراطي: (٣)

فحزّتي مقيمٌ ما أقام عسيبٌ      فقَدناه فرداً في جريدةِ عَصْرِنَا

فهو يضمن عجز قول امرئ القيس: (٤)

أجارتنا إن المزارَ قريبٌ      وإني مقيمٌ ما أقام عسيبٌ

وقال صلاح الدين الصفدي: (٥)

أقول وقد أنسيتُ أنسي لِقَدِهِ      "قفا نَبَكِ من ذكرى حبيبٍ وعِرْقَانِ"

(١) المصدر نفسه، ٣١٢/٢.

(٢) ابن حجة، خزنة الأدب، ٣٢٨/٢، الكشي، فوات الوفيات، ٥٥/٤، الصفدي، الوافي، ٢٣٠/٥.

(٣) القيراطي، الديوان، ص ٢٠٣.

(٤) امرؤ القيس: الديوان، ص ٧٩.

(٥) الصفدي، الوافي، ٣٣٢-٣٣٣/٥.

ونوحا على ربّ الصّبا من شبيبتي  
وكفّا عناء الدّمح عني فقد حوى  
ولا تحقلا بالسحب من بعدة فقد

"وَرَسَمِ عَفَتَ آيَاتُهُ مُنْذُ أَرْمَانَ"  
"أَفَانِينَ جَرِيٍّ غَيْرِ كَرْزٍ وَلَا وَا"  
"تَعَاوَرَ فِيهِ كُلُّ أُوطْفِ حَنَّانٍ"

فهو يضمن أعجاز أبياته من قول امرئ القيس: (١)

فَقَا نَبَّكَ مِنْ ذَكَرِي حَبِيبٍ وَعِرْقَانِ  
وَعَيْثُ كَالْوَانِ الْقَنَاقِدُ هَبْطُهُ  
عَلَى هَيْكَلٍ يُعْطِيكَ قَبْلَ سُؤَالِهِ  
وَرَسَمِ عَفَتَ آيَاتُهُ مُنْذُ أَرْمَانَ  
تَعَاوَرَ فِيهِ كُلُّ أُوطْفِ حَنَّانِ  
أَفَانِينَ جَرِيٍّ غَيْرِ كَرْزٍ وَلَا وَا

وأعجب غير شاعر بصدر بيت الشاعر عمرو بن معدى كرب: (٢)

وكلُّ أخ مفارقة أخوه  
عمر أبيك إلا القرقدان

فضمنوه أعجاز أبياتهم، وبرز ذلك في مرثي الإخوة، ومنهم زين الدين بن الوردى إذ قال  
في رثاء أخيه: (٣)

أزال فراقه لذات عيشتي

وصلاح الدين الصفدي في رثاء أخيه: (٤)

"وكلُّ أخ مفارقة أخوه"  
وكيف يلدّ للعقلاء عيشت

وقال صلاح الدين الصفدي: (٥)

وَكُنْتَ إِذَا دَجَا لَيْلُ الْقَضَايَا  
وَكَانَتْ مِنْ مَهْمَاتِ جِسَامِ

تُفَرِّجُهَا بِقَوْلِ مَنْكَ فَمَنْعَلِ

"لأن القول ما قالت حذام"

فهو يضمن في عجز بيته الثاني عجز الشاهد النحوي المشهور: (٦)

إِذَا قَالَتْ حَذَامُ فَصَدَّقُوهَا  
فَإِنَّ الْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامُ

(١) امرؤ القيس، الديوان، ص ١٧٤، ١٧٣.

(٢) المبرد، التعازي والمرثي، ص ٨٥.

(٣) ابن الوردى، الديوان، ص ٣٧٢، تاريخ ابن الوردى، ٣٤٢/٢.

(٤) الصفدي، الواوي، ٣٣٦/٥.

(٥) الصفدي، الواوي، ٤٣٥/١٠، أعيان العصر، ١٣٧/٢.

(٦) ابن عقيل، شرح ابن عقيل، ٩٤/١.

وقال ابن نباتة في رثاء الملك الأفضل: (١)

نَهَضْتَ فَمَا قُلْنَا سِيَادَةَ مَعَشَرَ  
تَدَاعَتْ وَلَا بَنِيَانُ قَوْمٍ تَهْتَمَا

فهو يضمن عجز البيت الذي نظمه عبدة بن الطبيب في تأبين قيس بن عاصم: (٢)

فَمَا كَانَ قَيْسٌ هَلَكَةً هَلَكَةً وَاحِدٍ  
وَلَكِنَّهُ بَنِيَانُ قَوْمٍ تَهْتَمَا

وضمن الشاعر صلاح الدين الصفدي في عجز بيته: (٣)

مَنْ لِلظَّلَامِ إِذَا نَامَ الْأَنَامُ غَدَا  
"يَقْطَعُ اللَّيْلُ تَسْبِيحًا وَقَرَأْنَا"

عجز بيت حسان بن ثابت في رثاء عثمان بن عفان: (٤)

ضَحَّوْا بِأَسْمَطِ عُنْوَانِ السَّجُودِ بِهِ  
يَقْطَعُ اللَّيْلُ تَسْبِيحًا وَقَرَأْنَا

وضمن محيي الدين بن عبد الظاهر بيت الشاعر الحسين بن مطير الأسدي،

وذلك حين وصف عزاء الظاهر ببيرس، فقال: (٥)

فَتَى عَيْشٍ فِي سَعْرِوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ  
كَمَا كَانَ بَعْدَ السَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعًا

وضمن غير شاعر عجز بيت للفرزدق ورد في قصيدته التي نظمها في مدح

زين العابدين بن علي، يقول: (٦)

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَأْتُهُ  
وَالْبَيْتُ يَغْرِفُهُ وَالْحَلُّ وَالْحَرَمُ

ويتجلى ذلك في قول الصفدي: (٧)

قُلْ لِلْعَدَا إِنْ جَهَلْتُمْ قَدْرَ رَتْبَتِهِ  
"قَالِيبِتْ يَغْرِفُهُ وَالْحَلُّ وَالْحَرَمُ"

وقول شهاب الدين بن فضل الله العمري: (٨)

هَذَا الَّذِي نَشِدَ الْمُخْتَارُ هِجْرَتَهُ  
"قَالِيبِتْ يَغْرِفُهُ وَالْحَلُّ وَالْحَرَمُ"

كما ضمن غير شاعر بيت جرير أو عجزه: (٩)

إِنَّ الْعَيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ  
قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا

(١) ابن نباتة، الديوان، ص ٤٢٩.

(٢) ابن رشيق، العمدة، ١٥٣/٢، قراصة الذهب، ص ٣٨.

(٣) الصفدي، أعيان العصر، ٤٢٩/٢.

(٤) حسان بن ثابت، الديوان، ص ٤٦٩.

(٥) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ١١٥/٤، المقرئ، المخطوط، ٣٣٤/٤، ابن رشيق، العمدة، ١٤٨/٢.

(٦) الفرزدق، الديوان، ٨٤٨/٢.

(٧) الصفدي، أعيان العصر، ٤٥٠/٣، السبكي، طبقات الشافعية، ٤٠١/٥.

(٨) الصفدي، أعيان العصر، ٥٣/٤.

(٩) جرير، ديوانه، ١٠٠/١.

ومنهم صلاح الدين الصفدي في قوله: (١)

"قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا"

مِثْلَ الْعَيُونِ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ

وشرف الدين حسين في قوله: (٢)

"قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا"

إِنَّ الْخُطُوبَ الَّتِي سَأَقَتْ مِنْبَتَهُ

وَضَمَّتُوا أَشْعَاراً لِأَبِي نَوَاسٍ، ففِي قَوْلِ عَفِيفِ الدِّينِ التَّلْمَسَانِيِّ: (٣)

وعهدي بها من قبل وهي أوانس

لَقَدْ أَجْقَلْتُ غُرَّ الْمَسَائِلِ بَعْدَهُ

"مَهَا تَدْرِيهَا بِالْقَسِيِّ الْفَوَارِسُ"

تَطَارِدُ مِنْهُنَّ الشَّرُودُ كَأَنَّهَا

فَهْمُ يَضْمَنُ عَجْزَ بَيْتِ أَبِي نَوَاسٍ: (٤)

"مَهَا تَدْرِيهَا بِالْقَسِيِّ الْفَوَارِسُ"

قَرَارَتُهَا كِسْرَى وَفِي جَنَابَاتِهَا

ويضمن الصفدي في قوله: (٥)

"قَصْرٌ عَلَيْهِ تَحِيَّةٌ وَسَلَامٌ"

وَكَانَ قَبْرَكَ لِلْعَيُونِ إِذَا بَدَا

صدر قول الأشجع السلمي: (٦)

نَثَرْتُ عَلَيْهِ جَمَالَهَا الْآيَامُ

قَصْرٌ عَلَيْهِ تَحِيَّةٌ وَسَلَامٌ

(١) الصفدي، أعيان العصر، ٤٣٠/٢.

(٢) المصدر نفسه، ٤٣٢/٢.

(٣) ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٥٢.

(٤) أبو نواس، الديوان، ٨/٢.

(٥) الصفدي، الواقي، ٣٥٣/١٧، الكشي، فوات الوفيات، ٢٠٨/٢.

(٦) د. خليل الحسون، أشجع السلمي حياته وشعره، ص ٢٥٢.

ولزيد من الأمثلة على التضمن انظر ابن نباتة، الديوان، ص ٤٢، ١٠٠، الصفدي، أعيان العصر، ١٣٧، ٥٢٠/١، الواقي، ٢٢٠/٣٦٦، ٩/٣، ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٥٢/٣، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ٣٣٧/٢، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٣٠٩/٧، الكشي، فوات الوفيات، ٥٥/٤، السبكي، طبقات الشافعية، ٣٩٩/٥، السيوطي، حسن المحاضرة، ٢٨٠/١، ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ١/٥٦٣.

## الصنعة البديعية

شاع البديع في العصر المملوكي شيوعاً كبيراً، وأضحى " غاية من الغايات التي يُنظم الشعر من أجلها، وهدفاً من الأهداف التي يتبارى الشعراء ويتنافسون في سبيل الإجادة فيها، وبلوغ الغاية منها <sup>(١)</sup> "، وكان ذلك على حساب المعاني والأفكار في الكثير من الأحيان <sup>(٢)</sup> .

وقد أدى ولعهم بالبديع إلى زيادة عدد أنواعه، فوصلت إلى أكثر من مئة وأربعين نوعاً <sup>(٣)</sup> ، كما أدى إلى ابتكار فنّ البديعيات التي التزم فيها قائلوها بأن " يكون كل بيت منها شاهداً على نوعه بمجردّه، وليس له تعلق بما قبله، ولا بما بعده " <sup>(٤)</sup> .

ويعود شيوع هذه الظاهرة في أدب ذلك العصر إلى أسباب عديدة، منها أسباب اجتماعية، فقد كان الناس في العصر المملوكي متأثرين بمظاهر عصرهم، وبآيات حضارته التي كانت مزدانة، تجنح نحو الترف، والزخرف المبالغ فيها، الأمر الذي جعل الأدباء منهم يتوجهون " إلى الزخرفة والتميق والصنعة " <sup>(٥)</sup> .

وساعدت الحياة الثقافية آنذاك على الجنوح نحو هذه الظاهرة، فقد تأثر الأدباء بمذاهب المتقدمين في هذه الصناعة، أمثال الحريري، والقاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، فساروا على دربهم، وحاكوه في الإكثار منها <sup>(٦)</sup> .

وعلى الرغم من أن البديع كان هو الغالب على أهل العصر المملوكي كما يقول ابن خلدون <sup>(٧)</sup> ، إلا أنه وجدت طائفة من النقاد والأدباء ثاروا على الإفراط في استخدام فنونه، فاشتروا " أن تقع من غير تكلف، ولا اكتراث فيما يقصدونه منها... لأنها إذا برئت من التكلف سلم الكلام من عيب الاستهجان، لأن تكلفها ومعاناتها يصير إلى الغفلة عن التراكيب الأصيلة للكلام، فتخل الإفادة من أصلها، وتذهب بالبلاغة رأساً على عقب،

<sup>(١)</sup> د. محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ٤/ ١٥٠، وانظر عبده ثقليلة، النقد الأدبي، ص ٢١٧، د. محمد كامل الفقي، الأدب في العصر المملوكي، ص ١٣٧، د. محمود سالم، المدائح النبوية، ص ٤٢٢.

<sup>(٢)</sup> د. عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس، ص ٢٩٤.

<sup>(٣)</sup> انظر ابن أبي الأصعب، تحرير التحبير، ابن حجة، حزانة الأدب.

<sup>(٤)</sup> ابن حجة، حزانة الأدب، ١/ ٣٤٩.

<sup>(٥)</sup> د. عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس، ص ٢٩٥.

<sup>(٦)</sup> انظر د. محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ٤/ ١٤٩، ٣٨٨، د. عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس، ص ٢٩٥، أحمد الهيب،

نظام البديعي، ص ٨.

<sup>(٧)</sup> انظر ابن خلدون، المقدمة، ٣/ ١٣٧.

ولا يبقى في الكلام إلا تلك التحسينات" (١)، كما اشترطوا "الإقلال منها، وأن تكون في بيتين أو ثلاثة من القصيد، فتكفي في زينة الشعر ورونقه" (٢)، يذكر ابن خلدون أن أبا القاسم الشريف السبتي، وهو أحد علماء اللغة والأدب في وقته، كان يقول: "هذه الفنون البديعية إذا وقعت للشاعر أو الكاتب، فيقبح أن يستكثر منها لأنها من محسنات الكلام ومزيناته، فهي بمثابة الخيلان في الوجه يحسن بالواحد والاثنين منها، ويقبح بتعدادها" (٣)، ويبين ابن خلدون أن أصحاب الأذواق في البلاغة في عصره، كانوا يسخرون من كلف الأدباء بالفنون البديعية، ويعدون ذلك من القصور عن سواه" (٤)، وينقل عن أستاذه الشيخ أبي البركات البلغيفي، "وهو من أهل البصر في اللسان والقريحة"، قوله: "إن من أشهى ما تقترحه عليّ نفسي أن أشاهد في بعض الأيام من ينتحل فنون هذا البديع في نظمه ونثره، وقد عوقب، بأشد العقوبة، ونودي به" (٥).

وإذا نظرنا إلى مراثي هذا العصر، فإننا نجد في هذا المجال تيارين:

تيار أسرف في استخدام الفنون البديعية، فطغت الزخرفة اللفظية على المضامين والمعاني التي أراد التعبير عنها، الأمر الذي أدى إلى التعقيد والتكلف، وتيار آخر وهو الغالب، أكثر من استخدامها، إلا أنها كانت كما يقول ابن الأثير "كالغرة في الوجه" (٦)، لا أثر لها على المعاني التي عبر عنها.

وشغف أدباء ذلك العصر بفنون بديعية أكثر من غيرها، فاستحوذت على اهتمامهم، ومنها التورية والجناس، الأمر الذي أدى إلى ظهور مذاهب خاصة فيها لها مؤيدوها.

أما التورية، فقد أطلقوا عليها السحر الحلال (٧)، وعدّوها من أغلى فنون الأدب، وأعلاها رتبة (٨)، وادّعوا أنه ما تنبه لمحاسنها إلا المتأخرون من الشعراء والكتّاب (٩)،

(١) انظر ابن خلدون، المقدمة، ٣/ ١٣٢٠.

(٢) المصدر نفسه، ٣/ ١٣٢١.

(٣) المصدر نفسه، ٣/ ١٣٢١.

(٤) المصدر نفسه، ٣/ ١٣٢٠.

(٥) المصدر نفسه، ٣/ ١٣٢٠ - ١٣٢١.

(٦) انظر ابن الأثير، المثل السائر، ٤٩/١ وما بعدها.

(٧) انظر ابن حجة، خزانة الأدب، ٢/ ٢١٠، كشف اللثام، ص ١٥.

(٨) المصدر نفسه، ٤٠/٢، المصدر نفسه، ص ٤.

(٩) الصفدي، فض المحتام، ص ١٢١، ابن حجة خزانة الأدب، ١/ ١٢٢، كشف اللثام، ص ٧.

ويعلل الصفدي "حسن التورية عند المتأخرين بسهولة اللّغة، واستعمال اللفظ المشهور دون الغريب فيخفّ على السمع، ويصل الذهن إلى معناه، فيرشفه دون مشقة (١) ."

وقد انخرط في سلك التورية عدد كبير من شعراء مصر والشام في العصر المملوكي، وتنافسوا في الإتيان بكل بديع منها، ومن هؤلاء الشعراء سراج الدين الوراق، وأبو الحسين الجزار، والنصير الحمّامي، وناصر الدين بن النقيب، وشمس الدين بن دانيال، ومحبي الدين بن عبد الظاهر، وابن نباته، وعلاء الدين السوداعي الكندي، وبرهان الدين القيراطي، وشهاب الدين بن أبي حجلة التلمساني، وابن الوردي، وشمس الدين بن العفيف التلمساني، وشرف الدين الأنصاري، وابن حجة الحموي، وغيرهم (٢) .

ووقفت أسباب عديدة وراء شيوع هذا المذهب عند أولئك الشعراء، فالصفدي يرد ذلك إلى البيئة الطبيعية الجميلة في مصر والشام، وهذا له أثر على مزاج الشعراء، فجعلهم يميزون بالخفة والمرح والطرب (٣) .

واتسم الأدب في العصر المملوكي الأول بروح السخرية والفكاهة والنقد، ومن هنا كانت حاجة الأدباء إلى التورية ليتمكنوا من التعبير عما يختلج في نفوسهم، وعمّا يعانونه من مرارة في العيش دون أن يتعرضوا لبطش الحكام ورجال الدولة، ولهذا برع فيها أرباب الحرف أكثر من غيرهم أمثال : الوراق، والجزار، وابن دانيال، والنصير الحمّامي، وساعدتهم بدائعهم وألقابهم في نظمها " حتى قيل للسراج الوراق : لسو لا لقبك وصناعتك لذهب نصف شعرك" (٤) .

وبرزت التورية بصورة جليلة في مرثي جمال الدين بن نباته، وبرهان الدين القيراطي، وهم من رواد حلبتها في ذلك العصر. ومن ذلك ما جاء في قول ابن نباتة موظفاً المظاهر الحضارية في صنعها : (٥)

(١) الصفدي، فض الحتام، ص ٤٩، ١٢٤ .

(٢) انظر الصفدي، فض الحتام، ص ١٢٤ - ١٣٢، الواقي، ٤٤ / ٢، أعيان العصر، ٣ / ٦٧٧ - ٦٧٨، ابن حجة، كشف اللثام، ص ١٤، ٥٨، ٨٥، ٨٦، خزنة الأدب، ١ / ١٢٢، ١ / ١٢٣، ٢ / ٤٣، ١٠٧، ١٠٨، ١٥٥، الغزولي، مطالع البدر، ٩٠ / ١، ابن ياسر، بدائع الزهور، ج ١ ق ٥٢٧ / ١ .

(٣) انظر الصفدي، فض الحتام، ص ١٤٣ .

(٤) ابن حجة، خزنة الأدب، ٤٨ / ٢، كشف اللثام، ص ١٧، الغزولي، مطالع البدر، ٩٠ / ١ .

(٥) ابن نباته، الديوان، ص ٤١، السبكي، طبقات الشافعية، ٣٩٨ / ٥، السيوطي، حسن المحاضرة، ٢٧٩ / ١ .



والجامعُ الرَّحْبُ أضْحَى صدرُهُ حَرَجًا والنَّسْرُ ضَمَّ جناحيه من الرَّهْبِ  
 جاءت التورية في لفظة "النسر" فالمعنى القريب لها هو النسر الحقيقي لوجود شيء من  
 لوازمه، وهو "ضمّ جناحيه". أما المعنى البعيد وهو المقصود، فقبة النسر في الجامع الأموي.  
 ويوظف ابن الوردي مظاهر الطبيعة في صنع التورية، فيقول في رثاء قاضي  
 القضاة في حماة نجم الدين بن العديم: (١)

قَد كَانَ شَمْسُ الدِّينِ شَمْسًا أُشْرَقَتْ بِحَمَاةٍ لِلدَّانِسِيِّ بِهَا وَالْقَاصِي  
 عَدِمَتْ ضِيَاءَ ابْنِ العَدِيمِ فَأَنْشُدَتْ مَاتَ المَطِيحُ فِيهَا هَلَاكُ العَاصِي  
 فهو يوظف اسم نهر حماة "العاصي" في توريته، وقد أعجب ذلك الشوكاني  
 صاحب كتاب "البر الطالع"، فقال معلقاً على الأبيات: "وما أحسن التورية في قوله: فيا  
 هلاك العاصي لأنّ في حماة نهراً يقال له العاصي" (٢).

ووظف الشعراء أسماء المرثيين في التورية، جاء ذلك في قول صلاح الدين  
 الصفدي في رثاء شمس الدين الذهبي: (٣)

لَمَّا مَضَى شَيْخُنَا عَالِمُنَا وَمَاتَ فَنُ التَّارِيخِ وَالنَّسَبِ  
 قَلْتُ عَجِيبٌ وَحَقٌّ ذَا جَبِّ كَيْفَ تَخَطَّى البَلَى إِلَى الذَّهَبِ  
 ويتلاعب الصفدي باسم مرثيه "زين الدين بن الوردي"، فيقول: (٤)

لئن ذوى الوردي في هذه الد ننيا لقد أينع في الخلد  
 والعلم روض ماله رونق لأنّه خال من الوردي  
 فهو يورّي في لفظة "الوردي"، فالمعنى القريب لها نبات الورد، لوجود "أينع"،  
 و"الروض"، أما المعنى البعيد وهو المقصود، فمرثيه ابن الوردي.

واستغل عدد من الشعراء الشخصيات التاريخية في تورياتهم مثل شخصيات  
 الملوك، والخلفاء، والفقهاء والمحتئين واللغويين (٥)، ويتجلى ذلك في قول شهاب الدين بن  
 العطار في رثاء صدر الدين بن التركماني قاضي الحنفية: (٦)

(١) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢ / ٢٩٥، ابن حجر، الدرر الكامنة، ٣ / ٢٦٦، الشوكاني، البر الطالع، ٢ / ٢٤٨.

(٢) الشوكاني، البر الطالع، ١ / ٢٤٨.

(٣) الصفدي، أعيان العصر، ٤ / ٢٨٩.

(٤) الصفدي، أعيان العصر، ٣ / ٦٧٩.

(٥) انظر القزالي، الديوان، ٢٥، ٥٠، السيوطي، حسن المحاضرة، ١ / ٣٦٥.

(٦) ابن حجر، رفع الإصر عن قضاة مصر، ص ٣٧٤.

وفاتك صَدَرَ الدِّينِ قَاضِي قَضَائِنَا      قَدِ اغْبَرَ مِنْ زَهْرِ الْعُلُومِ أُنَيْقُهُ  
 وَقَطَّبَ بَعْدَ الضَّحْكِ وَجْهًا وَكَيْفَ لَا      يَقْطَبُ وَالنَّعْمَانُ مَاتَ شَقِيقُهُ  
 وقول صفي الدين الحلبي في رثاء ناصر الدين الأرتقي: (١)

وكيف جَارَ عَلَيْكَ الدَّهْرُ مُعْتَدِيًا      أَمَا تَعْلَمُ مِنْكَ الْعَدْلَ يَا عَمْرُ

أما الجناس، فكان الصفدي أكثر ناقد وأديب ولوعاً به، إذ ألف فيه كتابه "جنان الجناس"، أشاد فيه بهذا الفن، وجعله في المحل الأعلى من البديع، وأطلق عليه السحر الحلال<sup>(٢)</sup>، وراح يتكلفه في شعره، ويأتي منه بما يتقل على الأذان، وينفر منه المتلقون، الأمر الذي جعل بعض نقاد عصره وأدبائه يثرون عليه، ويعيبون عليه كلفه به، وفي مقدمة هؤلاء ابن حجة الحموي الذي قال: "وكان الشيخ صلاح الدين الصفدي يستسمن ورمه، ويظنه شحماً، فيشبع أفكاره، ويملاً بطون دفاتره، ويأتي فيه بتراكيب تخفّ عندها جلايد الصخور"<sup>(٣)</sup>، وهاجم ابن حجة أصحاب هذا المذهب في عصره، وذلك في معرض حديثه عن التورية، وحثه على استخدامها في الأدب، فرأى "أن الفرقة الناجية من التعسف والتكلف في النظم لم ترض بالجناس إذا أمكنت التورية"<sup>(٤)</sup>. وهاجم ابن نباتة الصفدي، فقد ذكر ابن حجة أن هذا الشاعر لما وقف على كتاب الصفدي "جنان الجناس"، قرأه جنان الخناس"، فجرى بينهما بسبب ذلك ما يطول شرحه"<sup>(٥)</sup>.

وتحدث النقاد عن قيمة الجناس في العمل الفني، فبينوا أنه إذا جاء غير متكلف أو مقصود في ذاته تمّ به المعنى، وظهر حسنه<sup>(٦)</sup>، ويذهب عبد القادر الجرجاني إلى أن "ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى، إذ لو كان هناك اللفظ وحده كان فيه مُستحسن، ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به"<sup>(٧)</sup>.

(١) الحلبي، الديوان، ص ٢٩٤

(٢) انظر الصفدي، جنان الجناس، ص ٧.

(٣) ابن حجة، خزنة الأدب، ١/٥٥ - ٥٦، كشف اللثام، ص ٦.

(٤) المصدر نفسه، ١/٦٩.

(٥) ابن حجة، خزنة الأدب، ١/٥٦، كشف اللثام.

(٦) انظر ابن رشيق، العلمة، ١/٣٢٩.

(٧) الجرجاني، أسرار البلاغة، ص ٥.

ويعود جمال الجناس إذا لم يكن متكلفاً إلى ذلك الجرس الموسيقي الصادر عن تكرار الكلمات المتماثلة تماثلاً تاماً أو ناقصاً، الأمر الذي يزيد من تأثير الكلام ووقعه في نفس المتلقي<sup>(١)</sup>. كما يعود جمال الجناس وتأثيره إلى "ما فيه من إيهام النفس أن الكلمة المكررة ذات معنى واحد، فإذا أمعن المرء فيها النظر، رأى للكلمتين معنيين مختلفين، فيدفع ذلك إلى الإعجاب بالشاعر الذي اهتدى إلى هذا الاستخدام"<sup>(٢)</sup>.

وقد أدى استخدام كثير من شعراء الرثاء للجناس إلى توفير العنصر الموسيقي في مراثيهم وإلى زيادة جمالها، وتأثيرها في النفوس، وجعل المتلقي مشاركاً في إستجلاء المعاني، ومحاولة التفريق بينهما، خاصة في الجناس التام الذي تشابهت أصوات كلماته، واختلفت معانيها. والأمثلة على ذلك كثيرة، ومن ذلك ما جاء في قول صفي الدين الحلبي<sup>(٣)</sup>:

وَبَكَتْ لَهُ أَهْلُ الثَّغُورِ وَطالَمَا ضَحِكْتَ لِذَسْتِ الْمَلِكِ مِنْهُ تُغُورُ

وقول محيي الدين بن عبد الظاهر<sup>(٤)</sup>:

تَغْسَأُ لَهَا مِنْ نَكْبَةٍ وافي بها يَوْمُ الخَمِيسِ إِلَى الخَمِيسِ تُولُوعُ

وقال شمس الدين الكوفي الواعظ في رثاء بغداد<sup>(٥)</sup>:

عندي لأجل فراقكم آلامُ فالآلامُ أعذل فيكم وألامُ  
من كان مثلي للحبيب مفارقاً لا تعدلوه فالكلامُ كلامُ

فهو يجانس بين "آلام"، و"إلام"، و"آلام"، والكلام"، و"الكلام"، وعلى الرغم من كثرة الجناس في هذين البيتين، إلا أنه لم يكن له أثر على المعاني التي عبر عنها الشاعر، وعلى العكس من ذلك، فإن تكرار المفردات السابقة، وما فيها من حروف مدّ أتاحت له التعبير عن آهاته وأحزانه، وزادت من القيمة الموسيقية في أبياته.

(١) انظر أحمد موسى، الصبح البيدي، ص ٣٠، علي الجندي، فن الجناس، ص ٢٩، ٣٠، د. عبد الواحد الشيخ، البديع والتوازي، ص ٣٤، ٣٢.

(٢) د. أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي، ص ٤٥-٤٧.

(٣) الحلبي، الديوان، ص ٣٢٧، ابن حبيب، تذكرة النبي، ٢/٣٢٤.

(٤) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٤٥، الواواري، كثر الدرر، ٨/٢١٦.

(٥) الكندي، فوات الوفيات، ٢/٢٣٢.

وأسرف عدد من الشعراء في استخدام الجناس في مراثيهم الأمر الذي أدى إلى التعقيد، وأضعف هذه الأشعار، وأدى إلى طغيان الألفاظ على المعاني، وعدم الملاءمة بينها وبرز ذلك بصورة جلية في مرثي صلاح الدين الصفدي، وعفيف الدين التلمساني، وشهاب الدين محمود الحلبي، ومن ذلك ما جاء في قول الصفدي<sup>(١)</sup>:

مُصاب السبكي قد سبك القلب      صبّ وأودى منّا الجلودَ انتحالا  
لو أفاد الفداء شخصاً لجُذنا      بنفوس، على الفدى تتغالي  
أنفسٌ طالما تنفسَ عنها      منك كَرَبٍ يكظّها واستحالا

وقول عفيف الدين التلمساني<sup>(٢)</sup>:

وناخت عليه ورقُ أوراقه وما      لها من سوى الأقلامِ قصبَ مواسٍ  
وأقسِمُ ما النعمى بها القلبُ ناعمٍ      عليه ولا البؤسُ بها القلبُ بانسٍ

يظهر الجناس في الأبيات بصورة كثيفة "ورق أوراقه"، و"نفس و" نفيسة"، و"فانس"، و"النعمى"، و"ناعم" و"البؤس"، و"بانس".

ويبرز الطباق بصورة جلية في مرثي هذا العصر، وبدا في أغلبها غير متكلف، أكسب الشعر قيمة جمالية، إذ مكن الشعراء من المقارنة بين موقفين متناقضين، وصورتين متخالفتين في بيت واحد أو شطر واحد، أو مجموعة من الأبيات، كما أن له فائدة كبيرة في جذب انتباه السامعين لما ينتج عنه من أخيلة، وصور شعرية، فالمتلقي لا يلبث أن ينتقل من صورة أو معنى معين إلى صورة ومعنى مضاد له، ولهذا كان له علاقة وثيقة ببلاغة الكلام، وذلك أن "الضدّ أقرب خطوراً بالبال عند ذكره كما يقولون"<sup>(٣)</sup>.

(١) الصفدي، أعيان العصر، ٣/٤٤٨-٤٤٩، السبكي، طبقات الشافعية، ٥/٤٠٠-٤٠١، السيوطي، حسن المحاضرة، ١/٢٨٢.

(٢) ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٥١، ٥٢.

(٣) أحمد موسى، الصبغ البدعي، ص ٤٧١.

لقد وظفه الشعراء حيث قارنوا بين حالة الحزن والحرقة التي يعيشونها، وحالة مرثيهم الذي غدا يتقلب في جنات النعيم، ويتجلى ذلك في قول ابن نباتة<sup>(١)</sup>:  
ساكن الخلد أوزنت الورى حرقاً      فأنت في جنة والناس في نارٍ  
وقول ابن الوردي<sup>(٢)</sup>:

فكيف سكنت في جنات عدن      وقلبي منك في نار السعير؟  
وقال صفي الدين الحلبي<sup>(٣)</sup>:

ليهنك أن الدمع بعدك مطلقاً      لفرط الأسى والقلب بالهم في سجنٍ  
فهو يطابق بين " مطلق " و " سجن "

ويوظف الشاعر شهاب الدين بن فضل الله العمري الطباقي ليقابل بين ابن تيمية وأعدائه، فيقول<sup>(٤)</sup>:

أذهب المنهل الصافي وما نعت      به الظماء ويبقى الحمأة الكدر  
فهو يطابق بين " المنهل الصافي " ، و " الحمأة الكدر " .  
ويكثر الطباقي في قول أحد الشعراء<sup>(٥)</sup>:

أرى حقيقة عيشنا كمجازها      ما أشبه الإيجاد بالإعدام  
فهو يطابق بين " حقيقة " ، و " مجاز " ، و " إيجاد " ، و " إعدام " .

وزاد الطباقي في مرثي هذا العصر من التوقع، بمعنى أن المتلقي حين يسمع اللفظة الأولى، يتوقع الكلمة المضادة لها، فكل لفظة من ألفاظ الطباقي تستدعي الإتيان باللفظة المضادة لها، ويتجلى ذلك في قول نجم الدين بن صصري<sup>(٦)</sup>:

تنزه عن دنياه يرجو إلهه      فعوضه عن عاجلات بأجل  
فلفظه " عاجلات " تستدعي " بأجل " .

وجاء الطباقي عند بعض الشعراء متكلفاً، وهذا ما نلمحه بجلاء في مرثي صلاح الدين الصفدي، وخاصة حين وظف مصطلحات العلوم في صنعه، ومن ذلك قوله:

(١) ابن نباتة، الديوان، ص ٢٢٤

(٢) ابن الوردي، الديوان، ص ٣٢٨ .

(٣) الحلبي، الديوان، ص ٣١٠ .

(٤) المقرئ، المغنى، ٤٧٦/١

(٥) ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٤٥ .

(٦) المصدر نفسه، ص ٣٤ .

يا أسفاً كان هديّ ظاهراً      فعادَ في تربته مُضمراً  
أفديه من ماضٍ لأمر الردى      مُستقبلاً من ربه بالقرا

فهو يطابق بين "ظاهراً" ، و "مضمراً" و "ماضي" ، و "مستقبلاً".

ومن الفنون البديعية التي برزت في مرثي هذا العصر "حسن التعليل" ، ويتجلى

ذلك في قول صلاح الدين الصفدي في رثاء كمال الدين بن ريان الطائي<sup>(١)</sup>:

يُمْنَاهُ قَدْ بَرَّتْ يِرَاعاً      كَأَنَّهُ السَّيْفُ فِي الْمَضَاءِ  
وَوَشَّعَتْ طِرْسَهَا وَوَشَّتْ      بِالزَّهْرِ مِنْ أَحْرَفِ الْهَجَاءِ  
غَلَطْتُ فِيمَا أَرَاهُ حَقّاً      إِذْ لَيْسَ وَالزَّهْرُ بِالسَّوَاءِ  
لَأَنَّ زَهْرَ الرِّيَاضِ يَنْوِي      وَذَا يُرَى دَائِمَ الرُّوَاءِ

وقول ابن الوردي في رثاء ابن تيمية<sup>(٢)</sup>:

هُمَّ حَسَدُوه لِمَا لَمْ يَنَالُوا      مَنَاقِبَهُ قَقْذُ مَكْرُوا وَشَاطُؤَا

واستخدم الشعراء اللف والنشر" ، وهو " أن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد، وهذا

هو اللف، ثم تذكر أشياء على عدد ذلك، كل واحد يرجع إلى واحد من المقدم من غير تعيين ثقة بأن السامع يرد كل واحد إلى ما يليق به، وهذا هو النشر"<sup>(٣)</sup>. ومن ذلك ما جاء في قول ابن نباتة<sup>(٤)</sup>:

وهمة بين خدام العلى نشأت      فاللفظ والعرض ریحانٌ وكافورُ

فاللفظ ریحان، والعرض كافور.

<sup>(١)</sup> الصفدي، أعيان العصر، ٧٥/١، ابن حبيب، تذكرة النبيه، ١٩٣/٣.

<sup>(٢)</sup> ابن الوردي، الديوان، ص ٢٦٦.

<sup>(٣)</sup> ابن معصوم، أنوار الربيع، ٣٤١/١، وانظر ابن حجة، خزانة الأدب، ١٤٩/١.

<sup>(٤)</sup> ابن نباتة، الديوان، ص ٢٢١.

وقول الصفدي<sup>(١)</sup>:

ويذُ جودُها فوقَ الغواصي  
تلكَ ماءَ هَمَّتْ وذا صبباً مالا

فالماء للغواصي ، والمال لليد.

ومن الفنون البديعية التي استعان بها الشعراء " الاكتفاء " ، وهو " أن يأتي الشاعر ببيت من الشعر وقافيته متعلقة بمحذوف، فلم يفتقر إلى ذكر المحذوف لدلالة باقي اللفظ عليه، ويكتفي بما هو معلوم في الذهن، فيما يقتضي تمام المعنى، وهو نوع ظريف ينقسم قسمين، قسم يكون بجميع الكلمة، وقسم يكون ببعضها، والاكتفاء بالبعض أصعب مسلماً، لكنه أحلى موقعا<sup>(٢)</sup>. وتكمن قيمة الاكتفاء في أن المتلقي يشارك الشاعر في عمله الفني، فلا يكون مستقبلاً لهذا العمل فحسب، ومثال ذلك قول علاء الدين بن غانم<sup>(٣)</sup>:

ما عمّ رزءٌ مثلَ رزءك فادحٌ  
أضحى به كلّ الأنام على شفا

فهو يقصد " على شفا جرف هار".

وقال تقي الدين الدوقوي<sup>(٤)</sup>:

وماتَ الصديقُ وماتَ منَ عاديتِهِ  
وتموتُ أنتَ كمثلِهِ وكانَ قد

بمعنى " قد لم تكن " .

ومثله قول بهاء الدين الإربلي<sup>(٥)</sup>:

وجاشتَ إليّ النفسُ حرقةً ولوعةً  
فقلّتَ تعزّي واصبري فكانَ قد

ومن الفنون البديعية المستخدمة " التوشيح " ، وهو " أن يتكلم المتكلم أو الشاعر

باسم مثني في حشو العجز، يأتي بعده باسمين مفردين هما عين ذلك المثني، يكون الآخر

(١) الصفدي، أعيان العصر ، ٤٤٨/٣ .

(٢) ابن حجة، خزنة الأدب، ٢٨٢/١ .

(٣) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٢٩/٤ .

(٤) الكرهي، الكواكب الدرية، ص ٢١٦ .

(٥) ابن العوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٨١ .

منهما قافية بيته. أو سجعه كلامه كأنهما تفسير له<sup>(١)</sup>. ومن ذلك ما جاء في قول سراج الدين الوراق<sup>(٢)</sup>:

شُقتْ جِيوبُ القَوافي والقُلوبُ معاً      واستشعر الماضيان الخوفُ والجَزَعَا

وبرز هذا الفن بصورة جليّة في قول صلاح الدين الصفدي<sup>(٣)</sup>:

وهكذا كلّ مَنبتٍ حَلّ في جَدَثٍ      يكى له الفاقدان العُلْمُ والكرمُ  
وقد نعى العَدْلُ منه سيرة كَرُمَتُ      يُحْفَها الزَاهِرانِ الحِلْمُ والنَعْمُ  
والوَرُقُ تُملِي لنا في وَصْفِهِ خُطْباً      يُقْلَها المنبرانِ البانُ والسَلْمُ  
ولو أراد الأَعادي كَتَمَها اعترفتُ      بفضلها الشاهدانِ العُربُ والعَجَمُ

إن استخدام التوشيح في الأبيات السابقة أضفى عليها قيمة جمالية ، تركّزت في نهاية كل بيت منها ، كما أدى إلى توفير العنصر الموسيقي فيها، ومرد ذلك إلى تكرار صيغة المثني والمفرد المنتهي في الغالب بحرف الميم، والمنفق بعدد الحروف.

ومن الفنون البديعية التي برزت بجلاء في مرثي هذا العصر " الكلام الجامع " ، وهو "أن يأتي الشاعر ببيت مشتمل على حكمة، أو وعظ، أو غير ذلك من الحقائق التي تجري مجرى الأمثال ويتمثل الناظم بحكمها أو وعظها، أو بحالة تقتضي إجراء المثل " <sup>(٤)</sup>. وقد وجد الشعراء الرثاء ميداناً واسعاً لهذا الفن البديعي، وجاء بصورة بارزة حين تحدّثوا عن الحياة والموت والدهر والزمان، والأمثلة على ذلك كثيرة، ومنها قول ناصر الدين بن النقيب <sup>(٥)</sup>.

والخَوْفُ عَوْنٌ للشَّجاعِ على الجبا      ن مُساعِدٌ والوَهْمُ ممّا يَقْتُلُ  
مالي أراك أَطَلتْ غيبَةَ غائبٍ      ما يَرْتَجى مِنْه كتابٌ مُرْسَلُ  
وكذاك مَنْ أَمسى بلحدٍ ثاويّاً      سيقِيمُ في غيباتِهِ وَيَطوُلُ

(١) ابن حجة، خزائن الأدب، ١/٣٧٢.

(٢) الصفدي، الوراق ، ١٢/٥٣.

(٣) الصفدي، أعيان العصر، ٣/٤٥٠، السبكي ، طبقات الدناقية، ٥/٤٠١.

(٤) ابن حجة، خزائن الأدب، ١/٢٥١.

(٥) ابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٤٩.



يتساءل الشاعر عن غيبة مرثيه الطويلة، ويسأل سؤال من يتجاهل المعرفة، ولكنه يجيب بأن ذلك أمر طبيعي ، يشمل كل الذين اختطفهم الموت، وأضحوا في قبورهم جائمين.

ويتجلى ذلك الفن في قول صفي الدين الحلي إذ صور الناس كقطع النقود، يتفاوتون في قيمتهم<sup>(١)</sup>.

وَالنَّاسُ كَالعَيْنِ إِنْ نَقَدْتَهُمْ  
تفاوتت عند نقدك القبيهم  
واستخدم الشعراء فناً بديعية أخرى كان لها دور في تشكيل الإيقاع الموسيقي، ومن تلك الفنون ، الموازنة، ورد العجز إلى الصدر، والتقسيم، والتعديد ، ولزوم ما لا يلزم.

أما الموازنة، فهي أن "يكون صدر البيت الشعري وعجزه متساوي الألفاظ وزناً"<sup>(٢)</sup> وتحدث ابن الأثير عن قيمة هذا الفن في نفوس المتلقين، فقال: " وللكلام بذلك طلاوة ورونق وسببه الاعتدال، لأنه مطلوب في جميع الأشياء، وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلة، وقعت من النفس موقع الاستحسان"<sup>(٣)</sup>، ومن ذلك قول صلاح الدين الصفدي<sup>(٤)</sup>:

فليس باغي معاليه بذى ظفر  
وليس راجي أياديه بمردود  
وقول ابن نباتة<sup>(٥)</sup>.

يا ضلالي من بعد ذاك المحبباً  
وافتقاري من بعد ذاك النوال  
ويجمع شمس الدين الكوفي الواعظ بين الموازنة والطباق في قوله<sup>(٦)</sup>:  
فحزُنُّكَ كلَّ يومٍ في انتقاص  
وحزُنِّي كلَّ يومٍ في ازدياد

واستخدم الشعراء التصدير أو ما يسمى "برد العجز إلى الصدر"، في مواطن كثيرة من أشعارهم، ومن ذلك ما جاء في قول ابن الوردي<sup>(٧)</sup>:

(١) الحلي، الديوان، ٢٩٣.  
(٢) ابن الأثير، المثل السائر، ٢٧٢/١.  
(٣) المصدر نفسه ، ٢٧٢/١.  
(٤) الصفدي ، أعيان العصر ، ٤٤٨/٣.  
(٥) ابن نباتة، الديوان، ص ٤٠٧.  
(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة ، ص ٣٨٨.  
(٧) ابن الوردي، الديوان، ص ٤٠٧.

وكتنا في "الصدور" له حقرنا  
ومثل البدر يحقر في "الصدور"  
إن تكرار لفظة "الصدور" أضفى قيمة موسيقية على البيت، وأكد مكانة المرثي  
في قلوب أبناء مجتمعه.

ويبرز ذلك في قول صفى الدين الحلبي: (١)

فمفردُها من نثر سيقك — وأم  
وتوأملها من نظم رُمحك مفردُ

وبرز التقسيم بصورة جلية في مرثي هذا العصر، وهو فنّ يعمل على توفير  
إيقاعات ناتجة عن الوقفات التي نلاحظها عند قراءة النص، وعن استيواء مقادير الجمل  
المقسمة، واتفاقها أحياناً في الوزن، وتكرار قوافيها، هذا فضلاً عن اتخاذها شكلاً نحويّاً  
واحداً في بنائها، وهذا ما نلمحه في قول محمد المنبجي البزاز: (٢)

أضحى على الدنيا لفقْدِكَ وحشةً  
ما اعتادها من قبل ذا أربابها

مسودة أيامها متغيّراً  
أحوالها مستوحش محرّابها

وقول شهاب الدين الزرعي: (٣)

فالحزنُ وقفٌ والدموعُ طليقة  
والوجدُ باقٍ والسرورُ مودعُ

وقول تاج الدين السبكي: (٤)

كالزهر في حسَبِ والزهر في نَسَبِ  
والنهر في حذبِ والدَّهر في رُتَبِ

أما التعدد، فهو "عبارة عن إيقاع منفرد على سياق واحد، فإن روعي في ذلك  
ازدواج، أو مطابقة، أو تجنيس، أو مقابلة، فذلك الغاية في حسن النسق (٥)، وكذلك لهذا  
الفن البديعي دور كبير في إبراز الموسيقى الداخلية في مرثي هذا العصر، وزاد من  
بروزها أن بعض الكلمات جاءت متفقة في وزنها، وحرفها الأخير، ويتجلى ذلك في قول  
برهان الدين القيراطي: (٦)

(١) الحلبي. الديوان، ص ٣٢٨.

(٢) ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٣٦.

(٣) ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٥٦٨/٢.

(٤) السبكي، طبقات الشافعية، ١١١/٩.

(٥) ابن حجة، خزنة الأدب، ٣١١/٢.

(٦) القيراطي، الديوان، ص ٥٨.

أبكيك للإسلام والأحكام والأ

وقول شهاب الدين الصفدي: (١)

تبكي عليك محافل وجحافل

ومنه قول شرف الدين بن سليمان الإربلي: (٢)

يا جامعاً شَمَل المكارم والعلی

والعلم والمعروف والإحسان

واستخدم الشعراء "لزوم ما لا يلزم" في مراثيهم، فساهم هذا الفن في توفير

الموسيقى الداخلية فيها، وقد دعا ابن الأثير إلى أن يكون هذا الفن عفويًا غير متكلف، "فإن

الألفاظ إذا صدرت فيها عن سهولة خاطر، وسلاسة طبع، وكانت غير مستجلبة، ولا

مكلفة، جاءت غير محتاجة إلى التآلف، ولا شك أن صورة الخلق غير صورة التخلق (٣)،

ومن ذلك ما جاء في القصيدة التي نظمها الشاعر أحد الشعراء في رثاء النووي، إذ التزم

فيها بحرف الواو قبل قافية القصيدة يقول (٤) :

ولو لم تكن جارَ الحمى ما شاقني

فلأبكيك بالدماء إذا قضى

ولو ارعويتُ شرحتُ رزئي إنما

بَرَقَ يضيء بِسَفْحِهِ وَيَلُوخُ

دمعي عليك صبابَةً وَأَنُوخُ

عندي لِمَخْتَصِرِ الخُطُوبِ شَرُوحُ

(١) الصفدي، أعيان العصر، ٤/١٨٧.

(٢) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٧.

(٣) ابن الأثير، المثل السائر، ١/٢٦٩.

(٤) ابن المطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٣٧.

## الصورة الشعرية

الصورة الشعرية هي المنبع الأساسي للشعر<sup>(١)</sup>، وهي " فكرة وشعور، ولغة، وموسيقى، وخيال"<sup>(٢)</sup>، تنقل إحساس الشاعر إلى المتلقي، فتثير انفعاله، وتؤثر في فكره ووجدانه، بحيث تجبره على الاستجابة العاطفية أو النفسية المطلوبة<sup>(٣)</sup>.

وقد أكثر شعراء الرثاء منها، واستعانوا بها في نقل أفكارهم وأحاسيسهم، واعتمدوا في صنعها على التشخيص والتجسيم والوصف، مستخدمين ضروب علم البيان من تشبيه واستعارة وكناية. وهذه الضروب كما يرى عبد القاهر الجرجاني "تكسب المعاني نبلاً وفضلاً، وتوجب لها شرفاً، وأن تفخمها في نفوس السامعين، وترفع أقدارها عند المخاطبين"<sup>(٤)</sup>، كما أنها تهدف إلى الإيضاح " إذ ترى الجماد ناطقاً، والأعجم فصيحاً، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جلية"<sup>(٥)</sup> وأتكاوا على الأساليب التصويرية عند أسلافهم، ولجأوا أحياناً إلى التوليد والابتكار أو إلى إلباس الصورة لباساً جديداً ضمن الإطار التصويري الموروث.

واستمدوا صورهم من مظاهر الطبيعة الصامته والمتحركة، وكان عالم الحيوان والطيور ميداناً رحباً استقوا منه صورهم الدالة على معانيهم، فقد صوروا المرثي بالأسد لشجاعته وقوة بأسه، ومن ذلك ما جاء في قول علاء الدين علي المعروف بابن قاضي اللاذقية في رثاء بيبرس:<sup>(٦)</sup>

مُحَمَّدٌ نَاصِرٌ لِلدِّينِ لَيْثٌ وَغَيٌّ مُمَكِّنٌ فِي الْعُلَا وَالْمَجْدِ حَامِينَا

ويقارن الصفدي بين مرثيه الأمير سيف الدين تنكز وبين أعدائه، فيصوره ليثاً في الشجاعة والإقدام، ويصورهم أنعاماً في جبنهم وفرارهم أمامه، يقول:<sup>(٧)</sup>

إِذَا قِيلَ هَذَا اللَّيْثُ وَاقِيَ مَضَوْا هَرَبًا كَأَمْثَالِ النَّعَامِ

(١) انظر سي دي لويس، الصورة الشعرية، ص ٢٠.

(٢) الأخضر عيكوس، مفهوم الصورة الشعرية قديماً، ص ١٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ٨٠، وانظر ص ٦٨.

(٤) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ١٠٩.

(٥) الجرجاني، أسرار البلاغة، ص ٣٣.

(٦) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٥.

(٧) الصفدي، الوافي، ٤٣٥/١٠، أعيان العصر، ١٣٧/٢.

وشبه الشعراء أعداء المسلمين من مغول وصلبيين وقادتهم بالكلاب لختهم ودنائهم<sup>(١)</sup>، واعتمدوا على صور الحيوان حين رثوا الاسكندرية، وتحدثوا عن عدد الصليبيين وعدتهم، فشبها خيولهم الضخمة بالأنعام<sup>(٢)</sup>، وسفنهم المتحركة في الماء بالأفاعي الملتوية<sup>(٣)</sup>، كما صوروا جيشهم القادم إلى تلك المدينة بالجراد المنتشر في الحصيد، ويتجلى ذلك في قول النستراوي: (٤)

ولقد كانوا غداةً دخَلوا كجرادٍ في حصيدٍ مُنتشر

ويصور الصفدي البشر في الحياة الدنيا وغفلتهم عن الموت كالذود في المرعى غافلة عن جزاريها، يقول: (٥)

والموتُ يقطنُ لهذا الوَرَى وكأننا في غفلةِ النَّائمِ  
كالذودِ في المرعى به غفلةً عن مُتقى جزاره الغاشمِ

وصور الشاعر ذاته شوقه لمرثيه بشوق الطائر إلى الماء بعد عطش كثير، يقول: (٦)

وكُنْتُ في شوقِ كطيرٍ قد انـ قَضَ إلى منْهَلِهِ حاتمِ

وصور أبو العباس أحمد الضرير الواسطي حالة حزنه عقب مرثيته بالطائر الواقع في الشرك لا يستطيع الخلاص منه، فقال: (٧)

أصْبَحْتُ مِنْ بَعْدِهِ كَالطَّيْرِ تَلْتَمِسُ النـ نهوضِ أُنَى وقد هيضَ الجناحانِ

واستوحى الشعراء صورة الحمامة الباكية على إلفها، وذلك حين قرنوا حزنهم وشجوهم بحزنها وشجوها، ومن ذلك قول محمد بن سليمان الجعبري: (٨)

(١) انظر النويري، الإمام ٢/ ٢١٧، ٣/ ٢١٩، ٤/ ١٧٢، ابن نغري بردي، النجوم الزاهرة، ٨/ ١٠٢.

(٢) انظر النويري، الإمام، ٢/ ٢١٤.

(٣) انظر ص ٢٠٠ من هذا الكتاب.

(٤) النويري، الإمام، ٤/ ١٧٤.

(٥) الصفدي، أعيان مصر، ٤/ ٢٨٠.

(٦) المصدر نفسه، ٤/ ٢٨٢.

(٧) ابن العطار، ترجمة الإمام النويري، ص ٤٣.

(٨) ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٢/ ٢٢٥.

فدموعي مثل الغمام انسجاماً ونواحي في الليل مثل القماري

واعتمد الشعراء بصورة جلية على مظاهر الطبيعة الصامتة في تشكيل صورهم، فقد صوروا المرثي بحراً في جوده، وعلمه، وفضله، ويتجلى ذلك في قول ابن فضل الله العمري: (١)

بَحْرٌ مِنَ الْعِلْمِ لَا تَرْقَى لَهُ قِنَنٌ فَغَاضَتْ الْأَبْحُرُ الْعُظْمَى وَمَا شَعَرُوا

وقول نجم الدين بن صصري : (٢)

لَقَدْ كَانَ بَحْرًا لِلْفَضَائِلِ طَامِيًا غَزِيرَ غُيَابٍ مَالَهُ مِنْ سَوَاحِلِ

واستوحى الشعراء صورة البحر حين صوروا جيوش المسلمين وأعدائهم، ومن ذلك قول أبي الحسين الجزار في رثاء بيبرس: (٣)

أَتَاهَا وَقَدْ جَاسَ الْعَدُوُّ خِلَالَهَا بِجَيْشٍ يَحَاكِي جَمْعُهُ الْبَحْرَ مُزْبِدا

ويصور النستراوي جيش المسلمين القادم لنجدة أهل الإسكندرية بالمطر، وفي ذلك دلالة على الخير العميم الذي سيحل على أهلها بقدمه، يقول : (٤)

لَمْ يَكُنْ إِلَّا قَلِيلًا وَصَلُوا بِجِيُوشٍ لَيْسَ تُحْصَى كَالْمَطَرِ

وصور الشعراء دموعهم الغزيرة بالنيل والغمام، ويتضح ذلك في قول ابن نباته: (٥)

بَكَرَتْ عَلَى مَثْوَاكَ أَدْمُعُ نَائِحٍ كَالنَّيْلِ ذَاتَ وَفَاءٍ وَذَاتَ مَنَادِي

وقول شافع بن علي الكاتب : (٦)

وَأَضْرَمْتَ فِي الْحَشَا نَارًا تَوَقَّدَ مَعَ فَيْضِ الْمَدَامِعِ مِثْلَ الْعَارِضِ الْهَطْلِ

(١) القريري، المغنى، ١/ ٤٧٦، الكرمني، الكواكب السرية، ص ١٨٤.

(٢) ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ١، ٣٤.

(٣) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٣.

(٤) النويري، الإلام، ٤/ ١٧٦.

(٥) ابن نباته، الديوان، ص ١٦٠.

(٦) شافع بن علي، حسن المناقب السرية، ص ١٤٢، الفضل المأثور، ص ١٧٧.

وصور الشعراء من يرثونهم بالغيث في الجود، والطود في الحلم، والنسيم  
والرياض الخضراء في الخلق والرقّة واللفظ، ويتجلى ذلك في قول مجد الدين أبي  
العباس البغدادي: (١)

كان كاللّيثِ في النّواب فتكاً كان كالغيثِ بالمواهبِ هام

وقول ابن نباته: (٢)

وطودُ حلمٍ من بعد ما زحمت وكراً السّماءِ ونسريها معاليكا

وقول الصفدي: (٣)

وأطف كالنّسيم أتى رياضاً فهبّ على أزهارها شمالاً

وقول شهاب الدين محمود الحلبي: (٤)

وخلائق كالروض تَبَجُّه الحيا أصلاً فوشى حلتيه ووشعا

واستعار الشعراء صورة الثريا، والزهرة، والنجم، والشمس، والقمر، والهلال،  
حين صوروا حسن المرثي وجماله (٥)، والأمثلة على ذلك كثيرة ومنها ما جاء في قول  
برهان الدين القيراطي: (٦)

لهفي على ذلك الهلال الذي شقّت له السّحبُ ثيابَ الدّجونِ

وقوله في رثاء ابنه عبد الرحيم: (٧)

(١) الكرمي، الكواكب الدرية، ص ١٩٥.

(٢) ابن نباته، الديوان، ص ٣٦٨.

(٣) الصفدي، أعيان مصر، ١ / ١٣٠.

(٤) المصدر نفسه، ١ / ٢٢٣.

(٥) انظر العزازي، الديوان، ص ٩٢، ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٤٣، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢ / ٣١٩، ص ٢٠٣، ص ٣٩٨، ابن

حبيب، درة الأسلاك، ١ / ١٨٢، الحلبي، الديوان، ص ٣٢١، ابن نباته، الديوان، ص ٧٣، ٥١٦، القيراطي، الديوان، ص ٤٠.

(٦) القيراطي، الديوان، ص ٢٠ - ٢١.

(٧) ابن نباته، الديوان، ص ٥١٨.

بالرغم إن بات بدرُ الأفق مُعْتلياً وبات بدري مدفوناً على الطّرقِ

وشخص الشعراء مظاهر الطبيعة، فصوروها حزينّة على مرثيهم، تذرف  
الدموع الغزيرة وتلطم الخدود، وترتدي ملابس الحداد، ويتجلى ذلك في قول الصفدي: (١)  
بكى الغمامُ بدمعِ الوُدِّ مُذْ عَقَدْتُ حَمَائِمُ البانِ من شجوي مناحاتِ  
ولطمَ الرّعدُ خدَّ السّحبِ وانتشرتْ ذوائبُ البرقِ حُمْراً في الدّجَناتِ

وكان للواقع الحربي الذي عاشه المسلمون في ذلك العصر أثر كبير في الصورة  
الشعرية، فقد صور الشعراء العلماء بالسيف المسلط على رقاب الأعداء، وصوروا  
أقلامهم في مضائنها بالرماح يوم النزال، ويتجلى ذلك في قول برهان الدين القيراطي: (٢)  
فردّ مَضَى في ذوي الأهواءِ مَنْطِقَهُ يوم الجِدالِ كسيفِ الصّيقِلِ الفَرْدِ

وقول ابن نباته: (٣)

أين ملكُ الأقلامِ يوم انتصارِ كعوالي الرّماحِ يوم النّزالِ

وصور الشعراء أدوات الحرب والقتال باكية حزينّة، وبرز ذلك في مرثي أرباب  
الدول، فالشاعر كمال الدين بن العطار يصور القسي والسيوف قد انحنت عقب موت  
الظاهر بيبرس، ويجعل من موتها أنيناً وتوجعاً، فيقول: (٤)

بَكَتِ القسيُّ لِفَقْدِهِ حتّى انثنتْ ولها عليه من الرّنينِ توجّع  
ولحزنها بيضُ الصّفاحِ قد انحنتْ وتبيتُ في أعماها تتستّرُ  
واستمد الشعراء صورهم من الواقع ومظاهره الاجتماعية والحضارية، فالشاعر  
ابن الوردي يصور مرثيه تاجاً مرصعاً بالعلوم، فيقول: (٥)

(١) الصفدي، الوان، ١٢ / ٢٦٢.

(٢) القيراطي، الديوان، ص ٣٢.

(٣) ابن نباته، الديوان، ص ٤٠٦.

(٤) الصفدي، الوان، ١٧١/٨ - ١٧٢، المعري، مسائل الأبطال، ج ١، ق ٩٤ - ٩٥.

(٥) ابن الوردي، الديوان، ص ٤٢٩.



لهفي عليه وليس لهفي نافعاً قد كان تاجاً بالعلوم يُرصَعُ

وصور شمس الدين بن دانيال الصوت الصادر عن أحجار النرد بصوت العود والدف  
والزمر، فقال: (١)

إذا لثمتُ ثغراً هناك بدا لها طنينٌ كصوتِ العودِ والدفِّ والزمرِ

ويصور الشعراء شعرهم ودموعهم بالدر لنفاستها، كما استوحوا صورة الدر  
واللؤلؤ حين صوروا كلام المرثي وحلاوته في النفوس، ومن ذلك ما جاء في قول برهان  
الدين القيراطي: (٢)

سأرثيه بالدرِّ النَّظِيمِ وَمَقْلَتِي تزينُهُ من درِّ المدامعِ بالثَّرِ

وقول أحد الشعراء: (٣)

وَكَمْ شَنَّفَ الأَسْمَاعَ درّاً ولؤلؤاً إذا ما شجى في مجلسٍ منه منطوقُ

وصور الشعراء المدارس والمساجد محترقة باكية تعمرها الوحشة والكآبة، وبرز  
ذلك في مرثي العلماء، ومنه قول علاء الدين الوداعي: (٤)

إِنَّ المَدَارِسَ وَحَشَّةً لِفراقِهِ أَضْحَتْ دَوَارِسَ لا تبين دثوراً  
وكذا المساجدُ بالمصابيحِ انثتتْ تُبدي عليه حُرْقَةً وزفيراً

وصور الشعراء الرسائل والكتب التي كتبها مرثيوهم من العلماء والأدباء وما  
عليها من خطوط جميلة بالبرد المطرز بأنواع الرسوم، وبالعروس المتحلية بأنواع الزينة،  
ويتجلى ذلك في قول الصفدي: (٥)

كَمْ من كتابٍ سارَ عَنْكَ كأنه بردٌ أجادَ طرازه الرِّقَامُ

(١) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ٢٢٣.

(٢) القيراطي، الديوان، ص ٥٠.

(٣) ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٢٦.

(٤) ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٤٠.

(٥) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٥٥/٣.

وقول برهان الدين القيراطي : (١)

خَلَّفَتْ فِينَا تَصَانِيفَ مَحَبَّرَةٍ مِثْلَ الْعُرُوسِ عَلَيْهَا الْحَلِيَّ وَالْحَلْلُ

ويستوحى الصفدي صورة الحانة وما فيها من ماجنين ليشبه بها الرسائل الصادرة عن

مرثيه شهاب الدين بن فضل الله العمري، فيقول : (٢)

ورسالة أنشأتها هي حانة النـ نبتاذ حازت حاضرة الفكاه

وصور الشعراء العلوم وكتبها حزينة وكثيية، تذرّف الدموع الغزار، وبرز ذلك في مرثي

العلماء، ومن ذلك قول أحد الشعراء: (٣)

وارحمتا للعلوم بَعْدَ مَصْرَعِهِ فكم لها من كآباتٍ وأحزانٍ

وقول ابن نباتة : (٤)

تبكي عليك من العلوم صحائفٌ ومن الجيوش أسنةٌ ورماح

ويصور الصفدي الأيام امرأة جميلة ترتدي التاج على رأسها، والشنوف في

آذانها، والطوق في جديها فيقول : (٥)

وزان أيامه من بعدما عطلت بـ جوهر تذهي منه بتضيد

فالتاج في رأسها راقّت جواهره والشف في آذانها والطوق في الجيد

ويصور الشاعر ذاته الشعر الذي كان ينظمه مرثيه محمد بن سيد الناس في

نفوس متلقية بالسحر والخمر الذي يدخل النشوة في نفوس شاربيه، فيقول : (٦)

(١) القيراطي، الديوان، ص ٧٩.

(٢) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٣ / ١٢٧.

(٣) ابن المطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٤٣.

(٤) ابن نباتة، الديوان، ص ١١٣.

(٥) الصفدي، أعيان العصر، ٥ / ٤٢٢.

(٦) الصفدي، الرائي، ١ / ٣٠١.

ما كان ذلك الذي تلقاه ينظمه شعراً ولكنّه سخرّ يعانيه  
 يهزّ سامعه حتى يخيل لــــي كأس الحميا أدارتها قوافيه  
 وركز الشعراء في مراثيهم على تصوير الموت، فصوروه منهلاً يردّه الناس  
 كلهم، وكأساً دائراً عليهم، وسهماً مسدداً إليهم، له أيدٍ وعيون تتربص بهم، وأشراك  
 تصيدهم ويتجلى ذلك في قول الصفدي: (١)

إِنْ كُنْتُ جُرُغْتَ كَأْسَ الْمَوْتِ وَاحِدَةً      فِي كُلِّ يَوْمٍ أذُوقُ الْمَوْتَ أَلْوَاناً  
 وقول شهاب الدين محمود: (٢)

ومنهل ما لحيّ في الوري صــــدرٌ      إلا عن الرّي في أثناء مــــورده  
 وقوله: (٣)

أترى ترى صرف الردى لــــما رمى      أن المصائب بســــهمه الإسلام  
 ســــهم تقصــــد واحداً فغدا وفي      كلّ القلوب لوقعه الآم  
 ما خلت أن يد المنون لها عــــلى      شمس المعارف والهدى إقــــدام  
 وقال أحد الشعراء: (٤)

إن كان قد علقته أشراك الــــردى      من بعد علم نافذ الأحــــام  
 وصور يوسف بن أحمد السملوطي الموت حيواناً له كاكل ومخالب تعلق بأرواح  
 البشر، فقال: (٥)

فحــــط عمداً علينا الموت كلكــــة      فصير الشمل منا غير ملتئم  
 رمى مخالبيــــة ما بيننا علقــــت      بواحد هو بالباقيــــن كلهم  
 وصور الشعراء الدهر ذا ناب وأيد تهدم ما بنى الخلق في دنياهم، ومن ذلك ما  
 جاء في قول الصفدي: (٦)

وكيف ينبههم خطب مــــم      وناب الدهر فيهم غير نــــام  
 وقول أبي الحسين الجزار: (٧)

(١) الإيشي، المستطرف، ٢٤٥/٣.

(٢) الصفدي، أعيان العصر، ١٨٩/٥.

(٣) الصفدي، أعيان العصر، ٢٤٢/١٨، ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، ٢٤٢/٤.

(٤) ابن المطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٤٥.

(٥) الأذفوي، الطالع السعيد، ص ٧١٨.

(٦) الصفدي، أعيان العصر، ١٣٦/٢.

(٧) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٢.

وما زال هذا الدهرُ يهدمُ ما بنى وَيَخْلِقُ ما قد كان بالأمسِ جدًّا

واعتمد الشعراء على الكناية في تشكيل صورهم، وقد "تفطن النقاد والبلاغيون إلى أهميتها الفنية المتمثلة في قدرتها على السمو بالمعنى والارتفاع بالشعور إلى مستوى من التصوير الإيحائي الشفاف الذي لا يثير المخيلة فحسب، بل ينفذ إلى الذهن عن طريق الحس، فيصنمه أولاً بالمعطى الحسي، ثم يفجؤه بعد ذلك بما يخفيه هذا المعطى عن طريق الحس، وفكره، وشعوره، بوساطة الإيماء السريعة أو اللحة الخاطفة التي يتلقفها العقل لاتذاً ببهجة الاكتشاف ومسيرة المفاجأة"<sup>(١)</sup>.

ولم تبرز الكناية بصورة جلية في مرثي هذا العصر قياساً بالضروب البيانية الأخرى، فقد رمز الشعراء للخارجين عن الدين بأهل الزين والضلال، ورمزوا للمغول والصليبيين بالشرك والكفر، ورمزوا للصليبيين ببني الأصفر، كما يبدو في قول أبي عبد الله محمد بن طاهر الإخميمي:<sup>(٢)</sup>

وبنو الأصفر في ثغر الهدى جَعَلَتْ أَسْيَافُهُمْ مِنْهُ ثَغْرَ

وأكثر الشعراء من الكنايات حين تحدثوا عن المرأة المرثية، والنساء اللواتي سباهن الأعداء، ووصفوا عفتن وطهارتهن<sup>(٣)</sup>، ومن ذلك قول برهان الدين القيراطي في رثاء زوجة القاضي تقي الدين ناظر الجيش:<sup>(٤)</sup>

إِنْ غَيَّبَتْ فِي ثَرَى اللَّحُودِ فِكْمَ قَدْ حَجَّبَتْهَا السَّتُورُ وَالسَّجْفُ

وجاءت الكناية حين تحدث الشعراء عن الحزن على المرثي، فكنوا عن ذلك بشقّ الجيوب، وتمزيق القمصان، كما يبدو في قول ابن نباتة:<sup>(٥)</sup>

عَلَيْكَ ابْنَ فَضْلِ اللَّهِ شَقَّتْ جِيوبَهَا فَضَائِلُ فِي طَيِّ الْبِلَادِ لَهَا نَشْرُ

(١) الأخصر عيكوس، مفهوم الصورة الشعرية قديماً، ص ٨٩.

(٢) النوي، الإلام، ٣/ ٢٢٣.

(٣) انظر رائد عبد الرحيم، صورة المغول، ٢٢١.

(٤) القيراطي، الديوان، ص ٤٠.

(٥) ابن نباتة، الديوان، ص ٢٢٢.

ومن الكناية قول أبي عبد الله محمد بن الحسن الشاطبي: (١)  
عَضَضْتُ بِنَانِي عِنْدَ ذَا مَنْ تَأَسَّفِي وَأَسْقَطْتُ حَزْنَآ فِي التَّرَابِ جَبِينِي

فهو يكنى عن الندم بعبارة "عضضت بناني".

وتميزت صور الشعراء بشكل عام بعدد من المميزات، ومنها غزارة الصورة الشعرية، وبدل ذلك على عنايتهم بها، واعتمادهم عليها في نقل أفكارهم وأحاسيسهم، وتبهم لقيمتها في العمل الشعري، وفي جذب انتباه المتلقين وجاءت هذه الغزارة في البيت الواحد تارة، وفي مجموعة من الأبيات تارة أخرى (٢).

وحرص الشعراء على استخدام عنصر اللون في تشكيل صورهم الشعرية، فقد اختاروا اللون الأحمر حين صوروا الدموع الممتزجة بالدماء، ويتجلى ذلك في قول أحد الشعراء: (٣)

قَد سَالَ بَحْرُ دِمَاءٍ مِنْ لَوَاحِظِهِمْ مُذْ قَامَ مَكْتَبًا يَرِثِيكَ عُثْمَانُ

وقول برهان الدين القيراطي: (٤)

صَعَدَتْ أَنْفَاسِي فَعَادَ لِحِينَهَا بَعْدَ الْبِيضِ بِصَبْغَةِ الْعَقِيَانِ

واستخدموا اللون الأحمر للدلالة على شدة القتل الذي نزل بأعداء المسلمين على أيدي المرتين من أرباب الدول، ومن ذلك ما جاء في قول مجد الدين بن الظهير الإبلي في رثاء ببيرس: (٥)

مَنْ لِلسَّوَابِحِ وَالْبِحَارِ دِمَ الطُّلَى وَالشَّهْبُ تَظْهَرُ فِي الْعِجَاجِ وَتَخْتَفِي  
مَسْتَوْرَةً بِدَمِ النَّحُورِ حِجُولُهَا وَالْبِيضُ تَحْزُرُ وَالغَوَافِي تَخْتَفِي

(١) النويري، الإلمام، ٣ / ٢٢١.

(٢) انظر ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٣٥، ٤٨، ٥١، الحرازي، الديوان، ص ٢٤، الصفدي، الوان، ٥ / ٢٨١، ١٧ / ٣٥٣، أعيان العصر، ٥ / ٣٢٨، الكشي، فوات الوفيات، ٢ / ٢٠٧، السيوطي، حسن المحاضرة، ١ / ٢٣٨، الكرمي، الكواكب الدرية، ص ٢٠٧، ٢٠٨.

(٣) ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٥٧.

(٤) القيراطي، الديوان، ص ٥٨.

(٥) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٦٣.

فهو يستخدم مجموعة من الألفاظ الدالة على ألوان مختلفة وهي "دم" ، و " الشهب" ، و"العجاج" ، و"البيض" .

وبرز عنصر اللون في قول تقي الدين بن شبيب الحراني: (١)

" بدور" تمّ لهم من " بيضهم" " شهب" أسودُ حربٍ لهم من " سُمُرهم" أجَمُ

وبرز اللون الأسود، والألفاظ الدالة عليه بصورة جلية في مرثي هذا العصر، وهو لون استخدمه العرب للدلالة على الحزن و" الظلام، والظلم، واليأس (٢)، أما شعراء المرثي، فقد عبروا به عن أيامهم، ولياليهم، وديانهم، ويأسهم بعد المرثي، كما عبروا عن حزن مظاهر الطبيعة والكون، والتغير الذي طرأ عليها، ولذا أكثرُوا من ترداد ألفاظ " دوامس"، و"الظلام"، و"حداد"، و"وحشة"، و" الليل" ، ويتجلى ذلك في قول الأديب الأمين سلطان: (٣)

قد أظلمَ الأفقُ المنيرُ لفقْدِ مَنْ حازَ الفضائلَ كلّها وحواهَا  
أضحى على الأقطارِ منه وَحْشَةً حتّى تشابهه صبغُهَا بِمَسَاهَا

وقول عفيف الدين التلمساني: (٤)

وكانت لياليه كأيامه سَنًا فَأَيَّامُنَا مِثْلَ اللَّيَالِي دَوَامَسُ

ومن الصور التي غلب عليها اللون الأسود ما جاء في قول مجد الدين بن الظهير الإربلي: (٥)

في ليلة غارت عيون نجومها أسقاً وهل عذراً لمن لم يأسفِ  
لَيْسَتْ عليه حدادها ويكتُ أسىً ويمن بكاه من الورى لم تكفِي

(١) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٦ .

(٢) د. يوسف نوفل، الصورة الشعرية واستحياء الألوان، ص ٢٨ .

(٣) ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٥٢ .

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٤ .

(٥) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٦٠ .

واستعان الشعراء بالألفاظ الدالة على الحركة والصوت في تشكيل صورهم، وبرز ذلك في مراثي أرباب الدول حين وصفوا المشاهد الحربية، وما يتخللها من كرفر، وفاق للهامات، وقعقة للسيوف، وحركة للقسى والرماح، وكذلك حين صوروا الأرض وميدها، ومظاهر الطبيعة، والكون وهي تتوح وتبكي، وتمزق الشعور، وتلطم الخدود، ويتجلى ذلك في قول محيي الدين بن عبد الظاهر: (١)

ما للجِـيادِ كَثِيبَةٌ مَحزُونَةٌ أَفذا الحَـنِينُ أُنِينُها إِذ تَصْهَلُ؟  
 ما للقسى تَنْنَ أَنَةٌ فَاقِدِ إِبنِ القسَى لَفِيهَ أَيضاً تَكَلُّ  
 ما للسيوفِ قَدِ انْحَنَتْ أَتَرى دَرَتْ أَنْ المَنُونِ لِحَدِّها سَتَقُلُّ

فهو يكثر من استخدام ألفاظ الصوت والحركة، " الحنين"، و"الأنين"، و"تصهل"، و"انحنت".

وتبرز الألفاظ الدالة على الحركة والصوت في قول مجد الدين الإربلي: (٢)

أسرى على الأعداءِ من طيفِ على أمدِ يشقُّ على البريدِ الموجفِ  
 بأجادلِ يختالُ فوقِ أجادلِ تروي النجاءِ على البروقِ الخطفِ  
 وبكلِ أجدلِ يستشيطُ إلى الوغى في ظهرِ أجردِ بالسنانِ مشنّفِ  
 كم جرّ أرعنَ كالجبالِ وكم جرى طلقَ العنانِ وكم له من موقِفِ  
 كم صبحَ الأعداءِ في رهجِ الوغى بمنيرِ وجِهٍ في الصباحِ يوسفي  
 كم شامِ في قممِ العلوجِ صوارماً لسوى النفوسِ بروقها لم تخطفِ

ومن مميزات صورهم الواقعية، وبرزت هذه السمة جلية في مراثي هذا العصر، ويمكن التمثيل على ذلك بقول النويري في رثاء الإسكندرية، مصوراً هربه وعودته إلى بلده نويرة: (٣)

كُنْتُ فيهمِ بعيلتي وبقلبي حرّ نارِ الجوى كوخزِ السهامِ  
 لأثاثِ تركتُهُ معِ كُتُبِ نَسَخَتها أناملِي بالذوامِ

(١) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦٠.

(٣) النويري، الإلام، ٢/ ٢١٦ - ٢١٧.

وَتَذَكَرْتُ مَا جَرَى لِأَنْبَاسٍ فَكَخَلِّمْ رَأْيْتَهُ فِي مَنْبَاسٍ  
فَحَمَدْتُ الْإِلَهَ رَبِّي طَوِيلًا وَتَوَجَّهْتُ بِالْعِيَالِ أَمَامِي  
قَاصِدًا نَحْوَ بِلَدْتِي وَمَقَامِي مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ وَالْأَيَّامِ

وقدم الشعراء لوحات متضامة الأجزاء في مراثيهم، الأمر الذي جعل انتزاع التشبيه أو المجاز، أو الكناية منها أمراً صعباً يخل بها، فتغدو مثل جسم الإنسان حين يفقد أحد أعضائه، ويتجلى ذلك في مراثي أرباب الدول حين صور الشعراء حروبهم مع أعداء المسلمين من مغول وصليبيين<sup>(١)</sup>، وبرزت اللوحات المتضامة حين صوروا أحزانهم، وحياتهم عقب المرثي.

ورسم الشعراء صوراً لعالم الغيب والخوارق، فالشاعر زين الدين بن الوردى يصور خوف إبليس من مرثيه ابن تيمية: (٢)

وَكَانَ يَخَافُ إِبْلِيسَ سَطَاهُ      بوعظٍ للقلوبِ هو السَّيَاطُ

وصور الجندي المصري محمد بن أند المغيبي مؤمني الجنّ يبكون ابن تيمية، فقال: (٣)

وَلْمُؤْمِنِي الْجَنِّ حَزَنٌ شَامِلٌ      وَنِيَاحَةٌ نَطَقَتْ بِهَا الْأَحْلَامُ

وصور الصفدي ملائكة العرش وهي تبكي محمد بن سيد الناس، فقال: (٤)

يَا رَاحِلًا فَوْقَ أَعْنَاقِ الرِّجَالِ وَأَجْمًا      فَاغْنُ الْمَلَائِكَةَ تَحْتَ الْعَرْشِ تَبْكِيهِ

ومن الخصائص التي تميزت بها الصورة الشعرية التشابه، وظهر ذلك حين صور الشعراء حزنهم ودموعهم، وأرقهم، وحياة الجحيم التي يعيشونها، وحين شخصوا مظاهر الطبيعة والكون، وصوروا حزنها، وتغيرها، وتعطلها، وتشابهت الصور التي أشادوا فيها بالمرثي، ووصفوا جوده، وحلمه، وزهده، وتقواه، وشجاعته، وغير ذلك، وتشابهت صورهم حيث رثوا المرأة، ووصفوا جمالها، وشبهوها بالشمس، والطبي، والبدر، وحين تحدثوا عن عفتها واحتجابها، كما قدم الشعراء صوراً متشابهة للقبر، والمصير الذي آل إليه المرثيون، وكذلك حين تحدثوا عن الموت، وقوته، وحتميته، وحين هاجموا الدهر، والدنيا، والزمان، والليالي، ووسموها بالغدور والخيانة.

(١) انظر، ص ٧٦-٧٧ من هذا الكتاب.

(٢) ابن الوردى، النيران، ص ٢٦٦.

(٣) الكرمي، الكواكب المرئية، ص ٢٠٨.

(٤) الصفدي، الوافي، ١/ ٣٠٠.



حاول هذا البحث إعطاء صورة عن فن الرثاء في الشعر العربي في العصر المملوكي الأول، وتبين منه:

أولاً: أن الشعراء نظموا في ألوان الرثاء المختلفة، فقد قالوا في رثاء النفس والأهل والأقارب، وأرباب الدول، والعلماء والأدباء، والمرأة، والمدن التي سقطت بيد المغول والصليبيين، كما رثوا اللهو والمجون، وبعض المظاهر الحضارية. وهذه الألوان تقليدية لا جديد فيها سوى رثاء السهم، والنرد، واللهو والمجون.

ثانياً: أن شعراء هذا العصر توسعوا أكثر من سابقهم من الشعراء في القول في بعض ألوان الرثاء، منها العلماء والأدباء، وأرباب الدول، وهجاء الموتى منهم، وقلت الأشعار التي نظمت في ألوان أخرى من الرثاء مثل رثاء الآباء والأمهات.

ثالثاً: ظهر من البحث أن بعض الشعراء نظموا دواوين خاصة في الرثاء، ومنهم صلاح الدين الصفدي. ونظمت دواوين شعرية في رثاء سلطان كالظاهر بيبرس، أو عالم كمحيي الدين النووي، وتقي الدين بن تيمية.

وأفرد بعض الشعراء أبواباً خاصة في دواوينهم لذلك الغرض الشعري، مثل: صفي الدين الحلي. وشكل الرثاء عند بعضهم الآخر جزءاً كبيراً من دواوينهم أمثال: جمال الدين بن نباتة، وبرهان الدين القيراطي.

رابعاً: يتبين من مرثي هذا العصر أن أغلب المعاني والأساليب التي جاء بها الشعراء تقليدية، لا جديد فيها إلا ما برز في مرثي اللهو والمجون والحيوان، ومرثي المدن. فقد اتخذ الشعراء من الحيوان المرثي رمزاً لنقد الحكام والمجتمع، وأوضاعهم الشخصية، وأكثروا في مرثي الإسكندرية من تصوير هزيمة الجيش الإسلامي، ووصف ما نزل به على أيدي الصليبيين، ودخلت مرثي بغداد والشام بعض الألفاظ المغولية. وهذه الأمور جميعها لا عهد لشعر الرثاء بها قبل هذا العصر.

## قائمة المصادر والمراجع

### المصادر المخطوطة:

- ابن حبيب، بدر الدين بن عمر الحلبي، ت ٧٧٩هـ، درة الأسلاك في دولة الأتراك، الجزء الأول والثالث، مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، رقم ٥٣٩ و ٥١٤٦ (صورة بالميكروفيلم).
- العزازي، شهاب الدين بن عبد الملك أحمد بن عبد الملك، ت ٧١٠ هـ، ديوان شهاب الدين العزازي، نسخة مصورة عن مخطوطة دار الكتب القومية، مصر، رقم ٢٨٢.
- ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى، ت ٧٤٩هـ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجزء الثامن، القسم الأول، الجزء الحادي عشر، مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، رقم ١٥٢٩ (صورة بالميكروفيلم).
- القيراطي، أبو اسحق إبراهيم ابن عبد الله الطائي المصري، ت ٧٨١، الديوان، مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، رقم ٧٨٤ (صورة بالميكروفيلم).
- الكاني، محمد بن مصطفى بن جعفر، بغية خاطر ونزهة الناظر، مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، رقم ١٣ (صورة بالميكروفيلم).
- الكتبي، محمد بن شاكر، ت ٧٦٤ هـ، عيون التواريخ، الجزء التاسع عشر، مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، رقم ٤٢٥٧ (صورة بالميكروفيلم).

## المصادر المطبوعة:

- القرآن الكريم.
- الإبشيهي، بهاء الدين أبو الفتح محمد بن أحمد، ت ٨٥٤ هـ، المستطرف في كل فن مستظرف، ط١، ٣م، عني بتحقيقه: إبراهيم صالح، دار صادر، بيروت، ١٩٩٩م.
- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكريم الشيباني، ت ٦٣٠هـ، الكامل في التاريخ، ١٢م، دار صادر، ودار لبنان، بيروت، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.
- ابن الأثير الموصلي، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن عبد الكريم، ت ٦٣٧ هـ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ٢م، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥هـ.
- ابن الإخوة، ضياء الدين محمد بن أحمد القرشي، ت ٧٢٩هـ، كتاب معالم القرية في أحكام الحسبة، تحقيق: محمد محمود شعبان، صديق أحمد عيسى المطيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م.
- الأدفوي، كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب، ت ٧٤٨هـ، الطالع السعيد أسماء نجباء الصعيد، تحقيق: سعد محمد حسن، مراجعة: طاهر حاجري، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م.
- الإسنوي، جمال الدين أبو محمد عبد الرحيم، ت ٧٧٢ هـ، طبقات الشافعية، ط٢، ١م، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.
- الأشرف الغساني، عماد الدين أبو العباس إسماعيل بن العباس، ت ٨٠٣هـ، المسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، ٢م، تحقيق: شاكر محمود عبد المنعم، دار التراث الإسلامي، بيروت، ودار البيان، بغداد، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- ابن أبي الأصبح، أبو محمد زين الدين بن عبد العظيم، ت ٦٥٤ هـ، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٣هـ.

- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي، ت ٦٦٨ هـ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق : نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.
- امرؤ القيس، حندج بن حجر، ت ٨٠ ق. هـ، ديوان امرئ القيس، دار بيروت للطباعة والنشر، دار صادر للطباعة والنشر، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م.
- ابن إياس، محمد بن محمد الحنفي، ت ٩٣٠ هـ، بدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء الأول، القسم الأول، والقسم الثاني، حققها وكتب لها المقدمة: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- البدرى، أبو البقاء عبد الله بن محمد، ت ٨٩٤ هـ، نزهة الأنام في محاسن الشام، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤١ هـ.
- ابن بسام، أبو الحسن علي الشنتريني، ت ٥٤٢ هـ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٨ م، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٣٩٨هـ - ١٩٨٧م.
- ابن بسام المحتسب، محمد بن أحمد، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق وتعليق: حسام الدين السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨ م.
- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي، ت ٧٧٩هـ، رحلة ابن بطوطة، ٢م، دار المشرق العربي، بيروت.
- البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق، ت ٧٣٩ هـ، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط١، ٣م، تحقيق وتعليق: علي محمد البجاوي، دار الجليل، بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- بيبرس المنصوري، ركن الدين الخطائي، ت ٧٢٥ هـ، التحفة الملوكية في الدولة التركية، ط١، نشره وقدم له ووضع الفهارس: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- نفسه، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق : دونالد س. ريتشاردز، ط١، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

- نفسه، مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، ط١، حققه وقدم له ووضع فهرسه: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي، ت ٨٧٤ هـ، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، الجزء الثاني إلى السابع، محققون مختلفون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- نفسه، النجوم الزاهرة في محاسن مصر والقاهرة، ط١، ١٦م، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م.
- أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، ت ٢٣١هـ، شرح ديوان أبي تمام، ٤م، شرحه: الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م.
- ابن تيمية، شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم، ت ٧٢٨هـ، مجموعة فتاوي ابن تيمية، دار المنار، القاهرة، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو محمد بن بحر، ت ٢٥٥، البيان والتبيين، ٤م، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ - ١٩٩٣م.
- الجرجاني، عبد القاهر أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد، ت ٤٧١هـ، أسرار البلاغة في علم البيان، صححها وعلق حواشيه: السيد محمد رشيد رضا، دار المطبوعات العربية.
- نفسه، دلائل الإعجاز، ط ٢، حققه وقدم له: د. محمد رضوان الداية، د. فايز الداية، مكتبة سعد الدين، دمشق، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- الجرجاني، علي بن عبد العزيز، ت ٣٩٢هـ، الوساطة بين المتنبّي وخصومه، ط ١، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد الجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٤٥م.
- جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي، ت ٧٢٨م، ديوان جرير، بشرح: محمد بن حبيب، ٢م، تحقيق: د. نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، مصر.

- ابن الجزري، شمس الدين أبو عبد الله القرشي، ت ٧٣٨هـ، تاريخ ابن الجزري، تحقيق : د. عمر عبد السلام تدمري، ط١، ٣م، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي القرشي البغدادي، ت ٥٩٧هـ ، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد، ضبطه وشرحه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤م.
- ابن حبيب ، بدر الدين بن عمر الحلبي، ت ٧٧٩ هـ، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، الجزء الأول - الجزء الثالث، حققه ووضع حواشيه: محمد أمين، مطبعة دار الكتب، القاهرة.
- ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن محمد، ت ٨٣٧ هـ، ثمرات الأوراق، تحقيق وتعليق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، لبنان.
- نفسه، خزانة الأدب وغاية الأرب، ط٢، ٢م، شرح: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ١٩٩١م.
- نفسه، كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام، المطبعة الأنسية، بيروت، ١٣١٢هـ - ١٨٩٤م.
- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي، ت ٨٥٢هـ، أنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، ط٣، ٩م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- نفسه، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٥م، حققه وقدم له ووضع فهرسه: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٦م.
- نفسه، رفع الإصر عن قضاة مصر، ط١، تحقيق : د. علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- ابن أبي حجلة التلمساني ، ت ٧٧٦هـ، سلوة الحزين في موت البنين، تحقيق وتقديم: د. مخيمر صالح، دار الفيحاء، عمان، الأردن.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، ت ٤٥٦هـ، جمهرة أنساب العرب، محقق ومعلق: ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٨م.

- حسان بن ثابت الأنصاري،، ت ٥٤هـ، شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، ضبط الديوان وصححه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٠م.
- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد، ت ٢٤١هـ، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ط١، حققه وضبط نصه: السيد أبو المعاطي النوري، أيمن إبراهيم الزامل، أحمد عبد الرزاق عيد، إبراهيم محمد النوري، محمد مهدي المسلمي، محمد محمود خليل، عالم الكتب بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ابن خلدون، عبد الله بن محمد، ت ٨٠٨هـ، مقدمة ابن خلدون، مهّد لها ونشر الفصول وال فقرات الناقصة من طباعتها وحقّقها، وضبط كلماتها، وشرحها، وعلّق عليها، وعمل فهرسها: د. علي عبد الواحد وافي، ط٣، ٣م، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، ت ٦٨١هـ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨م، حققه، د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.
- ابن دانيال، شمس الدين محمد الموصلّي الكحال، ت ٧١٠، أو ٧١١هـ، المختار من شعر ابن دانيال، اختيار: صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي، حققه وعلّق عليه واستدرك: محمد نايف الدليمي، مكتبة بسام، الموصل، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيّدمر العلّائي، ت ٨٠٩هـ، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، تحقيق: سمير طيارة، ط١، المكتبة العربية، صيدا، ١٩٩٩م.
- الدواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أبيك: كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السابع، وهو الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، مصادر تأريخ مصر الإسلامية، يصدرها قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار، القاهرة، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.
- كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الثامن وهو الدرّة الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق: أولرخ هارمان، مصادر تأريخ مصر الإسلامية يصدرها قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار، القاهرة، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

- كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء التاسع، وهو الدرر الفاخر في سيرة الملك  
الناصر، تحقيق: هاني روبرت رويمر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، ت ٧٤٨هـ، تاريخ الإسلام ووفيات  
المشاهير والأعلام، حوادث ووفيات، ٦١١ - ٦٢٠ هـ، تحقيق، د. عبد السلام  
تدمري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، تاريخ  
الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، حوادث ووفيات، ٦٥١ - ٦٨٠هـ، تحقيق :  
د. عبد السلام تدمري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ -  
١٩٩٩م.
- نفسه، دول الإسلام، ط٢، ٢م، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن،  
الهند، ١٣٦٤هـ.
- نفسه، العبر في خبر من غير، ٣م، حققه: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني  
زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت.
- نفسه، ذيول العبر في خبر من غير، ٣م، حققه: أبو هاجر محمد السعيد بن  
بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، ت ٦٦٦هـ، مختار الصحاح،  
مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٦م.
- ابن رجب الحنبلي، زين الدين أبو الفرج البغدادي ثم الدمشقي، ت ٧٩٥هـ -  
الذيل على طبقات الحنابلة، ٤م، دار المعرفة، بيروت.
- ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني الأزدي، ت ٤٥٦هـ، العمدة في محاسن  
الشعر وآدابه ونقده، ط٥، ٢م، حققه وفصله وعلق حواشيه: محمد محيي الدين  
عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- نفسه، قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، تحقيق: الشاذلي بويحيى، الشركة  
التونسية للتوزيع، ١٩٧٣م.
- الزبيدي، محب الدين أبو الفضل محمد مرتضى الحسيني، ت ١٢١٣هـ - تاج  
العروس من جواهر القاموس، ١٠م، دار ليبيا للنشر، بنغازي، ١٣٨٦هـ -  
١٩٦٦م.



- الزوزني، أبو عبد الله الحسين بن أحمد، شرح المعلقات السبع، دار الجيل، بيروت، لبنان.
- ابن زيدون، أبو الوليد أحمد بن عبد الله، ت ٤٣٦هـ —، ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق: علي عبد العظيم، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة.
- ابن سباط الغربي، حمزة بن أحمد، ت ٩٢٦هـ — صدق الأخبار تاريخ ابن سباط، حققه: عمر عبد السلام تدمري، ٢م، جروس برس، طرابلس، لبنان، ١٩٩٣م.
- سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي، ت ٦٥٤هـ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ط١، القسم الثاني من الجزء الثامن، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٧٣هـ — - ١٩٥٢م.
- سبط بن العجمي الحلبي، ت ٨٨٤هـ، كنوز الذهب في تاريخ حلب، الجزء الثاني، تحقيق: د. شوقي شعث، المهندس فالح البكور، ط١، دار القلم العربي، حلب، سوريا، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن عبد الكافي، ت ٧٧١هـ، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط١، ٦م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، ت ٩٠٢هـ، الذيل التام على دول الإسلام للذهبي، حققه وعلق عليه: حسن إسماعيل مروة، قرأه وقدم له: محمود الأرنؤوط، ط١، مكتبة العروبة، الكويت، دار ابن العماد، بيروت، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، ت ٩٠٢هـ، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق: د. بشار عواد معروف، عصام فارس الحرساني، د. أحمد الخطيمي، ط١، ٤م، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

- ابن سعيد الأندلسي، نور الدين أبو الحسن، ت ٦٨٥هـ، المغرب في حلى المغرب، الجزء الأول، عني بنشره وتحقيقه والتعليق عليه: د. زكي محمد حسن، د. شوقي ضيف، الدكتور إسماعيل كاشف، مطبعة جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٣م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، ت ٩١١هـ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ٢م، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.
- نفسه، تاريخ الخلفاء، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.
- نفسه، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ٢م، مصطفى فهمي الكتبي، القاهرة، ١٣٢١هـ - ١٩٠٣م.
- نفسه، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن، ت ٩١١هـ، ذيل طبقات الحفاظ للذهبي، وضع حواشيه: الشيخ زكريا عميرات، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- شافع بن علي، ت ٧٣٠هـ، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق ونشر: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦م.
- شافع بن علي، ناصر الدين بن علي الكافي العسقلاني المصري، ت ٧٣٠هـ، كتاب الفضل المأثور من سيرة الملك المنصور، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، ط ١، المكتبة المصرية، صيدا، لبنان، ١٩٩٨م.
- ابن الشحنة، محب الدين أبو الوليد محمد، ت ٨١٥هـ، روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر على هامش الجزء التاسع من تاريخ ابن الأثير، (الكامل في التاريخ)، مطبعة بولاق، القاهرة، ١٢٩٠هـ.
- ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم، ت ٦٨٤هـ، تاريخ الملك الظاهر، باعتناء: أحمد حطيط، يطلب من دار النشر فرانز شتاينر، بفيسبادن، طبع على مطابع مركز الطباعة الحديثة، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- شرف الدين الأنصاري، شيخ الشيوخ عبد العزيز بن محمد، ت ٦٦٢هـ، ديوان صاحب شرف الدين الأنصاري، تحقيق: عمر موسى باشا، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٣٧٨هـ - ١٩٦٧م.

- ابن الشعار، كمال الدين أبو البركات المبارك بن محمد، ت ٦٦٤هـ، قلائد الجمان في فوائد شعراء هذا الزمان المشهور بعقود الجمان في شعر هذا الزمان، الجزء الثالث، تحقيق: نوري حمودي القيسي، محمد نايف الدليمي، دار الكتب، الموصل، ١٩٩٢م.
- شمس الدين محمد بن عفيف الدين التلمساني، ت ٦٨٨هـ، ديوان الشاب الظريف، ط١، قدم له وشرحه ووضع فهارسه: د. صلاح الدين الهواري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- شهاب الدين محمود، أبو الثناء بن سليمان الحلبي الحنفي، ت ٧٢٥هـ، حسن التوسل إلى صناعة الترسل، المطبعة الوهبية، مصر، ١٢٩٨هـ.
- الشوكاني، محمد بن علي، ت ١٢٥٠هـ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ويليه الملحق التابع للبدر الطالع، جمعه سنة ١٣٤٨هـ بالقاهرة محمد بن محمد بن يحيى بن زبارة الحسني اليمني الصنعاني، وضع حواشيه: خليل المنصور، ط١، ٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، ت ٧٦٤هـ، أعيان العصر وأعيان النصر، حققه: د. علي أبو زيد، د. نبيل أبو عمشة، د. محمد موعد، د. محمود سالم محمد، قدم له: مازن عبد القادر المبارك، ط١، ١م، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- نفسه، تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، القسم الثاني، تحقيق: إحسان بنت سعيد خلوصي، وزهير حميدان الصمصام، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، ١٩٩٢م.
- نفسه، جنان الجناس في علم البديع وفي آخره مناهج التوسل في مباحج الترسل، ط١، دار المدينة، بيروت.
- نفسه - الغيث المسجم شرح لامية العجم، ط١، ٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- نفسه، فض الختام عن التورية والاستخدام، دراسة وتحقيق: الحمدي عبد العزيز الحناوي، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٩٧٩م.

- نفسه، الوافي بالوفيات، الجزء الأول إلى الجزء السابع والعشرين، محققون مختلفون.
- صفى الدين الحلبي، ت ٧٥٠هـ، الديوان، شرحه وضبط نصوصه وقدم له: د. عمر فاورق الطباع، ط١، دار الأرقم، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- الصقاعي، فضل الله بن أبي الفخر، ت ٧٢٦هـ، تالي وفيات الأعيان، تحقيق: جاكلين سوبله، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٧٤م.
- ابن طباطبا العلوي، محمد بن أحمد، عيار الشعر، ط١، شرح وتحقيق: عباس عبد الساتر، مراجعة، نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا، ت ٧٠٩هـ، الفخري في الأداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.
- ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي، ت ٩٥٣هـ، نقد الطالب لزغل المناصب، تحقيق: محمد أحمد دهمان، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٢م.
- ظهير الدين الكازروني، ت ٦٧٩هـ، مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية، عني بتحقيقها ونشرها: كوركيس عواد، ميخائيل عواد، مطبعة الإرشاد، ١٩٦٢م.
- العاصمي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك، ت ١١١١هـ، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ط١، ٤م، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي، ت ٣٢٨هـ، العقد الفريد، ط٣، ٧م، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ١٤٢٠ - ١٩٩٩م.
- عبد القاهر الجرجاني، أبو بكر عبد الرحمن بن محمد، ت ٤٧١هـ، أسرار البلاغة في علم البيان، صححه وعلق حواشيه، السيد محمد رشيد رضا، دار المطبوعات العربية.
- نفسه، دلائل الإعجاز، ط٢، تحقيق: رضوان الداية، وفايز الداية، مكتبة سعد الدين، دمشق، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

- ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الملطبي، ت ٦٨٥هـ، تاريخ مختصر الدول، وقف على تصحيحه وفهرسته الأب أنطون صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني، لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ابن العراقي، ولي الدين أبو زرعة أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين، ت ٨٢٦هـ، الذيل على العبر في خبر من عبر، ط ١، ٣، حققه وعلق عليه: صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، ت ٣٩٥هـ، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، حققه وضبط نصه: د. مفيد قميحة، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله العقيلي الهمداني المصري، ت ٧٦٩هـ، شرح ابن عقيل ومعه منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل تأليف: محمد محيي الدين عبد الحميد، ٢م، دار الخير.
- علاء الدين بن العطار، ت ٧٢٤هـ، ترجمة الإمام النووي، ضمن كتاب النووي، مختصر طبقات الفقهاء، تحقيق: عادل عبد الموجود، علي معوض، ط ١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
- ابن العماد، شهاب الدين أبو الفرج عبد الحي بن أحمد الحنبلي الدمشقي، ت ١٠٨٩هـ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط ١، ١٠م، أشرف على تحقيقه وخرّج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، حققه وعلق عليه: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٤١٢هـ.
- عمر البزاز، أبو حفص عمر بن علي البغدادي، ت ٧٤٩هـ، الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، ويليّه ذيل في أسماء أصحاب الشيخ وأعوانه ومحبيه وأعدائه والمعرضين عليه، حققه: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت.
- العمري، عصام الدين أبو النور عثمان بن علي الدفترلي، ١١٩٣هـ، الروض النضر في ترجمة أدباء العصر، تحقيق: سليم النعيمي، ٢م، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٧٤م.

- العيني، بدر الدين محمود، ت ٨٥٥هـ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، الجزء الأول إلى الجزء الرابع، حققه ووضع حواشيه، محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، ت، ٥٠٥ هـ، سكرات الموت وشدته وحياة القبور حتى النفخ في الصور، دراسة وتحقيق وتعليق: عبد اللطيف عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٨٦م.
- الغزولي، علاء الدين علي بن عبد الله البهائي، ت ٨١٥هـ، مطالع البدر ومنازل السرور، ط١، ٢م، مطبعة إدارة الوطن، القاهرة، ١٣٠٠هـ.
- الغزي، كامل بن محمد بن مصطفى البابي الحلبي، ت ١٣٥١ هـ، نهر الذهب في تاريخ حلب، ٣م، المطبعة المارونية، حلب، ١٣٤٥هـ - ١٩٢٨م.
- الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد الحسين المكي، ت ٨٣٢هـ، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق وتعليق ودراسة: محمد عبد القادر أحمد عطا، ط١، ٧م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن شاهنشاه بن أيوب، ت ٧٣٢هـ، تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر، علق عليه ووضع حواشيه: محمود ديوب، ط١، ٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٨٠٧هـ، تاريخ ابن الفرات، المجلد السابع والثامن، حققه وضبط نصه: قسطنطين زريق، المطبعة الأمريكية، بيروت، ١٩٣٦م.
- أبو فراس الحمداني، الحارث بن سعيد بن حمدان، ت ٣٧٥ هـ، ديوان أبي فراس، تحقيق: سامي الدهان، ٣م، المعهد الفرنسي بدمشق، ١٩٩٤م.
- الفرزدق، أبو فراس العمري همام بن غالب التميمي، ت ١١٠هـ، شرح ديوان الفرزدق، ٢م، ط١، عني بجمعه وطبعه والتعليق عليه: عبد الله الصاوي، مطبعة الصاوي، القاهرة، ١٣٥٤هـ - ١٩٣٦هـ.
- ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى، ٧٤٩هـ، التعريف بالمصطلح الشريف، دراسة وتحقيق: د. سمير الدروبي، ط١، جامعة مؤتة، الكرك، ١٩٩٢م.

- نفسه، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين، ط ١، دراسة وتحقيق: دوروتيا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.
- ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق البغدادي، ت ٧٢٣هـ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، المكتبة العربية، بغداد، ١٩٣٢م.
- نفسه، مجمع الآداب، حققه: د. مصطفى جواد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم.
- ابن القاضي، أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي، ت ١٠٢٥م، ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق: محمد الأحمد أبو النور، ط ١، ٣م، المكتبة العتيقة، تونس، دار التراث، القاهرة، ١٣١٩هـ - ١٩٧١م.
- ابن قاضي شهبه، تقي الدين أبو بكر بن أحمد الأسدي الدمشقي، تاريخ ابن قاضي شهبه، ت ٨٥١هـ، الجزء الثالث، حققه: عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٧٧م.
- قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، ت ٢٨٠هـ، كتاب نقد الشعر، عني بتصحيحه: س. أ. بونيباكر، طبع بمطبعة بريل ليدن.
- القرشي، محمد بن أبي الخطاب، ت ١٧٠هـ، جمهرة أشعار العرب، ط ٢، ١، حققه وعلق عليه وزاد في شرحه: د. محمد علي الهاشمي، دار القلم، دمشق، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- القرطاجني، أبو الحسن حازم، ت ٦٨٤هـ، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، ط ٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م.
- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، ت ٨٢١هـ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ط ١، ٤م، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- نفسه، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ط ١، الجزء الثامن، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه، د. يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

- نفسه، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط٣، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، ت ٧٥٢هـ، الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة والإرشاد وأقوال العلماء، ط٣، حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية.
- ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ت ٢٧٣هـ، سنن ابن ماجه، تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، ٢م، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٢م.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، ت ١٨٦هـ، التعازي والمرثي، حقق وقدم له : محمد الديباجي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، ١٩٧٦م.
- المتنبى، أبو الطيب أحمد بن الحسين، ت ٣٥٤هـ، شرح ديوان المتنبى، وضعه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.
- مجد الدين بن الظهير الإربلي، ت ٦٧٧هـ، ديوان ابن الظهير الإربلي، جمع وتحقيق ودراسة: د. ناظم رشيد، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
- محيي الدين بن عبد الظاهر، عبد الله بن عبد الظاهر، ت ٦٩٢هـ - تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ط١، حققه: مراد كامل، راجعه: محمد علي النجار، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١م.
- نفسه، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ط١، تحقيق ونشر: عبد العزيز الخويطر، الرياض، المحقق، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.
- محيي الدين القرشي الحنفي، ت ٧٧٥هـ، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، ط٢، ٣م، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- المدائني، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله، ت ٢٢٥هـ، التعازي، تحقيق : ابتسام مرهون الصفار، بدري محمد فهد، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٧١م.
- المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن، ت ٤٢١هـ، شرح ديوان الحماسة، القسم الأول، نشره: أحمد أمين، عبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٧١هـ - ١٩٥١م.



- مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي، ت ١٠٣٣هـ، الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية، ط١، تحقيق وتعليق: نجم عبد الرحمن خلف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- نفسه، الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، تحقيق وتعليق: نجد عبد الرحمن خلف، ط١، دار الفرقان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.
- مسلم بن الحجاج، أبو الحسين القشيري النيسابوري، ت ٢٦١هـ، صحيح مسلم، ط١، دار الأرقم بن أبي الرقم، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- مشرف الدين بن مصلح بن عبد الله، ت ٦٩١هـ، سعدي الشيرازي أشعاره العربية، ط١، حققها وعلق عليها: جعفر مؤيد شيرازي، قدم لها: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠م.
- نفسه، كليات شيخ مصلح الدين سعدي الشيرازي، مطبعة علوي، بومباي، ١٨٨٧م.
- المعري، أبو العلاء أحمد بن عبد الله، ت ٤٤٩هـ، ديوان سقط الزند، شرحه وضبط نصوصه وقدم له: عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت، ١٩٩٨.
- ابن معصوم، علي صدر الدين المدني، ت ١١٢٠هـ، أنوار الربيع في أنواع البديع، ط١، حقق وترجم لشعرائه: شاکر هادي شکر، مكتبة العرفان، كربلاء، العراق، ١٣٨٨هـ - ١٩٨٦م.
- المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، ت ٨٤٥هـ، إغاثة الأمة بكشف الغمة، قام على نشره: محمد مصطفى زيادة، جمال الدين الشيال، ط٢، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥٧م.
- نفسه، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق: عبد المجيد عابدين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م.
- نفسه، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة قطعة منه، حققه: د. عدنان درويش، محمد المصري، ط٢، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، ١٩٩٥م.
- المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي، ت ٨٤٥هـ:

- السلوك لمعرفة دول الملوك، ط٢، الجزء الأول، القسم الثاني، قام بنشره: محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٧٠م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، ط٢، الجزء الأول، القسم الثاني، والجزء الأول، القسم الثالث، صححه ووضع حواشيه: محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٧٠م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، ط٢، الجزء الثالث، القسم الثالث، حققه ووضع حواشيه: سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧١م.
- نفسه، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط١، ٨م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- نفسه، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرزية، وضع حواشيه: خليل المنصور، ط١، ٤م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- نفسه، المقفى الكبير، ط١، ٨م، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- المقرئ، أحمد بن محمد التلمساني، ت ١٤٠١هـ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ٨م، حققه: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ - ١٩٨٦م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم الأنصاري، ت ٧١١هـ، لسان العرب، ط٣، ١٨م، نسقه وعلق عليه ووضع فهرسه: مكتب تحقيق التراث، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- الكتبي، محمد بن شاکر، ت ٧٦٤هـ:
- عيون التواريخ، الجزء العشرون، تحقيق: فيصل السامر، ونبيلة داود، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠م.
- عيون التواريخ، الجزء الحادي والعشرون، تحقيق: فيصل السامر، ونبيلة داود، دار الشؤون الثقافية والنشر، بغداد، ١٩٨٤م.

- نفسه، وفيات الأعيان والذيل عليها، ٥م، تحقيق : إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣ م - ١٩٧٤م.
- ابن كثير، أبو الفداء الحافظ الدمشقي، ت ٧٧٤هـ، البداية والنهاية، ط ١، ٤م، تحقيق: أحمد عبد الوهاب فتيح، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- النابغة الذبياني، زياد بن معاوية بن ضباب، ت ١٨ ق. هـ، ديوان النابغة الذبياني، جمعه وشرحه وكمله وعلق عليه: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٦م.
- ابن نباتة، جمال الدين المصري الفارقي، ت ٧٦٨هـ، ديوان ابن نباتة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- النسوي، محمد بن أحمد، ت ٦٣٩هـ، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، دار الفكر، القاهرة، ١٩٥٣م.
- أبو نواس، أبو علي الحسن بن هاني، ت ١٩٨هـ، شرح ديوان أبي نواس، ٢م، ط ١، ضبط معانيه وشرحه وأكملها: إيليا حاوي، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، ١٩٨٣م.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت ٧٣٢هـ، نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الخامس، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب .
- نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الثالث والعشرون، هدارة، الجزء التاسع والعشرون، الجزء الحادي والثلاثون، الجزء الثاني والثلاثون، محققون مختلفون، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- النويري، محمد بن قاسم بن محمد الإسكندري، ت بعد ٧٧٥هـ، كتاب الإمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الأسكندرية، الجزء الثاني، تحقيق: د. إتيين كومب، د. عزيز سوريال عطية، مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
- كتاب الإمام، الجزء الثالث والرابع، تحقيق : د. عزيز سوريال عطية، مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله، ت ٣٩٥هـ، الصنائعيتين، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٢م.
- الهمداني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق المعروف بابن الفقيه، ت ٥٠٩هـ، تحقيق: يوسف الهادي، ط١، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- الهمداني، رشيد الدين فضل الله أبو الفضل بن أبي الخير، ت ٧١٦هـ، تاريخ غازان خان، ط١، ترجمة: د. فؤاد عبد المعطي الصياد، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- جامع التواريخ، المجلد الثاني، نقله إلى العربية: محمد صادق نشأت، محمد موسى هندواي، فؤاد عبد المعطي الصياد، راجعه وقدم له: يحيى الخشاب، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٠م.
- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، ت ٦٢٨هـ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، حققه ووضع حواشيه، حسني محمد ربيع، راجعه، وقدم له: سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٢م.
- ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر، ت ٧٤٩هـ، تنمة المختصر في أخبار البشر المسمى تاريخ ابن الوردي، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.
- نفسه، ديوان ابن الوردي، ط١، حققه وعلق عليه وجمع ملحقه: أحمد فوزي الهيب، دار القلم، الكويت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ابن وكيع التنيسي، أبو محمد الحسن بن علي الضبي، ت ٣٩٣هـ، المنصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبّي ومشكل شعره، حققه وقدم له: عمر خليفة بن إدريس، ط١، ط٢، جامعة قاريونس، بنغازي، ١٩٩٤م.
- اليافعي، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي اليمني المكي، ت ٧٦٨هـ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ط١، ط٤، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي، ت ٦٢٦هـ، معجم البلدان، ٤م، دار صادر، بيروت.
- اليوسفي، عماد الدين موسى بن محمد، ٧٥٩هـ، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: أحمد حطيظ، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م.
- اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد بن قطب الدين البعلبكي الحنبلي، ت ٧٢٦هـ: ذيل مرآة الزمان، ط١، المجلد الأول إلى المجلد الرابع، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند.

### المراجع الحديثة:

- إبراهيم حمادة، خيال الظل وتمثيلات ابن دانيال، المؤسسة المصرية، القاهرة، ١٩٦١م.
- د. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ط٧، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٨٥م.
- نفسه، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، ط٣، دار الشروق، عمان، ١٩٩٣م.
- أحمد إبراهيم موسى، الصبغ البديعي في اللغة العربية، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٩م.
- د. أحمد أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة.
- نفسه، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٤م.
- أحمد غسان سبانو، مملكة حماة الأيوبية، دار قتيبية، دمشق، ١٩٨٤م.
- أحمد فوزي الهيب، الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهداء، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

- بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، ط٣، دار الثقافة، بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- نفسه، السرقات الأدبية، دراسة في ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٩م.
- بروان، إدوارد جرانفيل، تاريخ الأدب العربي في إيران من الفردوسي إلى السعدي، نقله إلى العربية: إبراهيم أمين شواربي، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.
- برتولد شبولير، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ط١، نقله إلى العربية: خالد أسعد عيسى، دار حسان، دمشق، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- نفسه، المغول في التاريخ، ط١، ترجمه عن الفرنسية: يوسف شلب الشام، دار طلاس.
- جين كلور فادية، الغزل عند العرب، ترجمة إبراهيم الكيلاني، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٩م.
- حسن الأمين، جنكيز وهولاكو الغزو المغولي للبلاد الإسلامية من بغداد إلى عين جالوت، ط٢، دار المنار، بيروت، ١٩٨٣م.
- د. حسن علي قرعاوي، الحكمة في شعر المتنبي، ط١، دار عمار، عمان، الأردن، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- حسين علي محفوظ، المتنبي وسعدي، أثر الثقافة العربية في سعدي الشيرازي، مطبعة الحيدري، طهران، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م.
- خليل بنيان الحسون، أشجع السلمي حياته وشعره، دار المسيرة، بيروت، ١٩٨١م.
- رياض قريحة، الفكاهاة في الأدب الأندلسي، المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٩٨م.
- ريتشاردز أ.أ، مبادئ النقد الأدبي، ترجمة وتقديم: مصطفى بدوي، مراجعة لويس عوض، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٦٣م.
- رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، الجزء الأول، نقله إلى العربية، د. محمد سليم النعيمي، وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، ١٩٧٨م.

- تكلمة المعاجم العربية، الجزء الثاني، ترجمة د. محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، ١٩٨١م.
- رينيه غروسية، جنكيز خان قاهر العالم، نقله إلى العربية: خالد أسعد عيسى، دار حسان، دمشق، ١٩٨٢م.
- سامي الدهان، الغزل منذ نشأته حتى صدر الدولة العباسية، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤م.
- ستيفن رنسيومان، تاريخ الحروب الصليبية، ٥م، نقله إلى العربية السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، الجزء الثاني، ط٤، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٢م.
- نفسه، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة، القاهرة، ١٩٦٢م.
- السيد الباز العريني، المغول، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.
- سيسيل دي لويس، الصورة الشعرية، ترجمة: مالك ميري، حسن إبراهيم، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٢م.
- شوقي ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، دار المعارف، مصر.
- نفسه، الرثاء، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥م.
- نفسه، الشعر وطوابعه الشعبية عبر العصور، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥م.
- نفسه، الفكاكة في مصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.
- الطباخ، محمد راغب بن محمود بن هاشم الحلبي، ت ١٩٥١م، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، نقحه ووقف على طباعته: محمد كمال، ط٢، ٧م، دار القلم العربي، حلب، سوريا، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- د. عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، دار البشير، عمان، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- عبد الحميد جيدة، قصيدة الهجاء عند دعبل الخزاعي وابن الرومي، دار الشمال، طرابلس، لبنان، ١٩٨٥م.

- عبد الحميد يونس، الظاهر بيبرس في القمص الشعبي، دار القلم، القاهرة، ١٩٩١م.
- عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢م.
- عبد الفتاح عثمان، نظرية الشعر في النقد العربي القديم، مكتبة الشباب، القاهرة.
- عبد المعين الملوحي، الشعراء الذين رثوا أنفسهم قبل الموت، دار الحضارة الجديدة، بيروت، ١٩٩٢م.
- عبد الواحد حسن الشيخ، البديع والتوازي، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، الإسكندرية، ١٩٩٩م.
- عبده عبد العزيز قليلة، النقد الأدبي في العصر المملوكي، ط١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٢م.
- عزمي أبو عليان، ضد الصليبيين في عهد المماليك، ط١، دار النفائس، عمان، الأردن، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- علي الجندي، فن الجناس، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٤م.
- د. عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سوريا، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- نفسه، أمير شعراء المشرق ابن نباتة المصري، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م.
- عناد غزوان إسماعيل، المرثاة الغزلية في الشعر العربي، مطبعة الزهراء، بغداد، ١٩٧٤م.
- فايد أحمد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٧م.
- فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠م.
- فوزي محمد أمين، أدب العصر المملوكي الأول قضايا الفن والمجتمع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٣م.
- كليمان هوار، خطط بغداد، ط١، عربّه وعلق عليه: ناجي معروف، مطبعة العاني، بغداد، ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.



- مأمون فريز جرار، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي من القرن السابع إلى القرن التاسع الهجري، ط١، مكتبة الأقصى، عمان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ماهر هلال، جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠م.
- مجد باكير البرازي، النقد العربي القديم، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- د. محمد إبراهيم حور، رثاء الأبناء في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي، مكتبة المكتبة، أبو ظبي، ١٩٨١م.
- نفسه، صفي الدين الحلبي حياته وأثاره وشعره، ط٢، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- د. محمد التونجي، بلاد الشام إبان الغزو المغولي، ط١، دار الفكر العربي، بيروت، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- نفسه، التيارات الأدبية إبان الزحف المغولي، ط١، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٧م.
- محمد رضا الشبيبي، مؤرخ العراق ابن الفوطي، بحث في أدوار التاريخ العراقي من مستهل العصر العباسي إلى أواخر العصر المغولي، ط٢، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م.
- د. محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي في الدولة الأولى، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر.
- د. محمد عبد المطلب، اتجاهات النقد خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، ط١، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- محمد كامل الفقي، الأدب في العصر المملوكي، ط٣، دار الموفق، مصر، ١٢٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- محمد كرد علي، خطط الشام، ط٣، ٦م، مكتبة النوري، دمشق، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- محمد مصطفى هدارة، اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ١٩٨١م.

- محمود رزق سليم، صفى الدين الحلبي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠م، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي، المجلد الثالث والرابع، مكتبة الآداب، الجماميز، مصر.
  - د. محمود سالم محمد، أدب الصناعات وأرباب الحرف حتى القرن العاشر الهجري، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
  - مخيمر صالح يحيى، رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن.
  - مصطفى عبد الشافي الشورى، شعر الرثاء في العصر الجاهلي دراسة فنية، الدار الجامعية، بيروت، ١٩٨٣م.
  - مقبول علي بشير النعمة، المراثي الشعرية في عصر صدر الإسلام، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٧م.
  - ممدوح حقي، عشر قمم في التاريخ العربي، ط٤، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٧٥.
  - نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، ط٣، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٧م.
  - نصرت عبد الرحمن، شعر الصراع مع الروم في ضوء التاريخ "العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع"، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٧٧م.
  - هادي السيد حمد كمال الدين، فقهاء الفيحاء أو تطور الحركة الفكرية في الحلة، وزارة المعارف، بغداد، ١٩٧٢م.
  - هارولد لام، جنكيز خان وجحافل المغول، ترجمة: متري أمين، مراجعة وتقديم: زكي نجيب محفوظ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٢م.
  - ياسين الأيوبي، آفاق الشعر في العصر المملوكي، ط١، جروس برس، طرابلس، لبنان، ١٩٩٥م - ١٤١٥هـ.
  - د. يوسف حسين بكار، بناء القصيدة العربية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٧٩هـ - ١٩٧٩م.
  - يوسف نوفل، الصورة الشعرية واستيحاء الألوان، دراسة تحليلية إحصائية لشعر البارودي ونزار قباني وصلاح عبد الصبور، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٥م.
- الرسائل الجامعية:

- أحمد موسى يعقوب، شعر رثاء الإخوة من الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي، دراسة نصية موازية، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، ١٩٩٦م.
- أمّنة سليمان محمد البدوي، شعر النازحين من الأندلس إلى مصر والشام في القرن السابع الهجري بين التأثير والتأثير، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ١٩٩٦م.
- حسين جمعة، الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، ١٩٨٢م.
- حسين خريوش، ابن بسام وكتابه الذخيرة، رسالة دكتوراه، جامعة الإسكندرية، مصر، ١٩٧٧م.
- خضراء رشود الجعافرة، الحركة الأدبية في عهد الملك المؤيد صاحب حماة وابنة الأفضّل ٧١٠هـ - ٧٤٢هـ، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الكرك، الأردن، ١٩٩٥م.
- خلود يحيى أبو جرادة، المرأة في أدب الدولة المملوكية الأولى في مصر (٦٤٨هـ - ٧٨٤هـ) ، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ١٩٩٢م.
- رائد مصطفى عبد الرحيم، صورة المغول في الشعر العربي - العصر المملوكي، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٧م.
- روضة محمد، اتجاهات الرثاء في القرن الثالث الهجري من خلال أعلامه أبي تمام - ديك الجن - دعبل الخزاعي - البحري ، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، ١٩٨٣م.
- عامر نجيب موسى ناصر، الحياة الزراعية في مصر زمن الدولة المملوكية الثانية (٧٨٤-٩٢٣م / ١٣٨٢ - ١٥١٧م)، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٨م.
- عبد القادر شريف عبد الله أبو شريفة، صورة الصليبيين في الأدب العربي، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ١٩٧٧ - ١٩٧٨م.

- محمود سالم محمد، المدائح النبوية في العصر المملوكي، رسالة دكتوراه، جامعة دمشق، ١٩٨٧م.
- مظفر عبد الستار غانم، الرثاء في شعر العصر العباسي الأول، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، العراق، ١٩٨٤م.
- هنريت زاهي سابا الصايغ، اتجاهات الشعر العربي في القرن السابع الهجري في بلاد الشام، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، ١٩٨٠م.

#### دوائر المعارف:

- بارتولد - "تتر" ، دائرة المعارف الإسلامية.

#### كتاب لمجموعة من المؤلفين:

- إبراهيم أنيس، أحمد حسن الزيات ، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، المعجم الوسيط، ط٢، ٢م، دار الدعوة، استنبول، تركيا، ١٩٨٩م.
- د. عادل إسماعيل، محمد هلال، العلاقات بين المغول وأوروبا وأثره على العالم الإسلامي، ط١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، مصر، ١٩٩٧م.
- د. فائق مصطفى، د. عبد الرضا علي، في النقد الأدبي الحديث منطلقات وتطبيقات، ط١، دار الكتب، جامعة الموصل، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
- قاسم المومني، فخري كتاني، شعراء عاشوا في قلعة عجلون في القرنين السابع والثامن الهجريين، ط١، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والآثار، دائرة الفنون والثقافة، عمان، الأردن، ١٩٨٥م.

#### الدوريات العربية

- أحمد الإسكندري، صفي الدين الحلبي، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، الجزء الثالث والرابع، المجلد الثاني عشر، ١٩٣٢م، ص ٢٤٣ - ٢٩٨.

- د. أحمد فوزي الهيب، الجانب البديعي في شعر ابن الوردي، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، الجزء الأول، المجلد الثاني والسبعون، ١٤١٧هـ — ١٩٩٧م، ص ٣-٦٨.
- د. الأخضر عيكوس، مفهوم الصورة الشعرية قديماً، الآداب، جامعة قسنطينة، الجزائر، العدد الرابع، سنة ١٤١٨هـ — ١٩٩٧م، ص ٦٨-٩٧.
- حسين محفوظ، سعدي الشيرازي خريج بغداد في العصر العباسي الأخير، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، ع ٦، مطبعة العائلي، بغداد، ١٩٦٣م، ص ١٥٥-١٧٨.
- طه محسن عبد الرحمن، ملامح من رثاء الحيوان في الشعر العباسي، آداب الرافدين، ع ٧، جامعة الموصل، ١٩٧٦م، ص ٤٥٥-٤٧٦.
- د. عبد الجليل عبد المهدي، المرأة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع ٣٨، سنة ١٩٩٠م، ص ٣٥-٧٥.
- د. عبد العزيز الشحادة، رثاء الإخوة في الشعر الجاهلي، البصائر، ع ٢، مجلة علمية تصدر عن جامعة البنات الأردنية الأهلية، ١٤١٩هـ — ١٩٩٨م، ص ٣٩-٦٩.
- عبد الوهاب عزام بك، الشيخ سعدي الشيرازي شعره العربي، مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، م ١، ع ٨، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٤٦م، ص ١-١٢.
- ناظم رشيد، من آثار الغزو التتري في الأدب خلال القرنين السابع والثامن الهجري، آداب الرافدين، ع ١٢، جامعة الموصل، ١٩٨٠م، ص ١٤٠٠هـ، ص ١٧١-٢٠٧.
- د. نعمان محمود جبران، د. محمد حسن عبد الكريم العمادي، محاولات المغول "إيلخانية فارس" للتحالف مع القوى الأوروبية لاقتسام بلاد الشام، حواية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، ع ٢٠، جامعة قطر، ١٤١٨هـ — ١٩٩٧م، ص ٢٣٧-٢٧٣.

- د. نوري حمودي القيسي، تقويم جديد لدور الأدب العربي في العصور المتأخرة،  
مجلة كلية الآداب، ع ٢٢، جامعة بغداد، ١٩٧٨، ص ١١ - ٧١.

### الدوريات الأجنبية

-De Somogy Joseph - Aqasida on the destruction of Baghdad by the  
Mongols, Bulletin of the school of oriental studies, Vol. V ١١: ٤١- ٤٨,  
١٩٣٣-١٩٣٥.

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)

[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)



رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس  
www.moswarat.com

فن الرثاء في

# الشعر العربي في العصر المملوكي

د. خالد الرازي

للطباعة والنشر والتوزيع

العبدلي - تلفاكس ٤٦٤٦١٠٦

Bourji

www.bourji.com